موسوعة السير 2

السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث
دروس وعبر

الجزء الثاني

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير


السيرة النبوية
عرض وقائع وتحليل أحداث
دروس وعبر
الجزء الثاني



الموضوع: سيرة - تراجم
العنوان: موسوعة السير 1\10
التأليف: الدكتور علي محمد محمد الصلابي

الطبعة الثانية

1430 هـ - 2009 م

الورق: كريم
ألوان الطباعة: لونان
عدد الصفحات: 5558
القياس: 17×24
التجليد: كرتونيه
الوزن: 10 كغ



للطباعة و النشر و التوزيع

التنفيذ الطباعي:
مطبعة 53dots - بيروت
التجليد:
مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق - سوريا - ص.ب: 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب: 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس: 01 817857 - جوال: 03 204459
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com

ISBN: 978-9953-520-38-4



المبحث الخامس
الخلاف في الأنفال والأسرى

أولاً: الخلاف في الأنفال:

عن عبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النَّبيِّ ﷺ، فشهدت معه بدراً، فالتقى النَّاس، فهزم الله ـ تبارك وتعالى ـ العدوَّ، فانطَلَقَتْ طائفةٌ في آثارهم يَهْزِمون ويقتلون، وأكبَّت طائفةٌ على العسكر يَحْوُونه، ويجمعونه، وأحدقت طائفةٌ برسول الله ﷺ؛ لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةً؛ حتَّى إذا كان اللَّيل، وفَاءَ[1] النَّاسُ بعضُهم إلى بعضٍ.

قال الَّذين جمعوا الغنائم: نحن حَوَيْنَاها، وجمعناها؛ فليس لأحدٍ فيها نصيبٌ، وقال الَّذين خرجوا في طلب العدوِّ: لستم بأحقَّ بها منَّا؛ نحن نَفَيْنا عنها العدوَّ، وهزمناهم، وقال الَّذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحقَّ بها مِنَّا؛ نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخِفنا أن يصيب العدوُّ منه غرَّةً، واشتغلنا به؛ فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]؛ فقسمها رسول الله ﷺ على فُوَاقٍ بين المسلمين [أحمد (٥/ ٣٢٤)].

وفي روايةٍ: قال عبادة بن الصَّامت عن الأنفال حين سُئِلَ عن سورة الأنفال: فينا معشر أصحاب بدرٍ نزلت حين اختلفنا في النَّفل[2]، وساءت فيه أخلاقُنا، فانتزعه الله ـ تبارك وتعالى ـ من أيدينا، فجعله إلى رسول الله ﷺ، فقسمه رسول الله ﷺ فينا عن بواءٍ. يقول: على السَّواء. [أحمد (٥/ ٣٢٢)].

لقد خلَّد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذكرى غزوة بدرٍ في سورة الأنفال، وجاءت مفصلةً عن أحداثها وأسبابها، ونتائجها، وتعرَّضت الآيات الكريمة لعلاج النَّفس البشريَّة، وتربيتها على معاني الإيمان العميق، والتَّكوين الدَّقيق، فبدأت السُّورة بتبيان حكم أثرٍ من آثار القتال، وهو

---

(١) فَاءَ فَيْئاً: رَجَعَ.
(٢) النَّفَل: الغنيمة، والجمع: أنفال.

الغنائـم ، فبيَّنت : أنَّ هـذه الغنائـم لله ، والرَّسول فالله هو مالـك كلِّ شيءٍ ، ورسوله ﷺ هو خليفتهُ ، ثمَّ أمر الله المؤمنين ثلاثة أوامر :

بالتَّقوى ، وإصلاح ذات البين ، والطَّاعة لله والرَّسول ﷺ ، وهي أوامر مهمَّة جداً في موضوع الجهاد ؛ فالجهاد إذا لم ينشأ عن تقوى فليس جهاداً ، والجهاد يحتاج إلى وحدة صفٍّ ، ومن ثَمَّ فلابدَّ من إصلاح ذات البين ، والانضباط هو الأساس في الجهاد ؛ إذ لا جهاد بلا انضباط ، ثمَّ بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : أنَّ الطَّاعة لله ولرسوله ﷺ علامةُ الإيمان .

وحدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات المؤمنين الحقيقيين ، وهذا الوصف ، والتَّحديد مهمَّان في موضوع الجهاد الإسلاميِّ ؛ لأنَّ الإيمان الحقيقي هو الَّذي يقوم به الجهاد الإسلاميُّ . لقد حدَّد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صفات المؤمنين ؛ بأنَّهم إذا ذكر الله ؛ فزعت قلوبهم ، وخافت ، وفرقت ، وإذا قرئ عليهم القرآن ازداد إيمانهم ، ونما .

والصِّفة الثَّالثة هي : التوكُّل على الله ، فلا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إيَّاه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون : أنَّ (ما شاء الله ؛ كان ، وما لم يشأ ؛ لم يكن) ، وأنَّه المتصرِّف في الخلق وحده لا شريك له ، ولا معقِّب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

والصِّفة الرَّابعة : إقامة الصَّلاة ، والمحافظة على مواقيتها ، ووضوئها ، وركوعها ، وسجودها ، ومن ذلك إسباغ الطَّهور فيها ، وتمام ركوعها ، وسجودها ، وتلاوة القرآن فيها ، والتشهُّد ، والصَّلاة على النَّبيِّ ﷺ .

والصفة الخامسة : الإنفاق ممَّا رزقهم الله ، وذلك يشمل إخراج الزَّكاة ، وسائر الحقوق للعباد من واجبٍ ، ومستحبٍّ ، والخلق كلُّهم عباد الله ؛ فأحبُّهم إليه أنفعهم لخلقه ، ثمَّ بيَّن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنَّ المتَّصفين بهذه الصِّفات هم المؤمنون حقَّ الإيمان ، وأنَّ لهم عند الله منازلَ ، ومقامات ، ودرجات في الجنَّات ، وأنَّ الله يغفر لهم السَّيِّئات ، ويشكر الحسنات ، وبهذا تنتهي مقدِّمة السُّورة بعد أن رفعت الهمم لكلِّ لوازم الجهاد ، ونَفَتْ كلَّ عوامل الخذلان ؛ من اختلافٍ على غنائم ، أو خلافٍ بسبب شيءٍ ، داعيةً إلى الطَّاعة ، والارتفاع إلى منازل الإيمان الكامل[1] .

قال تعالى : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُولَٰٓئِكَ هُمُ

(١) انظر : الأساس في التَّفسير (٤/ ٢١١٣ ـ ٢١١٤) .

ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ١ ـ ٤].

يقول الأستاذ محمَّد أمين المصري: لم تذكر الآيات شيئاً من أعمال المؤمنين في بدرٍ، ولكن ذكرت عتاباً أليماً موجعاً، يَحْمِلُ المؤمنين على الرُّجوع إلى أنفسهم، والاستحياء من ربِّهم، وهناك نقاطٌ أرسلت الآيات النُّقاط عليها، وبيَّنت نواحي الضَّعف فيه بياناً جليّاً قويّاً بتصوير ما في النفوس وصفاً دقيقاً رائعاً، تشاهد العين فيه الحركات والخلجات.

وكلُّ ذلك من شأنه أن ينبه ضمير المؤمن؛ ليلمس المسافة بينه وبين درجات الإيمان؛ الَّتي يهفو قلبُه للوصول إليها، ولقد كانت الآيات من تربية الحكيم العليم، ويشعر الذَّوق السَّليم هاهنا روعة الأسلوب في عرض العتاب بغير عتاب؛ ولكنَّه تصوير مافي النُّفوس تصويراً يوقن معه العادي من النَّاس: أنَّه ما كان لمؤمنٍ صحيح الإيمان أن يتَّصف بها، ولذلك اقترنت الآيات بتقديم خصائص الإيمان العالية، وميِّزاته الرَّفيعة، الَّتي تصوِّر الفجوة البعيدة بين المؤمن وبين أيِّ إسفاف: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

ما ذكرت الآيات عتاباً، ولكنَّها ذكرت واقعاً، وكان ذكر الواقع أبلغ من كلِّ عتاب، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ وفحوى الخطاب: ما كان لهم أن يسألوا هذا السُّؤال، وقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقة خروجهم من المدينة، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ﴾ وهذا وصفٌ بالغ الغاية في تصوير الجزع، والرُّعب، صورة أناسٍ يساقون إلى الموت سوقاً لا مفرَّ منه، وهم يَرَوْن الموت بأمِّ أعينهم؛ وقال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ وهذا تصويرٌ لضعفٍ في النُّفوس.... إلى أن يقول: دفعت الآيات الكريمة عن المؤمنين أيَّ شعور بالاستعلاء، وصرفت عن أنفسهم كلَّ معنىً من معاني الغرور، وبسطت أمامهم نفوسهم، أو نفوس فريقٍ منهم، وما بينها وبين الإيمان الصَّحيح من درجاتٍ، وإذا جاء ذكر الثَّناء مصوَّراً بصورة المنِّ والفضل بما أنعم الله ليس ثناءً مستقلاً، الثناء عليهم: أنَّ الله منَّ عليهم، فاستجاب دعاءهم، ونزَّل عليهم الماء، ليطهِّرهم، وأنزل الملائكة؛ لتثبيتهم، وجمع بينهم وبين عدوِّهم لأمرٍ كبير دبَّره الله، وقدَّره[1].

بدأت السُّورة بموضوع الأنفال، واختلافهم في قسمتها، وسؤالهم عنها، فساقت في ذلك أربع آياتٍ عالجت بها نفوس المؤمنين، وطهَّرتها من الاختلاف الَّذي ينشأ عن حبِّ المال، والتَّطلُّع إلى المادة[2].

---

(١) من هدي سورة الأنفال، د. محمد المصري، ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٧.

ولأهمِّيَّة هذا الموضوع في حياة المؤمنين بدأت به السُّورة ـ وإنْ كان اختلافهم في قسمة الأنفال متأخِّراً في الوجود عن اختلافهم في الخروج إلى بدرٍ ، وقتال الأعداء ـ ومن سنَّة الله في كتابه : أنَّه في ذكر القصص والواقع لا يعرض لها مُرَتَّبةً حسب وقوعها[(١)] .

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ : وأوّل الطَّاعة هنا طاعته في حكمه الَّذي قضاه في الأنفال ، فقد خرجت من أن تكون لأحدٍ من الغزاة على الإطلاق ، وارتدَّت ملكيتها ابتداءً لله ، والرَّسول ﷺ ، فانتهى حقُّ التَّصرُّف فيها إلى الله ورسوله ﷺ ، فما على الذين آمنوا إلا أن يستسلموا فيها لحكم الله ، وقَسْم رسول الله ﷺ طيبةً قلوبُهم ، راضيةً نفوسُهم ، وإلا أن يصلحوا علائقهم ، ومشاعرهم ، ويصفُّوا قلوبهم بعضهم لبعضٍ[(٢)] .

وهذا العرض الرَّبَّانيُّ يؤكِّد حقيقةً أكبر من النَّصر على المشركين ، يؤكِّد : أنَّ صلاح ذات البين ، والانتصار الحقيقيَّ على مسارب النُّفوس ، ومشارب القلوب هو الأكبر في ميزان الله ، وهو الأعظم في ميزان الله ، ولا جدوى من نصرٍ يعقبه صراعٌ في الصَّفِّ واختلافٌ في القلوب .

وتبيِّن الآيات : أنَّ قضيَّة التَّقوى ، والإيمان ، تدخل في شؤون حياة المسلم كافَّةً ، وبها ينبع تحرُّكه في الحياة ، وجهاده لإعلاء كلمة الله تعالى[(٣)] .

لقد استجاب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم لهذا التَّوجيه الرَّبانيِّ ، ونزلت الآيات تبيِّن لرسول الله ﷺ كيف يتصرَّف في الأنفال .

بعد أن أصبحت الغنائم لله ولرسوله ﷺ بيَّن المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ كيف توزَّع هذه الغنائم .

قال تعالى : ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال : ٤١] .

وهذا بعدما طَهُرَتْ قلوبهم من الأخلاط ، وأخلصت إلى علاَّم الغيوب في الطَّاعة ، وتمثَّلت الآيات ، فتحقَّقت بمعنى العبودية الخالصة لله ، وهذا الحكم صريحٌ في أنَّ أربعة أخماس ما غنموه مقسومٌ بينهم ، والخمس لله ، ولرسوله ﷺ ، وهذا الخمس نفسه مردودٌ فيهم أيضاً ، وموزَّع على الجهات المذكورة ـ كما ثبت بالسُّنَّة ـ .

إنَّ التَّوجيه التَّربويَّ في إرجاء إنزال جواب السُّؤال عن الغنائم ، يشير إلى أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة ينبغي أن يهيَّأ لها الجوُّ النَّفسيُّ الرُّوحيُّ المناسب؛ لتحتلَّ مكانها اللائق في العقل ،

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٧ ـ ٦٨ .
(٢) في ظلال القرآن الكريم (٣/ ١٤٧٣ ـ ١٤٧٤) .
(٣) المنهج التَّربويُّ للسِّيرة النَّبوية ـ التَّربية الجهادية ، للغضبان (١/ ٥٢) .

والضَّمير ، فتثبت ، وتتمكَّن ، وتؤتي أطيب النتائج ؛ إذ يتجلَّى فيها أكمل الحلول ، وهكذا صرف المولى ـ جلَّ شأنُه ـ عباده المسلمين عن التعلُّق بالغير أوّلاً ، وبالغنائم ثانياً ؛ ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره ، وإتمام نعمته ، فلمَّا تفرَّغوا للخالق ، وأخلصوا في الجهاد ؛ أكرمهم بالنَّصر من لدنه ، وأسبغ عليهم من فضله بأكثر ممَّا كانوا يودُّون[١] ، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ يوم بدر في ثلاثمئة وخمسة عشر رجلاً من أصحابه ، فلما انتهى إليها قال : «اللهم إنهم جياع فأشبعهم ، اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، اللهم إنهم عراة فاكْسُهُم» ففتح الله له يوم بدر ، فانقلبوا حين انقلبوا ، وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين ، واكتَسَوْا وشبعوا . [أبو داود (٢٧٤٧) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٧) ، والحاكم (٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣ ، ١٤٥)].

ومن عدل النَّبيِّ ﷺ في تقسيم الغنائم ، إعطاؤه من هذه الغنيمة مَنْ تخلَّف بأمر رسول الله ﷺ لمهام أَوْكَلَها إليهم ، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة ، وبأجرهم ، فكانوا كمن حضرها[٢] ، فكان ﷺ يراعي ظروف الجنود ؛ الَّتي تمنعهم من المشاركة في القتال ؛ لأنَّ الله تعالى لم يكلِّف عباده شيئاً فوق طاقتهم ، قال تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦].

ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يكلِّف المسلمين فوق طاقتهم ، سواءٌ أكان ذلك في السِّلم ، أم الحرب ، وفي غزوة بدرٍ أعفى النَّبيُّ ﷺ بعض الصَّحابة ؛ لأن ظروفهم الأسرية تتطلَّب منهم القيام عليها ، ورعايتها ، فقد أعفى عثمان بن عفَّان رضي الله عنه من الخروج يوم بدرٍ ؛ لأنَّ زوجته رقيَّة كانت مريضةً ، وبحاجةٍ إلى من يرعى شؤونها ، روى البخاريُّ في صحيحه : أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيُّب عثمان رضي الله عنه في غزوة بدر ، فقال رضي الله عنه : وأمَّا تَغَيُّبُهُ عن بدرٍ ، فإنَّه كانت تحته بنتُ رسولِ الله ﷺ ، وكانت مريضةً ، فقال له رسول الله ﷺ : «إنَّ لك أجرَ رجلٍ ممَّن شهد بدراً ، وسَهْمَهُ» [البخاري (٣٦٩٩)].

وأمر ﷺ أبا أمامة بالبقاء عند أمِّه ؛ حيث كانت مريضةً ، وهي بحاجة إليه ، فعن أبي أمامة بن ثعلبة رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ أخبرهم بالخروج إلى بدرٍ ، وأجمع الخروج معه ، فقال له خاله أبو بردة بن نيَّار : أَقِمْ على أمِّك يابن أختي! فقال له أبو أمامة : بل أنت فأقم على أختك. فذكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ ، فأمر أبا أمامة بالمقام على أمِّه ، وخرج بأبي بردة ، فقدم النَّبيُّ ﷺ وقد توفِّيت فصلَّى عليها . [الطبراني في الكبير (٧٩٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٣١ ـ ٣٢)].

إنَّ هذه الأخلاق الرَّفيعة ، ومراعاة شعور الجنود ، وأحوالهم العائليَّة تولِّد قوَّة ترابطٍ بين القيادة والجنود ، وتدخل تحت مفهوم فقه التَّمكين ، وقد مارسه الرَّسول ﷺ في أعلى صوره .

---

(١) انظر : صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٢) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٢١٠ .

ومن الصَّحابة الَّذين كانت لهم مهمَّاتٌ خاصَّةٌ ، أو أُصيبوا أثناء الطَّريق ، فردَّهم الرَّسول ﷺ :

١ - أبو لبابة : استخلفه ﷺ على المدينة .

٢ - عاصم بن عديٍّ : أرسله ﷺ في مهمَّة لأهل العالية في المدينة .

٣ - الحارث بن حاطب : أرسله ﷺ في مهمَّةٍ إلى بني عمرو بن عوف .

٤ - الحارث بن الصِّمَّة : وقع أثناء الطَّريق فكسر ، فرُدَّ .

٥ - خوَّات بن جُبير : أصابه في الطَّريق حجرٌ في ساقه ، فردَّه من الصفراء[١] .

وكذلك أعطى لورثة الشُّهداء، وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السَّبق في تكريم الشُّهداء ، ورعاية أبنائهم ، وأسرهم من قرابة أربعة عشر قرناً[٢] .

ثانياً: الأسرى:

قال ابن عباس رضي الله عنه : فلمَّا أسروا الأُسارى ، قال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ ، وعمر رضي الله عنهما : «ما ترون في هؤلاء الأُسارى؟» فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا نبيَّ الله! هم بنو العمِّ ، والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فديةً ، فتكون لنا قوَّةً على الكفَّار ، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «ما ترى يابن الخطاب؟» قال: لا والله يا رسول الله! ما أرى الَّذي يراه أبو بكر ، ولكنِّي أرى أن تُمَكِّنَّا منهم ، فنضرب أعناقهم ، فتمكِّن عليّاً من عَقِيلٍ ، فيضرب عنقه ، وتمكنِّي من فلانٍ (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه؛ فإنَّ هؤلاء أئمَّة الكفر ، وصناديدها ، فهوي رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يَهْوَ ما قلتُ ، فلمَّا كان من الغد جئت؛ فإذا رسولُ الله ﷺ ، وأبو بكر قاعدان يبكيان ، قلت: يا رسول الله! أخبرني من أيِّ شيءٍ تبكي أنت وصاحبُك ، فإن وجدت بكاءً؛ بكيت ، وإن لم أجد بكاء؛ تباكيت لبكائكما؟ فقال رسول الله ﷺ : «أبكي لِلَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك من أخذهم الفداء ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهم أدنى من هذه الشَّجرةِ» - شجرةٍ قريبةٍ من نبيِّ الله ﷺ -.

وأنزل الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ فأحلَّ الله الغنيمة لهم. [أحمد (١/ ٣٠ - ٣١) ، ومسلم (١٧٦٣) ، وأبو داود (٢٦٩٠) ، والترمذي (٣٠٨١)].

وفي رواية عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم بدرٍ؛ قال رسول الله ﷺ :

---

(١) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٥ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٧٦) .

«ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟» فقال أبو بكر: يا رسول الله! قومُك، وأهلُك، اسْتَبْقِهِم، واسْتَأْنِ بهم، لعلَّ الله أن يتوب عليهم، وقال عمر: يا رسول الله! أخرجوك، وكذَّبوك؛ فاضرب أعناقهم، وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله! انظر وادياً كثير الحطب، فأدخلهم فيه، ثمَّ أضرم عليهم ناراً، فقال العبَّاس: قطعت رحمك! فدخل رسول الله ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً، فقال ناسٌ: يأخذ بقول أبي بكرٍ، وقال ناسٌ: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «إنَّ الله ليُلَيِّن قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون ألين من اللَّبن، وإنَّ الله لَيَشُدُّ قلوب رجالٍ فيه؛ حتَّى تكون أشدَّ من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر! كمثل إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، ومثلك يا أبا بكر! كمثل عيسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وإنَّ مثلك يا عمر كمثل نوحٍ؛ إذ قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وإنَّ مثلك يا عمر! كمثل موسى عليه السلام؛ إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

ثمَّ قال ﷺ: «أنتم عالة، فلا يَنْفَلِتَنَّ منهم أحد إلا بفداءٍ، أو ضربة عنقٍ».

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: فقلت: يا رسول الله! إلا سُهيل بن بيضاء؛ فإنِّي قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتُني في يومٍ أخوف أن تقع عليَّ حجارةٌ من السَّماء في ذلك اليوم؛ حتَّى قال: «إلا سهيل بن بيضاء» فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلى آخر الآية. [أحمد (١/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤)، وأبو يعلى (٥١٨٧)، والترمذي (١٧١٤ و٣٠٨٥)، والحاكم (٣/ ٢١ ـ ٢٢)].

وهذه الآية تضع قاعدةً هامَّةً في بناء الدَّولة حينما تكون في مرحلة التَّكوين، والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهرَ بمظهر اللِّين؛ حتَّى تُرْهَب من قِبَل أعدائها، وفي سبيل هذه الكلِّيَّة يُطرح الاهتمام بالجزئيَّات ـ حتَّى ولو كانت الحاجة ملحةً إليها ـ[1].

وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه لمَّا شرع الصَّحابة في أسر المشركين كره ذلك، ورأى رسولُ الله ﷺ الكراهية في وجه سعدٍ لما يصنع النَّاس؛ فقال له رسول الله ﷺ: «والله! لكأنَّك يا سعدُ! تكره ما يصنعُ القوم!» قال: أجل والله! يا رسول الله! كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشِّرك، فكان الإثخان بالقتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرَّجل. [ابن هشام (٢/ ٢٨٠ ـ ٢٨١)][2].

---

(١) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٠٩.

(٢) انظر: التَّربية الجهاديَّة، للغضبان (١/ ١٤١).

* كانت معاملة النَّبيِّ ﷺ للأسرى تحفُّها الرَّحمة ، والعدل ، والحزم ، والأهداف الدَّعوية ؛ ولذلك تعدَّدت أساليبه ، وتنوَّعت طرق تعامله ﷺ ، فهناك من قتله ، وبعضهم قبل فيهم الفداء ، والبعض الآخر منَّ عليهم ، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنِّ عليهم .

أ ـ حفظ رسول الله ﷺ لِجوار المُطْعِم بن عديٍّ :

قال رسول الله ﷺ في أُسارى بدر : «لو كان مُطْعِمُ بن عديٍّ حيّاً ، ثمَّ كلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى ؛ لأطلقتُهم له» [البخاري (٤٠٢٤) ، وأبو داود (٢٦٨٩)] .

وهذا الحديث تعبيرٌ عن الوفاء ، والاعتراف بالجميل ، فقد كان للمُطعم مواقفُ تُذكَر بخيرٍ ، فهو الَّذي دخل الرَّسول ﷺ في جواره حينما عاد من الطَّائف ، كما كان من أشدِّ القائمين على نقض الصَّحيفة يوم حُصِر المسلمون ، وبنو هاشم[(١)] .

وهذا يدلُّ على قمَّة الوفاء لمواقف الرِّجال ـ ولو كانوا مشركين ـ[(٢)] .

ب ـ مقتل عُقبة بن أبي مُعَيْطٍ والنَّضر بن الحارث :

وإذا كان هذا الوفاء لرجلٍ مثل المطعم بن عديٍّ ، فلابدَّ من الحزم مع مجرمي الحرب ، ورؤوس الفتنة ؛ من أمثال : عُقبة بن أبي مُعَيْط ، والنَّضر بن الحارث ، فقد كانا من أكبر دُعاة الحرب ضدَّ الإسلام ، والمتربِّصين بالمسلمين الدَّوائر ، فبقاؤهما يُعَدُّ مصدرَ خطرٍ كبيرٍ على الإسلام ، ولاسيَّما في تلك الظُّروف الحاسمة ، الَّتي تمرُّ بها الدَّعوة الإسلاميَّة ، فلو أُطلِق سراحُهُمَا ؛ لما تورَّعا عن سلوك أيِّ طريقٍ فيه كيدٌ للإسلام ، وأهله ، فَقَتْلُهُمَا في هذا الظَّرف ضرورةٌ تقتضيها المصلحة العامَّة لدعوة الإسلام الفتيَّة[(٣)] ؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ بِقَتْلِهما عندما وصل إلى الصَّفراء[(٤)] أثناء رجوعه للمدينة ، فلمَّا سمع عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ بأمر قَتْلِهِ ، قال : يا ويلي! علام أُقْتل يا معشر قريش من بين ما هاهنا؟! فقال رسول الله ﷺ : «لعداوتك لله ولرسوله» قال : يا محمد! مَنُّك أفضل ، فاجعلني كرجلٍ من قومي ، إنْ قتلتَهُم ؛ قَتَلْتَني ، وإن مَنَنْتَ عليهم ؛ مَنَنْتَ عَلَيَّ ، وإن أخذتَ منهم الفداء كنتُ كأحدِهم ، يا محمد! من للصبيَةِ؟ قال

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٢٠٨ .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٥٤) .
(٣) انظر : غزوة بدر الكبرى ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٦٢ .
(٤) الصَّفراء : وادٍ كثير النَّخل ، والزَّرع ، والخير .

رسول الله ﷺ : «النَّارُ ، قدِّمْه يا عاصم! فاضربْ عُنُقَه» [الحاكم (٢/ ١٢٤)، ومجمع الزوائد (٦/ ٨٩)]؛ فقدَّمه عاصمٌ ، فضرَبَ عُنُقَهُ[١] .

وأمَّا النَّضر بن الحارث ، فقد كان من شياطين قريشٍ ، وممَّن يؤذي رسول الله ﷺ ، وينصِبُ له العداوة ، وكان قد قدِم الحيرة ، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً ، فذكَّر فيه بالله ، وحذَّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم مِنْ نِقْمَةِ الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام ، ثمَّ قال: أنا والله يا معشر قريش! أحسنُ حديثاً منه ، فهلُمُّوا إليَّ ، فأنا أحدِّثكم أحسن مِنْ حديثه ، ثمَّ يحدِّثُهم عن ملوك فارس ، ورستم واسفنديار ، ثمَّ يقول: بماذا محمَّد أحسنُ حديثاً منِّي؟![٢] .

إنَّ هذا الرَّجل المتعالي على الله ، والمتألِّي عليه ، والَّذي يزعم: أنَّه سينزل أحسن ممَّا أنزل الله ، والَّذي يزعم: أنَّه أحسنُ حديثاً من محمَّد ، لابدَّ لمثل مَنْ يمثِّل هذا التَّيار ـ وقد أصبح بين يدي رسول رب العالمين ـ لابدَّ أن يُثأَرَ لله ، ولرسوله ﷺ منه ، ومن أجل هذا لم يُدْخِلْهُ رسول الله ﷺ ضمن نطاق الاستشارة[٣] ، وأمر رسول الله ﷺ بقتله ، فقتله عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه[٤] .

وبمقتل هَذَيْنِ المُجرِمَيْن تعلَّم المسلمون: أنَّ بعض الطُّغاة العُتاة المُعادين لا مجال للتَّساهل معهم ، فهم زعماءُ الشَّرِّ ، وقادة الضَّلال ، فلا هوادة[٥] معهم؛ لأنَّهم تجاوزوا حدَّ العفو، والصَّفح[٦] بأعمالهم الشَّنيعة، فقد كان هذان الرَّجلان مِنْ شرِّ عباد الله، وأكثرهم كفراً، وعناداً، وبغياً، وحسداً، وهجاءً للإسلام وأهله[٧] .

ج ـ الوصيَّةُ بإكرام الأسرى جانبٌ من المنهج النَّبويِّ الكريم:

ولمَّا رجع ﷺ إلى المدينة فرَّق الأسرى بين أصحابه ، وقال لهم: «استوصوا بهم خيراً»[٨]؛ وبهذه التَّوصيَة النَّبويَّة الكريمة ، ظهر تحقيق قوله الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] .

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٦٠).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١/ ٤٣٩ ، ٤٤٠).
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٥٧).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٢/ ٢٥٥).
(٥) الهَوَادة: اللِّينُ والرِّفق.
(٦) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٦٠).
(٧) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٦).
(٨) المصدر السابق (٣/ ٣٠٧).

فهذا أبو عزيز بن عُمَيْر أخو مُصعب بن عمير ، يحدِّثنا عمَّا رأى ، قال: كنتُ في الأسرى يوم بدرٍ ، فقال رسول الله ﷺ : «استوصوا بالأُسارى خيراً» ، وكنتُ في نفرٍ من الأنصار ، فكانوا إذا قدَّموا غداءهم ، وعشاءهم ، أكلوا التَّمر ، وأطعموني البُرَّ[(١)]؛ لوصيَّة رسول الله ﷺ . [الطبراني في الصغير (٤٠١) ، وفي الكبير (٢٢/ ٣٩٣) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٦٠) ، ومجمع الزوائد (٦/ ٨٦)].

وهذا أبو العاص بن الرَّبيع يحدِّثنا ، قال: كنت في رَهْطٍ من الأنصار جزاهم الله خيراً ، كنَّا إذا تعشَّينا ، أو تغدَّينا ، آثروني بالخُبْز ، وأكلوا التَّمْرَ ، والخبزُ معهم قليلٌ ، والتَّمْرُ زادُهم ، حتَّى إنَّ الرَّجل لتقع في يده كِسْرَةٌ فيدفعها إليَّ ، وكان الوليد بن الوليد بن المغيرة يقول مثلَ ذلك ، ويزيد: «وكانوا يحملوننا ، ويمشون»[(٢)].

كان هذا الخُلُق الرَّحيم الَّذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه على المؤمنين ، وذكَّر به النَّبيُّ ﷺ أصحابَه؛ فاتَّخذوه خُلقاً ، وكان لهم طبيعةً ، قد أثر في إسراع مجموعة مِنْ أشراف الأسرى ، وأفاضلهم إلى الإسلام ، فأسلم أبو عزيز عُقَيْبَ بدرٍ ، بُعيْد وصول الأسرى إلى المدينة ، وتنفيذ وصيَّة رسول الله ﷺ ، وأسلم معه السَّائب بن عبيدٍ[(٣)] بعد أن فدى نفسه ، فقد سرت دعوة الإسلام إلى قلوبهم ، وطهَّرت نفوسَهم ، وعاد الأسرى إلى بلادِهم وأهليهم ، يتحدَّثون عن محمَّدٍ ﷺ ، ومكارم أخلاقه ، وعن محبَّته ، وسماحته ، وعن دعوته ، وما فيها من البِرِّ والتَّقوى ، والإصلاح والخير[(٤)].

إنَّ هذه المعاملة الكريمة للأسرى ، شاهدٌ على سموِّ الإسلام في المجال الأخلاقيِّ ، حيث نال أعداءُ الإسلام من معاملة الصَّحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق؛ الَّتي تتمثَّل في خُلُق الإيثار[(٥)].

د ـ فداء العباس عمِّ النَّبيِّ ﷺ :

بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ، ففدى كلُّ قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العبَّاس: يا رسول الله! قد كنتُ مسلماً ، فقال رسول الله ﷺ : «الله أعلم بإسلامك ، فإن يكن كما تقول؛ فإن الله يجزيك ، وأمَّا ظاهرك ، فقد كان علينا ، فافتدِ نفسَك ، وابني أخويك:

---

(١) البُرُّ: حَبُّ القمح.
(٢) انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/ ١١٩).
(٣) انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (٣/ ٤٧٤).
(٤) انظر: محمَّد رسولُ الله ، لعرجون (٣/ ٤٧٤).
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ (٤/ ١٧٥ ـ ١٧٦).

نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعَقِيل بن أبي طالب بن عبد المطَّلب ، وحليفَك عتبةَ بن عمرٍو أخي ابن الحارث بن فهرٍ» قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: «فأين المال الَّذي دفنته أنت وأمُّ الفَضْل ، فقلتَ لها: إن أُصِبْتُ في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنتُه لبني الفَضْل ، وعبد الله ، وقُثَم؟!» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله ، إنَّ هذا الشَّيءَ ما علمه أحدٌ غيري ، وغير أمِّ الفضل ، فاحسب لي يا رسول الله! ما أصبتم منِّي عشرين أوقيَّة من مالٍ كان معي. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك» ففدى نفسه ، وابني أخويه ، وحليفه؛ فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠ ـ ٧١].

قال العبَّاس: فأعطاني الله مكان العشرين أوقيَّةً في الإسلام عشرين عبداً ، كلُّهم في يده مالٌ يَضْرِبُ به ، مع ما أرجو من مغفرة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ [البيهقي في الدلائل (٣/ ١٤٢ ـ ١٤٣) ، وبنحوه أحمد (١/ ٣٥٣)][(١)].

هذا ، والعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب ، فهذه الآية الكريمة؛ وإن كانت نزلت في العباس إلا أنَّها عامَّةٌ في جميع الأسرى.

استأذن بعضُ الأنصار رسولَ الله ﷺ ، فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا العبَّاس فداءه. فقال: «والله! لا تذرون منه درهماً» [البخاري (١/ ٢٥٣٧ و٣٠٤٨ و٤٠١٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ١٤٢)][(٢)] ، أي: لا تتركوا للعبَّاس من الفداء شيئاً.

ويظهر أدب الأنصار مع رسول الله ﷺ في قولهم لرسول الله: ابن أختنا[(٣)] ، لتكون المنَّة عليهم في إطلاقه ، بخلاف لو قالوا: عمَّك؛ لكانت المنَّة عليه ﷺ ، وهذا من قوَّة الذَّكاء وحسن الأدب في الخطاب ، وإنَّما امتنع النَّبيُّ ﷺ عن إجابتهم؛ لئلا يكون في الدِّين نوعُ محاباة[(٤)].

وهنا يتعلَّم الأسرى ، والمسلمون أيضاً درساً بليغاً في عدم محاباة ذوي القُربى ، بل كان الأمر على خلاف ذلك؛ فقد أغلى رسولُ الله الفداء على عمِّه العباس[(٥)].

ورجع العبَّاس لمكَّة ، وقد دفع فداءه ، وفداء ابنيْ أخويه ، وأخفى إسلامه ، وأصبح يقود

---

(١) انظر شرح الحديث (٤٠١٨) في فتح الباري.
(٢) شرح العسقلاني لصحيح البخاري (٧/ ٣٢١) نقلاً عن المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٣٥).
(٣) لأنَّ جدَّة العباس أمَّ عبد المطلب من بني النَّجار من يثرب.
(٤) انظر: سُبُلَ الهدى والرَّشاد ، للصالحي (٤/ ١٣٥).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

جهاز استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة بمكَّة بمهارةٍ فائقةٍ ، وقدرةٍ نادرةٍ ، حتَّى انتهى دوره عند فتح مكَّة ، فأعلن إسلامه قبلها بساعاتٍ[١] .

هـ ـ أبو العاص بنُ الرَّبيع زوجُ زينب رضي الله عنها بنتِ رسول الله ﷺ :

قالت عائشة رضي الله عنها: لمَّا بعث أهل مكَّة في فداء أسراهم؛ بعثت زينب بنتُ رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ ، وبعثت فيه بِقِلادةٍ[٢] لها ، كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها[٣] ، قالت: فلمَّا رآها رسول الله ﷺ ؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً ، وقال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها الَّذي لها ، فافعلوا» فقالوا: نعم ، فأطلقوه ، وردُّوا عليها الَّذي لها . [أبو داود (٢٦٩٢) ، وأحمد (٦/ ٢٧٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٥٤) ، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٤٢٨) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٢١٤)][٤] .

وكان رسول الله ﷺ أخذ عليه ، أو وعده أن يُخَلِّيَ سبيل زينب إليه ، وبعث رسولُ الله ﷺ زيد بن حارثة ، ورجلاً من الأنصار ، فقال: «كونا ببطن يأْجَج[٥] ، حتَّى تمرَّ بكما زينبُ ، فتصحباها ، حتَّى تأتيا بها» [انظر تخريج الحديث السابق] .

إنَّ أبا العاص بن الرَّبيع زوجَ زينب رضي الله عنها بنتِ الرَّسول ﷺ لم يُعرف عنه قطُّ موقفٌ في مقاومة الدَّعوة بأيِّ لونٍ من ألوانها ، وقد كفَّ يده ، ولسانه عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وشغَله مالهُ وتجارتهُ ، وحياؤه من رسول الله ﷺ عن مواقفِ الشَّراسة القرشيَّة في مقاومة الدَّعوة إلى الله ، وفي بدرٍ كان أبو العاص صِهْرُ رسول الله ﷺ من بين الأسرى؛ الَّذين لم يُسمع لهم في المعركة صوتٌ ، ولم يُعرف لهم رأيٌ ، ولا شُوهدتْ لهم في قتالٍ جولةٌ ، وبعد أن بدأت قريش تفدي أسراها؛ أرسلت السَّيدة زينب بنت رسول الله ﷺ ، وزوجة أبي العاص بمالٍ تفديه به ، ومع المال قلادةٌ كانت أمُّها السَّيدة خديجة رضي الله عنها ، أهدتها إليها ، فأدخلتها بها على زوجها لتتحلَّى بها ، فلمَّا رأى رسول الله ﷺ قِلادَةَ ابنته؛ رقَّ لها رقَّةً شديدةً ، إذ كانت هذه القلادةُ الكريمة مبعثَ ذكرياتٍ أبَويَّةٍ عنده ﷺ ، وذكرياتٍ زوجيَّةٍ ، وذكرياتٍ أُسرِيَّةٍ ، وذكريات عاطفيَّةٍ؛ فالنَّبيُّ ﷺ أبٌ ، له من عواطف الأبوَّة أرفع منازلها في سجلِّ المكارم الإنسانيَّة ، وأشرفُها في فضائل الحياة ، فتواثبت إلى خبايا نفسه الكريمة المكرَّمة أسمى مشاعر الرَّحمة ، وتزاحمت على فؤاده الأطهر عواطفُ الحنان ، والحنين ، فتوجَّه إلى أصحابه رضي الله عنهم

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٦٨) .
(٢) القلادَةُ: ما يُجْعَل في العُنُق من حليٍّ ونحوه .
(٣) بَـنَى بزوجته وعليها: دخل بها .
(٤) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦١ .
(٥) اسم مكان على ثمانية أميال من مكَّة .

متلطِّفاً ، يطلب إليهم في رجاء الأعزِّ الأكرم ، رجاءً يدفعهم إلى العطاء ، ولا يسلبهم حقَّهم في الفداء؛ لو أنَّهم أرادوا الاحتفاظ بهذا الحقِّ؛ وهو في أيديهم ، يملكون التَّصرُّف فيه ، فقال لهم: «إنْ رأيتُم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردُّوا عليها الَّذي هو لها».

وهذا أسلوبٌ من أبلغ ، وألطف ما يسري في حنايا النُّفوس الكريمة ، فيطوِّعها إلى الاستجابة الرَّاغبة الرَّاضية ، رضاءً يَنمُّ عن الغِبْطَة ، والبَهْجَة[١].

إنَّ هذا الموقف ، وما يظهر منه من مظاهر الرَّحمة ، والعطف منه ﷺ على ابنته ، يحمل في طيَّاته مقصداً آخر ، وهو أنَّه كان يتألَّف صِهْرَه للإسلام بذلك؛ لِمَا عَرَفَ عنه من العقل السَّديد ، والرَّأي الرَّشيد ، فقد كان ﷺ يُثني عليه ، وهو على شِرْكِهِ بحسن المعاملة[٢].

و ـ أبو عزَّة عمرُو بن عبد الله الجُمَحِيُّ بين الرَّحمة ، والحزم النَّبويِّ:

كان محتاجاً ذا بناتٍ ، قال: يا رسول الله! لقد عرفت ما لي مِنْ مالٍ ، وإنِّي لذو حاجةٍ ، وذو عيالٍ ، فامنُنْ عليَّ! فمنَّ عليه رسولُ الله ﷺ ، وأخذ عليه ألا يُظاهرَ عليه أحداً ، فقال أبو عزَّةَ يمدح رسول الله ﷺ على ذلك:

مَـنْ مُبْلِـغٌ عَنِّـي الـرَّسُـوْلَ مُحَمَّـداً ... بِـأنَّـكَ حَـقٌّ والمَلِيْـكُ حَمِيْـدُ
وأنْـتَ امْـرُؤٌ بُـوِّئْـتَ فِيْنَـا مَبَـاءَةً[٣] ... لَهَـا دَرَجَـاتٌ سَهْلَـةٌ وَصُعُـودُ
فـإنَّـكَ مَـنْ حَـارَبْتَـهُ لَمُحَـارَبٌ ... شَقِـيٌّ ومَـنْ سَـالَمْتَـهُ لَسَعِيْـدُ
ولَكِـنْ إذَا ذُكِّـرْتُ بَـدْراً وأَهْلَـهُ ... تَـأَوَّبَ مَـا بِـي حَسْـرَةٌ وَقُعُـوْدُ

قال ابن كثير: ثمَّ إنَّ أبا عزَّةَ هذا نقض ما كان عاهد الرَّسول ﷺ عليه ، ولعب المشركون بعقله ، فرجع إليهم ، فلمَّا كان يومَ أحدٍ؛ أُسر أيضاً ، فسأل النَّبيَّ ﷺ أن يَمُنَّ عليه أيضاً ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا أدعك تمسح عارِضَيْكَ بمكَّةَ ، وتقولُ: خدعتُ محمَّداً مرَّتين» ثُمَّ أَمَرَ به ، فَضُرِبَتْ عنقهُ. [البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨١) ، وابن هشام (٣/ ١١٠)][٤].

فكان النَّبي ﷺ به رحيماً ، وعفا عنه ، وأطلق سراحه بدون فداءٍ لَمَّا ذكر أبو عزَّة فقره ، وما لديه مِنْ بناتٍ يعولهنَّ؛ ولكنَّه لم يفِ لرسول الله ﷺ بما عاهده عليه مِنْ لزوم السِّلم ، وعدم إثارة الحرب ضدَّه ، فوقع أسيراً في معركة أُحدٍ ، فكان موقفُ النَّبيِّ ﷺ منه الحزم ، فأمر بضرْب عنُقه.

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ، لعرجون (٣/ ٤٨٠ ـ ٤٨٧).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٤/ ١٨٣).
(٣) مباءةٌ: مكانةٌ رفيعةٌ.
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٣١٣).

ز ـ سهيلُ بن عمرٍو ، ووقوعُه في الأسر ، وماذا قالت سودةُ رضي الله عنها :

قال عبد الرَّحمن بن أسعد بن زرارة رضي الله عنه : قُدِم بالأُسارى حين قُدِم بهم المدينة؛ وسودةُ بنت زمعة زوج النَّبيِّ ﷺ عند آل عفراء في مناحتهم على عَوْفٍ، ومعوِّذ ابني عفراء ـ وذلك قبل أن يُضْرَب الحجاب ـ ، قالت سودة: فوالله إنِّي لَعِنْدهم؛ إذ أتينا فقيل: هؤلاء الأُسارى قد أُتِيَ بهم ، فرجعتُ إلى بيتي؛ ورسول الله ﷺ فيه؛ فإذا أبو يزيد سهيلُ بنُ عمرٍو في ناحية الحُجْرَة ، ويداه مجموعتان إلى عنقه بحبلٍ، فوالله ما ملكت حين رأيت أبا يزيدٍ كذلك أن قُلتُ: أبا يزيد! أعطيتُم بأيديكم؟ ألا مُتُّم كراماً؟! فما انتبهت إلا بقول رسول الله ﷺ من البيت: «يا سودةُ! أعَلَى الله ورسوله تُحَرِّضين؟!» فقلت: يا رسول الله! والَّذي بعثك بالحقِّ ، ما ملكت نفسي حين رأيت أبا يزيد مجموعةً يداه إلى عنقه بالحبل أن قلتُ ما قلتُ. [البيهقي في الكبرى (٩/ ٨٩) ، والحاكم (٣/ ٢٢) ، وابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٤٦٠)][(١)].

وقدم مِكْرَزُ بن حفص بن الأَخْيَف في فداء سهيل بن عمرو ، فلمَّا فاوض المسلمين ، وانتهى إلى رضائهم ، قالوا: هاتِ الَّذي لنا ، قال لهم مِكْرَز بن حفص: اجعلوا رجلي مكان رجله ، وخلُّوا سبيله حتَّى يَبعث إليكم بفدائه ، فخلَّوا سبيل سُهيل ، وحبسوا مِكْرزاً عندهم ، وجاء في حديثٍ مُرْسَلٍ: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ : دعني أنزع ثَنِيَّة سهيل بن عمرٍو ، يدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطنٍ آخر ! فقال رسول الله ﷺ : «لا أمثِّل به ، فيمثِّل الله بي؛ وإن كنتُ نبيّاً» [ابن أبي شيبة في المصنف (١٤/ ٣٨٧)][(٢)]. ثمَّ قال رسول الله ﷺ لعمر: «إنَّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه»[(٣)].

قال ابن كثير: وهذا هو المقام الَّذي قامه سهيل بمكَّة حين مات رسول الله ﷺ وارتدَّ العرب ، ونجم النِّفاق بالمدينة وغيرها ، فقام بمكَّة ، فخطب في النَّاس ، وثبَّتهم على الدِّين الحنيف[(٤)] ، فقد قال في ذلك: «يا معشر قريش! لا تكونوا آخر النَّاس إسلاماً ، وأوَّلهم ردَّةً ، مَنْ رَابنَا ضربنا عنُقَه»[(٥)].

فقد أبى رسول الله ﷺ أن ينزع ثنيَّة سُهيلٍ ، ورأى: أنَّ ذلك من باب التَّمثيل وتشويه خلقة الإنسان ، وقال لعمر: «لا أمثِّل به ، فيمثِّل الله بي! وإن كنت نبيّاً» وهذا نموذجٌ من منهج رسالته

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد الصوياني (٢/ ٢٠٠).
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٣١١). وقال ابن كثيرٍ: مرسلٌ؛ بل معضل.
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٣/ ٣١١).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ ، للحميديِّ (٤/ ١٨١).

ﷺ ، وضعه ؛ ليكون نبراساً لأمَّته في انتصاراتها على أعدائها[١] .

ح ـ التَّعليم مقابل الفداء :

قال ابن عبَّاسٍ رضي الله عنه : كان ناسٌ من الأُسارى يوم بدرٍ ليس لهم فداءٌ ، فجعل رسولُ الله ﷺ فداءهم أن يُعَلِّموا أولاد الأنصار الكتابة[٢] ، وبذلك شرع الأسرى يعلِّمون غلمان المدينة القراءة ، والكتابة ، وكلُّ مَنْ يُعَلِّم عشرةً من الغلمان يفدي نفسه[٣] ، وقَبول النَّبيِّ ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الَّذي كانوا فيه في أشدِّ الحاجة إلى المال ، يُرينا سموَّ الإسلام في نظرته إلى العلم ، والمعرفة ، وإزالة الأميَّة ، وليس هذا بعجيبٍ مِنْ دينٍ كان أوَّل ما نزل من كتابه الكريم : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ [العلق: ١ ـ ٤]. واستفاضت فيه نصوصُ القرآن ، والسُّنَّة في التَّرغيب في العلم ، وبيان منزلة العلماء ، وبهذا العمل الجليل يُعتبر النَّبيُّ ﷺ أوَّل من وضع حجر الأساس في إزالة الأمِيَّة ، وإشاعة القراءة ، والكتابة ، وأنَّ السَّبق في هذا للإسلام[٤] .

ط ـ حكم الأسرى :

إنَّ حكم الأسرى في الإسلام مفوَّضٌ إلى رأي الإمام ؛ ليختار حُكْماً من أربعةٍ ، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامَّة ؛ والأحكام الأربعة هي :

١ ـ القتلُ : وقد قتل رسول الله ﷺ عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْطٍ ، والنَّضْر بن الحارث .

٢ ـ المنُّ : وهو إطلاق الأسير بدون مقابلٍ ، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع أبي عَزَّةَ الجُمَحِيِّ .

٣ ـ الفداءُ : إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال ، وهذا ما حدث مع العبَّاس عمِّ النَّبيِّ ﷺ ، ونوفل بن الحارث ، وعقيل بن أبي طالبٍ ، وغيرهم .

٤ ـ الاسترقاق : وقد حكم سعدُ بن معاذ رضي الله عنه في يهود بني قريظة أن يُقتل المحارَبون ، وتقسم الأموالُ ، وتُسْبَى الذَّراري والنِّساء[٥] .

* * *

(١) انظر : محمَّد رسول الله ، لعرجون (٣/ ٤٧٤) .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦١ .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٧٤) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٦٤ ـ ١٦٥) .
(٥) انظر : غزوة بدر الكبرى ، ص ١٠١ .

المبحث السَّادس
نتائج غزوة بدرٍ ومحاولة اغتيال النَّبيِّ ﷺ

أولاً: نتائج غزوة بدرٍ:

١ ـ كان من نتائج غزوة بدرٍ أن قويت شوكة المسلمين ، وأصبحوا مرهوبين في المدينة ، وما جاورها ، وأصبح مَنْ يريد أن يغزو المدينة ، أو ينال من المسلمين عليه أن يفكِّر ، ويفكِّر قبل أن يُقدِم على فَعْلته ، وتعزَّزت مكانة الرَّسول ﷺ في المدينة ، وارتفع نجم الإسلام فيها ، ولم يعد المتشكِّكون في الدَّعوة الجديدة ، والمشركون في المدينة يتجرَّؤون على إظهار كفرهم ، وعداوتهم للإسلام؛ لذا ظهر النِّفاق ، والمكر ، والخداع ، فأعلنوا إسلامهم ظاهراً أمام النَّبيِّ ﷺ ، وأصحابه ، فدخلوا في عداد المسلمين ، وأبقَوا على الكفر باطناً ، فظلُّوا في عداد الكفار ، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم ، ولا هم كافرون ظاهرون بكفرهم ، وعداوتهم للمسلمين ، قال تعالى: ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

ومن أجل هذا الموقف المتذبذب شنَّع الله عليهم ، وسمَّع بهم في كثيرٍ من آياته ، وتوعَّدهم بأشدِّ أنواع العذاب ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

ومن نتائج موقعة بدر ازدياد ثقة المسلمين بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ، وبرسوله الكريم ﷺ ، واشتداد ساعدهم ، وقوَّتهم ، ودخول عددٍ كبيرٍ من مشركي قريشٍ في الإسلام ، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات المسلمين المستضعفين الَّذين كانوا لا يزالون في مكَّة ، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله ، واطمأنَّت قلوبهم إلى أن يوم الفرج قريب ، فازدادوا إيماناً على إيمانهم ، وثباتاً على عقيدتهم.

وإلى جانب ذلك ، فقد كسب المسلمون مهارةً عسكريَّةً ، وأساليبَ جديدةً في الحرب ، وشهرةً واسعةً داخل الجزيرة العربيَّة ، وخارجها؛ إذ أصبحوا قوَّةً يحسب لها حسابُها في بلاد العرب ، فلا تهدِّد زعامة قريش وحدَها ، بل زعامةَ جميع القبائل العربية المنتشرة في مختلف

الأَصْقَاع[١] والأماكن ، كما أصبح للدَّولة الجديدة مصدرٌ للدَّخل من غنائم الجهاد ، وبذلك انتعش حال المسلمين المادِّيّ والاقتصاديّ بما أفاء الله عليهم من غنائم ، بعد بؤسٍ ، وفقرٍ شديدين ، داما تسعةَ عَشَرَ شهراً[٢] .

٢ ـ أمَّا قريش ، فكانت خسارتها فادحةً ، فإضافةً إلى أنَّ مقتل أبي جهل بن هشام ، وأميَّة بن خلف ، وعتبة بن ربيعة ، وغيرهم من زعماء الكفر؛ الَّذين كانوا من أشد القرشيِّين شجاعةً ، وقوةً ، وبأساً لم يكن خسارةً حربيَّةً لقريشٍ فحسب ، بل كان خسارةً معنويَّةً أيضاً؛ ذلك: أنَّ المدينة لم تعد تُهَدِّدُ تجارتَها فقط ، بل أصبحت تهدِّد أيضاً سيادتها ونفوذها في الحجاز كلِّه[٣] .

كان خبر الهزيمة على أهل مكَّة كالصَّاعقة ، ولم يصدِّقوا ذلك في بداية الأمر ، قال ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ: «وكان أوَّل من قدِم مكَّةَ بمصابِ قريش الحَيْسُمان بن عبد الله الخزاعي ، فقالوا له: ما وراءك؟

قال: قُتِل عُتبةُ بن ربيعة ، وشيبةُ بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأميَّة بن خلف، وزَمعةُ بن الأسود، ونُبيه، ومنبِّه ابنا الحجَّاج، وأبو البَخْتريِّ بن هشام ، فلمَّا جعل يُعَدِّد أشراف قريش ، قال صفوان بن أميَّة: والله إن يعقل هذا! فسلوه عنِّي!

فقالوا: ما فعل صفوان بن أميَّة؟

قال: هو ذاك جالسٌ في الحِجْر ، قد والله! رأيت أباه ، وأخاه حين قُتِلا»[٤] .

وهذا أبـو رافعٍ مولى رسول الله ﷺ ، يـقصُّ علينا أثر خبر هزيمـة قريشٍ على أبي لهبٍ ـ لعنه الله ـ ، حيثُ قال: كنت غلاماً للعبَّاس بن عبد المطَّلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، وأسلمتْ أمُّ الفضل ، وأسلمتُ ، وكان العبَّاس يهاب قومَه ، ويكره أن يخالفَهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مالٍ كثيرٍ متفرِّق في قومه ، وكان أبو لهب ـ عدوُّ الله ـ قد تخلَّف عن بدرٍ ، فبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة ، فلمَّا جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدرٍ من قريش: كَبَتَهُ[٥] الله ، وأخزاه ، ووجدْنا في أنفسنا قوَّة وعزّاً.

قال: كنت رجلاً ضعيفاً ، وكنت أعمل الأقداح ، وأنْحَتُها في حُجْرة زمزم ، فوالله! إنِّي لجالس فيها أنحَت القداح ، وعندي أمُّ الفضل (زوجة العبَّاس بن عبد المطلب) جالسةً ، وقد

---

(١) الصُّقْعُ: النَّاحية ، والجمع: أصْقَاع.
(٢) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، د. علي معطي ، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦.
(٤) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٥٧، وانظر: سيرة ابن هشام (بلوغ مصاب قريشٍ إلى مكَّة).
(٥) كبته: أذله.

سرَّنا ما جاءنا من الخبر؛ إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجرُّ رجليه بشَرٍّ ، حتَّى جلس على طُنُب[١] الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهري ، فبينما هو جالس؛ إذ قال النَّاس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب قد قدم ، فقال أبو لهب: هلمَّ إليَّ ، فعندك لعمري الخبرُ! قال: فجلس إليه ، والناسُ قيامٌ عليه ، فقال: يابن أخي! أخبرني كيف كان أمر النَّاس؟ قال: والله! ما هو إلا أن لقينا القوم فَمَنَحْناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا ، ويأسروننا كيف شاؤوا ، وايْمُ الله! مع ذلك ما لُمتُ النَّاس؛ لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلْق[٢] بين السَّماء والأرض ، والله! ما تُلِيق[٣] شيئاً ، ولا يقوم لها شيء ، قال أبو رافع: فرفعت طُنُب الحجرة بيدي ، ثمَّ قلت: تلك والله الملائكة!

قال: فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهي ضربةً شديدةً ، قال: وثاوَرْتُه[٤] ، فاحتملني ، وضرب بي الأرض ، ثمَّ برك عليَّ يضربني ـ وكنت رجلاً ضعيفاً ـ ، فقامت أمُّ الفضل إلى عمود من عُمُدِ الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة فَلَعَتْ[٥] في رأسه شَجَّةً منكرةً ، وقالت: أستضعفْتَه أن غاب عنه سيِّدُه؟ فقام مُولِّياً ذليلاً ، ثمَّ مات بعد سبع ليالٍ بالعَدَسَة[٦] ، فقتلته[٧] .

لقد تركت غزوة بدر في نفوس أهل مكَّة المشركين ، كمداً ، وأحزاناً ، وآلاماً بسبب هزيمتهم ، ومن فُقدوا ، وأُسروا ، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بِعِلَّة ، ومات ، وهذا أبو سفيان فقد ابناً له ، وأُسِر له ابنٌ آخر ، وما من بيتٍ من بيوت مكَّةَ إلا وفيه مناحةٌ؛ على قتل عزيز ، أو قريب ، أو أَسْر أسيرٍ ، فلا عجب أن كانوا صمَّموا في أنفسهم على الأخذ بالثأر ، حتَّى إن بعضهم حرَّم على نفسه الاغتسال[٨] ، حتى يأخذ بالثَّأر ممَّن أذلُّوهم ، وقتلوا أشرافهم ، وصناديدهم ، وانتظروا يترقَّبون الفرصة للقاء المسلمين والانتصاف منهم ، فكان ذلك في أُحدٍ[٩] .

٣ ـ أمَّا اليهود؛ فقد هالهم أن ينتصر المسلمون في بدرٍ ، وأن تقوى شوكتُهم فيها ، وأن يَعِزَّ

---

(١) طُنُب الحجرة: طرفُها.
(٢) بَلِقَ: بَلقاً وبُلْقَة: كان فيه سوادٌ ، وبياض ، فهو أَبْلَق ، وهي بَلْقَاءُ ، والجمع: بُلْق.
(٣) تُلِيق: تُبقي.
(٤) ثاوَرْتُه: وثبتُ إليه.
(٥) فَلَعَتْ: شقت.
(٦) العَدَسَةُ: قرحةٌ قاتلةٌ كالطَّاعون ، وقد عدس الرَّجل: إذا أصابه ذلك ، وهي تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطَّاعون ، وتقتل صاحبها غالباً.
(٧) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٢/ ٢٥٨).
(٨) هو أبو سفيان بن حرب؛ نذر ألا يمس رأسه ماء جنابة حتى يغزو المسلمين.
(٩) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٧١).

الإسلام ، ويظهر على دينهم ، ويكون لرسوله ﷺ دونهم الحُظوةُ ، والمكانة ، فصمَّموا على نقض العهد الَّذي عاهدوا عليه النَّبيَّ ﷺ عندما قدِم المدينة ، وأظهروا عداوتهم الَّتي كانت كامنةً في نفوسهم ، وأخذوا يجاهرون بها القول ، ويُعلنون ، ثمَّ راحوا يكيدون للإسلام ولرسوله ﷺ ، ويعملون للقضاء عليه بكلِّ الوسائل المتاحة لديهم(١) ، وبدؤوا يتحرَّشون بالنَّبيِّ ﷺ ، والمسلمين ، وما كان النَّبيُّ ﷺ ليخفى عليه شيءٌ من ذلك ، فقد كان يراقبهم عن حذرٍ ، ويقظةٍ ؛ حتَّى استخفُّوا بالمقرَّرات الخُلُقيَّة ، والحرمات الَّتي يعتزُّ بها المسلمون ، واستعلنوا بالعداوة ، فلم يكن بدٌّ من حربهم ، وإجلائهم عن المدينة ـ كما سنفصِّل ذلك فيما بعد إن شاء الله ـ(٢) .

ثانياً : محاولة اغتيال النَّبيِّ ﷺ وإسلام عُمير بن وهب (شيطان قريش) :

قال عروة بن الزُّبير : جلس عُمير بن وهب الجُمَحيُّ مع صفوان بن أميَّة في الحِجْر ، بعد مصاب أهل بدرٍ بيسير ، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش ، وممَّن كان يؤذي رسولَ الله ﷺ ، وأصحابه ، ويلقون منه عناءً(٣) ، وهو بمكَّة ، وكان ابنه وهب بن عُمير في أُسارى بدر ، فذكر أصحاب القَلِيب ، ومُصابهم ، فقال صفوان : واللهِ! إنْ في العيش بعدهم خيرٌ .

قال له عُمَيْرٌ : صدقتَ! أما والله ! لولا دينٌ عليَّ ليس عندي قضاؤه ، وعيالٌ أخشى عليهم الضَّيعة(٤) بعدي ؛ لركبتُ إلى محمَّدٍ حتَّى أقتلَه ، فإنَّ لي فيهم عِلَّة(٥) ؛ ابني أسيرٌ في أيديهم .

قال : فاغتنمها صفوان بن أميَّة ، فقال : عليَّ دينُك ، أنا أقضِيه عنك ، وعيالُك مع عيالي أُواسيهم(٦) ما بَقُوا ، لا يسعني شيءٌ ، ويعجِز عنهم ، فقال له عُمَيْرٌ : فاكتم شأني ، وشأنك . قال : أَفعَلُ .

قال : ثمَّ أمر عُمَيْرٌ بسيفه ، فشُحِذ له ، وسُمَّ ، ثمَّ انطلق حتَّى قدم المدينة ، فبينما عمرُ بن الخطاب في نفرٍ من المسلمين يتحدَّثون عن يوم بدر ، ويذكرون ما أكرمهم الله به ، وما أراهم في عدوِّهم ؛ إذ نظر عمرُ إلى عُمَيْرِ بن وهبٍ ، وقد أناخ راحلتَه على باب المسجد متوشِّحاً سيفه ،

---

(١) انظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٤ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/١٧١) .
(٣) عناء : تعباً .
(٤) الضَّيعة : الضَّياع والتشتت .
(٥) العلَّة : السبب .
(٦) أواسيهم : أقوم على أمرهم ومؤونتهم .

فقال: هذا الكلب عدوُّ الله عُمَيْرُ بنُ وهبٍ ، والله! ما جاء إلا لشرٍّ ، وهو الَّذي حرَّش[(١)] بيننا ، وحزَرنا[(٢)] للقوم يوم بدرٍ.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبيَّ الله! هذا عدوُّ الله عُمَيْرُ بن وهبٍ قد جاء متوشِّحاً سيفه.

قال: «فأَدْخله عليَّ» ، قال: فأقبل عمر حتَّى أخذ بحِمَالَةِ[(٣)] سيفه في عنقه فَلَبَّبَهُ[(٤)] بها ، وقال لرجالٍ ممَّن كانوا معه من الأنصار: ادْخُلُوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده ، واحذوروا عليه من هذا الخبيث ، فإنَّه غير مأمونٍ.

ثمَّ دخل به على رسول الله ﷺ ، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذٌ بحِمَالَة سيفه في عنقه ، قال: «أرسله يا عمر! ادْنُ يا عُمَيْرُ!».

فدنا ، ثمَّ قال: انعموا صباحاً ـ وكانت تحيَّة أهل الجاهلية بينهم ـ فقال رسول الله ﷺ: «أكرمنا الله بتحيَّةٍ خيرٍ من تحيَّتك يا عمير! بالسَّلام تحية أهل الجنَّة»[(٥)].

فقال: أما والله يا محمد! إن كنتُ بها لحديث عهدٍ.

فقال: «فما جاء بك يا عُمَيْرُ؟!» قال: جئت لهذا الأسير الَّذي في أيديكم ، فأحسنوا فيه.

قال: «فما بالُ السَّيف في عنقك؟» قال: قَبَّحَها اللهُ من سيوف! وهل أغنت عنا شيئاً؟!

قال: «اصْدُقْني ، ما الَّذي جئتَ له؟» قال: ما جئتُ إلا لذلك.

قال: «بل قعدت أنت وصفوانُ بنُ أميَّة في الحِجْر ، فذكرتما أصحاب القَلِيب من قريشٍ ، ثمُ قُلْتَ: لولا دَيْنٌ عليَّ ، وعيالٌ عندي ، لخرجت حتَّى أقتل محمَّداً ، فتحمَّل لك صفوان بن أميَّة بدَيْنك ، وعيالك على أن تقتلني له ، واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك».

قال عُمَيْرُ: أشهد: أنَّك رسولُ الله ، قد كنَّا يا رسول الله! نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السَّماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمرٌ لم يحضرْه إلا أنا وصفوان ، فوالله! إنِّي لأعلم ما أتاك به إلا الله ، فالحمد لله الَّذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثمَّ شهد شهادة الحقِّ.

---

(١) حرَّش: أفسد ، وأغرى بعضهم ببعضٍ.
(٢) حَزَرَ الشيء حَزْراً: قَدَّره بالتَّخمين.
(٣) حمَّالة السَّيف: ما يربط به السَّيف على الجسم.
(٤) لَبَّبَهُ: أخذ بتلابيبه ، أي: جمع ثيابه عند نحره ، وصدره ثمَّ جرَّه.
(٥) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٥٩.

فقال رسول الله ﷺ : «فقِّهوا أخاكم في دينه ، وأقرِئُوه القُرآنَ ، وأَطْلِقُوا له أسيره» ، ففعلوا .

ثمَّ قال : يا رسولَ الله ! إنِّي كنت جاهداً على إطفاء نور الله ، شديدَ الأذى لمن كان على دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأنا أحبُّ أن تأذن لي ، فأقدم مكَّة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسوله ﷺ ، وإلى الإسلام ، لعلَّ الله يهديهم ، وإلا آذيتهم في دينهم ما كنت أوذي أصحابك في دينهم ، قال : فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكَّة ، وكان صفوان بن أميَّة حين خرج عمير بن وهب ، يقول : أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيَّامٍ ، تُنْسيكم وقعة بدرٍ ، وكان صفوان يسأل عنه الرُّكبان ، حتَّى قدم راكبٌ فأخبره بإسلامه ، فحلف ألاَّ يكلِّمه أبداً ، ولا ينفعه بنفعٍ أبداً . [الطبراني في الكبير (١٧/ ٥٨) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٢٨٦) ، والإصابة (٣/ ٣٧)][1].

وفي هذه القصَّة دروسٌ وعبر ؛ منها :

١ ـ حِرْص المشركين على التَّصفية الجسديَّة للدُّعاة ؛ فهذا صفوان بن أميَّة ، وعُمَيْر بن وهب ، يتَّفقان على قتل النَّبيِّ ﷺ ، وهذا يرشدنا إلى أنَّ أعداء الدَّعوة قد لا يكتفون برفض الدَّعوة ، والتَّشويش عليها ، وصدِّ النَّاس عنها ؛ بل يحاولون اغتيال الدُّعاة ، وتدبير المؤامرات لقتلهم ، وقد يستأجرون المجرمين ؛ لتنفيذ هذا الغرض الخسيس[2] ، وقد يستغلُّ الأغنياء المُتْرفون من أعداء الدَّعوة حاجة الفقراء ، وفقرهم ، فيوجِّهونهم لقاء مبلغ من المال إلى خدمة مآربهم ، وإنْ أدَّى ذلك إلى هلاكهم ، فهاهو صفوان قد استغل فقر عُمَيْرٍ ، وقلَّة ذات يده ، ودَيْنَهُ ؛ ليرسله إلى هلاكه[3] .

٢ ـ ظهور الحسِّ الأمنيِّ الرَّفيع الَّذي تميَّز به الصَّحابة رضي الله عنهم ، فقد انتبه عمر بن الخطَّاب لمجيء عمير بن وهبٍ ، وحذَّر منه ، وأعلن أنَّه شيطانٌ ما جاء إلا لشرٍّ ، فقد كان تاريخه معروفاً لدى عمر ، فقد كان يؤذي المسلمين في مكَّة ، وهو الذي حرَّض على قتال المسلمين في بدرٍ ، وعمل على جمع معلوماتٍ عن عددهم ؛ ولذلك شرع عمر في أخذ الأسباب لحماية الرَّسول ﷺ ، فمن جهته فقد أمسك بحِمَالة سيف عمير الَّذي في عنقه بشدَّةٍ ، فعطَّله عن إمكانية استخدامه سيفه للاعتداء على الرَّسول ﷺ ، وأمر نفراً من الصَّحابة بحراسة النَّبيِّ ﷺ .

٣ ـ الاعتزاز بتعاليم هذا الدِّين ، فقد رفض ﷺ أن يتعامل بتحيَّة الجاهليَّة ، ولم يردَّ على

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٠ ، وسيرة ابن هشام (إسلام عُمَيْر بن وهب) .
(٢) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٥٩) ، والخَسِيسُ : القليلُ التَّافهُ .
(٣) انظر : غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٨٢ .

تحيَّة عُمَيْرٍ حين قال له: انعموا صباحاً ، وأخبره بأنَّه لا يُحيِّي بتحيَّة أهل الجاهلية؛ لأنَّ الله تعالى أكرم المسلمين بتحيَّة أهل الجنَّة.

٤ ـ سموُّ أخلاق النَّبيِّ ﷺ ، فقد أحسن إلى عُمَيْرٍ ، وتجاوز عنه ، وعفا عنه؛ مع أنَّه جاء؛ ليقتله[1]؛ بل أطلق ولده الأسير بعد أن أسلم عُمَيْرٌ ، وقال لأصحابه: «فقِّهوا أخاكم في دينه ، وأقرئوه القرآن ، وأَطْلِقُوا له أسيره»[2].

٥ ـ قوَّة إيمان عُمَيْرٍ ، فقد قرَّر أن يواجه مكَّة كلَّها بالإسلام ، وقد أذن له رسول الله ﷺ ، وفعل ، وواجه ، وتحدَّى ، وعاد أدراجه إلى المدينة ، وأسلم على يديه ناسٌ كثير ، وكان حين تُعَدُّ الرِّجال يطرحه عمر رضي الله عنه ممَّن يزن عنده ألف رجلٍ ، وكان أحد الأربعة الَّذين أمدَّ بهم أميرُ المؤمنين عُمَرُ عمرَو بن العاص رضي الله عنهم ، الَّذين كان كلُّ واحدٍ منهم بألفٍ[3].

* * *

---

(١) انظر: غزوة بدر الكبرى ، لأبي فارس ، ص ٨٣.

(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٦٠.

(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/٧٣).

المبحث السَّابع
بعض الدُّروس والعبر والفوائد من غزوة بدر

أولاً: حقيقة النَّصر من الله تعالى:

إنَّ حقيقة النَّصر في بدرٍ كان من الله تعالى، فقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

في هاتين الآيتين تأكيدٌ على أنَّ النَّصر لا يكون إلا من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والمعنى: ليس النَّصر إلا من عند الله دون غيره، و(العزيز) أي: ذو العزَّة؛ التي لا تُرام[(١)]، و(الحكيم) أي: الحكيم فيما شرعه من قتال الكفَّار مع القدرة على تدميرهم، وإهلاكهم بحَوْلِهِ، وقوَّته ـ سبحانه وتعالى ـ[(٢)].

ويستفاد من هاتين الآيتين: تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده، وتفويض أمورهم إليه، مع التَّأكيد على أنَّ النَّصر إنَّما هو من عند الله وحده، وليس من الملائكة، أو غيرهم، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون؛ لكن يجب ألاَّ يغترُّوا بها، وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب، حتى يمدَّهم اللهُ بنصره، وتوفيقه، ثم بيَّن سبحانه مظاهر فضله على المؤمنين، وأنَّ النَّصر الَّذي كان في بدر، وقتلهم المشركين، ورمي النَّبيِّ ﷺ المشركين بالتُّراب يوم بدرٍ؛ إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أوَّلاً، وبفضله ومعونته.

وبهذه الآية الكريمة، يربِّي القرآنُ المسلمين، ويعلِّمهم الاعتماد عليه، قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١١).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٣) نقلاً عن حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٩٧ ـ ١٠٥).

ولما بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّ النَّصر كان من عنده؛ وضَّح بعض الحِكَم من ذلك النَّصر. قال تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٧ ـ ١٢٨].

وأمر ـ سبحانه وتعالى ـ المؤمنين، بأن يتذكَّروا دائماً تلك النِّعمة العظيمة، نعمةَ النَّصر في بدر، ولا ينسوا كيف كانت حالتُهم قبل النَّصر، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

ثانياً: يوم الفرقان:

سُمِّيَ يومُ بدرٍ يومَ الفرقان، ولهذه التَّسمية أهمِّيَّةٌ عظيمةٌ في حياة المسلمين، وقد تحدَّث الأستاذ سيِّد قطب، عن وصف الله تعالى ليوم بدرٍ بأنه يوم الفرقان، في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

فقال: لقد كانت غزوة بدر ـ الَّتي بدأت، وانتهت بتدبير الله، وتوجيهه، وقيادته، ومدده ـ فرقاناً . . . فرقاناً بين الحقِّ والباطل ـ كما يقول المفسرون إجمالاً ـ وفرقاناً بمعنى أشمل، وأدق، وأوسع، وأعمق كثيراً.

كانت فرقاناً بين الحقِّ والباطل فعلاً، ولكنَّه الحقُّ الأصيل، الَّذي قامت عليه السَّمٰوات، والأرض، وقامت عليه فطرة الأحياء، والأشياء، الحقُّ الَّذي يتمثَّل في تفرُّد الله ِسبحانه بالألوهيَّة، والسُّلطان، والتَّدبير، والتَّقدير، وفي عبودية الكون كلِّه؛ سمائه، وأرضه، أشيائه، وأحيائه، لهذه الألوهية المتفرِّدة، ولهذا السُّلطان المتوحِّد، ولهذا التدبير، وهذا التَّقدير بلا معقِّبٍ، ولا شريك، والباطل الزَّائف الطَّارئ، الَّذي كان يعمُّ وجه الأرض إذ ذاك، ويُغْشِي على ذلك الحق الأصيل، ويقيم في الأرض طواغيتَ تتصرَّف في حياة عباد الله بما تشاء، وأهواءَ تُصَرِّفُ أمر الحياة، والأحياء.

فهذا الفرقان الكبير الَّذي تَمَّ يوم بدرٍ، حيث فرَّق بين ذلك الحقِّ الكبير، وهذا الباطل الطَّاغي، وزَيَّل[1] بينهما، فلم يعودا يلتبسانِ.

لقد كانت فرقاناً بين الحقِّ والباطل بهذا المدلول الشَّامل الواسع، الدَّقيق، العميق على أبعادٍ وآمادٍ، كانت فرقاناً بين هذا الحقِّ، وهذا الباطل في أعماق الضَّمير، فرقاناً بين الوحدانيَّة

(١) زَيَّل: فرَّق. زَايَلَهُ: فارَقَهُ.

المجرَّدة المُطْلَقَةِ بكلِّ شُعَبِها؛ في الضَّمير والشُّعور، وفي الخُلُق والسُّلوك، وفي العبادة والعبودية، وبين الشِّرك في كلِّ صوره؛ الَّتي تشمل عبودية الضَّمير لغير الله من الأشخاص، والأهواء، والقِيَم، والأوضاع والتَّقاليد والعادات، وكانت فرقاناً بين هذا الحقِّ، وهذا الباطل في الواقع الظَّاهر كذلك، فرقاناً بين العبودية الواقعيَّة للأشخاص، والأهواء، وللقِيَم والأوضاع، وللشَّرائع والقوانين، وللتَّقاليد والعادات، وبين الرُّجوع في هذا كله لله الواحد الَّذي لا إله غيره، ولا حاكم دونه، ولا مشرِّع إلا إيَّاه، فارتفعت الهامات، لا تنحني لغير الله، وتساوت الرؤوس، فلا تخضع إلا لحاكميته وشرعه، وتحرَّرت القطعان البشريَّة؛ الَّتي كانت مستعبدةً للطُّغاة.

وكانت فرقاناً بين عهدٍ في تاريخ الحركة الإسلاميَّة، عهد المصابرة والصَّبر، والتَّجمُّع والانتظار، وعهد القوَّة، والحركة والمبادأة والاندفاع، والإسلام بوصفه تصويراً جديداً للحياة، ومنهجاً جديداً للوجود الإنسانيِّ، ونظاماً جديداً للمجتمع، وشكلاً جديداً للدَّولة، بوصفه إعلاناً عامّاً لتحرير الإنسان في الأرض؛ بتقرير ألوهيَّة الله وحده وحاكميته، ومطاردة الطَّواغيب، الَّتي تغتصب ألوهيته[1].

إلى أن قال: وأخيراً فلقد كانت بدر فرقاناً بين الحقِّ والباطل بمدلولٍ آخر، ذلك المدلول الَّذي يوحي به قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٧ ـ ٨].

لقد كان الَّذين خرجوا للمعركة من المسلمين؛ إنَّما خرجوا يريدون عِيرَ أبي سفيان، واغتنام القافلة، فأراد الله لهم غير ما أرادوا؛ أراد لهم أن تُفلِتَ منهم قافلةُ أبي سفيان (غير ذات الشَّوكة)، وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشَّوكة)، وأن تكون معركةً، وقتالاً، وقتلاً، وأسراً، ولا تكون قافلةً، وغنيمةً، ورِحْلةً مريحةً، وقد قال الله ـ سبحانه ـ: إنَّه صنع هذا؛ ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾، وكانت هذه إشارةٌ لتقرير حقيقةٍ كبيرةٍ...

إنَّ الحقَّ لا يحقُّ، وإنَّ الباطل لا يبطلُ ـ في المجتمع الإنسانيِّ ـ بمجرَّد البيان النَّظريِّ للحقِّ والباطل، ولا بمجرَّد الاعتقاد النظريِّ بأنَّ هذا حقٌّ، وهذا باطلٌ، إنَّ الحقَّ لا يحقُّ، وإنَّ الباطل لا يبطل، ولا يذهب من دنيا النَّاس، إلا بأن يتحطَّم سلطان الباطل، ويعلو سلطان الحق، وذلك لا يتمُّ إلا بأن يغلب جند الحقِّ، ويظهروا، ويهزم جند الباطل، ويندحروا.. فهذا الدِّين منهجٌ حركيٌّ واقعيٌّ، لا مجرَّد نظريةٍ للمعرفة، والجدل، أو لمجرد الاعتقاد السَّلبيِّ!

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢١ ـ ١٥٢٢).

ولقد حقَّ الحقُّ وبطل الباطل بالموقعة ، وكان هذا النَّصر العمليُّ فرقاناً واقعيّاً بين الحقِّ والباطل بهذا الاعتبار ، الَّذي أشار إليه قولُ الله تعالى في معرض بيان إرادته ـ سبحانه ـ من وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرَّسول ﷺ من بيته بالحقِّ ، ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشَّوكة) ، ولقاء الفئة (ذات الشَّوكة) .

ولقد كان هذا كلُّه فرقاناً بين منهج هذا الدِّين ذاته ، تتَّضح به طبيعة هذا المنهج ، وحقيقته في حس المسلمين أنفسهم ، وإنَّه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ، حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدِّين من تَمَيُّع في نفوس من يسمُّون أنفسهم مسلمين! ، حتى ليصل هذا التميُّع إلى مفهومات بعض مَنْ يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين! وهكذا كان يوم بدر: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] بهذه المدلولات المنوَّعة ، الشَّاملة ، العميقة .

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ : وفي هذا اليوم مَثَلٌ من قدرته على كلِّ شيء ، مثلٌ لا يجادِل فيه مجادلٌ ، ولا يُماري فيه ممارٍ[١] ، مثلٌ من الواقع المشهود؛ الَّذي لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله ، وأنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير[٢] .

ثالثاً: الولاء والبراء من فقه الإيمان:

رسمت غزوة بدر لأجيال الأمَّة صوراً مشرقةً في الولاء ، والبراء ، وجعلت خطّاً فاصلاً بين الحقِّ ، والباطل ، فكانت الفرقان النَّفسيَّ ، والماديَّ ، والمفاصلة التامَّة بين الإسلام ، والكفر ، وفيها تجسَّدت هذه المعاني ، فعاشها الصَّحابة واقعاً مادِّياً ، وحقيقةً نفسيَّةً ، وفيها تهاوت القيم الجاهليَّة ، فالتقى الابن بأبيه ، والأخ بأخيه :

١ ـ كان أبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة في صفِّ المسلمين ، وكان أبوه عُتبة ، وأخوه الوليد ، وعمُّه شيبة في صفِّ المشركين ، وقد قُتلوا جميعاً في المبارزة الأولى .

٢ ـ كان أبو بكر الصِّدِّيق في صفِّ المسلمين ، وكان ابنه عبد الرَّحمن في صفِّ المشركين .

٣ ـ كان مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين ، وكان أخوه أبو عزيز بن عمير في صفِّ المشركين ، ثمَّ وقع أسيراً في يد أحد الأنصار ، فقال مصعب للأنصاريِّ : شُدَّ يدك به ؛ فإنَّ أمَّه ذاتُ متاع ، فقال أبو عزيز : يا أخي! هذه وصيَّتك بي؟! فقال مصعب : إنَّه أخي دونك ، تلك كانت حقائق ، وليس مجرَّد كلمات : إنَّه أخي دونك[٣]! . إنَّها القيم المطروحة لتقوم الإنسانيَّة

(١) امْتَرى في الشَّيء : شكَّ فيه ، ومَارَاهُ مِرَاءً ومُمَارَاةً : ناظره ، وجَادَلَهُ .
(٢) انظر : في ظلال القرآن (٣/ ١٥٢٣ ـ ١٥٢٤) .
(٣) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٧) .

على أساسها ، فإذا العقيدة هي آصرةُ النَّسب والقرابة ، وهي الرِّباط الاجتماعيُّ[١] .

٤ ـ كان شعار المسلمين في بدرٍ: (أَحَد . . . أَحَد) وهذا يعني: أنَّ القتال في سبيل عقيدةٍ تتمثَّل بالعبوديَّة للإله الواحد، فلا العصبيَّة ، ولا القبلية ، ولا الأحقاد ، ولا الضَّغائن ، ولا الثأر ، هو الباعث والمحرِّك؛ ولكنَّه الإيمان بالله وحدَه .

ومن هذا المنطلق كانت صور الإيمان مختلفة المظاهر، واحدةً في مضمونها[٢] .

وللإيمان فقهٌ عظيمٌ ، ومن هذا الفقه حينما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، هاجر إليها كلُّ من استطاع ذلك من المسلمين في مكَّة ، وحُبِس من كان مضطهداً ، ولم يستطع ذلك ، فلما كان يوم بدر كان بعض هؤلاء في صفِّ المشركين؛ منهم: عبد الله بن سهيل بن عمرو ، والحارث بن زمعة بن الأسود ، وأبو قيس بن الفاكِه ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعليُّ بن أميَّة بن خلف ، والعاصُ بن مُنبِّه .

فأما عبد الله بن سهيل بن عمرو؛ فقد انحاز من صف المشركين إلى رسول الله ﷺ ، فشهد المعركةَ ، وكان أحدَ الصَّحابة الذين نالوا هذا الشَّرف العظيم[٣] .

وأمَّا الآخرون؛ فلم يفعلوا ذلك ، وشهدوا المعركة في صفِّ المشركين ، وقد أُصيبوا جميعاً[٤] ، فقتلوا تحت راية الكفر ، فنزل في حقِّهم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧] ، البخاري (٤٥٩٦)] .

قال ابن عباس: كان قومٌ من المسلمين أقاموا بمكَّة ـ وكانوا يَسْتَخْفُون بالإسلام ـ كان أصحابنا هؤلاء مسلمين ، وأُكرهوا على الخروج ، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ . إنَّهم لم يُعْذروا إذ كانت إمكانات الانتقال إلى صفِّ المؤمنين متوفرةً ، ولم يكن الفاصل كبيراً بين الصَّفين ، ولن يُعدموا ـ لو أرادوا ـ الفرصة في الانتقال إلى رسول الله ﷺ كما فعل عبد الله بن سهيل[٥] .

إنَّ للإيمان مستلزمات تعبِّر عن صدقه ، وقوَّته ، ومن مستلزماته استعلاؤه على كلِّ القيم ممَّا سواه ، فإذا كان كذلك ، كان لصاحبه الأثرُ الفعَّال ، والقوَّة الفاعلة في بناء الحقِّ والخير؛ الَّذي أراده الله ، إنَّ الإيمان يصبُغ السُّلوك ، فإذا به يشعُّ من خلال الحركة والجهد ، ومن خلال

---

(١) انظر: من مَعِين السِّيرة ، ص ٢١٣ .

(٢) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢١٣ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٧ .

(٤) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٢/ ٢٥٣).

(٥) انظر: من معين السيرة ، ص ٢١٧ .

الكلمة ، والابتسامة ، ومن خلال السَّمْتِ[١] ، والانفعال ، ولذا لم يُعذَرِ الَّذين كانوا في صفِّ المشركين ؛ لأنَّ الإيمان الَّذي ادَّعوه لم توجد له مستلزماتٌ ، فلم يُؤتِ ثماره[٢] .

وبهذا الفهم العميق لفقه الإيمان ضرب الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم في بدرٍ مُثُلاً عليا لصدق الإيمان ، الَّتي تدل على أنَّهم آثروا رضاء الله ورسوله ﷺ على حبِّ الوالد ، والولد ، والأهل ، والعشيرة ، فلا يعجبُ المسلم من ثناء الله تعالى على هذه المواقف الصَّادقة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

رابعاً: المعجزات الَّتي ظهرت في بدرٍ وما حولها:

من المعجزات الَّتي ظهرت على يَدَيْ رسول الله ﷺ في بدرٍ إخبارُه عن بعض المغيَّبات ، ومن المعلوم: أنَّ علم الغيب مختصٌّ بالله تعالى وحده ، وقد أضافه الله تعالى إلى نفسه الكريمة في غير آيةٍ من كتابه العزيز ، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥] .

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

ومن المعلوم: أنَّ الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ لا يعلمون الغيب ، ولا اطِّلاع لهم على شيءٍ منه ، فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] .

وكما جاءت الأدلَّة تدلُّ على أنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قد اختصَّ نفسه بمعرفة علم الغيب ، وأنَّه استأثر به دون خلقه ، جاءت أدلَّةٌ تفيد: أنَّ الله تعالى استثنى من خلقه مَن ارتضاه من الرُّسل ، فأودعهم ما شاء الله من غيبه بطريق الوحي إليهم ، وجعله معجزةً لهم ، ودلالةً صادقةً على نبوَّتهم .

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

---

(١) السَّمْت: الهيئة .

(٢) انظر: من معين السيرة ، ص ٢١٨ .

وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧] فنخلص من ذلك إلى أنَّ ما وقع على لسان رسول الله ﷺ من الإخبار بالمغيَّبات؛ فبوحيٍ من الله تعالى، وهو إعلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لرسوله ﷺ للدَّلالة على ثبوت نبوَّته، وصحَّة رسالته، وقد اشتهر وانتشر أمره ﷺ بإطلاع الله له على المغيَّبات[1]، وكان لأحداث غزوة بدرٍ نصيبٌ من تلك المعجزات الغيبيَّة؛ منها:

أ ـ قتل أميَّة بن خلف:

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: انطلق سعدُ بن مُعاذ معتمراً، قال: فنزل على أميَّةَ بن خلف أبي صفوان، وكان أميَّة إذا انطلق إلى الشَّام، فمرَّ بالمدينة نزل على سعدٍ، فقال أميَّة لسعدٍ: ألا تنتظر حتى إذا انتصف النَّهارُ، وغفل النَّاسُ انطلقت فطفتَ! فبينا سعدٌ يطوف إذا أبو جهل، فقال: مَنْ هذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعدٌ: أنا سعدٌ، فقال أبو جهل: تطوفُ بالكعبة آمناً، وقد آويتم محمَّداً، وأصحابه؟ فقال: نعم، فتَلاَحيَا[2] بينهما، فقال أميَّة لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك على أبي الحكم، فإنه سيِّد أهل الوادي، ثمَّ قال سعدٌ: والله! لئن منعتني أن أطوفَ بالبيت لأقطعنَّ متجركَ بالشَّام، قال: فجعل أميَّةُ يقول لسعدٍ: لا ترفعْ صوتك، وجعل يمسكه، فغضب سعد، فقال: دعنا عنك؛ فإنِّي سمعت محمداً ﷺ يزعم: أنَّه قاتلُك، قال: إيَّايَ؟ قال: نعم! قال: والله! ما يكذب محمَّدٌ إذا حدَّث، فرجع إلى امرأته، فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربيُّ؟ قالت: وما قال؟ قال: زعم: أنَّه سمع محمَّداً يزعم: أنَّه قاتلي. قالت: فوالله! ما يكذب محمَّدٌ.

قال: فلمَّا خرجوا إلى بدرٍ وجاء الصَّريخ؛ قالت له امرأته: أما ذكرتَ ما قال لك أخوك اليثربيُّ؟ قال: فأراد ألاَّ يخرجَ، فقال له أبو جهل: إنَّك مِنْ أشراف الوادي، فسِرْ يوماً، أو يومين، فسار معهم، يومين، فقتله الله. [البخاري (٣٦٣٢)].

ب ـ مصارع الطُّغاة:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كنَّا مع عمرَ بين مكَّة، والمدينة، فتراءينا الهلالَ، وكنتُ رجلاً حديدَ البصر[3]، فرأيتُه وليس أحدٌ يزعم: أنَّه رآه غيري، قال: فجعلتُ أقول لعمر: أمَا تراه؟ فجعل يقول: لا يراه. قال: يقول عمر: سأراه، وأنا مُسْتَلْقٍ على فراشي، ثمَّ أنشأ يحدِّثنا عن أهل بـدرٍ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدرٍ بالأمس، يقول: «هذا

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٤٥٣).
(٢) تلاحيا: تلاوما، وتنازعا.
(٣) حديد البصر: أي: نافذ.

مصرعُ فلانٍ غداً؛ إن شاء الله» قال: فقال عمر: فوالَّذي بعثه بالحقِّ، ما أخطؤوا الحدودَ التي حَدَّ رسولُ الله ﷺ. [مسلم (٢٨٧٣)].

جـ- إخبار العباس بن عبد المطَّلب بالمال الَّذي دفنه، وإعلام عُمير بن وهب بالحديث الَّذي حَدَثَ بينه وبين صفوان:

ومن ذلك لمَّا طلب رسول الله ﷺ من عمِّه دفع الفداء، وأجابه العبَّاس: ما ذاك عندي يا رسولَ الله! فقال له: «أين المالُ الذي دفنته أنت، وأمُّ الفضل، فقلتَ لها: إن أُصبت في سفري هذا؛ فهذا المال الَّذي دفنته لبني الفضل، وعبد الله، وقُثم؟» قال: والله يا رسول الله! إنِّي لأعلم أنَّك رسولُ الله؛ إنَّ هذا الأمر ما علمه أحدٌ غيري، وغير أمِّ الفضل.

وما حدَّث به عمير بن وهب لمَّا جاء متظاهراً بفداء ابنه، وهو يريد قتل النَّبيِّ ﷺ باتِّفاقٍ مع صفوان بن أميَّة، فقد أنبأه نبأ المؤامرة، فكانت سبباً في إسلامه، وصدق إيمانه. [سبق تخريجه][1].

ومن المعجزات أيضاً:

ما ذكره ابن القيِّم في زاد المعاد: أنَّ سيف عُكَّاشة بن محصن انقطع يومئذٍ، فأعطاه النَّبيُّ ﷺ جِذْلاً من حطبٍ، فقال: (دونك هذا)، فلمَّا أخذه عُكَّاشة، وهزَّه؛ عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيضَ، فلم يزل عنده يقاتل به حتَّى قُتِل في حروب الردَّة أيام أبي بكرٍ[2]. وقال رفاعة بن رافع: رُميتُ بسهمٍ يوم بدرٍ، ففُقِئت عيني، فبصق فيها رسول الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيءٌ[3].

قال الدُّكتور أبو شهبةَ: وما ينبغي لأحدٍ أن يزعم: أنَّ المعجزات الحسِّيَّة لا ضرورة إليها بعد القرآن، فها هي قد بدت آثارُها واضحةً جليَّةً في إسلام البعض، وتقوية يقين البعض الآخر، وإثبات: أنَّه نبيٌّ يُوحَى إليه، فقد أخبر بمغيَّبات انتفى في العلم بها كل احتمال إلا أنَّه خبر السَّماء، وغير خفيٍّ ما يحدثه من انقلاب عودٍ، أو عُرْجُونٍ[4] في يد صاحبه سيفاً بتَّاراً في إيمانه، وتقوية يقينه، وجهاده به جهاداً لا يعرف التَّردُّد، أو الخور، وحرصه البالغ على أن يخوض المعارك بسيفٍ خرقت به العادة، وصار مثلاً، وذكرى في الأوَّلين، والآخرين[5].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦). وذكر المحقِّق أنَّ ابن إسحاق ذكرها من غير سندٍ.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ١٨٦). والأثر فيه خلاف بين التصحيح والتضعيف.
(٤) العُرْجُون: العِذْقُ، وهو من النَّخل كالعنقود من العنب، والجمع: عرَاجينُ.
(٥) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/ ١٧٨).

خامساً: حكم الاستعانة بالمشرك:

في غزوة بدرٍ ، وفي الأحداث الَّتي سبقتها ، أراد مشركٌ أن يلحق بجيش المسلمين ، وطلب من النَّبيِّ ﷺ الموافقة على قبوله معهم ، والاشتراك فيما هم ذاهبون إليه ، فقال ﷺ : «ارجع ، فلن أستعين بمشرك». [أحمد (٦/١٤٩) ، ومسلم (١٨١٧) . وأبو داود (٢٧٣٢) ، والترمذي (١٥٥٨) ، وابن ماجه (٢٨٣٢)].

فالحديث يبيِّن: أنَّ القاعدة والأصل عدم الاستعانة بغير المسلم في الأمور العامَّة، ولهذه القاعدة استثناءٌ ، وهو جواز الاستعانة بغير المسلم بشروطٍ معيَّنةٍ ، وهي: تحقُّق المصلحة ، أو رجحانها بهـذه الاستعانـة ، وألاَّ يكون ذلك على حساب الدَّعوة ومعانيها ، وأن يتحقَّق الوثوق الكافي بمن يُستعان به ، وأن يكون تابعاً للقيادة الإسلاميَّة ، لا متبوعاً ، ومقوداً فيها لا قائداً لها ، وألاَّ تكون هذه الاستعانة مثارَ شبهةٍ لأفراد المسلمين ، وأن تكون هناك حاجة حقيقيَّةٌ لهذه الاستعانة وبمن يُستعان به ، فإذا تحقَّقت هذه الشُّروط؛ جازت الاستعانـة على وجه الاستثناء ، وإذا لم تتحقَّق؛ لم تَجُزِ الاستعانة ، وفي ضوء هذا الأصل رفض رسولُ الله ﷺ اشتراك المشرك مع المسلمين في مسيرهم إلى عِيرِ قريش؛ إذ لا حاجة به أصلاً.

وفي ضوء الاستثناء ، وتحقُّق شروطه استعان النَّبيُّ ﷺ بالمشرك عبد الله بن أريقط؛ الَّذي استأجره النَّبيُّ ﷺ ، وأبو بكر في هجرتهما إلى المدينة ، ليدلَّهما على الطريق إليها. . وهكذا على هذا الاستثناء ، وتحقُّق شروطه قَبِل ﷺ حماية عمِّه أبي طالب له ، كما قَبِل جوار ، أو إجارة المُطْعِم بن عديٍّ له عند رجوعه ﷺ من الطَّائف ، وكذلك قبول الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم جوار من أجارهم مِنَ المشركين؛ ليدفع هؤلاء الأذى عمَّن أجاروهم[١] ، وضبْطُ هذه القاعدة مع فهم شروط الاستثناء في واقع الحياة يحتاج إلى فقهٍ دقيقٍ ، وإيمانٍ عميقٍ.

سادساً: حذيفة بن اليمان ، وأسيد بن الحضير رضي الله عنهما:

أ ـ حذيفة بن اليمان ووالده:

قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدراً إلا أنِّي وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ ، فأخذنا كفَّار قريش، فقالوا: إنَّكم تريدون محمَّداً، فقلنا: ما نريده؛ إنَّما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرُن إلى المدينة ، ولا تقاتلوا مع محمَّدٍ ﷺ ، فلمَّا جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ ، فذكرنا له ما قالوا ، وما قلنا لهم؛ فما ترى؟ قال: «نستعين الله عليهم ، ونفي بعهدهم» ، فانطلقنا إلى المدينة ، فذاك الَّذي منعنا أن نشهد بدراً. [الحاكم (٣/ ٢٠١ ـ ٢٠٢)].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

هذه صورةٌ مشرقةٌ في حرص النَّبيِّ ﷺ لحفظ العهود ، وتربية أصحابه على تطبيق مكارم الأخلاق الرَّفيعة ، وإن كان في ذلك إجحافٌ بالمسلمين ، ومفوِّتٌ لهم جُهْدَ بعض أفراد المجاهدين .

ب ـ أُسيد بن الحضير :

عندما رجع رسولُ الله ﷺ إلى المدينة قادماً من بدرٍ ؛ لقي بالرَّوْحاء رؤوس النَّاس يهنِّئونه بما فتح الله عليه ، فقال أُسَيْدُ بن الحضير : يا رسول الله! الحمد لله الَّذي أظفرك ، وأقرَّ عينك ، والله يا رسول الله! ما كان تخلُّفي عن بدرٍ ، وأنا أظنُّ أنَّك تلقى عدوّاً ، ولكن ظننت أنَّها عيرٌ ، ولو ظننت : أنَّه عدوٌّ ؛ ما تخلفت ، فقال رسول الله ﷺ : «صَدَقْتَ» [البيهقي في الدلائل (٣/ ١٣٣)][(١)] .

سابعاً : الحرب الإعلاميَّة في بدرٍ :

قال حسَّان رضي الله عنه :

فَمَا نَخْشَىٰ بِحَوْلِ اللهِ قَوْماً ... وَإِنْ كَثُرُوا وأَجْمَعَتِ الزُّحُوفُ
إِذَا مَا أَلبسُوا جَمْعاً عَلَيْنَا ... كَفَانَا حَدَّهُمْ رَبٌّ رَؤُوفُ
سَمَوْنَا يَوْمَ بَدْرٍ بِالعَوَالِي ... سِرَاعاً مَا تُضَعْضِعُنَا الحُتُوفُ[(٢)]
فَلَمْ تُرَ عُصْبَةٌ فِي النَّاسِ أَنْكَىٰ ... لِمَنْ عَادَوْا إِذَا لَقِحَتْ كُشُوفُ
ولكِنَّا تَوَكَّلْنَا وَقُلْنَا ... مَآثِرُنَا وَمَعْقِلُنَا السُّيُوفُ
لَقِيْنَاهُمْ بِهَا لمَّا سَمَوْنَا ... ونَحْنُ عِصَابَةٌ[(٣)] وَهُمُ أُلُوفُ[(٤)]

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه :

ومَا حَامَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... ولا صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ
وَرَدْنَاهُ بِنُورِ الله يَجْلُو ... دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّا والغِطَاءِ
رَسُولُ الله يَقْدُمُنَا بِأَمْرٍ ... مِنَ اَمْرِ الله أُحْكِمَ بِالقَضَاءِ
فَمَا ظَفِرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَدْرٍ ... ومَا رَجَعُوا إِلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ
فَلا تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وارْقُبْ ... جِيَادَ الخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءِ

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٣/ ٣٠٥) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٦) ، الحتوف : جمع حتف ، وهو الموت .
(٣) العِصَابَةُ : الجماعة من الناس .
(٤) هذا محمولٌ على المبالغة ؛ لأنَّ جيش قريش ما كان يزيد على الألف .

بِنَصْـــرِ اللهِ رُوْحُ القُـــدْسِ فِيْهَـــا وَمِيْكَـــالٌ ، فَيَـــا طِيْـــبَ المَـــلاءِ[١][٢]

كان النَّبيُّ ﷺ يحثُّ شعراء المسلمين على القيام بواجبهم في الدِّفاع عن المسلمين، وإخافة الأعداء بِشِعْرِهِمْ ، فقد كان الشِّعر يمثِّل الحملات الإعلاميَّة المؤثِّرة في دنيا العرب ، فيرفع أقواماً ، ويخفض آخرين ، ويُشْعِل الحروب ، ويُطْفِئها[٣].

كانت بوادر الحرب الإعلاميَّة قد اندلعت منذ الهجرة ، غير أنَّ ظهورها أكثرُ بدءاً مع حركة السَّرايا قُبيل بدر ، لكنَّها انفجرت انفجاراً ضخماً بعد بدرٍ؛ لأنَّ الجانب الإعلاميَّ للقبائل المجاورة كان هدفاً مُهمّاً من أهداف الفريقين ، ويظهر: أنَّ القصائد سَرعان[٤] ما تطير بها الرُّكبان بين يثربَ ، ومكَّـةَ ، فيأتي الـردُّ من الطَّرف الآخر ، فعند النَّصر تكثر أشعار الفريق المنتصر ، بينما تكثر المراثي عند الفريق الثَّاني ، وكان الصَّفُّ الإسلاميُّ يضمُّ شعراء متخصِّصين؛ أمثال: كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وكان أشدَّهم على الكفَّار حسانُ[٥].

* * *

(١) أي: ما أطيب الملأ الذين يقودهم جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/ ٣٠).

(٣) انظر: التَّاريخ الإسلاميُّ للحميديِّ (٤/ ١٩٩).

(٤) سرعان ـ بضم السِّين أو فتحها أو كسرها ـ: تقولها للتَّعجُّب من السُّرعة.

(٥) انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

المبحث الثَّامن
أهمُّ الأحداث الَّتي وقعت بين غزوتي بدرٍ ، وأحد[(١)]

في أعقاب غزوة بدرٍ أخذت الهيبة العسكريَّة للمسلمين مداها الكبير ، في دائرةٍ واسعةٍ في الجزيرة العربيَّة ، وأحسَّ ضعفاء المشركين بالخطر ، وشعر أقوياؤهم بغلبة الإسلام ، وبدأت النُّفوس تتطلَّع إلى الإيمان ؛ فتوسَّعت دائرة الدُّخول في الإسلام ، ورأى الكثيرون أن يدخلوا في الإسلام نفاقاً ، أو خديعةً ؛ وبهذا كلِّه أصبحت الدَّولة الجديدة أمام أوضاعٍ جديدةٍ من المكر ، والتَّألُّب ، والتَّحالفات ؛ ولكنَّ تأييد الله تعالى ، ثمَّ جهاز أمن الدَّولة المتيقِّظ أفشل مخطَّطاتِ أعداء الإسلام[(٢)] .

أولاً : الغزوات الَّتي قادها رسول الله ﷺ بعد بدرٍ ، وقبل أُحدٍ :

١ ـ ماء الكُدْر[(٣)] في بني سُليم :

غزا النَّبيُّ ﷺ بعد سبع ليالٍ من عودته إلى المدينة من غزوة بدرٍ ، وبلغ ماء الكُدْر في ديار بني سُلَيم ، الَّذين قصدهم بغزوته هذه ، غير أنَّه لَمْ يلقَ حرباً ؛ فأقام ثلاث ليالٍ على الماء ، ثمَّ رجع إلى المدينة[(٤)] ، وكان سبب تلك الغزوة ، تجمُّع أفراد بني سُلَيم لمقاتلة المسلمين ، والاعتداء عليهم بعد معركة بدرٍ مباشرة ، ولكنَّ رسول الله ﷺ فاجأهم بهجومٍ سريعٍ غير متوقَّع ، فهرب بنو سليم ، وتفرَّقوا على رؤوس الجبال ، وبقيت إبلهم مع راعٍ لها يُدعى يساراً ، فاستاق رسولُ الله ﷺ الإبلَ مع راعيها ، وعند موضع صرار على ثلاثة أميال من المدينة قسَّم النَّبيُّ ﷺ الإبل ـ الَّتي كان عددها خمسمئة بعير ـ على أصحابه ، فأصاب الواحد منهم بعيرين ، ونال النَّبيُّ ﷺ خُمْسَها ، وكان يسار من نصيبه ، ولكنَّه أعتقه بعد ذلك[(٥)] .

٢ ـ غزوة السَّويق :

قدم أبو سفيان بمئتي فارسٍ من مكَّة ، وسلك طريق النَّجديَّة ؛ حتَّى نزلوا حيَّ بني النضير

---

(١) ينظر الشكل (١) في الصفحة (٦٠٥) .
(٢) انظر : الأساس في السُّنَّة ، وفقهها ، السِّيرة النَّبوية (١/ ٥١٢) .
(٣) الكُدْر : ماء من مياه بني سُليم يقع في نجد .
(٤) انظر : موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٢٩٦) .
(٥) انظر : التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ ، ص ٢٧٧ .

ليلاً ، واستقبلهم سلاّم بن مِشْكَم سيِّدُ بني النَّضير ، فأطعمهم ، وسقاهم ، وكشف لهم عن أسرار المسلمين ، وتدارس معهم إحدى الطُّرق لإيقاع الأذى بالمسلمين ، ثمَّ قام أبو سفيان بمهاجمة ناحية العُرَيْض ـ وادٍ بالمدينة في طرف حَرَّةِ وَاقِم ـ فقتل رجلين ، وأحرق نخلاً ، وفرَّ عائداً إلى مكَّة ، فتعقَّبه رسول الله ﷺ في مئتي رجلٍ من المهاجرين ، والأنصار ، ولكنَّه لم يتمكن من إدراكهم ؛ لأنَّ أبا سفيان ورجاله قد جدُّوا في الهرب ، وجعلوا يتخفَّفون من أثقالهم ، ويُلْقون السَّويق[1] التي كانوا يحملونها لغدائهم ، وكان المسلمون يمرُّون بهذه الجُرب ، فيأخذونها ؛ حتَّى رجعوا بسَوِيقٍ كثيرٍ ، لذا سمِّيت هذه الغزوة بغزوة السَّوِيق ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمسة أيام دون أن يلقى حرباً[2] .

٣ ـ غزوة ذي أمر :

جاءت الأخبار من قِبَلِ رجال الاستخبارات الإسلاميَّة ، تفيد بأنَّ رجال قبيلتي ثعلبة ، ومحارب تجمَّعوا بذي أمر ، بقيادة دُعْثُور بن الحارث المحاربيِّ ، يريدون حرب رسول الله ﷺ ، والإغارة على المدينة ، فاستعمل النَّبيُّ ﷺ على المدينة عثمان بن عفَّان ، وخرج في أربعمئة وخمسين من المسلمين بين راكبٍ ، وراجلٍ ، فأصابوا رجلاً بذي القَصَّة يقال له : جُبَار من بني ثعلبة ، كان يحمل أخباراً عن قومه ، أسرَّ بها إلى رسول الله ﷺ ، وقد دخل في الإسلام ، وانضمَّ إلى بلال ليتفقَّه في الدين[3] .

أمَّا المشركون من بني ثعلبة ، ومحارب ما لبثوا أن فرُّوا إلى رؤوس الجبال عند سماعهم بمسير المسلمين ، وبقي رسولُ الله ﷺ في نجد مدةً تقارب الشَّهر دون أن يلقى كيداً من أَحَدٍ ، وعاد بعدها إلى المدينة[4] .

وفي هذه الغزوة أسلم دُعثور بن الحارث الَّذي كان سيِّداً مطاعاً ، بعد أن حدثت له معجزة على يديْ رسول الله ﷺ ؛ فقد أصاب المسلمين في هذه الغزوة مطرٌ كثيرٌ ، فابتلَّت ثياب رسول الله ﷺ ، فنزل تحت شجرة ، ونشر ثيابه لتجفَّ ، واستطاع دُعثور أن ينفرد برسول الله ﷺ بسيفه ، فقال : يا محمد ! من يمنعك منِّي اليوم ؟ قال : الله . ودفع جبريل صدره ، فوقع السَّيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ ، فقال : من يمنعك منِّي ؟ قال : لا أحد! وأنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، والله لا أكثرُ عليك جمعاً أبداً! فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه ،

(١) السَّوِيقُ : هو أن تحمَّص الحنطة ، أو الشَّعير ، أو نحو ذلك ، ثمَّ تطحن ، ثمَّ يسافر بها ، وقد تمزج باللَّبن ، والعسل ، والسَّمن ، وتلتُّ ، فإن لم يكن شيء من ذلك ؛ مزجت بالماء ، والجمع : أَسْوِقَةٌ .
(٢) انظر : السِّيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٥١)، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٣) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٣) ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٩ .
(٤) انظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٧٩ .

فلمَّا رجع إلى أصحابه؛ قالوا: ويلك! ما لك؟ فقال: نظرت إلى رجلٍ طويلٍ ، فدفع صدري ، فوقعت لظهري ، فعرفت: أنَّه مَلَكٌ ، وشهدت أنَّ محمَّداً رسول الله ، والله لا أكثر عليه جمعاً: وجعل يدعو قومه إلى الإسلام. [البيهقي في الدلائل (٣/١٦٨ ـ ١٦٩)](١).

ونزل في ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١].

٤ ـ غزوة بَحْران(٢):

كانت هذه الغزوة في شهر جُمادى الأولى من السَّنة الثالثة للهجرة ، وقد خرج النَّبيُّ ﷺ في ثلاثمئةٍ من المسلمين؛ حتَّى بلغ بَحْرَانَ بين مكَّة ، والمدينة ، يريد قتال بني سُلَيم ، فوجدهم قد تفرَّقوا ، فانصرف عنهم ، وعاد إلى المدينة بعد أن أمضى خارجها عَشْرَ ليالٍ(٣).

ونلحظ في هذه الغزوات قدرة القيادة الإسلاميَّة على رصد تحرُّكات العدوِّ ، ومعرفة قوَّته ، وخططه ، ومدده؛ لكي تحطِّم هذه التَّجمُّعات المناوئة للدَّولة الإسلاميَّة الفتيَّة قبل أن يستفحل أمر هذه القبائل ، وتصبح خطراً على المدينة.

وهذه الغزوات في هذه الصَّحراء المترامية الأطراف كانت دوراتٍ تدريبيةً تربويَّةً للصَّحابة الكرام ، وسعدت سرايا الصَّحابة بقيادة النَّبيِّ ﷺ لها ، فقد كانت تلك الدَّورات العمليَّة التَّدريبيَّة القتاليَّة التَّربويَّة مستمرةً ، وتمتدُّ من خمسة أيام إلى شهر ، تتمَّ فيها الحياة الجماعيَّة، ويتربَّى جنود الإسلام، على السَّمع ، والطَّاعة ، والتَّدريب المتقن ، ويكتسبون خبراتٍ جديدةً تساعدهم على تحطيم الباطل ، وتقوية الحقِّ.

لقد كان المنهاج النَّبويُّ الكريم يهتمُّ بتربية الصَّحابة في ميادين النِّزال ، ولا يَغْفُلُ عن المسجد النَّبويِّ ودوره في صقل النُّفوس، وتنوير العقول ، وتهذيب الأخلاق من خلال وجود المربِّي العظيم ﷺ ، الَّذي أصبحت تعاليمُه تشعُّ في أوساط المجتمع من خلال القُدوة ، والعبادة الخاشعة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ؛ فالمنهاج النبويُّ الكريم جمع بين الدَّورات المسجديَّة التَّربويَّة، والدَّورات العسكريَّة التَّربويَّة المكثَّفة؛ لكي يَقْوَى المجتمع الجديد، وتُرَصُّ صفوفُه، ويكسب الخبرات؛ لكي يقوم بنشر الإسلام في الآفاق(٤).

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣) ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية وسبب ورودها.

(٢) بحران: كتبها بعضهم بفتح الباء (بَحْران) ، وبعضهم بضمها (بُحْران).

(٣) انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ٦١ ، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٢٨٠.

(٤) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/١١٨ ـ ١١٩).

٥ ـ سرية زيد بن حارثة إلى القَرْدَة:

أصبح مشركو مكَّة بعد هزيمتهم في بدرٍ يبحثون عن طريقٍ أخرى لتجارتهم للشَّام ، فأشار بعضهم إلى طريق نجدٍ العراق ، وقد سلكوها بالفعل ، وخرج منهم تُجَّار ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، وصفوان بن أميَّة ، وحويطب بن عبد العُزَّى ، ومعهم فضَّةٌ ، وبضائع كثيرةٌ ، بما قيمته مئة ألف درهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ بواسطة أحد أفراد جهاز الأمن الإسلاميِّ ، يُدعى سليط بن النُّعمان رضي الله عنه[١] ، فبعث زيدَ بن حارثة في مئة راكبٍ لاعتراض القافلة ، فلقيها زيد عند ماءٍ يقال له: القَرْدَة ، وهو ماء من مياه نجدٍ ، ففرَّ رجالها مذعورين ، وأصاب المسلمون العِيرَ وما عليها ، وأسروا دليلَها فُرات بن حَيَّان؛ الَّذي أسلم بين يدي النَّبيِّ ﷺ ، وعادوا إلى المدينة ، فخَمَّسَهَا رسولُ الله ﷺ ، ووزَّع الباقي بين أفراد السَّرِيَّة[٢] .

ثانياً: غزوة بني قَيْنُقَـاع[٣]:

ذكر الزُّهريُّ: أنَّها وقعت في السَّنة الثَّانية للهجرة ، وذكر الواقديُّ ، وابن سعدٍ: أنها وقعت يوم السَّبت للنِّصف من شوال من السَّنة الثَّانية[٤] ، واتَّفق معظم من كَتَبَ في مغازي رسول الله ﷺ ، وسيرته على أنَّها وقعت بعد معركة بدرٍ؛ إذ لم يلتزم يهود بني قينقاع بالمعاهدة الَّتي أبرمها الرَّسول ﷺ معهم ، ولم يوفوا بالتزاماتهم الَّتي حدَّدتها ، ووقفوا من الرَّسول ﷺ والمسلمين مواقفَ عدائيَّةً ، فأظهروا الغضب ، والحسد عندما انتصر المسلمون في بدرٍ ، وجاهروا بعداوتهم للمسلمين[٥] .

وقد جمعهم النَّبيُّ ﷺ في سوقهم بالمدينة ، ونصحهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، وحذَّرهم أن يصيبهم ما أصاب قريشاً في بدرٍ[٦]؛ غير أنَّهم واجهوا النَّبيَّ ﷺ بالتَّحدِّي ، والتَّهديد ، رغم ما يُفترض أن يلتزموا به من الطَّاعة ، والمتابعة لبنود المعاهدة الَّتي جعلتهم تحت رئاسته ، فقد جابهوه بقولهم: «يا محمد! لا يغرنَّك من نفسك أنَّك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً ، لا يعرفون القتال ، إنَّك لو قاتلتنا لعرفت: أنَّا نحن النَّاس ، وأنَّك لم تلقَ مثلنا»[٧] .

وهكذا بدأت الأزمة تتفاعل؛ إذ لم يكن في جوابهم ما يشير إلى الالتزام ، والاحترام؛ بل

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٣٢).
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٦).
(٣) ينظر الشكل (٢) في الصفحة (٦٠٦).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّـة الصَّحيحة (١/ ٢٩٩).
(٥) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/ ٢٦٩).
(٦) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٧٦).
(٧) المصدر السَّابق نفسه.

على العكس؛ فإنَّهم قد أظهروا رُوحاً عدائيَّةً، وتحدِّياً، واستعلاءً، واستعداداً للقتال، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ فيهم قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٢ ـ ١٣].

١ ـ الأسباب المباشرة للغزوة:

لمَّا انتصر المسلمون في بدرٍ، وقال رسول الله ﷺ لليهود ما قال؛ أضمرت بنو قينقاع نقض العهد الَّذي بينهم وبين المسلمين، وأخذوا يتحيَّنون الفرصة السَّانحة لمناوشة المسلمين، حتَّى جاءتهم فرصتُهم الحقيرة الدَّنيئة؛ عندما جاءت امرأةٌ من العرب بِجَلَبٍ[١] لها، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ يهوديٍّ، فجعلوا يُريدونها على كَشْفِ وجهها، فأبت، فعمد الصَّائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلمَّا قامت انكشفت سَوْءَتُها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجلٌ من المسلمين على الصَّائغ فقتله ـ وكان يهوديّاً ـ وشدَّت اليهود على المسلم، فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، فوقع الشَّرُّ بينهم، وبين بني قينقاع[٢].

فحين علم رسول الله ﷺ بذلك، سار إليهم على رأس جيشٍ من المهاجرين، والأنصار، وذلك يوم السَّبت للنِّصف من شوَّال من السَّنة الثَّانية للهجرة[٣]، وكان الَّذي حمل لواء المسلمين يومئذٍ حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، واستخلف ﷺ على المدينة أبا لُبَابَةَ بن عبد المنذر العمريَّ[٤]، واسمه: بشير[٥]. وحين سار إليهم رسول الله ﷺ؛ نبذ إليهم العهد، كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٨].

٢ ـ ضرب الحصار عليهم:

وحين علم اليهود بمقدَمه ﷺ؛ تحصَّنوا في حصونهم، فحاصرهم النَّبيُّ ﷺ خمسَ عَشْرَةَ ليلةً ـ كما ذكر ابن هشام ـ[٦]، واستمرَّ الحصار حتَّى قذف الله في قلوبهم الرُّعب، واضطروا

---

(١) الجَلَبُ: كلُّ ما يجلب للأسواق؛ ليُباع فيها.
(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٤).
(٣) انظر: المغازي، للواقديِّ (١/ ١٧٦)، والطَّبقات، لابن سعد (٢/ ٢٨ ـ ٢٩).
(٤) انظر: تاريخ الطَّبريِّ (٢/ ٤٨١).
(٥) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٧٩).
(٦) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٥٥).

للنُّزول على حكمه ﷺ ، فقد فاجأهم ﷺ بأسلوب الحصار ، فأربكهم ، وأوقعهم في حيرةٍ من أمرهم؛ بعد أن قطع عنهم كلَّ مددٍ ، وجمَّد حركتهم ، فعاشوا في سجنٍ؛ ممَّا جعلهم في النِّهاية ييأسون من المقاومة ، والصَّبر ، فبعد أن كانوا يهدِّدون رسول الله ﷺ ، وبأنَّهم قوم يختلفون بأساً ، وشدَّةً عن مشركي قريش ، إذا بهم يضطرون للنُّزول على حكم رسول الله ﷺ[١] ، فأمر بهم ، فرُبطوا ، فكانوا يكتَّفون أكتافاً ، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السَّلميَّ الأوسيَّ[٢] .

٣ـ مصير يهود بني قينقاع:

حاول ابن سلول زعيم المنافقين أن يحلَّ حلفاءه مِنْ وثَاقِهِم ، فعندما مرَّ عليهم قال: حُلُّوهم ، فقال المنذر: أتحلُّون قوماً ربطهم رسول الله ﷺ ؟! والله لا يحلُّهم رجلٌ إلا ضَرَبْتُ عنقه[٣] ، فاضطر عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول أن يتراجع عن أمره ، ويلجأ إلى استصدار الأمر من النَّبيِّ ﷺ بفكِّ أسرهم[٤] ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال: يا محمد! أَحْسِنْ في مواليَّ ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ ، قال: فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد! أحسن في مواليَّ ، قال: فأعرض عنه ، فأدخل ابن أُبيٍّ يده في جيبِ درعِ رسولِ الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : «أرسلني» وغضب رسول الله ﷺ ، حتَّى رأوا لوجهه ظُللاً[٥] ، ثمَّ قال: «ويحك! أرسلني» ، قال: لا والله ، لا أرسلك حتَّى تُحسِن في مواليَّ؛ أربعمئة حاسرٍ[٦] ، وثلاثمئة دارع ، قد منعوني من الأحمر ، والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة؟ إنِّي والله امرؤ أخشى الدَّوائر! فقال رسول الله ﷺ : «هم لك» [الطبراني في تاريخه (٢/ ٤٨٠) ، والواقدي في مغازيه (١/ ١٧٧ ـ ١٧٨) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٧٤) ، وابن هشام (٣/ ٥١ ـ ٥٢)][٧] .

فخلَّى رسولُ الله ﷺ سبيلَهم ، ثمَّ أمر بإجلائهم ، وغنم رسول الله ﷺ والمسلمون ما كان لديهم من مالٍ ، وقد تولَّى جمع أموالهم ، وإحصاءها محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه[٨] ، وحاول ابن أُبي بن سلول أن يحدِّث رسولَ الله ﷺ في يهود بني قينقاع؛ لكي يُقرَّهم في ديارهم ، فوجد على باب رسول الله ﷺ عُويم بن ساعدة الأنصاريَّ الأوسيَّ ، فردَّه عويم ، وقال: لا تدخل

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/ ١٤٤).
(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهرة (١/ ٢٨٠).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٥/ ٣٢ ـ ٣٣).
(٤) المصدر السَّابق نفسه.
(٥) ظللاً: جمع ظلَّة ، وهي السَّحابة ، وهي كناية عن تغيُّر وجه النَّبي ﷺ .
(٦) حاسر: لا درع له.
(٧) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٨١).
(٨) المصدر السابق نفسه.

حتَّى يأذن رسول الله ﷺ لك، فدفعه ابن أُبيٍّ، فغلَّظ عليه عويم، حتَّى جَحَش[١] وجهَ ابن أُبيٍّ الجدارُ، فسال الدَّم[٢].

ويظهر في هذا الخبر، فقه النَّبيِّ ﷺ السِّياسيُّ في تعامله مع ابن سلول، حيث لبَّى طلبه، فلعلَّ هذا الموقف يغسل قلبه، ويزيل الغشاوة عنه، فتتمُّ هدايته، فقال له: «هم لك»، ولعلَّ الَّذين يسيرون وراء زعامة ابن أُبيٍّ يَصْلُحون بصلاحه، فيتماسك الصَّفُّ، ويلتحم؛ فلا يتأثر مِنْ كيد أعداء الإسلام[٣].

وهناك بُعدٌ آخر؛ حيث حرص ﷺ أن يتفادى حدوث فتنةٍ في مجتمع المؤمنين؛ حيث إنَّ بعض الأنصار حديثو عهدٍ بالإسلام، ويُخشى أن يؤثِّر فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبيٍّ لسمعته الكبيرة فيهم[٤]؛ ولذلك سلك ﷺ معه أسلوب المداراة، والصَّبر عليه، وعلى إساءاته؛ تجنُّباً للفتنة، وإظهاراً لحقيقة الرَّجل من خلال تصرُّفاته، ومواقفه عند مَنْ يجهلها، ومِنْ ثَمَّ يفرُّ النَّاس مِنْ حوله، ولا يتعاطفون معه، وقد حقَّق هذا الأسلوب نجاحاً باهراً، فقد ظهرت حقيقة ابن سلولٍ لجميع النَّاس؛ حتَّى أقرب النَّاس إليه، ومنهم ولده عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكلَّم؛ أسكتوه، وتضايقوا من كلامه[٥]، بل أرادوا قتله ـ كما سيأتي بإذن الله تعالى ـ.

٤ ـ تبرُّؤ عبادة بن الصَّامت منهم:

لمَّا نقضت العهدَ بنو قينقاع، سار عُبادة بن الصَّامت أحد بني عوف ـ لهم من حلف بني قينقاع مثل الَّذي لهم من عبد الله بن أُبيٍّ ـ لرسول الله ﷺ، وخلعهم إليه، وتبرَّأ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإلى رسوله ﷺ من حلفهم، وقال: يا رسول الله! أتولَّى الله ورسولَه ﷺ، والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفّار، وولايتهم[٦].

ولمَّا تقرَّر جلاء بني قينقاع، أمر رسولُ الله ﷺ عُبادة بن الصَّامت أن يُجليَهم، فجعلت قينقاع تقول: يا أبا الوليد! من بين الأوس والخزرج ـ ونحن مواليك ـ فعلت هذا بنا؟ قال لهم عبادة: لمَّا حاربتم جئتُ رسولَ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله! إنِّي أبرأ إليك منهم، ومن حلفهم، وكان ابن أُبيٍّ، وعبادة بن الصَّامت منهم بمنزلةٍ واحدةٍ في الحلف، فقال عبد الله بن أُبيٍّ: تبرَّأتَ من حلف مواليك؟! ما هذا بيدهم عندك، فذكَّره مواطن قد أبْلَوْا فيها، فقال عبادة:

---

(١) جَحَشَ: خَدَشَ.
(٢) انظر: التاريخ الإسلاميّ، للحميديِّ (٥/ ٣٠).
(٣) انظر: المنهج الحركي للسِّيرة النَّبوية، للغضبان، ص ٢٤٧.
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٥/ ٣٢).
(٥) انظر: الصِّراع مع اليهود، لأبي فارس (١/ ١٤٨).
(٦) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

يا أبا الحُبَاب! تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلام العهود ، أما والله! إنك لمُعْصِمٌ بأمرٍ سنرى غيَّه غداً ، فقالت قينقاع: يا محمد! إنَّ لنا دَيْناً في النَّاس ، قال النَّبيُّ ﷺ : «تعَجَّلوا ، وضعوا» وأخذهم عبادة بالرَّحيل ، والإجلاء ، وطلبوا التنفُّس ، فقال لهم: ولا ساعةً من نهارٍ ، لكم ثلاث لا أزيد عليها ، هذا أمر رسول الله ﷺ ، ولو كنت أنا ما نفَّستكم ، فلمَّا مضت ثلاث ، خرج في آثارهم حتَّى سلكوا إلى الشَّام ، وهو يقول: الشَّرف الأبعد ، الأقصى ، فالأقصى ، وبلغ خلف الذُّباب ثمَّ رجع ، ولحقوا بأذرعاتٍ(١) .

وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين ، قد ألقَوا سلاحَهم ، وتركوا أموالهم غنيمةً للمسلمين ، وهم كانوا من أشجع يهود المدينة ، وأشدِّهم بأساً ، وأكثرهم عدداً وعُـدَّةً ؛ ولذلك لاذت القبائل اليهوديَّة بالصَّمت ، والهدوء ، فترةً من الزَّمن بعد هـذا العقاب الرَّادع ، وسيطـر الرُّعب على قلوبهـا ، وخُضِدَتْ شوكتُها(٢) .

٥ ـ الآيات الَّتي نزلت في موالاة ابن سلول لليهود ، وبراءة عُبادة بن الصَّامت منهم :

قال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥١ ـ ٥٦] .

قال ابن عطيَّة في هذه الآيات: لمَّا انقضت بدرٌ ، وشجر أمر بني قينقاع ؛ أراد رسول الله ﷺ قتلهم ، فقام دونهم عبدُ الله بن أبيٍّ بن سلول ـ وكان حليفاً لهم ـ وكان لعبادة بن الصَّامت من حلفهم مثل ما لعبد الله ، فلمَّا رأى عُبادة منزع رسول الله ﷺ ، وما سلكتْه اليهود من المشاقَّة لله ، ولرسوله ﷺ ؛ جاء إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقال: يا رسول الله! إنِّي أبرأُ إلى الله من حلف يهود ، وولائهم ، ولا أُوالي إلا الله ، ورسولَه ، وقال عبدُ الله بن أُبيٍّ: أما أنا فلا أبرأ من ولاء يهود ، فإنِّي لابدَّ لي منهم ، إنِّي رجلٌ أخاف الدَّوائر(٣) .

إنَّ الفرق واضحٌ بين ابن سلول الَّذي انغمس في النِّفاق ، وبين عبادة بن الصَّامت رضي الله

(١) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥) .
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/ ١٤٩) .
(٣) انظر: المحرر الوجيز ، لابن عطيَّة (١/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨) .

عنه الَّذي تربَّى على المنهاج النَّبويِّ ، فَصَفَتْ نفسه ، وتطهَّر قلبُه ، وقوي إيمانه ، وتنوَّر عقله ، فتخلَّص من آثار العصبية الجاهليَّة ، والأهواء ، والمصالح الذَّاتية ، وقدم مصلحة الإسلام على كلِّ مصلحةٍ ، فكان مثلاً حيّاً للمسلم الصَّادق المخلص لعقيدته[١] .

ثالثاً: تصفية المُحَرِّضين على الدَّولة الإسلاميَّة ، ومقتل كعب بن الأشرف:

إنَّ خطر المحرِّضين على الفتنة لا يقلُّ عن خطر الَّذين يشهَرون السُّيوف لقتال المسلمين ؛ إذ لولا هؤلاء المحرِّضون لما قامت الفتنة ؛ لذلك أخذ رسولُ الله ﷺ يتتبَّع هؤلاء المحرِّضين ، ويقتُلهم ؛ إطفاءً لنار الفتنة ، وتمكيناً للحقِّ ، وقد قَتل منهم خلقاً بعد موقعة بدرٍ[٢] ، ومنهم:

أ ـ عصماء بنت مَرْوان: الَّتي كانت تحرِّض على النَّبيِّ ﷺ ، وتعيب الإسلام ، فقد أقدم عُمَيْرُ بنُ عديٍّ الخُطميُّ رضي الله عنه على قتلها ، وحين سأل النَّبيَّ ﷺ بعد ذلك عمَّا إذا كان عليه شيء ؟ قال له النَّبيُّ ﷺ : «نصرت الله ورسوله يا عمير!» ، ثمَّ قال: «لا ينتطح فيها عنزان» [الخطيب البغدادي في تاريخه (١٣/ ٩٩)، وكشف الخفاء (٣١٣٧)]، وقد أسلم نتيجة ذلك عددٌ من بني خَطَمَةَ ، وجهر بالإسلام منهم مَنْ كان يستخفي[٣] .

ب ـ مقتل أبي عفكٍ اليهوديِّ:

كان أبو عفك شيخاً كبيراً من بني عمرو بن عوف ، وكان يهودياً ، يُحرِّض على رسول الله ﷺ ويقول الشِّعر ، فقال رسول الله ﷺ : «من لي بهذا الخبيث؟» فخرج له الصَّحابيُّ سالم بن عُمَيْرٍ ، فقتله[٤] .

وأهمُّ حدثٍ في تصفية المحرِّضين على الدَّولة ما بين بدرٍ ، وأُحدٍ هو مقتل كعب بن الأشرف .

جـ ـ مقتل كعب بن الأشرف:

ينتسب كعب بن الأشرف إلى بني نَبْهان من قبيلة طيِّىء ، وكان أبوه قد أصاب دماً في الجاهليَّة ، فقدم المدينة ، وحالف يهود بني النَّضير ، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق ، فولدت له كعباً[٥] ، وكان شاعراً ، ناصب الإسلام العداء ، وقد غاظه انتصار المسلمين على قريشٍ في معركة بدرٍ ، فسافر إلى مكَّةَ يهجو النَّبيَّ ﷺ ، ويحرِّض قريشاً على الثأر لقتلاهم ، الَّذين كان ينوح

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (١/ ٣٠٢) .
(٢) انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١٣٨ .
(٣) انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/ ٢٩٥) .
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٩٦) .
(٥) انظر: السِّيرة ، لابن هشام (٣/ ٥٨) .

عليهم ، ويبكيهم في شعره ، ويدعو إلى القضاء على الرَّسول ﷺ ، والمسلمين[١] ، وممَّا قاله من الشِّعر في قتلى بدرٍ من المشركين :

طَحَنَتْ رَحَىٰ بَدْرٍ لِمُهْلَكِ أَهْلِهِ	وَلِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمَعُ
قُتِلَتْ سُرَاةُ النَّاس حَوْلَ حِيَاضِهِمْ	لا تَبْعَدُوا إِنَّ المُلُوكَ تُصَرَّعُ
كَمْ قَدْ أُصِيبَ بِهَا مِن ابْيَضَ مَاجِدٍ	ذِي بَهْجَةٍ تَأْوِي إِلَيْهِ الضُّيَّعُ
ويَقُولُ أَقْوَامٌ أُذَلُّ[٢] بِسُخْطِهِمْ	إِنَّ ابنَ الأَشْرَف ظَلَّ كَعْباً يَجْزَعُ
صَدَقُوا فَلَيْتَ الأَرْضَ سَاعَةَ قُتِّلُوا	ظَلَّتْ تَسُوخُ بِأَهْلِهَا وتَصَدَّعُ
نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي كِنَانَةَ كُلَّهُمْ	خَشَعُوا لِقَوْلِ أَبِي الوَلِيْدِ وَجُدِّعُوا[٣]

واستمرَّ كعب بن الأشرف في أذيَّة رسول الله ﷺ بالهجاء ، وتشجيع قريشٍ لمحاربة المسلمين ، واستغواهم على رسول الله ﷺ ، فقال له أبو سفيان : أناشدك الله ، أدينُنا أحبُّ إلى الله أم دين محمَّدٍ ، وأصحابه؟ قال : أنتم أهدى منهم سبيلاً[٤] ، ثمَّ خرج مقبلاً قد أجمع رأي المشركين على قتال رسول الله ﷺ ، معلناً بعداوته وهجائه[٥] .

ولمَّا قدم المدينة؛ أعلن معاداة النَّبيِّ ﷺ ، وشرع في هجائه ، وبلغت به الوقاحة والصَّلَفُ[٦] أن يمتدَّ لسانه إلى نساء المسلمين ، وشَبَّب بأمِّ الفضل بنت الحارث رضي الله عنها زوجة العبَّاس عمِّ النَّبي ﷺ ، فقال فيها :

أَذَاهِبٌ أَنْتَ لَمْ تَحْلُلْ بِمَنْقَبَةٍ	وتَارِكٌ أَنْتَ أَمَّ الفَضْلِ بالحَرَمِ
صَفْرَاءُ رَادِعَةٌ لَوْ تُعْصَرُ انْعَصَرتْ	مِنْ ذِي القَوارِيْرِ والحِنَّاء والكَتَمِ[٧]
إِحْدَىٰ بَنِي عَامِرٍ هَامَ الفُؤادُ بها	وَلَوْ تَشَاءُ شَفَتْ كَعْباً مِنَ السَّقَمِ
لَمْ أَرَ شَمْساً بِلَيْلٍ قَبْلَهَا طَلَعَتْ	حَتَّى تَبَدَّتْ لَنَا فِي لَيْلَةِ الظُّلَمِ[٨]

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/ ٢٩٨) .
(٢) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٨ .
(٣) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٨ ، والسيرة النبويَّة لابن هشام (٣/ ٥٧) .
(٤) المصدر السَّابق نفسه .
(٥) المصدر السَّابق نفسه .
(٦) الصَّلَفُ : التكبُّر والتَّفاخر .
(٧) رادعة : أي : يفوح منها أثر الطِّيب والزَّعفران ، والكتم : نبتٌ يخلط بالحنَّاء ، فيخضَّب به الشَّعر ، فيبقى لونه .
(٨) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ ، قسم المغازي .

١ ـ حسَّان بن ثابت لابن الأشرف بالمرصاد:

كان رسولُ الله ﷺ يحثُّ حسَّاناً للتصدِّي لكعب بن الأشرف ، فكان ﷺ يُعْلِم حسَّاناً أين نزل ابن الأشرف في مكَّة؟ فعندما نزل على المطَّلب بن أبي وَدَاعة بن ضبيرة السَّهمي وزوجته عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص ، فأبلغ ﷺ حسَّان بن ثابت بذلك ، فهجاهم لإيوائهم ابن الأشرف ، فلمَّا بلغ عاتكة بنت أسيد هِجَاءُ حسان ، نبذت رحل اليهوديِّ كعب بن الأشرف ، وقالت لزوجها: مالنا ولهذا اليهوديِّ؟ ألا ترى ما يصنع بنا حسَّان؟![1] .

وتحوَّل كعب إلى أناسٍ آخرين ، وكان كلَّما تحوَّل إلى قومٍ ، دعا رسولُ الله ﷺ حساناً ، وأخبره أين نزل ابن الأشرف ، فيهجو مَنْ نزل عندهم ، فيطردونه ، وظلَّ يلاحقه حتَّى لفظه كلُّ بيتٍ هناك ، فعاد إلى المدينة راغماً بعد أن ضاقت في وجهه السُّبل ينتظر مصيره المحتوم ، وجزاءه الَّذي يستحقُّه[2] .

كانت الحرب الإعلاميَّة التي شنَّها حسَّان ضدَّ كعب بن الأشرف ، قد حققت أهدافها؛ وهذه بعض الأبيات الَّتي قالها حسَّان بن ثابت رضي الله عنه في الردِّ على كعب بن الأشرف:

أَبَكَى لِكَعْبٍ ثُمَّ عُلَّ[3] بِعَبْرَةٍ ... مِنْهُ وَعَاشَ مُجَدَّعاً لاَ يَسْمَعُ؟
وَلَقَدْ رأَيْتُ بِبَطْنِ بَدْرٍ مِنْهُمُ ... قَتْلَى تَسُحُّ لَهَا العُيُونُ وتَدْمَعُ
فَابْكِ فَقَدْ أَبْكَيْتَ عَبْداً رَاضِعاً ... شِبْهَ الكُلَيْبِ إِلَى الكُلَيْبَةِ يَتْبَعُ
وَلَقَدْ شَفَى الرَّحْمٰنُ مِنَّا سَيِّداً ... وأَهَانَ قَوْماً قَاتَلُوهُ وَصُرِّعُوا
وَنَجا وأَفْلَتَ مِنْهُمُ مَنْ قَلْبُهُ ... شَغِفٌ يَظَلُّ لِخَوْفِهِ يَتَصَدَّعُ[4]

٢ ـ جزاء ابن الأشرف:

لقد قام اليهوديُّ ابن الأشرف بجرائمَ كثيرةٍ ، وخياناتٍ عديدةٍ ، وإساءاتٍ متعدِّدةٍ لرسول الله ﷺ ، وللمسلمين ، والمسلمات القانتات العابدات ، وكلُّ جريمة من هذه الجرائم تُعَدُّ نقضاً للعهد ، تستوجب عقوبة القتل ، فكيف إذا اجتمعت هذه الجرائم كلُّها في هذا اليهوديِّ الشِّرِّير؟![5] .

إنَّ ابن الأشرف بهجائه للنَّبيِّ ﷺ ، وإظهاره التَّعاطُفَ مع أعداء المسلمين ، ورثاءِ قتلاهم ،

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (١/ ١١١).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) عُلَّ: من العَلَل ، وهو الشُّرب بعد الشُّرب ، يريد البكاء بعد البكاء.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٥٩).
(٥) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١١١).

وتحريضِهم على المسلمين ، يكون قد نقض العهد ، وصار محارباً مهدورَ الدَّم؛ ولذلك[١] أمر النَّبيُّ ﷺ بقتله ، وقد فَصَّلَ البخاريُّ خبر مقتله ، فقد روى في صحيحه بإسناده إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : «مَنْ لكعب بن الأشرف؛ فإنَّه قد آذى الله ورسوله؟» ، فقام محمَّد بن مسلمة ، فقال: يا رسول الله! أتحبُّ أن أقتله؟

قال: «نعم».

قال: فائذن لي أن أقول شيئاً.

قال: «قل».

فأتاه محمَّد بن مسلمة[٢] فقال: إنَّ هذا الرَّجل قد سألنا صدقةً، وإنَّه قد عنَّانا[٣]، وإنِّي قد أتيتك أستسلفُك ، قال: وأيضاً والله لَتَمَلُّنَّهُ! قال: إنَّا قد اتَّبعناه ، فلا نحبُّ أن ندعه حتَّى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقاً ، أو وَسْقَين.

فقال: نعم ، أرهنوني.

قالوا: أيَّ شيءٍ تريد؟

قال: أرهنوني نساءكم.

قالوا: كيف نرهنُك نساءنا ، وأنت أجمل العرب؟

قال: فأرهنوني أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا ، فيُسَبُّ أحدُهم ، فيقال: رُهن بِوَسْقٍ ، أو وَسْقَيْنِ! هذا عارٌ علينا ، ولكن نرهنك اللَّأْمَةَ ، قال سفيان: يعني: السِّلاح.

فواعده أن يأتيه ، فجاء ليلاً ، ومعه أبو نائلة ، وهو أخو كعب من الرَّضاعة ، فدعاهم إلى الحصن ، فنزل إليهم ، فقالت له امرأته: أين تخرج هذه السَّاعة؟

فقال: إنما هو محمَّد بن مسلمة ، وأخي أبو نائلة.

قالت: أسمع صوتاً كأنَّه يقطر منه الدَّم.

قال: إنَّما هو أخي محمَّد بن مسلمة ، ورضيعي أبو نائلة ، إنَّ الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ ، لأجاب.

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٠٤).
(٢) الَّذي كُتِب في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ الَّذي جاء كعبَ بن الأشرف أبو نائلة ، واسمه سِلْكان بن سلامة.
(٣) عَنَّانا: من العناء ، وهو التعب.

وجاء محمَّد بن مسلمة برجلين[1] ، وقال: إذا ما جاء فإنِّي قائلٌ (أي آخذٌ) بِشَعْرِهِ فأشمُّه ، فإذا رأيتموني استمكنتُ من رأسـه ، فدونكُم ، فاضربـوه ، فنزل منهم متوشحاً ، وهو يَنْفَحُ منه ريح الطِّيب.

قال: ما رأيت كاليوم ريحاً! ـ أي: أطيب ـ؛ أتأذن لي أن أشمَّ رأسك؟

قال: نعم! فشمَّه ، ثمَّ أشمَّ أصحابه ، ثمَّ قال: أتأذن لي؟

قال: نعم ، فلمَّا استمكن منه ، قال: دونكم؛ فقتلوه ، ثم أتَوا النَّبيَّ ﷺ ، فأخبروه. [البخاري (٤٠٣٧) ، ومسلم (١٨٠١)].

وجاء في السِّيرة النَّبوية لابن هشام: أنَّ محمَّد بن مسلمة مكث ثلاثة أيام بعد أن استعد لقتل كعب بن الأشرف ، لا يأكل ، ولا يشرب إلاَّ ما يُعْلِقُ به نفسَه ، فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ ، فدعاه ، فقال له: «لِمَ تركت الطَّعام والشَّراب؟».

فقال: يا رسول الله! قلت لك قولاً لا أدري: هل أَفِيَنَّ لك به ، أم لا؟!

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّما عليك الجَهْد».

فقال: لابدَّ لنا من أن نقول. قال: «قولوا ما بدا لكم» [ابن هشام ٣/٥٨].

وجاء في السِّيرة النَّبويَّة عن ابن إسحاق بإسنادٍ حسنٍ عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ، ثمَّ وجَّههم ، فقال: «انطلقوا على اسم الله ، اللَّهم أَعِنْهم!» [ابن هشام (٣/٥٩)].

دروسٌ وعبرٌ:

* إنَّ في مقتل كعب بن الأشرف ، دروساً ، وعبراً ، وفوائد في فقه النَّبيِّ ﷺ في تعامله مع خصوم الإسلام ، والدَّولة الإسلاميَّة ، فقد اتَّضح أنَّ عقوبة النَّاقض للعهد القتل ، وهذا ما حكم به النَّبيُّ ﷺ ، وعقوبة المُعَاهَدِ الَّذي يَشْتُمُ الرَّسولَ ﷺ ، ويؤذيه بهجاءٍ ، أو غيره هي القتل ، وهذا ما كان لابن الأشرف ، ويؤخذ من هذا: أنَّ شاتم الرَّسول ﷺ سواءٌ أكان معاهداً ، أو غيره ، تُضْرب عنقه عقوبةً له ، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيميَّة في تفصيل هذه الأحكام ، في كتابه القيِّم: «الصارم المسلول على شاتم الرَّسول ﷺ».

---

(١) وفي كتب السِّيرة: أنَّ الَّذين قاموا بقتله خمسةُ نفرٍ ، هم: محمَّد بن مسلمة ، وسِلْكَان بن سلامة بن وقش ، وهو أبو نائلة ، أحد بني عبد الأشهل ، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرَّضاعة ، وعبَّاد بن بشر بن وقش ، أحد بني عبد الأشهل ، وأبو عَبْس بن جبر ، أحد بني حارثة ، هؤلاء قدَّموا أبا نائلة؛ ليحدِّث كعب بن الأشرف.

* يؤخذ من طريقة تنفيذ حكم الرَّسول ﷺ باليهوديِّ ابن الأشرف: أنَّ الحُكْمَ قد تقتضي المصلحة العامَّة للمسلمين أن يُنَفَّذ سرّاً، ويتأكَّد هذا؛ إن كان يترتَّب على تنفيذه بغير هذه الصُّورة السِّرِّيَّة، فتنةٌ، أو خطرٌ قد يكلِّف المسلمين باهظاً[١]. وقد بيَّنت هذه الصُّورة: أنَّ مواجهة الكفَّار أعداء الإسلام، ومحاربي الدَّولة الإسلاميَّة، لا يقتصر على مواجهتهم في ميدان المعارك، وإنَّما يتعدَّى ذلك إلى كلِّ عملٍ تحصل به النِّكاية بالأعداء؛ ما لم يكن إثماً، وقد يوفِّر القضاء على رجلٍ له دوره البارز في حرب المسلمين جهوداً كبيرة، وخسائر فادحةً يتكبَّدها المسلمون.

وهذا مشروطٌ بالأمن من الفتنة، وذلك بأن يكون للمسلمين شوكةٌ، وقوَّةٌ، ودولةٌ، بحيث لا يترتَّب على نوعيَّة هذا العمل فتكٌ بالمسلمين، واجتثاث الدُّعاة من بلدانهم، وإفسادٌ في مجتمعاتهم[٢]، وقد أخطأ بعض المسلمين في العالم الإسلاميِّ، وتعجَّل الصِّدام المسلَّح، واستدلُّوا على ما ذهبوا إليه بمثل هذه الحادثة، ولا حجَّة لهم فيها؛ لأنَّ ذلك كان بالمدينة، وللمسلمين شوكةٌ، ودولةٌ، أمَّا هم فليس لهم دولةٌ، ولا شوكةٌ، ثمَّ إنَّ ذلك كان إعزازاً للدِّين، وإرهاباً للكافرين، وكانت كلُّها مصالح لا مفسدة معها، أمَّا ما يحدث في فترات الاستضعاف من هذه الحوادث، فإنَّها يعقبها من الشَّرِّ، والفساد، واستباحة دماء المسلمين، وأعراضهم، وأموالهم ما لا يخفى على بصيرٍ[٣].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقم بمحاولة تصفيةٍ لأيِّ أحدٍ من المشركين في مكَّة؛ مع القدرة على قتل زعماء الشِّرك كأبي جهلٍ، وأميَّة بن خلف، وعتبة، ولو أشار إلى حمزةَ، أو عمرَ بذلك، أو غيرهم من الصَّحابة، لقاموا بتنفيذ ذلك، ولكنَّ الهدي النَّبويَّ الكريم، يعلِّمنا: أنَّ فقه قتل زعماء الكفر يحتاج إلى شوكةٍ، وقوَّةٍ، كما أنَّ هذا الفقه يحتاج إلى فتوى صحيحةٍ من أهلها، واستيعاب فقه المصالح، والمفاسد، وهذا يحتاج إلى علماءَ راسخين؛ حيث تتشابك المصالح في عصرنا، وحيث للرَّأي العام دوره الكبير في قرارات الدُّول، وحيث احتمالات توسُّع الأضرار[٤].

* ونلحظ قيمة الكلمة عند الصَّحابة رضي الله عنهم، في موقف محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه، بعد أن أعطى كلمة لرسول الله ﷺ، يتعهَّد فيها بقتل اليهودي ابن الأشرف، ثمَّ إبطاؤه في ذلك؛ أعيته الحيلة بقيام صعوباتٍ في سبيل تحقيق ما وعد، حيث امتنع عن الطَّعام،

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود، لأبي فارس (١/ ١١٥).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/ ٥٤).
(٣) انظر: وقفات تربوية مع السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٠٥.
(٤) انظر: الأساس في السُّنة وفقهها السِّيرة النَّبوية (٢/ ٥٣٧).

والشَّراب ، وأصابه الغمُّ ، والحزن ، لأنَّه قال قولاً يخشى ألاَّ يستطيع الوفاء به . ونلاحظ في مجتمعاتنا المعاصرة: أنَّ كثيراً من النَّاس يعطون عهوداً ، ومواثيق ، ولا يقدِّرون قيمتها ، ويخفِرون ذمَّتهم ، ويتراجعون عن عهودهم ، ومواثيقهم ، وتبقى حِبْراً على ورقٍ ، فهؤلاء ليسوا أصحاب مبادئ ، ومواقف يُبْتَغى بها وجه الله؛ بل هم أصحاب مصالح ، ومنافع ، يُخشى عليهم أن يعبدوها من دون الله .

إنَّ أصحاب الدَّعوات ، يؤثِرون أن تندقَّ أعناقهم ، وأن تَضْوَى[1] أجسامُهم ، وتَزْهَق أرواحهم؛ على أن يتراجعوا عن كلماتهم وعهودهم ومواثيقهم؛ يستعذبون الموت والعذاب في سبيل عقائدهم وإسلامهم[2] .

* في قول رسول الله ﷺ : «إنَّما عليك الجَهْدُ» [سبق تخريجه][3] توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ ، وهو أنَّ النصر لا يأتي إلا بعد بذل الجَهْدِ ، والصَّبر عند الابتلاء ، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] .

وعلى المسلم أن يُفَرِّغ كلَّ ما في وُسْعِهِ؛ من جهدٍ فكريٍّ ، وطاقةٍ جسميَّةٍ في سبيل تحقيق ما وعد ، ثمَّ يتوكَّل على الله بعد ذلك في النتائج[4] .

* وفي قوله ﷺ : «قولوا ما بدا لكم» [سبق تخريجه][5] فقهٌ نبويٌّ كريمٌ ، فقد قالوا كلاماً هو في الأحوال العاديَّة كفرٌ ، ومِنْ هنا تعرفُ: أنَّه مِنْ أجل تحقيق المهامِّ العسكريَّة ، فلا حدود للكلام الَّذي يقال؛ ولكن تأتي هنا مسألةٌ أخرى ، وهي ما إذا كان النَّجاح في المهامِّ العسكرية يقتضي أفعالاً لا تجوز ، أو يقتضي ترك فرائض؛ فما العمل؟ المعروف: أنَّه ليس هناك من الذُّنوب أعظم من الكفر ، والشرك ، فإذا جاز التَّظاهر بالكفر لذلك ، فمن باب أولى جواز غيره ، على أن يتأكَّد طريقاً للوصول إلى الهدف ، أو يغلب الظَّنُّ على ذلك ، على أن يقتصر فيه على الحدِّ الَّذي لابدَّ منه ، سواءٌ أكانت الوسيلة تأخير فريضةٍ ، أم ارتكاب محظورٍ؛ على أنَّ هذا ، وهذا مقيَّدانِ بالفتوى، فهناك محظوراتٌ لا يصحُّ فعلُها بحالٍ، كالزِّنى، واللِّواط[6] .

هناك بعض القضايا تحتاج لأهل الفتوى المؤهَّلين لأن يفتوا فيها ، خصوصاً في الظُّروف

---

(١) ضَويَ ضَوى: ضَعُفَ ، وهُـزِلَ ، أو دَقَّ .
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١١٩) .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٦١) .
(٤) انظر: الصراع مع اليهود (١/ ١٢٠) .
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٦١) .
(٦) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها السِّيرة النَّبوية (٢/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨) .

الاستثنائيَّة ، والحالات الاضطراريَّة ، وفي المحكات السِّياسيَّة ، والعسكريَّة؛ لأنَّها تحتاج إلى الموازنات ، والفتاوى الاستثنائيَّة؛ الَّتي لا يستطيعها كلُّ إنسانٍ ، فالأحكام الأصليَّة ليست مجهولةً ، وإنَّما الأحكام الاستثنائيَّة الَّتي تقتضيها الظُّروف الاستثنائيَّة تحتاج إلى علماءَ ربانيِّين ، وفقهاءَ راسخين ، لهم القدرة على فهم مقاصد الشَّريعة ، وواقعهم الَّذي يعيشون فيه[1].

* وفي قوله ﷺ : «قولوا ما بدا لكم» فقهٌ عظيمٌ يوضِّحه قوله ﷺ : «الحرب خَدْعَةٌ» [البخاري (٣٠٢٩) ، ومسلم (١٧٤٠)][2].

* قوله ﷺ : «انطلقوا على اسم الله ، اللهم أَعِنْهم!» [سبق تخريجه] كان لهذا التَّذكير بالإخلاص في الجهاد: «انطلقوا على اسم الله» والدُّعاء لهم بالتَّوفيق ، والعون: «اللَّهم أعنهم!» كلُّ ذلك كان حافزاً على الثَّبات ورافعاً للمعنويَّات ، فلم يعبؤوا بقوَّة ابن الأشرف ، ومَنْ حوله من النَّاس؛ لأنَّهم استشعروا معيَّة الله لهم ، ودعاء الرَّسول ﷺ ربَّه بإعانتهم ، وتحقيق مسعاهم.

ونلحظ في الهدي النَّبويِّ الأخذ بجميع الأسباب المادِّيَّة ، والتَّخطيط السَّديد ، ولا يُنسى جانب الدُّعاء النَّبويِّ الكريم ، فإنهم لم يغفلوا الأسباب الموصلة بهم إلى نجاح مقصودهم؛ لأنَّ المسلم مأمورٌ بالجمع بين التوكُّل على الله تعالى ، والأخذ بالأسباب الَّتي شرعها الله سبحانه[3]؛ ولذلك كانت خطَّة محمَّد بن مسلمة مع إخوانه محكمةً ، وأتقنوا فقه سنَّة الأخذ بالأسباب ، فقد كانت الأسباب الَّتي ساعدت على نجاح الخطَّة ، كالتالي:

- إنَّ أبا نائلةَ كان أخاه من الرَّضاعة ، وهو يطمئنُّ إليه ، ولا يتوجَّس منه خيفةً.

- وفي بعض الرِّوايات: طمأن أبو نائلة كعبَ بن الأشرف ، وأدخل الأنس إلى قلبه بمناشدته في الشِّعر قبل أن يحدِّثه عن حاجته.

- ولم يحدِّثه عن حاجته حتى أخرج كعباً من حصنه ، وظلُّوا يتحدَّثون ساعةً ، حتَّى اطمأنَّ إليهم ، وكان ذلك من سبل التَّوفيق ، ولو بقي أولئك هناك لربما كشف الأمر؛ فحديثُهم معه على انفرادٍ كان في غاية التوفيق.

- تظاهرهم بالنَّيل ، والتَّبرُّم ، والتَّظلُّم من الرَّسول ﷺ طمأن كعب بن الأشرف.

- فكرة رهن السِّلاح كانت في غاية التَّوفيق ، حتَّى يكون اصطحابهم للسِّلاح غيرَ مريبٍ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) خَدعَةٌ: فيها ثلاث لغات مشهورات ، أفصحهن: فتح الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّانية: ضم الخاء ، وإسكان الدَّال ، والثَّالثة: ضمُّ الخاء ، وفتح الدَّال.

(٣) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ للحميديّ (٥/ ٥٦).

ولا يبعث على الرِّيبة؛ ذلك لأنَّهم أحضروا ما سيرهنونه إلى كعب ، وفي الوقت نفسه يستطيعون أن يستخدموا هذا السِّلاح في أي وقت التقوا به فيه .

ـ أخذ الموعد من كعب بن الأشرف كان إحكاماً في الخطَّة؛ بحيث يتسنَّى لهم في أيِّ وقتٍ من اللَّيل أن يأتوه ، ويطرقوا عليه الباب؛ دون أن يشكَّ فيهم ، وفي نيَّتهم .

ـ اطمئنانُ ابن الأشرف إلى أبي نائلة ، ومحمَّد بن مسلمة جعله يخرج في وقتٍ لا يخرج فيه الإنسان من بيته عادةً؛ تحسُّباً لقتال عدوٍّ على حين غِرَّة ، وغفلةٍ[١] .

ـ إن خطَّة إبعاد ابن الأشرف عن بيته ، إلى مكانٍ يخلو به فيه دون رقيبٍ ، أو نصيرٍ كانت موفَّقةً .

ـ استدراج أبي نائلة لابن الأشرف ، وشمُّه طيب رأسه ، وإمساكُه بشَعْرِهِ ليشمَّه ، كان موفقاً ، وتَقْدِمَةً ليمسك بهذا الرَّأس الخبيث ، ويتمكَّن منه ، لتكون الفرصةُ سانحةً لتنفيذ حكم الله في هذا اليهوديِّ اللَّعين[٢] .

ـ وتظهر قدرة الصَّحابة الفائقة في الحفاظ على السِّرِّيَّة ، وذلك في كتمان هذه الخطَّة مع كثرة مَنْ في المدينة من اليهود ، والمنافقين ، ومع تأخُّر تنفيذها ، وكون النَّبيِّ ﷺ عرض هذا الأمر في مشهدٍ من الصحابة ، وجرت فيه مشورةٌ ، وهذا دليلٌ على قوة إيمان هؤلاء الصَّحابة ، وإخلاصهم لدينهم[٣] .

وقام هؤلاء المغاوير[٤] بتنفيذ أدوار الخطَّة المحكمة ، الَّتي اتَّفقوا عليها ، وأدركوا مقصودهم الأسمى ، ورسول الله ﷺ معهم بإحساسه الكبير ، ومشاعره الفيَّاضة ، فقد كانوا يقومون بتنفيذ العمليَّة بعقولهم ، وأجسامهم ، ورسولُ الله ﷺ يتولَّى قيادتها العليا بالاتِّصال بالله تعالى ، ودعائه لهم بالنَّصر والإعانة[٥] .

٣ـ أثر مقتل اليهودي ابن الأشرف على اليهود :

انتشر خبر مقتل ابن الأشرف في المدينة ، فأسرع أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ يشتكون ويحتجُّون على ما فعله أصحابه ، فلم يَحْفَلِ النَّبيُّ ﷺ بهم ؛ بل أكَّد مقتله ، الَّذي كان نتيجةً حتميَّةً لموقفه المعادي ، وقد أوقعت هذه الحادثة الرُّعب في نفوس اليهود جميعهم ، فلم يعد

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (١/ ١٢٢) .
(٢) انظر : الصِّراع مع اليهود (١/ ١٢٢) .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ للحميديِّ (٥/ ٥٦) .
(٤) المِغْوار من الرِّجال : المقاتلُ الكثيرُ الغارات على أعدائه .
(٥) المصدر السابق نفسه (٥/ ٥٧) .

أحدٌ من عظمائهم يجرؤ على الخروج من حصنه ، كما لم يعد أحدٌ من يهود المدينة إلا ويخاف على نفسه من المسلمين[(١)] ، واضطرَّ اليهود لتجديد المعاهدة ، وكان لمقتل كعب بن الأشرف أثرٌ عميقٌ في نفوسهم ، فمضوا يكيدون للإسلام ـ كما سيتبيَّن من الأحداث ـ وَمِنَ الجدير بالذِّكر أنَّ الرسول ﷺ لم يؤاخذ بني النَّضير بجَرِيرَةِ[(٢)] كعب بن الأشرف ، واكتفى بقتله جزاءَ غدره ، وجدَّد المعاهدة معهم[(٣)] . ومن الفقه النَّبويِّ في معاملة اليهود نستفيد أنَّ العلاج الأمثل لليهود هو زجرهم ، وإرهابهم ، وقتل أهل الفتن فيهم ، ومطاردتهم؛ لأنَّهم أهل شرورٍ ، لا يتخلَّصون منها ، ولا يتوقَّفون عنها[(٤)] .

رابعاً: بعض المناسبات الاجتماعيَّة:

أ ـ زواج النَّبيِّ ﷺ بحفصةَ بنت عمر:

قال عمر رضي الله عنه حين تأيَّمت[(٥)] حفصةُ بنتُ عُمرَ من خُنَيس بن حُذافة السَّهميِّ ـ وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ، فتوفي بالمدينة ـ: «أتيتُ عثمانَ بن عفَّان ، فعرضت عليه حفصةَ بنتَ عمر ، فقال: سأنظر في أمري ، فلبثتُ لياليَ ، ثمَّ لقيني فقال: قد بدا لي ألاَّ أتزوجَ يومي هذا.

قال عمر: فلقيتُ أبا بكر الصِّدِّيقَ ، فقلتُ: إن شئتَ زوجتُك حفصةَ بنت عمرَ ، فصمت أبو بكرٍ الصِّدِّيق ، فلم يرجع إليَّ شيئاً ، وكنت أوجدَ عليه منِّي على عثمان.

فلبثتُ لياليَ ، ثمَّ خطبها رسولُ الله ﷺ ، فأنكحتُها إيَّاه ، فلقيني أبو بكرٍ ، فقال: لعلَّك وجدت عليَّ حين عرضتَ عليَّ حفصة ، فلم أرجع إليك شيئاً؟

قال عمرُ: قلتُ: نعم ، قال أبو بكر: فإنَّه لم يمنعْني أن أَرْجِعَ إليك فيما عرضتَ عليَّ ، إلا أنِّي كنتُ علمتُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن لأفشيَ سرَّ رسولِ الله ﷺ ، ولو تركها رسولُ الله ﷺ ؛ قبلتُها» [البخاري (٥١٢٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣/١٥٨)].

ب ـ زواج عليٍّ رضي الله عنه بفاطمةَ رضي الله عنها:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: خُطِبَتْ فَاطِمَةُ إلى رسول الله ﷺ ، فقالت مولاةٌ لي:

---

(١) انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٨٨ .
(٢) الجَريرةُ: الجناية ، والذَّنبُ.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٠٤).
(٤) انظر: الصِّراع مع اليهود (١/ ١٢٦).
(٥) تأيَّمت: مات عنها زوجُها.

هل علمت: أنَّ فاطمة قد خُطِبَتْ إلى رسول الله ﷺ؟ قلت: لا! قالت: فقد خُطِبَتْ فما يمنعك أن تأتيَ رسولَ الله ﷺ، فيزوجَك، فقلت: وعندي شيءٌ أتزوَّج به! فقالت: إنَّك إن جئت رسول الله ﷺ؛ زَوَّجَكَ.

قال: فوالله ما زالت ترجيني حتَّى دخلتُ على رسول الله ﷺ، فلمَّا أن قعدتُ بين يديه؛ أفحمت، فوالله ما استطعت أن أتكلَّم جلالةً وهيبةً.

فقال رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟ ألك حاجة؟» فسكتُّ، فقال: «لعلك جئت تخطب فاطمة؟» فقلت: نعم! فقال: «وهل عندك من شيءٍ تستحلُّها به؟» فقلت: لا والله يا رسول الله! فقال: «ما فعلت دِرْعٌ سَلَّحْتُكَها؟ فوالذي نفس عليٍّ بيده! إنَّها لَحُطَمِيَّةٌ[1] ما قيمتُها أربعة دراهم»، فقلت: عندي، فقال: «قد زوجتُكها، فابعث إليها بها، فاستحلَّها بها» فإنَّها كانت لَصَداقُ فاطمةَ بنتِ رسول الله ﷺ [البيهقي في الدلائل (٣/ ١٦٠)][2] وقد جهَّز رسول الله ﷺ فاطمة في خَمِيلٍ[3]، وقِرْبَة، ووسادة أَدَمٍ[4]، حشوها إذخرٌ[5] رضي الله عنها[6].

وهكذا كانت حياتهم في غاية البساطة بعيدةً عن التعقيد، وهي إلى شظف العيش أقرب منها إلى رغده[7]، والقصَّة التالية تصور لنا حال السَّيدة فاطمة، وتعبها، وموقف رسول الله ﷺ منها عندما طلبت إليه أن يعطيها خادماً من السَّبْي، فقد جاء في مسند الإمام أحمد: «قال عليٌّ لفاطمةَ ذات يومٍ: والله! لقد سَنَوْتُ[8] حتى لقد اشتكيتُ صدري، قال: وجاء الله أباك بسبيٍ، فاذهبي، فاستخدميه[9]، فقالت: أنا والله قد طَحَنْتُ حتَّى مجلت يدي[10]. فأتيت النَّبيَّ ﷺ فقال: «ما جاء بك أيْ بُنَـيَّة؟!» قالت: جئت لأسلِّم عليك، واسْتَحَيَتْ أن تسأله، ورجعت، فقال: ما فعلتِ؟ قالت: اسْتَحْيَيْتُ أن أسأله، فأتينا جميعاً، فقال عليٌّ: يا رسول الله! والله! لقد سنوتُ حتَّى اشتكيتُ صدري، وقالت فاطمة: قد طحنتُ حتَّى مجلت يداي، وقد جاءك الله بسبيٍ، وسعةٍ، فأخدمنا، فقال رسول الله ﷺ: «والله! لا أُعْطيكما، وأدعُ أهلَ الصُّفة

---

(١) الحُطَمِيَّةُ من الدُّروع: الثقيلة العريضة، الَّتي تكسر السُّيوف.
(٢) إسناده حسن.
(٣) خميل: قطيفة.
(٤) الأدم: الجلد.
(٥) إذخر: نبات له رائحةٌ عطرية.
(٦) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٦٧.
(٧) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٥٥.
(٨) سنوت: استقيت.
(٩) أي: اسأليه خادماً.
(١٠) مجلت يدي: ثخن جلدُها، وتعجر.

تطوى[(١)] بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكنِّي أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم»، فرجعا ، فأتاهما النَّبيُّ ﷺ ؛ وقد دخلا في قطيفتهما ، إذا غطت رؤوسهما ، تكشفت أقدامُهما ، وإذا غطَّيا أقدامهما؛ تكشفت رؤوسهما، فثارا، فقال: «مكانكما»، ثمَّ قال: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟» قالا : بلى! فقال: «كلماتٌ علَّمنيهنَّ جبريلُ عليه السلام ، فقال: «تُسَبِّحَانِ في دبر كلِّ صلاةٍ عشراً ، وتحمدان عشراً ، وتكبران عشراً ، وإذا أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وكبِّرا أربعاً وثلاثين»[أحمد (١/ ١٠٦ ـ ١٠٧)][(٢)].

وهكذا كان الهدي النَّبويُّ في تربية أهل بيته ، وأقربائه ، فلقد أخفقت مساعي السَّيدة فاطمة ، وعليٍّ رضي الله عنهما للحصول على خادم؛ لأنَّ النَّبيَّ يريد ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ أن يبيعه ، وينفق ثمنه على أهل الصُّفَّة؛ الَّذين يتلوَّون من الجوع ، فهم أيضاً من خاصَّة رسول الله ﷺ مثل عليٍّ ، وفاطمة ، والطَّعام مقدَّم على الخدمة[(٣)] ، ولقد تأثر عليٌّ رضي الله عنه بهذه التَّربية النَّبويَّة ، ويمرُّ الزَّمن بالفتى عليّ ، فيصبح خليفةَ المسلمين ، فإذا به من آثار هذه التربية يترفَّع عن الدُّنيا وزخارفها ، وبيده كنوز الأرض ، وخيراتها؛ لأن ذكر الله يملأ قلبه ، ويغمر وجوده ، ولقد حافظ على وصيَّة رسول الله ﷺ له ، وقد حدَّثنا عن ذلك ، فقال: فوالله ما تركتهُنَّ منذ علَّمنيهنَّ ، فسأله أحد أصحابه : ولا ليلة صفين؟! فقال : ولا ليلة صفِّين[(٤)]!

وكان كما وصفه ضرار بن ضمرة في مجلس معاوية: «. . . يستوحش من الدُّنيا، وزهرتها ، ويستأنس باللَّيل ، وظلمته ، كان والله! غزيرَ العَبْرَة ، طويل الفكرة ، يقلِّب كفَّه ، ويخاطب نفسه ، يُعجبُه من اللباس ما قصر ، ومن الطَّعام ما جَشِبَ[(٥)] . . . . »[(٦)].

* * *

---

(١) تطوى : طوى من الجوع فهو طاوٍ ، أي : خالي البطن ، جائع ، لم يأكل.

(٢) الفتح الرَّباني ، رقم (٩٠) ، وأصل هذا الحديث في البخاريِّ ، كتاب فرض الخمس ، رقم (٣١١٣).

(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ١٠٠).

(٤) انظر : الإصابة في تمييز الصَّحابة (٨/ ١٥٩).

(٥) الجَشَبُ : ما غَلُظَ مأكله ، وخَشُنَ.

(٦) انظر : صفة الصفوة ، لابن الجوزي (١/ ٨٤).

الفصل التَّاسع
غزوة أُحدٍ(١)

المبحث الأوَّل
أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أحدٍ متعددةً؛ منها: الدِّينيُّ، والاجتماعيُّ، والاقتصاديُّ، والسِّياسيُّ.

١ ـ السَّبب الدِّينيُّ:

قد أخبر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ المشركين ينفقون أموالهم في الصدِّ عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدَّعوة الإسلاميَّة، ومَنْع النَّاس من الدُّخول في الإسلام، والسَّعي للقضاء على الإسلام، والمسلمين، ودولتهم الناشئة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قال الطَّبريُّ: «يصرفون أموالهم، وينفقونها؛ ليمنعوا النَّاس عن الدُّخول في الإسلام»(٢).

وقال ابن كثيرٍ: «أخبر تعالى: أنَّ الكفار ينفقون أموالهم؛ ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ»(٣).

وقال الشَّوكانيُّ: «والمعنى: أنَّ غرض هؤلاء الكفـار في إنفاق أموالهم، هو الصَّدُّ عن سبيل الحقِّ، بمحاربة رسول الله ﷺ، وجمع الجيوش لذلك»(٤).

من هذا يظهر: أنَّ أهم أسباب غزوة أحدٍ، هو السَّبب الدِّينيُّ؛ الَّذي كان من أهداف قريشٍ للصَّدِّ عن سبيل الله واتِّباع طريق الحقِّ، ومنع النَّاس من الدُّخول في الإسلام، ومحاربة

---

(١) ينظر الشكل (٣) في الصفحة (٦٠٧).
(٢) انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة، ص ٧١.
(٣) انظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية.
(٤) انظر: تفسير فتح القدير لهذه الآية.

الرَّسول ﷺ ، والقضاء على الدَّعوة الإسلاميَّة[١] .

٢ ـ السَّبب الاجتماعيُّ :

كان للهزيمة الكبيرة في بدرٍ ، وقتل السَّادة ، والأشراف من قريشٍ ، وَقْعٌ كبيرٌ من الخزي ، والعار الَّذي لحق بهم ، وجعلهم يشعرون بالمذلَّة ، والهزيمة؛ ولذلك بذلوا قُصَارَى جهدهم في غسل هذه الذِّلَّة ، والمهانة ، الَّتي لصقت بهم؛ ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله ﷺ فور عودتهم من بدرٍ .

قال ابن إسحاق : «لما أُصيب يوم بدرٍ من كفار قريش أصحابُ القَليب ، ورجع فَلُّهُم إلى مكَّةَ ، ورجع أبو سفيان بِعِيرِهِ ، فأوقفها بدار النَّدوة ـ وكذلك كانوا يصنعون ـ ، فلم يحرِّكها ، ولا فرَّقها ، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهِّزوا منها جيشاً لقتال رسول الله ﷺ ، مشى عبدُ الله بن أبي ربيعة ، وعكرمةُ بن أبي جهل ، والحارث بن هشام ، وحويطب بن عبد العزَّى ، وصفوان بن أميَّة في رجالٍ من قريش ممَّن أصيب آباؤهم ، وأبناؤهم ، وإخوانهم يوم بدرٍ ، فكلَّموا أبا سفيان بن حربٍ ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارةٌ ، فقالوا : يا معشرَ قريش! إنَّ محمَّداً قد وتَرَكُمْ[٢] ، وقتل خياركم؛ فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلَّنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، فقال أبو سفيان : أنا أول من أجاب إلى ذلك»[٣] .

ودعا جُبَيْرُ بن مُطْعم غلاماً له حبشيّاً ، يقال له : وَحْشيٌّ ، يقذف بحربة له قَذْفَ الحبشة ، قلَّما يخطئ بها ، فقال له : اخرج مع النَّاس ، فإن أنت قتلت حمزة عمَّ محمَّد بعمِّي طُعَيْمَةَ بن عديٍّ ، فأنت عتيقٌ[٤] .

٣ ـ السَّبب الاقتصاديُّ :

كانت حركة السَّرايا الَّتي تقوم بها الدَّولة الإسلاميَّة ، قد أثَّرت على اقتصاد قريشٍ ، وفرضت عليهم حصاراً اقتصاديّاً قويّاً ، وكان الاقتصاد المكِّيُّ قائماً على رحلتي الشِّتاء ، والصَّيف؛ رحلة الشِّتاء إلى اليمن ، وتُحمل إليها بضائعُ الشَّام ، ومحاصيلها ، ورحلة الصَّيف إلى الشَّام ، تحمل إليها محاصيل اليمن ، وبضائعها ، وقَطْعُ أحدِ جناحي هاتين الرِّحلتين ضرٌّ للجناح الآخر؛ لأنَّ تجارتَهم إلى الشَّام قائمةٌ على سلع اليمن ، وتجارتهم إلى اليمن قائمةٌ على سلع الشَّام[٥] .

---

(١) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٧١ .
(٢) وَتَرَ فلاناً : قَتَلَ حَمِيمَهُ ، وأدركه بمكروهٍ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٦٨) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٧٩) .
(٥) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٧٤ .

قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١ ـ ٤].

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أميَّة: «إنَّ محمداً، وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون السَّاحل، قد وادعهم[١]، ودخل عامَّتُهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا، ونحن في ديارنا هذه، ما لنا بها بقاء، وإنَّما نزلناها على التِّجارة إلى الشَّام في الصيف، وفي الشِّتاء إلى الحبشة»[٢].

٤ ـ السَّبب السِّياسيُّ:

أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدرٍ، وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمةً لها، فلا بدَّ من ردِّ الاعتبار، والحفاظ على زعامتها؛ مهما كلَّفها الأمر من جهودٍ، ومالٍ وضحايا.

هذه أهمُّ الأسباب الَّتي جعلت قريشاً تبادر إلى المواجهة العسكريَّة ضدَّ الدَّولة الإسلاميَّة بالمدينة[٣].

ثانياً: خروج قريش من مكَّة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السَّبت، لسبع خلون من شوال، من السَّنة الثَّالثة من الهجرة[٤]، وعَبَّأَتْ جيشها المكوَّن من ثلاثة آلاف مقاتل، مستصحبين معهم النِّساء، والعبيد، ومَنْ تبعها من القبائل العربيَّة المجاورة، فخرجت قريشٌ بحدِّها، وحديدها وأحابيشها[٥]، ومن تبعها من كنانةَ وأهل تهامة، وخرجوا بالظُّعُن[٦]، التماسَ الحفيظة؛ لئلا يفرُّوا.

فخرج أبو سفيان ـ وهو قائد النَّاس ـ بهندٍ بنت عُتبة بن ربيعةَ[٧]، وخرج صفوان بن أميَّة بن خلف ببَرْزَةَ بنت مسعودٍ الثَّقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمِّ حكيمٍ بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمةَ بنت الوليد بن المغيرة[٨]،

---

(١) وادعهم: أي: صالحهم، وسالمهم.
(٢) انظر: المغازي، للواقديِّ (١/ ١٩٥ ـ ١٩٦).
(٣) انظر: غزوة أحد؛ دراسة دعويَّة، ص ٧٥.
(٤) البداية والنهاية (٤/ ١١)، والمغازي، للواقديِّ (١/ ١٩٩).
(٥) الأحابيش: مَنِ اجتمع إلى العرب، وانضمَّ إليهم.
(٦) الظُّعُن: النِّساء، واحدتها ظعينة، والظَّعينة: المرأة في الهودج.
(٧) انظر: الإصابة (٨/ ٣٤٦)، رقم (١١٨٦٠).
(٨) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٧٠).

فأقبلوا حتَّى نزلوا ببطن السَّبخة من قناة ، على شفير الوادي ممَّا يلي المدينة[١] .

كانت التَّعبئة القرشيَّة قد سبقتها حملةٌ إعلاميَّة ضخمةٌ ، تولَّى كِبْرَهَا أبو عزَّة عمرو بن عبد الله الجُمَحِيُّ، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزوميُّ، وابن الزِّبعرى، وقد حقَّقت نتائج كبيرةً[٢] ، وبلغت النَّفقات الحربيَّة لجيش قريش خمسين ألف دينارٍ ذهباً[٣] .

ثالثاً: الاستخبارات النَّبويَّة تتابع حركة العدوِّ:

كان العبَّاس بن عبد المطلب ، يرقب حركات قريش، واستعداداتها العسكريَّة ، فلمَّا تحرك هذا الجيش؛ بعث العباسُ رسالةً عاجلةً إلى النَّبيِّ ﷺ ، ضمَّنها جميع تفصيلات الجيش ، وأسرع رسولُ العبَّاس بإبلاغ الرِّسالة ، وجَدَّ في السَّير؛ حتَّى إنَّه قطع الطريق بين مكَّة والمدينة ـ الَّتي تبلغ مسافتها خمسمئة كيلو متراً ـ في ثلاثة أيام ، وسَلَّمَ الرِّسالة إلى النَّبيِّ ﷺ ، وهو في مسجد قُباء[٤] .

كان النَّبيُّ ﷺ يتابع أخبار قريش بدقَّةٍ بواسطة عمِّه العبَّاس. قال ابن عبد البرِّ: «وكان رضي الله عنه يكتب أخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ ، وكان المسلمون يتقوَّون به بمكَّة ، وكان يحبُّ أن يقدم على رسول الله ﷺ ، فكتب إليه رسول الله ﷺ : أنَّ مقامك في مكَّة خيرٌ»[٥] .

كانت المعلومات الَّتي قدَّمها العبَّاس لرسول الله ﷺ دقيقةً؛ فقد جاء في رسالته: «إنَّ قريشاً قد أجمعت المسيرَ إليك ، فما كنت صانعاً إذا حلُّوا بك فاصنعه ، وقد توجَّهوا إليك ، وهم ثلاثة آلاف ، وقادوا مئتي فرس ، وفيهم سبعمئة دارع ، وثلاثة آلاف بعيرٍ ، وأوعبوا[٦] من السِّلاح»[٧] .

وقد احتوت هذه الرِّسالة على أمورٍ مهمَّة؛ منها:

١ ـ معلومات مؤكَّدة عن تحرُّك قوَّات المشركين نحو المدينة .

٢ ـ حجم الجيش ، وقدراته القتاليَّة ، وهذا يعين على وضع خطَّةٍ تواجه هذه القوَّات الزَّاحفة .

---

(١) انظر: غزوة أحد ، دراسة دعويَّة ، ص ٧٨ .
(٢) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٧ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٦ .
(٤) انظر: الرَّحيق المختوم ، للمباركفوري ، ص ٢٥٠ .
(٥) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٨١٢) .
(٦) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السِّلاح .
(٧) انظر: مغازي الواقديِّ (١/ ٢٠٤) .

لم يكتفِ النَّبيُّ ﷺ بمعلومات المخابرات المكيَّة؛ بل حَرَصَ على أن تكون معلوماتُه عن هذا العدوِّ متجددةً مع تلاحق الزَّمن ، وفي هذا إرشادٌ لقادة المسلمين ، بأهمِّيَّة متابعة الأخبار الَّتي يتولَّد عنها وضع خططٍ ، واستراتيجيَّات نافعةٍ؛ ولذلك أرسل ﷺ الحُبَابَ بن المنذر بن الجموح إلى قريشٍ يستطلع الخبر ، فدخل بين جيش مكَّة ، وحزَرَ[١] عَدَدَهُ ، وعُدَدَهُ ، ورجع ، فسأله رسول الله ﷺ : «ما رأيتَ؟» قال: رأيتُ يا رسول الله! عدداً ، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً ، أو ينقصون قليلاً ، والخيل مئتا فرسٍ ، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمئة درعٍ ، قال: «هل رأيتَ ظُعُناً؟» قال: رأيتُ النِّساء معهنَّ الدِّفاف ، والأكبار[٢] ، فقال رسول الله ﷺ : «أَرَدْنَ أن يحرِّضْنَ القوم ، ويُذَكِّرْنَهُمْ قتلى بدرٍ ، هكذا جاءني خبرهم ، لا تذكر من شأنهم حرفاً ، حسبنا اللهُ ونعم الوكيلُ ، اللَّهم! بك أجولُ ، وبك أصولُ»[٣].

كما أرسل ﷺ أنساً ، ومؤنساً ابني فَضالة يَتَنَصَّتان[٤] أخبار قريشٍ ، فَأَلْفَيَاهَا[٥] قد قاربت المدينة ، وأرسلت خَيْلَها ، وإبلَها ترعى زروع يثرب المحيطة بها ، وعادا ، فأخبراه بخبر القوم[٦].

وبعد أن تأكَّد من المعلومات حَرَصَ ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القياديِّ؛ خوفاً من أن يؤثِّر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العُدَّة؛ ولذلك حين قرأ أُبيُّ بن كعب رسالة العبَّاس؛ أمره ﷺ بكتمان الأمر ، وعاد مسرعاً إلى المدينة ، وتبادل الرَّأي مع قادة المهاجرين ، والأنصار في كيفية مواجهة الموقف ، وكان ﷺ قد أطلع سيِّد الأنصار سعدَ بن الرَّبيع على خبر رسالة العبَّاس فقال: والله! إنِّي لأرجو أن يكون خيراً ، فاستكتمه إيَّاه؛ فلمَّا خرج رسول الله ﷺ من عند سعدٍ؛ قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أمَّ لكِ! أنت وذاك. فقالت: قد سمعتُ ما قال لك! فأَخْبَرَتْهُ بما أَسَرَّ به الرَّسول ﷺ ، فاسترجع سعدٌ ، وقال: يا رسول الله! إنِّي خفت أن يفشو الخبر ، فترى أنِّي أنا المفشي له؛ وقد اسْتَكْتَمْتَني إيَّاه ، فقال رسول الله ﷺ : «خلِّ عنها»[٧].

وفي هذه الحادثة ، درسٌ بالغٌ للعسكريِّين ، وتحذيرٌ لهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم

---

(١) حَزَرَ الشَّيء: قدَّره بالتَّخمين.
(٢) الأكبار: جمع: كَبر ، والكَبر: هو الطَّبل؛ الَّذي له وجهٌ واحد.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).
(٤) تَنَصَّتَ: تَسَمَّعَ.
(٥) ألفاهُ: وجَدَهُ ، وصادفه.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ١٨٧).
(٧) انظر: السِّيرة الحلبية (٢/ ٤٨٩).

العسكريَّة ، وخططهم ، وأوامرهم ، وينبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار؛ لأنَّ إفشاءها يهدِّد الأمَّة ، ومستقبلها بكارثةٍ كبرى .

إنَّ تاريخ الأمم والشُّعوب في القديم ، والحديث يحدِّثنا : أنَّ كثيراً من الهزائمِ ، والمآسي ، والآلام ، قد حَلَّت بكثيرٍ من الأمم نتيجة لتسرُّب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجةٍ خائنةٍ ، أو خائنٍ في ثوب صديقٍ ، أو قريبٍ في الظَّاهر عدوّ في الحقيقة ، والواقع[١] .

رابعاً : مشاورته ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم :

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفَّار قريشٍ ، جمع أصحابه رضي الله عنهم ، وشاورهم في البقاء في المدينة والتَّحصُّن فيها ، أو الخروج لملاقاة المشركين ، وكان رأي النَّبيِّ ﷺ البقاء في المدينة ، وقال : «إنَّا في جُنَّة حصينةٍ ، فإن رأيتم أن تقيموا ، وتَدَعُوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا ؛ أقاموا بشرِّ مُقام ، وإن دخلوا علينا ؛ قاتلناهم فيها»[٢] وكان رأيُ عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول مع رأي رسول الله ﷺ[٣] ، إلا أنَّ رجالاً من المسلمين ممَّن فاتتهم بدرٌ قالوا : يا رسول الله! اخرج بنا إلى أعدائنا .

قال ابن كثير : «وأبى كثيرٌ من النَّاس إلا الخروج إلى العدوِّ ، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ ، ورأيه ، ولو رضُوا بالَّذي أمرهم كان ذلك ، ولكن غلب القضاء والقدر ، وعامَّة مَنْ أشار عليه بالخروج رجالٌ لم يشهدوا بدراً ، قد علموا الَّذي سبق لأهل بدرٍ من الفضيلة»[٤] .

وقال ابن إسحاق : فلم يزلِ النَّاسُ برسول الله ﷺ الَّذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم ، حتَّى دخل رسولُ الله ﷺ بيته ، فلبس لأمَتَهُ[٥] ، فتلاوم القوم فقالوا : عرض نبيُّ الله ﷺ بأمرٍ ، وعرضتم بغيره ، فاذهب يا حمزة! فقل لنبيِّ الله ﷺ : «أمرنا لأمرك تَبَعٌ» ، فأتى حمزةُ ، فقال له : يا نبيَّ الله! إنَّ القوم تلاوموا ، فقالوا : أمرُنا لأمرك تبع ، فقال رسول الله ﷺ : «إنَّه ليس لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها ؛ حتَّى يقاتل» [أحمد (٣/ ٣٥١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥) ، وابن سعد (٢/ ٣٨) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٠٨) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٠٧)][٦] .

كان رأيُ مَنْ يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنيَّاً على أمورٍ ؛ منها :

١ ـ أنَّ الأنصار قد تعاهدوا في بيعة العقبة الثَّانية ، على نصرة الرَّسول ﷺ ، فكان أغلبُهم

---

(١) انظر : غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ٢٢ .
(٢) انظر : تاريخ الطَّبري (٢/ ٦٠) .
(٣) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٢ .
(٤) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ١٤) .
(٥) لأمة الحرب : عدَّتها .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/ ٧١) .

يرى: أنَّ المكوث داخل المدينة ، تقاعسٌ عن الوفاء بهذا العهد.

٢ ـ أنَّ الأقليَّة من المهاجرين ، كانت ترى: أنَّها أحقُّ من الأنصار بالدِّفاع عن المدينة ، ومهاجمة قريش ، وصدِّها عن زروع الأنصار.

٣ ـ أنَّ الَّذين فاتتهم غزوة بدر كانوا يتحرَّقون شوقاً من أجل ملاقاة الأعداء؛ طمعاً في الحصول على الشَّهادة في سبيل الله.

٤ ـ أنَّ الأكثرين كانوا يَرَوْنَ: أنَّ في محاصرة قريشٍ للمدينة ، ظفراً يجب ألا تَحْلُم به ، كما توقَّعوا: أنَّ وقت الحصار سيطول أمده ، فيصبح المسلمون مهدَّدين بقطع المؤن عنهم[١].

أمَّا رأي مَنْ يرى البقاء في المدينة فهو مبنيٌّ على التَّخطيط الحربيِّ الآتي:

١ ـ إنَّ جيش مكَّةَ لم يكن موحَّدَ العناصر؛ وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً طويلاً؛ إذ لابدَّ من ظهور الخلاف بينهم. إن عاجلاً ، أو آجلاً.

٢ ـ إنَّ مهاجمة المدن المُصمَّمة على الدِّفاع عن حياضها ، وقلاعها ، وبيضتها أمرٌ بعيد المنال؛ وخصوصاً إذا تشابه السِّلاح عند كِلا الجيشين ، وقد كان يوم أحدٍ متشابهاً.

٣ ـ إنَّ المدافعين إذا كانوا بين أهليهم؛ فإنَّهم يستبسلون في الدِّفاع عن أبنائهم ، وحماية نسائهم ، وبناتهم ، وأعراضهم.

٤ ـ مشاركة النِّساء ، والأبناء في القتال ، وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

٥ ـ استخدام المدافعين أسلحةً لها أثر في صفوف الأعداء؛ مثل الأحجار وغيرها ، وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم[٢].

من الواضح: أنَّ الرَّسول ﷺ ، عوَّد أصحابه على التَّصريح بآرائهم عند مشاورته لهم؛ حتَّى ولو خالفت رأيه ، فهو إنَّما يشاورهم فيما لا نصَّ فيه؛ تعويداً لهم على التَّفكير في الأمور العامَّة ، ومعالجة مشكلات الأمَّة ، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرَّأي ، ولم يحدث أن لام الرَّسولُ ﷺ أحداً؛ لأنه أخطأ في اجتهاده ، ولم يوفَّق في رأيه ، وكذلك فإنَّ الأخذ بالشُّورى مُلْزِمٌ للإمام ، فلابدَّ أن يُطبِّق الرَّسول ﷺ التَّوجيه القرآني: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] لتعتاد الأمَّة على ممارسة الشُّورى ، وهنا يظهر الوعي السِّياسيُّ عند الصَّحابة رضي الله عنهم ، فرغم أنَّ لهم إبداءَ الرَّأي ، إلا أنَّه ليس لهم فرضه

(١) انظر: غزوة أحد ، لأحمد عز الدِّين ، ص ٥١ ـ ٥٢.
(٢) انظر: القيادة العسكريَّة ، للرَّشيد ، ص ٣٧٤.

على القائد ، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ، ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجَّح لديه من الآراء ، فلمَّا رأوا أنَّهم ألحوا في الخروج ، وأنَّ الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم ، عادوا فاعتذروا إليه ، لكن الرَّسول الكريم ﷺ علَّمهم درساً آخر هو من صفات القيادة النَّاجحة ، وهو عدم التردُّد بعد العزيمة والشُّروع في التنفيذ ، فإنَّ ذلك يزعزع الثِّقة بها ، ويغرس الفوضى بين الأتباع[1] .

كان النَّبيُّ ﷺ قد عزم على الخروج ، وقد أعلن حالة الطَّوارئ العامَّة ، وتجهَّز الجميع للقتال ، وأَمْضَوْا ليلتهم في حذرٍ ؛ كلٌّ يصحب سلاحه ، ولا يفارقه حتَّى عند نومه ، وأمر ﷺ بحراسة المدينة ، واختار خمسين من أشدَّاء المسلمين ، ومحاربيهم بقيادة محمَّد بن مسلمة رضي الله عنه ، واهتمَّ الصحابة بحراسة رسول الله ﷺ ، فبات سعد بن معاذ ، وأُسَيْد بن حضير ، وسعد بن عبادة ، في عدَّةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم ليلة الجمعة ، مُدَجَّجِينَ بالسِّلاح على باب المسجد ، يحرسون رسول الله ﷺ[2] .

خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أحدٍ:

أ ـ من الأسباب المهمَّة الَّتي اتَّخذها ﷺ لملاقاة أعدائه اختيارُه لوقت التحرُّك ، والطَّريق التي تناسب خطَّته ، فقد تحرَّك بعد منتصف اللَّيل ، حيث يكون الجوُّ هادئاً ، والحركة قليلةٌ ، وفي هذا الوقت بالذَّات يكون الأعداء ـ غالباً ـ في نومٍ عميق ؛ لأنَّ الإعياء ، ومشقَّة السَّفر قد أخذا منهم مجهوداً كبيراً .

ومن المعروف: أنَّ مَنْ نام بعد تعبٍ يكون ثقيلَ النَّوم ، فلا يشعر بالأصوات العالية ، والحركة الثَّقيلة . قال الواقديُّ ـ رحمه الله ـ: ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج ، فلمَّا كان في السَّحَر ؛ قال: «أين الأدلاَّء؟[3]»[4] .

ثمَّ إنَّه ﷺ اختار الطَّريق المناسب الَّذي يسلكه حتَّى يصل إلى أرض المعركة ، وذكر صفةً ينبغي أن تتوافر في هذا الطَّريق ، وهي السِّرِّيَّة ، حتَّى لا يرى الأعداء جيش المسلمين ، فقال ﷺ لأصحابه: «مَنْ رجلٌ يخرج بنا على القوم مِنْ كَثَبٍ[5] من طريق لا يمرُّ بنا عليهم؟» ، فأبدى أبو خيثمة رضي الله عنه استعداده قائلاً: أنا يا رسولَ الله! فنفذ به في حَرَّةِ بني حارثة وبين أموالهم ، حتَّى سلك به في مالٍ لربعي بن قَيْظيٍّ ـ وفي رواية ابن هشام: لمربع بن قَيظيٍّ ـ ،

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٨٠).
(٢) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ٣٤ ـ ٣٥.
(٣) الدَّليل: المرشد. والجمع: أدلاَّء.
(٤) انظر: المغازي ، للواقدي (١/ ٢١٧).
(٥) الكثب: يقال: رماه من كثبٍ: قُربٍ ، وتمكُّنٍ.

وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر ، فلمَّا أحس برسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، قام يحثي في وجوههم التُّراب ، وهو يقول: إن كنتَ رسولَ الله فلا أُحلُّ لك أن تدخل حائطي.

وقد ذُكر: أنَّه أخذ حفنةً من ترابٍ بيده ، ثمَّ قال: والله! لو أعلم: أنِّي لا أصيب بها غيرك يا محمد! لضربتُ بها وجهك ، فابتدره القوم: ليقتلوه ، فقالﷺ : لا تقتلوه؛ فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصر ، وقد بَدَرَ إليه سعدُ بن زيدٍ أخو بني عبد الأشهل[١] قبل نهي رسول الله ﷺ عنه ، فضربه بالقوس في رأسه ، فشجَّه. [الواقدي في المغازي (١/٢١٨)، والطبري في تاريخه (٢/٥٠٦)، وابن هشام (٣/ ٦٩)].

ولا شك في أنَّ مروره ﷺ بين الأشجار ، والبساتين ، يدلُّنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنيَّة المناسبة في أثناء السَّير؛ لأنَّ الطُّرق العامَّة تكشف للأعداء عن مقدار قوَّات المسلمين ، وهذا أمرٌ محذورٌ ، فالرَّسول ﷺ علَّم الأمَّة الأخذ بالسِّرِّيَّة من حيث المكان ، ومن حيث الزَّمان؛ لئلا يستطيع الأعداء معرفة قوَّاتهم ، فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها ، وبذلك يذهب تنظيم القادة ، وإعدادهم لجيوشهم في مهبِّ الرِّياح.

وفي هذا الخبر تطبيقٌ عمليٌّ لتقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة ، إذا تعارضت المصلحتان؛ فالرَّسول ﷺ حينما مرَّ بالجيش في أرض المنافق مربع بن قَيْظيٍّ ، وترتَّب على ذلك إفساد المزرعة؛ مرَّ ولم يعبأ بذلك؛ لأنَّ في ذلك مصلحة الجيش باختصار الطَّريق إلى أُحدٍ ، فبيَّن ﷺ أنَّ ما يكون به مصلحةٌ للدِّين مقدَّمٌ على ما سواه من المصالح الأخرى ، فهنا تعارضت مصلحتان: مصلحةٌ عامَّةٌ ، ومصلحةٌ خاصَّة ، ومصلحة الدِّين في هذا الموقف مصلحةٌ عامَّةٌ ، وهي مقدَّمة على المصلحة الخاصَّة ، وهي مصلحة المال[٢].

وقد رتَّب الشَّارع الحكيم مقاصد الشَّرع في تحقيق المنافع لعباده؛ مِنْ حفظ دينهم ، ونفوسهم ، وعقولهم ، ونسلهم ، وأموالهم ، طبقَ ترتيبٍ معيَّنٍ فيما بينها[٣] ، فإذا نظرنا إلى كلِّيات الدِّين الخمس ، وأهمِّيتها ، وجدنا: أنَّ هذه الكلِّيات متدرِّجةٌ حسب الأهمِّيَّة: الدِّين ، والنَّفس ، والعقل ، والنَّسل ، والمال ، فما يكون به حفظ الدِّين مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ النَّفس عند تعارضهما ، وما يكون به حفظ النَّفس مقدَّمٌ على ما يكون به حفظ العقل ، وما يكون به حفظ النَّسل مقدَّم على ما يكون به حفظ المال ، والتَّرتيب بهذا الشَّكل من هذه الكلِّيات يحظى باتفاق العلماء[٤].

---

(١) بنو عبد الأشهل: حيٌّ من الأنصار.

(٢) انظر: غزوة أُحدٍ دراسة دعويَّة ص ١٦٨.

(٣) انظر: ضوابط المصلحة ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، ص ٢٣.

(٤) انظر: المقاصد العامة للشَّريعة ، ليوسف حامد العالم ، ص ١٦٦.

إنَّ العلماء المتعمِّقين في دراسة السِّيرة النَّبويَّة ، والهدي النَّبويِّ الكريم قد استنبطوا قواعدَ مهمَّة في تقديم المصلحة العامَّة على المصلحة الخاصَّة؛ ومنهم: الشَّاطبيُّ ، والعزُّ بن عبد السَّلام ، فقد قال الشَّاطبيُّ: «الضَّابط في ذلك: التَّوازن بين المصلحة والمفسدة ، فما رُجِّح منها؛ غُلِّب ، وإن استويا؛ كان محلَّ إشكال. وخلافٌ بين العلماء قائم من مسألة انخرام المناسبة تلزم راجحةً أو مساويةً»(١) .

وقال العزُّ بن عبد السَّلام: «وتقديم المصالح الرَّاجحة على المرجوحة محمودٌ حسنٌ ، ودرء المفاسد الرَّاجحة على المفاسد المرجوحة محمودٌ حسنٌ ، اتَّفق الحكماء على ذلك ، وكذلك الشَّرائع ، فإن تساوت الرُّتب؛ تخيَّر ، وإن تفاوتت الرُّتب؛ استعمل التَّرجيح عند عرفانه»(٢) .

وقال في موضع آخر: «والضَّابط: أنه مهما ظهرت المصلحة الخالية عن المفاسد؛ يسعى في تحصيلها ، ومهما ظهرت المفاسد الخالية عن المصالح؛ يسعى في درئها»(٣) .

ب ـ انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش:

عندما وصل جيش المسلمين الشَّوْط(٤) ، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمئة من المنافقين ، بحجَّة: أنَّه لن يقع قتالٌ مع المشركين ، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة ، قائلاً: أطاع الولدان ، ومن لا رأي له ، أطاعهم ، وعصاني ، علام نقتلُ أنفسنا؟!(٥) وكان هدفه الرَّئيس من هذا التَّمرُّد ، أن يحدث بلبلةً ، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ ، لتنهار معنوياتُه ، ويتشجَّع العدوُّ ، وتعلو همَّته ، وعمله هذا ينطوي على خيانةٍ عظمى ، وبُغْضٍ للإسلام والمسلمين ، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحِّص الله الجيش؛ ليظهر الخبيث من الطَّيِّب؛ حتَّى لا يختلطَ المخلص بالمُغْرِض ، والمؤمن بالمنافق(٦) .

قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

---

(١) انظر: الموافقات ، للشَّاطبي (٢/ ٦٥١).
(٢) انظر: قواعد الأحكام (١/ ٦ ـ ٧).
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٧).
(٤) الشَّوط: اسم حائط ـ أي: بستان ـ بين المدينة ، وأحدٍ.
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ١٤).
(٦) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٤.

فالجبن ، والنُّكوص هما اللَّذان كشفا عن طوية المنافقين ، فافتضحُوا أمام أنفسهم وأمام النَّاس قبل أن يفضَحهم القرآن[١] .

ج ـ موقف عبد الله بن عمرو بن حَرَام من انخذال المنافقين :

حاول عبد الله بن حرام رضي الله عنه إقناع المنافقين بالعودة ، فأبوا ، فقال : يا قوم! أذكِّركم الله ألا تخذلوا قومكم ، ونبيَّكم عندما حضر من عدوِّهم ؛ فقالوا : لو نعلم أنَّكم تقاتلون ؛ لما أسلمناكم ، ولكنَّا لا نرى أنه يكون قتالٌ ، فلمَّا استعصوا عليه ، وأبوا إلا الانصراف عنهم ؛ قال : أبعدَكم اللهُ أعداءَ الله ، فسيغني الله عنكم نبيَّه[٢] .

وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران : ١٦٦ ـ ١٦٧] .

د ـ بنو سلمة ، وبنو حارثة :

ولمَّا رجع ابن أُبي بن سلول ، وأصحابُه ؛ همَّت بنو سلمةَ ، وبنو حارثة أن ترجعا ، ولكنَّ الله ثبَّتهما ، وعصمهما ، وفي ذلك نزل قوله سبحانه : ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران : ١٢٢] قال جابر بن عبد الله : نزلت هذه الآية فينا ـ بني سلمة ، وبني حارثة ، وما أحبُّ أنَّها لم تنزل ، والله يقول : ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾ [آل عمران : ١٢٢] . [البخاري (٤٠٥١)] .

لقد أثَّر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ، ففكروا في العودة إلى المدينة ، ولكنَّهم غالبوا الضَّعف الذي ألمَّ بهم ، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاَّهم الله تعالى ، فدفع عنهم الوهن ، فثبتوا مع المؤمنين .

وقد ظهر رأيان في أوساط الصَّحابة تجاه موقف ابن سلول :

الأوَّل : يرى قتل المنافقين الَّذين خذلوا المسلمين بعودتهم ، وانشقاقهم عن الجيش .

الثَّاني : لا يرى قتلهم .

وقد بين القرآن الكريم موقف الفريقين[٣] في هذه الآية : ﴿۞ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ

---

(١) انظر : مرويات غزوة أحد ، لحسين أحمد ، ص ٧١ .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٧٧ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٣/ ٣٨٢) .

أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

هـ ـ الاستعانة بغير المسلمين:

عندما وصل رسول الله ﷺ إلى مكان يُدعى الشَّيخين ، رأى كتيبةً لها صوتٌ وجَلَبَةٌ ، فقال: ما هذه؟ فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبي بن سلول من يهود ، فقال ﷺ: «لا نستنصر بأهل الشِّرك على أهل الشِّرك»[(١)] وهذا أصلٌ وضعه النَّبيُّ ﷺ في عدم الرُّكون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم[(٢)].

و ـ رَدُّ النَّبيِّ ﷺ بعض الصَّحابة لصغر سنِّهم:

ردَّ النبيُّ ﷺ في معسكره بالشَّيخين جماعةً من الفتيان لصغر أعمارهم؛ إذ كانوا في سن الرَّابعة عشرة ، أو دون ذلك؛ منهم: عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن أرقم ، والبراء بن عازب ، وأبو سعيد الخدري؛ بلغ عددهم أربعة عشر صبيّاً ، وقد ثبت أنَّ ابن عمر كان منهم[(٣)] ، وأجاز منهم رافع بن خديج لمَّا قيل له: إنَّه رامٍ ، فبلغ ذلك سَمُرَةَ بن جُنْدب ، فذهب إلى زوج أمِّه مرّي بن سنان بن ثعلبة ـ عمّ أبي سعيد الخدريِّ ، وهو الذي ربَّى سَمُرَة في حِجْرِه ـ يبكي ويقول له: يا أبتِ! أجاز رسولُ الله ﷺ رافعاً ، وردَّني ، وأنا أصرع رافعاً ، فذهب زوج أمِّه إلى النَّبيِّ ﷺ ، وأخبره بذلك ، فالتفت النَّبيُّ ﷺ إلى رافع ، وسَمُرَةَ ، فقال لهما: تصارعا ، فصرع سمرة رافعاً ، فأجازه كما أجاز رافعاً ، وجعلهما من جنده ، وعسكر كتائبه ، ولكلٍّ منهما مجالُه ، واختصاصُه[(٤)].

ونلحظ: أنَّ رسول الله ﷺ أجاز رافعاً ، وسَمرة لامتيازٍ عسكريٍّ امتازوا به على أقرانهما ، وردَّ صغار السِّنِّ خشية ألاَّ يكون لهم صبرٌ على ضرب السُّيوف ، ورمي السِّهام ، وطعن الرِّماح ، فيفرُّوا من المعركة إذا حمي الوطيس[(٥)] ، فيُحْدِث فرارُهم خلخلةً في صفوف المسلمين[(٦)].

ونلحظ: أنَّ المجتمع الإسلاميَّ يضجُّ بالحركة ، ويسعى للشَّهادة ، شيوخاً ، وشباباً؛ حتَّى الصبيانُ يُقبلون على الموت ببسالةٍ ، ورغبةٍ في الشَّهادة ، تبعث على الدَّهشة ، دون أن يجبرهم قانون التَّجنيد ، أو تدفع بهم قيادةٌ إلى ميدان القتال ، وهذا يدلُّ على أثر المنهج النَّبويِّ الكريم ،

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٧٨.
(٢) انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمَّد عرجون (٣/ ٥٦١).
(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٣).
(٤) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٥٧١ ـ ٥٧٢).
(٥) حمي الوطيس: اشتدت الحرب.
(٦) انظر: محمَّد رسول الله (٣/ ٥٧١ ـ ٥٧٢).

في تربية شرائح الأمَّة المتعدِّدة ، على حبِّ الآخرة ، والترفُّع عن أمور الدُّنيا .

سادساً: خطَّة الرَّسول ﷺ لمواجهة كفار مكَّة :

أ ـ **وَضَعَ الرَّسول ﷺ خطَّةً محكمةً لمواجهة المشركين من قريشٍ**؛ حيث اختار الموقع المناسب ، وانتخب مَنْ يصلح للقتال ، وردَّ من لم يكن صالحاً ، واختار خمسين منهم للرِّماية ، وشدَّد الوصيَّة عليهم ، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب ، وأعطى اللِّواء لأحد أفراد الكتيبة ، وهذه الكتائب هي :

١ ـ كتيبة المهاجرين : وأعطى لواءها مصعب بن عميرٍ رضي الله عنه .

٢ ـ كتيبة الأوس من الأنصار : وأعطى لواءها أُسيد بن حضيرٍ رضي الله عنه .

٣ ـ كتيبة الخزرج من الأنصار : وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر رضي الله عنه(١) .

ب ـ **وكان من هديه ﷺ أن يُحرِّض أصحابه على قتال الأعداء** ، ويحثُّهم على التَّحلِّي بالصَّبر في ميادين القتال ، لكي تتقوى رُوحهم المعنويَّة ، ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم ، ومن ذلك ما فعله يوم أُحدٍ ، وفي ذلك يقول الواقديُّ : «ثمَّ قام رسولُ الله ﷺ ، فخطب النَّاس :

«يا أيها الناس! أُوصيكم بما أوصاني الله في كتابه؛ من العمل بطاعته ، والتَّناهي عن محارمه ، ثمَّ إنَّكم اليوم بمنزل أجرٍ ، وذُخْرٍ؛ لمن ذكر الَّذي عليه ، ثمَّ وطَّن نفسه له على الصَّبر ، واليقين ، والجدِّ ، والنَّشاط ، فإنَّ جهاد العدو شديدٌ كربُه ، قليلٌ من يصبر عليه إلا من عزم الله رشدَه ، فإنَّ الله مع مَنْ أطاعه ، وإنَّ الشَّيطان مع مَنْ عصاه ، فافتتحُوا أعمالكم بالصَّبر على الجهاد ، والتمِسوا بذلك ما وعدكم الله ، وعليكم بالَّذي آمركم؛ فإنِّي حريصٌ على رشدكم ، فإنَّ الاختلاف ، والتَّنازع ، والتَّثبيط ، من أمر العجز ، والضَّعف ، ممَّا لا يحبُّ الله ، ولا يعطي عليه النَّصر ، ولا الظَّفر»(٢) .

ويتَّضح من هذه الخُطبة عدَّةُ أهدافٍ؛ منها :

١ ـ الحثُّ على الجدِّ ، والنَّشاط في ميدان الجهاد .

٢ ـ الحثُّ على الصَّبر عند قتال الأعداء .

٣ ـ بيان مساوئ الاختلاف ، والتَّنازع(٣) .

---

(١) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٨٩ .

(٢) انظر : مغازي الواقديِّ (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٢) .

(٣) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٤٦٩ .

إنَّ هذا الهدي المبارك الَّذي سَنَّهُ ﷺ يعلِّمنا حقائق ثابتةً ، وهي : أنَّ الجيوش مهما عظم تسليحها ، وتنظيمها ، فإنَّ ذلك لا يغني شيئاً إلا إذا حملته نفوسٌ قويَّةٌ ، تحرص على الموت أشدَّ مِنْ حرصها على الحياة ، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتَّوجيه ، وغرس حبِّ الجهاد ، والشَّهادة في نفوسهم .

ج ـ **أدرك الرَّسول ﷺ أهمِّية جبل أحد لحماية جيش المسلمين** ، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد؛ جعل الرَّسولُ ﷺ ظهورَهم إلى الجبل ، ووجوههم إلى المدينة ، وانتقى خمسين من الرُّماة تحت إمرة عبد الله بن جُبَيْرٍ[1] ، ووضعهم فوق جبل عَينين المقابل لجبل أحد ، وذلك حتَّى يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين ، وأصدر أوامره إليهم قائلاً : «إن رأيْتُمونا تَخطَفُنا الطَّيرُ؛ فلا تَبرحُوا مكانكم هذا حتَّى أُرسلَ إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القومَ ، وأوطَأْنَاهُم فلا تَبرحُوا حتَّى أُرْسلَ إليكم» [البخاري (٣٠٣٩) ، وأحمد (٤/ ٢٩٣) ، وأبو داود (٢٦٦٢)] .

وقال رسول الله ﷺ للجيش : «لا تبرحوا حتَّى أوذنكم» ، وقال : «لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى آمره بالقتال» .

وقال لأمير الرُّماة : «انضحِ الخيلَ عنا بالنَّبْل؛ لا يأتونا مِنْ خَلفنا ، واثبت مكانك إن كانت لنا ، أو علينا» [الطبري في تاريخه (٢/ ٥٠٧) ، والواقدي في المغازي (١/ ٢٢٥) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٢٧) ، وابن هشام (٣/ ٧٠)] . وقال للرُّماة : «الزموا مكانكم ، لا تبرحوا منه ، فإذا رأيتمونا نهْزِمُهُمْ حتَّى ندخل عسكرهم؛ فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نُقتل؛ فلا تغيثونا ، ولا تدفعوا عنَّا ، وارشقوهم بالنَّبْل؛ فإنَّ الخيل لا تقدم على النَّبل ، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللَّهمَّ إنِّي أُشهدك عليهم»[2] .

سيطر المسلمون على المرتفعات ، وتركوا الوادي لجيش مكَّة ليواجه أُحداً ، وظهره إلى المدينة ، وأصبحت مهمَّة الرُّماة في النقاط التالية : احتلال الموقع ، حماية المسلمين من الخلف ، صدُّ الخيل عن المسلمين[3] .

د ـ **تسوية الصُّفوف ، وتنظيم الجيش**؛ تقدَّم رسولُ الله ﷺ أصحابه ، وصفَّهم على هيئة صفوف الصَّلاة ، وجعل رسولُ الله ﷺ يمشي على رجليه ، يُسوِّي تلك الصُّفوف ، ويبوِّئ

---

(١) انظر : الإصابة (٢/ ٢٧٨) .
(٢) انظر : السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٦) ، وانظر : سيرة ابن هشام (نزول الرسول ﷺ بالشعب ، وتعبيته للقتال) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (٤٠٤٣) ، والرَّحيق المختوم (خطة الدفاع) ، وتاريخ الطَّبريِّ (٢/ ٥٠٧) .
(٣) انظر : غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٩٠ .

أصحابه للقتال، يقول: تقدَّم يا فلان! وتأخر يا فلان! فهو يقوِّمهم... حتَّى استوت الصُّفوف[١]، فوضع ﷺ في مقدِّمة الصُّفوف الأشداء؛ لكي يفتحوا الطَّريق لمن خلفهم، وقد أخذ الرَّسول ﷺ بهذا الأسلوب؛ لأنَّه أبلغ في قتال الأعداء[٢].

هـ ـ عدم القتال إلا بأمرٍ من القائد: قال الطَّبريُّ: «فجعل ظهره، وعسكره إلى أحدٍ، وقال: لا يقاتلنَّ أحدٌ حتَّى نأمره بالقتال»[٣].

وفي هذا التَّوجيه فائدةٌ مهمَّةٌ، وهي توحيد القيادة والمسؤوليَّة؛ لأنَّه ﷺ أدرى بالمصلحة.

* * *

---

(١) انظر: المغازي، للواقدي (١/ ٢١٩).

(٢) انظر: العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول ﷺ، لمحمد فرج، ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٣) انظر: تاريخ الطَّبريِّ (٢/ ٥٠٧).

المبحث الثَّاني
في قلب المعركة[١]

أولاً: بدء القتال واشتداده ، وبوادر الانتصار للمسلمين :

في بداية القتال ، حاول أبو سفيان أن يُوجِدَ شرخاً ، وتصدُّعاً في جبهة المسلمين المتماسكة ، فأرسل إلى الأنصار يقول: «خَلُّوا بيننا وبين ابن عمِّنا ، فننصرف عنكم ، فلا حاجة بنا إلى قتالكم» فردُّوا عليه بما يكره[٢] .

ولمَّا فشلت المحاولة الأولى ؛ لجأت قريش إلى محاولةٍ أخرى ، عن طريق عميلٍ خائن من أهل المدينة ، وهو أبو عامر الرَّاهب ، حيث حاول أبو عامر الرَّاهب أن يستزل بعض الأنصار ، فقال: يا معشرَ الأوس! أنا أبو عامر! قالوا: فلا أنعم اللهُ بك عيناً يا فاسق! فلمَّا سمع ردَّهم عليه ؛ قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ ، ثمَّ قاتلهم قتالاً شديداً ، ورماهم بالحجارة[٣] .

وبدأ القتال بمبارزةٍ بين عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، وطلحةَ بن عثمان حامل لواء المشركين يوم أُحدٍ ، يقول صاحب السِّيرة الحلبية: خرج طلحةُ بن عثمان ، وكان بيده لواء المشركين ، وطلب المبارزة مراراً ، فلم يخرج إليه أحدٌ ، فقال: يا أصحابَ محمد! إنَّكم تزعمون أنَّ الله ـ تعالى ـ يُعجلنا بسيوفكم إلى النَّار ، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنَّة ، فهل أحدٌ منكم يعجلني بسيفه إلى النَّار ، أو أعجله بسيفي إلى الجنَّة؟ فخرج إليه عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، فقال له عليٌّ رضي الله عنه: والَّذي نفسي بيده! لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النَّار ، أو يعجلني بسيفك إلى الجنَّة ، فضربه عليٌّ فقطع رِجْلَهُ ، فوقع على الأرض ، فانكشفت عورتُه ، فقال: يا بن عمِّي! أنشدك الله ، والرَّحم! فرجع عنه ، ولم يجهز عليه ، فكبَّر رسولُ الله ﷺ . وقال بعض الصَّحابة لعليٍّ: أفلا أجهزت عليه؟! قال: إنَّ ابن عمِّي ناشدني الرَّحم حين انكشفت عورتُه ، فاستحييتُ منه[٤] .

---

(١) ينظر الشكل (٤) في الصفحة (٦٠٨).
(٢) انظر: إمتاع الأسماع ، للمقريزي (١/ ١٢٠).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ١٩٢) ، وسيرة ابن هشام (أمر أبي عامر الفاسق).
(٤) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨) ، وتفسير الطَّبريِّ (٧/ ٢١٨) ، والقصَّة بنحوها في ابن هشام.

والتحم الجيشان ، واشتدَّ القتال ، وشرع رسولُ الله ﷺ يشحذ همم أصحابه ، ويعمل على رفع معنوياتهم ، وأخذ سيفاً ، وقال: «مَنْ يأخذُ منِّي هذا؟» فبسطوا أيديهم ، كلُّ إنسان منهم يقول: أنا ، أنا. قال: «فمن يأخذه بحقِّه؟» قال: فأَحْجَمَ القومُ ، فقال سِمَاكُ بنُ خَرَشَةَ أبو دُجَانة: وما حقُّه يا رسولَ الله؟! قال: «أن تضرب به العدوَّ حتَّى ينحني» ، قال: أنا آخذه بحقِّه. فدفعه إليه وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ـ أي يمشي مشية المتكبِّر ـ ، وحين رآه رسول الله ﷺ يتبختر بين الصَّفَّينِ قال: «إنَّها لمشيَةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن» ، وأخذه ، وفلق به هامَ المشركين [أحمد (٣/ ١٢٣) ، ومسلم (٢٤٧٠) ، والحاكم (٣/ ٥٥٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٢)].

وهذا الزُّبير بن العوَّام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أُحدٍ ، قال: وجدت في نفسي حين سألتُ رسول الله ﷺ السَّيْفَ ، فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة ، وقلت: أنا ابن صفيَّة عمَّتِه ، ومِنْ قريشٍ ، وقد قمتُ إليه ، وسألته إيَّاه قَبْلَه ، فأعطاه أبا دُجانة ، وتركني ، والله! لأنظرنَّ ما يصنع ، فاتبعته ، فأخرج عصابةً له حمراء ، فعصب بها رأسه ، فقالت الأنصار: أخرج أبو دُجانة عِصَابة الموت ـ وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّب بها ـ ، فخرج ؛ وهو يقول:

أنَّا الَّذي عاهَدَني خَلِيْلي ... وَنَحْنُ بالسَّفْحِ لَدَىٰ النَّخِيْلِ
ألا أقُومَ الدَّهرَ في الكَيُّولِ[1] ... أضْرِبْ بِسَيْفِ اللهِ والرَّسُولِ[2]

فجعل لا يَلْقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجلٌ لا يَدعُ لنا جريحاً إلا ذفَّف[3] عليه ، فجعل كلُّ واحدٍ منهما يدنو من صاحبه ، فدعوتُ الله أن يجمع بينهما ، فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشركُ أبا دجانة ، فاتَّقاه بدَرَقَتِه ، فعضَّت بسيفه ، وضربه أبو دُجانة فقتله ، ثمَّ رأيتُه قد حمل السَّيف على مَفْرِق رأس هند بنت عُتبة ، ثمَّ عدل السَّيف عنها ، فقلت: الله ورسولُه أعلم. قال ابن إسحاق: قال أبو دُجانة: رأيت إنساناً يَخْمش[4] النَّاس خَمْشاً شديداً ، فصمدتُ له[5] ، فلمَّا حملتُ عليه السَّيفَ ؛ وَلْوَلَ ، فإذا امرأةٌ ، فأكرمتُ سيفَ رسول الله أن أضرب به امرأةً [ابن هشام (٣/ ٧٣) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٣٣)][6].

(١) الكَيُّول: آخر الصُّفوف في الحرب.
(٢) البداية والنِّهاية (٤/ ١٧) ، وسيرة ابن هشام (تمام قصَّة أبي دجانة).
(٣) ذفَّف: أجهز عليه.
(٤) يخمش: يشجع على القتال.
(٥) فصمدت له: قصدت نحوه.
(٦) البداية والنهاية (٤/ ١٧).

ثانياً: مخالفة الرُّماة لأمر الرَّسول ﷺ:

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين ، وكان شعارُهم: أمِتْ.... أمِتْ ، واستماتوا في قتالٍ بطوليٍّ ملحميٍّ ، سجَّل فيه أبطال الإسلام صوراً رائعةً من البطولة ، والشَّجاعة[1] ، وسجَّل التَّاريخ روائعَ بطولاتِ حمزةَ بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وأبي دُجانةَ ، وأبي طلحة الأنصاريِّ ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وأمثالهم كثيرٌ[2] ، وحقَّق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة[3].

وفي ذلك يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ولما رأى الرُّماةُ الهزيمةَ الَّتي حلَّت بقريشٍ ، وأحلافها ، ورأوا الغنائم في أرض المعركة؛ جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم؛ ظنّاً منهم: أنَّ المعركة انتهت ، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جُبيرٍ: «الغنيمة أي قَوْمِ! الغنيمة! ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جُبَيْرٍ: أنَسِيتُم ما قال لكم رسولُ الله ﷺ ؟ قالوا: والله لنأتينَّ النَّاسَ فلنُصيبَنَّ من الغنيمة» [البخاري (٣٠٣٩)].

ثمَّ انطلقوا يجمعون الغنائم ، ولم يعبؤوا بقول أميرهم ، ووصف ابن عباس رضي الله عنهما حالة الرُّماة في ذلك الموقف ، فقال: «فلمَّا غنم النَّبيُّ ﷺ ، وأباحوا عسكر المشركين ، أكبَّ الرُّماة جميعاً ، فدخلوا في المعسكر ينهبون ، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ ، فهم هكذا ـ وشبك بين أصابع يديه ـ ، والتبسوا ، فلمَّا أخلَّ الرُّماة تلك الخَلَّة الَّتي كانوا فيها ، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، فضرب بعضهم بعضاً ، والتبسوا ، وقُتل من المسلمين ناسٌ كثير» [أحمد (١/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨)].

ورأى خالد بن الوليد ـ وكان على خيَّالة المشركين ـ ، الفرصة سانحةً ليقوم بالالتفاف حول المسلمين ، ولمَّا رأى المشركون ذلك ، عادوا إلى القتال من جديدٍ ، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين ، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى ، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيطٍ ، فأصبحوا يقاتلون متفرِّقين ، فلا نظام يجمعهم ، ولا وحْدَة تشملهم ، بل لم يعودوا يميِّزون بعضهم ، فقد قَتَلُوا اليَمانَ ـ والد حُذيفة بن اليَمان ـ خطأً [البخاري (٤٠٦٥) ، وابن هشام (٣/١٢٩)]. وأخذ المسلمون

---

(١) انظر: نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم (١/ ٣٠٣).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) المصدر السَّابق نفسه.

يتساقطون شهداء في الميدان ، وفقدوا اتِّصالهم بالرَّسول ﷺ ، وشاع: أنَّه قُتِل[١] ، واختلط الحابلُ بالنَّابل[٢] واشتدَّت حرارة القتال ، وصار المشركون يقتلون كلَّ من يلقونه من المسلمين ، واستطاعوا الخلوص قريباً من النَّبيِّ ﷺ ، فرموه بحجر كسر أنفه الشَّريف ، ورباعيَتَهُ[٣] ، وشجَّه[٤] في وجهه الكريم ، فأثقله وتفجَّر الدَّم[٥] منه ﷺ .

عن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كُسِرَتْ رَبَاعيَتُه يوم أُحدٍ ، وشُجَّ في رأسه ، فجعل يَسْلُتُ الدَّمَ عنه ، ويقول: كيف يُفْلح قومٌ شجُّوا نبيَّهم ، وكسروا ربَاعيَتَه ، وهو يدعوهم إلى الله؟ [البخاري تعليقاً (٨/ ١١٢) ، ومسلم (١٧٩١)] فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٨] .

وحمل ابن قَمِئَةَ على مُصعب بن عمير رضي الله عنه حيث كان شديدَ الشَّبه برسول الله ﷺ ، فقتله ، فقال لقريش: قد قتلت محمَّداً[٦] .

وشاع: أنَّ محمَّداً قد قُتِل ، فتفرَّق المسلمون ، ودخل بعضهم المدينة ، وانطلقت طائفةٌ منهم فوق الجبل ، واختلطت على الصَّحابة أحوالهم ، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة[٧] ، ففرَّ جَمْعٌ من المسلمين من ميدان المعركة ، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتالٍ ، وآثر آخرون الشَّهادة بعد أن ظنُّوا: أنَّ رسول الله ﷺ قد مات؛ ومن هؤلاء أنسُ بن النَّضر ، الَّذي كان يأسف لعدم شهوده بدراً ، والَّذي قال في ذلك: «والله! لئن أراني اللهُ مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرينَّ اللهُ كيف أصنع» وقد صدق في وعده ، فقد مرَّ يوم أُحدٍ على قومٍ ممَّن أذهلتهم الشَّائعةُ ، وألقوا بسلاحهم ، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسولُ الله ﷺ! فقال: يا قوم! إن كان محمَّدٌ قد قُتل ، فإن ربَّ محمَّد لم يُقتل ، وموتوا على ما مات عليه. وقال: اللَّهمَّ إنِّي أعتذر إليك ممَّا قال هؤلاء ـ يعني: المسلمين ـ ، وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء ـ يعني: المشركين ـ ، ثم لقي سعد بن معاذ ، فقال: يا سعد! إنِّي لأجد ريح الجنَّة دون أحدٍ ، ثمَّ ألقى بنفسه في أتُونِ المعركة ، وما زال يقاتل؛ حتَّى اسْتُشْهِد ، فوُجد فيه بضعٌ

(١) انظر: غزوة أحد دراسةٌ دعويَّة ، ص ٩٨ .
(٢) اختلط الحابلُ بالنَّابل: اضطربت الأمورُ.
(٣) الرَّباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنيَّة ، والنَّاب.
(٤) شجَّهُ شَجاً: شقَّ جلد رأسه أو وجهه.
(٥) انظر: فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٢٩٤ .
(٦) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٣/ ٨١).
(٧) انظر: غزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ١٠٠ .

وثمانون ما بين ضربةٍ بسيفٍ ، أو طعنةٍ برمح ، أو رميةٍ بسهم ، فلم تعرفه إلا أختُه ببنانه [البخاري (٤٠٤٨) ، وابن هشام (٣/ ٨٨)][(١)].

وفي هذا ، وأمثاله نزل قولُ الله تعالى : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

أمَّا أولئك النَّفر الَّذين فرُّوا لا يلوون على شيءٍ رغم دعوة النَّبيِّ ﷺ لهم بالصُّمود، والثَّبات ، فقد نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٣] .

ولقد حكى القرآن الكريم خبرَ فرار هذه المجموعة من الصَّحابة ، الَّذين ترخَّصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النَّبيِّ ﷺ ، الَّذي شاع في ساحة المعركة ، وكان أوَّل مَنْ علم بنجاة الرَّسول ﷺ ، وأنَّه حيٌّ هو الصَّحابيُّ كعب بن مالك ، الَّذي رفع صوتَه بالبُشرى ، فأمره النَّبيُّ ﷺ بالسُّكوت حتَّى لا يفطنَ المشركون إلى ذلك [الطبراني في الأوسط (١١٠٨) ، وفي الكبير (١٩/ ١٠٠) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٢)][(٢)].

وقد نصَّ القرآن الكريم على أنَّ الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة الَّتي فرَّت .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٥] .

ثالثاً: خطَّة الرَّسول ﷺ في إعادة شتات الجيش :

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين ، والهدف الرَّئيس فيه شخص النَّبيِّ ﷺ ، لم يتزحزح ﷺ من موقفه ؛ والصَّحابة يسقطون واحداً تلو الواحد بين يديه ، وحُوصرَ رسولُ الله ﷺ في قلب المشركين ، وليس معه إلا تسعةٌ من أصحابه ؛ سبعةٌ منهم من الأنصار . [مسلم (١٧٨٩)] .

وكان الهدف أن يفكَّ هذا الحصار ، وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه ، واستبسل الأنصار في الدِّفاع عن رسول الله ﷺ ، واستشهدوا واحداً بعد الآخر[(٣)] ، ثمَّ قاتل عنه طلحةُ بن عبيد الله حتَّى أُثْخِنَ ، وأصيب بسهم شلَّت يمينَه ، وأراد النَّبيُّ ﷺ أن يصعد صخرةً فلم يستطع ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٠١ .
(٢) سيرة ابن هشام ، (أوَّل من عرف الرَّسول ﷺ بعد الهزيمة) .
(٣) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٠٤).

فقعد طلحةُ تحته حتَّى استوى على الصَّخرة، قال الزُّبير: فسمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «أوجب طلحة» [أحمد (١/ ١٦٥) ، والترمذي (١٦٩٢)][١].

وقاتل سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه بين يدي رسول الله ﷺ ، وكان يناوله النِّبال ويقول له: «ارمِ يا سعد! فداك أبي ، وأمِّي!» [أحمد (١/ ١٣٧) ، والبخاري (٤٠٥٥) ، ومسلم (٢٤١٢)].

كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري؛ الَّذي كان من أمهر الرُّماة ، وهو الَّذي قال عنه النَّبيُّ ﷺ : «لصوت أبي طلحة في الجيش ، أشدُّ على المشركين من فئةٍ» [أحمد (٣/ ٢٠٣) ، وعبد بن حميد (١٣٨٤)]. وقد كان متترِّساً على رسول الله بحَجَفةٍ له ، وكان رامياً شديدَ النَّزع ، كَسَرَ يومئذٍ قوسين ، أو ثلاثاً ، وكان الرَّجل يمرُّ معه الجَعْبَةُ[٢] من النَّبل ، فيقول رسولُ الله ﷺ : «انثرها لأبي طلحة» ، ثمَّ يشرف إلى القوم ، فيقول أبو طلحة: «يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمي! لا تُشْرِف[٣] يصيبك سهمٌ من سِهام القوم ، نَحْرِي دون نحرك[٤]!» [البخاري (٤٠٦٤)].

ووقفت نُسَيْبة بنت كعب تذبُّ عن رسول الله ﷺ بالسَّيف ، وترمي بالقوس ، وأُصيبت بجراحٍ كبيرةٍ ، وترَّس أبو دجانة دون رسول الله ﷺ بنفسه؛ يقع النَّبل في ظهره وهو مُنْحَنٍ عليه حتَّى كثر فيه النَّبْلُ[٥].

والتفَّ حول الرَّسول ﷺ في تلك اللَّحظات العصيبة أبو بكرٍ ، وأبو عبيدة ، وقام أبو عبيدة بنزع السَّهمين من وجه النَّبيِّ ﷺ بأسنانه ، ثمَّ توارد مجموعةٌ من الأبطال المسلمين؛ حيث بلغوا قرابة الثَّلاثين ، يذودون عن رسول الله ﷺ ؛ منهم: قتادة ، وثابت بن الدَّحداح ، وسهل بن حنيف ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، والزُّبير بن العوَّام.

واستطاع عمر بن الخطَّاب أن يردَّ هجوماً مضادّاً ، قاده خالد ضدَّ المسلمين من عالية الجبل ، واستبسل الصَّحابة الَّذين كانوا مع عمر في ردِّ الهجوم العنيف ، وعاد المسلمون ، فسيطروا على الموقف من جديد[٦] ، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصرٍ حاسمٍ ، وتعبوا

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٩٦ ، وهذه القصَّة رواها ابن هشام (ضعف الرَّسول ﷺ عن النُّهوض ومعاونة طلحة له) ، والترمذي ، وأحمد ، والحاكم ، وصححها ووافقه الذَّهبي. انظر: الرَّحيق المختوم (طلحة ينهض بالنَّبيِّ ﷺ) وتخريجه لهذا الحديث.

(٢) الجعبة: الكنانة الَّتي تجعل فيها السِّهام.

(٣) لا تشرف: لا تتطلع.

(٤) نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السِّهام من نحرك لأصاب بها دونك.

(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥ ـ ٣٦) ، وسيرة ابن هشام (حديث أم سعد عن نصيبها في الجهاد يوم أحدٍ ، أبو دجانة وابن أبي وقَّاص يدافعان عن الرَّسول ﷺ).

(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠.

من طولها ، ومن جَلادة المسلمين ، وانسحب النَّبيُّ ﷺ بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحَد شعاب جبل أُحدٍ ، وكان المسلمون في حالةٍ من الألم ، والخوف ، والغمِّ لما أصاب رسولَ الله ﷺ ، وما أصابهم رغم نجاحهم في ردِّ المشركين[١] ، فأنزل الله عليهم النُّعاس ، فناموا يسيراً ، ثمَّ أفاقوا آمنين مطمئنين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقد أجمع المفسرون على أنَّ الطَّائفة الَّتي قد أهمَّتهم أنفسُهم هم المنافقون[٢].

أمَّا قريشٌ فإنَّها يئست من تحقيق نصرٍ حاسم، وأُجْهد رجالُها من طول المعركة ، ومن صمود المسلمين وجَلَدهم ، وخاصَّةً بعد أن اطمأنُّوا ، وأنزل الله عليهم الأمنة ، والصُّمود ، فالتفُّوا حول النَّبيِّ ﷺ؛ ولذلك كَفُّوا عن مطاردة المسلمين ، وعن محاولة اختراق قوَّاتهم[٣].

رابعاً: من شهداء أُحد:

أ ـ حمزة بن عبد المطَّلب رضي الله عنه سيِّد الشُّهداء عند الله تعالى يوم القيامة:

قاتل أسدُ الله حمزةُ قتالاً ضارياً ، وأثخن في المشركين قتلاً ، وأطاح برؤوس نفرٍ من حملة لواء المشركين من بني عبد الدَّار ، وبينما هو على هذه الحال من الشَّجاعة ، والإقدام ، كَمَنَ له وحشيٌّ؛ حتَّى تمكَّن منه ، ثمَّ رماه بحربته ، فأصاب منه مقتلاً ، ولندع وحشيّاً يخبرُنا عن هذا المشهد المؤلم. قال وحشيٌّ: إنَّ حمزة قتل طُعَيْمةَ بن عديِّ بن الخيار ببدرٍ ، فقال لي مولاي جُبَيْر بن مُطْعِم: إنْ قتلتَ حمزةَ بعمِّي؛ فأنت حرٌّ ، فلمَّا أنْ خرج النَّاسُ عام عَيْنَين ـ وعينين جبلٌ بحيال أحدٍ ، بينه وبينه وادٍ ـ ، خرجتُ مع النَّاس إلى القتال ، فلمَّا اصطفُّوا للقتال؛ خرج سِبَاعٌ ، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزةُ بن عبد المطلب ، فقال: يا سِباعُ! يا بنَ أمِّ أنمارٍ مُقطِّعة البُظور[٤] ، أتحادُّ الله ورسولَه ﷺ؟ ثمَّ شدَّ عليه ، فكان كأمس الذَّاهب ، قال:

---

(١) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٠٥).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر نضرة النَّعيم (١/ ٣٠٦).
(٤) مقطِّعة البظور: كانت أمه ختَّانة بمكَّة تختن النِّساء.

وكَمَنتُ لحمزة تحت صخرةٍ ، فلمَّا دنا منِّي رميتُه بحربتي ، فأضَعُها في ثُنَّتِهِ[1] حتَّى خَرَجَتْ من بين وَرِكيه ، قال: فكان ذاك العهدَ به[2] ، فلمَّا رجع النَّاس؛ رجعت معهم ، فأقمت بمكَّة حتى فشا فيها الإسلامُ.

ثمَّ خرجتُ إلى الطَّائف ، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رُسلاً ، فقيل لي: إنَّه لا يَهيج الرُّسُلَ[3] ، قال: فخرجتُ معهم حتَّى قدمتُ على رسول الله ﷺ ، فلمَّا رآني؛ قال: «أنت وحشيٌّ؟» قلت: نعم ، قال: «أنت قتلتَ حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما قد بلغك ، قال: «فهل تستطيعُ أن تُغَيِّبَ وجهك عنِّي؟» قال: فخرجتُ ، فلمَّا قُبض رسولُ الله ﷺ ، فخرج مسيلمةُ الكذَّاب ، قلت: لأخرجنَّ إلى مسيلمة لَعَلِّي أقتلُه فأكافئ به حمزة ، قال: فخرجت مع النَّاس فكان من أمره ما كان ، قال: فإذا رجل قائمٌ في ثَلَمةِ جدار[4] كأنَّه جمل أَوْرَقُ[5] ثائر الرأس ، قال: فرميتُه بحربتي ، فأضعها بين ثدييه حتَّى خرجت من بين كتفيه ، قال: ووثب إليه رجلٌ من الأنصار ، فضربه بالسَّيف على هامته. قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار: أنَّه سمع عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «فقالت جاريةٌ على ظهر بيتٍ: وا أميرَ المؤمنين! قتله العبدُ الأسود» [البخاري (٤٠٧٢) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤١ ـ ٢٤٣) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٥١٦ ـ ٥١٧)].

١ ـ سؤال النَّبيِّ ﷺ عن مقتل حمزة رضي الله عنه:

بعد انتهاء المعركة ، سأل رسولُ الله ﷺ أصحابه: «مَنْ رأى مقتل حمزة؟» فقال رجل: أنا رأيت مقتله ، قال: «فانطلق أرناه» فخرج رسول الله ﷺ حتَّى وقف على حمزة ، فرآه وقد شُقَّ بطنُه ، وقد مُثِّل به ، فقال: يا رسول الله! مُثِّل به والله! [الطبراني في الكبير (١٩/ ٨٢) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٩)][6]. وفي روايةٍ: لما بلغ النَّبيَّ ﷺ قتلُ حمزة؛ بكى ، فلمَّا نظر إليه شهق ، ووقف بين ظهراني القتلى ، فقال: «أنا شهيد على هؤلاء ، كفِّنوهم في دمائهم ، فإنَّه ليس جرحٌ يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يَدمى؛ لونُه لون الدَّم ، وريحُه ريحُ المسك ، قدِّموا أكثرهم قرآناً ، فاجعلوه في اللَّحد» [البخاري (٢٠٧٩) ، وأبو داود (٣١٣٨)، والترمذي (١٠٣٦) ، والنسائي (١٩٥٤) ، وابن ماجه (١٥١٤)].

---

(١) فأضعها في ثُنَّته: أي في عانته ، وقيل: ما بين السُّرَّة والرُّكبة.
(٢) ذلك العهد به: كناية عن موته.
(٣) لا يهيج الرسل: أي: لا ينالهم منه مكروهٌ.
(٤) في ثلمة جدار: أي خلل جدار.
(٥) أورق: لونه كالرماد.
(٦) سيرة ابن هشام (دفن الشهداء) ، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٣.

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله ﷺ في أُحدٍ تحقّقت رؤيا رسولِ الله ﷺ ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أُحدٍ، فقال: «رأيت في سيفي ذي الفقار فلًّا[١]، فأوّلْتُه فلاًّ يكون فيكم (أي: انهزاماً) ، ورأيت أنّي مردفٌ كَبْشاً ، فأوّلْتُه كبش الكتيبة، ورأيت أنّي في درع حصينةٍ، فأوّلتها المدينة ، ورأيت بقراً تُذبح ، فبقرٌ والله خيرٌ! فبقرٌ والله خيرٌ!» فكان الَّذي قال رسول الله ﷺ . [أحمد (١/ ٢٧١) ، والترمذي (١٥٦١)][٢] .

٢ ـ صبر صفيةَ بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه: إنَّه لمَّا كان يوم أُحد؛ أقبلت امرأة تسعى ، حتَّى كادت أن تشرف على القتلى ، قال: فَكَرِهَ النَّبيُّ ﷺ أن تراهم ، فقال: المرأة . . . المرأة! قال الزُّبير: فتوسَّمتُ: أنَّها صفيَّة ، قال: فخرجت أسعى إليها ، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى ، قال: فَلَدَمَتْ[٣] صدري ، وكانت امرأة جَلْدةً ، قالت: إليك عنِّي ، لا أرضَ لك! فقلت: إنَّ رسول الله ﷺ عزم عليك.

قال: فوقفت ، وأخرجت ثوبين معها ، فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة ، فقد بلغني مقتله ، فكفِّنوه فيهما. قال: فجئنا بالثَّوبين لنكفِّن فيهما حمزة ، فإذا إلى جنبه رجلٌ من الأنصار قتيل فُعِلَ به كما فُعل بحمزة ، قال: فوجدنا غضاضةً وحياءً أن يكفَّن حمزة في ثوبين والأنصاريُّ لا كفن له ، فقلنا: لحمزة ثوبٌ وللأنصاريِّ ثوبٌ ، فقدَّرناهما ، فكان أحدُهما أكبر من الآخر ، فأقرعنا بينهما ، فكفَّنا كلَّ واحدٍ منهما في الثَّوب الَّذي صار له. [أحمد (١/ ١٦٥) ، والبزار (١٧٩٧) ، وأبو يعلى (٦٨٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٩٠) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٨)][٤].

٣ ـ من شعر صفيَّة في بكاء حمزة:

أَسَائِلَةٌ أَصْحَابَ أُحْدٍ مَخَافَةً ... بَنَاتُ أَبِي مِنْ أَعْجَمٍ[٥] وخَبِيرِ
فَقَالَ الخَبِيرُ إنَّ حَمْزَةَ قَدْ ثَوَى ... وَزِيْرُ رَسُولِ اللهِ خَيْرُ وَزِيْرِ
دَعَاهُ إِلٰهُ الحقِّ ذُو العَرْشِ دَعْوَةً ... إِلَى جنَّةٍ يَحْيَا بِهَا وَسُرُوْرِ
فَذَلِكَ مَا كُنَّا نُرَجِّي وَنَرْتَجِي ... لِحَمْزَةَ يَوْمَ الحَشْرِ خَيْرَ مَصِيْرِ
فَوَاللهِ لاَ أَنْسَاكَ مَا هبَّتِ الصَّبَا ... بُكَاءً وَحُزْناً مَحْضَرِي وَمَسِيْرِي

(١) الفلُّ: الثَّلم في السَّيف.
(٢) انظر شرحه في فتح الباري ، وكذا كتاب المغازي ، باب غزوة أحد (في مقدِّمة الباب) ، وسيرة ابن هشام (رؤيا رآها رسول الله ﷺ) .
(٣) لدمت: ضربت ، ودفعت.
(٤) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٨٥ ، وانظر: سيرة ابن هشام (صفيَّة وحزنُها على حمزة).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ١٨٥).

عَلَىٰ أَسَـدِ اللهِ الَّـذِيْ كَـانَ مِـدْرَهـاً[(١)] يَـذُوْدُ عَـنِ الإِسْـلَامِ كُـلَّ كَفُـوْرِ
فَيَـا لَيْـتَ شِلْـوِي عِنْـدَ ذَاكَ وَأَعْظُمِـي لَـدَىٰ أَضْبُـعٍ تَعْتَـادُنِـي وَنُسُـورِ[(٢)]
أَقُـولُ وَقَـدْ أَعْلَـىٰ النَّعِـيُّ عَشِيْـرَتِـي جَـزَىٰ اللهُ خَيْـراً مِـنْ أَخٍ وَنَصِيْـرِ[(٣)]

٤ ـ حمزة لا بواكي له:

لمَّا رجع رسولُ الله ﷺ من أُحدٍ؛ سمع نساء الأنصار يبكين، فقال: «لكنَّ حمزة لا بواكيَ له»، فبلغ ذلك نساءَ الأنصار، فبكين حمزة[(٤)]، فنام رسول الله ﷺ، ثمَّ استيقظ، وهنَّ يبكين، فقال: «يا ويحهنَّ! ما زلن يبكين منذ اليوم، فليبكين، ولا يبكين على هالكٍ بعد اليوم» [أحمد (٢/ ٤٠، ٨٤، ٩٢)، وابن ماجه (١٥٩١)، والطبراني في الكبير (٢٩٤٣)، وأبو يعلى (٣٥٧٦)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢٠)]. وبذلك حرِّمت النِّياحة على الميت، وبعد فترة من الزَّمن نزل الوحي يشدِّد على تحريم النِّياحة على الميت، ويجعلها من كبائر الذُّنوب، وهو بذلك يتغلغل داخل أعماق المؤمنين، والمؤمنات، يتتبَّع آثار الجاهلية؛ لكي يمحوها، ويغرس مكانها تعاليم الإسلام[(٥)]».

قال ﷺ: «النِّياحة على الميت من أمر الجاهليَّة، وإن النَّائحة إذا لم تتب قبل أن تموت، فإنَّها تُبعَثُ يوم القيامة عليها سرابيلُ من قطران، ثمَّ يُعلى عليها بدروعٍ من لهب النَّار» [ابن ماجه (١٥٨٢)].

وقال ﷺ: «اثنتان في النَّاس هما بهم كفرٌ: الطَّعنُ في النَّسب، والنِّياحةُ على الميِّت» [أحمد (٢/ ٤٩٦)، ومسلم (٦٧)]. فتوقف النُّواح، ولم تتوقف الدُّموع.

٥ ـ رسول الله ﷺ يسمِّي غلاماً للأنصار بحمزة:

قال جابر بن عبد الله: ولد لرجل منَّا غلام، فقالوا: ما نسمِّيه؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: «سمُّوه بأحبِّ الأسماء إليَّ، حمزة بن عبد المطلب» [الحاكم (٣/ ١٩٦)]؛ فحمزة مُتجَذِّرٌ في القلب النَّبويِّ، عالقٌ بالذَّاكرة الكريمة، ولكن الله سبحانه ينزل على نبيِّه ﷺ فيما بعد أحبَّ الأسماء إليه، فيقولها ﷺ لمن حوله: «إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله: عبدُ الله، وعبدُ الرَّحمن» [مسلم (٢١٣٢)، وأبو داود (٤٩٤٩)، والترمذي (٢٨٣٣)، وابن ماجه (٣٧٢٨)].

---

(١) مِدْرهاً: الَّذي يدفع عن القوم.
(٢) الشِّلو: العضو. تعتادني: تتعاهدني.
(٣) انظر: السِّيرة النبويَّة، لابن هشام (٣/ ١٨٥).
(٤) سيرة ابن هشام (بكاء نساء الأنصار على حمزة).
(٥) انظر: السيرة النبوية، للصوياني (٣/ ٩٠).

٦ ـ **«فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهَك عنِّي»** [البخاري (٤٠٧٢)، وأحمد (٥٠٧٣)]:

في هذا التَّوجيه الكريم لا يوجد فيه شيءٌ من المؤاخذة والتَّأثيم لوحشيٍّ؛ وإنَّما هو تذكيرٌ له بأنَّ رؤيته إيَّاه تجلب له شيئاً من المتاعب النَّفسيَّة، وتُحرِّك في نفسه ذكريات حادث القتل، وما تبعه من تمثيلٍ شنيعٍ بَشعٍ بعمِّه، فتثير عنده حزازاتٍ بشريَّة ربما لا يكون من المستطاع منعها، ومقاومتها إلا بشيءٍ من العسر، والعنت الشَّديد؛ ممَّا قد يُشْغِلُ النَّبيَّ ﷺ ويُقْلِقُه[١]، فأشار عليه ﷺ بأن يغيِّب وجهه حتَّى يفقد مصدر التَّذكير بتلك المصيبة[٢]. في روايةٍ صحيحةٍ: قال وحشيٌّ: أتيتُ النَّبيَّ ﷺ، فقال لي: «وحشيٌّ» قلت: نعم، قال: «قتلت حمزة؟»، قلت: نعم، الحمد لله الَّذي أكرمه بيدي، ولم يهنِّي بيده، فقالت له قريش: أتحبُّه؛ وهو قاتل حمزة. فقلت: يا رسول الله! فاستغفر لي، فتفل رسول الله ﷺ في الأرض ثلاثةً، ودفع صدري ثلاثةً، وقال: «وحشيٌّ، اخرج فقاتلْ في سبيل الله، كما قاتلت لِتَصُدَّ عن سبيل الله» [الطبراني في الكبير (٢٢/ ١٣٩)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢٧)].

فهذا من التَّوجيه الإرشاديِّ النَّبويِّ إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر، ومحادَّة الله تعالى ورسوله ﷺ، وذكرُ القتال في سبيل الله بيانٌ للأمر الأنسب في التَّكفير، وفيه حضٌّ من النَّبيِّ ﷺ لإعلاء راية الجهاد، ولعلَّ مخرجَ وحشيٍّ إلى اليمامة، وقتله مسيلمةَ الكذَّاب كان أثراً من آثار توجيه النَّبيِّ ﷺ إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ[٣] الذُّنوب، ويطهِّر الآثام.

وقد أدرك وحشيٌّ ذلك، فقال حين قتل مسيلمةَ الكذَّاب: قتلتُ خير النَّاس ـ يعني: سيِّد الشُّهداء حمزةَ بنَ عبد المطَّلب ـ، وقتلتُ شرَّ النَّاس مسيلمةَ الكذَّاب[٤].

ب ـ مصعب بن عمير رضي الله عنه:

قال خبَّاب رضي الله عنه: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرُنا على الله؛ فَمِنَّا مَنْ مضى في سبيله، ولم يأكل مِنْ أجره شيئاً، منهم مصعبُ بن عمير قُتل يوم أُحدٍ، ولم يترك إلا نَمِرَةً، فكنَّا إذا غطَّينا رأسه؛ بدت رجلاه، وإذا غطَّينا رجليه بدا رأسُه، فقال رسولُ الله ﷺ: «غطُّوا رأسَه، واجعلوا على رجليه الإذخر»[٥]، ومنا من أينعت له ثمرتُه، فهو يَهْدِبُها[٦]. [البخاري (١٢٧٦) و(٣٨٩٧)].

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون، (٣/ ٦٠٣).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٥/ ١٤١).
(٣) يحتُّ: يسقط.
(٤) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون (٣/ ٦٠٢)، والبخاري، رقم (٤٠٧٢) جملة: «لعلِّي أقتله فأكافئ به حمزة» وشرحها في الفتح.
(٥) الإذخر: نوع من العشب.
(٦) أينعت: أي نضجت. يهدبها: أي: يجتنيها.

ومن حديث عبد الرَّحمن بن عوف أنَّه أُتي بطعامٍ ، وكان صائماً ، فقال: قُتل مصعب بن عمير ، وكان خيراً منِّي ، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ ، وقتل حمزة ـ أو رجلٌ آخر ـ خيرٌ منِّي ، فلم يُوجد له ما يُكفَّن فيه إلا بُرْدَةٌ ، لقد خَشِيتُ أن يكون قد عُجِّلت لنا طيِّباتُنا في حياتنا الدُّنيا ، ثمَّ جعل يبكي حتَّى ترك الطَّعام[البخاري (١٢٧٤) ، و(١٢٧٥) ، و(٤٠٤٥)] .

ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ حين انصرف من أُحدٍ، مرَّ على مصعب بن عمير ؛ وهو مقتولٌ على طريقه ، فوقف عليه ، ودعا له ، ثمَّ قرأ هذه الآية: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ : «أشهد: أنَّ هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة ، فائتوهم ، وزوروهم ، والَّذي نفسي بيده ، لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة، إلا ردُّوا عليه» [الحاكم (٣/ ٢٠٠) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٤)] .

ج ـ سعد بن الرَّبيع رضي الله عنه:

هذا هو الَّذي اسْتَكْتَمَهُ رسولُ الله ﷺ خبرَ مسير قريشٍ ، وكان رسول الله ﷺ يحبُّه ، فلمَّا انتهت معركة أُحدٍ؛ قال رسول الله ﷺ : «مَنْ رجلٌ ينظرُ ما فعل سعدُ بن الرَّبيع ، أفي الأحياء هو ، أم في الأموات؟» لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد رأى الأسِنَّة أشرعَتْ إليه ، فقال أُبيُّ بن كعب رضي الله عنه: أنا أنظره لك يا رسول الله! فقال له: «إن رأيتَ سعد بن الرَّبيع ، فأقرئه منِّي السَّلام ، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدُك؟» فنظر أُبَيٌّ ، فوجده جريحاً به رَمَقٌ .

فقال له: إنَّ رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت ، أم في الأموات ، فقال: قد طُعِنْتُ اثنتي عَشرةَ طعنةً ، وقد أنفذت إلى مقاتلي[١] . وفي روايةٍ صحيحةٍ قال: على رسول الله ، وعليك السَّلام ، قل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنَّة ، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إنْ خُلِصَ إلى رسول الله ﷺ ؛ وفيكم عينٌ تطرُف[٢] ، قال: وفاضت نفسُه رحمه الله. [الحاكم (٣/ ٢٠١) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٥)][٣]! وهذا نُصْحٌ لله ، ورسوله ﷺ في سكرات الموت يدلُّ على قوَّة الإيمان ، والحرص على الوفاء بالبيعة ، لم يتأثر بالموت ولا آلام القروح .

د ـ عبد الله بن جحشٍ رضي الله عنه:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: إنَّ عبد الله بن جحشٍ قال له يوم أُحدٍ: ألا تدعو الله ،

---

(١) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٥٣٢) .
(٢) سيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في آثار المشركين) .
(٣) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٩٤ .

فَخَلَوْا في ناحيةٍ ، فدعا سعدٌ ، فقال: يا ربِّ! إذا لقيتُ العدوَّ ، فَلَقِّني رجلاً شديداً بأسُه ، شديداً حردُه ، أقاتلُه ، ويقاتلني ، ثمَّ ارزقني الظَّفَرَ عليه حتَّى أقتلَه ، وآخذَ سَلَبَهُ ، فأمَّن عبد الله بن جحشٍ ، ثمَّ قال: اللَّهمَّ ارزقني رجلاً شديداً حردُه ، شديداً بأسُه ، أقاتله فيك ويقاتلُني ، ثمَّ يأخذُني ، فَيَجْدَعُ أنفي ، وأذني ، فإذا لقيتُك غداً ، قلتَ: من جَدَعَ أنفَك ، وأذنك؟ فأقول: فيك ، وفي رسولك ، فتقول: صدقتَ. قال سعد: يا بنيَّ ، كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي ، لقد رأيتُه آخر النَّهار وإنَّ أنفه ، وأذنه لمعلَّقان في خيطٍ[١].

وفي هذا الخبر جواز دعاء الرَّجل أن يُقتل في سبيل الله ، وتمنِّيه ذلك ، وليس هذا من تمنِّي الموت المنهيِّ عنه[٢].

هـ ـ حنظلةُ بن أبي عامرٍ رضي الله عنه (غَسِيل الملائكة):

لمَّا انكشف المشركون؛ ضرب حنظلةُ فرسَ أبي سفيان بن حربٍ ، فوقع على الأرض ، فصاح وحنظلةُ يريد ذبحه ، فأدركه شدَّاد بن الأسود ، ويقال له: ابن شَعُوب ، فحمل على حنظلةَ بالرُّمح ، فأنفذه ، ومشى إليه حنظلة بالرُّمح وقد أثبته ، ثمَّ ضرب الثَّانية فقتله ، فذُكِر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنِّي رأيت الملائكة تغسِّله بين السَّماء والأرض بماء المُزْن ، في صِحَافِ الفضَّة» فقال رسول الله ﷺ: «فاسألوا أهلَه ما شأنُه؟» فسألوا صاحبته عنه ، فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة[٣] ، فقال رسول الله ﷺ: «فلذلك غَسَّلَتْهُ الملائكة» [الحاكم (٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ١٥) ، والطبراني الكبير (١٢٠٩٤) ، ومجمع الزوائد (٣/ ٢٣)][٤].

وفي رواية الواقديِّ: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوَّج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، فأُدخلت عليه في اللَّيلة الَّتي في صبحها قتال أُحدٍ ، وكان قد استأذن رسولَ الله ﷺ أن يبيتَ عندها ، فأذن له ، فلمَّا صلَّى بالصَّبح غدا يريد رسولَ الله ﷺ ، ولزمته جميلةُ فعاد ، فكان معها ، فأجنب منها ، ثمَّ أراد الخروج ، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعةٍ من قومها فأشهدتهم أنَّه قد دخل بها ، فقيل لها بَعْدُ: لم أشهدتِ عليه؟ قالت: رأيت كأنَّ السَّماء فُرِجَتْ فدخل فيها حنظلة ، ثمَّ أُطبقت ، فقلت: هذه الشَّهادة ، فأشهدْتُ عليه: أنَّه قد دخل بي. وتَعْلَقُ بعبد الله بن حنظلة ، ثمَّ تزوَّجها ثابت بن قيس بعدُ ، فولدت له محمَّد بن ثابت بن قيس[٥].

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٢٩٣.
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٢).
(٣) أي: سمع منادي رسول الله ﷺ يدعو للخروج لملاقاة العدو.
(٤) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٩ ، وسيرة ابن هشام (حنظلة غسيل الملائكة) ، وفتح الباري شرح حديث رقم (١٣٤٦).
(٥) انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/ ٢٧٣).

وفي هذا الخبر مواقفُ ، وعبرٌ؛ منها :

١ ـ في تعلُّق جميلة بنت عبد الله بن أُبي ، بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرُّؤيا الَّتي فسَّرتها بالشَّهادة ، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتَّى لا تحمل منه ، فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخُطَّاب ، لكنَّها تعلَّقت به رجاءَ أن تحمل منه ، فتلد ولداً ينسب لذلك الشَّهيد ، الَّذي بلغ درجاتٍ عليا في الصَّلاح أولاً ، ثمَّ بما ترجوه من نيله الشَّهادة. ولقد حصل لها ما أمَّلت به ، فحملت منه ، وولدت ولداً ذكراً سمِّي عبد الله ، وكان له ذِكْرٌ بعد ذلك ، وكان مِنْ أعلى ما يفتخر به أن يقول : أنا ابنُ غَسِيْلِ الملائكة .

٢ ـ حَرَصَ حنظلةُ القويُّ على مقارعة أعداء الله ، الَّذي يتمثَّل في سرعة خروجه إلى الميدان ، الأمر الذي لم يتمكَّن معه من غسل الجنابة .

٣ ـ شجاعتُه الفائقة الَّتي تظهر في تصدِّيه لقائد المشركين ، أبي سفيان بن حرب ، والقائد غالباً يكون حوله مَنْ يحميه ، وهو فارسٌ ، وحنظلة راجلٌ .

٤ ـ تشريفٌ ربانيٌّ كريمٌ ، في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه الْمُزْن في صحاف الفضَّة .

٥ ـ معجزةٌ نبويَّةٌ في إخبار الصَّحابة عمَّا قامت به الملائكة مِنْ تغسيلٍ ؛ حيث رأى ﷺ الملائكة وهي تغسل ، ولم يرَ الصَّحابةُ ذلك[1] .

٦ ـ إذا كان الشَّهيد جنباً غُسِّل ، كما غسلت الملائكةُ حنظلةَ بن أبي عامر[2] .

و ـ عبد الله بن عمرو بن حَرَامٍ رضي الله عنه :

أصرَّ عبـدُ الله بن عمرو بن حرامٍ على الخروج في غزوة أُحدٍ ، فخاطب ابنه جابراً بقوله : يا جابرُ! لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتَّى تعلم إلى ما يصيرُ أمرُنا ، فإنِّي والله لولا أنِّي أترك بنات لي بعدي؛ لأحببتُ أن تُقْتَلَ بين يديَّ. [أحمد (٣/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨) ، ومجمع الزوائد (٤/ ١٣٥)] .

وقال لابنه أيضاً : ما أراني إلا مقتولاً في أوَّل من يُقْتَلُ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، وإنِّي لا أتركُ بعدي أعَزَّ عليَّ منك؛ غيرَ نفسِ رسول الله ﷺ ، وإنَّ عليَّ ديناً فاقضِ ، واستوصِ بإخوتك خيراً [البخاري (١٣٥١)] .

وخرج مع المسلمين ونال وسام الشَّهادة في سبيل الله ، فقد قُتل في معركة أُحدٍ ، وهذا جابرُ يحدِّثنا عن ذلك ، حيث يقول : لمَّا قُتل أبي يوم أحدٍ ، جعلتُ أكشفُ عن وجهه ، وأبكي ،

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٥/ ١٢٩ ـ ١٣٠) .

(٢) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢١٤) .

وجعل أصحابُ رسول الله ﷺ ينهونني وهو لا ينهاني ، وجَعَلَتْ عمَّتي تبكيه ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «تبكين ، أو لا تبكين ، ما زالت الملائكة تُظِلُّهُ بأجنحتها حتَّى رَفَعْتُموه» [البخاري (١٢٤٤)، ومسلم (٢٤٧١/ ١٣٠)].

وقال رسول الله ﷺ : «يا جابر! مالي أراك منكسراً؟» قال: يا رسول الله ، استشهد أبي ، وترك عيالاً ، ودَيناً. قال ﷺ : «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: بلى يا رسول الله! قال ﷺ : «ما كَلَّمَ اللهُ أحداً قطُّ إلاَّ من وراء حجاب ، وكلَّم أباك كفاحاً[1] . يا جابر! أما علمت أنَّ الله أحيا أباك ، فقال: يا عبدي! تمنَّ عليَّ أُعطِك. قال: يا رب! تحييني فأُقتل فيك ثانيةً. فقال الرَّبُّ سبحانه: إنَّه سبق منِّي أنَّهم إليها لا يُرجعون. قال: يا رب! فأبلغ مَنْ ورائي» [الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجه (١٩٠) و(٢٨٠٠)][2] ، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤيا في منامه قبل أُحد؛ قال: رأيت في النَّوم قبل أُحدٍ، مبشِّر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيامٍ ، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنَّة نَسْرَحُ فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تُقْتَل يوم بدرٍ ؟ قال: بلى! ثمَّ أُحييتُ. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فقال: «هذه الشَّهادة يا أبا جابر» ! [الحاكم (٣/ ٢٠٤)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤٩)][3] وقد تحقَّقت تلك الرُّؤيا بفضل الله ومَنِّه.

ز ـ خيثمة أبو سعد رضي الله عنه:

قال خيثمة أبو سعد ـ وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدرٍ ـ: لقد أخطأتني وقعة بدرٍ ، وكنت والله عليها حريصاً ، حتَّى ساهمتُ ابني في الخروج ، فخرج سَهْمُهُ ، فرُزِقَ الشَّهادة ، وقد رأيت البارحة ابني في النَّوم في أحسن صورةٍ ، يسرح في ثمار الجنَّة ، وأنهارها ، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنَّة ، فقد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً ، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنَّة ، وقد كبِرَتْ سِنِّي ، ورَقَّ عظمي ، وأحببتُ لقاء ربِّي ، فادعُ الله يا رسول الله! أن يرزقني الشَّهادة ، ومرافقة سعدٍ في الجنَّة ، فدعا له رسول الله ﷺ بذلك ، فقُتِل بأُحدٍ شهيداً. [البيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤٩)][4].

---

(١) كفاحاً: أي: مواجهةً.
(٢) انظر: شرحه في الفتح ، وانظر: تفسير ابن كثير لهذه الآية.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٨).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٨).

ح - وهب المزنيُّ ، وابن أخيه رضي الله عنهما :

أقبل وهب بن قابوس المزنيُّ ، ومعه ابن أخيه الحارث بن عُقبة بن قابوس بغنمٍ لهما من جبل مُزَينة ، فوجدا المدينة خلواً ، فسألا : أين النَّاس؟ فقالوا : بأُحدٍ؛ خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريشٍ . فقالا : لا نبتغي أثراً بعد عين ، فخرجا حتَّى أتيا النَّبي ﷺ بأُحدٍ ، فيجدان القوم يقتتلون ، والدَّولة لرسول الله ﷺ وأصحابه ، فأغارا مع المسلمين في النَّهْب ، وجاءت الخيل مِنْ ورائهم ، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، فاختلطوا ، فقاتلا أشدَّ القتال ، فانفرقت فرقةٌ من المشركين ، فقال رسول الله ﷺ : «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس : أنا يا رسول الله! فقام فرماهم بالنَّبْل حتَّى انصرفوا ، ثمَّ رجع .

فانفرقت فرقةٌ ثانيةٌ ، فقال رسول الله ﷺ : «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزنيُّ : أنا يا رسول الله! فقام فذبَّها بالسَّيف حتى ولَّوْا ، ثمَّ رجع المُزَنيُّ ، ثمَّ طلعت كتيبةٌ ثالثة ، فقال : «مَنْ يقوم لهؤلاء؟» فقال المزنيُّ : أنا يا رسول الله! فقال : «قم ، وأبشر بالجنَّة» ، فقام المزنيُّ مسروراً ، يقول : والله لا أقيل ، ولا أستقيل ، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسَّيف ، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين حتَّى خرج من أقصاهم ، ورسول الله ﷺ يقول : «اللّهم ارحمه!» ثمَّ يرجع فيهم فما زال كذلك ، وهم مُحدقون به ، حتَّى اشتملت عليه أسيافهم ، ورماحهم ، فقتلوه ، فوُجد به يومئذ عشرون طعنةً برمح ، كلُّها قد خلصت إلى مقتلٍ ، ومُثِّلَ به أقبح مُثلةٍ يومئذٍ ، ثمَّ قام ابن أخيه ، فقاتل قتاله حتَّى قتل ، فكان عمر بن الخطَّاب يقول : إنّ أحبَّ ميتةٍ أموت لمَا مات عليها المزنيُّ . [المغازي للواقدي (١/ ٢٧٥)] .

وكان بلال بن الحارث المزنيُّ يُحدِّث ، يقول : شهدنا القادسيَّة مع سعد بن أبي وقَّاص ، فلمَّا فتح اللهُ علينا ، وقُسمت بيننا غنائمنا ، فأُسْقِطَ فتىً من آل قابوس من مُزينة[١] ، فجئت سعداً حين فرغ من نومه ، فقال : بلال؟ قلت : بلال! قال : مرحباً بك ، مَنْ هذا معك؟ قلت : رجلٌ من قومي مِنْ آل قابوس . قال سعد : ما أنت يا فتى من المُزني الَّذي قُتل يوم أُحد؟ قال : ابن أخيه . قال سعد : مرحباً ، وأهلاً ، وأنْعَمَ الله بك عَيْناً ، ذلك الرَّجل شهدتُ منه يوم أُحد مشهداً ما شهدتُه من أحدٍ ، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كلِّ ناحيةٍ ، ورسولُ الله ﷺ وسطنا ، والكتائب تطلع من كلِّ ناحيةٍ ، وإنَّ رسول الله ﷺ ليرمي ببصره في النَّاس يتوسَّمُهم[٢] يقول : «من لهذه الكتيبة؟» كلُّ ذلك يقول المزنيُّ : أنا يا رسول الله! كلُّ ذلك يردُّه ، فما أنسى آخر مرَّةٍ قامها ، فقال رسول الله ﷺ : «قم وأبشر بالجنَّة!» قال سعد : وقمت على أثره ، يعلم الله أنِّي أطلب مثل ما يطلب يومئذ من الشَّهادة ، فخضنا حَوْمتهم حتَّى رجعنا فيهم الثَّانية ، وأصابوه

---

(١) انظر : المغازي ، للواقديّ (١/ ٢٧٧) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

ـ رحمه الله! ـ ووَدِدْتُ والله أنِّي كنت أُصبتُ يومئذٍ معه ، ولكنَّ أَجَلِي استأخر ، ثمَّ دعا سعد من ساعته بسهمه ، فأعطاه ، وفضَّله ، وقال: اختر في المقام عندنا ، أو الرُّجوع إلى أهلك ، فقال بلال: إنَّه يستحبُّ الرُّجوع ، فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيتُ رسول الله ﷺ واقفاً عليه؛ وهو مقتولٌ ، وهو يقول: «رضي الله عنك فإنِّي عنك راضٍ» ، ثمَّ رأيتُ رسولَ الله ﷺ قام على قدميه وقد نال النَّبيَّ ﷺ من الجراح ما ناله ، وإنِّي لأعلم أنَّ القيام ليشقُّ عليه على قبره حتى وُضع في لحده ، وعليه بُرْدَةٌ لها أعلام خضر ، فمدَّ رسول الله ﷺ البُردة على رأسه ، فخمَّره ، وأدرجه فيها طولاً ، وبلغت نصف ساقيه ، وأمرنا فجمعنا الحَرْمَل ، فجعلناه على رجليه؛ وهو في لحده ، ثمَّ انصرف. فما حالٌ أموتُ عليها أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المُزَنيِّ[١].

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه ، فهذا وَهْبٌ المزنيُّ ، وابن أخيه ، تركوا الأغنام بالمدينة ، والتحقوا بصفوف المسلمين ، وحرصوا على نيل الشَّهادة ، فأكرمهم الله بها ، وقد كانت تلك الملحمة الَّتي سطَّرها المزنيُّ محفورةً في ذاكرة الصَّحابة ، فهذا سعد بن أبي وقَّاص يتذكَّرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريباً على غزوة أُحدٍ ، لمجرَّد سماع اسم رجل من عشيرة المزنيِّ ، ويتمنَّى أن يموت ، ويلقى الله على مثل حالة المزنيِّ.

ط ـ عمرو بن الجَمُوح رضي الله عنه:

كان عمرو بن الجموح رضي الله عنه أعرجَ شديدَ العرج ، وكان له بنونَ أربعةٌ مثل الأُسد[٢] ، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد ، وهم: خلَّاد ، ومُعوِّذ ، ومُعاذ ، وأبو أيمن ، فلمَّا كان يوم أُحد أرادوا حَبْسَهُ ، وقالوا: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد عذرك ، فأتى رسولَ الله ﷺ ، فقال: إنَّ بَنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه ، فو الله! إنِّي لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنَّة. فقال له رسول الله ﷺ: «أمَّا أنت فقد عذرك الله تعالى ، فلا جهاد عليك» ، وقال لبنيه: «ما عليكم ألاَّ تمنعوه ، لعلَّ الله أن يرزقه الشَّهادة» فخرج؛ وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم! لا تردَّني إلى أهلي خائباً. فقُتل شهيداً رضي الله عنه.

وفي رواية: أتى عمرو بن الجموح رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسولَ الله! أرأيتَ إنْ قاتلت في سبيل الله حتَّى أُقتل ، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنَّة ـ وكانت رجله عرجاء ـ؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» ، فقتلوه يوم أُحد هو ، وابن أخيه ، ومولى لهما ، فمرَّ بهم رسولُ الله ﷺ ، فجُعلُوا في قبرٍ واحد [أحمد (٥/٢٩٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣/٢٤٦) ، والواقدي

(١) انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/٢٧٧).
(٢) الأُسد: جمع أسد.

في المغازي (١/ ٢٦٤)، وابن هشام (٣/ ٩٦)، ومجمع الزوائد (٩/ ٣١٥)].

وفي هذا الخبر، دليلٌ على أنَّ مَنْ عذره الله في التَّخلُّف عن الجهاد لمرضٍ، أو عَرَجٍ يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجَمُوح؛ وهو أعرج[١].

وفيه دليلٌ على شجاعة عمرو بن الجَمُوح، ورغبته في نيل الشَّهادة، وصدقه في طلبها، وقد أكرمه الله بذلك.

ي ـ أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش رضي الله عنهم:

لمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى أُحدٍ، رُفع حُسَيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة ابن اليمان، وثابت بن وَقش في الآطام[٢]، مع النِّساء، والصِّبيان، فقال أحدُهما لصاحبه ـ وهما شيخان كبيران ـ: لا أبا لك! ما تنتظر؟ فو الله ما بقي لواحدٍ منَّا من عمره إلا ظِمءِ[٣] حمارٍ، إنَّما نحن هامةُ اليوم، أو غد[٤]، أفلا نأخذ أسيافنا، ثمَّ نلحق برسول الله ﷺ، لعلَّ الله يرزقنا شهادةً مع رسول الله ﷺ؟!

فأخذا أسيافهما، ثمَّ خرجا حتَّى دخلا في النَّاس ولم يُعلم بهما، فأمَّا ثابت بن وقش؛ فقتله المشركون، وأمَّا حُسَيل بن جابرٍ فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين، فقتلوه، ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي! فقالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم، وهو أرحم الرَّاحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يَديَهُ، فتصدَّق حذيفةُ بديته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً. [سبق تخريجه][٥].

وفي هذا الخبر يظهر أثر الإيمان في نفوس الشُّيوخ الكبار؛ الَّذين عذرهم الله في الجهاد، وكيف ترَكُوا الحصون، وخرجوا إلى ساحات الوَغى طلباً للشَّهادة، وحباً، وشوقاً للقاء الله تعالى، وفيه موقفٌ عظيم لحذيفة؛ حيث تصدَّق بدية والده على المسلمين، ودعا لهم بالمغفرة؛ لكونهم قتلوا والده خطأً، وفيه أيضاً: أنَّ المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنُّونه كافراً؛ فعلى الإمام دِيَتُه من بيت المال؛ لأنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يَدِيَ اليمان أبا حذيفة، فامتنع من أخذ الدِّية، وتصدَّق بها على المسلمين[٦].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).
(٢) الآطام: الحصون.
(٣) ظمء حمار: أي: مقدار ما بين شربتي حمارٍ.
(٤) أي: نموت اليوم أو غداً.
(٥) سيرة ابن هشام (مقتل اليمان وابن وقش).
(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).

ك ـ الأمور بخواتيمها:

إنَّ الأمور بخواتيمها، وقد وقع في غزوة أُحدٍ ما يحقِّق هذه القاعدة المهمَّة في هذا الدِّين، فقد وقع حادثان يؤكِّدان هذا الأمر، وفيهما عظةٌ، وعبرةٌ لكلِّ مسلمٍ متَّعظٍ، ومعتبرٍ[1]، وهما:

١ ـ شأن الأُصَيْرِم رضي الله عنه:

واسمه عمرو بن ثابت بن وَقش، عُرض عليه الإسلام، فلم يُسلِم، وروى قصَّته أبو هريرة رضي الله عنه، قال: إنَّ الأُصَيْرِم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يومٍ ورسولُ الله ﷺ، وأصحابه بأُحدٍ، فقال: أين سعدُ بن معاذ؟ فقيل: بأُحدٍ، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأُحدٍ. فسأل عن قومه، فقيل: بأُحدٍ، فبدا له الإسلام، فأسلم، وأخذ سيفه، ورمحه، وأخذ لأمتَهُ، وركب فرسه، فعدا حتَّى دخل في عُرْض النَّاس، فلمَّا رآه المسلمون؛ قالوا: إليك عنا يا عمرو! قال: إنِّي قد آمنت. فقاتل حتَّى أثخنته الجراح، فبينما رجالٌ من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة؛ إذا هم به، فقالوا: والله إنَّ هذا للأُصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنَّه مُنكرٌ لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أحدَبٌ على قومك، أم رغبةٌ في الإسلام؟ فقال: بل رغبةٌ في الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله ﷺ، وأسلمت، ثمَّ أخذت سيفي فغدوتُ مع رسول الله ﷺ، ثمَّ قاتلتُ حتَّى أصابني ما أصابني، وإن متُّ فأموالي إلى محمَّد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: إنَّه من أهل الجنَّة. [ابن هشام (٣/ ٩٥)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٤٧)].

وقيل: مات، فدخل الجنة، وما صلَّى من صلاةٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «عَمِلَ يسيراً وأُجرَ كثيراً» [البخاري (٢٨٠٨)، ومسلم (١٩٠٠)].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: حدِّثوني عن رجلٍ دخل الجنَّة، ولم يُصلِّ قطُّ! فإذا لم يعرفه النَّاس؛ سألوه مَنْ هو؟ قال: هو أُصَيرِم بن عبد الأشهل[2].

٢ ـ شأن مُخَيْرِيق:

لمَّا كانت غزوة أُحدٍ، وخرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين، جمع مُخَيْرِيقٌ قومه اليهود وقال لهم: يا معشرَ يهود! والله! لقد علمتم أنَّ نصر محمدٍ عليكم لحقٌّ. قالوا: إنَّ اليوم يوم السَّبت، قال: لا سبت لكم!

---

(١) انظر: غزوة أحد، لأبي فارس، ص ١١٧.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ١٠٠ ـ ١٠١)، وانظر: فتح الباري في شرح حديث رقم (٢٨٠٨).

فأخذ سيفه ، وعُدَّتَهُ ، وقال: إن أُصِبْتُ فمالي لمحمَّدٍ يَصْنَعُ فيه ما شاء. ثمَّ غدا إلى رسول الله ﷺ ، فقاتل معه حتى قُتِل ، فقال رسول الله ﷺ : «مُخَيْرِيق خيرُ يهود» [ابن سعد (١/ ٥٠١)، وأبو نعيم في الدلائل (ص ١٨)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٣١)، والواقدي في المغازي (١/ ٢٦٣)].

وقد اختلف في إسلامه ، فنقل الذَّهبيُّ في التَّجريد ، وابن حجر في الإصابة عن الواقديِّ[1]: أنَّ مخيريق مات مسلماً. وذكر السُّهيليُّ في الرَّوض الأُنف: أنَّه مسلمٌ ، وذلك حين قال معقِّباً على رواية ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ : أنَّه قال: «مُخَيْرِيق خير يهود» قال: ومُخَيْرِيق مسلمٌ ، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النَّصارى ، ولا خير اليهود؛ لأنَّ أفعل من كذا إذا أضيف ، فهو بعض ما أضيف إليه ، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنَّه قال: خير يهود ، ولم يقل خير اليهود ، ويهود اسم علم كثمود ، يقال: إنَّهم نُسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ، ثمَّ عربت الذَّال دالاً[2] ، وقد حقَّق هذه المسألة الدُّكتور عبد الله الشقاري في كتابه: «اليهود في السُّنَّة المطهَّرة» وذهب إلى أنَّ مُخَيْرِيق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدُّق بماله مع كثرته ، ومع ما عرف عن اليهود من حبِّ المال ، والتَّكالب عليه[3].

ل ـ إنما الأعمال بالنِّـيَّـات:

كان ممَّن قاتل مع المسلمين يوم أُحدٍ رجلٌ يدعى قُزْمَان، كان يُعرف بالشَّجاعة ، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكر له: «إنَّه لمن أهل النار» ، فتأخَّر يوم أُحدٍ ، فعيَّرته نساء بني ظَفَر ، فأتى رسولَ الله ﷺ وهو يسوِّي الصفوف ، حتَّى انتهى إلى الصفِّ الأوَّل ، فكان أوَّل من رمى من المسلمين بسهمٍ ، فجعل يرسل نبلاً كأنَّها الرِّماح ، ويكتُّ كتيت الجمل ، ثمَّ فعل بالسَّيف الأفاعيل ، حتَّى قتل سبعةً ، أو تسعةً ، وأصابته جِرَاحَةٌ ، فوقع ، فناداه قتادة بن النُّعمان: يا أبا الغَيْداق! هنيئاً لك الشَّهادة! وجعل رجالٌ من المسلمين يقولون له: والله! لقد أبليتَ اليوم يا قُزْمَان ، فأبشر! قال: بماذا؟ فوالله ما قَاتلتُ إلا عن أحساب قومي ، ولولا ذلك ما قاتلتُ. فذُكِرَ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنَّه من أهل النَّار ، إنَّ الله تعالى يؤيِّد هذا الدِّين بالرَّجل الفاجر» [البخاري (٤٢٠٣)، ومسلم (١١١ ، ١١٢)][4].

وفي هذا الخبر ، بيانٌ لمكان الـنِّيَّة في الجهاد ، وأنَّه مَنْ قاتل حميَّةً عن قومه ، أو ليقال: شجاعٌ ، ولم تكن أعماله لله تعالى؛ لا يقبل الله منه.

---

(١) انظر: تجريد أسماء الصَّحابة (٢/ ٧٠) ، والإصابة (٣/ ٣٩٣).
(٢) انظر: الرَّوض الأُنف ، للسُّهيليِّ (٤/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩).
(٣) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٠٦).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٩٩) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ١١٣.

خامساً: من دلائل النُّبوَّة:

١ ـ عين قتادة بن النُّعمان رضي الله عنه:

أُصيبت عينُ قتادة رضي الله عنه حتَّى سقطت على وَجْنَتِهِ، فردَّها رسولُ الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه، وأحَدَّهُمَا. [الحاكم (٣/ ٢٩٥)، والطبراني في الكبير (١٩/ ٨)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٥١ ـ ٢٥٢)، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٣)]. وأصبحت لا ترْمَد إذا رمدت الأخرى[١]، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ، فسأله: من أنت؟ فقال له مرتجلاً:

أنا ابنُ الَّذي سَالَتْ عَلَىٰ الخَدِّ عَيْنُهُ ... فَرُدَّتْ بكَفِّ المُصْطَفَى أَحْسَنَ الرَّدِّ
فَعَادَتْ كَمَا كَانَتْ لأَوَّلِ أَمْرِهَا ... فَيَا حُسْنَهَا عَيْناً وَيَا حُسْنَ مَا ردِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تِلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ[٢] مِنْ لَبَنٍ ... شِيْبَا بمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالا

ثمَّ وصله، فأحسن جائزته[٣].

٢ ـ مقتل أُبيِّ بن خلف:

كان أُبَيُّ بن خلف يَلْقَى رسولَ الله ﷺ بمكَّة، فيقول: يا محمد! إنَّ عندي العَوْذ؛ فرساً أعْلِفُه كلَّ يوم فَرَقاً[٤] من ذُرَةٍ، أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلمَّا كان يوم أُحد، وأُسند رسولُ الله ﷺ في الشِّعْب؛ أدركه أُبَيُّ بن خلف، وهو يقول: أي محمد! لا نجوتُ إن نجوتَ! فقال القوم: يا رسول الله! أيعطفُ عليه رجلٌ منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوه»، فلمَّا دنا، تناول رسولُ الله ﷺ الحَرْبَةَ من الحارث بن الصِّمَّة، فلمَّا أخذها رسولُ الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطايَرنا عنه تطايرَ الشَّعراء[٥] عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثمَّ استقبله، فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ[٦] منها عن فرسه مراراً، فلمَّا رجع إلى قريش وقد خَدَشَهُ في عنقه خَدشاً غير كبيرٍ، فاحتقَنَ الدَّم، قال: قتلني والله محمدٌ! قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إنْ بك من بأسٍ، قال: إنَّه قد كان قال لي بمكَّة: أنا أقتلُك، فو الله! لو بَصَق عليَّ؛ لقتلني، فمات عدوُّ الله بسَرِفٍ[٧] وهم قافلون به إلى مكَّة. [الطبري في تاريخه (٢/ ٥١٨ ـ ٥١٩)، والواقدي في

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٨٨)، وسيرة ابن هشام (بلاء قتادة وحديث عينه).
(٢) القعب: قدحٌ ضخمٌ غليظٌ.
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥)، وأسد الغابة (٤/ ٣٨٩).
(٤) الفرق: مكيالٌ يسع ستة عشر رطلاً، وهي اثنا عشر مُدّاً.
(٥) الشَّعراء: ذباب له لدغ، واللَّدغ: عَضُّ الحيَّة، والعقرب، والذُّباب.
(٦) تدأدأ: تقلَّب عن فرسه، فجعل يتدحرج.
(٧) سرف: موضع على ستة أميال من مكَّة.

المغازي (١/ ٢٥١) ، وابن سعد (٢/ ٤٦) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢١١ و٢٥٨)][١] .

وفي هذا الخبر مَثَلٌ رفيعٌ على شجاعة رسول الله ﷺ ، فقد كان أُبي بن خلف مُدَجَّجاً بالسِّلاح ، ومتدرِّعاً بالحديد الواقي ، ومع ذلك استطاع رسولُ الله ﷺ أن يطعنه بالرُّمح من فُرْجَةٍ صغيرة في عنقه بين الدِّرْع ، والبيضة ، وهذا يدلُّ على قدرة رسول الله ﷺ القتاليَّة ، ودقَّته في إصابة الهدف . وفي هذا الخبر معجزةٌ للنَّبيِّ ﷺ ، فقد أخبر أُبَيّاً بأنه سوف يقتله بمشيئة الله ، وتمَّ ذلك ، وفي الخبر عبرةٌ في إيمان المشركين بصدق النَّبيِّ ﷺ ، وأنه إذا قال شيئاً ؛ وقع ، فقد كان أُبيُّ بن خلف على يقينٍ بأنَّه سيموت من تلك الطَّعنة ، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم ، وعبادة أهوائهم[٢] .

وقد خلَّد حسَّانُ بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال :

لَقَدْ وَرِثَ الضَّلاَلَةَ عَنْ أَبِيْهِ أُبَيٌّ يَوْمَ بَارَزَهُ الرَّسُولُ
أَتَيْتَ إِلَيْهِ تَحْمِلُ رِمَّ عَظْمٍ وَتُوْعِدُهُ وَأَنْتَ بِهِ جَهُوْلُ[٣]

* * *

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٩٣ ـ ٩٤) .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٥/ ١٦٩) . قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣] .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٩٤) .

المبحث الثالث
أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرَّسول ﷺ وأصحابه:

قال البَراءُ رضي الله عنه: وأشرفَ أبو سفيان، فقال: أفي القوم محمَّدٌ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تجيبوه» فقال: أفي القوم ابنُ أبي قُحَافَةَ؟ قال: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابنُ الخطَّاب؟ فقال: إنَّ هؤلاء القوم قُتلوا، فلو كانوا أحياءً لأجابوا فلم يملك عمرُ رضي الله عنه نفسَه، فقال: كذبتَ يا عدوَّ الله! أبقى اللهُ عليك ما يُخزيك. قال أبو سفيان: اعْلُ هُبَلُ[1]! فقال النَّبيُّ ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجلُّ». قال أبو سفيان: لنا العُزَّى. ولا عُزَّى لكم. فقال النَّبيُّ ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «اللهُ مولانا، ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر، والحرب سِجَالٌ، وتجدون مُثلةً لم آمُرْ بها، ولم تَسُؤْني. [البخاري (٤٠٤٣)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٦٨)][2] وفي روايةٍ: قال عمر: لا سواء! قتلانا في الجنَّة، وقتلاكم في النَّار». [أحمد (١/ ٤٦٣)[3]، ومجمع الزوائد (٦/ ١١٠)].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله ﷺ، وأبي بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما دلالةٌ واضحةٌ على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم؛ لأنَّه في علمهم أنَّهم أهل الإسلام، وبهم قام صَرْحُهُ، وأركان دولته، وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون: أنَّه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السُّكوت عن إجابة أبي سفيان أوَّلاً؛ تصغيراً له، حتَّى إذا انتشى، وملأه الكِبْر؛ أخبروه بحقيقة الأمر، وردُّوا عليه بشجاعةٍ[4].

وفي هذا يقول ابن القيِّم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبشركه؛ تعظيماً للتَّوحيد، وإعلاماً بعزَّة من عَبَدَهُ المسلمون، وقوَّة جانبه، وأنَّه لا يُغْلَبُ،

---

(١) أُعلُ هُبَلُ: ظهر دينُك.
(٢) السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٩٢).
(٣) انظر: السيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/ ٣٩٢)، وسيرة ابن هشام (شماتة أبي سفيان بالمسلمين يوم أحد).
(٤) المصدران السابقان.

ونحن حزبُه ، وجندُه ، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمَّد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي: أنَّه نهاهم عن إجابته ، وقال: «لا تجيبوه»؛ لأنَّ كلْمَهم لم يكن برد في طلب القوم ، ونارُ غيظهم بعدُ متوقِّدةٌ ، فلمَّا قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتُموهم؛ حمي عمر بن الخطَّاب ، واشتد غضبه ، وقال: كذبت يا عدوَّ الله! فكان في هذا الإعلام من الإذلال ، والشَّجاعة ، وعدم الجبن ، والتَّعرُّف إلى العدوِّ في تلك الحال ما يؤذنهم بقوَّة القوم ، وبسالتهم ، وأنَّهم لم يهِنوا ، ولم يَضْعُفُوا ، وأنَّه ، وقومَه جديرون بعدم الخوف منهم ، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم ، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثَّلاثة وهلةٌ بعد ظنِّه ، وظنِّ قومه: أنَّهم قد أُصيبوا من المصلحة ، وغيظ العدوِّ ، وحزبه ، والفتِّ في عَضُده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً ، واحداً ، فكان سؤاله عنهم ، ونعيُهم لقومه آخر سهام العدوِّ ، وكيده ، فصبر له النَّبيُّ ﷺ حتَّى استوفي كيده ، ثمَّ انتدب له عمر ، فردَّ بسهام كيده عليه ، وكان ترك الجواب عليه أحسن ، وذكره ثانياً أحسن ، وأيضاً: فإنَّ في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانةً له ، وتصغيراً لشأنه ، فلمَّا مَنَّتْهُ نفسهُ موتهم ، وظنَّ: أنهم قد قُتلوا ، وحصل له بذلك من الكبر ، والأشر[1] ما حصل ، كان في جوابه إهانةٌ له ، وتحقيرٌ ، وإذلالٌ ، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النَّبيِّ ﷺ : «لا تجيبوه» فإنَّه إنَّما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمَّد؟ أفيكم فلان؟ ولم يَنْهَ عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قُتلوا، وبكلِّ حالٍ ، فلا أحسنَ مِنْ ترك إجابته أولاً ، ولا أحسنَ مِنْ إجابته ثانياً[2].

ثانياً: تفقد الرَّسول ﷺ الشُّهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ، ذهب الرَّسول ﷺ ليتفقَّد أصحابه رضي الله عنهم ، فمرَّ على بعضهم ، ومنهم حمزةُ بن عبد المطَّلب ، ومُصْعَب بن عُمَيرٍ ، وحنظلةُ بن أبي عامرٍ ، وسعد بن الرَّبيع ، والأُصَيْرِمُ ، وبقيَّة الصحابة رضي الله عنهم ، فلمَّا أشرف عليهم رسول الله ﷺ قال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء ، إنَّه ما من جَرِيحٍ يُجْرَح في الله ، إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَى جُرْحُهُ؛ اللَّونُ لونُ دمٍ ، والرِّيح ريح المسك ، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن ، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» [سبق تخريجه].

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاريِّ: إنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يجمع بين الرَّجلين من قَتْلَى أُحدٍ في ثوبٍ واحد ، ثمَّ يقول: «أيُّهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟» فإذا أُشِيرَ له إلى أحدٍ؛ قدَّمه في اللَّحْدِ ، وقال: «أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة» ، وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يُصَلِّ عليهم ، ولم

---

(١) أشرَ أشَراً: بطرَ واستكبر ، فهو أشِرٌ.
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

يُغَسَّلُوا. [البخاري (٤٠٧٩)، وأبو داود (٣١٣٨)، والترمذي (١٠٣٦)، والنسائي (٤/ ٦٢)، وابن ماجه (١٥١٤)].

وأمر رسولُ الله ﷺ أن يدفنوا حيثُ صُرِعوا، وأُعيد مَنْ أُخذ؛ ليدفن داخل المدينة. [النسائي (٤/ ٧٩)].

ولمَّا رأى رسولُ الله ﷺ حمزةَ بن عبد المطلب وقد مُثِّل به؛ حزن حزناً شديداً، وبكى حتَّى نشغ[1] من البُكاء[2] وقال ﷺ: «لولا أن تحزن صفيَّة، ويكون سنةً من بعدي؛ لتركتُه حتَّى يكون في بطون السِّباع، وحواصل الطَّير، ولئن أظهرني الله على قريشٍ في موطن من المواطن؛ لأمثلنَّ بثلاثين رجلاً منهم» فلمَّا رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله ﷺ وغيظه على مَنْ فعل بعمِّه ما فعل، قالوا: والله! لئن أظفرنا الله عليهم يوماً من الدَّهر، لنمثلنَّ بهم مُثْلَةً لم يُمَثِّلْهَا أحدٌ من العرب. [أحمد (٣/ ١٢٨)، وأبو داود (٣١٣٦)، والترمذي (١٠١٦)، والحاكم (٣/ ١٩٦)، وابن أبي شيبة (١٤/ ٣٩١ ـ ٣٩٢)][3]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

لقد ارتكب المشركون صوراً من الوحشيَّة، حيث قاموا بالتَّمثيل بقتلى المسلمين، فبقروا بطون كثيرٍ من القتلى، وجَدَعُوا أنوفَهم، وقطعوا الآذان، ومذاكير بعضهم[4]؛ ومع ذلك صَبَرَ رسولُ الله ﷺ وأصحابه، واستجابوا لتوجيه المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ فعفا، وصبر، وكَفَّر عن يمينه، ونهى عن المُثْلَةِ. روى ابن إسحاق بسنده عن سَمُرة بن جُنْدب، قال: ما قام رسولُ الله ﷺ في مقامٍ قطُّ ففارقه، حتَّى يأمرنا بالصَّدقة، وينهانا عن المُثْلَة. [ابن هشام (٣/ ١٠٢)].

ثالثاً: دعاء الرَّسول ﷺ يوم أُحدٍ:

صلّى رسولُ الله ﷺ بأصحابه الظُّهر قاعداً لكثرة ما نزف من دمه، وصلَّى وراءه المسلمون قعوداً، وتوجَّه النَّبيُّ ﷺ بعد الصَّلاة إلى الله بالدُّعاء، والثَّناء على ما نالهم من الجَهْد، والبلاء، فقال لأصحابه: «استووا حتَّى أُثني على ربِّي ـ عزَّ وجلَّ»، فصاروا خلفه صفوفاً، ثمَّ دعا بهذه الكلمات الدَّالة على عمق الإيمان[5]، فقال ﷺ: «اللَّهمَّ! لك الحمدُ كلُّه، اللَّهُمَّ لا قابضَ لِمَا بَسطتَ، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضلَلْتَ، ولا مُضِلَّ لمَنْ هديت، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، ولا مانع لما أعطيتَ، ولا مُقَرِّب لما باعدْتَ، ولا مُبْعِد لما قرَّبْتَ.

---

(١) النَّشغ: الشَّهيق حتَّى يكاد يبلغ به الغشي.
(٢) انظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ، لمحمَّد بن عبد الوهاب، ص ٣٣١.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ١٠٦).
(٤) انظر: غزوة أحدٍ، لأبي فارس، ص ١٠٤.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٢١٠).

اللَّهُمَّ! ابسطْ علينا من بركاتك ، ورحمتك ، وفضلك ، ورزقك . اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم المُقيم؛ الَّذي لا يَحُول ، ولا يزول . اللَّهُمَّ! إنِّي أسألك النَّعيم يوم الغلبة ، والأمنَ يوم الخوف . اللَّهُمَّ! عائذٌ بك من شرِّ ما أعطيتنا ، وشرِّ ما منعتنا . اللَّهُمَّ! حَبِّبْ إلينا الإيمان ، وزيِّنه في قلوبنا ، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق ، والعصيان ، واجعلنا من الرَّاشدين . اللَّهُمَّ توفَّنا مسلمين ، وأحينا مسلمين ، وألحقنا بالصَّالحين غيرَ خزايا ، ولا نادمين ، ولا مفتونين . اللَّهُمَّ! قاتل الكفرة الَّذين يكذِّبون رُسُلَكَ ، ويصدُّون عن سبيلك ، واجعلْ عليهم رجزكَ ، وعذابك . اللَّهُمَّ قاتل الكفرة الَّذين أوتوا الكتاب ، إلٰه الحَقِّ» [أحمد (٣/ ٤٢٤) ، والبزار (١٨٠٠) ، والطبراني في المعجم (٤٥٤٩) ، والبخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢١ ـ ١٢٢)] ثمَّ ركب فرسه ، ورجع إلى المدينة[١] .

وهذا أمرٌ عظيم ، شرعه رسول الله ﷺ لأمَّته ، لكي يطلبوا النَّصر ، والتَّوفيق من ربِّ العالمين ، وبيَّن لأمَّته : أنَّ الدُّعاء مطلوبٌ في ساعة النَّصر ، والفتح ، وفي ساعة الهزيمة؛ لأنَّ الدُّعاء مُخُّ العبادة ، كما أنَّه من أقوى الأسباب في دفع المكروه ، وحصول المطلوب ، ويجعل القلوب متعلِّقة بخالقها ، فينزل عليها السَّكينة ، والثَّبات ، والاطمئنان ، ويمدُّها بقوَّةٍ رُوحيَّةٍ عظيمةٍ ، فترتفع المعنويات نحو المعالي ، وتتطلَّع إلى ما عند الله تعالى .

في أعقاب المعركة ، يتَّخذ النَّبيُّ ﷺ أُهْبَتَهُ ، وينظِّم المسلمين صفوفاً ، لكي يُثْنِيَ على ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ إنَّه لموقفٌ عظيمٌ ، يُجَلِّي إيماناً عميقاً ، ويكشف عن العبودية المطلقة لربِّ العالمين الفعَّال لما يريد ، فهو القابض ، والباسط ، والمعطي ، والمانع ، لا رادَّ ، ولا مُعَقِّب لحُكْمِه .

إنَّ هذا الموقف من أعظم مواقف العبوديَّة الَّتي تسمو بالعابدين ، وتجلُّ المعبود كأعظم ما يكون الإجلال ، والإكبار ، وأبرز ما يكون الحَمْدُ والثَّناء[٢] .

رابعاً : معرفة وِجْهَةِ العدو :

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسولُ الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة ، وذلك لمعرفة اتِّجاه العدوِّ ، فقال له : «اخرج في آثار القوم ، وانظر ماذا يصنعون ، وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيلَ[٣] ، وامتطوا الإبل[٤] [الواقدي في المغازي (١/ ٢٩٨) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٢٧) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٢٨٢)]؛ فإنَّهم يريدون

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٩٤) .

(٢) انظر : صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، د. محمد فيض الله ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .

(٣) جنَّبوا الخيل : قادوها إلى جنوبهم .

(٤) امتطى الدَّابة : ركبها .

مكَّة ، وإن ركبوا الخيل ، وساقوا الإبل ، فهم يريدون المدينة ، والَّذي نفسي بيده! إن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثمَّ لأناجزنَّهم». قال عليٌّ: فخرجت في أثرهم أنظرُ ماذا يصنعون ، فجَنَّبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجَّهوا إلى مكَّة[١] ، فرجع عليٌّ رضي الله عنه ، وأخبر رسول الله ﷺ بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدَّة دروسٍ ، وعبرٍ؛ منها: يقظة الرَّسول ﷺ ، ومراقبتُه الدَّقيقة لتحرُّكات العدوِّ ، وقدرته ﷺ على تقدير الأمور ، وظهور قوَّته المعنويَّة العالية؛ ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة ، وفيه ثقة النَّبيِّ ﷺ بعليٍّ رضي الله عنه ، ومعرفته بمعادن الرِّجال ، وفيه شجاعة عليٍّ رضي الله عنه؛ لأنَّ هذا الجيش لو أبصره ما تورَّع عن محاولة قتله[٢].

ونلحظ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت؛ تفقَّد خلالها الجرحى، والشُّهداء ، وأمر بدفنهم ، ودعا ربَّه ، وأثنى عليه سبحانه ، وأرسل عليّاً ليتتبَّع خبر القوم؛ كلُّ ذلك من أجل أن يحافظ على النَّصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أُحُدٍ ، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك ، فقد جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنَّصر أسباباً ، وللهزيمة أسباباً ، فمن أخذ بأسباب النَّصر ، وصدق التَّوكُّل على الله ـ سبحانه وتعالى ـ حقيقة التوكُّل؛ نال النَّصر بإذن الله ـ عزَّ وجل ـ ، كما قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

ويتجلَّى فقه النَّبيِّ ﷺ في ممارسة سنَّة الأخذ بالأسباب ، في غزوة حمراء الأسد.

خامساً: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الرِّوايات: أنَّ النَّبيَّ ﷺ تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه، حتَّى بعد رجوعهم إلى مكَّة ، وبلغه مقالـة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمَّد ، وجنده ، فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: لمَّا انصرف أبو سفيان والمشركون من أُحدٍ ، وبلغوا الرَّوْحاء[٣] ، قال أبو سفيان: لا محمَّداً قتلتُم ، ولا الكواعب أردفتُم ، شرٌّ ما صنعتم! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ [الطبراني في المعجم الكبير (١١٦٣٢) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢١)]. وتفيد هذه الرِّواية خبر استطلاع الرَّسول ﷺ أعداءه حتَّى بعد انتهاء المعركة؛ وذلك لكي يطمئنَّ على عدم مباغتتهم له.

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٤١) ، وسيرة ابن هشام (خروج عليٍّ في آثار القوم).

(٢) انظر: غزوة أحدٍ ، لأبي فارس ، ص ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) الرَّوحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلو متراً ، في طريق مكَّة.

وعندما سمع ما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة ، خرج بمن حضره يوم أُحُدٍ من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد .

قال ابن إسحاق: كان يوم أُحُد يوم السَّبت للنِّصف مِنْ شوَّال ، فلمَّا كان الغدُ من يوم الأحد لستَّ عشرة ليلةً مضت من شوَّال؛ أذَّن مؤذنُ رسولِ الله ﷺ في النَّاس بطلب العدوِّ ، وأذَّن مؤذِّنه ألاَّ يخرجنَّ معنا أحَدٌ إلا مَنْ حضر يومنا بالأمس ، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه ، فأذن له ، وإنَّما خرج مُرْهِباً للعدوِّ ، وليظنُّوا أنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوِّهم . [ابن هشام (٣/ ١٠٧) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣١٤)][1]. وقد استجاب أصحاب النَّبيِّ ﷺ لنداء الجهاد ، حتَّى الَّذين أُصيبوا بالجروح؛ فهذا رجلٌ من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أُحُداً أنا ، وأخٌ لي ، فرجعنا جريحَين ، فلما أذَّن مؤذِّن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدوِّ؛ قلت لأخي - أو قال لي -: أتفوتُنا غزوةٌ مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابةٍ نَرْكَبُها ، وما منا إلا جريحٌ ثقيلٌ ، فخرجنا مع رسول الله ﷺ ، وكنت أيسرَ جُرْحاً منه ، فكان إذا غُلب؛ حملته عُقبةً ومشى عُقبةً (فترةً) ، حتَّى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون[2].

وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد ، واقترب بجنوده من جيش المشركين ، فأقام فيه ثلاثة أيام يتحدَّى المشركين ، فلم يتشجَّعوا على لقائه ، ونزاله ، وكان رسول الله ﷺ قد أمرَ بإشعال النِّيران ، فكانوا يشعلون في وقتٍ واحد خمسمئة نار[3].

وأقبل مَعبدُ بن أبي معبد الخزاعيُّ إلى رسول الله ﷺ فأسلم ، فأمره أن يلحق بأبي سفيان ، فيخذِّله ، فلحقه بالرَّوحاء - ولم يعلم بإسلامه - فقال: ما وراءك يا معبد؟! فقال: محمَّدٌ وأصحابه ، فقد تحرَّقوا[4] عليكم ، وخرجوا في جمعٍ لم يخرجوا في مثله ، وقد ندم من كان تخلَّف عنهم من أصحابهم . فقال: ما تقول؟! فقال: ما أرى أن ترتحل حتَّى يطلع أوَّل الجيش من وراء هذه الأكمة[5] ، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرَّة عليهم لنستأصلهم . قال معبد: فإنِّي أنهاك عن ذلك ، ووالله! لقد حملني ما رأيتُ على أن قلتُ فيه أبياتاً من شعرٍ:

قال: وما قلتَ؟ قال: قلتُ:

كَـادَتْ تُهَـدُّ مِـنَ الأَصْـوَاتِ رَاحِلَتِـي إِذْ سَـالَـتِ الأَرْضُ بِـالجُـرْدِ[6] الأَبَـابِيْـلِ

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٥٠).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: غزوة أحد، لأبي فارس ، ص ١٤٤ ، نقلاً عن الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/ ٤٣).
(٤) يتحرَّقون: يلتهبون من الغيظ.
(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).
(٦) الجُرد: جمع أجرد ، وهو الضرسيُّ ، قصير الشَّعر ، والأبابيل: الفِرَق الكثيرة.

تَـرْدِي[(١)] بـأُسْـدٍ كِـرَامٍ لاَ تَنَـابِلَـةٍ[(٢)] عِنْـدَ اللِّقَـاءِ وَلاَ مِيْـلٍ[(٣)] مَعَـازِيـلِ[(٤)]
فَظَلْـتُ أَعْـدُو أَظُـنُّ الأَرْضَ مَـائِلَـةً لمَّـا سَمَـوْا بِـرَئِيْـسٍ غَيْـرِ مَخْـذُوْلِ
فَقُلْـتُ: وَيْـلَ ابْـنِ حَـرْبٍ مِـنْ لِقَـائِكُـمْ إِذَا تَغَطْمَطَـتِ[(٥)] البَطْحَـاءُ بِـالجِيْـلِ
إِنِّـي نَـذِيْـرٌ لأَهْـلِ البَسْـلِ ضَـاحِيَـةً لِكُـلِّ ذِيْ إِرْبَـةٍ مِنْهُـمْ وَمَعْقُـوْلِ
مِـنْ جَيْـشِ أَحْمَـدَ لاَ وَخْـشٍ[(٦)] تَنَـابِلَـةٌ وَلَيْـسَ يُـوصَـفُ مَـا أَنْـذَرْتُ بِـالقِيْـلِ[(٧)]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه ، وحاول أبو سفيان أن يغطِّي انسحابه هذا بشنِّ حربٍ نفسيَّة على المسلمين ، لعلَّه يُرهبهم ، فأرسل مع رَكْبِ عبد القيس ـ وكانوا يريدون المدينة للْمِيْرَةِ[(٨)] ـ [البيهقي في الدلائل (٣/ ٣١٥ ـ ٣١٧) ، وابن هشام (٣/ ١٠٨ ـ ١١٠)] رسالةً إلى رسول الله ﷺ ، مفادها: أنَّ أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السَّير إليه ، وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود ، وواعد أبو سفيان الرَّكبَ أن يعطيهم زبيباً عندما يأتونه في سوق عُكَاظ ، ومرَّ الرَّكبُ برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه بالَّذي قاله أبو سفيان ، فقال هو والمسلمون: حسبنا اللهُ ، ونِعْمَ الوكيلُ[(٩)].

واستمرَّ المسلمون في معسكرهم ، وآثرت قريش السَّلامة ، والأوبةَ[(١٠)] ، فرجعوا إلى مكَّة ، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروحٍ قويَّةٍ متوثِّبةٍ ، غسلت عَارَ الهزيمة ، ومسحت مغبَّةَ[(١١)] الفشل ، فدخلوها أعزةً رفيعي الجانب ، عبثوا بانتصار المشركين ، وهزُّوا أعصابهم ، وأحبطوا شماتة المنافقين ، واليهود في المدينة ، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة ، وسجَّل ظواهرها[(١٢)] بقوله تعالى[(١٣)]: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ

---

(١) تردي: تُسرع.
(٢) تنابلة: جمع تنبال ، وهو القصير.
(٣) الميل: جمع أميل ، وهو الجبان.
(٤) معازيل: جمع معزال ، وهو من لا رُمح معه.
(٥) تغطمطت: اضطربت ، وثارت.
(٦) وخش: رديء.
(٧) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٥١) ، وسيرة ابن هشام (٣/ ٤٦).
(٨) الميرةُ: الطَّعام يجمع للسَّفر ، ونحوه.
(٩) تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، ص ٢٢٦.
(١٠) آب أوبَةً: رجع.
(١١) المَغَبَّةُ من كلِّ شيءٍ: عاقبتُه وآخره.
(١٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٤٢.
(١٣) انظر تفسير هذه الآيات في ابن كثير.

﴿أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥] ووقع في أسر النَّبيِّ ﷺ قبل رجوعه إلى المدينة ، أبو عزَّة الجُمَحِيُّ الشَّاعر ، فقُتِل صبراً؛ لأنَّه أخلف وعده للرَّسول ﷺ بألاَّ يقاتل ضدَّه عندما منَّ عليه ببدرٍ ، وأطلقه ، فعاد فقاتل في أُحدٍ ، وقد حاول أبو عزَّة أن يتخلَّص من القتل ، وقال: يا رسول الله! أقِلْني[1] ، فقال رسول الله ﷺ : «لا والله! لا تمسح عارضيك[2] بمكَّة بعدها ، وتقول: خدعتُ محمَّداً مرَّتين ، اضرب عنقه يا زُبيرُ!» [ابن سعد (٢/ ٤٣)، والبيهقي في السنن الكبرى[3] (٩/ ٦٥)، وفي دلائل النبوة (٣/ ٢٨٠ ـ ٢٨١)]. فضرب عُنقَه ، فقال النَّبيُّ ﷺ حينئذٍ: «لا يُلْدَغُ المؤمنُ من جُحْرٍ واحدٍ مرَّتين» [البخاري (٦١٣٣)، ومسلم (٢٩٩٨)][4] ، فصار هذا الحديث مثلاً ، ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السِّياسة الشَّرعية؛ لأنَّ هذا الشَّاعر من المفسدين في الأرض ، الدَّاعين إلى الفتنة ، ولأنَّ في المنِّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يُؤْسَرْ من المشركين سوى أبي عزَّةَ الجُمَحيِّ[5].

وأمَّا عدد القتلى من المسلمين في أُحدٍ؛ فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين ، ويؤيِّد هذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] أنَّها نزلت تسليةً للمؤمنين عمَّن أُصيب منهم يوم أُحدٍ. قال ابن عطيَّة ـ رحمه الله ـ: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً ، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدرٍ سبعين ، وأسروا سبعين[6].

أمَّا عدد الَّذين قُتلوا يوم أُحدٍ من المشركين ، فكان اثنين وعشرين قتيلاً[7].

كان خروج رسول الله ﷺ لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد ، يهدف إلى تحقيق مجموعة من المقاصد المهمَّة؛ منها:

---

(١) أقال اللهُ عَثْرَتَه: صفح عنه وتجاوز.
(٢) عارضيك: هما جانبا الوجه. لسان العرب (٢/ ٧٤٢).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٣/ ١١٦).
(٤) انظر شرحه وسببه في الفتح.
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٥٣).
(٦) المحرر الوجيز ، لابن عطية (٣/ ٤١١).
(٧) مرويات غزوة أحد ، للباكري ، ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩.

١ ـ ألاَّ يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الَّذين خرجوا يوم أُحدٍ هو الشُّعور بالهزيمة .

٢ ـ إعلامهم : أنَّ لهم الكرَّة على أعدائهم متَى نفضوا عنهم الضَّعف ، والفشل ، واستجابوا لدعوة الله ، ورسوله ﷺ .

٣ ـ تجرئة الصَّحابة على قتال أعدائهم .

٤ ـ إعلامُهم : أنَّ ما أصابهم في ذلك اليوم ، إنَّما هو منحةٌ ، وابتلاءٌ اقتضتها إرادة الله ، وحكمتُه ، وأنَّهم أقوياء ، وأنَّ خصومهم الغالبين في الظَّاهر ضعفاء(١) .

كما أنَّ في خروج النَّبيِّ ﷺ إلى حمراء الأسد إشارةً نبويَّـةً إلى أهمِّيَّة استعمال الحرب النَّفسيَّة للتأثير على معنويات الخصوم؛ حيث خرج ﷺ بجنوده إلى حمراء الأسد ، ومكث فيها ثلاثة أيَّام ، وأمر بإيقاد النِّيران ، فكانت تُشاهدُ من مكانٍ بعيدٍ ، وملأت الأرجاء بأنوارها ، حتَّى خُيِّل لقريش : أنَّ جيش المسلمين ذو عددٍ كبير لا طاقة لهم به ، فانصرفوا؛ وقد ملأ الرُّعب أفئدتهم(٢) .

قال ابن سعد : «ومضى رسولُ الله ﷺ بأصحابه حتَّى عسكروا بحمراء الأسد ، وكان المسلمون يوقِدون تلك اللَّيالي خمسمئة نارٍ حتَّى تُرى من المكان البعيد ، وذهب صوت معسكرهم ، نيرانهم في كلِّ وجهٍ ؛ فكبَتَ اللهُ تعالى بذلك عدوَّهم»(٣) .

سادساً : مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحدٍ :

كانت غزوة أُحدٍ أوَّل معركة في الإسلام تشارك فيها نساءُ المسلمين ، وقد ظهرت بطولاتُ الـنِّساء ، وصدق إيمانهنَّ في هذه المعركـة ، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ، ويداوين الجرحى ، ومنهنَّ مَنْ قامت بردِّ ضربات المشركين المُوَجَّهة للرَّسول ﷺ ، وممَّن شاركن في غزوة أحدٍ : أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق، وأمُّ عمارة ، وحَمْنَة بنت جَحْشٍ الأسديَّة ، وأمُّ سَلِيط ، وأمُّ سُلَيْم ، ونسوةٌ من الأنصار . [مسلم (١٨٠٩ و١٨١٠ و١٨١١)] .

قال ثعلبة بن أبي مالكٍ رضي الله عنه : إنَّ عمر بن الخطاب قَسَمَ مُرُوطاً بين نساءٍ من نساء أهل المدينة ، فبقي منها مِرطٌ جيِّدٌ ، فقال له بعض مَنْ عنده : يا أمير المؤمنين! أعطِ هذا بنت رسول الله الَّتي عندك ـ يريدون أمَّ كلثوم بنتَ عليٍّ ـ فقال عمر رضي الله عنه : أم سَليط أحقُّ به . وأمُّ سليط من

(١) انظر : في ظلال القرآن (١/ ٥١٩) .
(٢) انظر : غزوة أُحدٍ ، لأبي فارس ، ص ٥١ .
(٣) انظر : الطَّبقات ، لابن سعدٍ (٢/ ٤٩) .

نساء الأنصار مِمَّن بايع رسولَ الله ﷺ . قال عمر: فإنها كانت تُزْفِرُ[1] لنا القِرَبَ يوم أُحدٍ. [البخاري (٢٨٨١ ، ٤٠٧١)].

أ ـ سقي العطشى من المجاهدين:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «لمَّا كان يوم أُحدٍ ، انهزمَ النَّاسُ عن النَّبيِّ ﷺ ، قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكرٍ ، وأمَّ سُلَيم ، وإنَّهما لمشمِّرتان ، أرى خَدَمَ سُوقِهِنَّ تَنْقُزَانِ[2] القِرَبَ ـ وقال غيره: تنقلان القربَ ـ على متونهما ، ثمَّ تُفْرِغَانِهِ في أفواه القوم ، ثمَّ ترجعان ، فتملآنها ، ثمَّ تجيئان ، فتُفرغَانه في أفواه القوم» [البخاري (٢٨٨٠)].

وقال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه: «رأيتُ أمَّ سُلَيم بنت ملحان ، وعائشة ، على ظهورهما القِرَبُ ، يحملانها يوم أُحدٍ ، وكانت حَمْنَةُ بنت جحشٍ تسقي العطشى ، وتداوي الجرحى ، وكانت أمُّ أيمن تسقي الجرحى».

ب ـ مداواة الجرحى ، ومواساة المصابين:

عن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله ﷺ يغزو بأمِّ سُلَيم ، ونسوةٍ من الأنصار معه؛ إذا غزا ، فيسقين الماءَ ، ويداوين الجرحى. [مسلم (١٨١٠)].

وأخرج عبد الرَّزاق عن الزُّهريِّ: كان النِّساء يشهدن مع النَّبيِّ ﷺ المشاهد ، ويسقين المقاتلة ، ويداوين الجرحى[3]. وعن الرُّبيِّع بنت مُعَوِّذٍ ، قالت: كنَّا مع النَّبيِّ ﷺ نسقي القوم ، ونداوي الجرحى ، ونردُّ القتلى إلى المدينة. [البخاري (٢٨٨٢)]. وفي روايةٍ: كنَّا نغزو مع النَّبيِّ ﷺ ، فنسقي القوم ، ونخدمُهم ، ونردُّ الجرحى ، والقتلى إلى المدينة. [البخاري (٢٨٨٣)].

وعن أبي حازم: أنَّه سمع سهل بن سعدٍ رضي الله عنه وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ ، فقال: أما والله! إنِّي لأعرفُ مَنْ كان يغسلُ جُرحَ رسول الله ﷺ ، ومن كان يسكب الماء ، وبما دُووِيَ. قال: كانت فاطمةُ رضي الله عنها بنتُ رسول الله ﷺ تغسلُه ، وعليٌّ يسكب الماء بالمجنِّ ، فلمَّا رأت فاطمة: أنَّ الماء لا يزيدُ الدَّم إلا كثرةً؛ أخذت قطعةً من حصيرٍ ، فأحرقتها ، وألصقتها ، فاستمسك الدَّم. [البخاري (٤٠٧٥) ، ومسلم (١٧٩٠)].

ج ـ الدِّفاع عن الإسلام ورسوله ﷺ بالسَّيف:

لم تقاتل المشركين يوم أُحدٍ إلا أمُّ عُمارة نُسَيبة المازنيَّة رضي الله عنها ، وهذا ضَمْرَةُ بن

(١) تزفِرُ: تحمل القرب مملوءةً بالماء.
(٢) تَنْقُزَان: أي: تحملان ، وتقفزان بها وثباً.
(٣) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٢٨٨٠).

سعيدٍ يحدث عن جدَّته ، وكانت قد شهدت أُحداً تسقي الماء ، قالت : سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول : لَمُقَامُ نُسَيْبة بنتِ كعبٍ اليوم خيرٌ من مُقام فلانٍ ، وفلان ، وكان يراها تُقاتل يومئذٍ أشدَّ القتال ، وإنَّها لحاجزةٌ ثوبها على وسطها ، حتَّى جُرِحَتْ ثلاثة عشرَ جرحاً ، فلمَّا حضرتها الوفاة كنت فيمن غسَّلها ، فعددت جراحها جُرْحاً جُرْحاً ، فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً. وكانت تقول: إنِّي لأنظرُ إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها ، لقد داوته سنةً ـ ثم نَادَى منادي النَّبيِّ ﷺ : إلى حمراء الأسد! فشدَّت عليها ثيابها ، فما استطاعت من نزف الدَّم ، ولقد مكثنا ليلنا نكمِّد الجراح حتَّى أصبحنا ، فلمَّا رجع رسول الله ﷺ من الحمراء ، ما وصل إلى بيته حتَّى أرسل إليها عبدَ الله بن كعبٍ المازني[١] ـ أخا أمِّ عُمارة ـ يسأل عنها ، فرجع إليه يخبره بسلامتها ، فسُرَّ النَّبيُّ ﷺ بذلك[٢].

وقد علَّق الأستاذ حسين الباكريُّ على مشاركة نُسَيبة بنت كعب في القتال ، فقال : «وخروج المرأة للقتال مع الرِّجال لم يثبت في ذلك منه شيءٌ غيرُ قصَّة نُسَيبة؛ وقتال نسيبة إنَّما كان اضطراريّـاً؛ حين رأت : أنَّ رسول الله ﷺ أصبح في خطرٍ حين انكشف عنه النَّاس ، فأمُّ عُمارة إذاً كانت في موقفٍ أصبح حَمْلُ السِّلاح فيه واجباً على مَنْ يقدر على حمله؛ رجلاً كان ، أو امرأةً»[٣].

وعلَّق الدُّكتور أكرم ضياء العمري على الآثار الدَّالة على مشاركة النِّساء في أحدٍ بقوله : «وهذه الآثار تدلُّ على جواز الانتفاع بالنِّساء عند الضَّرورة ، لمداوة الجرحى ، وخدمتهم؛ إذا أُمِنَتْ فتنتهُنَّ مع لزومهنَّ السِّتر ، والصِّيانة ، ولهنَّ أن يُدافعْنَ عن أنفسهن بالقتال؛ إذا تعرَّض لهنَّ الأعداء ، مع أنَّ الجهاد فرضٌ على الرِّجال وحدهم ، إلا إذا داهم العدوُّ ديار المسلمين ، فيجب قتاله من الجميع رجالاً ، ونساء»[٤].

وأمَّا الأستاذ محمَّد أحمد باشميل؛ فقد قال : «وقد كانت معركة أُحدٍ أوَّل معركةٍ في الإسلام قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين ، ومن الثَّابت: أنَّ امرأةً واحدةً فقط اشتركت في هذه المعركة ، وهي تدافع عن رسول الله ﷺ ، كما أنَّه من الثَّابت أيضاً: أنَّ المرأة الَّتي اشتركت في معركة أحدٍ لم تخرج بقصد القتال ، فهي لم تكن مجنَّدةً فيها كالرِّجال؛ وإنَّما خرجت لتنظر ما يصنع النَّاس لتقوم بأيَّة مساعدةٍ يمكنها القيام بها للمسلمين؛ كإغاثة الجرحى بالماء ، وما شابه ذلك ، يضاف إلى هذا أنَّ هذه المرأة الَّتي خاضت معركة أُحدٍ ، هي امرأةٌ قد تخطَّت سِنَّ الشَّباب ، كما أنَّها لم تخرج إلى المعركة إلاَّ مع زوجها ، وابنيها ، الَّذين كانوا من الجند

---

(١) انظر : سير أعلام النُّبلاء ، للذَّهبي (٢/ ٢٧٨).
(٢) المغازي ، للواقديِّ (١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).
(٣) انظر : مرويات غزوة أحدٍ ، ص ٢٥٤.
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٣٩١).

الَّذين قاتلوا في المعركة ، يضاف إلى هذا الرَّصيد الهائل؛ الَّذي لديها من المناعة الخُلقيَّة والتَّربية الدِّينيَّة ، فلا يقاس على هذه الصَّحابية الجليلة ، مجنَّدات هذا الزَّمان ، اللَّائي يرتدين لباس الميدان ، وعنصر الإغراء ، والفتنة هو أهمُّ عنصرٍ يتميَّزن به ، ويحرصن على إظهاره للرِّجال؛ فأين الثَّرَىٰ مِنَ الثُّرَيَّا؟!

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحدٌ من رجال هذا الزَّمان ، من ناحية الشَّهامة ، والاستقامة ، والعفَّة والرُّجولة ، فكلُّ المحاربين الَّذين اشتركت معهم المرأة في معركة أُحدٍ ، كانوا صفوة الأمَّة الإسلاميَّة ، ورمز نبلها ، وشهامتها ، وعنوان رجولتها ، واستقامتها ، فلا يصحُّ مطلقاً جعل اشتراك تلك المرأة في معركة أُحدٍ قاعدةً تقاس عليها (من النَّاحية الشَّرعيَّة) إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر ، لتقاتل بجانب الرَّجل (كعنصر أساسٍ من عناصر الجيش) فالقياس في هذه الحالة قياسٌ مع الفارق ، وهو قياسٌ باطلٌ قطعاً»[1].

سابعاً: دروس في الصَّبر تقدِّمها صحابيَّاتٌ للأمَّة:

أ ـ صفية بنت عبد المطَّلب رضي الله عنها:

لمَّا استُشهد أخوها حمزةُ بن عبد المطَّلب رضي الله عنه في أُحدٍ ، وجاءت لتنظر إليه؛ وقد مَثَّلَ به المشركون ، فجدعوا أنفه ، وبقروا بطنه ، وقطعوا أذنيه ، ومذاكيره ، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزُّبير بن العوَّام: «الْقَها ، فأَرْجعها؛ لا ترى ما بأخيها» فقال لها: يا أُمَّه! إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي ، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني: أنَّه قد مُثِّلَ بأخي ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبنَّ ، ولأصبرنَّ إن شاء الله.

فلمَّا جاء الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، قال: «خَلِّ سبيلها» فأتته ، فنظرت إليه ، فصلَّت عليه ، واسترجعت[2] ، واستغفرت له. [سبق تخريجه][3].

ب ـ حَمْنَةُ بنت جحش رضي الله عنها:

لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه رضي الله عنهم ، ركب فرسه ، وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة ، فلقيته حَمْنَةُ بنت جحشٍ ، فقال لها رسول الله ﷺ: يا حمنةُ! احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: أخاك عبدَ الله بن جحشٍ ، فاسترجعت ، واستغفرت له ، ثمَّ قال لها رسولُ الله ﷺ: احتسبي! فقالت: مَنْ يا رسول الله؟! قال: خالك حمزة بن عبد المطَّلب ، قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون ، غفر الله له ، هنيئاً له الشهادة. ثمَّ قال لها: احتسبي! قالت: مَنْ يا رسول الله؟ قال: زوجُك مصعب بن عُمَيْرٍ ، قالت: واحزناه!

(١) انظر: غزوة أحدٍ ، لمحمَّد باشميل ، ص ١٧١ ـ ١٧٣.
(٢) استرْجَعَتْ: أي قالت: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/١٠٨).

وصاحت ، ووَلْوَلَتْ. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ زوج المرأة منها لبمكانٍ»؛ لمَا رأى من تَثَبُّتِها عند أخيها ، وخالها ، وصياحها على زوجها. [ابن ماجه (١٥٩٠)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٣٢)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٠١)، وابن هشام (٣/ ١٠٤)]. ثمَّ قال لها: ولِمَ قلتِ هذا؟ قالت: يا رسول الله! ذكرت يُتْمَ بنيه ، فراعني ، فدعا لها رسول الله ﷺ ، ولوَلدِها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخَلَفِ[١] ، فتزوَّجت طلحةَ بن عبيد الله ، فولدت منه محمَّداً ، وعمران[٢] ، وكان محمَّد بن طلحة أوصل النَّاس لولدها[٣].

ج ـ المرأة الدِّينارية رضي الله عنها:

قال سعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه: مرَّ رسول الله ﷺ بامرأةٍ من بني دينار ، وقد أُصيب زوجُها ، وأخوها ، وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحدٍ ، فلمَّا نُعُوا لها؛ قالت: فما فعل رسولُ الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أمَّ فلان! هو بحمد الله كما تحبِّين ، قالت: أَرُونيه حتَّى أنظرَ إليه ، فأُشير لها إليه ، حتَّى إذا رأته؛ قالت: كلُّ مصيبةٍ بعدَك جَلَلٌ[٤]. [الواقدي في المغازي (١/ ٢٩٢)، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٣٣)، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٣٠٢)، وابن هشام (٣/ ١٠٥)]. ـ تريد: صغيرةٌ ـ. وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين!

د ـ أمُّ سعد بن مُعاذٍ ، وهي كبشةُ بنت عبيد الخزرجيَّة رضي الله عنها:

خرجت أمُّ سعد بن معاذ تعدو نحو رسولِ الله ﷺ ، ورسولُ الله ﷺ واقفٌ على فرسه ، وسعد بن معاذ آخذٌ بعنَانِ[٥] فرسه ، فقال سعد: يا رسول الله! أمِّي! فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بها ، فدنت حتَّى تأمَّلت رسولَ الله ، فقالت: أما إذ رأيتك سالماً؛ فقد أشوت[٦] المصيبة ، فعزَّاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذٍ ابنها ، ثمَّ قال: يا أمَّ سعد! أبشري ، وبشِّري أهليهم: أنَّ قتلاهم قد ترافقوا في الجنَّة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شُفِّعوا في أهليهم. قالت: رضينا يا رسول الله! ومن يبكي عليهم بعد هذا؟! ثمَّ قالت: ادعُ يا رسولَ الله! لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أذهب حُزن قلوبهم ، واجْبُرْ مصيبتهم ، وأحسن الخَلَفَ على من خُلِّفُوا». [مغازي الواقدي (١/ ٣١٥ ـ ٣١٦)].

* * *

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٤٧) ، وغزوة أحد دراسة دعويَّة ، ص ٢٣٦.
(٢) انظر: الإصابة (٨/ ٨٨) ، رقم (١١٠٦٠).
(٣) انظر: غزوة أحد ، لأبي فارس ، ص ١٠٩.
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٤٨) ، وسيرة ابن هشام (شأن المرأة الدِّينارية).
(٥) العِنَانُ: سَيرُ اللجام الذي تُمْسَكُ به الدابةُ.
(٦) أشوَت: صارت صغيرةً خفيفة.

المبحث الرَّابع
بعض الدُّروس، والعبر، والفوائد

لقد وصف القرآن الكريم غزوة أُحدٍ وصفاً دقيقاً، وكان التَّصويرُ القرآنيُّ للغزوة أقوى حيويَّة، ووضوحاً من الرِّوايات الَّتي جاءت في الغزوة، كما أنَّ أسلوب الآيات المطمئنة، المبشِّرة، واللاَّئمة، والمسكِّنة، والواعظة كان رائعاً، وقويّاً، فبيَّن القرآن الكريم نفوس جيش النَّبيِّ ﷺ، وهذا تَمَيُّزٌ لحديث القرآن عن الغزوة، ينفرد به عمَّا جاء في كتب السِّيرة، فسلَّط القرآن الكريم الأضواء على خفايا القلوب؛ الَّتي ما كان المسلمون أنفسُهم يعرفون وجودها في قلوبهم، والنَّاظر عموماً في منهج القرآن في التَّعقيب على غزوة أُحدٍ يجد الدِّقَّة، والعمق، والشُّمول. يقول سيِّد قطب: «الدِّقَّة في تناول كلِّ موقفٍ، وكلِّ حركةٍ، وكلِّ خالجةٍ، والعمق في التَّدسُّس إلى أغوار النَّفس، ومشاعرها الدَّفينة، والشُّمول لجوانب النَّفس، وجوانب الحادث.

كما نجد الحيويَّة في التَّصوير، والإيقاع، والإيحاء، بحيث تتماوجُ المشاعر مع التَّعبير، والتَّصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً، ولا تملك أن تقف جامدةً أمام الوصف والتَّعقيب؛ فهو وصفٌ حيٌّ، يستحضر المشاهِدَ كما لو كانت تتحرَّك، ويشيع حولها النَّشاط المؤثِّر، والإشعاع النَّافذ، والإيحاء المُثِير»[1].

إنَّ حركة النَّبيِّ ﷺ في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة، والتَّمكين لدين الله، يعتبر انعكاساً في دنيا الحياة لمفاهيم القرآن الكريم، الَّتي سيطرت على مشاعره، وأفكاره، وأحاسيسه ﷺ، ولذلك نجد أنَّ النَّبيَّ ﷺ في علاجه لأثر الهزيمة في أُحدٍ تابعٌ للمنهج القرآنيِّ الكريم، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النُّقاط المهمَّة في هذا المنهج:

أولاً: تذكير المؤمنين بالسُّنن ودعوتهم للعلوِّ الإيماني:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٣٢).

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۝١٣٨ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾
[آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٩].

إنَّ المتأمِّل في هذه الآيات الكريمة يجد: أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك المسلمين لوساوس الشَّيطان في محنة غزوة أحدٍ، بل خاطبهم بهذه الآيات؛ الَّتي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقوِّيهم، ويثبِّتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم، ويخفِّف عنهم آلامهم[١].

قال القرطبيُّ: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين[٢].

ففي الآيات السَّابقة دعوةٌ للتأمُّل في مصير الأمم السَّابقة؛ الَّتي كذَّبت دعوة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنَّته على حسب عادته، وهي الإهلاك، والدَّمار؛ بسبب كفرهم، وظلمهم، وفسوقهم عن أمره.

وجاء التَّعبير بلفظ: «كيف» الدَّال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذِّبين؛ الَّتي تدعو إلى التعجُّب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتِّعاظ في قلوب المؤمنين؛ لأنَّ هؤلاء المكذِّبين مكَّن الله لهم في الأرض، ومنحهم الكثير من نعمه، ولكنَّهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طُغيانهم[٣].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ دعاهم إلى ترك الضَّعف، ومحاربة الجبن، والتَّخلُّص من الوهن، وعدم الحزن، لأنَّهم هم الأعْلَوْن بسبب إيمانهم.

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحدٍ:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝١٤١ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ۝١٤٢ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤٣].

بيَّن لهم: أنَّ الجروح، والقتلى يجب ألاَّ تؤثِّر في جدِّهم، واجتهادهم في جهاد العدوِّ؛ وذلك لأنَّه كما أصابهم ذلك؛ فقد أصاب عدوَّهم مِثْلُه من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم،

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ١٩٠).
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢١٦).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ١٩١).

وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب ، فبِأنْ لا يلحقُكم الفتورُ مع حسن العاقبة ، والتمسُّك بالحقِّ أولى[١].

وقال صاحب الكشَّاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أُحدٍ؛ فقد نِلتُم منهم قبله يوم بدرٍ ، ثمَّ لم يُضْعِفْ ذلك قلوبَهم ، ولم يثبِّطْهم عن معاودتكم بالقتال ، فأنتم أولى ألاَّ تضعفوا[٢].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّه كان يوم أُحد بيوم بدرٍ ، قُتل المؤمنون يوم أُحدٍ ، واتَّخذ اللهُ منهم شهداءَ ، وغلب رسولُ الله ﷺ يوم بدرٍ المشركين ، فجعل الدَّولة عليهم[٣].

وجواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ . . . ﴾ إلخ محذوفٌ ، والتَّقدير: إن يمسكم قرح؛ فاصبروا عليه ، واعقدوا عزمكم على قتال أعدائكم ، فقد مسَّهم قرحٌ مثلُه قبل ذلك.

وعبَّر عمَّا أصاب المسلمين في أُحدٍ بصيغة المضارع «يمسسكم» لقربه من زمن الحال، وعمَّا أصاب المشركين بصيغة الماضي لبُعْدِهِ؛ لأنَّ ما أصابهم كان في غزوة بدرٍ.

وقوله: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ لسنَّة الله الجارية في كونه ، وتسليةٌ للمؤمنين عمَّا أصابهم في أُحدٍ[٤].

وقوله: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: قال القرطبيُّ: معناه: وإنَّما كانت هذه المداولة؛ ليَرى المؤمن مِنَ المنافق ، فيميزَ بعضَهم من بعضٍ[٥].

وقوله: ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾: قال ابن كثير: يعني: يُقْتَلُون في سبيله ، ويبْذلون مُهَجَهُمْ في مرضاته[٦].

ثمَّ ختم سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ثمَّ ذكر ـ سبحانه ـ حكمتين أخريين لما جرى للمؤمنين في غزوة أحدٍ ، فقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ، وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ من المحص ، بمعنى التَّنقية والتَّخليص ، أو من التَّمحيص ، بمعنى الابتلاء ، والاختبار.

وقوله: ﴿ وَيَمْحَقَ﴾ من المحق ، وهو محو الشَّيء ، والذَّهاب به. قال الطَّبريُّ: والمعنى:

(١) انظر: تفسير الرَّازي (٩/ ١٤).
(٢) انظر: تفسير الكشَّاف (١/ ٤٦٥).
(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٤/ ١٠٥).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ١٩٥).
(٥) انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢١٨).
(٦) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٨).

وليختبر الله الَّذين صدقوا الله ، ورسوله ، فيبتليهم بإزالة المشركين منهم ، حتَّى يتبيَّن المؤمن منهم المخلص الصَّحيح الإيمان من المنافق[(١)] .

وقال ابن كثير : قوله : ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي : يكفِّر عنهم من ذنوبهم ـ إن كانت لهم ذنوب ـ ، وإلاَّ رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أُصيبوا به .

وقوله : ﴿ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ أي : فإنَّهم إذا ظفروا ؛ بغَوا ، وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم ، وهلاكهم ، ومحقهم ، وفنائهم[(٢)] ، والمعنى : ولقد فعل ـ سبحانه ـ ما فعل في غزوة أحدٍ ، لكي يطهِّر المؤمنين ، ويصفِّيهم من الذُّنوب ، ويخلِّصهم من المنافقين المندسِّين بينهم ، ولكي يُهلك الكافرين ، ويمحقهم ؛ بسبب بغيهم ، وبطرهم .

وقد ذكر الله تعالى أربع حكمٍ لما حدث للمؤمنين في غزوة أُحدٍ ، وهي : تحقُّق علم الله تعالى ، وإظهاره للمؤمنين ، وإكرام بعضهم بالشَّهادة الَّتي توصل صاحبها إلى أعلى الدَّرجات ، وتطهير المؤمنين ، وتخليصهم من ذنوبهم ، ومن المنافقين ، ومحق الكافرين ، واستئصالهم رويداً ، رويداً[(٣)] .

ثمَّ قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٢] والمعنى : أحسبتم يا من انهزم يوم أحد! أن تدخلوا الجنَّة كما دخل الَّذين قُتلوا ، وصبروا على ألم الجراح والقتل من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم؟! لا ؛ حتَّى ﴿ يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ أي : علم شهادةٍ ؛ حتَّى يقع عليه الجزاء ﴿ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[(٤)] .

وقال ابن كثيرٍ : أي : لا يحصل لكم دخول الجنَّة ؛ حتَّى تُبْتَلوا ، ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصَّابرين على مقاومة الأعداء[(٥)] .

ثمَّ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [آل عمران : ١٤٣] .

قال ابن كثيرٍ : قد كنتم ـ أيُّها المؤمنون! ـ قبل هذا اليوم ، تتمنَّون لقاء العدوِّ ، وتحترقون

---

(١) انظر : تفسير الطَّبريِّ (٤/ ١٠٧) .

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٨) .

(٣) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ١٩٩) .

(٤) انظر : تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٠) .

(٥) انظر : تفسير ابن كثير (١/ ٤٠٩) .

عليه ، وتودُّون مناجزتهم ، ومصابرتهم ، فها قد حصل لكم الَّذي تمنَّيتموه ، وطلبتُموه ، فدونكم ، فقاتلوا ، وصابروا[١] .

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

تَرَفَّقَ القرآن الكريم وهو يعقِّب على ما أصاب المسلمين في (أُحدٍ) ، على عكس ما نزل في بدرٍ من آيات ، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه ، أشدَّ من حساب المنكسر ، فقال في غزوة بدر: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨] .

وقال في أُحدٍ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وفي هذا حكمةٌ عمليَّةٌ ، وتربية قرآنيَّةٌ ، يحسن أن يلتزمها أهل التَّربية ، والقائمون على التَّوجيه[٢] .

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السَّابقين:

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨] .

قال ابن كثير: عاتب اللهُ بهذه الآيات والَّتي قبلها مَن انهزم يوم أُحدٍ ، وتركوا القتال لمَّا سمعوا الصَّائح يصيح بأن محمَّداً قد قُتل ، فَعَذَلَهم[٣] الله على فرارهم ، وتركهم القتال[٤] .

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السَّابقين ، وهم جماعاتٌ كثيرةٌ ، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضَعُفُوا عن الجهاد بعد الَّذي أصابهم منه ، وما استكانوا للعدوِّ؛ بل ظلُّوا صابرين ثابتين في جهادهم ، وفي هذا تعريضٌ بالمسلمين الَّذين أصابهم الوهن ، والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ،

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٣٧ .

(٣) عَذَلَهُ عَذْلاً: لَامَهُ.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٠).

وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين ، واستكانتهم لهم ، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الرَّبَّانيِّين ، وبما قالوه: ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

وهذا القول ـ وهو إضافة الذُّنوب ، والإسراف إلى نفوسهم مع كونهم ربَّانيِّين ـ هضمٌ لها ، واعترافٌ منهم بالتَّقصير ، ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدَّمٌ على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدوِّ ، ليكون طلبُهم إلى ربِّهم النَّصر عن زكاةٍ ، وطهارةٍ ، وخضوعٍ ، وفي هذا تعليمٌ للمسلمين إلى أهمِّيَّة التَّضرُّع ، والاستغفار ، وتحقيق التَّوبة ، وتظهر أهمِّيَّة ذلك في إنزال النَّصر على الأعداء: ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي: وبذلك نالوا ثواب الدَّارين: النَّصر ، والغنيمة في الدُّنيا ، والثَّواب الحسن في الآخرة ، جزاءَ إحسانهم في أدب الدُّعاء والتَّوجُّه إلى الله ، وإحسانهم في موقف الجهاد ، وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين ، وخصَّ اللهُ تعالى ثواب الآخرة بالحُسْنِ دلالةً على فضله ، وتقدُّمه على ثواب الدُّنيا ، وأنَّه هو المعتمدُ عنده[1] .

خامساً: مخالفة وليِّ الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرُّماة لأمر النَّبيِّ ﷺ ، ووقوعهم في الخطأ الفظيع الَّذي قَلَبَ الموازين ، وأدَّى إلى الخسائر الفادحة الَّتي لحقت بالمسلمين ، ولكي نعرف أهمِّيَّة الطَّاعة لوليِّ الأمر؛ نلحظ أنَّ انخذال عبد الله بن أُبيٍّ ، ومن معه من المنافقين ، لم يؤثِّر على المسلمين ، بينما الخطأ الَّذي ارتكبه الرُّماة؛ الَّذين أحسن الرَّسولُ ﷺ ترتيبَهُمْ ، وأسند لكلِّ واحدٍ منهم عملاً ، ثمَّ خالفوا أمره ﷺ كان ضرره على المسلمين عامَّةً ، حيث سلَّط الله عليهم عدوَّهم ، وذلك بسبب عصيان الأوامر ، ثمَّ اختلطت أمورهم ، وتفرَّقت كلمتُهم ، وكاد يُقْضى على الدَّعوة الإسلاميَّة وهي في مهدها .

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثل الرُّماة لأوامر الرَّسول ﷺ ، وانقادوا لتعليمات قائدهم ، وأميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره ﷺ ، ونزل الرُّماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقيَّة الصَّحابة رضي الله عنهم[2] . قال تعالى: ﴿ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٤).
(٢) انظر: غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩ .

يقول الشَّيخ محمد بن عثيمين: «ومن آثار عدم الطَّاعة ما حصل من معصية بعض الصَّحابة رضي الله عنهم للنبيِّ ﷺ؛ وهم يجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، والَّذي حصل: أنَّه لمَّا كانت الغلبة للمؤمنين، ورأى بعض الرُّماة: أنَّ المشركين انهزموا؛ تركوا الموضع الَّذي أمرهم النَّبيُّ ﷺ ألاَّ يبرحوه، وذهبوا مع النَّاس، وبهذا كرَّ العدوُّ عليهم من الخلف، وحصل ما حصل من الابتلاء، والتَّمحيص للمؤمنين، وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلَّة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذه المعصية؛ الَّتي فات بها نصرٌ انعقدت أسبابُه، وبدأت أوائله، وهي معصيةٌ واحدةٌ، والرَّسول ﷺ بين أظهرهم، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟! ولهذا نقول: إنَّ المعاصي من آثارها: أنَّ الله يسلِّط بعض الظالمين على بعضٍ بما كانوا يكسبون، ويفوتهم من أسباب النَّصر، والعزَّة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم»[(١)].

إنَّ طاعة وليِّ الأمر أمرٌ ضروريٌّ، تأتي بعد طاعة الله ورسوله. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال العلماء: «نزلت الآية في الرَّعية من الجيوش وغيرهم، عليهم أن يطيعوا وُلاةَ الأمر، الفاعلين لذلك، في قَسْمهم وحكمهم، ومغازيهم، وغير ذلك»[(٢)].

إنَّ طاعة وليِّ الأمر «أصلٌ عظيم من أصول الواجبات الدِّينية، حتَّى أدرجها الأئمَّة في جملة العقائد الإيمانيَّة»[(٣)].

ولها أهمِّيَّة في تربية الأمَّة، وإقامة الدَّولة، ويمكن أن نلخِّص أهمِّيَّة الطَّاعة في النقاط الآتية:

١ ـ الامتثال لأمر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وطاعته فيما أمر. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

٢ ـ إنَّ طاعة وليِّ الأمر وسيلةٌ وليست غايةً؛ وسيلةٌ لإقامة شرع الله في الأرض، وإحقاق

---

(١) انظر: الطَّاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع، لمحمَّد بن العثيمين، نقلاً عن غزوة أحدٍ، ص ٢١١.
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٤٦).
(٣) بدائع السَّالك في طبائع الممالك، لابن الأزرق (١/ ٧٧).

الحقِّ ، وإقامة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر؛ لتحقيق خيرية هذه الأمَّة ، وإعلاء كلمة التَّوحيد ، وإفراد العبوديَّة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

٣ ـ اجتماع كلمة المسلمين؛ لأنَّ في الخلاف فساد أحوالهم ، في دينهم ، ودنياهم[١].

٤ ـ أن يستعينوا بها على إظهار دينهم ، وطاعة ربِّهم .

٥ ـ إنَّ فيها سعادةَ الدُّنيا .

ولهذا كان من أصول مذهب أهل السُّنَّة والجماعة : أننا : «لا نرى الخروج على أئمَّتنا وولاة أمورنا؛ وإن جاروا ، ولا ندعو عليهم ، ولا ننزع يداً مِنْ طاعتهم ، ونرى طاعتهم مِنْ طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهي فريضةٌ ، ما لم يأمروا بمعصيةٍ ، وندعوا لهم بالصَّلاح ، والمعافاة»[٢].

سادساً: خطورة إيثار الدُّنيا على الآخرة:

وردت نصوصٌ عديدةٌ من آياتٍ ، وأحاديث ، تبيِّن منزلة الدُّنيا عند الله ، وتصف زخارفها ، وأثرها على فتنة الإنسان ، وتحذِّر من الحرص عليها. قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤] ، وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

وقد حذَّر الرَّسول الكريم ﷺ أمَّته من الاغترار بالدُّنيا ، والحرص الشَّديد عليها في أكثر من موضع ، وذلك لما لهذا الحرص من أثر سيِّىءٍ على الأمَّة عامَّةً ، وعلى مَنْ يحملون لواء الدَّعوة خاصَّةً؛ ومن ذلك :

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وإنَّ الله مستخلفُكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدُّنيا ، واتَّقوا النِّساء؛ فإنَّ أوَّل فتنة بني إسرائيل كانت في النِّساء» [مسلم (٢٧٤٢) ، وأحمد (٣/ ٢٢) ، وابن حبان (٣٢٢١)] ويظهر للباحث أثر الحرص على الدُّنيا في غزوة أحدٍ .

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لمَّا هزم الله المشركين يوم أُحدٍ ، قال الرُّماة: «أدركوا النَّاس؛ ونبيَّ الله؛ لا يسبقوكم إلى الغنائم؛ فتكون لهم دونكم». وقال بعضهم: «لا نريم[٣]

(١) انظر : غزوة أحد دراسة دعويّة ، ص ٢٠٠ .
(٢) انظر : شرح العقيدة الطَّحاوية ، لابن أبي العز الحنفي ، تحقيق د. عبد الله التُّركي (٢/ ٥٤٠).
(٣) لا نريم: لا نبرح المكان. رام مكانه ريْماً: بَرِحَهُ.

حتَّى يأذن لنا النَّبيُّ ﷺ»[١] فنزلت: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال الطَّبريُّ: قوله سبحانه: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني الغنيمة. قال ابن مسعود: ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدُّنيا حتى نزل فينا يوم أحدٍ[٢]: ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾.

إنَّ الَّذي حدث في أُحدٍ، عبرةٌ عظيمةٌ للدُّعاة، وتعليمٌ لهم بأنَّ حبَّ الدُّنيا قد يتسلَّل إلى قلوب أهل الإيمان، ويخفى عليهم، فيؤثرون الدُّنيا، ومتاعها على الآخرة، ومتطلَّبات الفوز بنعيمها، ويعصون أوامر الشَّرع الصَّريحة؛ كما عصى الرُّماة أوامر الرَّسول ﷺ الصَّريحة بتأويلٍ ساقطٍ، يرفعه هوى النَّفس، وحبُّ الدُّنيا، فيخالفون الشَّرع، وينسون المحكم من أوامره، كلُّ هذا يحدث، ويقع من المؤمن؛ وهو غافلٌ عن دوافعه الخفيَّة، وعلى رأسها حبُّ الدُّنيا، وإيثارُها على الآخرة، ومتطلَّبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدُّعاة التَّفتيش الدَّائم الدَّقيق في خبايا نفوسهم، واقتلاع حبِّ الدُّنيا منها، حتَّى لا تحولَ بينهم وبين أوامر الشَّرع، ولا تُوقعهم في مخالفته بتأويلاتٍ ملفوفةٍ بهوى النَّفس، وتَلَفُّتها إلى الدُّنيا، ومتاعها[٣].

سابعاً: التَّعلُّق والارتباط بالدِّين:

قال ابن كثير: لمَّا انهزم مَنِ انهزم من المسلمين يوم أُحدٍ، وقُتل مَنْ قُتِل منهم، نادى الشَّيطانُ: ألا إن محمَّداً قد قُتل، ورجع ابنُ قميئةَ إلى المشركين، فقال لهم: قتلتُ محمَّداً، وإنَّما كان قد ضرب رسولَ الله ﷺ فشجَّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثيرٍ من النَّاس، واعتقدوا: أنَّ رسول الله ﷺ قد قُتِل، وجَوَّزوا عليه ذلك، كما قد قصَّ الله عن كثيرٍ من الأنبياء ـ عليهم السَّلام ـ فحصل ضعفٌ، ووهنٌ، وتأخُّرٌ عن القتال، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] أي: له أُسوةٌ بهم في الرِّسالة، وفي جواز القتل عليه[٤].

وقد جاء في تفسير الآية السَّابقة: «إنَّ الرُّسل ليست باقيةً في أقوامها أبداً، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت، ومهمَّة الرَّسول تبليغ ما أُرسل به؛ وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه، فلا خلودَ لأحدٍ في هذه الدُّنيا، ثمَّ قال تعالى منكراً على مَنْ حصل له ضعفٌ لموت

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٧٤).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٩٧).
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٤١).

النَّبيِّ ﷺ ، أو قتله : ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ أي : رجعتم القَهْقَرى ، وقعدتم عن الجهاد ، والانقلاب على الأعقاب يعني : الإدبار عمَّا كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلَّباته ، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الَّذين لم ينقلبوا ، أو ظلُّوا ثابتين على دينهم ، متَّبعين رسوله حيّاً ، أو ميتاً»[1] .

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب الَّتي حدثت للمسلمين يوم أُحدٍ : أنَّهم ربطوا إيمانهم ، وعقيدتهم ، ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته ، بشخص رسول الله ﷺ ، فهذا الرَّبط بين عقيدة الإيمان بالله ربّاً معبوداً وحدَه ، وبين بقاء شخص النَّبيِّ ﷺ خالداً فيهم خالطه الحبُّ المغلوب بالعاطفة ، الرَّبط بين الرِّسالة الخالدة وبين الرَّسول ﷺ البشر ؛ الَّذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصَّحابةَ رضي الله عنهم من الفوضى ، والدَّهشة ، والاستغراب ، ومتابعة الرَّسول ﷺ أساس وجوب التأسِّي به في الصَّبر على المكارِه ، والعمل الدَّائب على نشر الرِّسالة ، وتبليغ الدَّعوة ، ونصرة الحقِّ .

وهذا التَّأسِّي هو الجانب الأغرُّ من جوانب منهج رسالة الإسلام ، لأنَّه الدِّعَامَةُ الأولى في بناء مسيرة الدَّعوة لإعلاء كلمة الله ، ونشرها في آفاق الأرض ، وعدم ربط بقاء الدِّين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النَّبيِّ ﷺ في هذه الدُّنيا ، لا يلحقه فناءٌ بموتٍ ، أو قتلٍ ، وإيجاب متابعة الرَّسول ﷺ والتأسِّي به علماً ، وعملاً هما الوَشيجةُ العظمى لتماسك المجتمع المسلم ، ولا سيَّما الدُّعاة إلى الله من أتباعه[2] .

قال ابن القيِّم : «إنَّ غزوة أحدٍ كانت مقدِّمةً ، وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ ، فثبَّتهم ، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم ؛ إن مات رسول الله ﷺ ، أو قُتل ، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه ، وتوحيده ، ويموتوا عليه ، أو يُقتلوا ، فإنهم إنَّما يعبدون ربَّ محمَّدٍ ، وهو لا يموت ، فلو مات محمَّد ، أو قُتل ، لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه ، وما جاء به ، فكلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ، وما بُعِثَ محمَّد ﷺ ليخلَّد ، لا هو ، ولا هم ، بل ليموتوا على الإسلام والتَّوحيد ، فإنَّ الموت لابدَّ منه ، سواءٌ أمات رسول الله ﷺ ، أم بقي ، ولهذا وبَّخهم على رجوع مَنْ رجع منهم عن دينه لمَّا صرخ الشَّيطان : إنَّ محمَّداً قد قُتل ، فقال : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران : ١٤٤] .

والشَّاكرون هم الَّذين عرفوا قدر النِّعمة ، فثبتوا عليها ؛ حتَّى ماتوا ، أو قُتِلوا ، فظهر أثرُ هذا العتاب ، وحكمُ هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ ، وارتدَّ من ارتدَّ على عقبيه ، وثبت

---

(١) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٠) .
(٢) انظر : محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون ، (٣/ ٦١٦) .

الشَّاكرون على دينهم ، فنصرهم الله ، وأعزَّهم ، وظفَّرهم بأعدائهم ، وجعل العاقبة لهم»[١].

قال القرطبيُّ: « فهذه الآيـة من تـتِمَّـةِ العتـاب مـع المنهزمين ، أي: لـم يكن لهم الانهـزام وإن قُـتل محمَّد، والنُّبوَّة لا تَدْرأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء»[٢]. وكلامه ـ رحمه الله ـ نفيسٌ جدّاً ، فالَّذين ظنُّوا مِنْ قبل: أنَّ الإسلام قد انتهى بموت النَّبيِّ ﷺ ، والَّذين يظنُّون: أنَّ ظهور الإسلام ، ودعوته متوقفٌ على شخصٍ بعينه ، فهؤلاء ، وأولئك قد أخطؤوا ، ولم يقدِّروا هذا الدِّين قدره ، ولم يوفوه حقَّه؛ لأنَّ ظهور هذا الدِّين ، وهيمنته على كلِّ الأديان ، هو قدر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وسنته ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

فسبب ظهور هذا الدِّين: أنَّه حقٌّ ، وأنَّه هدىً[٣].

في غزوة أُحدٍ نزل التَّشريع الإلهيُّ بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أُحد ، وعند موت الرَّسول ﷺ جاء التَّطبيق؛ حيث «لمَّا تُوفِّي رسولُ الله ﷺ أقبل أبو بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه على فرسٍ من مَسكنَه بالسُّنْح ، حتَّى نزل ، فدخل المسجد ، فلم يكلِّم النَّاسَ ، حتَّى دخل على عائشة رضي الله عنها ، فتيمَّمَ[٤] رسولَ الله ﷺ وهو مُغَشَّىً بثوب حَبِرَةٍ[٥] ، فكشف عن وجهه ﷺ ، ثمَّ أكبَّ عليه ، فقبَّله ، وبكى ، ثُمَّ قال: بأبي أنت وأمِّي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين ، أمَّا الموتةُ التي كُتِبَتْ عليك ، فقدْ مُتَّها».

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: «إنَّ أبا بكر خرج ، وعمرُ يكلِّم النَّاسَ ، فقال: اجلس يا عمرُ! فأبى عمرُ أن يجلسَ ، فأقبل النَّاسُ إليه ، وتركوا عمرَ رضي الله عنه ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أمَّا بعدُ: مَنْ كان منكم يعبد محمَّداً ﷺ فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت. قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: والله لكأنَّ الناسَ لم يعلموا: أنَّ الله أنزل هذه الآية حتَّى تلاها أبو بكر ، فتلقَّاها منه النَّاسُ كلُّهم ، فما أسمعُ بشراً من النَّاس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيِّب: أنَّ عمر رضي

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

(٣) انظر: مرض النبي ﷺ ووفاته ، وأثر ذلك على الأمَّة لخالد أبو صالح ، ص ٢٠ نقلاً عن غزوة أحدٍ دراسة دعويَّة ، ص١٩١.

(٤) فتيمَّم: قصد.

(٥) الحِبَرةُ: نوعٌ من برود اليمن مخطَّطة غالية الثمن.

الله عنه قال: والله! ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكرٍ رضي الله عنه تلاها ، فَعَقِرْتُ[١]؛ حتَّى ما تُقلّني رجلاي ، وحتَّى أهويتُ إلى الأرض ، حين سمعتُه تلاها؛ علمت: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد مات» [البخاري (٤٤٥٤)].

ثامناً: معاملة النَّبيِّ ﷺ للرُّماة الَّذين أخطؤوا ، والمنافقين الَّذين انخذلوا:

أ ـ الرُّماة:

إنَّ الرُّماة الَّذين أخطؤوا الاجتهاد في غزوة أُحدٍ لم يُخرِجْهم الرَّسول ﷺ خارج الصَّفِّ ، ولم يقل لهم: إنَّكم لا تصلحون لشيءٍ من هذا الأمر بعدما بدا منكم في التَّجربة من النَّقص ، والضَّعف ، بل قبل ضعفهم هذا في رحمةٍ ، وعفوٍ ، وفي سماحةٍ ، ثمَّ شمل ـ سبحانه وتعالى ـ برعايته وعفوه جميع الَّذين اشتركوا في هذه الغزوة ، رغم ما وقع مِنْ بعضهم مِنْ أخطاءٍ جسيمةٍ ، وما ترتَّب عليه مِنْ خسائرَ فادحةٍ ، فعفا ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم عفواً غسل به خطاياهم ، ومحا به آثار تلك الخطايا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وهناك أمرٌ مهمٌّ يتَّصل بهذا العفو ، قد يترك أثراً في نفوسهم يعوِّقها بعض الشَّيء ، ذلك هو موقف رسول الله ﷺ ممَّا حدث منهم؛ إنَّهم يشعرون: أنَّ الرَّسول ﷺ هو وحده الَّذي تحمَّل نتيجة تلك الأخطاء ، فلابدَّ أن ينالوا منه عفواً؛ تطيب به نفوسهم ، وتتمُّ به نعمة الله عليهم؛ لهذا أمر الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيَّه ﷺ بأن يعفو عنهم ، وحثَّهُ على الاستغفار لهم ، كما أمره أن يأخذ رأيهم ، والاستماع إلى مشورتهم ، ولا يجعل ما حدث صارفاً له عن الاستفادة من خبراتهم ، ومشورتهم[٢].

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ب ـ انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمئةٍ من المنافقين ، أن يُحدث بلبلةً ، واضطراباً في الجيش الإسلاميِّ؛ لتنهار معنويَّاته ، ويتشجَّع العدو ، وتعلو همَّته. وعملُه هذا ينطوي على

---

(١) عُقرت: أي هلكت ، وفي رواية: فَعِقِرت: أي دهشت ، وتحيَّرت ، أو سقطت.

(٢) انظر: غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص٢١٨.

استهانةٍ بمستقبل الإسلام ، وغدرٍ به في أحلك الظُّروف ، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخذال ، إلا أنَّهم رفضوا دعوته[١] ، وفيهم نزل قول الله تعالى : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

فبالرَّغم من خطورة الموقف ، وحاجة المسلمين لهذا العدد لقلَّة جيش المسلمين ، وكثرة جيش قريش ، إلا أنَّ الرَّسول ﷺ ترك هؤلاء المنافقين ، وشأنهم ، ولم يُعِرْهم أيَّ اهتمام ، واكتفى بفضح أمرهم أمام النَّاس[٢] ، وكان لهذا الأسلوب أثرُه في توبيخ وإهانة ابن سلولٍ ، فعندما رجع رسول الله ﷺ من غزوته من حمراء الأسد ، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحثِّ النَّاس على طاعة رسول الله ﷺ .

قال الإمام الزُّهريُّ : كان عبد الله بن أُبيٍّ له مقامٌ يقومه كلَّ جمعة ؛ لا ينكسر له شرفٌ في نفسه ، وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس رسولُ الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب النَّاسُ ؛ قام ، فقال : أيُّها النَّاسُ ، هذا رسولُ الله بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزَّكم به ، فانصروه ، وعزِّروه ، واسمعوا له ، وأطيعوا ، ثمَّ يجلس ، حتى إذا صنع يوم أُحد ما صنع ، ورجع النَّاس ، قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه مِنْ نواحيه ، وقالوا : اجلس أي عدوَّ الله ! والله لستَ لذلك بأهلٍ ؛ وقد صنعتَ ما صنعتَ ! فخرج يتخطَّى رقابَ النَّاس ؛ وهو يقول : والله لكأنَّما قلتُ بُجَراً[٣] ؛ أن قمت أشدِّد أمره ، فلقيه رجالٌ من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا : ويلك ! ما لك ؟ قال : قمت أشدِّد أمره ، فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجبذونني ، ويعنفونني ، لكأنَّما قلت بُجَراً أن قمت أشدِّد أمره ، قالوا : ويلك ! ارجعْ يستغفرْ لك رسول الله . قال : والله ! ما أبغي أن يستغفر لي[٤] .

تاسعاً : «أُحد جبل يُحبُّنا ونحبُّه» :

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال : إنَّ النَّبيَّ ﷺ طَلَعَ لَه أُحُدٌ ، فقال : «هذا جبلٌ يُحِبُّنا ، ونُحبُّه» [البخاري (٤٠٨٤) ومسلم (١٣٦٥)].

وهذا يدلُّ على دقَّة شعور النَّبيِّ ﷺ ؛ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصُّن ، والاحتماء بذلك الجبل ، وما أودعه الله تعالى فيه من قابليَّةٍ لذلك ، فعبَّر عن ذلك بأرقى وشائج

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٢١٩ .

(٢) انظر : غزوة أُحد دراسة دعويَّة ، ص ٢٢٠ .

(٣) بُجَراً : شراً . ويُقال : ذكرَ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ ؛ أي : عيوبه ، وأمرَه كلَّه .

(٤) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٥٣) ، وسيرة ابن هشام (شأن عبد الله بن أُبي بعد ذلك) .

الصِّلة ، وهي المحبَّة ، أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحيُّ ، والإحساس المرهف مثلاً أعلى على التخلُّق بخلق الوفاء؟!

ألا وإنَّ الَّذي يعترف بفضل الحجارة الصمَّاء ، ويُضفي عليها من الأخلاق السَّامية ما لا يتَّصف به إلا أفاضل العقلاء لجديرٌ به أن يعترف بأدنى فضلٍ يكون من بني الإنسان ، وإذا كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سَمَا حتَّى حاز أرقى العبارات وأرقَّها؛ فأَخْلِقْ ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم مِنْ ذلك ، فضلاً عمّن تجمعه بهم الأخوَّة في الله تعالى![1].

والحديث النَّبويُّ الشَّريف فيه كثيرٌ من المعاني؛ منها ما ذكره الحميديُّ ، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشَّامي؛ حيث قال: والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها ، أو زمانها ، وحتَّى لا تنسحبَ هذه العادة ، وتستمر بعد أن جاء الإسلام ، كان هذا القول الكريم بياناً للحقِّ ، وابتعاداً عن الطِّيَرَة ، والتَّشاؤم ، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السَّيئة في نفس الإنسان ، ولا شكَّ: أن المسلمين سيقفون على أُحدٍ ، يتذكرون تلك المعركة ، فحتَّى لا يرتبطَ بفكرهم ذلك المعنى السَّيىء ، بيَّن لهم: أن المكان ، والزَّمان مخلوقاتٌ لله ، لا علاقة لهما ، ولا أثر بما يحدث فيهما ، وإنَّما الأمورُ بيد الله تعالى ، والاستشهادُ في سبيل الله كرامةٌ لصاحبه ، لا مصيبةٌ ، وهكذا تتساوى المفاهيم في إطارها الإيمانيِّ ، وإذا «أُحُدٌ» يُكرَمُ ، ويُحَبُّ انطلاقاً من هذا القول الكريم ، وكيف لا يُكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزةُ ، وأصحابه ، ممَّن اختارهم الله في ذلك اليوم ، فجادوا بأنفسهم ابتغاءَ مرضاته؟![2].

عاشراً: الملائكة في أُحدٍ:

قال سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه: رأيتُ عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أُحدٍ رجلين عليهما ثيابُ بياضٍ ، يقاتلان عنه كأشدِّ القتال ، ما رأيتُهما قبلُ ، ولابعدُ ـ يعني: جبريلَ ، وميكائيلَ عليهما السَّلام ـ [البخاري (٤٠٥٤) ، ومسلم (٢٣٠٦)].

وهذا خاصٌّ بالدِّفاع عن النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الله تكفَّل بعصمته من النَّاس ، ولم يصحَّ: أنَّ الملائكة قاتلت في أُحدٍ سوى هذا القتال ـ وإنْ وعدهم الله تعالى أنْ يمدَّهم ـ؛ لأنه جعل وعده معلقاً على ثلاثة أمورٍ: الصَّبر ، والتَّقوى ، وإتيان الأعداء من فورهم ، ولم تتحقَّق هذه الأمور ، فلم يحصل الإمداد[3].

قال تعالى: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/١٩٨).
(٢) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٢٧.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ٢/٣٩١.

إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٤ ـ ١٢٥].

حادي عشر: قوانين النَّصر والهزيمة من سورة الأنفال، وآل عمران:

تحدَّثت سورة الأنفال عن غزوة بدرٍ بشيءٍ من التَّفصيل، وتحدَّثت سورة آل عمران عن غزوة أُحدٍ، لكي تتعلَّم الأمَّة كثيراً من المفاهيم، تتعلَّق بمفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الحياة والموت، ومفهوم النَّصر والهزيمة، ومفهوم الرِّبح والخسارة، ومفهوم الإيمان والنِّفاق، ومفهوم المحنة والمحق... إلخ، ومن المفاهيم الَّتي تعلَّمها الصَّحابة رضي الله عنهم من خلال أحداث بدرٍ، وأحدٍ، وسورتي الأنفال، وآل عمران قوانينُ النَّصر والهزيمة، وهذه القوانين قد بيَّنتها الآيات الكريمة، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ ـ النَّصر ابتداءً وانتهاءً بيد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وليس مُلْكاً لأحدٍ من الخلق، يهبه الله لمن يشاء، ويصرفه عمَّن يشاء، مثله مثل الرِّزق، والأجل، والعمل: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١٠].

٢ ـ وحين يقدِّر الله تعالى النَّصر؛ فلن تستطيع قوى الأرض كلُّها الحيلولة دونه، وحين يقدِّر الهزيمة؛ فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمَّة. قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٣ ـ ولكنَّ هذا النَّصر له نواميسُ ثابتةٌ عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ نحن بحاجةٍ إلى فقهها، فلابدَّ أن تكون الرَّاية خالصةً لله سبحانه عند الَّذين يمثِّلون جنده. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، ونصرُ الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه، والجهاد في سبيله.

٤ ـ ووحدة الصَّفِّ ووحدة الكلمة أساسٌ في النَّصر. وتفريقُ الكلمة، والاختلاف في الرأي دمارٌ وهزيمةٌ. قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٥ ـ وطاعة أمر الله تعالى، ورسوله ﷺ وعدم الخروج عليها أساسٌ في النَّصر، أمَّا المعصية؛ فتقود إلى الهزيمة. قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٦ ـ وحب الدُّنيا، والتَّهافت عليها يُفْقِدُ الأمَّة عون الله، ونصره. قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

٧ ـ ونقص العدد والعُدَّة ليس هو سبب الهزيمة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

٨ ـ ولكن لابدَّ من الإعداد الماديِّ، والمعنويِّ لمواجهة العدوِّ[١]. قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٩ ـ والثَّبات عند المواجهة، والصَّبر عند اللِّقاء، من العوامل الرَّئيسية في النَّصر. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

١٠ ـ ولا شيء يعين على الثبات والصَّبر عند اللِّقاء، مثل ذكر الله الكثير، باتجاه القلب إلى الله وحده منزِّل النَّصر، وطلب العون منه، والتوكُّل عليه، وعدم الاعتماد على العدد، أو العدَّة، أو الذَّات، والتَّبرُّؤ من الحول، والقوَّة، هو عاملٌ أساسيٌّ من عوامل النَّصر[٢]. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثاني عشر: فضل الشُّهداء وما أعدَّه الله لهم من نعيمٍ مقيمٍ:

قال رسول الله ﷺ: لما أُصيب إخوانكم بأُحدٍ، جعل اللهُ أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أنهارَ الجنَّة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهبٍ في ظلِّ العرش، فلمَّا وجدوا طيبَ مشربهم، ومأكلهم، وحُسْنَ مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلُوا[٣] عن الحرب! فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على رسوله ﷺ هذه الآيات. [أحمد (١/٢٦٦)، وأبو داود (٢٥٢٠)، وأبو يعلى (٢٣٣١)][٤].

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، للغضبان، ص ٤٦٣.
(٣) نكل عن الأمر نكولاً: نكص.
(٤) انظر: تفسير الطَّبري (٤/ ١٧٠)، وسيرة ابن هشام (مصير قتلى أُحد).

وقد جاء في تفسير الآيات السَّابقة ما رواه الواحديُّ عن سعيد بن جبير: أنَّه قال: لمَّا أُصيب حمزةُ بن عبد المطَّلب، ومصعب بن عمير يوم أُحدٍ، ورأوا ما رزقوا من الخير؛ قالوا: ليت إخوانَنا يعلمون ما أصابنا من الخير؛ كي يزدادوا في الجهاد رغبةً، فقال الله تعالى: أنا أبلِّغهم عنكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وروى مسلمٌ بسنده عن مسروقٍ، قال: سألنا عبدَ الله بن مسعودٍ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قال: أَمَا إِنَّا قد سأَلْنا عن ذلك، فقال: «أرواحُهم في جوف طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ معلَّقةٌ بالعرش، تسرح من الجنَّة حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطَّلَعَ إليهم ربُّهم اطِّلاعةً، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيَّ شيءٍ نشتهي؛ ونحن نَسْرَحُ من الجنَّة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأوا: أنهم لن يُتْرَكُوا من أن يُسْألوا، قالوا: يا ربِّ! نريد أن تَـرُدَّ أرواحَنا في أجسادنا؛ حتَّى نُقْتَلَ في سبيلك مرَّةً أخرى، فلمَّا رأى أن ليس لهم حاجةٌ؛ تُرِكُوا» [مسلم (١٨٨٧)].

ثالث عشر: الهجوم الإعلاميُّ على المشركين:

كان الإعلام في العهد النَّبويِّ يقوم على الشِّعر، وكان شعراء المشركين في بدرٍ في موقف الدِّفاع والرِّثاء، وفي أُحدٍ حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النَّصر، فجعلوا من الحبة قبَّةً، وأمام هذا الكبرياء المزيّف انبرى حسَّان بن ثابتٍ، وكعب بن مالكٍ، وعبد الله بن رواحة للردِّ على حملات المشركين الإعلاميَّة؛ الَّتي قادها شعراؤهم؛ كهبيرة ابن أبي وهبٍ، وعبد الله بن الزِّبعرى، وضرار بن الخطَّاب، وعمرو بن العاص[2].

وكانت قصائد حسَّان كالقنابل على المشركين، وقد أشاد بشجاعة المسلمين، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملةَ لواءِ المشركين، ويُوبِّخ المشركين، ويصفهم بالجبن حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم، حتَّى كان في النِّهاية بيد امرأةٍ منهم، وولَّى أشرافُهم، وتركوه، وفي هذا الهجاء تذكيرٌ للمشركين بمواقف الذُّلِّ، والجبن؛ الَّتي تعرَّضوا لها في بداية المعركة، حتَّى لا يغترُّوا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسَّان من المشركين مقتلاً، حينما عَيَّرَهم بالتخلِّي عن اللِّواء، وإقدام امرأةٍ

(١) انظر: أسباب النزول، للواحديِّ، ص ١٢٥، وتفسير الطَّبريِّ (٤/ ٢٦٩).
(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

منهم على حمله ، وهذا يتضمَّن وصفهم بالجُبْنِ الشَّديد ، حيث أقدمتِ امرأةٌ على ما نَكَلُوا عنه[١].

وممَّا قاله في شأن عَمرة بنت علقمة الحارثيَّة ، ورفعها اللِّواء:

إِذَا عَضَـلٌ سِيْقَـتْ إِلَيْنَـا كَـأَنَّهَـا ... جِـدَايَـةُ شِـرْكٍ مُعْلِمَـاتِ الحَـوَاجِـبِ[٢]

أَقَمْنَـا لَهُـمْ طَعْنـاً مُبِيـراً مُنَكِّـلاً ... وحُزْنَـاهُـمُ بـالضَّـرْبِ مِنْ كـلِّ جَانِـبِ[٣]

فَلَـوْلاَ لِـوَاءُ الحَـارِثِيَّـةِ أَصْبَحُـوا ... يُبَـاعـون فـي الأَسْـوَاقِ بَيْـعَ الجَـلائِـبِ[٤]

وعندما أخذ اللِّواءَ من الحارثيَّة غلامٌ حبشيٌّ لبني أبي طَلْحَةَ ـ وكان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثيَّة ـ وقاتل به قتالاً عنيفاً قتل على أثره ، فرمى حسان بن ثابتٍ أبياته في هذا الموضوع ، فقال:

فَخَـرْتُـمْ بـاللِّـواءِ وَشَـرُّ فَخْـرٍ ... لِـوَاءٌ حِيْـنَ رُدَّ إلـى صُـؤابِ

جَعَلْتُـمْ فَخْـرَكُـمْ فِيْـهِ بِعَبْـدٍ ... وَأَلأَم مَـنْ يَطَـا عَفَـرَ التُّـرَابِ

ظَنَنْتُـمْ والسَّفِيْـهُ لَـهُ ظُنُـونٌ ... وَمَـا إِنْ ذَاكَ مِـنْ أَمْـرِ الصَّـوَابِ[٥]

وممَّا قاله كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في الردِّ على بعض شعراء قريش:

أَبْلِـغْ قُـرَيْشـاً وَخَيْـرُ القَـوْلِ أَصْـدَقُـهُ ... والصِّـدْقُ عِنْـدَ ذَوِي الأَلْبَـابِ مَقْبُـولُ[٦]

أَنْ قَـدْ قَتَلْنَـا بِقَتْـلاَنَـا سَـرَاتَكُـمُ ... أَهْـلَ اللِّـوَاءِ فَفِيْمَـا يَكْثُـرُ القِيْـلُ

وَيَـوْمَ بَـدْرٍ لَقِيْنَـاكُـمْ لَنَـا مَـدَدٌ ... فِيْـهِ مَـعَ النَّصْـرِ مِيْكَـالٌ وَجِبْـرِيْـلُ

إِنْ تَقْتُلُـونَـا فَـدِيْـنُ الْحَـقِّ فِطْـرَتُنَـا ... وَالقَتْـلُ فِـي الحَـقِّ عِنْـدَ الله تَفْضِيْـلُ

وَإِنْ تَـرَوا أَمْـرَنَـا فِـي رَأْيِكُـمْ سَفَهـاً ... فَـرَأْيُ مَـنْ خَـالَـفَ الإِسْـلاَمَ تَضْلِيْـلُ[٧]

وَمِنْ أعجب ما قرأت في المعركة الإعلاميَّة بين المسلمين ، والمشركين محاولةُ ضرار بن الخطَّاب قبل إسلامه أن يفتخر ببدرٍ على اعتبار النَّصر كان لرسول الله ﷺ والمهاجرين ، وفي ذلك قوله:

فَـإِنْ تَظْفَـرُوا فِـي يَـوْمِ بَـدْرٍ فَـإِنَّمَـا ... بِـأَحْمَـدَ أَمْسَـى جَـدُّكُـمْ وَهُـوَ ظَـاهِـرُ

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٥/ ٢١).

(٢) عضل: اسم قبيلة ابن خزيمة. الجداية: الصَّغير من أولاد الظِّباء.

(٣) مُبيراً: مهلكاً ومنكلاً: قامعاً لهم ولغيرهم.

(٤) الجلائب: ما يجلب إلى الأسواق؛ ليباع فيها.

(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٨٧).

(٦) الألباب: العقول.

(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ١٦٤).

وَبِالنَّفَرِ الأَخْيَارِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ يُحَامُوْنَ فِي اللأْوَاءِ وَالْمَوْتُ حَاضِرُ
يُعَدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيْهِمُ وَيُدْعَىٰ عَنْ عَلِيٍّ وَسْطَ مَنْ أَنْتَ ذاكرُ
وَيُدْعَىٰ أَبُو حَفْصٍ وَعُثْمَانُ مِنْهُمُ وَسَعْدٌ إِذَا مَا كَانَ فِي الْحَرْبِ حاضرُ
أُولئكَ لاَ مَنْ نَتَّجَتْ مِنْ دِيَارِهَا بَنُو الأَوْسِ والنَّجَّارِ حِيْنَ تُفَاخِرُ[1]

وهكذا حوَّلها إلى لغة قبليةٍ ، تقوم على مفاهيم جاهليَّةٍ ، ولقد أجابه كعبٌ رضي الله عنه :

وفينا رسولُ الله والأوْسُ حَوْلَهُ لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيْزٌ وَنَاصِرُ
وجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لِوَائِهِ يُمْشُونَ فِي المأذَىٰ والنَّقْعُ ثَائِرُ

إلى أن قال :

وَكَانَ رَسُوْلُ اللهِ قَدْ قَالَ: أَقْبِلُوا فَولَّوا وقالُوا: إنَّما أَنْتَ سَاحِرُ
لأمْرٍ أرَادَ اللهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ ولَيْسَ لأَمْرٍ حَمَّه النَّارُ زَاجِرُ

كما أجابه بقوله :

وَبِيَوْمِ بَدْرٍ إِذْ نَرُدُّ وُجُوْهَهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وهو أفخرُ بيتٍ قالته العرب ـ كما قال صاحب العِقد الفريد ـ[2] .

* * *

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص٢٥٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه .

الفصل العاشر
أهمُّ الأحداث ما بين أحدٍ والخندق

المبحث الأوَّل
محاولات المشركين لزعزعة الدَّولة الإسلاميَّة

كانت غزوة أُحدٍ مشجِّعةً لأعداء الدَّولة الإسلاميَّة على مواجهتها ، وساد الشُّعورُ لدى الأعراب المشركين بإمكان مناوشة المسلمين ، والتَّغلُّب عليهم ، واتَّجهت أنظار المشركين من الأعراب إلى غزو المدينة ؛ لاستئصال شَأْفَتِهم[١] ، وكسر شوكتهم ، فطمعت بنو أسد في الدَّولة الإسلاميَّة ، وشرع خالد بن سفيان الهُذليُّ لجمع الحشود؛ لكي يهاجم بها المدينة ، وتجرَّأت عَضَل وقارَة[٢] على خداع المسلمين ، وقام عامر بن الطُّفَيل بقتل القُرَّاء الدُّعاة الآمنين ، وحاولت يهود بني النَّضير أن تغتال رسولَ الله ﷺ ، فتصدَّى لهذه المحاولات الماكرة الحبيبُ المصطفى ﷺ بشجاعةٍ فائقةٍ ، وسياسةٍ ماهرةٍ ، وتخطيطٍ سليمٍ ، وتنفيذٍ دقيقٍ.

أولاً : طمع بني أسدٍ في الدَّولة الإسلاميَّة :

بلغت النَّبيَّ ﷺ بواسطة عيونه المنبثة في الجزيرة العربيَّة أخبارُ الاستعدادات الَّتي قام بها بنو أسدِ بن خزيمة بقيادة طُلَيْحة الأسديِّ من أجل غزو المدينة؛ طمعاً في خيراتها ، وانتصاراً لشركهم ، ومظاهرةً لقريش في عدوانها على المسلمين ، فسارع النَّبيُّ ﷺ إلى تشكيل سريةٍ من مئةٍ وخمسين رجلاً من المهاجرين ، والأنصار ، وأمَّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد[٣] المخزوميَّ ، وعقد له لواءً ، وقال له : سِرْ حتَّى تنزلَ أرض بني أسد ، فأغِرْ عليهم قبل أن تتلاقى عليك جموعُهم[٤] ، فسار إليهم أبو سلمةَ في المحرَّم[٥] ، فأغار على أنعامهم ، ففرُّوا مِنْ

---

(١) استأصل الله شَأْفَتَهُ: أزاله من أصله.
(٢) عضل والقارة: بطنان من الهون ، (الهون) بن خزيمة بن مدركة.
(٣) انظر : نضرة النعيم (١/ ٣١٣).
(٤) انظر : قراءة سياسية للسيرة النبوية ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(٥) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢٤٣).

وجهه؛ فأخذها، ولم يلقَ عناءً في تشتيت أعداء الإسلام، وعاد إلى المدينة مظفَّراً. وأبو سلمةَ يعدُّ من السَّابقين إلى الإيمان، ومن خيرة الرَّعيل الأوَّل، وقد عاد من هذه الغزوة متعباً؛ إذ نَفَر جرحُه الَّذي أصابه في (أُحدٍ) فلم يلبث حتَّى مات[١].

ونلحظ في هذه السَّريَّة عدَّة أمورٍ؛ منها: الدِّقَّة في التَّخطيط الحربيِّ عند النَّبيِّ ﷺ؛ حيث فرَّق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجيء سريَّة أبي سلمة؛ وهم يظنُّون: أنَّ المسلمين قد أضعفتهم وقعة أُحدٍ، وأذهلتْهم عن أنفسهم، فأُصيب المشركون بالرُّعب من المسلمين، ووَهَنتْ عزيمتُهم، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة. وتظهر دقَّة المسلمين في الرَّصد الحربيِّ، واختيارهم التَّوقيت الصَّحيح، والطَّريق المناسبة؛ حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أيَّ شيءٍ رغم بُعْدِ المسافة، وكان هذا هو أهمُّ عوامل نجاح المسلمين في هذه السَّريَّة، وتركت هذه السَّريَّة في نفوس الأعداء شعوراً مؤثِّراً على معنويَّاتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء، والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة، الَّتي تجعلهم يمتلئون رعباً منهم، ويتوقَّعون الإغارة في أيِّ وقتٍ، وهذا الشُّعور حملهم على الاعتراف بقوَّة المسلمين، ومسالمتهم[٢].

ثانياً: خالد بن سفيان الهُذليُّ وتصدِّي عبد الله بن أنيسٍ رضي الله عنه له:

قام خالد بن سفيان الهذليُّ يجمِّع المقاتلة من هُذَيْلٍ وغيرها في عرفات، وكان يتهيَّأ لغزو المسلمين في المدينة؛ مظاهرةً لقريشٍ، وتقرُّباً إليها، ودفاعاً عن عقائدهم الفاسدة، وطمعاً في خيرات المدينة؛ فأرسل رسولُ الله ﷺ الصَّحابيَّ عبدَ الله بن أُنَيْس الجُهَنيَّ إليه بعد أن كلَّفه مهمَّة قتله[٣]، وهذا عبد الله بن أنيس يحدِّثنا بنفسه، قال رضي الله عنه: دعاني رسول الله ﷺ، فقال: «إنَّه قد بلغني: أنَّ خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي النَّاس؛ ليغزوني، وهو بعرنة، فائته، فاقتله»، قال: قلت: يا رسولَ الله، انعته حتَّى أعرفه، قال: «إذا رأيته وجدت له قُشَعريرةً»[٤].

قال: فخرجتُ متوشحاً سيفي، حتَّى وقعتُ عليه بعرنة مع ظَعْنٍ يرتاد لهنَّ منزلاً، حين كان وقت العصر، فلمَّا رأيتُه وجدت ما وصف لي رسول الله من القُشَعريرة، فأقبلتُ نحوه، وخشيتُ أن يكون بيني وبينه محاولةٌ تشغلني عن الصَّلاة، فصلَّيتُ وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي الرُّكوع، والسُّجود، فلمَّا انتهيت إليه قال: مَنِ الرَّجلُ؟ قلت: رجلٌ من العرب سمع بك،

(١) فقه السِّيرة، للغزالي، ص ٢٧٤.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٦/٢٣).
(٣) انظر: نضرة النَّعيم (١/٣١٣).
(٤) القُشعريرةُ: الرِّعدةُ.

وبجمعك لهذا الرَّجل ، فجاءك لهذا ، قال: أجل أنا في ذلك ، قال: فمشيت معه شيئاً ، حتَّى إذا أمكنني حملت عليه بالسَّيف حتَّى قتلتُه ، ثمَّ خرجت ، وتركت ظعائنه مكبَّاتٍ عليه ، فلمَّا قدمت على رسول الله ﷺ فرآني ، فقال: «أفلح الوجه» ، قال: قلت: قتلتُه يا رسول الله! قال: «صدقت» ، قال: ثمَّ قام معي رسول الله فدخل في بيته ، فأعطاني عصاً ، فقال: «أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أُنَيْس!» .

قال: فخرجت بها على النَّاس ، فقالوا: ما هذه العصا؟ قال: قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ ، وأمرني أن أمسكَها ، قالوا: أوَ لا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فقلت: يا رسول الله! لِمَ أعطيتني هذه العصا؟ قال: «آيةٌ بيني وبينك يوم القيامة ، إن أقلَّ النَّاس المختصرون[1] يومئذ يوم القيامة» فقرنها عبد الله بسيفه ، فلم تزل معه ، حتَّى إذا مات أمر بها ، فضمَّت معه في كفنه ، ثمَّ دُفنا جميعاً . [أحمد (٣/٤٩٦) ، وأبو يعلى (٩٠٥) ، ومجمع الزوائد (٦/٢٠٣) ، وأبو داود مختصراً (١٢٤٩)].

وفي هذا الخبر فوائدُ ، ودروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ دقَّة الرَّصد الحربيِّ:

كان رسول الله ﷺ يعطي للجانب الأمنيِّ أهمِّيَّته ، ولذلك كان يتابع تحرُّكات الأعداء ، ويعدُّ بعد ذلك الحلول المناسبة للمشكلات ، والأزمات في وقتها الملائم ، ولذلك لم يمهل خالد بن سفيان حتَّى يكثر جمعُه ، ويشتدَّ ساعدُه؛ بل عمل على القضاء على الفتنة وهي في أيَّامها الأولى بحزمٍ ، وبذلك حقَّق للأمَّة مكاسب كبيرةً ، وقلَّل الخسائر المتوقَّعة من مجيء خالد بن سفيان بجيشٍ لغزو المدينة ، وهذا العمل يحتاج لقدرةٍ في الرَّصد الحربيِّ ، وسرعةٍ في اتِّخاذ القرار.

٢ ـ فِراسَةُ[2] النَّبيِّ ﷺ في اختيار الرِّجال:

كان ﷺ يتمتَّع بفراسَةٍ عظيمةٍ في اختيار الرِّجال ، ومعرفةٍ كبيرةٍ لذوي الكفاءات من أصحابه ، فكان يختار لكلِّ مهمَّةٍ مَنْ يناسبها ، فيختار للقيادة مَنْ يجمع بين سداد الرَّأي ، وحسن التَّصرُّف والشَّجاعة ، ويختار للدَّعوة والتَّعليم مَنْ يجمع بين غزارة العلم ، ودَمَاثَةِ[3] الخُلُق والمهارة في اجتذاب النَّاس ، ويختار للوِفَادة على الملوك والأمراء مَنْ يجمع بين حُسْنِ المظهر ، وفصاحة اللِّسان ، وسرعة البديهة ، وفي الأعمال الفدائيَّة يختار مَن يجمع بين

---

(١) المختصرون ، أو المتخصرون: والمراد هنا يأتون يوم القيامة ومعهم أعمال صالحةٌ يتَّكئون عليها.
(٢) فرسَ الأمرَ فِرَاسَةً: أدرك باطنَه بالظنِّ الصائب.
(٣) دمُثَ دَمَاثَةً وَدُموثَةً: سَهُلَ خُلُقُهُ.

الشَّجاعة الفائقة ، وقوَّة القلب ، والمقدرة على التحكُّم في المشاعر[١] . وقد كان عبد الله بن أُنَيس الجُهَنيُّ قويَّ القلب ، ثبت الجنان ، راسخ اليقين ، عظيم الإيمان[٢] ، وبجانب هذه الصِّفات العظيمة التي أهَّلته لهذه المهمَّة ، فهناك سببٌ آخر ، فقد كان يمتاز بمعرفة مواطن تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه «جُهَينة»[٣] .

٣ ـ المكافأة على هذا العمل أخروية :

لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء ، مادِّيةً دنيويَّةً ـ كما يتمنَّاه الكثير ممَّن يقوم بالمهمات الشَّاقَّة في جيوش العالم قديماً ، وحديثاً ـ بل كانت أسمى من ذلك ، وأعظم ؛ فهي وسام شرفٍ أخرويٍّ قليلٌ مَنْ يناله[٤] ، فقد كان الصَّحابة رضي الله عنهم وسائرُ المتَّقين لا ينتظرون جزاءً في الدُّنيا ـ ولو حصلوا على شيءٍ من متاع الدُّنيا فإنَّه لا يعتبر عندهم شيئاً كبيراً ؛ وإنَّما ينتظرون جزاءهم في الآخرة ، ولهذا كانت مكافأة عبد الله بن أنيسٍ تلك العصا ؛ الَّتي ستكون علامةً بينه وبين رسول الله ﷺ يوم القيامة ، وهذا يدلُّ على علوِّ مكانته في الآخرة[٥] .

٤ ـ بعض الأحكام الفقهيَّة :

تضمَّن هذا الخبر بعض الأحكام ، والفوائد ؛ منها : (صلاة الطَّالب) . قال الخطَّابيُّ : واختلفوا في صلاة الطَّالب ، فقال عوام أهل العلم : إذا كان مطلوباً كان له أن يُصَلِّيَ إيماءً ، وإذا كان طالباً نزل إن كان راكباً ، وصلَّى بالأرض راكعاً ، وساجداً[٦] ، وكذلك قال ابن المنذر[٤] ، أمَّا الشَّافعيُّ فشرط شرطاً لم يشترطه غيره ، قال : إذا قلَّ الطَّالبون عن المطلوبين وانقطع الطَّالبون عن أصحابهم ، فيخافون عودة المطلوبين عليهم ، فإذا كان هكذا ؛ كان لهم أن يصلُّوا يومئون إيماءً .

قال الخطَّابيُّ : وبعض هذه المعاني موجودةٌ في قصَّة عبد الله بن أُنيس[٧] .

وقد ذكر بدر العيني في عمدة القاري مذاهب الفقهاء في هذا الباب ، فعند أبي حنيفة إذا كان الرَّجل مطلوباً ؛ فلا بأس بصلاته سائراً ، وإن كان طالباً ؛ فلا ، وقال مالكٌ ، وجماعةٌ من أصحابه : هما سواءٌ ، كلٌّ واحدٍ منهما يصلِّي على دابَّته .

---

(١) انظر : التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/ ٢٧) .
(٢) انظر : محمد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/ ٥٠ ـ ٥١) .
(٣) انظر : غزوة أحد ، لمحمد باشميل ، ص ٣١ .
(٤) انظر : السرايا والبعوث النبوية ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .
(٥) انظر : التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/ ٢٩) .
(٦) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٦٠ .
(٧) انظر : معالم السُّنن ، للخطَّابي (٢/ ٤٢) على سنن أبي داود ، حاشية رقم (١) .

وقال الأوزاعيُّ ، والشَّافعيُّ في آخرين كقول أبي حنيفة ، وهو قول عطاء ، والحسن والثَّوريُّ ، وأحمد ، وأبي ثور .

وعن الشَّافعيِّ : إن خاف الطَّالب فوت المطلوب ؛ أومأ ، وإلاَّ ؛ فلا[١] .

٥ ـ جواز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ ﷺ :

يجوز الاجتهاد في زمن النَّبيِّ ﷺ ؛ فعبد الله بن أنيس رضي الله عنه أدَّاه اجتهاده أن يصلِّي هذه الصَّلاة ، ولم ينكر عليه ﷺ ممَّا يدلُّ على جواز الصَّلاة عند شدَّة الخوف بالإيماء[٢] .

وهذا الاستدلال صحيحٌ ، لاشكَّ فيه ؛ لأنَّ عبد الله بن أُنيس فعل ذلك في حياة النَّبيِّ ﷺ ، وذلك زمن الوحي ، ومحالٌ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يطَّلع عليه[٣] .

٦ ـ مِنْ دلائل النُّبوَّة :

وَصَفَ ﷺ خالدَ بن سفيان الهذليَّ لعبد الله بن أُنَيس وصفاً دقيقاً دون أن يراه ، حتَّى إنَّ ابن أُنيس عندما ردَّ على رسول الله ﷺ متعجباً ـ كما وقع في رواية الواقديِّ ـ: يا رسول الله! ما فَرِقْتُ[٤] من شيءٍ قطُّ ، قال له رسول الله ﷺ : «بلى ، آية ما بيني وبينه أن تجد له قُشَعريرةً إذا رأيته[٥]» ، وقد وجد عبد الله بن أُنيس خالدَ الهُذليَّ على الصِّفة ؛ الَّتي ذكر رسول الله ﷺ ، يقول عبد الله : فلما رأيته ؛ هبته ، وفَرِقْتُ منه ، فقلت : صدق الله ، ورسوله[٦] .

٧ ـ ما قاله عبد الله بن أُنيس من الشِّعر في قتله لخالد الهُذليِّ :

تَـرَكْـتُ ابْـنَ ثَـوْرٍ كَـالحُـوَارِ وَحَـوْلَـهُ ... نَـوَائِـحُ تَفْـرِيْ كُـلَّ جَيْـبٍ مُقَـدَّدِ

تَـنَـاوَلْتُـهُ والظُّعْـنُ خَلْفِـي وَخَلْفَـهُ ... بِـأَبْيَـضَ مِـنْ مَـاءِ الحَـدِيْـدِ المُهَنَّـدِ

أَقُـولُ لَـهُ وَالسَّيْـفُ يَعْجُـمُ رَأْسَـهُ ... أَنَـا ابْـنُ أُنَيْـسٍ فَـارِسَـاً غَيْـرَ قُعْـدُدِ

وَقُلْـتُ لَـهُ خُـذْهَـا بِضَـرْبَـةِ مَـاجِـدٍ ... حَنِيْـفٍ عَلَـى دِيْـنِ النَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ

وَكُنْـتُ إِذَا هَـمَّ النَّبِـيُّ بِكَـافِـرٍ ... سَبَقْـتُ إِلَيـهِ بِـاللِّسَـانِ وَبِـاليَـدِ[٧]

(١) انظر : عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ٢٦٣) .
(٢) انظر : السَّرايا والبعوث ، ص ١٦١ .
(٣) انظر : عون المعبود ، للعظيم آبادي (٤/ ١٢٩) .
(٤) فَرِقَ فرقاً : جزع واشتدَّ خوفُه ، فهو فَرِقٌ .
(٥) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٥٣٢) .
(٦) انظر : دلائل النُّبوَّة ، للبيهقيِّ (٤/ ٤١) من رواية موسى بن عقبة .
(٧) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ١٤٣) .

ثالثاً: غدر قبيلتي عَضلُ والقَارَّة، وفاجعة الرَّجيع[(١)]:

اختلفت مروياتُ سريّة الرَّجيع فيما بينها كثيراً حول السَّبب الَّذي من أجله بعث النَّبيُّ ﷺ هذه السَّريَّة، وفي الوقت الَّذي يورد البخاريُّ بأنَّه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدوِّ [البخاري (٤٠٨٦)]، فإنَّ مروياتٍ أخرى بأسانيد صحيحةٍ ورد فيها: أنَّه قدِم على رسول الله ﷺ رهطٌ من قبيلتي عضل، والقَارَّة المُضَرِيَّتَيْنِ إلى المدينة وقالوا: «إنَّ فينا إسلاماً، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقِّهوننا، ويقرئوننا القرآن ويعلِّمونا شرائع الإسلام»[(٢)] ويظهر: أنَّ قبيلة هُذيل قد سعت للثَّأر من المسلمين لخالدٍ ابن سفيان الهذليِّ، فلجأت إلى الخديعة والغدر. وقد جزم الواقديُّ[(٣)] بأنَّ السبب هو أن بني لحيان ـ وهم حيٌّ من هُذَيل ـ مَشَتْ إلى عَضَل، والقَارَّة، وجعلت لهم جُعْلاً ليخرجوا إلى رسول الله ﷺ ويطلبوا منه أن يخرج معهم مَنْ يدعوهم إلى الإسلام، ويفقِّهُهم في الدِّين، فيكمُنوا لهم، ويأسروهم، ويُصيبوا بهم ثمناً في مكَّة[(٤)].

وهكذا بعث الرَّسول ﷺ هذه السَّريَّة الَّتي تتألَّف من عشرةٍ من الصَّحابة [البخاري (٣٩٨٩)]، وجعل عليهم عاصم بن ثابت بن الأقلح أميراً، حتَّى إذا كانوا بين عُسْفان ومكَّة أغار بنو لحيان ـ وهم قريبٌ من مئتي مقاتل ـ، فألجؤوهم إلى تلٍّ مرتفع بعد أن أحاطوا بهم من كل جانب، ثم أعطوهم الأمان من القتل، ولكن قائد السرية أعلن رفضه أن ينزل في ذمَّة كافرٍ[(٥)]، وقال عاصم بن ثابت: إنِّي نذرت ألا أقبل جوار مشركٍ أبداً، فجعل عاصم يقاتلهم، وهو يقول:

مَا عِلَّتي وَأَنَا جَلْدٌ نَابِلُ ... النَّبْلُ وَالقَوْسُ لَهَا بَلابِلُ[(٦)]
تَزِلُّ عَنْ صَفْحَتِهَا المَعَابِلُ[(٧)] ... المَوْتُ حَقٌّ والحَيَاةُ بَاطِلُ
وَكُلُّ مَا حَمَّ[(٨)] الإلٰهُ نَازِلُ ... بِالمَرْءِ والمَرْءُ إِلَيْهِ آئِلُ
إِنْ لَمْ أُقَاتِلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ[(٩)]

فرماهم بالنَّبْل؛ حتَّى فنيت نبلُه، ثمَّ طاعنهم بالرُّمح حتَّى كُسِر رمحُه، وبقي السَّيف فقال: اللّهمّ حَمَيْتُ دينَك أوَّل نهاري، فاحْمِ لي لحمي آخره! وكانوا يجرِّدون كُلَّ مَنْ قُتِل مِنْ

---

(١) الرَّجيع: اسم موضع من بلاد هُذَيل. وينظر الشكل (٥) في الصفحة (٦٠٩).
(٢) انظر: المغازي، للواقديِّ (١/ ٣٥٤ـ٣٥٥).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣١٤).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) بلابل: جمع بلبلة وبلبال، وهو شدَّة الهم.
(٧) المعابل: جمع معبلة، وهو نصل طويل عريض.
(٨) حَمَّ: قدَّر.
(٩) انظر: مغازي، الواقدي (١/ ٣٥٥).

أصحابه ، فكسر غِمْدَ سيفه ، ثُمَّ قاتلَ حتَّى قُتِل ، وقد جَرَحَ رجلين وقَتل واحداً ، وكان يقول ؛ وهو يقاتل :

أَبُــو سُلَيْمــانَ وَمِثْلِــي رَامِــي   وَكَــانَ قَــوْمِــي مَعْشَــراً كِــرَامــا

ثمَّ شرعوا فيه الأسنَّة حتَّى قتلوه ، وكانت سُلافةُ بنت سعد بن الشُّهَيْد قد قُتِل زوجُها وبنوها أربعةٌ ، قد كان عاصم قتل منهم اثنين: الحارث ، ومُسافعاً ، فنذرت لئن أمكنها الله منه أن تشرب في قحفِ[1] رأسه الخمرَ ، وجعلَتْ لمن جاء برأس عاصم مئة ناقةٍ ، قد علمت بذلك العرب ، وعلمته بنو لحيان ، فأرادوا أن يحتزُّوا رأس عاصم؛ ليذهبوا به إلى سُلافةَ بنت سعد ليأخذوا منها مئة ناقةٍ ، فبعث الله تعالى عليهم الدَّبْر[2] فحمتْهُ ، فلم يَدْنُ إليه أحدٌ إلا لدغت وجهه ، وجاء منها شيءٌ كثير لا طاقة لأحدٍ به ، فقالوا: دعوه إلى اللَّيل ، فإنَّه إذا جاء اللَّيل؛ ذهب عنه الدَّبْر ، فلما جاء اللَّيل بعث الله عليه سيلاً ـ ولم يكن في السَّماء سحابٌ في وجه من الوجوه ـ ، فاحتمله ، فذهب به؛ فلم يَصِلُوا إليه. [البيهقي في الدلائل (٣/٣٢٨)، وابن هشام (٣/ ١٨٠)][3].

لقد قُتِلَ عاصمٌ في سبعةٍ من أفراد السَّريّة بالنَّبْل ، ثُمَّ أعطى الأعرابُ الأمانَ من جديدٍ للثَّلاثة الباقين ، فقبلوا ؛ غير أنَّهم سرعان ما غـدروا بهم بعد ما تمكَّنوا منهم ، وقد قاومهم عبد الله بن طارق فقتلوه ، واقتادوا الاثنين إلى مكَّة ، وهما خبيب ، وزيد بن الدَّثِنَّة؛ فباعوهما لقريشٍ[4] وكان ذلك في صفر سنة ٤ هـ[5].

فأما خُبَيْب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل ، ليقتلوه بالحارث الذي كان خبيبٌ قد قتله يوم بدر ، فمكث عندهم أسيراً ، حتى إذا أجمعوا قتله استعار مُوسَى من بعض بنات الحارث ليستحدَّ بها ، فأعارته ، وغفلت عن صبيٍّ لها ، فدرج فجلس على فَخذه ، ففزعت المرأة لئلا يقتله انتقاماً منه ، فقال خبيبٌ: أتخشينَ أن أقتله؟! ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى ، فكانت تقول: ما رأيتُ أسيراً قطُّ خيراً من خبيب؛ لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذٍ ثمرة ، وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقٌ رَزَقَهُ الله ، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه ، فقال: دعوني أصلِّ ركعتين ، ثمَّ انصرف إليهم ، فقال: لولا أن تقولوا إنَّ ما بي جَزَعٌ من الموت؛

---

(١) القحفُ: الجزء الأعلى من الجمجمة.
(٢) الدَّبر: الزَّنابير (جمع الزِّنبار ، وهي حشرةٌ أليمة اللَّسع) ، والنَّحل.
(٣) انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/ ٣٥٦).
(٤) انظر تفصيل ذلك كلّه في صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة الرَّجيع ورعلٍ وذكوانَ وبئر معونة، وحديث عضل والقَارَّة وعاصم بن ثابت، وخُبيب وأصحابه، رقم (٤٠٨٦) وما بعده.
(٥) جوامع السِّيرة ، لابن حزم ، ص ١٧٦.

لزدت ، فكان أوَّل مَنْ سنَّ الرَّكعتين عند القتل هو[١] ، ثُمَّ قال: «اللّهُمَّ أحصهم عدداً ، واقتلهم بَدداً[٢] ، ولا تُبْقِ منهم أحداً» [البخاري (٣٩٨٩) ، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٢٤ - ٣٢٥) ، وابن هشام (٣/ ١٨١ - ١٨٢)] ثُمَّ قال:

لَقَـدْ أَجْمَـعَ الأحْـزَابُ حَـوْلِـي وَأَلَّبُـوا ... قَبَـائِلَهُـمْ وَاسْتَجْمَعُـوا كُـلَّ مَجْمَـعِ

وَكُلُّهـم مُبْـدِي العَـدَاوة جَـاهِـدٌ ... عَلَـيَّ لأنِّـي فِـي وَثَـاقٍ بِمَضْيَـعِ

وَقَـدْ قَـرَّبُـوا أبْنَـاءَهُـم وَنِسَـاءَهُـمْ ... وَقُـرِّبْـتُ مِـنْ جِـذْعٍ طَـوِيْـلٍ مُمَنَّـعِ

إلـى اللهِ أشْكُـو غُـرْبَتِـي بَعْـدَ كُـرْبَتِـيْ ... وَمَا أَرْصَدَ الأحْـزَابُ لِـي عِنْـدَ مَصْرَعِيْ

فـذَا العَـرْشِ صَبِّـرْني عَلَـىٰ مَا يُـرَادُ بِـيْ ... فَقَـدْ بَضَّعُـوا لَحْمِي وَقَـدْ يَـاسَ[٣] مَطْمَعي

وَقَـدْ خَيَّـرُونـي الكفـر والمَـوْتُ دُوْنَـه ... فَقَـدْ ذَرَفَـتْ عَيْنَـايَ مِـنْ غَيْـرِ مَجْـزَعِ

وَمَـا بِـيْ حَـذَارِ المَـوْتِ إنِّـي لَمَيِّـتٌ ... وَإنَّ إلَـىٰ رَبِّـي إيَـابِـي وَمَـرْجِعِـي

وَلَسْـتُ أُبَـالـي حِيْـنَ أُقْتَـلُ مُسْلِمـاً ... عَلَـى أيِّ شِـقٍّ كَـانَ فِـي اللهِ مَصْـرَعِـي

وَذَلِـكَ فِـي ذَاتِ الإلٰـهِ وَإنْ يَشَـأْ ... يُبَـارِكْ عَلَـىٰ أَوْصَـالِ شِلْـوٍ مُمَـزَّعِ

فَلَسْـتُ بِمُبْـدٍ لِلعَـدُوِّ تَخَشُّعـاً ... وَلاَ جَـزَعـاً إنِّـي إلَـىٰ اللهِ مَـرْجِعـي[٤]

فقال له أبو سفيان: أيسُرُّك: أنَّ محمَّداً عندنا يُضربُ عنقُه؛ وأنَّك في أهلك؟ فقال: لا والله! ما يسرُّني أنِّي في أهلي ، وأنَّ محمَّداً في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه[٥]. ثُمَّ قُتِل ، وصلبوه ، ووكَّلوا به مَنْ يحرُس جُثَّتَه ، فجاء عَمْرُو بنُ أميَّة الضَّمْرِيُّ ، فاحتمله بجذعه ليلاً ، فذهب به ، ودفنه[٦] وأمَّا زيد بن الدَّثِنَّة ، فاشتراه صفوان بن أميَّة وقتله بأبيه أميَّة بن خلف الَّذي قُتل ببدر ، وقد سأله أبو سفيان قبل قتله: أنشدك الله يا زيد! أتحبُّ أنَّ محمداً الآن عندنا مكانك تضربُ عنقُه؛ وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الآن في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ تؤذيه وإنِّي جالسٌ في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيتُ من النَّاس أحداً يحبُّ أحداً؛ كحبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً[٧].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٩٩).

(٢) بدَّدَ الشَّيء: فرَّقه ، بدداً: متفرِّقين في القتل واحداً بعد واحدٍ.

(٣) ياس: لغة في يئس.

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٨٦) ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع).

(٥) المصدر السابق نفسه (٣/ ٢٤٥ - ٢٤٦).

(٦) المصدر السَّابق نفسه.

(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٠٠) ، وسيرة ابن هشام (مقتل ابن الدَّثِنَّة ومثلٌ من وفائه للرَّسول ﷺ).

وقد عُرِفت هذه الحادثة المفجعة بالرَّجيع ، نسبةً إلى ماء الرَّجِيع الَّذي حصلت عنده .

وفي هذه الحادثة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها :

١ ـ فوائد ذَكَرها ابن حجر :

«وفي الحديث : أنَّ للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ، ولا يمكِّنَ من نفسه؛ ولو قُتل؛ أنَفَةً من أن يجري عليه حكم كافرٍ ، وهذا إذا أراد الأخذ بالشِّدَّة ، فإن أراد الأخذ بالرُّخصة؛ فله أن يستأمن . قال الحسن البصريُّ : لا بأس بذلك ، وقال سفيان الثَّوريُّ : أكره ذلك . وفيه الوفاء للمشركين بالعهد ، والتورُّع عن قتل أولادهم ، والتلطُّف بمن أريد قتلُه ، وإثبات كرامة الأولياء ، والدُّعاء على المشركين بالتَّعميم ، والصَّلاة عند القتل ، وفيه إنشاء الشِّعر ، وإنشاده عند القتل ، ودلالة على قوَّة يقين خبيب ، وشدَّته في دينه .

وفيه : أنَّ الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه ، ليثيبه ، ولو شاء ربُّك ما فعلوه ، وفيه استجابة دعاء المسلم ، وإكرامه حيّاً وميتاً ، وغير ذلك من الفوائد ممَّا يظهر بالتأمُّل . وإنَّما استجاب الله له مِنْ حماية لحمه من المشركين ، ولم يمنعهم من قتله؛ لما أراد من إكرامه بالشَّهادة ، ومن كرامته حمايته مِنْ هتك حرمته بقطع لحمه»[(١)] .

٢ ـ بين التَّسليم ، والقتال حتَّى الموت :

يستدلُّ ممَّا سبق أنَّ للأسير في يد العدوِّ أن يمتنع مِنْ قبول الأمان ، ولا يمكِّن من نفسه؛ ولو قُتل؛ ترفعاً عن أن يجري عليه حكم كافرٍ ، كما فعل عاصمٌ ، فإن أراد التَّرخُّص؛ فله أن يستأمن ، مترقباً الفرصة مؤمِّلاً الخلاص ، كما فعل خبيبٌ ، وزيدٌ؛ ولكن لو قدر الأسير على الهرب؛ لزمه ذلك في الأصح ، وإن أمكنه إظهار دينه بينهم؛ لأنَّ الأسير في يد الكفار مقهورٌ مهانٌ ، فكان من الواجب عليه تخليص نفسه مِنْ هوان الأسر ، ورقِّه[(٢)] .

وهـذا الحـدث يفتح أمام المسلمين باباً واسعاً في التَّعامل مع الأحداث؛ في اختيارهم الأسر إذا طُلبوا مظلومين ، أو اختيارهم القتال حتَّى الموت؛ ما دام الطَّالب لا يطلبهم بعدلٍ ، وما دامت السُّلطة غير إسلاميَّة[(٣)] .

٣ ـ تعظيم سنَّة النَّبيِّ ﷺ :

وفي الحديث يظهر تعظيم الصَّحابة لسنَّة النَّبيِّ ﷺ ، وكيف أن خُبَيْباً مع أنَّه في أسر

---

(١) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤٠٨٦) ، فقرة : «فلم يقدروا منه على شيءٍ» .

(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٣) انظر : الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّى (٢/ ٦٢٢) .

المشركين، ويعلم: أنَّه سيُقتل بين عشيَّةٍ، أو ضحاها، ومع ذلك كان حريصاً على سنَّة الاستحداد، واستعار السِّكِّين لذلك، وفي هذا تذكيرٌ لِمَنْ يستهين بكثيرٍ من السُّنن، بل والواجبات؛ بحجَّة: أنَّه لا ينبغي أن ينشغل المسلمون بذلك للظُّروف الَّتي تمرُّ بها الأمَّة، وفي الواقع لا منافاة بين تعظيم السُّنَّة والدُّخول في شرائع الإسلام كافَّةً[١].

٤ ـ الإسلام ينتزع الغدر، والأحقاد:

عندما استعار خبيب مُوسى مِنْ بعض بنات الحارث؛ ليستحدَّ بها، فأعارته؛ قالت المرأة: فغفلتُ عن صبيٍّ لي، دَرَجَ إليه حتَّى أتاه، فوضعه على فخذه فلما رأيتُه؛ فَزِعْتُ منه فَزعةً عرف ذلك منِّي، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك؛ إن شاء الله. [البخاري (٤٠٨٦)][٢].

إنَّه موقفٌ رائعٌ يدلُّ على سموِّ الرُّوح، وصفاء النَّفس، والالتزام بالمنهج الإسلاميِّ، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

إنَّه الوفاء يتعلَّمه النَّاس ممَّن غدر بهم؛ فإنَّ الاستقامة طبيعة سلوك المسلم في حالتي الرَّخاء، والشِّدَّة[٣].

وفي قول خبيبٍ رضي الله عنه: (ما كنت لأفعل؛ إن شاء الله) يشير هذا الأسلوب في البيان العربيِّ إلى أنَّ هذا الفعل غير واردٍ، ولا متصوَّرٍ، ولا هو في الحسبان، في هذا الظَّرف الحاسم، الَّذي قد يتعلَّق فيه الاستثناء لموقع الضَّرورة، وإنقاذ المُهَج، لكنَّ المبدأ الأصليَّ الوفاءُ، والكفُّ عن البُرآء لا تنهض له هذه الاعتبارات الموهومة[٤]، وهذا مثلٌ من عظمة الصَّحابة رضي الله عنهم حين يطبِّقون أخلاق الإسلام على أنفسهم مع أعدائهم ـ وإن كانوا قد ظلموهم ـ، وهذا دليلٌ على وعيهم، وكمال إيمانهم[٥].

٥ ـ حبُّ النَّبيِّ ﷺ عند الصَّحابة:

إنَّ حظَّ الصَّحابة من حبِّه ﷺ كان أتمَّ، وأوفرَ، ذلك: أنَّ المحبَّة ثمرةُ المعرفة، وهم بقدره ﷺ، ومنزلته أعلمُ، وأعرفُ مِنْ غيرهم، فبالتَّالي كان حبُّهم له ﷺ أشدَّ، وأكبر[٦].

---

(١) انظر: وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة، لأحمد فريد، ص ٢٣٤.
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٣٢٠.
(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٥٩.
(٤) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبوي في المدينة، ص ١٥٣.
(٥) انظر: التَّاريخ الإسلاميَّ، للحميديِّ (٦/ ٣٨).
(٦) انظر: حقوق النَّبي ﷺ على أمَّته، د. محمَّد التَّميمي (١/ ٣١٤).

في حادثة الرَّجيع يظهر هذا الحبُّ في الحوار الهادئ بين أبي سفيان ، وبين زيدِ ابن الدثنَّة ؛ إذ قال له أبو سفيان : أتحبُّ أنَّ محمَّداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقُه ، وأنَّك في أهلك؟ فقال زيد : والله! ما أحبُّ أنَّ محمَّداً الآن في مكانه الَّذي هو فيه تصيبه شوكةٌ ؛ وإنِّي جالسٌ في أهلي(١) .

وهذا الحبُّ من الإيمان ، فقد قال ﷺ : «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : مَنْ كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه ممَّا سواهما ، ومَنْ أحبَّ عبداً لا يحبُّه إلا لله ، ومَنْ يكرهُ أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يُلقى في النَّار» [البخاري (٢١) ، ومسلم (٤٣)] .

٦ ـ ممَّا قاله حسَّان في ذمِّ بني لِحْيَان :

تأثَّر المسلمون بمقتل أصحاب الرَّجيع تأثُّراً بالغاً ، وكان حسَّان رضي الله عنه بشعره يعبِّر عن حال المسلمين ، فمن يستحقُّ الهجاء ، هجاه ، ومَنْ يستحقُّ المدح ؛ مدحه ، فقال في هجاء بني لِحْيان :

إنْ سَرَّكَ الغَدْرُ صِرْفاً لا مِزاجَ لَهُ ... فَأْتِ الرَّجِيْعَ فَسَلْ عَنْ دَارِ لِحْيَانِ
قَوْمٌ تَوَاصَوا بِأَكْلِ الجَارِ بَيْنَهُمُ ... فَالكَلْبُ والقِرْدُ والإنْسَانُ مِثْلانِ
لَوْ يَنْطِقُ التَّيْسُ يَوْماً قَامَ يَخطُبُهُمْ ... وَكَانَ ذَا شَرَفٍ فِيْهِمْ وَذَا شَانِ(٢)

رابعاً : طمع عامر بن الطُّفَيْل في المسلمين وفاجعة بئر معونة (٤هـ) :

عامر بن الطُّفيل زعيمٌ من زعماء بني عامرٍ ، كان متكبِّراً متغطرساً ، طامعاً في الملك ، وكان يرى : أنَّ النَّبيَّ ﷺ سوف تكون له الغلبة على الجزيرة العربيَّة ؛ ولذلك جاء هذا المشرك إلى النَّبيِّ ﷺ ، وقال له : أُخيِّرك بين ثلاث خصالٍ : أن يكون لك أهلُ السَّهل ، ولي أهلُ المَدَرِ ، أو أكونَ خليفَتَك ، أو أغزوك بأهل غَطَفان بألف أشقر وألف شقراء [البخاري (٤٠٩١)] ، فرفض ﷺ تلك المطالب الجاهليَّة ، وجاء إلى المدينة مُلاعِبُ الأسنَّة سيِّد بني عامر عمُّ عامر بن الطُّفَيْل ، وقدَّم إلى النَّبيِّ ﷺ هَدِيَّةً ، فعرض عليه النَّبيُّ ﷺ الإسلام ، فلم يُسْلِم ، ولم يَبْعُدْ من الإسلام ، وقال : يا محمد! لو بعثتَ رجالاً من أصحابك إلى أهل نجدٍ ، رجوتُ أن يستجيبوا لك ، فقال رسول الله ﷺ : إنِّي أخشى عليهم أهل نجدٍ ، قال مُلاعِبُ الأسنَّة (أبو براء) : أنا لهم جارٌ ، فابعث إلى أهل نجدٍ مَنْ شئت . فبعث إليهم بقوم فيهم المنذرُ بن عمرو ، وهو الَّذي يقال له : الْمُعْنِق لِيَمُوت(٣) ، أو أعنق الموت ، فاستجاش(٤) عليهم عامر بن الطُّفيل بني عامر ، فأبوا أن

---

(١) انظر : صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥٤ .
(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٧٠) .
(٣) المعنق ليموت : أي : المسرع ، وإنما لُقِّبَ بذلك ؛ لأنَّه أسرعَ إلى الشَّهادة .
(٤) استجاش : طلب لهم الجيش وجمعه .

يطيعوه ، وأبوا أن يخفروا مُلاعِبَ الأسنَّة ، فاستجاش عليهم بني سُلَيم ، فأطاعوه ، فأتبعهم بقريب من مئة رجل رامٍ ، فأدركهم ببئر مَعُونة ، فقتلوهم إلا عمرو بن أميَّة[1] .

ومن حديث أنسٍ رضي الله عنه قال: جاء ناسٌ إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالاً يعلِّمونا القرآن ، والسُّنَّة . فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار ، يقال لهم القُرَّاء ، فيهم خالي حَرَام ، يقرؤون القرآن ، ويتدارسون باللَّيل يتعلَّمون ، وكانوا بالنَّهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ، ويحتطبون ، فيبيعونه ، ويشترون به الطَّعام لأهل الصُّفَّة ، وللفقراء ، فبعثهم النَّبيُّ ﷺ إليهم ، فعَرَضُوا لهم ، فقَتَلُوهم ، قبل أن يَبْلُغُوا المكانَ ، فقالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا: أنَّا قد لَقِيناك ، فرضينا عنك ، ورضيت عنَّا .

قال: وأتى رجلٌ حراماً خال أنسٍ مِنْ خلفه ، فطعنه بِرُمْحٍ حتَّى أَنْفَذَهُ ، فقال حرام: فُزْتُ وربِّ الكعبة ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنَّ إخوانكم قد قُتلوا ، وإنَّهم قالوا: اللّهم بَلِّغْ عنا نبيَّنا أنا قد لقيناك ، فرضينا عنك ، ورضيت عنَّا» [أحمد (٣/ ٢١٠)، ومسلم (٦٧٧)، والبيهقي في الدلائل (٣/ ٣٤٤)].

وفي هذه الحادثة المؤلمة ، والفاجعة المفجعة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد؛ منها:

١ ـ لابدَّ للدَّعوة من تضحيات:

رأينا كيف غَدَرَ حلفاء هُذَيْل بأصحاب الرَّجيع من القُرَّاء ، الَّذين أرسلهم النَّبيُّ ﷺ معلِّمين ، ومفقِّهين في غزوة الرَّجيع ، وها هنا عامر بن الطُّفيل يغدر بالسَّبعين القرَّاء ، الَّذين استنفروا للدَّعوة إلى الله ، والتَّفقيه في دين الله ، في مجزرة رهيبةٍ دنيئةٍ ، وذلك في يوم بئر معونة .

وقد تركتْ هذه المصائب في نفس رسول الله ﷺ آثاراً غائرةً ، بعيدة الأعماق ، حتَّى إنَّه لبث شهراً يَقْنُت في صلاة الفجر داعياً على قبائل سُلَيْم؛ الَّتي عَصَتِ اللهَ ، ورسولَه ﷺ[2] ؛ فعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: قنت رسول الله ﷺ شهراً متتابعاً في الظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وصلاة الصُّبح ، في دبر كلِّ صلاة ، إذا قال: «سمع اللهُ لمن حمده» من الرَّكعة الأخيرة ، يدعو على أحياءٍ من بني سُلَيم؛ على رِعْلٍ وذَكْوَانَ وعُصَيَّةَ ويؤمِّنُ مَنْ خلفه . [أحمد (١/ ٣٠١ ـ ٣٠٢)، وأبو داود (١٤٤٣)، وابن خزيمة (٦١٨)].

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٢٢ ، وسيرة ابن هشام (ذكر يوم الرَّجيع) ، والبخاري (الأحاديث من ٤٠٨٦ إلى ٤٠٩٦) ، وانظر شرحها في الفتح ، ففيها تفصيلاتٌ وفوائد كثيرةٌ ، وكذا مسلم (كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنَّة للشَّهيد ، رقم ٦٧٧).

(٢) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٥١ .

قال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: وذلك بدء القنوت، وما كنَّا نَقنُتُ، وسأل رجلٌ أنساً عن القنوت: أبعد الرُّكوع، أو عند فراغٍ من القراءة، قال: لا، بل عند فراغٍ من القراءة. [البخاري (٤٠٨٨)][1].

لكن ذلك لم يفتَّ في عَضُدِ المسلمين، ولا فتَّر من حميَّتهم في الدَّعوة إلى الله، ولا كسر من عزمهم في مواصلة الدَّعوة، وخدمة دين الله، لأنَّ مصلحة الدَّعوة فوق الأنفس والدِّماء؛ بل إنَّ الدعوة لا يكتب لها النَّصر؛ إذا لم تُبْذَلْ في سبيلها الأرواحُ، ولا شيء يمكِّن للدَّعوة في الأرض مثل الصَّلابة في مواجهة الأحداث، والأزمات، واسترخاص التَّضحيات من أجلها.

إنَّ الدَّعوات بدون قوى، أو تضحيات، يوشك أن تكون بمثابة فلسفات، وأخيلةٍ، تلفُّها الكتب، وترويها الأساطير، ثمَّ تُطْوَى مع الزَّمن.

إن حادثتي الرَّجيع وبئر مَعُونة، تُبَصِّراننا بالمسؤولية الضَّخمة عن دين الله، والدَّعوة إليه، وضعت نُصْبَ أعيننا[2] نماذج من التَّضحيات العظيمة الَّتي قدَّمها الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، من أجل عقيدتهم، ودينهم، ومرضاة ربِّهم.

إنَّ للسَّعادة ثمناً، وإنَّ للرَّاحة ثمناً، وإنَّ للمجد والسُّلطان ثمناً، وثمن هذه الدَّعوة دمٌ زكيٌّ يُراق في سبيل الله، من أجل تحقيق شرع الله ونظامه، وتثبيت معالم دينه على وجه البسيطة[3].

٢ ـ فزت وربِّ الكعبة:

صاحب الكلمة حرام بن مِلْحانَ رضي الله عنه، فعندما اخترق الرُّمْحُ ظهرَه حتَّى خرج من صدره، وأصبح يتلقَّى الدَّم بيديه، ويمسح به وجهه، ورأسه، وقال: فزت وربِّ الكعبة. [البخاري (٤٠٩٢)].

إنَّ هذا المشهد يجعل أقسى القلوب، وأعظمها تحجُّراً يتأثَّر، ويستصغر نفسه أمام هؤلاء العظماء الَّذين لا تَصْفَرُّ وجوههم فزعاً من الموت، وإنما يعلوها البِشْرُ والسُّرور، وتغشاها السَّكينة والطُّمأنينة[4].

وهذا المنظر البديع الرَّائع الَّذي لا يتصوَّره العقل البشريُّ المجرَّد عن الإيمان جعل جَبَّار بن سلمى، وهو الَّذي طعن حرام بن ملحان يتساءل عن قول حرام: «فزت وربِّ الكعبة» وهذا جبَّار

---

(١) وحاصل المسألة: أنَّ القنوت للحاجة بعد الرُّكوع، وأمَّا لغير الحاجة فالصَّحيح أنه قبل الركوع، وقد اختلف عمل الصَّحابة في ذلك، والظَّاهر: أنَّه من الاختلاف المباح.

(٢) نُصْبَ أَعْيُننا: أي أمامنا.

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ١٥٢.

(٤) انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ، للحميديِّ (٦/ ٥٠).

يحدِّثنا بنفسه ، فيقول: إنَّ ممَّا دعاني إلى الإسلام: أنِّي طعنت رجلاً منهم يومئذٍ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سِنَان الرُّمح حين خرج من صدره ، فسمعته يقول: «فزت وربِّ الكعبة!» فقلت في نفسي: ما فاز ، ألست قد قتلت الرَّجل؟! حتَّى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا: للشَّهادة. فقلت: فاز لَعَمْرُ الله! فكان سبباً لإسلامه. [البيهقي في الدلائل (٣/ ٣٥٣)][(١)].

وهذا الموقف الخارق للعادة يدعونـا للتَّساؤل: هل يتعرض الشَّهيد لألم الموت؟

وتأتينا الإجابة الشَّافية من رسول الله ﷺ الَّذي لا ينطق عن الهوى في قوله: «ما يجد الشَّهيد من مسِّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مَسِّ القَرْصة» [الترمذي (١٦٦٨) ، والنسائي (٦/ ٣٦) ، وابن ماجه (٢٨٠٢)].

فللشهيد منزلةٌ خاصَّة عند الله ، فجزاء الثَّمن الباهظ الَّذي يدفعه ، وهو روحه رخيصةً في سبيل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، لم يبخسه الحكم العدل حقَّه ، فكافأه مكافأةً بستِّ جوائز ، كلُّ واحدةٍ منها تعدل الدُّنيا وما فيها ، فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للشَّهيد عند الله سِتُّ خصالٍ: يُغفَر له في أوَّل دفعةٍ من دمه ، ويَرى مقعده من الجنَّة ، ويُجار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويُحَلَّى حُلَّة الإيمان ، ويزوَّج من الحور العين ، ويُشفَّع في سبعين إنساناً من أقاربه» [الترمذي (١٦٦٣) ، وابن ماجه (٢٧٩٩)][(٢)].

هذا بالإضافة إلى الوسام المميَّز المشرَّف؛ الَّذي يأتي به يوم القيامة: وجُرْحُهُ كهيئته يوم جُرِح: «اللَّون لون الدَّم ، والرِّيح ريح المسك» [الترمذي (١٦٥٦)].

كما أنَّ حياة الشُّهداء لا تنتهي بمجرَّد موتهم ، بل هم أحياء يرزقون ، ويتنعمون عند ربِّهم[(٣)]. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

٣ ـ عدم معرفة النَّبيِّ ﷺ للغيب:

إنَّ حادثتي بئر مَعُونة والرَّجيع ، وغيرهما تدلاَّن على أنَّ الرَّسول ﷺ لا يعلم الغيب ، كما دلَّت على ذلك أدلَّةٌ أخرى منها قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة) ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٩١ ، ٤٠٩٢) ففيه فوائد كثيرة.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (تفسير الآية ١٧١ من سورة آل عمران).

(٣) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص٢٤٥.

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وحده عالم الغيب ، والرُّسل والملائكة لا يعلمون من الغيب إلا ما علَّمهم ربُّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ[١] : ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن : ٢٦ ـ ٢٧] .

٤ ـ الوفاء بالعهد :

وقع عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ رضي الله عنه أسيراً في بئر مَعُونة ، ولمَّا علم عامرُ بن الطُّفَيل : أنَّه من مُضر أطلقه ، وجزَّ ناصيته ، وأعتقه عن رقبة زعم أنَّها كانت على أمِّه ، فلمَّا خرج عمرو قاصداً المدينة ، نزل في طريقه في ظلٍّ ، والتقى برجلين من بني عامر ـ وكان معهما عقدٌ من رسول الله ، وجوار ، لم يعلم به عمرو بن أميَّة ـ وقد سألهما حين نزلا : ممَّن أنتما؟ فقالا : من بني عامر ، فأمهلهما ، حتَّى إذا ناما ، عدا عليهما ، فقتلهما ، وهو يرى أنَّه قد أصاب بهما ثُؤْرةً[٢] من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ ، فلمَّا قدم عمرو بن أميَّة على رسول الله ، فأخبره الخبر ، قال رسول الله ﷺ : لقد قتلت قتيلين ؛ لأدِينَّهما[٣] .

وهذا موقفٌ رفيعٌ ، فقد وَدَىٰ ﷺ ذينك الرَّجلين العامريين اللَّذينِ قتلهما عمرو بن أميَّة الضَّمريُّ ؛ لكونهما يحملان عقداً منه ﷺ ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما ، وهذا يمثِّل منتهى القمَّة في الوفاء بالعهود .

قد كان بإمكان النَّبيِّ ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أميَّة جزءاً من الانتقام الَّذي ينبغي أن يواجه به المجرمون المعتدون ، ولكنْ ما ذنب الأبرياء حتى يؤخذوا بجريرة المعتدين مِنْ قومهم؟!

إنَّ التَّوجيهات الإسلاميَّة الرَّفيعة دفعت بالمسلمين ، ونبيِّهم ﷺ إلى الرُّقيِّ الأخلاقي ، الَّذي لا نظير له في دنيا النَّاس[٤] .

٥ ـ الصَّحابيُّ الجليل عامر بن فُهَيرة رضي الله عنه :

«لما قُتل الَّذين ببئر مَعُونة وأُسِرَ عمرُو بن أُميَّة الضَّمري ، قال له عامر بن الطُّفَيْل : من هذا ـ وأشار إلى قتيل ـ؟ فقال له عمرُو بن أميَّة : هذا عامرُ بن فُهَيرة . فقال : لقد رأيتُه بعدما قُتل رُفع إلى السَّماء ، حتَّى إنِّي لأنظرُ إلى السَّماء بينه وبين الأرض ، ثمَّ وُضعِ» [البخاري (٤٠٩٦)][٥] .

---

(١) انظر وقفات تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٣٧ .
(٢) الثؤرة : الثأر ، وهو الطَّلب بالدم .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٠٦) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (٦/ ٥٠) .
(٥) سيرة ابن هشام (حديث بئر معونة) .

٦ ـ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه يحرِّض على قتل عامر بن الطُّفَيْل:

كان حسَّان رضي الله عنه من رجالات المؤسَّسة الإعلاميَّة، فكان يشنُّ الحرب النَّفسيَّة على الأعداء، وكان بجانبه كعبُ بن مالكٍ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، فلم يتركوا حدثاً من أحداث السِّيرة إلا قالوا فيه شعراً، وكلُّ قصيدةٍ للكافرين يردُّون عليها بقصائدَ، وقد عَلِمنا ما أحدثه شعر حسَّان في طرد كعب بن الأشرف اليهوديِّ، وكان ﷺ يتعهَّد شعراء الدَّولة الإسلاميَّة ويشجِّعهم على خوض هذا الباب من الجهاد، فعلى المسلمين المعاصرين قادةً، وزعماء، وعلماء، وفقهاء، وجماعات. أن يرعوا شعراءهم، ويشجِّعوهم لخوض هذا الجهاد العظيم[1].

ولمَّا بلغ حسَّاناً خبرُ أصحاب بئر مَعُونة، نَظَمَ أبياتاً تناقلتها الرُّكبان، يحثُّ فيها ربيعةَ بن عامر بن مالك مُلاعبِ الأسِنَّة، ويحرِّضه بعامر بن الطُّفيل بإخفاره ذمَّة أبيه أبي براء:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنِّي رَبِيعاً ... بِمَا أَحْدَثَتْ فِي الحِدْثَانِ بَعْدِي
أَبُوكَ أَبُو الفِعَالِ أَبُو بَرَاءٍ ... وَخَالُكَ مَاجِدٌ حَكَمُ بنُ سَعْدِ
بَنِي أُمِّ البَنِينَ أَلَمْ يَرُعْكُمْ ... وَأَنْتُمْ مِنْ ذَوَائِبِ أَهْلِ نَجْدِ
تَحَكُّمُ عَامِرٍ بِأَبِي بَرَاءٍ ... لِيَخْفِرَهُ وَمَا خَطَأٌ كَعَمْدِ[2]

فلمَّا بلغ ربيعة بن أبي براء هذا الشِّعْرُ، وكان الشِّعر عندهم أوجع مِنْ رشق النَّبْل، وقطْع السُّيوف للرِّقاب، وطعن النُّحور بالرِّماح: قام ربيعةُ بأخذ ثأر أبيه، فضرب عامرَ بنَ الطُّفيل ضَرْبةً أشواه بها ـ أي: لَمْ تصب منه مقتلاً ـ فوثب عليه قومُه، وقالوا لعامرٍ: اقتصَّ! فقال: قد عفوت، وإن عِشْتُ فسأرى رأيي فيما أتى إليَّ[3].

وممَّا قاله حسَّان وهو يبكي قتلى بئر مَعُونة، ويخصُّ المنذرَ بن عمرو رضي الله عنه:

عَلَى قَتْلَى مَعُونَةَ فَاسْتَهِلِّي ... بِدَمْعِ العَيْنِ سَحّاً غَيْرَ نَزْرِ[4]
عَلَى خَيْلِ الرَّسُولِ غَدَاةَ لاَقَوا ... مَنَايَاهُمْ وَلاَقَتْهُم بقَدْرِ
أَصَابَهُمُ الفَنَاءُ بِعَقْدِ قَوْمٍ ... تُخُوِّنَ عَقْدُ حَبْلِهِمُ بغَدْرِ[5]
فيا لهفي لِمُنْذِرٍ إذْ تَوَلَّى ... وَأَعْنَقَ فِي مَنِيَّتِهِ بِصَبْرِ[6]

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها (٢/ ٦٥٦).
(٢) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون (٤/ ٦٤).
(٣) انظر القصة في فتح الباري شرح حديث (٤٠٩٦).
(٤) استهلِّي: أسيلي دمعك. السّح: الصَّبُّ الكثير المتتابع. والنَّزر: القليل.
(٥) تُخُوِّن: انتُقص. (بالبناء للمجهول).
(٦) أعنق: أسرع. والعنقُ: ضَرْبٌ من السَّير فسيحٌ سريعٌ للإبل والخيل. ابن هشام (٣/ ٢٠٩).

٧ ـ مصير عامر بن الطُّفيل العامريُّ:

استجاب الله لدعاء نبيِّه ﷺ، فقد دعا ﷺ على عامر بن الطُّفَيْل، فقال: «اللّهُمَّ اكفني عامراً!» [الطبراني في الكبير (٥٧٢٤)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٢٥ ـ ١٢٦)] [١]، فأُصيب الطَّاغيةُ بمرضٍ عُضَال[٢]، وصفه ﷺ بقوله: «غدةٌ كغدَّة البعير»[٣]، وسمَّاه ﷺ بـ (الطَّاعون)، وهو وصفٌ دقيقٌ للطَّاعون الدُّبلي، الَّذي يتميَّز (بارتفاع درجة الحرارة، وتضخم العقد الليمفاوية في منطقة الإرب، وتحت الإبط، وكذا تضخُّم الطِّحال)[٤]، وهو ما أُصيب به عامر بن الطُّفَيل حتَّى أصبح حبيساً في بيت امرأةٍ من قومه.

لقد أُصيب عامرُ بن الطُّفَيْل، وتلاشت أحلامُه بالتَّملُّك على أهل المدن في الجزيرة العربيَّة، أو خلافة النَّبيِّ ﷺ، وأمَّا تلك الجيوشُ الَّتي هدَّد النَّبيَّ ﷺ بها، فقد تحوَّلت إلى آلام تحبسه في بيت امرأةٍ، قد ولَّى عنه النَّاس، ونفروا منه خشيةَ العدوى، ففقدَ صوابَه، وصرخ بمن بقي حوله، فقال: «غُدَّةٌ كغُدَّة البكر في بيت امرأةٍ من بني آل فلان، ائتوني بفرسي، فمات على ظَهر فَرَسِه» [البخاري (٤٠٩١)][٥]؛ هلك ذلك الجبَّار العنيد كالمجنون، بعد أن تطاير النَّاسُ من حوله خوفاً على أنفسهم من العدوى[٦].

* * *

(١) البداية والنِّهاية (وفد بني عامر وقصَّة عامر بن الطفيل)، وفتح الباري (شرح حديث رقم (٤٠٩) فقرة: في بيت امرأة من بني فلان).

(٢) العُضَال: الشَّديد المعجز. ويقال: داء عضال: أي: لا طبَّ له.

(٣) انظر: السِّيرة النَّبوية، لمحمَّد الصوياني، ص ١٣٠.

(٤) انظر: تعليق الدَّكتور قلعجي على الدَّلائل (٣/ ٣٤٦).

(٥) انظر السِّيرة النَّبويَّة، للصَّوياني، ص ١٣١.

(٦) المصدر السابق نفسه.

المبحث الثَّاني
زواج النَّبي ﷺ بأمِّ المساكين ، وأمِّ سلمة ، وأحداثٌ متفرِّقةٌ

أولاً : زينب بنت خُزَيمة أمُّ المساكين رضي الله عنها :

هي زينب بنت خُزَيْمة بن الحارث الهلاليَّة ، فهي من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، وكانت تسمَّى في الجاهليَّة أمَّ المساكين ؛ لإطعامها إياهم . تزوَّجها رسول الله ﷺ في رمضان على رأس واحدٍ وثلاثين شهراً من الهجرة ، فمكثت عنده ثمانية أشهر ، وتُوُفِّيَتْ في حياته ﷺ في آخر ربيعٍ الأوَّل على رأس تسعة وثلاثين شهراً ، ودفنت في مدينة رسول الله ﷺ[1] .

كانت زينب بنت خزيمة تحت عبد الله بن جحش بن رئاب ، الَّذي قُتل في معركة أُحدٍ شهيداً في سبيل الله تعالى ، فتزوَّجها ﷺ إكراماً لها بعد أن فُجِعَتْ بقتل زوجها في معركة أُحدٍ ، ولم يتركها أرملةً وحيدةً ، فكأنَّه ﷺ كافأها على فضائلها بعد مصاب زوجها[2] .

ثانياً : زواج النَّبيِّ ﷺ بأمِّ سلمةَ رضي الله عنها :

هي هند بنت أبي أميَّة حُذافة بن المغيرة القرشيَّة المخزومية ، كانت زوجة ابن عمِّها أبي عبد الله بن عبد الأسد ، وزوجها هذا هو ابن عمَّة الرَّسول ﷺ برَّة بنت عبد المطلب ، وهو أيضاً أخو رسول الله ﷺ من الرَّضاعة ، وقد هاجرت أمُّ سلمة رضي الله عنها وزوجُها أبو سلمةَ إلى الحبشة فراراً بدينهما من المشركين ، ثمَّ رجعا إلى مكَّة وهاجرا إلى المدينة بعد أن هاجر إليها رسول الله ﷺ والمسلمون[3] .

١ ـ حديث أمِّ سلمةَ لأبي سلمةَ رضي الله عنهما :

قالت أُمُّ سلمة لأبي سلمة : بلغني : أنه ليس امرأةٌ يموت زوجها ؛ وهو من أهل الجنَّة ، ثمَّ لم

---

(١) انظر : تفسير القرطبيّ (١٤/ ١٦٦) .
(٢) انظر : المفصَّل في أحكام المرأة ، لعبد الكريم زيدان (١١/ ٤٦٩) .
(٣) انظر : سير أعلام النُّبلاء (٢/ ٢٠٢) .

تتزوَّج بعده ، إلا جمع الله بينهما في الجنَّة ؛ فتعال أعاهدك ألا تزوَّج بعدي ، ولا أتزوَّج بعدك! قال: أتطيعينني؟ قالت: نعم. قال: إذا متُّ تزوَّجي ، اللّهم! ارزق أمَّ سلمة بعدي رجلاً خيراً منِّي ، لا يحزنها ، ولا يُؤذيها. فلمَّا مات؛ قلتُ: مَنْ خيرٌ من أبي سلمة؟ فما لبث وجاء رسولُ الله ﷺ ، فقام على الباب فذكر الخطبة إلى ابن أخيها ، أو ابنها ، فقالت: أردُّ على رسول الله ﷺ ، أو أتقدَّم عليه بعيالي ، ثمَّ جاء الغد ، فخطب[(١)].

٢ ـ دعاءُ أمِّ سلمة لمَّا توفِّي زوجُها:

لمَّا تُوفي زوجُها أبو سلمة من أثر جراحاتٍ أصابته في قتاله للمشركين ، وكانت تحبُّه ، وتجلُّه ، جاءت للنَّبيِّ ﷺ ، فقالت: يا رسول الله! إنَّ أبا سلمةَ قد مات! قال ﷺ «قولي: اللَّهم! اغفر لي ، وله ، وأعقبني[(٢)] منه عُقْبَىٰ حَسَنَةً». قالت: فقلت ، فأعْقَبَنِي اللهُ مَنْ هو خَيْرٌ لي منه محمَّداً ﷺ. [أحمد (٦/ ٢٩١ و٣٠٦) ، ومسلم (٩١٩) ، وأبو داود (٣١١٥) ، والنسائي (٤/ ٤) ، وابن ماجه (١٤٤٧)].

٣ ـ حوار رسول الله ﷺ لأمِّ سلمة عندما خطبها:

قال عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما: إنَّ أمَّ سلمة لما انقضت عدَّتها ، خطبها أبو بكر ، فردَّته ، ثمَّ خطبها عمر ، فردَّتـه ، فبعث إليها رسول الله ﷺ ، فقالت مرحباً: أخبِرْ رسولَ الله: أنِّي غَيْرَى[(٣)] ، وأنِّي مُصْبِيةٌ[(٤)] وليس أحدٌ من أوليائي شاهداً.

فبعث إليها: «أمَّا قولك: إنِّي مصبيةٌ فإنَّ الله سيكفيك صبيانك. وأمَّا قولُك: إنِّي غيرى ، فسأدعو الله أن يُذْهِبَ غيرتك. وأمَّا الأولياء ، فليس أحدٌ منهم إلا سيرضى بي» [أحمد (٦/ ٣١٣ ـ ٣١٤) ، والنسائي (٦/ ٨١ ـ ٨٢)][(٥)] وفي روايةٍ: إنِّي امرأة قد أدبر من سنِّي. فكانت إجابة رسول الله ﷺ لها: «وأمَّا السِّنُّ؛ فأنا أكبر منك» [طبقات ابن سعد (٨/ ٩٠)] وهكذا أحسن إليها ﷺ الجواب ، وما كان إلا محسناً[(٦)].

قالت أمُّ سلمة: يا عمر «أي ابنها»! قم فزوِّجْ رسولَ الله ﷺ. [انظر الحديث قبل السابق]. قال ابن كثير في تعليقه على قول أمِّ سلمة: قم يا عمر فزوِّج النَّبيَّ ﷺ: تعني: قد رضيت ، وأذنت ، فتوهَّم بعضُ العلماء: أنَّها تقول لابنها عمر بن أبي سلمة وقد كان ذاك صغيراً لا يلي مثلُه العقد ،

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣). وقال المحقِّق: أخرجه ابن سعد ، ورجاله ثقاتٌ.
(٢) وأعقبني: أي: بدِّلني وعوِّضني منه ، أي: في مقابلته. عقبى حسنة: أي: بدلاً صالحاً.
(٣) غيرى: كثيرة الغيرة.
(٤) مُصبية: أي: ذات صبيان ، وأولاد صغار.
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤) وإسناده صحيحٌ.
(٦) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٠).

وقد جمعتُ في ذلك جزءاً مفرداً بيَّنت فيه الصَّواب في ذلك ، ولله الحمد والمنَّة ، وإنَّ الذي ولي عقدها عليه ابنُها سلمة بن أبي سلمة ، وهو أكبر ولدها[١] .

٤ ـ تأثيث رسول الله ﷺ لبيت أمِّ سَلمةَ ، ومعاملته لها :

فلمَّا وافقت على الزَّواج ؛ قال لها رسولُ الله ﷺ : «أما إنِّي لا أُنقصكِ ممَّا أَعْطَيْت فلانة ؛ رحيين ، وجرَّتين ، ووسادةً من أَدَمٍ حشوها ليفٌ» [انظر الحديث قبل السابق] .

وكانت أمُّ سلمـة قد ولـدت طفلـةً من زوجها أبي سلمة بعد موته ، فعندما تزوَّجها ﷺ ؛ جعل يأْتيها ، فـإذا جاء ؛ أخذت زينبَ ، فوضعتها في حجرهـا لترضعها ، وكان ﷺ حييّاً كريماً يستحيي ؛ فيرجع ، ففعل ذلك مراراً[٢] ، ففطن عمَّار بن ياسر رضي الله عنه وهو أخٌ لأم سلمة من أمِّها «سميَّة» الشَّهيدة التي قتلها أبو جهل ، فأطلق قدميه نحو بيت أخته أمِّ سلمة ، فأخذ ابنةَ أختِه ليسترضعها في بيتـه ، أو عنـد أحد النِّسـاء ، فجـاء رسول الله ﷺ فقال : «أين زناب؟» ، فقالت قريبة ابن أبي أميَّة ـ ووافقها عندها[٣] ـ : أخذها عمَّار بن ياسر . فقال ﷺ : «إني آتيكم اللَّيلة» .

قالت أمُّ سلمة : فقمتُ ، فوضعتُ ثِفَالي[٤] ، وأخرجتُ حبَّاتٍ من شعيرٍ كانت في جَرَّتي ، وأخرجتُ شحماً ، فعصدته ، ثمَّ بات ، ثمَّ أصبح ، وقال حين أصبح : «إنَّ بك على أهلك[٥] كرامةً ، فإن شئت ؛ سبَّعت[٦] لك ، وإن أسبعْ لكِ أسبعْ لنسائي [مسلم (١٤٦٠/ ٤١ و٤٣) ، وأبو داود (٢١٢٢)] ، وإن شئت ثَلَّثْتُ ، ثمَّ دُرْتُ !» قالت : ثَلِّثْ[٧] ؛ فأقام النَّبيُّ ﷺ ثلاثة أيام عند أمِّ سلمة ، ثمَّ قال ﷺ : «للبكر سبعٌ ، وللثَّيب ثلاثٌ» [مسلم (١٤٦٠/ ٤٢)] ، وهذه المدَّة هي مدة إقامة المتزوِّج عند زوجته إذا كان عنده غيرها .

أقام ﷺ عند أمِّ سلمة رضي الله عنها ثلاثة أيام سعيدةً ، ثمَّ رتَّب لها يوماً كبقيَّة زوجاته .

٥ ـ تغيير اسم بَرَّة بنت أبي سلمة :

تقول تلك الطِّفلةُ اليتيمة رضي الله عنها : إن النبي ﷺ دخل على أم سلمة حين تزوجها واسمي بَرَّة ، فسمعها تدعوني بَرَّة ، فقال : «لا تزكُّوا أنفسكم ؛ فإنَّ الله هو أعلم بالبَرَّة منكنَّ ،

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٩٢) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٠٤) .

(٣) أي : توافق مجيءُ النَّبي ﷺ مع زيارة تلك المرأة لأمِّ سلمة .

(٤) الثِّفَالُ : هو ما يُبْسَطُ تحت الرَّحَىٰ عند الطَّحن من جِلْدٍ ، وغيره ؛ ليسقط عليه الدَّقيقُ .

(٥) على أهلك : يقصد نفسه ﷺ .

(٦) أي : أقمتُ عندك سبعة أيام .

(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة كما جاءت من الأحاديث الصَّحيحة ، للصوياني (٣/ ١٣٦) .

والفاجرة ، سمِّيها زينب» ، فقالت أمُّ سلمة : فهي زينب . [مسلم (٢١٤٢/١٩) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢١)] .

وهذا من هدي النَّبيِّ ﷺ ، فقد كان يحبُّ الأسماء الجميلة ، ولم يكن ﷺ يغيِّر أسماء الأطفال فقط ، بل كان للرِّجال ، والنِّساء ، والعجائز نصيبٌ من ذلك الذَّوق النَّبويِّ الرَّفيع ، فقد ذُكِرَ عند رسول الله ﷺ رجلٌ يقال له : شِهَاب ، فقال رسول الله ﷺ : «بل أنت هشام» [البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥) ، وأحمد (٦/ ٧٥) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٥١)] .

و(كان ﷺ إذا أتاه الرَّجل ، وله اسم لا يحبُّه ؛ حوَّله) [الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ١١٩) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٥١)] ، إلى اسـم أجمل ، وألطف ، وكان ﷺ يفعل ذلك مع العجائز ؛ فهذه عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا ؛ حيث تقول : جاءت عجوزٌ إلى النَّبيِّ ﷺ وهو عندي ، فقال لها رسول الله ﷺ : «من أنت؟» قالت : جَثَّامة الْمُزَنِيَّة .

فقال : «بل أنت حَسَّانة المزنيَّة! كيف أنتم؟ كيف حالُكم؟ كيف كنتم بعدنا؟» قالت : بخير ، بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله!

فقُرِّب إليه لحمٌ ، فجعل يناولها ، فقلتُ : يا رسولَ الله! لا تغمر يدك . فلمَّا خَرَجَتْ قلتْ : يا رسول الله! تُقْبِلُ على هذه العجوز هذا الإقبال؟! فقال : «إنَّها كانت تأتينا زَمَن خديجة ، وإنَّ حُسْنَ العهد من الإيمان» [البيهقي في شعب الإيمان (٩١٢٢) ، والحاكم (١/ ١٦) ، والألباني في الصحيحة (٢١٦)] .

٦ ـ الحكمة في زواج أمِّ سلمة :

والحكمة في هذا الزَّواج ـ كما يقول صاحب تفسير المنار ـ : ليس لأجل التَّمتُّع المباح له ؛ وإنَّما كان لفضلها ؛ الذي يعرفه المتأمِّل بجودة رأيها يوم الحديبية ، ولتعزيتها ـ أي : بوفاة زوجها[١] ـ ولا ننسى كذلك : أنَّ أم سلمة من بني مخزوم أعزِّ بطون قريشٍ ، وهي الَّتي كانت تحمل لواء الحرب والمواجهة ضدَّ رسول الله ﷺ ، ووراء هذا الزَّواج تفتيت حقد هذه القبيلة ، وتقريب قلوب أبنائها ، وتوطئةٌ ، وتحبُّبٌ إليهم ليدخلوا في الإسلام بعد أن صاروا أصهارَ رسول الله ﷺ[٢] .

وفي هذا الزَّواج فقه النَّبيِّ ﷺ في البناء الدَّاخليِّ للأمَّة ، وتأدية حقِّ الشُّهداء في زوجاتهنَّ ،

---

(١) انظر : تفسير المنار (٤/ ٣٧٢) .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٣٥٦) .

وحقُّ هؤلاء الزَّوجات من أن يَنْهَلْنَ من نور النُّبوَّة ما يشاء الله أن ينهلْنَ لكي يُبَلِّغْنَ عن رسول الله[١].

وكانت أمُّ سلمة آخرَ مَنْ مات من أمَّهات المؤمنين ، وكانت وفاتُها سنةَ إحدى وستين ، وقد رَوَتْ عن رسول الله أحاديث ، يبلغ مسندها ثلاثمئة وثمانية وثمانين حديثاً؛ واتَّفق البخاريُّ ، ومسلمٌ على ثلاثة عشرة ، وانفرد البخاريُّ بثلاثةٍ ، ومسلمٌ بثلاثة عشر[٢]. لقد ساهمت في نشر العلم والحكمة عن رسول الله ﷺ ، وبموتها انطفأ آخر مصباحٍ من مصابيح أمَّهات المؤمنين طالما شَعَّ النُّورَ ، والهُدى ، والعلم؛ فرضي الله عنها ، وأرضاها![٣].

ثالثاً: مولد الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما:

قال الإمام القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: وُلد الحسنُ في شعبان من السَّنة الرَّابعة ، وعلى هذا ولد الحسين قبل تمام السَّنة من ولادة الحسن ، ويؤيِّده ما ذكره الواقديُّ: أنَّ فاطمة علقَتْ بالحسين بعد مولد الحسن بخمسين ليلةً ، وجزم النَّواويُّ في التَّهذيب أنَّ الحسن وُلِد لخمسٍ خلونَ من شعبان سنة أربعٍ من الهجرة[٤].

يقول عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه: لمَّا ولد الحسن سمَّيْتُه حرباً ، فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: أروني ابني! ما سمَّيتموه؟ قلت: حرباً! قال ﷺ: بل هو حسنٌ. [أحمد (١/ ٩٨ و١١٨) ، وابن حبان (٦٩٥٨) ، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٣) ، والطبراني في الكبير (٢٧٧٣) ، والحاكم (٣/ ١٨٠) ، والبزار (١٩٩٧) ، ومجمع الزوائد (٨/ ٥٢)].

وهكذا غيَّر ﷺ ذلك الاسمَ الحادَّ باسمٍ جميلٍ ، يُدخل السُّرور ، والفرحة على القلوب.

فحمل المولودُ الجديدُ اسمه الجميلَ ، وحمله ﷺ بين يديه ، وقَبَّلَه ، وهذا أبو رافع يخبرنا عن فعل رسول الله ﷺ؛ يقول: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ أذَّن في أُذُنَي الحسن ـ حين ولدته فاطمةُ ـ بالصَّلاة. [أحمد (٦/ ٩ و٣٩٢) ، وأبو داود (٥١٠٥) ، والترمذي (١٥١٤)].

وحدَّثنا أبو رافع عن عقيقة الحسن ، فقال: لما وَلَدَتْ فاطمةُ حسناً؛ قالت: ألا أعقُّ[٥] عن ابني بدمٍ (بكبشين)؟ قال ﷺ: «لا ، ولكن احلقي رأسه ، وتصدَّقي بوزن شعره من فضَّةٍ على المساكين ، والأوفاض» وكان الأوفاض ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ محتاجين في

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٥٧).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢١٠).

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

(٤) انظر: شذرات الذَّهب ، لابن العماد الحنبلي (١/ ١٠).

(٥) عقَّ عن ولده عقاً: ذبح ذبيحةً يوم سُبُوعه. العقيقة: الذَّبيحة التي تُذبح عن المولود يوم سبوعه عند حَلْقِ شعره ، والجمع عَقَائِقُ.

المسجد ، أو الصُّفة. ففعلتُ ذلك. [أحمد (٣٩٠ و٣٩١)].

وأحبَّ ﷺ أن يقدِّم عقيقة الحسن ، فعقَّ عنه كبشين. [النسائي (٧/ ١٦٦)](١).

وقد قال ﷺ في العقيقة: «كلُّ غلامٍ مرتَهَنٌ بعقيقته؛ يُذبح عنه يوم سابعه ، ويُحْلَقُ رأسُه ، ويُسَمَّى». [أحمد (٥/ ٧ و٨ و١٢ و١٧ و٢٢) ، وأبو داود (٢٨٣٧ و٢٨٣٨) ، والترمذي (١٥٢٢) ، والنسائي (٧/ ١٦٦) ، وابن ماجه (٣١٦٥)].

رابعاً: زيد بن ثابت رضي الله عنه يتعلم لغة اليهود سنة (٤ هـ):

وفي هذه السَّنة تعلَّم زيدُ بن ثابت كتابة اليهود ، فعن خارجةَ بن زيد بن ثابتٍ عن زيد بن ثابتٍ: أنَّ رسول الله ﷺ أمره أن يتعلَّم كتابَ اليهود؛ ليقرأه للنَّبيِّ ﷺ إذا كتبوا إليه [البخاري (٧١٩٥)] ، فتعلَّمه في خمسة عشرَ يوماً ، وفي روايةٍ أخرى: أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا قدم المدينة ، ذُهب بزيد إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا: يا رسولَ الله ، هذا غلامٌ من بني النَّجار ، معه ممَّا أنزل اللهُ عليك بضعَ عشرةَ سورةً ، فأعْجبَ ذلك رسولَ الله ﷺ ، وقال: «يا زيد! تعلَّمْ لي كتاب يهود ، فإنِّي والله ما آمن يهود على كتاب» قال زيد: فتعلَّمت له كتابَهم ، ما مرَّت خمس عشرة ليلةً حتى حذقْتُه ، وكنت أقرأ له كتبهم؛ إذا كتبوا إليه ، وأجيب عنه إذا كتب. [أحمد (٥/ ١٨٦) ، وأبو داود (٣٦٤٥) ، والترمذي (٢٧١٥)](٢).

وبهذا الخبر يتَّضح: أنَّ للتَّرجمان مكانةٌ رفيعةٌ في الدَّولة؛ إذ هو الَّذي يَطَّلع على أسرار الدَّولة وما يأتيها من مراسلاتٍ ، أو ما ترسله من مُخاطباتٍ؛ إذ لا يصحُّ أن يطَّلع كلُّ إنسان على تلك الكتب الصَّادرة ، والواردة؛ لئلا تختلَّ الدَّولة ، وتُكشَفَ أسرارُها؛ ولذلك أمر النَّبيُّ ﷺ زيدَ بن ثابت أن يتعلَّم لغة اليهود(٣).

وتَعَلُّمُ زيد بن ثابت لغة يهود في خمسة عشر يوماً يدلُّ على ذكاءٍ مُفْرطٍ ، وقوَّةِ حافظةٍ ، وقد كان رضي الله عنه ممَّن حفظ القرآن كلَّه على عهد رسول الله ﷺ ، ومن أشهر كُتَّاب الوحي بين يديه ، وهو الَّذي تولَّى كتابة القرآن وحده في الصُّحف في عهد الصِّدِّيق ، وكان أحدَ كاتبي المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه ، وأمْرُ رسولِ الله ﷺ زيداً بتعلُّم لغة اليهود ، وكتابتهم يدلُّ على أنَّ الإسلام يحبِّب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم ، ويتعرَّف على علومهم ، ومعارفهم؛ ولا سيَّما إذا دعت لذلك ضرورةٌ(٤).

* * *

(١) انظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة للصّوياني (٣/ ١٠٦).
(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٤٢٩).
(٣) انظر: زيد بن ثابت كاتب الوحي وجامع القرآن ، لصفوان داودي ، ص ٨٠ ـ ٨١.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٤٩).

المبحث الثَّالث
إجلاء يهود بني النَّضير(١)

أصابَ يهودَ المدينة الخوفُ ، والرُّعبُ طيلةَ الفترة الَّتي تفصلُ بين مقتل كعب بن الأشرف ، وبين معركة أُحدٍ؛ الَّتي جرت في شوال عام (٣ هـ)؛ ولكن الهزيمة الَّتي حَلَّتْ بالمسلمين في تلك المعركة أحيت في نفوس المشركين والمنافقين الأمل مِنْ جديدٍ بتحقيق مطامعهم ، وأغراضهم ، وأزالت من قلوب اليهود الهَلَعَ(٢) على المصير ، وممَّا ساهم في تبديد هذا الهلع عندهم مقتلُ أصحاب الرَّجيع ، وبئر مَعُونة ، وبذلك لم يَدُمْ خوفُ اليهود طويلاً ، وعادوا إلى أساليب الدَّسِّ ، والمكر ، والخداع ، وشرعوا في حشد حصونهم بالسِّلاح ، والعتاد للانقضاض على المسلمين ، ودولتهم ، ثمَّ صمَّموا على قتل النَّبيِّ ﷺ ، والغدر به(٣) .

أولاً: تاريخ الغزوة وأسبابها:

أ ـ تاريخ الغزوة:

يرى المحقِّقون من المؤرِّخين: أنَّ غزوة بني النَّضير ، كانت بعد أُحدٍ في ربيع الأوَّل من السَّنة الرَّابعة من الهجرة ، وقد ردَّ ابنُ القيِّم على من زعم: أنَّ غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ [البخاري تعليقاً (٧/ ٤١٨)] بقوله: «وزعم محمَّد بن شهاب الزُّهريُّ: أن غزوة بني النَّضير كانت بعد بدرٍ بستة أشهرٍ ، وهذا وَهْمٌ منه ، أو غلطٌ عليه ، بل الَّذي لا شكَّ فيه: أنَّها بعد أُحدٍ ، والَّذي كانت بعد بدر بستة أشهرٍ هي غزوة بني قينقاع ، وقريظة بعد الخندق ، وخيبر بعد الحديبية»(٤) .

وقال ابن العربيِّ: والصَّحيح أنَّها بعد أُحد(٥)، وإلى هذا الرَّأي ذهب ابن كثيرٍ(٦) .

---

(١) ينظر الشكلان (٦ و٧) في الصفحتين (٦١٠ و٦١١).
(٢) هَلَع هلعاً: جزع جزعاً شديداً.
(٣) انظر: التاريخ السياسي والعسكري ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٩).
(٥) انظر: أحكام القرآن ، لابن العربي (٤/ ١٧٦٥).
(٦) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٢٥٤).

ب ـ أسباب الغزوة:

هناك مجموعةٌ من الأسباب حملت النَّبيَّ ﷺ على غزو بني النَّضير، وإجلائهم؛ من أهمها:

١ ـ نَقضُ بني النَّضير عهودَهم؛ الَّتي تحتِّم عليهم ألا يؤووا عدوّاً للمسلمين ولم يكتفوا بهذا النَّقض؛ بل أرشدوا الأعداء إلى مواطن الضَّعف في المدينة.

وقد حصل ذلك في غزوة السَّويق[1]؛ حيث نذر أبو سفيان بن حرب حين رجع إلى مكَّة ـ بعد غزوة بدرٍ ـ نذراً؛ ألا يمسَّ رأسَه ماءٌ من جنابة حتَّى يغزوَ المدينة، فلمَّا خرج في مئتي راكبٍ قاصداً المدينة؛ قام سيد بني النَّضير سلاَّم بن مِشْكَم بالوقوف معه، وضيافته، وأبطن له خبر النَّاسِ، ولم تكن مخابرات المدينة غافلةً عن ذلك[2].

قال موسى بن عقبة ـ صاحب المغازي ـ: «كانت بنو النَّضير قد دسُّوا إلى قريشٍ، وحضُّوهم على قتال رسول الله ﷺ، ودلُّوهم على العورة»[3].

٢ ـ محاولة اغتيال النَّبيِّ ﷺ:

خرج النَّبيُّ ﷺ في نفر من أصحابه عن طريق قُباء إلى ديار بني النَّضير، يستعينهم في دية القتيلين العامريَّين اللَّذين ذهبا ضحيةَ جهل عمرو بن أميَّة الضَّمري بجوار رسول الله ﷺ لهما، وذلك تنفيذاً للعهد الذي كان بين النَّبيِّ ﷺ وبين بني النَّضير حول أداء الدِّيات، وإقراراً لما كان يقوم بين بني النَّضير وبين بني عامر من عقودٍ، وأحلاف.

استقبل بنو النَّضير النَّبيَّ ﷺ بكثيرٍ من البشاشة، والكياسة، ثمَّ خلا بعضهم إلى بعضٍ يتشاورون في قتله، والغدر به، ويبدو أنَّهم اتَّفقوا على إلقاء صخرةٍ عليه ﷺ من فوق جدارٍ كان يجلس بالقرب منه، ولكنَّ الرسول ﷺ ـ الَّذي كان برعاية الله وحفظه ـ أدرك مقاصد بني النَّضير؛ إذ جاءه الخبر من السَّماء بما عزموا عليه مِنْ شَرٍّ، فنهض، وانطلق بسرعةٍ إلى المدينة، ثمَّ تبعه أصحابه بعد قليلٍ[4].

لم تكن مؤامرةُ بني النَّضير؛ الَّتي أفشلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ تستهدف شخص النَّبيِّ ﷺ فحسب؛ بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة، والدَّعوة الإسلاميَّة برُمَّتها، لذا صمَّم

---

(١) غزوة السَّويق كانت بعد بدر وقد تحدَّثت عنها في المبحث الثامن من الفصل الثامن من هذا الكتاب.

(٢) انظر: تاريخ الطَّبري (٢/ ٢٨٤).

(٣) انظر: فتح الباري، كتاب المغازي، باب حديث بني النَّضير (٧/ ٣٣٢).

(٤) انظر: الواقدي (١/ ٣٦٥)، والتَّاريخ السِّياسي والعسكري، ص ١٩٠.

محمَّد ﷺ على محاربة بني النَّضير؛ الَّذين نقضوا العهد، والمواثيق معه، وأمر أصحابه بالتَّهيُّؤ لقتالهم، والسَّير إليهم[١].

هذه الأسباب وغيرها أدَّت إلى غزوة بني النَّضير، وقد ذكَّر القرآن الكريم المؤمنين بهذه النِّعمة الجليلة، وكيف نجى اللهُ نبيَّه ﷺ من مكر يهود بني النَّضير قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١].

وقد أورد المفسِّرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة رواياتٍ؛ منها:

أخرج الطَّبريُّ عن أبي زيادٍ قال: جاء رسولُ الله ﷺ بني النَّضير ليستعينهم في عقل[٢] أصحابه، ومعه أبو بكر، وعمر، وعلي، فقال: أعينوني في عقل أصابني، فقالوا: نعم يا أبا القاسم! قد آن لك أن تأتينا، وتسألنا حاجةً، اجلس حتَّى نطعمك، ونعطيك الَّذي تسألنا، فجلس رسول الله ﷺ، وأصحابه ينتظرون، وجاء رأسُ القوم، وهو الَّذي قال لرسول الله ﷺ ما قال، فقال لأصحابه: لا ترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارةً، فاقتلوه، ولا ترون شراً أبداً.

فجاؤوا إلى رحى لهم عظيمةٍ؛ ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى جاء جبريل عليه السلام فأقامه مِنْ ثَمَّ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فأخبر الله نبيَّه ﷺ ما أرادوا به. [ابن جرير في تفسيره (٦/ ١٤٤ ـ ١٤٥)].

وذكر محمَّد بن إسحاق ومجاهد، وعكرمة، وغير واحدٍ[٣]: أنَّها نزلت في شأن بني النَّضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرَّحىٰ، لمَّا جاءهم يستعينهم في دية العامريَّين، ووكَّلوا عمرو بن جحاش بذلك: إن جلس النَّبيُّ ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده؛ أن يلقي الرَّحى مِنْ فوقه، فأطلع الله النَّبيَّ ﷺ على ما تماروا عليه، فرجع إلى المدينة، وتبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك هذه الآية[٤].

وقد رجَّح ابن جرير أن تكون الآية قد نزلت بسبب ما أضمره بنو النَّضير من كيدٍ، وسوءٍ للنَّبيِّ ﷺ، وأصحابه، فقال: «وأولى الأقوال بالصِّحَّة في تأويل ذلك قول مَنْ قال: عنى اللهُ

---

(١) انظر: التَّاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة، ص ١٩٠.
(٢) عقل عن فلان: حمل عنه العاقلة، وهي الدِّيةُ.
(٣) هذه الآثار وإن كان فيها ضعفٌ يمكن أن تعضد؛ لتصبح بمجموعها صالحةً للاحتجاج بها. انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة، ص ١٤٥.
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

بالنِّعمة الَّتي ذكر في هذه الآية نعمته على المؤمنين به ورسوله الَّتي أنعم بها عليهم في استنقاذه نبيَّهم ﷺ ممَّا كانت يهود بني النَّضير همَّت به مِنْ قتله ، وقتل مَنْ معه يوم سار إليهم في الدِّيَة الَّتي تحمَّلها عن قتيلي عمرو بن أميَّة. وإنَّما قلنا: أولى بالصِّحَّة في تأويل ذلك؛ لأنَّ الله عقَّب ذلك برمي اليهود بسوء صنائعها ، وقبيح فِعَالها ، وخيانتها ربَّها ، وأنبياءها»[١].

وقد وافق الدُّكتور محمد آل عابد ترجيح الطَّبريِّ ، وقال: لا مانع أن تكون الآية الكريمة نزلت بعد تلك الحوادث مجتمعةً ، فقد تعدَّدت الحوادث ، والمنزل واحدٌ كما قال العلماء[٢].

ومعنى الآيـة الكريمة: أي: اذكروا نعمـة الله عليكم ، الَّتي من أكبـر مظاهرها كفُّه عنكم أيدي اليهود؛ الَّذين همُّوا أن يمدُّوا أيديهم بالسُّوء إلى نبيِّكم ، وشارَفُوا أن ينفِّذوا مؤامرتهم الخبيثـة ، ولكنَّ الله أحبـط مكرَهم ، ونـجَّىٰ نبيَّـكم ﷺ من شرورهم.

ثمَّ أمر ـ سبحانه ـ بتقواه والتوكُّل عليه ، فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: اتقوا الله ـ أيُّها المؤمنون ـ في رعاية حقوق نعمته ، ولا تُخلُّوا بشكرها ، فقد أراكم قدرته ، وتوكَّلوا عليه وحدَه ، فقد أراكم عنايته بكم ، وعلى الله وحدَه فليتوكَّل المؤمنون[٣].

ثانياً: إنذار بني النَّضير بالجلاء وحصارهم:

أ ـ إنذار بني النَّضير:

سجَّلت معظمُ كتب السِّيرة النَّبويَّة ، خبرَ إنذار النَّبيِّ ﷺ لبني النَّضير بالجلاء خلال عشرة أيام ، وقد أرسل ﷺ محمَّدَ بن مسلمة رضي الله عنه إليهم ، وقال له: اذهبْ إلى يهود بني النَّضير ، وقل لهم: إنَّ رسولَ الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي؛ لقد نقضتُم العهد الَّذي جعلت لكم ممَّا هممتم به من الغدْر ، وقد أجَّلتُكم عشراً ، فمن رُئي بعدُ منكم ضربتُ عنقَه[٤]. ولم يجدوا جواباً يردُّون به سوى أن قالوا لمحمَّد بن مسلمة: يا محمد! ما كنَّا نظن أن يجيئنا بهذا رجلٌ من الأوس! فقال محمَّد: تغيَّرت القلوب ، ومحا الإسلامُ العهود. فقالوا: نتحمَّل؛ فمكثوا أياماً يُعِدُّون العدَّة للرَّحيل[٥].

وفي تلك المدَّة أرسل إليهم عبد الله بن أُبيِّ بن سلول مَنْ يقول لهم: اثبتُوا ، وتَمَنَّعُوا؛ فإنَّا

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٦/ ١٤٤ ـ ١٤٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٥١).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٥٢).
(٤) انظر: طبقات ابن سعد الكبرى (٢/ ٥٧) ، والمغازي ، للواقديِّ (١/ ٣٦٣ ـ ٣٧٠).
(٥) انظر: تاريخ الطَّبري (٢/ ٥٥٢).

لن نُسْلِمَكم ، وإن قُوتلتم؛ قاتلنا معكم ، وإن أُخرجتم خرجنا معكم[١] ، ولا تخرجوا فإنَّ معي من العرب ، وممَّن انضوى إلى قومي ألفين ، فأقيموا ، فهم يدخلون معكم حصونكم ، ويموتون عن آخرهم قبل أن يَصِلوا إليكم[٢].

فعادت لليهود بعضُ ثقتهم ، وتشجَّعَ كبيرُهم (حُيي بن أخطب) وأرسل إلى النَّبيِّ ﷺ جُدَي بن أخطب يقول له: إنَّا لن نرِيمَ - أي: لن نبرح - دارنا ، فاصنعْ ما بدا لك! فكبر رسولُ الله ﷺ ، وكبَّر المسلمون معه ، وقال: حاربت يهود[٣].

ب - ضرب الحصار وإجلاؤهم:

وانقضت الأيام العشرة ، ولم يخرجوا من ديارهم ، فتحرَّكت جيوشُ المسلمين صوبهم ، وضربت عليهم الحصارَ لمدَّة خمس عشْرَة ليلةً.

وأمر ﷺ بحرق نخيلهم، وقضى بذلك على أسباب تعلُّقهم بأموالهم، وزروعهم، وضعفت حماستُهم للقتال ، وجَزِعوا ، وتصايحوا: يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على مَنْ يفعله؛ فما بالُ قطع النَّخيل ، وتخريبها؟!

وألقى اللهُ في قلوبهم الرُّعْبَ ، وأدرك بنو النَّضير ألاَّ مفرَّ من جلائهم ، ودبَّ اليأس في قلوبهم ، وخاصَّةً بعد أن أخلف ابن أُبَيٍّ وعده بنصرهم ، وعجِز إخوانهم أن يسوقوا إليهم خيراً ، أو يدفعوا عنهم شراً؛ فأرسلوا إلى النَّبيِّ ﷺ يلتمسون منه أن يؤمِّنهم حتَّى يخرجوا من ديارهم ، فوافقهم النَّبيِّ ﷺ على ذلك ، وقال لهم: «اخرجوا منها ، ولكم دماؤكم ، وما حملت الإبل إلا الحَلقة - وهي الدُّروع ، والسِّلاح -»؛ فرضوا بذلك[٤].

ونقض اليهود سُقُفَ بيوتهم ، وعَمُدَها ، وجدرانها لكي لا ينتفع منها المسلمون.

وحملوا معهم كمياتٍ كبيرةً من الذَّهب ، والفضَّة ، حتَّى إن سلاَّم بن أبي الحُقَيْق وحده حمل جلدَ ثورٍ مملوءً ذهباً ، وفضَّةً ، وكان يقول: هذا الَّذي أعددناه لرفع الأرض ، وخفضها ، وإن كنَّا تركنا نخلاً ففي خيبر النَّخل[٥].

وحملوا أمتعتهم على ستمئة بعيرٍ ، وخرجوا ومعهم الدُّفوف ، والمزامير ، والقيان يعزفن

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/ ٢١٢).
(٢) انظر: تاريخ الطَّبري (٢/ ٥٥٣).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير (٣/ ١٤٦).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٥٧).
(٥) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٥٦٦).

من خلفهم حتَّى لا يشمت بهم المسلمون ، فقصد بعضهم خيبر ، وسار آخرون إلى أذرعات الشَّام[(١)] .

وقد تولَّى عمليَّة إخراجهم من المدينة محمَّد بن مسلمة بأمرٍ من رسول الله ﷺ[(٢)] .

وكان من أشرافهم الَّذين ساروا إلى خيبر : سَلاَّم بن أبي الحُقَيْق ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحُقَيْق ، فلمَّا نزلوها دان لهم أهلُها[(٣)] .

ثالثاً: الدُّروس ، والعِبَرُ في هذه الغزوة:

تحدَّث القرآن الكريم عن غزوة بني النَّضير في سورةٍ كاملة ، هي سورة الحشر ، وقد سَمَّى حَبْرُ الأمَّة عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما سورة الحشر بسورة بني النَّضير ، ففي البخاريِّ عن سعيد بن جُبَيْر ، قال: قلتُ لابن عباسٍ رضي الله عنهما: سورة الحشر ، قال: قلْ سورة بني النَّضِير . [البخاري (٤٠٢٩)] .

وقد بينت هذه السُّورة ملابسات هذه الغزوة ، وفصَّلت القول فيها ، وبيَّنت أحكام الفيء ، ومن هم المستحقون له ، وأوضحت موقف المنافقين من اليهود ، كما كشفت عن حقائق نفسيَّات اليهود ، وضربت الأمثال لعلاقة المنافقين باليهود ، وفي أثناء الحديث عن الغزوة وَجَّه سبحانه خطابه إلى المؤمنين ، وأمرهم بتقواه ، وحذَّرهم من معصيته ، ثمَّ تحدث سبحانه عن القرآن الكريم ، وعلوِّ منزلته ، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به سبحانه ، وهكذا كان المجتمع المسلم يتربَّى بالأحداث على التَّوحيد وتعظيم منهج الله ، والاستعداد ليوم القيامة ، وبالتأمُّل في السُّورة يمكننا استخراج بعض الدُّروس ، والعبر؛ من أهمها:

١ ـ الثناء على الله وتمجيده:

ابتدأت السُّورة بالثَّناء على الله ، وأن الكون كلَّه بجميع ما فيه من مخلوقاتٍ؛ من إنسانٍ ، وحيوانٍ ، ونباتٍ ، وجمادٍ ، ينزِّه الله ، ويمجِّده ، ويشهد بوحدانيته ، وقدرته ، وجلاله ، وناطقٌ بعظمته ، وسلطانه[(٤)]. قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١] .

كان استفتاح هذه السُّورة بالإخبار أنَّ جميع ما في السَّموات ، والأرض ، يسبِّح بحمد ربه ،

---

(١) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٥٦٥) ، حديث القرآن الكريم (١/ ٢٥٧) .
(٢) انظر: المغازي ، للواقديِّ (١/ ٣٧٤) ، واليهود في السُّنة المطهَّرة (١/ ٣٢١) .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢١٢) .
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣٢٧) .

وينزِّهه عمَّا لا يليق بجلاله، ويعبده، ويخضع لعظمته؛ لأنَّه العزيز، الَّذي قهر كلَّ شيءٍ، فلا يمتنع عليه شيءٌ، ولا يستعصي عليه عسيرٌ.

الحكيم في خلقه، وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يُشرِّع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مُقتضى حكمته؛ ومن ذلك نصره لرسوله ﷺ على الَّذين كفروا من أهل الكتاب، من بني النَّضير، حين غدروا برسوله ﷺ، فأخرجهم مِنْ ديارهم، وأوطانهم الَّتي ألفوها، وأحبُّوها[1].

٢ ـ الرُّعب جنديٌّ من جنود الله:

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٢ ـ ٤].

إنَّ المتأمِّل في هذه الآيات الكريمة يتبيَّن له: أنَّ الله هو الَّذي أخرج يهود بني النَّضير من ديارهم إلى الشَّام حيث أول الحشر، في حين أنَّ كلَّ الأسباب الماديَّة معهم؛ حتى إنَّهم اعتقدوا: أنَّه لا أحدَ يستطيع أن يخرجهم من حصونهم لمتانتها، وقوَّتها.

لكنَّ الله خالق الأسباب، والمسبَّبات، جاءهم من حيث لم يحتسبوا، جاءهم من قلوبهم الَّتي لم يتوقَّعوا: أنَّهم يهزمون بها، فقذف فيها الرُّعب، فإذا بهم يهدمون بيوتهم بأيديهم، وأيدي المؤمنين، وهذا الأسلوب القرآنيُّ الفريد يربِّي الأمَّة بالأحداث، والوقائع، وهو يختلف تماماً عن طريقة أهل السِّير، ويمتاز بأنَّه يكشف الحقائق، ويوضِّح الخفايا، ويربط الأحداث بفاعلها الحقيقيِّ، وهو ربُّ العالمين، ومن ذلك أنَّها بيَّنت: أنَّ الذي أخرج بني النَّضير هو الله جلَّ جلاله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾.

واستمرت الآية الكريمة تبيِّن: أنَّ يهود بني النَّضير حسبوا كلَّ شيءٍ، وأحاطوا بجميع الأسباب الأرضيَّة؛ لكن جاءتهم الهزيمة من مكانٍ اطمأنوا إليه، وهو أنفسهم، فإذا الرُّعب يأتي من داخلهم، فإذا بهم ينهارون في أسرع لحظةٍ، لذلك يجب على كل إنسانٍ عاقلٍ أن يعتبر بهذه الغزوة، وأن يعرف: أنَّ الله هو المتصرِّف في الأمور، وأنَّه لا تقف أمام قدرته العظيمة الأسباب، ولا المسبَّبات، فهو القادر على كلِّ شيءٍ؛ فعلى الناس أن يؤمنوا به تعالى،

---

(١) انظر: تفسير السَّعدي، تفسير الآيات من (١ ـ ٧) من سورة الحشر.

ويصلحوا أمرهم ، فإذا اتَّبعوا أمر الله ، أصلح الله لهم كلَّ شيءٍ ، وأخرج أعداءهم من حيث لم يحتسبوا .

إنَّ هذه الغزوة درسٌ للأمَّة في جميع عصورها ، تذكِّرهم أنَّ طريق النَّصر قريبٌ ، وهو الرُّجوع إلى الله والاعتماد عليه ، والتَّسليم لشريعته ، وتقديره حقَّ قدره ، فإذا عرف ذلك المؤمنون ، نصرهم الله ، ولو كان عدوُّهم قويّاً ، وكثيراً؛ فإن الله لا يعجزه شيء ، وأقرب شاهدٍ واقعيٍّ لذلك هو إجلاء بني النَّضير ، وهي عبرةٌ ، فليُعتبر بها ، والسَّعيدُ مَنِ اعتبر بغيره!

ثمَّ أوضح سبحانه : أنَّه لو لم يعاقبهم بالجلاء؛ لعذَّبهم في الدُّنيا بالقتل ، أما في الآخرة ، فلهم عذابُ النَّار[1] .

٣ ـ تخريب ممتلكات الأعداء :

لمَّا نزل رسول الله ﷺ بجيشه ، وحاصر بني النَّضير تحصَّنوا منه في الحصون ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النَّخل ، والتَّحريق فيها ، فنادوه يا محمد! قد كنتَ تنهى عن الفساد ، وتعيبه على مَنْ صنعه ، فما بال قطع النَّخل ، وتحريقها؟[2] ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر : ٥][3][4] .

وقد توسَّع الشَّيخ محمَّد أبو زهرة في شرح هذه الآية ، فقال ما ملخَّصه بعد أن ساق آراءَ الفقهاء في ذلك :

والذي ننتهي إليه بالنِّسبة لما يكون في الحرب مِنْ هدمٍ ، وتحريقٍ ، وتخريبٍ : أنه يُستفاد من مصادر الشَّريعة ، وأعمال النَّبيِّ ﷺ في حروبه :

١ ـ أنَّ الأصل هو عدم قطع الشَّجر ، وعدم تخريب البناء؛ لأنَّ الهدف من الحرب ليس إيذاءَ الرَّعية ، ولكن دفع أذى الرَّاعي الظالم ، وبذلك وردت الآثار .

٢ ـ أنَّه إذا تبيَّن : أنَّ قطع الشَّجر ، وهدم البناء توجبه ضرورةٌ حربيَّة لا مناص منها؛ كأن يستتر العدوُّ به ، ويتَّخذه وسيلة لإيذاء جيش المؤمنين؛ فإنَّه لا مناصَ من قطع الأشجار ، وهدم البناء؛ على أنَّه ضرورةٌ من ضرورات القتال ، كما فعل النَّبيُّ ﷺ هنا ، وفي حصن ثَقِيف .

٣ ـ أنَّ كلام الفقهاء الَّذين أجازوا الهدم ، والقلع يجب أن يُخرَّج على أساس هذه

---

(١) انظر : حديث القرآن الكريم (١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١) .
(٢) انظر : حديث القرآن الكريم (١/ ٢٧٤) .
(٣) انظر : تفسير الطَّبريِّ (٢٨/ ٣٤) .
(٤) اللِّين : كلُّ أنواع النَّخْل ، والواحدة : لِينة .

الضَّرورات ، لا على أساس إيذاء العدوِّ ، والإفساد المجرَّد ، فالعدوُّ ليس الشَّعب ، إنَّما العدوُّ هم الَّذين يحملون السِّلاح ؛ ليقاتلوا(١) .

٤ ـ تطوير السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة :

بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ حكم الأموال الَّتي أخذها المسلمون من بني النَّضير بعد أن تمَّ إجلاؤهم ، فقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الحشر : ٦] .

وبيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ: أن الأموال الَّتي عادت إلى المسلمين من بني النَّضير ، قد تفضَّل بها عليهم بدون قتالٍ شديدٍ ، وذلك لأنَّ المسلمين مَشَوْا إلى أعدائهم ، ولم يركبوا خيلاً ، ولا إبلاً ، وافتتحها ﷺ صلحاً ، وأجلاهم ، وأخذ أموالهم ، ووضعها حيث أمره الله ؛ فقد «كانت أموال بني النَّضير ممَّا أفاء الله على رسوله ممَّا لم يُوجف عليه المسلمون بخيلٍ ، ولا ركابٍ ، فكانت للنَّبيِّ ﷺ خاصَّةً ، فكان ينفق على أهله نفقةَ سنةٍ ، وما بقي يجعله في الكُرَاعِ والسِّلاح عُدَّةً في سبيلِ الله» [البخاري (٤٠٣٣) ، ومسلم (١٧٥٧)](٢) .

ثمَّ بيَّن المولى ـ عزَّ وجل ـ أحكام الفيء في قرى الكفار عامَّة ، فقال الله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الحشر : ٧] .

وكان فيء بني النَّضير خالصاً لرسول الله ﷺ ، ولهذا تصرَّف فيه ـ أي : الفيء ـ كما يشاء ، فردَّه على المسلمين في وجوه البرِّ ، والمصالح الَّتي ذكرها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في هذه الآيات .

ولمَّا غنم ﷺ أموال بني النَّضير ؛ دعا ثابت بن قيس ، فقال : «ادعُ لي قومك» ، قال ثابت : الخزرج؟ فقال ﷺ : «الأنصارُ كلُّها» فدعا له الأوس ، والخزرج ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمَّ ذكر الأنصار ، وما صنعوا بالمهاجرين ، وإنزالهم إيَّاهم في منازلهم ، وأموالهم ، وأثرتهم على أنفسهم ، ثمَّ قال : «إن أحببتُم قسمتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضير ـ وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في منازلكم ، وأموالكم ـ وإن أحببتم أعطيتُهم ، وخرجوا من دوركم» . [الحاكم في الإكليل كما في فتح الباري (٧/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣)] .

فقال سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ : يا رسولَ الله! بل تقسم بين المهاجرين ، ويكونون

---

(١) انظر : خاتم النبيِّين ، للشَّيخ محمد أبو زهرة (٢/ ٢٦٥ ـ ٢٦٩) .

(٢) الكُراع : الخيل ، ينفق على أهله نفقة سنة : يعزل لهم نفقة سنة ، ولكنه كان ينفقه قبل انقضاء السَّنة في وجوه الخير ، فلا تتمُّ عليه السنة ؛ ولهذا تُوفي ﷺ ودرعُهُ مرهونةٌ على شعير استدانه لأهله ، ولم يشبع ثلاثة أيام تِبَاعاً ، وقد تظاهرت الأحاديث النبوية بكثرة جوعه ، وجوع عياله .

في دورنا ، كما كانوا ، وقالت الأنصار: رضينا وسلَّمنا يا رسول الله!

وقسم ما أفاء الله ، وأعطى المهاجرين ولم يعطِ أحداً من الأنصار شيئاً ، غير أبي دُجَانة ، وسَهْل بن حُنَيفُ لحاجتهما [ابن هشام (٣/ ٢٠١/ ٢٠٢)](١) ، ومع أنَّه ﷺ يعلم: أنَّ الفيء كان خاصّاً له ، إلا أنَّه جمع الأنصار ، وسألهم عن قسمة الأموال لتطييب نفوسهم ، وهذا من الهدي النَّبويِّ الكريم في سياسة الأمور.

وكانت الغايةُ من هذا التَّوزيع ، تخفيفَ العبء عن الأنصار ، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دُورِ بني النَّضير ، وأُعيدت دُورُ الأنصار إلى أصحابها ، واستغنى بعض المهاجرين ممَّا يمكن أن يقال فيه: إنَّ الأزمة قد بدأت بالانفراج(٢).

إنَّ قسمة أموال بني النَّضير ، أوجد تطوُّراً كبيراً في السِّياسة الماليَّة للدَّولة الإسلاميَّة؛ فقد كانت الغنائم الحربيَّة قبل هذه الغزوة ، تقسم بين المحاربين بعد أن تأخذ الدَّولةُ الإسلاميَّةُ خُمْسَها؛ لتصرف في مصارف معينةٍ حدَّدها القرآن الكريم(٣) ، وبعد غزوة بني النَّضير ، أصبحت هناك سياسةٌ ماليَّةٌ جديدةٌ فيما يتعلَّق بالغنائم ، وخلاصتها: أنَّ الغنائم الحربيَّة أصبحت ـ حسب السِّياسة الجديدة ـ على نوعين:

١ ـ غنائم استولى عليها المجاهدون بحدِّ سيوفهم ، وهذه الغنائم تقسم بين المجاهدين بعد أن تأخذ الدَّولة خُمْسَها؛ لتصرفه في مصارفه الخاصَّة.

٢ ـ غنائم يوقعها الله بأيدي المجاهدين دون قتالٍ؛ وهذا النَّوع يختصُّ رئيس الدَّولة الإسلاميَّة ، بالتَّصرُّف فيه حسب ما يرى المصلحة في ذلك ، يعالج به الأوضاع الاقتصاديَّة في البلاد؛ فينقذ الفقراء من فقرهم ، أو يشتري به سلاحاً ، أو يبني به مدينةً ، أو يصلح به طرقاً... إلخ ، وهذا يعني: أنَّه قد أصبح لرئيس الدَّولة الإسلاميَّة ميزانيَّة خاصَّةً يتصرَّف فيها تصرُّفاً سريعاً حسب مقتضيات المصلحة(٤).

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ في الآيتين اللَّتين أوضحتا سياسته ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ في تقسيم فيء بني النَّضير إذا اختصَّ به أناساً دون آخرين؛ العلَّةَ في ذلك في قوله تعالى: ﴿ كَىۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ ﴾ [الحشر: ٧] أي: لكي لا يكونَ تداولُ المالِ محصوراً فيما بين طبقة الأغنياء

(١) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٢/ ٨٦).
(٢) تفسير القرطبيِّ للآية (٩) من سورة الحشر ، وفتح الباري (شرح حديث رقم ٤٠٣٠) ، وسيرة ابن هشام (أمر إجلاء بني النَّضير) ، والرَّحيق المختوم (غزوة بني النَّضير).
(٣) الآية (٤١) من سورة الأنفال ، والآية (٧) من سورة الحشر ، وانظر تفسيرهما في: ابن كثيرٍ ، والقرطبيِّ ، والسَّعديِّ.
(٤) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ١٦٩.

منكم فقط ، والتَّعليلُ لهذه الغاية يؤذِن بأنَّ سياسة الشَّريعة الإسلاميَّة في شؤون المال قائمةٌ في جملتها على تحقيق هذا المبدأ ، وأنَّ كلَّ ما تفيض به كتب الشَّريعة الإسلاميَّة من الأحكام المتعلِّقة بمختلف شؤون الاقتصاد والمال يُبغى من ورائه إقامة مجتمع عادلٍ تتقارب فيه طبقاتُ النَّاس ، وفئاتهم ، ويُقضى فيه على أسباب الثَّغرات الَّتي قد تظهر فيما بينها ، والَّتي قد تؤثِّر على سير العدالة وتطبيقها.

ولو طبقت أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة وأنظمتها الخاصَّة بشؤون المال من إحياء لشريعة الزَّكاة ، ومنع للرِّبا ، وقضاءٍ على مختلف مظاهر الاحتكارات؛ لعاش النَّاسُ كلُّهم في بُحْبُوحَةٍ[1] من العيش ، قد يتفاوتون في الرِّزق ، ولكنَّهم جميعاً مكتفون ، وليس فيهم كَلٌّ[2] على آخر ـ وإن كانوا جميعاً يتعاونون ـ[3] وبعد بيان العلَّة في توزيع أموال الفيء ، عَقَّبَ سبحانه بأمر المسلمين بأن يأخذوا ما أتى به الرَّسول ﷺ ، وأن ينتهوا عمَّا نهاهم عنه ، وأنَّ هذا من لوازم الإيمان ، وأمرهم بالتَّقوى ، فإنَّ عقابه شديدٌ ، وأليمٌ للعُصاة ، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

أي: ما أمركم به الرَّسول ﷺ فافعلوه ، وما نهاكم عنه فاجتنبوه؛ فإنَّه إنَّما يأمركم بكلِّ خيرٍ ، وصلاحٍ ، وينهى عن كلِّ شرٍّ وفسادٍ.

وقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ﴾ أي: خافوا ربَّكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: أي: فإنَّ عقابه أليم ، وعذابه شديدٌ لمن عصاه ، وخالف ما أمره بـه ، قال المفسِّرون: والآية وإن نزلت في أموال الفيء ، إلا أنَّها عامَّةٌ في كلِّ ما أمر به النَّبيُّ ﷺ ، أو نهى عنه من واجبٍ أو مندوبٍ ، أو مستحبٍّ ، أو محرَّمٍ ، فيدخل فيها الفيءُ ، وغيره[4] ، وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ تربِّي الأمَّةَ على وجوب الانقياد لحكم الله تعالى ، ولحكم رسوله ﷺ وذلك من كلِّ الأمور ، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال ﷺ: «ما نهيتُكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتُكم به فافعلوا منهم ما استطعتُم؛ فإنَّما أهْلَكَ الَّذين من قبلكم كثرةُ مسائلِهم ، واختلافُهم على أنبيائهم» [أحمد (٢/ ٢٤٧) ، ومسلم (١٣٣٧/ ١٣٠ و١٣١) ، والترمذي (٢٦٧٩) ، والنسائي (٥/ ١١٠ ـ ١١١) ، وابن ماجه (١ و٢)].

---

(١) بَحْبَحَ في الشَّيءِ: توسَّع. البُحْبُوحَة من كلِّ شيء: وسطه ، وخياره.

(٢) الكَلُّ: مَنْ يكونُ عبْئاً على غيره.

(٣) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ١٩٤.

(٤) انظر: تفسير الرَّازي (٢٩/ ٢٨) ، وصفوة التَّفاسير (٣/ ٣٥١).

٥ ـ فَضْلُ المهاجرين والأنصار ، والتَّابعين لهم بإحسان :

فَضْلُ المهاجرين :

بيَّنت الآياتُ الكريمةُ في سورة الحشر ، فضلَ المهاجرين على غيرهم ، فهم لهم الدَّرجة الأولى ، فقد اشتملت الآيات على أوصافهم الجميلة ، وشهد الله لهم بالصِّدق ، قال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر : ٨] .

فَضْلُ الأنصار :

وَضَّحت الآياتُ فضلَ الأنصار ، وقد وصفهم الله بهذه الصفات ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

فَضْلُ التَّابعين لهم بإحسان :

وهم المتتبِّعون لآثارهم الحسنة ، وأوصافهم الجميلة ، الدَّاعون في السِّرِّ ، والعلانية لإخوانهم الَّذين سبقوهم بالإيمان[١] .

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

وهكذا تحدَّثت السُّورة الكريمة عن صورٍ مشرقةٍ للمهاجرين ، والأنصار ، والتَّابعين لهم بإحسان .

٦ ـ موقف المنافقين في المدينة :

بيَّنتِ الآياتُ الكريمة حالَ المنافقين، ووضَّحتْ موقفَهم، وتحالفهم مع إخوانهم من اليهود ، وكشفت أيضاً موقفهم من المسلمين ، وموقف اليهود ونفسيَّاتهم[٢] .

قال تعالى : ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا

---

(١) انظر : حديث القرآن الكريم (١/ ٢٩١) .

(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٦٤) .

يَعۡقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١١ ـ ١٧].

يخبرنا المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ عن المنافقين ؛ كعبد الله بن أُبيٍّ وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بني النَّضير يَعِدُونَهم بمناصرتهم ، وقوله: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ أي: الَّذين بينهم وبينهم أُخوَّة الكفر ، وهم يهود بني النَّضير ، وجعلَهم إخواناً لهم؛ لكون الكفر قد جمعهم ، وإن اختلف نوع كفرهم ، فهم إخوانٌ في الكفر. ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾ أي: والله! لئن أخرجتم من دياركم ﴿لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ﴾ من ديارنا في صحبتكم ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ﴾ أي: في شأنكم ، ومن أجلكم ، ﴿أَحَدًا﴾ ممَّن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم ، وإن طال الزَّمان ، ثمَّ لمَّا وعدوهم بالخروج معهم وعدوهم بالنُّصرة لهم ، فقالوا: ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ﴾ أي: وإن قاتلكم المسلمون ﴿لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾ أي: على المسلمين؛ الَّذين يقاتلونكم ، ثمَّ كذَّبهم الله تعالى ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنَّصر لهم.

ولما أجمل ـ سبحانه وتعالى ـ كَذِبَ المنافقين فيما وعدوا به بني النضير؛ فصَّل ما كذبوا فيه[١] ، وزاد في تأكيد الرَّدِّ عليهم ، فقال تعالى: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ﴾ أي: لئن أَخرَجَ المسلمون اليهودَ؛ فإنَّ المنافقين لن يخرجوا معهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ أي: ولئن قاتل المسلمون اليهود؛ فإن المنافقين لن ينصروهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾. أي: ولئن نصر المنافقون اليهود ـ على سبيل الفرض ـ ، فإنَّ نصرهم لن يضرَّ المسلمين شيئاً؛ بل إنَّ الفريقين سيولُّون الأدبار أمام المسلمين ، ثمَّ لا ينصر الله بني النَّضير.

ثمَّ قرر القرآنُ الكريم حقيقةً قائمةً في نفوس اليهود ، والمنافقين ، قال تعالى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي: لأنتم يا معشر المسلمين! أشدُّ خوفاً ، وخشيةً في صدور اليهود ، والمنافقين من الله تعالى ، فهم يخافونكم أكثر من خوفهم من الله تعالى ، وهذه الحال منهم ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ أي: لا يعلمون الله ، وعظمته؛ حتَّى يخشوه حقَّ خشيته[٢].

ثمَّ أكَّد ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الحقيقة بصفاتٍ أخرى فيهم ، فقال تعالى: ﴿لَا

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٢).
(٢) المصدر السابق نفسه ، (٢/ ٢٨٣).

﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ فقد كشف ـ سبحانه وتعالى ـ عن حقائق نفسيَّة اليهود، فهم جبناء، لا يستطيعون أن يواجهوا المسلمين في مواطنَ مكشوفةٍ؛ بل لا يقاتلون إلا من وراء قراهم المحصَّنة بالخنادق، وجدرانهم، وحوائطهم الَّتي يتستَّرون مِنْ خلفها.

ثمَّ كشف القرآن عن بعض أسباب ضعفهم، وخورهم، فقال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾.

فهؤلاء اليهود في الظَّاهر تراهم مجتمعين صفّاً واحداً ضدَّ المسلمين، لكنَّ الآية تبين: أنَّهم عكس ذلك في الحقيقة، فهم ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: عداوتهم بعضهم لبعضٍ شديدةٌ ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: تظنُّهم مجتمعين على أمرٍ، ورأيٍ ولكنَّهم في الحقيقة ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: متفرِّقة.

وقوله سبحانه ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي: بسبب أنَّهم قومٌ لا يعقلون الحقَّ، ولا يدورون معه، وإنَّما يدورون في ركاب الباطل(١).

وفي الآية تجسيرٌ للمؤمنين، وتشجيعٌ لقلوبهم على قتال اليهود؛ لأنَّهم عرفوا من ربِّ العالمين، بأنَّ اليهود جبناء، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ ما نزل ببني النَّضير من بلاءٍ بسبب غدرهم، قد نزل ما يشبهه بإخوانهم من بني قينقاع، فذاقوا جزاءَ خيانتهم، وغرورهم. قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثمَّ ضرب الله مثلاً آخر للمنافقين، الَّذين أغرَوْا بني النَّضير بالمقاومة ثمَّ خذلوهم عند المحنة، فقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالَّذين وعدوهم النَّصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

ثمَّ لمَّا حقَّت الحقائق، ووقع عليهم الحصار، والقتال، تخلَّوا عنهم، وأسلموهم للتَّهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سَوَّل للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر، فإذا دخل فيما سوَّله له تبرَّأ منه، وتنصَّل، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فكان عاقبة الآمر بالكفر، وهو الشَّيطان، والفاعل له، وهو المستجيب للشَّيطان: أنَّهما في النار خالدين

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤).

فيها أبد الآبدين ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: جزاء كلِّ ظالمٍ(١).

٧ ـ وعظُ المؤمنين، وتذكيرهم باليوم الآخر، وبيانُ الفرق الشَّاسع بين أصحاب الجنَّة، وأصحاب النار:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ١٨ ـ ٢٠].

وهذه الآياتُ الكريمةُ أصلٌ في محاسبة العبد نفسه، وأنَّه ينبغي له أن يتفقَّدها.

ومع الانتصارات العظيمة الَّتي حقَّقها المسلمون بالقضاء على يهود بني النَّضير، والتَّوسُّع الاقتصاديُّ الَّذي حدث للصَّحابة، مع توسُّع موارد الدَّولة بدخول مصدر الفيء يأتي القرآن الكريم في هذه الحادثة؛ ليؤكِّد على معاني العقيدة، وأصولها، والتَّذكير باليوم الآخر، والاستعداد له، فيأمر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أفراد المجتمع المسلم بما يوجبه الإيمان، ويقتضيه من لزوم التَّقوى سرّاً وعلانيةً، ومراعاة ما أمرهم الله به من أوامره، وحدوده، وينظروا ما لهم، وما عليهم، وماذا قدموا من الأعمال، وهل تنفعهم، أو تضرُّهم يوم القيامة؟

وطلب منهم المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعلوا الآخرة نُصْبَ أعينهم، وقبلةَ قلوبهم، وأن يهتمُّوا بشأنها، ويجتهدوا في كثرة الأعمال الَّتي توصلهم إلى رضا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأن يتغلَّبوا على القواطع، ويزيلوا العوائق الَّتي توقفهم عن السَّير نحو مرضاة الله ـ سبحانه وتعالى ـ(٢).

وجاء التعبير القرآنيُّ بقوله ﴿لِغَدٖۖ﴾ يريد يوم القيامة، فقرَّب الله تعالى القيامة حتَّى جعلها غداً، وذلك لأنَّها آتيةٌ لا محالة، وكلُّ آتٍ قريبٌ(٣).

وأعلمهم ـ سبحانه وتعالى ـ: أنَّه خبير بما يعملون، ولا تخفى عليه أعمالُهم، ولا تضيع لديه، ولا يهملها؛ لكي يَجِدُّوا، ويجتهدوا(٤).

وحذَّرهم من أن يكونوا كالَّذين غفلوا عن ذكر الله، فأنساهم الله العمل لمصالح نفوسهم، فصاروا من الفاسقين عن أمره الخارجين عن حدود دينه.

ثمَّ نفى ـ سبحانه وتعالى ـ المساواة بين أصحاب الجنَّة وأصحاب النَّار، وبيَّن: أنَّ أصحاب

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٤).
(٢) انظر: تفسير السَّعدي (٧/ ٣٤٠).
(٣) انظر: المحرر الوجيز (١٤/ ٣٩٠).
(٤) تفسير السَّعدي (٤/ ٣٤٢).

الجنَّة هم الفائزون بالنَّعيم الخالد، النَّاجون من عذاب الله، أمَّا أصحاب النَّار؛ فهم الخاسرون[(١)].

وهذا التَّفصيل، والتَّذكير، والوعظ، وتقريب الآخرة من الأذهان، والقلوب موجبٌ لأهل الإيمان إلى المبادرة والمشاركة في الخيرات.

٨ ـ عظمة القرآن الكريم، وعلوُّ منزلته، وبعض صفات الله الجليلة الَّتي تليق به ـ سبحانه وتعالى ـ:

١ ـ قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ومعنى الآية: لو جعلنا في الجبل عقلاً، كما جعلنا فيكم أيُّها النَّاس! ثمَّ أنزلنا عليه القرآن، لخشع هذا الجبل، وخضع، وتشقَّق من خشية الله، وهذا تمثيل لعلوِّ شأن القرآن، وقوَّة تأثير ما فيه من المواعظ، والزَّواجر، وفيه توبيخٌ للإنسان على قسوة قلبه، وقلَّة تخشُّعه حين قراءة القرآن، وتدبُّر ما فيه من القوارع الَّتي تذلُّ لها الجبال الرَّاسيات[(٢)]، ثمَّ بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ أنَّه يضرب للنَّاس الأمثال، ويوضِّح لعباده الحلال، والحرام؛ لأجل أن يتفكَّروا في آياته، ويتدبَّروها؛ لأن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبيِّن له طريق الخير، والشَّرِّ، ويحثُّه على مكارم الأخلاق، ومحاسن الشِّيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق؛ فلا أنفع للعبد من التفكُّر في القرآن، والتدبُّر لمعانيه[(٣)].

٢ ـ وفي نهاية سورة الحشر تحدَّثت الآيات الكريمة عن بعض أسماء الله الحسنى، وأوصافه العلا. قال تعالى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وهكذا خُتِمتِ السُّورة الكريمة بما يليق بجلاله من صفاتٍ جليلةٍ، لكي يتربَّى المجتمع المسلم على تحقيق العبودية لله، ويتعرَّف إليه من خلال أسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشَّامل، وتدبيره العامِّ، وكلُّ إله غيره فإنَّه باطلٌ، لا يستحق

---

(١) تفسير السَّعدي (٣/ ٣٤٢)، وانظر: حديث القرآن الكريم.

(٢) انظر: تفسير المراغي (٢٨/ ٥٧) بتصرفٍ يسيرٍ.

(٣) انظر: تفسير السَّعدي (٧/ ٣٤٤).

من العبادة مثقال ذرَّةٍ ، لأنَّه فقيرٌ ، عاجزٌ ، ناقصٌ ، لا يملك لنفسه ، ولا لغيره شيئاً .

ثمَّ وصف نفسه بعموم العلم الشَّامل ، لما غاب عن الخلق ، وما يشاهدونه ، وبعموم رحمته؛ الَّتي وسعت كلَّ شيءٍ ، ووصلت إلى كلِّ حيٍّ ، ثمَّ كرَّر ذكر عموم ألوهيته ، وانفراده بها ، وأنَّه المالك لجميع الممالك ، فالعالم العلويُّ ، والسُّفليُّ ، وأهله؛ الجميع مماليك للهِ ، فقراء مُدَبَّرُون .

﴿ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ﴾ أي: المقدَّس السَّالم من كلِّ عيبٍ ، ونقص ، المعظَّم ، المُمَجَّد؛ لأنَّ القدُّوس يدلُّ على التَّنزيه من كلِّ نقصٍ ، والتَّعظيم لله في أوصافه ، وجلاله .

﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ أي: المصدِّق لرسله ، وأنبيائه بما جاؤوا به بالآيات البينات ، والبراهين القاطعات ، والحجج الواضحات .

﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الَّذي لا يغالَب ، ولا يمانَع ، بل قد قهر كلَّ شيءٍ ، وخضع له كلُّ شيءٍ .

﴿ ٱلْجَبَّارُ ﴾ الَّذي قهر جميع العباد ، وأذعن له سائر الخلق؛ الَّذي يجبر الكسير ، ويغني الفقير .

﴿ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾ الَّذي له الكبرياء والعظمة ، المتنزِّه عن جميع العيوب ، والظُّلم ، والجور .

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا تنزيهٌ عامٌّ عن كل ما وصفه به مَنْ أشرك به ، وعانده .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ﴾ لجميع المخلوقات .

﴿ ٱلْبَارِئُ ﴾ للمبروءات .

﴿ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ للمصوَّرات .

وهذه الأسماء متعلقةٌ بالخلق ، والتَّدبير ، والتَّقدير ، وأنَّ ذلك كلَّه قد انفرد الله به ، لم يشاركه فيه مشاركٌ .

﴿ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: له الأسماء الكثيرة جدّاً ، الَّتي لا يحصيها ، ولا يعلمها أحدٌ إلا هو ، ومع ذلك فكلُّها حُسنى؛ أي: صفات كمالٍ ، بل تدلُّ على أكمل الصِّفات ، وأعظمها ، لا نقص في شيءٍ منها بوجهٍ من الوجوه .

ومن حسنها: أنَّ الله يحبُّها ، ويحب مَنْ يحبُّها ، ويحبُّ من عباده أن يدعوه ، ويسألوه بها .

ومن كماله ، وأنَّ له الأسماء الحسنى ، والصِّفات العليا: أنَّ جميع من في السَّموات؛ والأرض مفتقرون إليه على الدَّوام ، يسبِّحون بحمده ، ويسألونه حوائجهم ، فيعطيهم من فضله ، وكرمه ، ما تقتضيه رحمتُه ، وحكمته .

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الَّذي لا يريد شيئاً إلا ويكون ، ولا يكوِّن شيئاً إلا لحكمةٍ ومصلحةٍ[١] .

إنَّ معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا ، تتضمَّن أنواع التَّوحيد الثلاثة : توحيد الرُّبوبيَّة ، وتوحيد الإلٰهيَّة ، وتوحيد الأسماء والصِّفات ، ولذلك تربَّى الصَّحابة على معرفتها ، والعمل بها ، فأنواع التَّوحيد هي رُوح الإيمان ، ورَوْحُه ، وأصله ، وغايته ، فكلَّما ازداد العبد معرفةً بأسماء الله ، وصفاته؛ ازداد إيمانه ، وقوي يقينه ، فهذا العلم رسخ في قلوب الصَّحابة ، فأوجب لهم خشية الله ، ومعرفته حقَّ المعرفة ، فعملوا بموجبها[٢] .

٩ ـ تحريم الخمر :

حرِّمت الخمر ليالي حصار بني النَّضير[٣] في ربيع الأوَّل ، من السَّنة الرَّابعة من الهجرة[٤] ، وقد خضع تحريم الخمر لِسُنَّة التَّدرُّج ، وكان ذلك التَّحريم على مراحل معروفةٍ في تاريخ التَّشريع الإسلاميِّ ، حتَّى نزلت الآيات الحاسمة في النَّهي عنها من سورة المائدة ، وفي ختامها : ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] قال المؤمنون في قوَّةٍ ، وتصميمٍ : قد انتهينا يا رب![٥] .

وفي قوله تعالى: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩] .

يقول سيِّد قطب ـ رحمه الله ـ: «وهذا النَّصُّ الَّذي بين أيدينا كان أوَّلَ خُطوةٍ من خطوات التَّحريم ، فالأشياء ، والأعمال قد لا تكون شرّاً خالصاً ، فالخير يلتبس بالشَّرِّ ، والشَّرُّ يلتبس بالخير في هذه الأرض ، ولكنَّ مدار الحلِّ والحُرْمة هو غلبة الخير أو غلبة الشَّرِّ ، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر أكبر من النَّفع ، فتلك علَّة تحريمٍ ، ومنعٍ وإن لم يصرَّح هنا بالتَّحريم ، والمنع .

هنا يبدو لنا طرفٌ من منهج التَّربية الإسلاميَّة القرآنيَّة الرَّبانيَّة الحكيمة ، وهو المنهج الَّذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه ، وفرائضه ، وتوجيهاته؛ ونحن نشير إلى قاعدةٍ من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر ، والميسر ، عندما يتعلَّق الأمر ، أو النَّهي بقاعدةٍ من

(١) انظر : تفسير السَّعدي (٧/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧) .
(٢) انظر : الوسطيَّة في القرآن الكريم ، للصَّلابي ، ص ٢٢٨ .
(٣) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٢٥٣) .
(٤) انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ١٠) .
(٥) انظر : الخصائص العامَّة للإسلام ، للقرضاويِّ ، ص ١٨١ .

قواعد التَّصوُّر الإيمانيِّ ـ أي: بمسألةٍ اعتقاديَّةٍ ـ فإنَّ الإسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللَّحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلَّق الأمر، أو النَّهي بعبادةٍ، وتقليدٍ، أو بوضع اجتماعيٍّ مُعَقَّد، فإنَّ الإسلام يتريَّث به، ويأخذ المسألة باليسر، والتدرُّج، ويهيِّئ الظُّروف الواقعة الَّتي تُيَسِّرُ التَّنفيذ والطَّاعة، فعندما كانت المسألة مسألة التَّوحيد، أو الشِّرك؛ أمضى أمره منذ اللَّحظة الأولى في ضربةٍ حازمةٍ جازمةٍ، لا تردُّد فيها، ولا تَلَفُّت، ولا مجاملة فيها، ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطَّريق؛ لأنَّ المسألة هنا مسألةٌ أساسيَّةٌ للتَّصوُّر، لا يصلح بدونها إيمانٌ، ولا يقام إسلامٌ.

فأمَّا الخمر، والميسر؛ فقد كان الأمر أمر عادةٍ، وألفة، والعادة تحتاج إلى علاجٍ، فبدأ بتحريك الوجدان الدِّيني المنطقيِّ التَّشريعيِّ في نفوس المسلمين بأنَّ الإثم في الخمر، والميسر أكبرُ من النَّفع، وفي هذا إيحاءٌ بأنَّ تركهما هو الأولى، ثمَّ جاءت الخطوة الثَّانية بآية سورة النِّساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

والصَّلاة في خمسة أوقات، معظمها متقاربٌ، لا يكفي ما بينها للسُّكر، والإفاقة! وفي هذا تضييقٌ لفرص المزاولة العمليَّة لعادة الشُّرب، وكسرٌ لعادة الإدمان الَّتي تتعلَّق بمواعيد التَّعاطي؛ إذ المعروف: أنَّ المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه[1] من مسكرٍ، أو مُخَدِّرٍ في الموعد؛ الَّذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرَّر هذا التَّجاوز فترةَ حدِّ العادة؛ أمكن التغلُّب عليها، حتَّى إذا تمَّت هاتان الخطوتان؛ جاء النَّهي الجازم الأخير لتحريم الخمر، والميسر ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩١ ـ ٩٢][2].

١٠ ـ لا يحيق المكر السَّيئ إلا بأهله:

كان مكر اليهود، وتآمرهم على حياة الرَّسول ﷺ والدَّولة الإسلاميَّة، في غاية الخسَّة، والوَضاعة، وكانوا يريدون من مكرهم، وغدرهم عِزَّةً، ورفعةً، ومجداً، وغلبةً، لكنَّ الله سَخِرَ منهم، ونَجَّى رسولَه ﷺ والمسلمين مِنْ مكرهم، وأذلَّهم، وأخزاهم، فزال مجدُهم، وكسر غلبتهم، وخرَّب بيوتهم، ورحَّلهم عن ديارهم، ولم يكلِّف ذلك المسلمين اصطداماً مسلَّحاً، ولا قتالاً ضارياً، ولكنَّ الله قذف في قلوبهم الرُّعب، والفزع، فطلبوا النَّجاة

---

(١) أَدْمَنَ الشراب: أدامه، ولم يقلع عنه، ويقال: أدمن الأمرَ، وعليه: واظب.
(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٢٢٩).

بأرواحهم في ذلَّةٍ ، وخزيٍ ، مُخَلِّفين وراءهم ثروةً، وملكاً حازه المسلمون غنيمةً باردةً، وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

هذه عاقبة المكر السَّيئ ، والغدر المَشِين ، وانظر بعد ذلك كيف أشار القرآن الكريم إلى مواطنِ العبرة في هذه الموقعة ، وإلى هذا التَّهديد الَّذي أعلنه لكلِّ مَنْ يسلك سبل المكر المزري ، والحقد المستبدِّ[1] ، وقال: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [الحشر: ٢].

ويظهر لي من الآية الكريمة الاعتبار من وجوهٍ:

١ ـ أنَّ الَّذي يقفُ في وجه الحقِّ ، ويصدُّ النَّاسَ عنه ، ويطارد دعاة الحقِّ منهزمٌ لا محالة ، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٢].

٢ ـ الصِّراع بين الحقِّ ، والباطل لا يتوقَّف ، وباق حتَّى يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها ، وستكون للباطل جولاتٌ ، وللحقِّ جولاتٌ؛ ولكنَّ العاقبة لأهل الحقِّ في نهاية المطاف.

٣ ـ الاعتبار يكون بتجنُّب ما ارتكبه اليهود من خيانةٍ وغدرٍ ، حتَّى لا يحدُثَ نفسُ المصير الَّذي حدث لهم من الهزيمة ، والذُّلِّ والهوان[2].

١١ ـ لا إكراه في الدِّين:

كان في بني النَّضير أناسٌ من أبناء الأنصار قد تهوَّدُوا بسبب تربيتهم بين ظهراني اليهود ، فأراد أهلوهم المسلمون منعهم من الرَّحيل معهم فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما ، قال: كانت المرأة تكون مِقْلاتَ[3] ، فتجعل على نفسها: إن عاش لها ولدٌ أن تُهَوِّدَهُ ، فلمَّا أُجليت بنو النَّضير ، كان فيهم من أبناء الأنصار ، فقالوا: لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. [أبو داود (٢٦٨٢) ، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٩٨٢ و١٠٩٨٣)].

* * *

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٦٧ ، ١٦٨.

(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس ، ص ١٧٩.

(٣) المِقْلاتُ: المرأة التي لا يعيش لها ولدٌ.

المبحث الرَّابع
غزوة ذات الرِّقاع

أولاً: تاريخها ، وأسبابها ، ولماذا سُمِّيت بذات الرِّقاع[١]:

اختلفَ أهلُ المغازي والسِّيَر في تاريخ هذه الغزوة ، وقد ذهب البُخاريُّ [البخاري تعليقاً (٧/ ٥٣٠)] إلى أنَّها كانت بعد خيبر ، وذهب ابن إسحاق[٢] إلى أنَّها بعد غزوة بني النَّضير ، وقيل: بعد الخندق سنة أربع ، وعند الواقديِّ[٣] ، وابن سعدٍ[٤] أنَّها كانت في المحرم سنة خمسٍ ، ورجَّح ابن عمر ما ذهب إليه البخاريُّ[٥]؛ لأنَّ أبا موسى الأشعريَّ شهدها وقد قدم من الحبشة بعد فتح خيبر مباشرةً ، وشهدها أبو هريرة ، وقد أسلم حين فتح خيبر ، وصلَّى فيها رسولُ الله ﷺ صلاةَ الخوف ، ولم تكن شُرِعت في الخندق؛ بل شرعت في عسفان أيَّام الحديبية ، والحديبية سنةَ ستٍّ .

أمَّا الدُّكتور البوطي[٦]؛ فقد جزم؛ أنَّها قبل الخندق ، واحتجَّ في ذلك بما ثبت في الصَّحيح من أنَّ جابراً رضي الله عنه استأذن الرَّسولَ ﷺ في غزوة الخندق ، وأخبر امرأتَهُ بما رأى من جوع رسول الله ﷺ ، وفيه قصَّة الطَّعام الَّذي دعا إليه النَّبيِّ ﷺ ، ومجيء كلِّ الجيش ، ومعجزة الرَّسول ﷺ في تكثير طعام جابرٍ ، وفيه قول الرَّسول ﷺ لزوجة جابر: «كلي هذا ، وأهدي؛ فإنَّ النَّاس أصابتهم مجاعةٌ» [البخاري (٤١٠١)].

وما ثبت في الصَّحيحين [البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (٧١٥/٧٣) ، وأحمد (٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦)] أيضاً من أنَّ الرَّسول ﷺ سأل جابراً في غزوة ذات الرِّقاع إن كان قد تزوَّج بعدُ ، فأجاب بنعم ، ممَّا يدلُّ

---

(١) انظر: شرح ذلك كلِّه في فتح الباري. وينظر الشكل (٨) في الصفحة (٦١٢).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٢٥).
(٣) انظر: المغازي ، للواقدي (١/ ٣٩٥).
(٤) انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٢/ ٦١).
(٥) فتح الباري: شرح الأحاديث المتقدِّمة.
(٦) انظر: فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٢١٠.

على أنَّ الرَّسول ﷺ لم يكن علم شيئاً عن زواجه ، وأخذ البوطي في ردِّ أدلَّة ابن حجر في كونها بعد خيبر ، فقال : أمَّا ما استدل به الحافظُ ابن حجر من أنَّه ﷺ لم يصلِّ صلاةَ الخوف في الأحزاب ، وصلاَّها قضاءً ، فيجاب عنه بأنَّه ربَّما كان سبب تأخير الرَّسول ﷺ لها إذ ذاك استمرارَ الرَّمي بين المشركين والمسلمين بحيث لم يدع مجالاً للانصراف إلى الصَّلاة ، وربَّما كان العدوُّ في جهة القبلة ، أو ربَّما أخرها لبيان مشروعيَّة قضاء الفائتة كيفما كانت .

كما يجاب عن استدلاله بحديث أبي موسى الأشعريِّ بما ذكره كثيرٌ من علماء السِّيَر ، والمغازي من أنَّ أبا موسى إنَّما قصد بها غزوةً أخرى سُمِّيت هي أيضاً بذات الرِّقَاع ، بدليل أنَّه قال عنها : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاةٍ ونحن في ستة نفرٍ بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ [البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم (١٨١٦)][١] . . . إلخ ، وغزوة ذات الرِّقاع الَّتي نتحدَّث عنها كان العدد أكثر من ذلك[٢] .

ومال الدُّكتور الحكمي[٣] ، والدُّكتور العمري[٤] ، إلى ما ذهب إليه البخاريُّ وابن حجر ، ومال الدُّكتور مهدي رزق الله أحمد إلى ما ذهب إليه البوطيُّ[٥] ، وقال بأنَّ حجةَ الدُّكتور البوطي بزواج جابر قبل الخندق لا تُدْفَع ، وهي في الصَّحيحين ؛ إضافةً إلى أنَّ البخاريَّ قد ذكر رأيه مُعَلَّقاً ، وحجَّته فقط مجيء أبي موسى بعد خيبر ، وهي حجَّةٌ دفعها البوطيُّ بترجيح تعدُّد الغزوة[٦] ، وقد ذكر البوطيُّ : أنَّ تاريخ الغزوة كان في السَّنة الرَّابعة للهجرة بعد مرور شهرٍ ونصفٍ تقريباً على إجلاء بني النَّضير ، وقال بأن هذا الرَّأي ذهب إليه أكثر علماء السِّيَر ، والمغازي[٧] وإليه ذهبتُ .

وأمَّا سبب الغزوة : ما ظهر من الغدر لدى كثيرٍ من قبائل نجدٍ بالمسلمين ، ذلك الغدر الَّذي تجلَّى في مقتل أولئك الدُّعاة السبعين الَّذين خرجوا يدعون إلى الله تعالى ، فخرج ﷺ قاصداً قبائل مُحَارِب ، وبني ثَعْلبة[٨] ، وقد ذكر الدُّكتور محمَّد أبو فارس : أنَّ قادماً قدم المدينةَ ، فأخبر المسلمين : أن بني مُحَارِب ، وبني ثَعْلبة من غَطَفَان قد جمعوا الجموع لحرب رسول الله ﷺ ، فما كان منه ﷺ إلا أن سار إليهم في عُقْر دارهم ، على رأس أربعمئة مقاتلٍ ، وقيل : سبعمئة

---

(١) بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُه : أي : نركبه عقبةً ، وهو أن يركبَ هذا قليلاً ، ثم ينزل ، فيركب الآخر بالنَّوبة ؛ حتَّى يأتي على سائرهم .
(٢) انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
(٣) انظر : مرويات الحديبية ، ص ٧٣ ـ ٨٦ .
(٤) انظر : المجتمع المدني ، ص ١٣٠ .
(٥) انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
(٦) انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
(٧) انظر : فقه السيرة النبوية ، ص ١٩٤ .
(٨) المصدر السابق نفسه ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

مقاتلٍ ، ولمَّا وصل رسول الله ﷺ إلى ديارهم؛ خافوا ، وهربوا إلى رؤوس الجبال ، تاركين نساءهم ، وأطفالَهم ، وأموالَهم ، وحضرت الصَّلاةُ ، فخاف المسلمون أن يُغيروا عليهم ، فصلَّى رسولُ الله ﷺ صلاة الخوف ، وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة[١] .

وقد حقَّقت هذه الحملةُ العسكريَّةُ أغراضَها ، وتمكَّنت من تشتيت الحشد الَّذي قامت به غَطَفَان لغزو المدينة ، فأرهب ﷺ تلك القبائل ، وألقى عليها درساً بأنَّ المسلمين ليسوا قادرين فقط على سَحْق مَنْ تحدِّثه نفسُه بالاقتراب من المدينة؛ بل قادرون على نقل المعركة إلى أرض العدوِّ نفسه ، وضربه في عُقْر داره[٢] .

وسُمِّيت بذات الرِّقاع؛ لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخِرَقَ ، والرِّقاع اتِّقاءَ الحرِّ ، وقيل: لأنَّهم رقَّعوا راياتهم ، وقيل: لشجرة كانت اسمها ذات الرِّقاع[٣] ، وقيل: لأنَّ المسلمين نزلوا في أرضٍ كان فيها بقعٌ بيض ، وسودٌ مختلفةٌ ، فسمِّيت لذلك[٤] ، والصَّحيح: لأنَّهم كانوا يربطون على أرجلهم مِنَ الخرق؛ فقد روى الشَّيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعريِّ ، قال: خرجنا مع النَّبيِّ ﷺ في غزاةٍ ونحن في ستَّة نفرٍ ، بيننا بعيرٌ نَعْتَقِبُهُ ، فَنَقِبَت[٥] أقدامُنا ، ونَقِبَت قدماي ، وسَقَطَتْ أظفاري ، وكنَّا نلفُّ على أرجلنا الخِرَق ، فسُمِّيت غزوةَ ذات الرِّقاع لما كنا نُعَصِّبُ بالخِرَق على أرجلنا . [البخاري (٤١٢٨) ، ومسلم (١٨١٦)] .

ثانياً: صلاة الخوف ، وحراسة الثُّغور:

١ ـ صلاة الخوف:

أنزل اللهُ تعالى على نبيِّه ﷺ صلاةَ الخوف في هذه الغزوة ، وبيَّن القرآنُ الكريمُ صفةَ الصَّلاة ساعةَ مواجهة العدو ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢] .

فقد صلَّى المسلمون صلاة الخوف ، وصفةُ هذه الصَّلاة: أنَّ طائفةً صَفَّتْ معه ، وطائفة وِجَاهَ العدوِّ ، فصلَّى بالَّذين معه ركعةً ، ثمَّ ثَبَتَ قائماً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ انصرفوا فصَفُّوا

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارس ، ص ١٤ .
(٢) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمد أحمد باشميل ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٣٠٩) .
(٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص ١٧٠ .
(٥) نَقِبتْ أقدامُنا: قرحت من الحفاء .

وجَاهَ العدوِّ ، وجاءت الطائفةُ الأخرى فصلَّى بهم الرَّكعة ؛ الَّتي بَقِيَتْ في صلاته ، ثمَّ ثَبتَ جالساً ، وأتمُّوا لأنفسهم ، ثمَّ سَلَّمَ بهم . [البخاري (٤١٢٩) ، ومسلم (٨٤٢)][(١)] .

وفي روايةٍ : «فصلَّى بطائفةٍ ركعتين ، ثمَّ تأخَّروا ، وصلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين ، فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعاتٍ ، وللقوم ركعتانِ»[البخاري (٤١٣٦) تعليقاً، ومسلم (٨٤٣/ ٣١١) ، وأحمد (٣/ ٣٦٤)] قال الدُّكتور البوطيُّ : ووجه التَّوفيق بين الحديثين : أنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام صلَّى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرَّة ، فصلاَّها مرَّةً على النَّحو الأوَّل ، وصلاَّها مرَّةً أخرى على النَّحو التالي .

وكانت هذه الصَّلاة بمنطقة نخلٍ الَّتي تبعد عن المدينة بيومين[(٢)] ، ودلَّ تشريع صلاة الخوف على أهمِّية الصَّلاة ، فحتى في قلب المعركة لا يمكن التَّساهل فيها ، ولا يمكن التَّنازل عنها ، مهما كانت الظروف ، وبذلك تندمج الصَّلاة والعبادة بالجهاد وَفْقَ المنهاج النَّبويِّ في تربية الأمَّة ؛ الَّذي استُمِدَّ من كتاب الله تعالى ، فلا يوجد أيُّ انفصالٍ ، أو انفصامٍ بين العبادة والجهاد[(٣)] .

٢ ـ حراسة الثُّغُور :

عندما رجع الجيشُ الإسلاميُّ من غزوة ذات الرِّقَاع ؛ سَبَوْا امرأةً من المشركين ، فنذر زوجُها ألاَّ يرجع حتَّى يُهْرِيق دماً في أصحاب محمَّد ﷺ ، فجاء ليلاً وقد جعل الرَّسولُ ﷺ رجلين على الحراسة أثناء نومهم ، وهما عبَّاد بن بِشْر ، وعَمَّار بن ياسر ، فضرب عَبَّاداً بسهم وهو قائمٌ يُصلِّي ، فنزعه ، ولم يقطعْ صلاتَه ، حتَّى رشقه بثلاث سهام ، فلم ينصرفْ منها حتَّى سلَّم ، فأيقظ صاحبَه ، فقال : سبحان الله! هلاَّ نبَّهتني ، فقال : كنتُ في سورة أقرؤها ، فلم أُحِبَّ أن أقطعها حتَّى أُنْفِذَها ، فلمَّا تابع عليَّ الرَّميَ ركعتُ ، فآذنتك ، وايم الله! لو لا أن أضيِّع ثغراً أمرني رسول الله ﷺ بحفظه ، لَقَطَعُ نفسي قبل أن أقطعها ، أو أنفذَها . [أحمد (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤ و٣٥٩) ، وأبو داود (١٩٨) ، وابن خزيمة (٣٦)][(٤)] ، ومن هذه الحادثة يمكننا أن نستخلص دروساً ، وعبراً ؛ منها :

أ ـ اهتمام النَّبيِّ ﷺ بأمن الجنود : ويظهر ذلك في اختياره رجلين من خِيَار الصَّحابة لحراسة الجيش ليلاً .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٥ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٠٧ .
(٣) انظر : التربية القياديَّة (٣/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٢٧ .

ب ـ تقسيم الحراسة: ونلاحظ أنَّ الرَّجلين الَّذين أنيطت بهما حراسة الجيش قد اقتسما الليلَ نصفين، نصفاً للرَّاحة ونصفاً للحراسة؛ إذ لابدَّ من راحة جسم الجنديِّ بعض الوقت.

ج ـ التَّعلُّق بالقرآن الكريم، وحبُّ تلاوته: فقد كان حبُّه للتِّلاوة قد أنساه آلامَ السِّهام؛ الَّتي كانت تنغرس في جسمه، وتثجُّ[١] الدَّم منه بغزارةٍ[٢].

د ـ الشعور بمسؤوليَّة الحراسة: فلم يقطع عبَّاد صلاته لألمٍ يشعر به، وإنَّما قطعها استشعاراً بمسؤوليَّة الحراسة الَّتي كُلِّفَ بها، وهذا درسٌ بليغ في مفهوم العبادة، والجهاد[٣].

هـ ـ مكان الحراسة استراتيجيٌّ: اختـار النَّبيُّ ﷺ فَمَ الشِّعْبِ مكان إقامة الحرس، وكان هذا الاختيار في غاية التَّوفيق؛ لأنَّه المكان الذي يُتَـوَقَّع العدوُّ منه لمهاجمة المعسكر.

و ـ قرب مهجع الحرس من الحارس: ولذلك استطاع الحارس أن يوقظ أخاه النائم، ولو كان المهجع بعيداً عن الحارس لما تمكَّن من إيقاظ أخيه، وبالتَّالي يحدث ما لا تُحْمَدُ عقباه[٤].

ثالثاً: شجاعة الرَّسول ﷺ، ومعاملته لجابر بن عبد الله رضي الله عنه:

١ ـ شجاعة الرَّسول ﷺ:

عندما قَفَلَ[٥] رسولُ الله ﷺ من غزوة ذات الرِّقاع أدركته القائلةُ في وادٍ كثير العِضَـاهِ[٦]، فنزل رسولُ الله ﷺ، وتفرَّق الـنَّاسُ يستظلُّون الشَّجرَ، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ علَّق بها سيفه، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: «فنمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا عنده أعرابيٌّ جالسٌ، فقال رسولُ الله ﷺ: إنَّ هذا اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت، وهو في يده صَلْتاً[٧]، فقال لي: من يمنعك منِّي؟ فقلت له: الله! فها هو ذا جالسٌ، لم يعاقبْه رسولُ الله، واسم الأعرابي: غَوْرَثُ بن الحارث» [رواه البخاري (٢٩١٠ و٢٩١٣ و٤١٣٥ و٤١٣٦)، ومسلم (٨٤٣)، وأحمد (٣/ ٣١١)].

وقد عاهد غَوْرَثُ رسول الله ﷺ ألاَّ يقاتلَه، ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلَّى ﷺ سبيله،

---

(١) ثَجَّ الماء ثُجوجاً: سالَ وانصبَّ. الثَّجَّاجُ: الشديدُ الانصباب.
(٢) انظر: غزوة الأحزاب، لأبي فارس، ص ٣٠، ٣١.
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٢٨.
(٤) انظر: غزوة الأحزاب، لأبي فارس، ص ٣٢.
(٥) قَفَلَ فُلانٌ من السَّفَرِ قَفْلاً وقُفولاً: رجع.
(٦) العِضَاهُ: كلُّ شجرٍ له شوكٌ، صغُر أو كَبُر، الواحدة: عِضَاهَةٌ.
(٧) صَلْتاً: مجرداً عن غمده.

فجاء إلى أصحابه ، فقال : «جئتكم من عند خير النَّاس»[(١)] .

وفي هذه القصَّة دليل على نبوَّة محمَّد ﷺ ، وفَرْط شجاعته ، وقوَّة يقينه ، وصبره على الأذى ، وحِلْمه على الجُهَّال ، وفيها جواز تفرُّق العسكر في النُّزول ، ونومهم ؛ إذا لم يكن هناك ما يخافون منه[(٢)] .

إنَّ هذه القصَّة ثابتةٌ ، وصحيحةٌ ، وهي تكشف عن مدى رعاية الباري ـ جلَّ جلاله ـ وحفظه لنبيِّه ﷺ ، ثمَّ هي تزيدك يقيناً بالخوارق الَّتي أخضعها الله ـ جلَّ جلاله ـ له ﷺ ، ممَّا يزيدك تبصراً ، ويقيناً بشخصيته النَّبويَّة ، فقد كان من السَّهل الطَّبيعيِّ بالنِّسبة لذلك المشرك ، وقد أخذ السَّيف ورفعه فوق النَّبيِّ ﷺ ، وهو أعزلُ غارقٌ في النَّوم أن يهويَ به عليه ، فيقتله ، وإنَّك لتلمس من ذلك المشرك هذا الاعتزاز بنفسه ، والزُّهو بالفرصة الذَّهبيَّة الَّتي أمكنته من رسول الله ﷺ في قوله : مَنْ يمنعك منِّي؟ فما الَّذي طرأ بعد ذلك حتَّى عاقه عن القتل[(٣)]؟!

ليس لهذا تفسيرٌ إلا العناية الإلٰهية ، والإعجاز الإلٰهي الَّذي يتخطَّى العادات والسُّنن ، ويتجاوز قوى النَّاس لنصرة نبيِّه ، والذَّود عن دعوته[(٤)] ، فقد كانت العناية الإلٰهيَّة كافيةً لأن تملأ قلب هذا المشرك بالرُّعب ، وأن تقذف في ساعديه تياراً من الرَّجفة ، فيسقط من يده السَّيف ، ثم يجلس متأدِّباً مُطْرِقاً بين يدي رسول الله ﷺ ، وما حدث مصداقٌ لقوله تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] ، فليست العصمة المقصودة في الآية ؛ ألا يتعرَّض الرَّسولُ ﷺ لأذىً ، أو محنةٍ من قومه ؛ إذ تلك هي سنَّة الله في عباده كما قد علمت ، وإنَّما المراد من العصمة ألاَّ تصل إليه أيُّ يدٍ تحاول اغتياله ، وقتله ، لتُغتال فيه الدَّعوة الإسلاميَّة التي بُعِثَ لتبليغها[(٥)] .

٢ ـ معاملته ﷺ لجابر بن عبد الله رضي الله عنه :

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : خرجتُ مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرِّقاع من نخلٍ ، على جملٍ لي ضعيفٍ فلمَّا قَفَلَ رسول الله ﷺ ؛ قال : جعلت الرِّفاق تمضي ، وجعلتُ أتخلَّف ، حتَّى أدركني رسولُ الله ﷺ ، فقال : «ما لك يا جابر؟!» قال : قلت : يا رسولَ الله! أبطأ بي جملي هذا ، قال : «أَنِخْهُ» فأنختُه ، وأناخ رسولُ الله ﷺ ، ثمَّ قال : «أعطني هذه العصا مِنْ يدك ، أو : اقطع لي عصاً من شجرةٍ» قال : ففعلت ، قال : فأخذها رسولُ الله فنَخَسَه بها

(١) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٤١٣٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : فقه السيرة للبوطي ، ص ٢٠٠ .
(٤) انظر : دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ١٧٨ .
(٥) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٢٠٠ .

نخساتٍ ، ثمَّ قال: «اركبْ» ، فركبتُ ، فخرج ـ والَّذي بعثه بالحقِّ ـ يُوَاهق ناقتَه مُوَاهقةً؛ (أي: يسابقها ، ويعارضها في المشي لسرعته).

قال: وتحدَّثت مع رسول الله ﷺ ، فقال لي: «أتبيعني جملك هذا يا جابر؟!».

قال: قلت: يا رسولَ الله! بل أهبه لك ، قال: «لا ، ولكن بِعْنِيه» ، قال: قلت: فَسُمْنِيه يا رسول الله! قال: «قد أخذته بدرهم» ، قال: قلت: لا ، إذاً تغبنني يا رسولُ الله! قال: «فبدرهمين» ، قال: قلت: لا ، قال: فلم يزلْ يرفعُ لي رسولُ الله ﷺ في ثمنه ، حتَّى بلغَ الأُوقيَّة ، قال: فقلت: أفقد رضيتَ يا رسولَ الله! قال: «نعم» ، قلت: فهو لك ، قال: «قد أخذته».

قال: ثمَّ قال: «يا جابر! هل تزوَّجت بعد؟» قال: قلت: نعم يا رسول الله! قال: «أثيِّباً، أم بكراً؟» قال: قلت: لا ، بل ثَيِّباً ، قال: «أفلا جارية تُلاعبُها وتلاعبُك؟!».

قال: قلت: يا رسولَ الله! إنَّ أبي أُصِيب يوم أُحدٍ ، وترك بناتٍ له سَبْعاً ، فنكحت امرأةً جامعةً ، تجمع رؤوسهنَّ ، وتقوم عليهنَّ ، قال: «أصبت ـ إن شاء الله ـ ، أما إنَّا لو قد جئنا صِرَاراً[1] أَمَرْنا بجَزُور فنُحِرَت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعت بنا ، فَنَفَضَتْ نمارقها[2]» قال: قلت: والله يا رسولَ الله! ما لنا من نَمَارق ، قال: «إنَّها ستكون ، فإذا قدمت؛ فاعملْ عملاً كيِّساً»[3].

قال: فلما جئنا صِرَاراً ، أمر رسولُ الله ﷺ بجَزُور ، فنُحِرت ، وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلمَّا أمسى رسولُ الله ﷺ ، دخل ، ودخلنا ، قال: فحدَّثتُ المرأةَ الحديثَ ، وما قال لي رسول الله ﷺ ، قالت: فدونك ، فسمعاً ، وطاعةً ، قال: فلمَّا أصبحتُ؛ أخذتُ برأس الجمل ، فأقبلتُ به ، حتَّى أنختُه على باب رسول الله ﷺ ، قال: ثمَّ جلستُ في المسجد قريباً منه ، قال: وخرج رسولُ الله ﷺ ، فرأى الجملَ ، فقال: «ما هذا؟» قالوا: يا رسولَ الله! هذا جملٌ جاء به جابرٌ ، قال: «فأين جابر؟».

---

(١) موضع على بُعْدِ ثلاثة أميالٍ من المدينة.

(٢) نمارقها: وسائدها.

(٣) فاعملْ عملاً كَيْساً أو الكَيْسَ. الكَيْسَ: في تفسيرها قولان:
ـ الكَيْس: أي: العقل ، كأنَّه طلب الولد عقلاً.
ـ الكَيْسَ: الجماع ، أي فعليك بالجماع ، ويؤيده رواية محمد بن إسحاق ، «قال جابر: فدخلنا حين أمسينا ، فقلت للمرأة: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أعمل عملاً كَيْساً! قالت: سمعاً وطاعة ، فدونك ، قال: فبتُّ معها حتى أصبحتُ» وهذا الكلام موجودٌ بمعناه في هذه الرِّواية التي بين أيدينا.
انظر: فتح الباري ، شرح حديث رقم (٥٢٤٦) ، وشرح النَّووي حديث رقم (١٤٦٦).

قال: فدُعيتُ له ، قال: فقال: «يا بن أخي ، خذ برأس جملك؛ فهو لك» ودعا بلالاً ، فقال له: «اذهب بجابرٍ ، فأعطه أُوقيَّةً» قال: فذهبتُ معه ، فأعطاني أوقيَّةً ، وزادني شيئاً يسيراً ، قال: فوالله ما زال يَنْمِي عندي ، ويُرى مكانُه مِنْ بيتنا . [البخاري (٢٠٩٧) ، ومسلم (١٥٩٩ م/ ١١٠) ، وأحمد (٣/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦)].

في هذه القصَّة صورةٌ جميلةٌ ، ورفيعةٌ لخلق رسول الله ﷺ مع أصحابه؛ من حيث لطف الحديث ، والتَّواضع الرَّفيع ، ورقَّة الحديث ، وفكاهة المحاورة ، ومحبَّةٍ شديدةٍ لأصحابه ، والوقوف على أحوالهم ، والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعيَّة مادِّيَّاً ، ومعنويّاً ، فقد شعر الرَّسول ﷺ : أنَّ سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله؛ الَّذي لا يملك غيره لبؤس حاله ، حيث إنَّ والده مات شهيداً في أُحدٍ ، وترك له مجموعةً من البنات ، والأولاد ليرعاهم ، وهو مُقِلٌّ في الرِّزق ، فأراد الرَّسول ﷺ أن ينتهز هذه الفرصة ليواسِيَه ، ويقدِّم له ما يستطيع من مالٍ مباركٍ[1] .

أيُّ لطف هذا! وأيّة مواساةٍ هذه! وأيّة طمأنةٍ ، وإحسان صحبةٍ! في أوبة من غزوة ، بلا تكلُّف ، ولاتهيُّؤ ، ولا استعدادٍ سابقٍ: أبرأ جمله ، وقوَّاه له ، بلمسةٍ خارقةٍ ، ومعجزةٍ ظاهرةٍ ، ثمَّ وهبه إيَّاه بعد أن نقده ثمنه ، ثمَّ احتفى به ، فأمر فنحر القوم الجزور لتستعدَّ عروسه لاستقباله ، ثمَّ طمأنه عن نعيمٍ منظور ، وغنىً مذخورٍ في جيب الأيام .

تلك من نماذج الأخلاق النَّبويَّة؛ الَّتي تحلَّى بها رسولُ الله ﷺ ، والَّتي حلاَّه بها ربُّه؛ الَّذي بعثه ، ليتمَّ به مكارم الأخلاق ، وبهذا الأسلوب الهادئ الرَّائع ، الرَّفيق الرَّقيق ، يتعلَّم الرَّبَّانيُّون حسن الصُّحبة ، وصدق الأخوة ، وبرَّ الخلَّة ، والمصاحبة[2] .

* * *

---

(١) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ص ٢١٢ ـ ٢١٣ ، وانظر: السِّيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٢٩ .

(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ١٨١ .

المبحث الخامس
غزوة بدر الموعد ودومة الجندل

أولاً: غزوة بدر الموعد:

تنفيذاً للموعد الَّذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب معركة أحدٍ، والتزام الرَّسول ﷺ بذلك، فقد خرج النَّبيُّ ﷺ من المدينة على رأس جيشٍ من أصحابه قوامه ألف وخمسمئة مقاتلٍ، بينهم عشرةٌ من الخيَّالة، وذلك في ذي القعدة سنة (٤ هـ) وحمل لواء الجيش عليُّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فوصلوا بدراً، فأقاموا فيها ثمانية أيَّام في انتظار وصول قوَّات المشركين من قريشٍ بقيادة أبي سفيان حسب الموعد بين الطَّرفين، غير أنَّ أحداً من المشركين لم يصل إلى بدرٍ، وكان أبو سفيان قد جمَّع قوات قريش، وحلفاءها؛ الَّتي تألَّفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرساً، فلمَّا وصلوا إلى مرِّ الظَّهران؛ نزلوا على مياه مَجَنَّة على بُعْد أربعين ميلاً من مكَّة، ثمَّ عاد بهم أبو سفيان إلى مكَّة[1] بعد أن خطب فيهم، وقال: يا معشر قريش! إنَّه لا يصلحكم إلا عامٌ خصيبٌ ترعون فيه الشَّجر، وتشربون فيه اللَّبن، وإنَّ عامكم هذا عامٌ جدبٌ، وإنِّي راجعٌ، فارجعوا[2].

وأقبل مَخْشِيُّ بن عمرو الضَّمريُّ، وهو الذي وادع رسول الله ﷺ على بني ضمرة في غزوة ودَّان، فالتقى برسول الله ﷺ في بدرٍ، وقال: يا محمد! أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «نعم، يا أخا بني ضمرة! وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثمَّ جالدناك حتَّى يحكم الله بيننا وبينك». قال: لا والله يا محمد! ما لنا بذلك منك مِنْ حاجةٍ. [ابن هشام (٣/٢٢٠)].

ففي هذا اللِّقاء أكَّد رسول الله ﷺ على معنىً كبيرٍ في إظهار قوَّة المسلمين، وأنَّ العقد الَّذي كان بين الفريقين يستمرُّ بعامل قوَّة المسلمين، لا بعامل ضعفهم؛ وبناءً على طلب الطَّرف الثَّاني، وفي هذا ما فيه من القوَّة للمسلمين، وإلقاء الرُّعب في قلوب أعدائهم[3]، لقد كانت

---

(١) انظر: موسوعة نضرة النَّعيم (١/٣١٨، ٣١٩).
(٢) انظر: غزوة الأحزاب، لمحمَّد أحمد باشميل، ص ٨٨.
(٣) انظر: من معين السِّيرة، للشَّامي، ص ٢٦٤، ٢٦٥.

تحرُّكاتُ الجيش الإسلاميِّ من المدينة حتَّى بدرٍ مناورةً رائعةً ناجحةً ، أثبت بها وجوده ، وأعطى الدَّليل القاطع لأعداء الإسلام داخل المدينة ، وخارجها: أنَّه أصبح أقوى قوَّةٍ مرهوبةٍ في الجزيرة العربيَّة كلِّها ، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ جيش مكَّة ـ وهو من أعظم الجيوش في الجزيرة من حيث كثرة العدد ، وقوَّة التَّنظيم وجودة التَّسلُّح ـ قد هاب الجيش الإسلاميَّ ، ونكل عن حربه بعد أن خرج للقائه بموجب ميعادٍ سابقٍ حدَّده في (أُحُد) قائد عام جيش مكَّة[(١)].

إنَّ الحملة الإعلاميَّة الَّتي قام بها المشركون لإثبات انتصارهم في أحدٍ ، وتفوُّقهم الحربيِّ قد انتكست على رؤوسهم ، وأصبحوا مثار السُّخرية عند العرب ، وثبت للنَّاس: أنَّ ارتباك المسلمين للمفاجأة في أحدٍ وسقوط القتلى منهم لا يعني انهزامهم ، ولا ضعفهم العسكريَّ[(٢)] ، فقد ساهمت هذه الغزوة في المحافظة على السُّمعة العسكريَّة للمسلمين[(٣)] ، وكسبوا انتصاراً معنويّاً عظيماً على أعدائهم بدون قتال ، وشاركوا في الموسم التِّجاري ببدرٍ ، وربحوا في تجارتهم ربحاً طيباً[(٤)].

لقد كان لإخلاف قريش الموعد أثرٌ في تقوية مكانة المسلمين وإعادة هيبتهم[(٥)].

ثانياً: دومة الجندل:

كانت غزوة دومة الجندل من ضمن حركة تثبيت أركان الدَّولة الإسلاميَّة ، فبعد غزوة بدر الموعد ، تحرَّكت القوات الإسلاميَّة بقيادة رسول الله ﷺ نحو قضاعة؛ الَّتي كانت تنزل شمال قبائل أسد ، وغطفان ، وفي حدود الغساسنة الموالين للدَّولة الرُّوميَّة (بيزنطة) ، ولها إشراف على سوق (دومة الجندل) الشَّهير (على بعد (٤٥٠) كيلو متراً شمال المدينة) كانت هذه القبيلة أوَّل مَنْ احتكَّ بها المسلمون ، فغزاها رسول الله ﷺ تلك الغزوة المعروفة بغزوة دومة الجندل (ربيع الأول ٥ هـ/ أغسطس ٦٢٦ م)[(٦)] ، فقد وصلت الأنباء إلى المدينة بتجمُّع بعض القبائل عند دومة الجندل للإغارة على القوافل الَّتي تمرُّ بهم ، والتَّعرُّض لمن في القافلة بالأذى ، والظُّلم ، كما وردت الأنباء بأنَّهم يفكِّرون في القرب من المدينة ، لعَجْمِ عودها[(٧)].

إنَّ دومة الجندل تُعَدُّ بلداً نائياً بالنِّسبة للمدينة المنوَّرة ، لأنَّها تقع على الحدود بين الحجاز ،

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص ٨٨ ، ٨٩.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ٦٦).
(٣) انظر: التربية القياديَّة (٣/ ٤٦٣).
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ٦٧).
(٥) انظر: المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوة ، للعمري ، ص ٩١.
(٦) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة والخلافة الرَّاشدة ، للشجاع ، ص ١٤٤.
(٧) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد الوكيل ، ص ١٦٩.

والشَّام ، وفي منتصف الطَّريق بين البحر الأحمر ، والخليج العربيِّ ، وهي على مسيرة ست عشرة ليلةً من المدينة ، ولو أنَّ المسلمين أغفلوا أمرها ، وسكتوا عن وجود هذا التَّجمُّع فيها ما لامهم أحدٌ ، ولا ضرَّهم هذا التجمُّع في شيءٍ على المدى القريب ، ولكنَّ النَّظرة السِّياسيَّة البعيدة ، والعقليَّة العسكريَّة الفذَّة أوجبت على المسلمين أن يتحرَّكوا لفضِّ هذا التَّجمُّع[١] والقضاء عليه قبل أن يستفحل شأنُه للأسباب الآتية وكذلك بغية تحقيق بعض الأهداف :

١ ـ لأنَّ السُّكوت عن هذا التجمُّع ، وما شاكله يؤدِّي بلا شكٍّ إلى تطوُّره واستفحاله ، ثمَّ يؤدي بعد ذلك إلى إضعاف قوَّة المسلمين ، وإسقاط هيبتهم ، وهو الأمر الَّذي يجاهدون من أجل استرداده .

٢ ـ وجود مثل هذا التَّجمُّع في الطَّريق إلى الشَّام قد يؤثِّر على الوضع الاقتصاديِّ للمسلمين ، فلو أنَّ المسلمين سكتوا عن هذا التَّجمُّع ؛ لتعرَّضت قوافلُهم ، أو قوافل القبائل الَّتي تحتمي بهم للسَّلب ، والنَّهب ، ممَّا يُضعف الاقتصاد ، ويؤدِّي إلى حالةٍ من التذمُّر ، والاضطراب .

٣ ـ وهناك أمرٌ أهمُّ من الأمرين السَّابقين ، وهو فرض نفوذ المسلمين على هذه المنطقة كلِّها ، وإشعارُ سكَّانها بأنَّهم في حمايتهم ، وتحت مسؤوليَّتهم ، لذلك فهم يؤمِّنون لهم الطُّرق ، ويحمون لهم تجارتهم ، ويحاربون كلَّ إرهابٍ من شأنه أن يزعجهم ، أو يُعرِّضهم للخطر[٢] .

٤ ـ حرمان قريش من أيِّ حليفٍ تجاريٍّ قد يمدُّها بما تحتاج إليه من التِّجارة ، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التِّجاريـة المهمَّة ؛ لأنَّ ظهور الدَّولة الإسلاميَّة بهذه القوة يؤثِّر على نفسية قريشٍ (العدوِّ الأوَّل للدَّولة الإسلاميَّة) ويجعلها تخشى المسلمين على تجارتها[٣] .

٥ ـ الحرص على إزالة الرَّهبة النَّفسيَّة الموجودة عند العرب؛ الَّذين ما كانوا يحلمون بمواجهة الرُّوم ، والتَّأكيد عمليّاً للمسلمين بأنَّ رسالتهم عالميَّةٌ[٤] وليست مقصورةً على العرب. ورأى بعض المؤرِّخين كالذَّهبيِّ ، والواقديِّ ، ومحمَّد أحمد باشميل ، وغيرهم : أنَّ من أهداف تلك الغزوة إرهابُ الرُّوم؛ الَّذين تقع المنطقة الَّتي وصل إليها بجيشه على حدودهم وعلى مسافة خمس ليالٍ من عاصمة مُلكهم الثَّانية دمشق[٥] .

لهذا ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج ، وخرج في ألفٍ من أصحابه ، وكان يسير الليل ،

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد الوكيل ، ص ١٦٩ .
(٣) انظر : دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص ١٤٤ .
(٥) انظر : غزوة الأحزاب ، لباشميل ، ص ٩٣ ، وتاريخ المغازي ، للذَّهبيِّ ، ص ٢٥٨ .

ويكمن النهار حتَّى يُخفي مسيره[١]، ولا تشيع أخبارُه، وتُنقل أسراره، وتتعقَّبه عيون الأعداء[٢].

واتَّخذ له دليلاً من بني عذرة يسمَّى مذكوراً ، وسار حتَّى دنا من القوم ، عندئذٍ تفرَّقوا ، ولم يلقَ رسولُ الله ﷺ منهم أحداً ، فقد ولَّوا مدبرين ، وتركوا أنعامهم ، وماشيتهم ، غنيمةً باردةً للمسلمين ، وأسر المسلمون رجلاً منهم ، وأحضروه إلى الرَّسول ﷺ ، فسأله عنهم ، فقال: هربوا لمَّا سمعوا بأنَّك أخذت أنعامهم ، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ، فأسلم ، وأقام بساحتهم أياماً ، وبعث البعوث ، وبثَّ السرايا ، وفرَّق الجيوش ، فلم يصب منهم أحداً ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، وفي أثناء عودتهم وادع الرَّسول عيينة بن حصنٍ الفَزاريَّ ، واستأذن عيينةُ رسول الله ﷺ في أن ترعى إبلُه ، وغنمُه في أرضٍ قريبة من المدينة على ستةٍ وثلاثين ميلاً منها .

إنَّ وصول جيوش المسلمين إلى دومة الجندل ، وهي على هذه المسافة البعيدة من المدينة ، وموادعة عيينة بن حصن للمسلمين ، واستئذانه في أن يرعى بإبله ، وغنمه في أرضٍ بينها وبين المدينة ستَّةٌ وثلاثون ميلاً ـ أي: ما يقرب من خمسة وستين كيلو متراً ـ لدليل قاطعٌ على ما وصلت إليه قوَّة المسلمين ، وعلى شعورهم بالمسؤولية الكاملة تجاه تأمين الحياة للنَّاس في هذه المنطقة ، وأنَّ هذه المناطق النَّائية كانت ضمن الدَّولة الإسلاميَّة ، وأنَّ الدَّولة أصبحت منيعةً ، ليس في مقدور أحدٍ أن يعتدي عليها ، ولو كان ذلك في استطاعة أحدٍ؛ لكان هو عيينة بن حصن الَّذي كان يغضب لغضبه عشرة آلاف فتىً[٣].

كانت غزوة دومة الجندل بعيدةً عن المدينة من جهة الشَّام؛ إذ بينها وبين دمشق ما لا يزيد عن خمس ليالٍ ، وقد كانت بمثابة إعلان عن دعوة الإسلام بين سكَّان البوادي الشَّمالية ، وأطراف الشَّام الجنوبيَّة ، وأحسُّوا بقوَّة الإسلام ، وسطوته ، كما كانت لقيصر ، وجنده كما أنَّ سير الجيش الإسلاميِّ هذه المسافات الطَّويلة قد كان فيه تدريبٌ له على السَّير إلى الجهات النائية ، وفي أرضٍ لم يعهدوها من قبلُ ، ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلاميَّة للفتوحات العظيمة في بلاد آسية ، وإفريقية فيما بعد[٤].

كانت خطَّة الرَّسول ﷺ في هذه الغزوة ترمي إلى أهدافٍ عديدةٍ ، فهي غزوةٌ ، وحربٌ استطلاعيَّةٌ تمسح الجزيرة العربيَّة ، وتتعرَّف مراكز القوى فيها ، وهي حربٌ إعلاميَّةٌ تأتي على أعقاب بدرٍ الموعد ، وتستثمر انتصاراتها ، وهي حربٌ عسكريَّةٌ تريد أن تصدَّ هجوماً محتملاً على المسلمين؛ حيث انضوى إليها قومٌ من العرب كثيرٌ يريدون أن يدنوا من المدينة ، وهي

---

(١) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، ص ١٧٠ .
(٢) انظر: غزوة الأحزاب ، لأبي فارسٍ ، ص ٤٠ .
(٣) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، ص ١٧٠ .
(٤) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة ، (٢/ ٢٥١ ، ٢٥٢).

حربٌ سياسيَّة تريد أن تُجْهِض من تحرُّكات القبائل المحتمل أن تتحرَّك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة ، وتستبيحها[١] .

كانت هذه الغزوة دورةً تربويَّةً رائعةً ، وقاسيةً ، وشاملةً يقودها رسول الله ﷺ وبين يديه ألفٌ من أصحابه، فيتلقَّون فيها كلَّ لحظةٍ دروساً في الطَّاعة، والانضباط ، ودروساً في التَّدريب الجسميِّ، والعسكريِّ، والتَّحمُّل لمشاقِّ الحياة، وصعوباتها ، وأحكاماً ، وفقهاً في الحلال ، والحرام ، وعمليات صهرٍ وتذويبٍ لقواعد الجيش الإسلاميِّ في بوتقةٍ واحدةٍ خارج إطار العشيرة ، وخارج كيان القبيلة ، حيث أخذت تَفِدُ إلى المدينة عناصر كثيرةٌ من أبناء القبائل المجاورة ، والتَّخلِّي عن الأطر القبليَّة ، وعصاباتها للانصهار في بوتقة الأمَّة الواحدة الَّتي تجعل الولاء لله ورسوله .

وفوق هذا كلِّه تتيح الفرصة لجيل بدرٍ الرَّائد أن يقوم بمهمة التَّربية للوافدين الجدُد ، وتعليمهم وتثقيفهم ، كما تتيح الفرصة لكشف ضعاف النُّفوس ، ومن له صلةٌ بمعسكر النِّفاق من خلال مراقبة تصرُّفاته ، وسلوكه . إنَّها ليست ساعاتٍ محدودةً أو أياماً معدودةً؛ بل هي دورةٌ قرابة شهرٍ ، لا يمكن إلا أن تبرز فيها كلُّ الطَّبائع ، وكلُّ النَّوازع ، فيتلقَّاها عليه الصَّلاة والسَّلام ليصوغها على ضوء الإسلام ، ويعلِّم الجيل الرَّائد فنَّ القيادة ، وعظمة السِّياسة .

كانت معركةً صامتةً ، وتربيةً هادئةً ، وكان الجيش مع قائده يقطع ما ينوف عن ألف ميل في هذه الصَّحراء يتربَّى ، ويتثقَّف ، ويتدرَّب ، ويُمتحن ، ويقوَّم ليكون هذا استعداداً لمعارك قادمةٍ[٢] ، وفي غيابه في غزوة دومة الجندل عيَّن ﷺ سباع بن عرفطةَ الغفاريَّ والياً على المدينة في تجربةٍ جديدةٍ، فهو ليس أوسيّاً، ولا خزرجيّاً ، ولا قرشيّاً ، بل من غفار الَّتي كانت تعتبر من سرَّاق الحجيج عند العرب ، فلابدَّ لهذا الجيل أن يتربَّى على الطَّاعة ، والانضباط للأمير أيّاً كان شأن هذا الأمير .

وهذا يدلُّ على عظمة المنهج النَّبويِّ في تربية الأمَّة ، والارتقاء بها ، وعلى عظمة قيادة النَّبيِّ ﷺ ، وفراسته في أتباعه ، وثقته فيهم ، ومعرفته لمواهبهم ، فهو ﷺ على معرفةٍ بكفاءة سباع بن عرفطة الغفاريِّ ، وعبقريته ، وقدرته على الإدارة الحازمة ، فكان ﷺ يربِّي أصحابه وهو غائب عن المدينة لكي يهيمن منهج ربِّ العالمين على المسلمين ، ويصنع منها أمةً واحدةً ، تسمع ، وتطيع لكتاب ربِّها وسنَّة نبيِّها ﷺ[٣] .

* * *

(١) انظر : التَّربية القيادية (٣/ ٣٧٢) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٧٣) .
(٣) انظر : التَّربية القياديَّة (٣/ ٣٧٤) .

المبحث السَّادس
غزوة بني المُصْطَلِق[١]

أوَّلاً: مَنْ هم بنو المصطلق؟ ومتى وقعت الغزوة؟ وما أسبابها؟

١ ـ بنو المصطلق:

هم بطنٌ[٢] من خزاعة، والمصطلق[٣] جدُّهم، وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السَّماء[٤].

واختلفوا في خُزاعة[٥]، فمنهم من قال: إنَّها قبيلةٌ عدنانيَّةٌ، ومنهم من ذهب إلى أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّة يمنيَّةٌ، والرَّاجح ما ذهب إليه أكثر العلماء من أنَّها قبيلةٌ قحطانيَّةٌ يمنيَّةٌ[٦].

٢ ـ تاريخ الغزوة:

اختلف العلماء في ذلك، وانحصرت أقوالهم فيها في ثلاثة أقوالٍ، فَمِنْ قائلٍ: إنَّها سنة ستٍّ، قال بذلك ابن إسحاق إمام المغازي، وتبعه على ذلك خليفةُ بن خيَّاط، وابن جرير الطَّبريُّ، وابن حزمٍ، وابن عبد البَرِّ، وابن العربيِّ، وابن الأثير، وابن خلدون، فقد صرَّح كلٌّ منهم بأنَّ غزوة بني المصطلق كانت في شعبان من السَّنة السَّادسة للهجرة[٧].

وهناكَ مَنْ قال بأنَّها في شعبان من العام الرَّابع للهجرة، وذهب إلى هذا القول المسعوديُّ، وابن العربيِّ المالكيُّ، وغيرهم.

وذهبت طائفةٌ إلى أنَّها كانت في شعبان من السنة الخامسة، ومن هؤلاء العلماء كلٌّ من:

---

(١) ينظر الشكل (٩) في الصفحة (٦١٣).

(٢) فرع.

(٣) المُصْطلِق: بضمِّ الميم، وسكون الصَّاد، وفتح الطَّاء، وكسر الَّلام.

(٤) انظر: حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣١١).

(٥) خزاعة من التَّخزُّع، وهو التَّأخر، والمفارقة، وذلك أنَّ خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشَّام، فنزلت بمرِّ الظهران، وأقامت بها؟!

(٦) انظر: مرويات غزوة بني المصطلق، من ص ٤٥ إلى ٥١.

(٧) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٣٢٩، وحديث القرآن الكريم (١/ ٣١٢، ٣١٣).

موسى بن عقبة، وابن سعد، وابن قتيبة، والبلاذري، والذَّهبيُّ، وابن القيِّم ، وابن حجر العسقلانيُّ ، وابن كثيرٍ رحمهم الله! ومن المُحْدَثِينَ: الخضري بك ، والغزاليُّ ، والبوطيُّ ، وأبو شهبة ، والشَّيخ السَّاعاتيُّ ، ومحمَّد أبو زهرة ، وسيِّد قطب ، وحسن مشَّاط ، ومحمَّد علي الصَّابوني ، ومحمَّد بكر آل عابد ، ومهدي رزق الله أحمد[١] ، ويبدو لي أنَّ هذا الرأي أقربُ للصَّواب ، لأسبابٍ؛ منها:

أ ـ أنَّ هذا القول هو ما ذهب إليه جمهور أصحاب السِّير والمغازي ، كما أنَّ عدداً كبيراً ممَّن كتب في السِّيرة من المعاصرين سار عليه.

ب ـ أنَّ في شعبان سنة أربعٍ من الهجرة كانت غزوة بدرٍ الموعد فيتعيَّن أن غزوة بني المصطلق كانت في غيرها.

ج ـ أنَّ هذا القول يؤيِّده وجود سعد بن معاذ رضي الله عنه في الغزوة ، فقد جاء ذكره في حديث الإفك الَّذي كان في أعقاب غزوة بني المصطلق ، والَّذي أخرجه الإمام البخاريُّ: «فقام سعد بن معاذ الأنصاريُّ ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه؛ إن كان من الأوس؛ ضربْتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ، ففعلنا أمرك.... الحديث» [البخاري (٤٧٥٠) ، ومسلم (٢٧٧٠)].

وقد كانت وفاة سعد بن معاذ في أعقاب غزوة بني قريظة ، وغزوة بني قريظة كانت في ذي القعدة من السَّنة الخامسة على القول الرَّاجح ، فيتعيَّن أن تكون غزوة بني المصطلق قبلها[٢].

٣ ـ أسباب هذه الغزوة:

من أهمِّ الأسباب لهذه الغزوة:

أ ـ تأييد هذه القبيلة لقريشٍ ، واشتراكها معها في معركة أُحُدٍ ضدَّ المسلمين ، ضمن كتلة الأحابيش الَّتي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش.

ب ـ سيطرة هذه القبيلة على الخطِّ الرَّئيسيِّ المؤدِّي إلى مكَّة ، فكانت حاجزاً منيعاً من نفوذ المسلمين إلى مكَّة[٣].

ج ـ أنَّ الرَّسول ﷺ بلغه أنَّ بني المصطلق يجمعون له ، وكان قائدُهم الحارث بن أبي ضرار ينظِّم جموعهم ، فلمَّا سمع بهم خرج إليهم ، حتَّى لقيهم على ماء من مياههم يقال له: المريسيع

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٢).

(٢) من أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٩٧.

(٣) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، للعلي ، ص ٣٣٢.

من ناحية قُدَيْد إلى السَّاحل فهزمهم شرَّ هزيمة[١].

٤ ـ أحداث غزوة بني المصطلق:

عندما شعر رسول الله ﷺ بحركة بني المصطلق المريبة؛ أرسل بريدة بن الحصيب الأسلميَّ، للتأكُّد من نيَّتهم، وأظهر لهم بريدة: أنَّه جاء لعونهم، فتأكَّد من قصدهم، فأخبر الرَّسول ﷺ بذلك.

وفي يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السَّنة الخامسة للهجرة خرج الرَّسول ﷺ من المدينة في سبعمئة مقاتلٍ[٢]، وثلاثين فارساً[٣] متوجِّهاً إلى بني المصطلق، ولمَّا كان بنو المصطلق ممَّن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفَّار في غزوة أُحُدٍ، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاريُّ [(٢٥٤١)]، ومسلمٌ [(١٧٣٠)]: أنَّ رسول الله ﷺ أغار عليهم، وهم غارُّون ـ أي: غافلون ـ وأنعامهم تُسْقَى على الماء، فقتل مقاتلهم، وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذٍ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار[٤].

ثانياً: زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

قسَّم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث، وكانت بركةً على قومها، ولنعرف قصَّتها من السَّيدة عائشة رضي الله عنها، حيث قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق؛ وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن شمَّاس، أو لابن عمٍّ له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حُلوةً مُلاَّحة[٥]، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها، قالت: فوالله! ما هو أن رأيتها على باب حجرتي، فكرهتها، وعرفت أنَّه سيرى منها ما رأيت، فدخَلَتْ عليه، فقالت: يا رسول الله! أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيِّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعت في السَّهم لثابت بن قيس بن شمَّاس، أو لابن عمٍّ له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «فهل لك في خيرٍ من ذلك؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟!

قال: «أقضي عنك كتابك، وأتزوَّجُك». قالت: نعم يا رسول الله! قد فعلت.

---

(١) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣١٥).
(٢) انظر: تاريخ الإسلام، والمغازي، للذَّهبي، ص ٢٥٩.
(٣) انظر: الواقدي (١/ ٤٠٥).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٣٣.
(٥) الملاَّحة: الشَّديدة الملاحة، أي: الفائقة الجمال.

قالت: وخرج الخبر إلى النَّاس: أنَّ رسول الله ﷺ قد تزوَّج جويرية بنت الحارث.

فقال النَّاس: أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما بأيديهم.

قالت: فلقد أُعْتِقَ بزواجه إيَّاها مئةُ أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأةً أعظم بركةً على قومها منها. [أحمد (٦/ ٢٧٧)، وأبو داود (٣٩٣١)، وابن حبان (٤٠٥٤ و٤٠٥٥)، وابن هشام (٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨)][1].

وجاء الحارث بن أبي ضرار ـ بعد الوقعة ـ بفداء ابنته إلى المدينة، فدعاه النَّبيُّ ﷺ إلى الإسلام فأسلم[2].

تُعَدُّ غزوة بني المصطلق من الغزوات الفريدة المباركة؛ الَّتي أسلمت عقبها قبيلةٌ بأسرها، وكان الحدث الَّذي أسلمت القبيلة من أجله هو أنَّ الصحابة حرَّروا، وردُّوا الأسرى الَّذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملَّكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا على أنفسهم أن يتملَّكوا أصهار نبيِّهم ﷺ، وحيال هذا العتق الجماعيِّ، وإزاء هذه الأريحيَّة الفذَّة؛ دخلت القبيلة كلُّها في دين الله.

إنَّ مردَّ هذا الحدث التَّاريخيِّ، وسببه البعيد هو حبُّ الصَّحابة للنَّبيِّ ﷺ، وتكريمُهم إيَّاه، وإكبارُهم شخصه العظيم، وكذلك يؤتي الحبُّ النَّبويُّ هذه الثِّمار الطَّيبة، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التَّاريخ.

لقد كان زواج رسول الله ﷺ من جويرية بنت الحارث له أبعاده، وتحقَّقت تلك الأبعاد بإسلام قومها، فقد كان الزَّواج منها من أهدافه الطَّمع في إسلام قومها، وبذلك يكثر سواد المسلمين، ويعزُّ الإسلام، وهذه مصلحةٌ إسلاميَّةٌ بعيدة، يسَّر الله هذا الزَّواج، وباركه، وحقَّق الأمل البعيد المنشود من ورائه، فأسلمت القبيلة كلُّها بإسلام جويرية، وإسلام أبيها الحارث، فقد عاد هذا الزَّواج على المسلمين بالبركة والقوَّة، والدَّعم المادِّيِّ والأدبيِّ معاً للإسلام، والمسلمين[3].

أصبحت جويرية بنت الحارث زوجةً لسيِّد المرسلين، وأمّاً للمؤمنين، فكانت رضي الله عنها عالمةً بما تسمع، وعاملةً بما تعلم، فقيهةً، عابدةً، تقيَّةً، ورعةً، نقيَّة الفؤاد، مضيئة العقل، مشرقة الرُّوح، تحبُّ الله ورسولَه، وتحبُّ الخير للمسلمين.

وكانت رضي الله عنها تروي من حديث رسول الله ﷺ، ناقلة لحقائق الدِّين من خزائنها عند

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٦٠، ١٦١)، الإصابة، لابن حجر (كتاب النساء).

(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣١٧).

(٣) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ١٩٩، ٢٠٠.

من تنزَّلت عليه ﷺ ، يرويه عنها سدنة العلم من علماء الصَّحابة رضي الله عنهم؛ لينشروه في المجتمع المسلم علماً ، وعملاً ، وفي المجتمع الإسلاميِّ عامَّةً دعوةً وهدايةً[١] ، فقد حدَّث عنها: ابنُ عبَّاس ، وعبيدُ بن السَّبَّاق ، وكريبُ مولى ابن عباسٍ ، ومجاهدٌ ، وأبو أيوب يحيى بن مالكٍ الأزديُّ ، وبلغ مسندها في كتاب بقي بن مخلد سبعة أحاديث[٢] ، منها أربعةٌ في الكتب السِّتَّة ، عند البخاريِّ حديثٌ ، وعند مسلمٍ حديثان ، وقد تضمَّنت مرويَّاتها أحاديث في الصَّوم؛ في عدم تخصيص يوم الجمعة بالصَّوم ، وحديث في الدَّعوات في ثواب التَّسبيح ، وفي الزَّكاة في إباحة الهديَّة للنَّبيِّ ﷺ وإن كان المُهدي ملكها بطريق الصَّدقة ، كما روت في العتق ، وبسبعة أحاديث شريفةٍ خلَّدت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها اسمها في عالم الرِّواية؛ لتضيف إلى شرف صحبتها للنَّبيِّ ﷺ ، وأمومتها للمسلمين؛ تبليغَها الأمَّة سننَ المصطفى ﷺ ما تيسَّر لها ذلك[٣] .

وكانت أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها من الذَّاكرين الله كثيراً ، والذَّاكرات ، القانتات ، الصَّابرات في مجال مناجاة الله تعالى ، وتحميده ، وتقديسه ، وتسبيحه[٤] ، فهذه أمُّ المؤمنين جويرية تحدِّثنا عن ذلك ، فتقول: إنَّ النَّبيَّ ﷺ خرج من عندها بُكْرَةً حين صلَّى الصُّبح ، وهي في مسجدها[٥] ثمَّ رجع بعد أن أضحى؛ وهي جالسةٌ. فقال: ما زلت على الحال الَّتي فارقتُك عليها؟ قالت: نعم. قال النَّبيُّ ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلماتٍ ، ثـلاث مراتٍ لو وُزِنت بما قلت منذ اليوم؛ لوزنتهنَّ ، سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وَزِنَـةَ عرشه ، ومداد كلماته» [أحمد (١/٢٥٨) ، ومسلم (٢٧٢٦) ، وأبو داود (١٥٠٣) ، والنسائي في السنن الكبرى (٩٩١٢ و١٢٧٧)] .

وقد تُوفِّيت رضي الله عنها سنة خمسين ، وقيل: ستٍّ وخمسين[٦] .

ثالثاً: محاولة المنافقين في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار:

خرج في غزوة بني المصطلق عددٌ كبير من المنافقين مع المسلمين ، وكان يغلب عليهم التَّخلُّف في الغزوات السَّابقة ، لكنَّهم لمَّا رأوا اطراد النَّصر للمسلمين؛ خرجوا طمعاً في الغنيمة[٧] .

---

(١) انظر: محمَّد رسول الله ، لمحمد صادق عرجون (٤/ ٢٥٠) .
(٢) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث ، لآمال قرداش ، ص ٨٨ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٨٨ ، ٨٩ .
(٤) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/ ٢٥٠) .
(٥) مسجدها: المكان الَّذي تصلِّي فيه في بيتها .
(٦) انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٨/ ١٢١) ، وخليفة بن خياط ، تاريخه ، ص ٢٣٤ .
(٧) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣١٨) .

وعند ماء الْمُرَيْسِيع كشف المنافقون عن الحِقْدِ الَّذي يضمرونه للإسلام والمسلمين ، فكلَّما كسب الإسلام نصراً جديداً؛ ازدادوا غيظاً على غيظهم ، وقلوبُهم تتطلَّع إلى اليوم الَّذي يُهزم فيه المسلمون ، لتشفى من الغلِّ ، فلمَّا انتصر المسلمون في المريسيع سعى المنافقون إلى إثارة العصبيَّة بين المهاجرين ، والأنصار ، فلمَّا أخفقت المحاولة سعوا إلى إيذاء الرَّسول ﷺ في نفسه ، وأهل بيته ، فشنوا حرباً نفسيَّة مريرةً من خلال حادثة الإفك الَّتي اختلقوها ، ولنترك الصَّحابيَّ زيد بنَ أرقم ، وهو شاهد عيان ، ومشاركٌ في الحادث الأوَّل يحكي خبر ذلك[١] ، قال: كنت في غزاةٍ[٢] فسمعتُ عبد الله بن أُبَيٍّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله ، ولئن رجعنا من عنده ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فذكرت ذلك لعمِّي[٣] ، فذكره للنَّبيِّ ﷺ فدعاني فحدثته ، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيٍّ ، وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، فكذَّبني رسول الله ﷺ ، وصدَّقه ، فأصابني هَمٌّ لم يصبني مثله قطُّ ، فجلست في البيت ، فقال لي عمِّي: ما أردت إلى أن كذَّبك رسولُ الله ﷺ ومقَتَك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقين: ١].

فبعث إليَّ رسول الله ﷺ فقرأ، فقال: «إنَّ الله قد صدَّقك يا زيد!» [البخاري (٤٩٠٠)، ومسلم (٢٧٧٢)][٤].

ويحكي شاهد عيان آخر هو جابر بن عبد الله الأنصاريُّ ما حدث عند ماء المريسيع ، وأدَّى إلى كلام المنافقين لإثارة العصبية ، وتمزيق وحدة المسلمين ، قال: «كنَّا في غزاةٍ فكسع[٥] رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين؟ فسمع ذلك رسول الله ﷺ ، فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله! كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال: «دعوها فإنها منتنة» ، فسمع بذلك عبد الله بن أبيٍّ ، فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ ، فبلغ النَّبيَّ ﷺ ، فقام عمر فقال: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق ، فقال النَّبيُّ: «دعه ، لا يتحدَّث النَّاسُ: أنَّ محمداً يقتل أصحابه». [البخاري (٣٥١٨) ، ومسلم (٢٥٨٤/ ٦٣)][٦].

---

(١) انظر: السِّيرة الصَّحيحة ، للعمري (٢/ ٤٠٨).
(٢) غزاة: صرحت الرِّوايات الأخرى بأنَّها غزوة بني المصطلق.
(٣) يريد بعمِّه سعد بن عبادة ، وهو رأس الخزرج ، وليس عمّه حقيقة.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٠٨).
(٥) كسع: ضربه برجله.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/ ٤٠٩).

وفي روايةٍ قال عمر بن الخطَّاب: مُرْ به عبَّاد بن بشر؛ فليقتله ، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر! إذا تحدَّث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟! لا. ولكن أذِّن بالرَّحيل» ، وذلك في ساعةٍ لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل النَّاس. [الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٥ ـ ١١٦) ، وابن هشام (٣/ ٣٠٣)].

وقد مشى عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه: أنَّ زيد بن أرقم قد بَلَّغه ما سمعه منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال: ولا تكلَّمت به! فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله! عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه.

فلمَّا سار رسول الله ﷺ ، لقيه أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ ، فحيَّاه بتحيَّة النُّبوَّة ، وسلَّم عليه ، ثم قال: يا نبي الله! لقد رحتَ في ساعةٍ منكرةٍ ، ما كنت تروح في مثلها ، فقال له رسول الله ﷺ: «أوبلغك ما قال صاحبُكم؟».

قال: وأيُّ صاحبٍ يا رسول الله؟

قال: «عبد الله بن أبيٍّ».

قال: وما قال؟

قال: «زعم إن رجع إلى المدينة؛ ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ».

قال: فأنت يا رسول الله! تخرجه منها؛ إن شئت ، هو الذَّليل ، وأنت العزيز.

ثم قال: يا رسول الله! ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز؛ ليتوِّجوه ، فإنَّه يرى: أنك استلبت مُلْكَهُ.

ثمَّ مشى رسولُ الله ﷺ بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى ، وليلتهم حتَّى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتَّى آذتهم الشَّمس ، ثمَّ نزل بالنَّاس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض ، فوقعوا نياماً.

وإنَّما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشغل النَّاس عن الحديث الَّذي كان بالأمس ، من حديث عبد الله بن أبيٍّ ، ونزلت السُّورة الَّتي ذُكِرَ فيها المنافقون في ابن أبيٍّ ، ومن كان على مثل أمره ، فلمَّا نزلت؛ أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم ، ثمَّ قال: «هذا الَّذي أوفى لله بأذُنه». [الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦) ، وابن هشام (٣/ ٣٠٥)][1].

إنَّ هذه الحادثة من السِّيرة النَّبويَّة العطرة مليئةٌ بالدُّروس ، والعبر.

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، (٤) غزوة بني المصطلق.

فَمِنْ أهمِّ تلك الدُّروس:

١ ـ الحفاظ على السُّمعة السِّياسيَّة ووحدة الصَّفِّ الدَّاخلية:

وهذا الدَّرس يظهر في قوله ﷺ: «فكيف يا عمر! إذا تحدث النَّاس: أنَّ محمداً يقتل أصحابه؟!» [سبق تخريجه][1].

إنَّها المحافظة التَّامَّة على السُّمعة السِّياسيَّة، والفرق كبير جدّاً بين أن يتحدَّث النَّاس عن حبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً، ويؤكِّدون على ذلك بلسان قائدهم الأكبر أبي سفيان: ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمَّد محمَّداً[2]، وبين أن يتحدَّث النَّاس أنَّ محمَّداً يقتل أصحابه، ولاشكَّ: أنَّ وراء ذلك محاولاتٍ ضخمةً ستتمُّ في محاولة الدُّخول إلى الصَّفِّ الدَّاخليِّ في المدينة من العدوِّ، بينما هم يائسون الآن مِنْ قدرتهم على شيءٍ أمام ذلك الحبِّ، وتلك التَّضحيات[3].

ولم يقف النَّبيُّ ﷺ موقفاً سلبيّاً حيال تلك المؤامرة، الَّتي تزعَّمها ابنُ سلولٍ لتصديع الصَّفِّ المسلم، وإحياء نعرات الجاهليَّة في وسطه؛ بل اتَّخذ إزاءها الخطواتِ الإيجابيَّة التَّالية:

أ ـ سار رسول الله ﷺ بالنَّاس يومهم ذلك حتَّى أمسى، وليلتهم حتَّى أصبح، وصدْرَ يومهم الثَّاني حتَّى آذتهم الشَّمس، ثمَّ نزل بالنَّاس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض، فوقعوا نياماً[4].

وبهذا التَّصرُّف البالغ الغاية في السِّياسة الرَّشيدة قضى على الفتنة قضاءً مبرماً، ولم يدع مجالاً للحديث فيما قال ابنُ أُبيٍّ.

ب ـ لم يواجه النَّبيُّ ﷺ ابن سلولٍ، ومؤامراته المدبَّرة بالقوَّة، واستعمال السِّلاح، حرصاً على وحدة الصَّفِّ المسلم؛ وذلك لأنَّ لابن أُبيٍّ أتباعاً، وشيعةً مسلمين مغرورين، ولو فتك به؛ لأرعدت له أنوفٌ، وغضب له رجالٌ متحمِّسون له، وقد يدفعهم تحمُّسهم له إلى تقطيع الوحدة المسلمة، وليس في ذلك أيُّ مصلحةٍ للمسلمين، ولا للإسلام، وإنَّها لسياسةٌ شرعيَّةٌ حكيمةٌ رشيدةٌ في معالجة المواقف العصيبة في حزمٍ، وقوَّة أعصابٍ، وبُعْد نظرٍ[5]، وهذه البراعة في الحكمة، والسِّياسة، وتدبير الأمور متفرعةٌ عن كونه ﷺ نبيّاً ورسولاً إلى

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٤٠٩).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٤٦٣).
(٣) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٤٦٣).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٢٥٥).
(٥) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ٢٠٢.

النَّاس[١]؛ لكي تقتدي به الأمَّة في تصرُّفاته العظيمة.

وقد كان لتسامح الرَّسول ﷺ مع رأس المنافقين أبعدُ الآثار فيما بعد، فقد كان ابن أُبيٍّ بن سلول كلَّما أحدث حدثاً كان قومه هم الَّذين يُعاتبونه، ويأخذونه، ويعنِّفونه، ويعرضون قتله على النَّبيِّ ﷺ، والرَّسول ﷺ يأبى، ويصفح، فأراد رسول الله ﷺ أن يكشف لسيف الحقِّ عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: «كيف ترى يا عمر؟! أما والله لو قتلته يوم قلتَ لي؛ لأرعدت له أنوفٌ، لو أمرتها اليوم؛ لقتلته!!» فقال عمر: قد ـ والله ـ علمتُ لأَمْرُ رَسُولِ الله ﷺ أعظمُ بركةً مِنْ أمري. [الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦ ـ ١١٧)[٢]، وابن هشام (٣/ ٣٠٥)].

٢ ـ (بل نترفَّق به، ونُحسن صحبته ما بقي معنا):

كان لابن أبيٍّ بن سلول ولدٌ مؤمنٌ مخلصٌ، يسمَّى عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ بن سلول، فلمَّا علم بالأحداث، ونزول السُّورة، أتى رسول الله فقال له: يا رسول الله! بلغني: أنَّك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنتَ فاعلاً؛ فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج، ما كان بها من رجلٍ أبرَّ بوالده منِّي، وإنِّي لأخشى أن تأمر به غيري، فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين النَّاس، فأقتلُه، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافرٍ، فأدخلُ النَّار، فقال رسولُ الله ﷺ: «بل نترفَّق به، ونحسن صحبتَه ما بقي معنا». [الطبري في تفسيره (٢٨/ ١١٦)، وابن هشام (٣/ ٣٠٥)، والبزار (٢٧٠٨)، والطبراني في الأوسط (٢٣١)، ومجمع الزوائد (٩/ ٣١٨)].

ولمَّا وصل المسلمون مشارف المدينة، تصدَّى عبد الله لأبيه عبد الله بن أبيٍّ، وقال له: قف، فوالله لا تدخلها حتَّى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلمَّا جاء رسولُ الله ﷺ؛ استأذنه في ذلك، فأذن له[٣].

٣ ـ مثلٌ أعلى في الإيمان:

جسَّده عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول في موقفه من والده، وتقديمه وإخلاصه لله، ولرسوله، وتقديم محبَّتهما، ومراضيهما على محبَّة، ومراضي الأبوَّة[٤]، لقد ضرب الابن أروع مثلٍ في الإيمان، والتَّضحية بعاطفة الأبوَّة، فقابله ﷺ صاحب القلب الكبير، والخلق العظيم بمثلٍ رفيعٍ في العفو والرَّحمة، وحسن الصُّحبة «بل نترفَّق بـه، ونحسن صحبتـه ما بقي

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ٤٠٩.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).
(٣) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، للقحطانيِّ، ص ٢٠٩، والبداية والنِّهاية (غزوة بني المصطلق من خزاعة، تفسير ابن كثير، المنافقون).
(٤) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/ ١٦٣).

معنا» يا لروعة العفو! ويا لجلال العظمة النَّبويَّة[١]! فقد تلطَّف النَّبيُّ ﷺ بهذا الصَّحابيِّ الجليل وهدَّأ من رَوْعِه ، وأذهب هواجِسَه[٢].

٤ ـ محاربة العصبيَّة الجاهليَّة:

إنَّ العصبيَّة الممقوتة والَّتي نَصِفُها بالجاهليَّة غير مقصورةٍ على العصبيَّة القبليَّة؛ أي: الاشتراك في النَّسب الواحد ، نسب القبيلة الَّتي ينتمون إليها ، وإنَّما الاشتراك في معنىً ، أو وصفٍ معيَّنٍ يجعل المشركين فيه يتعاونون ، ويتناصرون فيما بينهم بالحقِّ ، وبالباطل ، ويكون ولاؤهم فيما بينهم على أساس هذا المعنى ، أو الوصف المشترك ، فعندما كسع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، قال الأنصاريُّ: يا للأنصار! وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين! فسمع ذلك النَّبيُّ ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية؟» قالوا: رجلٌ من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار. فقال النَّبيُّ ﷺ: «دعوها؛ فإنَّها منتنة» [سبق تخريجه][٣].

ووجه الدَّلالة بهذا الخبر: أنَّ النَّبيَّ ﷺ أنكر هذه المناداة؛ لما تشعره من معنى العصبية ، مع أنَّ المنادي استعمل اسماً استعمله القرآن ، وهو (المهاجرين) و(الأنصار)؛ فالمهاجريُّ استنصر بالمهاجرين مع أنَّه هو الَّذي كسع ، فكأنَّه بندائه هذا يريد عونهم ، لاشتراكه وإيَّاهم في معنىً واحدٍ ، وهو (المهاجرة) ، وكذلك الأنصاريُّ استنصر بالأنصار؛ لأنَّه منهم ، ويشترك وإيَّاهم في وصفٍ واحدٍ ومعنىً واحدٍ وهو مدلول كلمة (الأنصار)؛ وكان حقَّ الاثنين ـ إذا كان لابدَّ من الاستنصار بالغير ـ أن يكون الاستنصار بالمسلمين جميعاً ، وعلى هذا فالمطلوب من الدُّعاة التَّأكيد على نبذ العصبيَّة بجميع أنواعها ، سواءٌ كانت عصبيةً تقوم على أساس الاشتراك بالقبيلة الواحدة ، أو على أيِّ أساسٍ آخر ، من بلدٍ ، أو مذهبٍ ، أو حزبٍ ، أو عِرْقٍ ، أو لونٍ ، أو دم ، أو جنسٍ ، وأن يكون الولاء ، والتَّناصر على أساس الاشتراك بالأخوَّة الإسلاميَّة الَّتي أقامها ، وأثبتها الله تعالى بين المسلمين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، وأن يكون التَّناصر فيما بينهم تناصراً على الحقِّ لا على الباطل ، بمعنى أن ينصروا المحقَّ ، وأن يكونوا معه لا مع المعتدي[٤].

لقد أوضح الرَّسول ﷺ: أنَّ العصبيات هي من دعاوى الجاهليَّة وقال: «انصر أخاك ظالماً ، أو مظلوماً» فقال رجلٌ لرسول الله ﷺ: أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً؟ كيف أنصره؟ قال: «تحجزه ـ أو تمنعه ـ من الظُّلم ، فإنَّ ذلك نصره» ، [البخاري (٦٩٥٢) ، والترمذي

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧).

(٢) انظر: محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمد الصَّادق عرجون (٣/ ١٦٢).

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٢٠٩).

(٤) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٣٠١ ، ٣٠٢).

(٢٢٥٥)، وأحمد (٣/ ٢٠١)]، فجعل التناصر في طلب الحقِّ، والإنصاف، وأبطل المفهوم الجاهليَّ: «انصر أخاك ظالماً، أو مظلوماً»(١).

إنَّ مهمَّة الدُّعاة، وطلابِ العلم، والعلماء، والفقهاء هي التَّخلُّص من العصبيَّة، ودعوة المسلمين إلى نبذها، كما أمر بذلك رسول الله ﷺ، وهي مهمَّةٌ صعبةٌ، ولكنَّها ليست مستحيلةً، ولأهمِّيتها الكبيرة علينا أن نبذل ما في وسعنا؛ لقلعها من النُّفوس(٢).

رابعاً: توجيه القرآن الكريم للمجتمع الإسلاميِّ في أعقاب غزوة بني المصطلق:

نزلت سورة (المنافقون) في أعقاب غزوة بني المصطلق، حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة، وذلك بدليل رواية الإمام التِّرمذيِّ: «فلمَّا أصبحنا؛ قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقون» [الترمذي (٣٣١٣)].

فقد تحدَّثت السُّورة بإسهابٍ عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث، والأقوال، الَّتي وقعت منهم، ورُويت عنهم، وفضحت أكاذيبهم، إلا أنَّها في الختام حذَّرت المؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا، ومتاعها، وحثَّت على الإنفاق، ويمكن لدارس هذه السُّورة أن يلاحظ عدَّة محاور مهمَّةٍ، منها:

١ ـ تحدثت السُّورة الكريمة في البدء عن أخلاق المنافقين، وفضحت كذبهم في أقوالهم، ووصفت حالهم(٣)، فابتدأت هذه السُّورة بإيراد صفات المنافقين الَّتي من أهمِّها الكذبُ في ادِّعاء الإيمان، وحلفُ الأيمان الكاذبة، وجبنُهم، وضعفُهم، وتآمرُهم، على النَّبيِّ ﷺ وعلى المؤمنين، وصدُّهم النَّاس عن دين الله(٤).

قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٤].

٢ ـ ثمَّ بينت الآيات عنادهم، وتصميمهم على الباطل، وعصيانهم لمن يدعوهم إلى الحقِّ، وبيَّنت مقالاتِهم الشَّنيعة بالتَّفصيل، خاصَّةً ما قالوه في غزوة بني المصطلق من أنَّهم

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٢٠٩).
(٢) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٣٠٢).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣٢٧).
(٤) انظر: التَّفسير المنير، د. وهبة الزُّحيلي (٢٨/ ٢١٣).

سيطردون الرَّسول ﷺ والمؤمنين من المدينة، وأنَّ العزَّة لهم إلى غير ذلك من الأقوال الفظيعة(١).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٥ ـ ٨].

٣ ـ ثمَّ خُتمت السُّورة بتحذير الَّذين آمنوا من الانشغال بزينة الدُّنيا، وعدم التَّشبُّه بالمنافقين، وحثَّتهم على الصَّدقة ـ الَّتي هي برهانٌ على الإيمان باليوم الآخر ـ قبل فوات الأوان(٢)، فقد كانت الآيات تحثُّ المجتمع المسلم على الاشتغال بطاعة الله تعالى، وقراءة القرآن، وإدامة الذِّكر، وأداء الصَّلوات، والقيام بجميع الفرائض، وحذَّرتهم من أن ينشغلوا بالأموال، والاهتمام بشؤون الأولاد عن أداء حقوق الله، كما فعل المنافقون؛ إذ قالوا بسبب الشُّحِّ بأموالهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ، ومن يشتغل بالمال، والولد عن طاعة ربِّه فأولئك هم الخاسرون(٣).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

كانت خاتمة السُّورة الكريمة تحذيراً للمؤمنين من الانشغال بزينة الدُّنيا التي هي من أخلاق المنافقين(٤).

وهكذا كان المجتمع المدنيُّ يتربَّى بالأحداث، والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه، وتعليمه، ورسول الله ﷺ يقوم بالإشراف على ذلك.

خامساً: محاولة المنافقين الطَّعن في عِرْض النَّبيِّ ﷺ بالافتراء على عائشة رضي الله عنها بما يعرف بحديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن فشل كيدُهم في المحاولة الأولى لإثارة

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٢٧).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٢٧).
(٣) انظر: التَّفسير المنير (٢٨/ ٢٣٠، ٢٣١).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٢٤٣).

النَّعرة الجاهليَّة ، فقد ألمَّتْ بالبيت النَّبويِّ هذه النازلة الشَّديدة ، والمحنة العظيمة الَّتي كان القصد منها النَّيل من النَّبيِّ ﷺ ومن أهل بيته الأطهار .

هذا وقد أجمع أهل المغازي والسِّير[١] على أنَّ حادثة الإفك كانَت في أعقاب غزوة بني المصطلق ، وتابعهم في ذلك المفسِّرون[٢] ، والمحدِّثون[٣] .

وقد أخرج البخاريُّ ، ومسلمٌ حديث الإفك في صحيحيهما . [البخاري (٤١٤١) ، ومسلم (٢٧٧٠)] ، وهذا سياق القصَّة من صحيح البخاريِّ :

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه ؛ فأيتهنَّ خرج سهمها ، خرج بها رسول الله ﷺ معه ، قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوةٍ غزاها[٤] فخرج سهمي ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب فأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجِي[٥] وأنزل فيه .

فسرنا حتَّى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك ، وقفل ، ودنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلةً بالرَّحيل ، فقمت حين آذنوا بالرَّحيل ، فمشيت حتَّى جاوزتُ الجيشَ ، فلمَّا قضيت شأني ، أقبلت إلى رحلي ، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفَارٍ[٦] قد انقطع ، فالتمست عِقْدي ، وحبسني ابتغاؤه ، وأقبل الرَّهط[٧] الَّذين كانوا يُرحِّلونني ، فاحتملوا هَوْدَجي ، فَرَحَّلُوه على بعيري الَّذي كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنِّي فيه ، وكان النِّساء ، إذ ذاك خفافاً لم يثقلهنَّ اللَّحم إنَّما نأكل العُلْقة[٨] من الطَّعام ، فلم يستنكر القوم خفَّة الهودج حين رفعوه ، وكنت جاريةً حديثة السِّنِّ ، فبعثوا الجمل فساروا ، ووجدت عِقْدي بعدما استمرَّ الجيش ، فجئت منازلهم ، وليس بها داعٍ ، ولا مجيب فتيمَّمت منزلي الَّذي كنت فيه ، وظننت : أنَّهم سيفقدوني ، فيرجعون إليَّ ، فبينما أنا جالسةٌ في منزلي غلبتني عيني فنمت ، وكان صفوان بن المعطَّل السُّلمي[٩] ثم الذَّكوانيّ من وراء الجيش ، فادَّلج[١٠] ، فأصبح عند منزلي ، فرأى سواد إنسان نائمٍ ، فأتاني ، فعرفني

---

(١) كالواقديِّ ، والذَّهبيِّ ، والطَّبري ، وابن سعدٍ ، وابن حزم .
(٢) كابن كثيرٍ ، والرَّازي ، والطَّبري ، وغيرهم .
(٣) كابن حجر ، والنَّووي .
(٤) هي غزوة بني المصطلق .
(٥) الهودج : محمل له قبَّة تُستر بالثياب يوضع على ظهر البعير ، تركب فيه النساء .
(٦) جزع ظفار : هو خرزٌ معروفٌ ، في سواده بياضٌ كالعروق ، وهي مدينة باليمن .
(٧) الرَّهط : الجماعة .
(٨) العلقة : البُلغة من الطَّعام .
(٩) صحابيٌّ جليلٌ كان صاحب ساقة رسول الله ﷺ في غزواته .
(١٠) فادَّلج (بالتَّشديد) : سار آخر الليل .

حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه[١] حين عرفني فخمَّرتُ[٢] وجهي بجلبابي ، ووالله ما كلَّمني كلمةً ، ولا سمعت منه كلمةً غير استرجاعه ، وهوى حتَّى أناخ راحلته ، فوطئ على يديها ، فركبتها ، فانطلق يقود بي الرَّاحلة حتَّى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[٣] ، في نحر الظَّهيرة[٤] وهم نزول قالت: فهلك مَنْ هلك ، وكان الَّذي تولى كِبْرَ الإفك عبد الله بن أبيِّ بن سلول .

١ ـ انتشار الدِّعاية بالمدينة :

وقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهراً والنَّاس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيءٍ من ذلك ، وهو يريبني[٥] في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللُّطف الَّذي كنت أرى منه حين أشتكي ، إنَّما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ فيسلِّم ، ثمَّ يقول: «كيف تِيكُمْ»[٦] ثمَّ ينصرف ، فذلك الَّذي يريبني ، ولا أشعر بالشَّرِّ ، حتَّى خرجتُ بعدما نَقِهْتُ ، فَخَرَجَتْ معي أمُّ مِسْطَح قِبَلَ المناصِع[٧] وهو متبرَّزنا ، وكنَّا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليلٍ ، وذلك قبل أن نتَّخذ الكُنُف[٨] قريباً من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأوَل في التَّبَرُّز قِبَل الغائط ، فكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا ، وأمُّ مِسْطَح ، وهي ابنة أبي رُهم بن عبد منافٍ ، وأمُّها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصِّدِّيق ، وابنُها مسْطَحُ بن أُثاثة[٩] ، فأقبلت أنا ، وأم مِسْطَح قِبَل بيتي حين فرغنا مِنْ شأننا ، فعثرت أم مِسْطَح في مِرْطها[١٠] فقالت: تَعِسَ مِسْطَح ، فقلت لها: بئس ما قلت! أتسبِّين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هَنَتَاه[١١]! أولم تسمعي ما قال؟! قلت: وما قال؟ فأخبرتني بخبر أهل الإفك ، فازدَدْت مرضاً على مرضي ، قالت: فلمَّا رجعت إلى بيتي ، ودخل عليَّ رسولُ الله ﷺ ـ تعني: فسلَّم ـ ثمَّ قال: «كيف تِيكُم؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر مِنْ قِبَلِهما ، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ ،

---

(١) أي: بقوله: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .
(٢) فخمَّرت: أي: غطيت .
(٣) موغرين: الوغرة: شدة الحرِّ .
(٤) نحر الظهيرة: أولها وهو وقت شدَّة الحر .
(٥) يريبني: يشككني .
(٦) كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل: ذاكم للمذكر .
(٧) المناصع: المواضع الَّتي يُتخلَّى فيها لقضاء الحاجة .
(٨) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر .
(٩) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب ، توفي في خلافة عثمان .
(١٠) فعثرت في مرطها: أي: وطئته برجلها ، فسقطت .
(١١) هنتاه: يا بلهاء ، كأنها نسبت إلى قلَّة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم .

فجئت أبويَّ ، فقلت لأمِّي: يا أمتاه! ما يتحدَّث النَّاس؟ قالت: يا بنيَّة! هوِّني عليك ، فوالله! لقلَّما كانت امرأة قطُّ وضيئةٌ[١] عند رجلٍ يحبُّها ، ولها ضرائر إلاَّ أكثرن عليها[٢] .

قالت: فقلت: سبحان الله! لقد تحدث النَّاس بهذا؟!

فبكيت تلك اللَّيلة حتَّى أصبحت لا يرقأ لي دمعٌ[٣] ، ولا أكتحل بنومٍ حتَّى أصبحت أبكي.

٢ ـ استشارة رسول الله ﷺ بعض أصحابه عند تأخُّر نزول الوحي:

ودعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالبٍ ، وأسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما حين استلبث[٤] الوحي ، يستأمرهما في فراق أهله ، قالت: فأمَّا أسامة؛ فأشار على رسول الله بالَّذي يعلم من براءة أهله ، وبالَّذي يعلم لهم من الودِّ ، فقال: يا رسول الله! أهلُك ، وما نعلم إلا خيراً ، وأمَّا عليُّ بن أبي طالب ، فقال: يا رسول الله! لم يضيِّق الله عليك ، والنِّساء سواها كثيرٌ ، وإن تسأل الجارية؛ تصدقك.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال: «أي بريرة! هل رأيت من شيءٍ يريبك؟» قالت بريرة: لا والَّذي بعثك بالحقِّ إنْ رأيت عليها أمراً أغمصُه[٥] عليها أكثر من أنَّها جاريةٌ حديثة السِّنِّ ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتي الدَّاجن[٦] فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر[٧] يومئذٍ من عبد الله بن أبيٍّ بن سلول ، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين! من يَعْذِرني من رجلٍ قد بلغني أذاه في أهل بيتي ، فوالله! ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً[٨] ما علمت عليه إلا خيراً ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذٍ الأنصاريُّ ، فقال: يا رسول الله! أنا أعذرك منه إن كان من الأوس؛ ضربتُ عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج؛ أمرتنا ففعلنا أمرك.

٣ ـ آثار فتنة الإفك:

قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيِّد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتملته

(١) وضيئة: الوضاءة: الحسن والجمال.
(٢) إلا أكثرن عليها: أي: أكثرن القول في عيبها.
(٣) لا يرقأ لي دمع: لا ينقطع ، ولا ينكف.
(٤) استلبث: وهو الإبطاء ، والتأخُّر.
(٥) أغمصه عليها: أي: أعيبها به ، وأطعن عليها به.
(٦) الدَّاجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.
(٧) فاستعذر: أي: قال: من يقوم بعذري إن كافأته على سوء صنيعه؟
(٨) هو صفوان بن المعطَّل السلمي.

الحميَّة[١] ـ فقال لسعد: كذبت لَعَمْرُ الله! لا تقتُله، ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يُقتل، فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عمِّ سعدٍ، فقال لسعد بن عبادة: لنقتلنَّه فإنَّك منافقٌ تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان[٢]: الأوسُ، والخزرج؛ حتَّى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائمٌ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضُهم حتَّى سكتوا، وسكت.

قالت: فمكثت يومي لا يرقأ لي دمعٌ، ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين، ويوماً، لا أكتحل بنومٍ، ولا يرقأ لي دمعٌ يظنَّان أنَّ البكاء فالق كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنتْ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلَّم، ثمَّ جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ ما قيل قبلها.

٤ ـ مفاتحة الرَّسول ﷺ لعائشة، وجوابها له:

وقد لبث الوحي شهراً[٣] لا يوحى إليه في شأني بشيءٍ، قالت: فتشهَّد رسول الله ﷺ حين جلس، ثمَّ قال: «أمَّا بعد: يا عائشة! فإنَّه قد بلغني عنك كذا وكذا[٤]، فإن كنت بريئةً فسيبرِّئك الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ؛ فاستغفري الله وتوبي إليه، فإنَّ العبد إذا اعترف بذنبه، ثمَّ تاب إلى الله، تاب الله عليه» فلمَّا قضى رسول الله ﷺ مقالته؛ قلص دمعي[٥]؛ حتَّى ما أحسُّ منه قطرةً، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ عنِّي فيما قال، قال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

قالت: فقلت وأنا جاريةٌ حديثة السِّنِّ لا أقرأ كثيراً من القرآن: إنِّي والله! لقد علمتُ، لقد سمعتم هذا الحديث حتَّى استقرَّ في أنفسكم، وصدَّقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة، والله يعلم أنِّي بريئةٌ؛ لا تصدِّقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمرٍ، والله يعلم أنِّي منه بريئةٌ لتصدقُنِّي، والله! ما أجد لي، ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[٦]، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قالت: ثمَّ تحولت، فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا حينئذ أعلم أنِّي بريئةٌ، وأنَّ الله مبرِّئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظنُّ أنَّ الله منزلٌ في شأني

---

(١) احتملته الحمية: أي: حملته الأنفة، والغضب على الجهل.
(٢) فثار الحيَّان: أي: تناهضوا للنزاع والعصبية.
(٣) التقيُّد بالشَّهر، فهو المدَّة الَّتي أوَّلها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.
(٤) كناية عمَّا رميت به من الإفك.
(٥) قلص دمعي: أي: ارتفع وذهب.
(٦) هو يعقوب عليه السَّلام.

وحياً يُتلى ، وَلَشَأْنِي في نفسي كان أحقر من أن يتكلَّم الله فيَّ بأمرٍ يُتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النَّوم رؤيا يبرِّئني الله بها .

٥ ـ نزول الوحي ببراءة عائشة :

قالت : فوالله ! ما رام(١) رسول الله ﷺ ولا خرج أحدٌ من أهل البيت حتَّى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاءِ(٢) حتَّى إنَّه ليتحدَّر منه العرق مثل الجمان(٣) ، وهو يومٌ شاتٍ من ثقل القول الَّذي ينزل عليه .

قالت : فلمَّا سُرِّي(٤) عن رسول الله ﷺ ، وهو يضحك ، فكانت أوَّل كلمةٍ تكلَّم بها : يا عائشة ! أمَّا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فقد برَّأك ، فقالت أمِّي : قومي إليه ، قالت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

وأنزل الله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ١١ ـ ٢٠] .

٦ ـ موقف أبي بكر الصِّديق ممَّن تكلَّم في عائشة رضي الله عنها :

فلمَّا أنزل الله هذا في براءتي ، قال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح بن أُثاثة لقرابته منه ، وفقره ـ : والله ! لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال ، فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢ ـ ٢٣] .

---

(١) ما رام : ما برح ، وما فارق مجلسه .
(٢) البرحاء : شدَّة الكرب من ثقل الوحي .
(٣) الجمان : حبات اللؤلؤ الصَّغيرة ، وقيل : حبٌّ يتَّخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ .
(٤) سُرِّي : انكشف عنه ما يجده من الهم ، والثقل .

قال أبو بكر: بلى والله! إنِّي أحبُّ أن يغفر الله لي، فأَرْجَعَ إلى مسطح النَّفقة الَّتي كان ينفق عليه، وقال: والله! لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش[١] عن أمري، فقال: «يا زينب! ماذا علمت، أو رأيت؟» فقالت: يا رسول الله! أحمي[٢] سمعي، وبصري، وما علمت إلا خيراً، قالت: وهي الَّتي كانت تساميني[٣] من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله[٤] بالورع[٥]، وطفقت[٦] أختها حمنة[٧] تحارب لها، فهلكت ممَّن هلك من أصحاب الإفك. [سبق تخريجه].

كانت قصَّة الإفك حلقةً من سلسلة فنون الإيذاء، والمحن الَّتي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدِّين، وكان من لطف الله تعالى بنبيِّه وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها، وبطلانها، وقد سجَّل التَّاريخ برواياتٍ صحيحةٍ مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لاسيما موقف أبي أيوبٍ، وأم أيوبٍ، وهي مواقف يتأسَّى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفِرْية، فقد انقطع الوحي، وبقيت الدُّروس، لتكون عبرةً، وعظةً للأجيال إلى أن يرث الله الأرض، ومن عليها[٨].

سادساً: أهمُّ الآداب والأحكام الَّتي تؤخذ من آيات الإفك:

أخذ العلماء من الآيات الَّتي نزلت في حادثة الإفك أحكاماً، وآداباً، من أهمِّها ما يأتي:

١ ـ تبرئة السَّيدة عائشة رضي الله عنها من الإفك بقرآنٍ يُتْلَى إلى آخر الزَّمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

٢ ـ أنَّ حكمة الله ـ تعالى ـ اقتضت أن يبزغ الخير من ثنايا الشَّرِّ، فقد كان ابتلاء أسرة أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه بحديث الإفك خيراً لهم، حيث كُتِب لهم الأجر العظيم على صبرهم، وقوَّة إيمانهم، قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

٣ ـ الحرص على سمعة المؤمنين، وعلى حسن الظَّنِّ فيما بينهم، قال تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ

---

(١) هي زينب بنت جحش أمُّ المؤمنين رضي الله عنها، وهي بنتُ عمَّته ﷺ.
(٢) أحمي سمعي، وبصري: أي: أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
(٣) تساميني: أي: تعاليني، وتفاخرني: أي: تطاولني عنده ﷺ.
(٤) عصمها: حفظها، ومنعها.
(٥) الورع: الكفُّ عن المحارم والتَّحرُّج منها.
(٦) طفقت: شرعت.
(٧) حمنة بنت جحش بنت عمَّته ﷺ، وهي أخت زينب رضي الله عنها.
(٨) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٤٠.

سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ .

٤ ـ تكذيب القائلين بالإفك ، قال تعالى : ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ .

٥ ـ بيان فضل الله على المؤمنين ، ورأفته بهم : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ . . . ﴾ .

٦ ـ وجوب التَّثبُّت من الأقوال قبل نشرها ، والتَّأكُّد من صحَّتها ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ .

٧ ـ النَّهي عن اقتراف مثل هذا الذَّنب العظيم ، أو العودة إليه ، قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

٨ ـ النهي عن إشاعة الفاحشة بين المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

٩ ـ بيان فضل الله ـ سبحانه ـ على عباده المؤمنين ، ورأفته بهم ، وكرَّر ذلك تأكيداً له ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ .

١٠ ـ النَّهي عن تتبُّع خطوات الشَّيطان الَّتي تؤدِّي للهلاك قال تعالى : ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

١١ ـ الحثُّ على النَّفقة على الأقارب وإن أساؤوا[1] قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

١٢ ـ غيرة الله ـ تعالى ـ على عباده المؤمنين الصَّادقين ، ودفاعه عنهم ، وتهديده لمن يرميهم بالفحشاء باللَّعن في الدُّنيا ، والآخرة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ .

قال صاحب الكشَّاف عند تفسيره لهذه الآيات :

ولو فلَّيت القرآن كلَّه ، وفتَّشت عمَّا أوعد به العُصاة ؛ لم ترَ الله تعالى قد غلَّظ في شيءٍ تغليظَه في إفك عائشة رضوانُ الله عليها ، ولا أنزل من الآيات القوارع ، المشحونة بالوعيد الشَّديد ،

(١) انظر : حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (١/ ٣٨٥ ، ٣٨٦) .

والعتاب البليغ ، والزَّجر العنيف ، واستعظام ما ارتُكِبَ من ذلك ، واستفظاع ما أقدم عليه ، ما أنزل فيه على طرقٍ مختلفةٍ ، وأساليب مفتنةٍ ، كلٌّ واحد منها كافٍ في بابه ، ولو لم ينزل إلا هذه الآيات الثَّلاث لكفى بها؛ حيث جعل القَذَفَة ملعونين في الدَّارين جميعاً ، وتوعَّدهم بالعذاب العظيم في الآخرة ، وبأنَّ ألسنتهم ، وأيديهم ، وأرجلهم تشهد عليهم بما أفكوا ، وبهتوا ، وأنَّه يوفِّيهم جزاءهم الحقَّ الواجب الَّذي هم أهلُه[١] .

١٣ ـ بيان سنَّةٍ من سنن الله الجارية في الكون ، وهي أنَّ الطَّيبين يجعلهم الله من نصيب الطَّيبات ، والطَّيبات يجعلهنَّ من نصيب الطَّيبين. قال تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ .

١٤ ـ والنَّاس عندما رُمِيَت الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا على أربعة أقسام[٢] :

قال فضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد ـ عند تعليقه على حديثٍ يتعلَّق بقصَّة الإفك ـ: إنَّ النَّاس عندما رُمِيَتِ الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق بالإفك كانوا أربعة أقسام:

قسمٌ ـ وهو أكثر النَّاس ـ حموا أسماعهم ، وألسنتهم ، فسكتوا ، ولم ينطقوا إلا بخيرٍ ولم يصدِّقوا ، ولم يكذِّبوا. وقسمٌ سارع إلى التَّكذيب ، وهم: أبو أيوبٍ الأنصاريُّ ، وأم أيوبٍ رضي الله عنهما ، فقد وصفوه عند سماعه بأنَّه إفك ، وبرَّؤوا عائشة ممَّا نسب إليها في الحال.

أمَّا القسم الثالث؛ فكانوا جملةً من المسلمين ، لم يصدِّقوا ، ولم يكذِّبوا ، ولم ينفوا ، ولكنَّهم يتحدَّثون بما يقول أهل الإفك ، وهم يحسبون: أنَّ الكلام بذلك أمرٌ هيِّنٌ لا يُعرِّضهم لعقوبة الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافرٍ ، وحاكي الإفك ليس بقاذفٍ ، ومن هؤلاء: حمنة بنت جحش ، وحسَّان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة.

أمَّا القسم الرَّابع فهم الذين جاؤوا بالإفك ، وعلى رأس هؤلاء عدوُّ الله عبد الله ابن أُبَيٍّ بن سلول ، رأسُ المنافقين ، لعنه الله ، وهو الَّذي تولَّى كبره.

وقد أشار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى فضل القسم الثاني من هذه الأقسام ، وأنَّه كان ينبغي لجميع المسلمين أن يقفوا هذا الموقف ، فقال: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أمَّا القسم الثَّالث؛ فقد أشار الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلى أنَّه ما كان ينبغي لهم أن يتحدَّثوا بمثل هذا الحديث ، حيث يقول: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، (١/ ٣٨٦) نقلاً عن تفسير الكشاف (٣/ ٢٢٣).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (١/ ٣٨٧).

وقد أثبت الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لأهل هذا القسم فضائلهم الَّتي عملوها ، حيث أثبت لمسطح هجرته ، وإيمانه عندما حلف أبو بكر : أنه لن ينفق على مسطح ولن يتصدَّق عليه ، وهو من ذوي قرابته ، فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَٰكِينَ وَالْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

أمَّا القسم الرَّابع وهو جماعة عبد الله بن أُبَيٍّ الَّذين جاؤوا بالإفك واخترعوا هذا الكذب ؛ فقد أشار الله إلى موتهم على الكفر ، وأنَّه لن يقبل منهم توبةً ، وأنَّه أنزل عليهم لعنته في الدُّنيا ، والآخرة[١] ؛ حيث قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَٰتِ الْغَٰفِلَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ .

سابعاً : فوائد ، وأحكامٌ ، ودروسٌ من حادثة الإفك ، وغزوة بني المصطلق :

١ ـ بشريَّة الرَّسول ﷺ :

جاءت محنة الإفك منطويةً على حكمةٍ إلٰهيَّةٍ استهدفت إبراز شخصيَّة النَّبيِّ ﷺ ، وإظهارها صافيةً مميَّزةً عن كلِّ ما قد يلتبس بها ، فلو كان الوحي أمراً ذاتياً غير منفصلٍ عن شخصيَّة الرَّسول ﷺ ؛ لما عاش الرَّسول ﷺ تلك المحنة بكلِّ أبعادها شهراً كاملاً ، ولكن الحقيقة الَّتي تجلَّت للنَّاس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرَّسول ﷺ ونبوَّته ، فعندما حسم الوحي اللَّغط الَّذي دار حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ؛ عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرَّسول ﷺ ، وفرح الجميع بهذه النَّتيجة بعد تلك المعاناة القاسية ، فدلَّ ذلك على حقيقة الوحي ، وأنَّ الأمر لو لم يكن من عند الله تعالى ؛ لبقيت رواسب المحنة في نفس رسول الله ﷺ بصفةٍ خاصَّةٍ ، ولانعكس ذلك على تصرُّفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها ، وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوَّة محمَّدٍ ﷺ[٢] .

٢ ـ حدُّ القذف ، وأهمِّيته في المحافظة على أعراض المسلمين :

كان المجتمع الإسلاميُّ يتربَّى من خلال الأحداث ، فعندما وقعت حادثة الإفك أراد المولىٰ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يشرِّع بعض الأحكام الَّتي تسهم في المحافظة على أعراض المؤمنين ، ولذلك نزلت سورة النُّور ، الَّتي تحدَّثت عن حكم الزَّاني والزَّانية ، وعن قبح فاحشة الزِّنى ، وعمَّا يجب على الحاكم أن يفعله إذا ما رمى أحد الزَّوجين صاحبه ، وعن العقوبة الَّتي أوجبها الله على الَّذين يرمون المحصنات ، ثمَّ لم يأتوا بأربعة شهداء ، إلى غير ذلك من الأحكام[٣] .

---

(١) انظر : فقه الإسلام شرح بلوغ المرام ، لفضيلة الشَّيخ عبد القادر شيبة الحمد (٩/ ٥) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤١ .
(٣) انظر : حديث القرآن الكريم (١/ ٣٥٧) .

إنَّ الإسلام حرم الزِّنى ، وأوجب العقوبة على فاعله ، وقد حرَّم أيضاً كل الأسباب المسبِّبة له ، وكلَّ الطُّرق الموصلة إليه؛ ومنها إشاعة الفاحشة ، والقذف بها؛ لتنزيه المجتمع من أن تسري فيه ألفاظ الفاحشة ، والحديث عنها؛ لأنَّ كثرة الحديث عن فاحشة الزِّنى وسهولة قولها في كلِّ وقتٍ يهون أمرها لدى سامعيها ، ويجرِّئ ضعفاء النُّفوس على ارتكابها ، لهذا حرَّمت الشَّريعة الإسلاميَّة القذف بالزِّنى ، وأوجبت على من قذف عفيفاً ، أو عفيفةً ، طاهراً ، أو طاهرةً ، بريئاً ، أو بريئةً من الزِّنى ، حدَّ القذف ، وهو الجلد ثمانون جلدةً ، وعدم قبول شهادته إلا بعد توبته توبةً صادقةً نصوحاً[١].

هذا وقد أقام رسول الله ﷺ حدَّ القذف على مِسْطح ، وحسَّانَ ، وحمنةَ ، وروى محمَّد بن إسحاق ، وغيره : أنَّ النَّبيَّ ﷺ جلد في الإفك رجلين ، وامرأة : مسطحاً ، وحسَّاناً ، وحمنة . وذكره التِّرمذيُّ . [الترمذي (٣١٨١) ، ولم يُصرِّح بذكر الأسماء ، وقد صرَّح بها أبو داود (٤٤٧٥)] .

قال القرطبيُّ[٢] : والمشهور من الأخبار ، والمعروف عند العلماء : أن الَّذي حُدَّ حسانُ ، ومسطحٌ ، وحمنةُ ، ولم يُسْمَع بحدٍّ لعبد الله بن أُبَيٍّ[٣] ، وقد وردت آثارٌ ضعيفةٌ تدل على أنَّ عبد الله بن أُبَيٍّ أقيم عليه الحدُّ ، ولكنَّها كلَّها ضعيفةٌ لا تقوم بها حجَّة[٤] .

وقد ذكر ابن القيِّم وجه الحكمة في عدم حدِّ عبد الله بن أبيٍّ ، فقال :

أ ـ قيل : لأنَّ الحدود تخفيفٌ عن أهلها ، وكفارةٌ ، والخبيث ليس أهلاً لذلك ، وقد وعده الله بالعذاب العظيم في الآخرة ، ويكفيه عن الحدِّ .

ب ـ وقيل : كان يستوشي الحديث ، ويجمعه ، ويحكيه ، ويخرجه في قوالب من لا ينسب إليه .

جـ ـ وقيل : الحدُّ لا يثبت إلا ببيِّنةٍ ، أو إقرارٍ ، وهو لم يقرَّ بالقذف ، ولا شهد به عليه أحدٌ ، فإنَّه كان يذكره بين أصحابه ، ولم يشهدوا عليه ، ولم يكن يذكره بين المؤمنين .

د ـ وقيل : بل ترك حدَّه لمصلحةٍ هي أعظم من إقامته عليه ، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه ، وتكلُّمه بما يوجب قتله مراراً ، وهي تأليف قومه ، وعدم تنفيرهم من الإسلام .

ثمَّ قال ـ في ختام كلامه ـ : ولعلَّه ترك لهذه الوجوه كلِّها[٥] .

---

(١) انظر : آثار تطبيق الشَّريعة ، د. محمد الزَّاحم ، ص ١١٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي (١٢/ ١٩٧) .

(٣) انظر : تفسير القرطبي (١٢/ ٢٠١) .

(٤) انظر : مرويات غزوة بني المصطلق ، ص ٢٤٢ .

(٥) انظر : زاد المعاد (٣/ ٢٦٣ ، ٢٦٤) .

٣ ـ اعتذار حسان رضي الله عنه للسيدة عائشة رضي الله عنها:

قد بيَّنت الرِّوايات: أنَّ من خاض في الإفك قد تاب ـ ما عدا ابن أبيٍّ ـ وقد اعتذر حسَّان رضي الله عنه عمَّا كان منه، وقال يمدح عائشة رضي الله عنها بما هي أهلٌ له[١]:

رَأيتُـــكِ وَلْيَغْفِــرْ لَــكِ اللهُ حُــرَّةً ... مِــنَ المُحْصَنَـاتِ غَيْـرَ ذَاتِ غَــوَائِـلِ
حَصَــانٌ رَزَانٌ مَــا تُــزَنُّ بِــرِيبَـــةٍ ... وَتُصْبِـحَ غَـرْثَـىٰ مِـنْ لُحُـوْمِ الغَــوَافِـلِ
وَإِنَّ الَّــذي قَــدْ قِيْــلَ لَيْــسَ بِـلاَئِــقٍ ... بِـكِ الـدَّهْـرَ بَـلْ قَـوْلُ امْـرِئٍ مُتَنَـاحِـلِ
فَــإِنْ كُنْـتُ أَهْجُـوكُــمْ كَمَــا بلَّغُــوكُــمُ ... فَــلاَ رَفَعَــتْ سَــوْطِـي إلـيَّ أَنَــامِلِـي
فَكَيْــفَ وَوُدِّي مَــا حَيِيْــتُ وَنُصْـرَتِــي ... لآلِ رَسُــوْلِ اللهِ زَيْــنُ المَحَــافِــلِ
وَإِنَّ لَهُــمْ عِــزّاً يَــرَىٰ النَّــاسُ دُوْنَــهُ ... قِصَــاراً، وَطَـالَ العِـزُّ كـلَّ التَّطَـاوُلِ[٢]

٤ ـ من الأحكام المستنبطة في غزوة بني المصطلق:

جواز الإغارة على مَنْ بلغتهم دعوة الإسلام دون إنذارٍ. ومنها: صحَّة جعل العتق صداقاً، كما فعل ﷺ مع جويرية بنت الحارث في هذه الغزوة. ومنها: مشروعية القرعة بين النِّساء عند إرادة السَّفر ببعضهن. ومنها: جواز استرقاق العرب، كما حدث في الغزوة، وهو قول جمهور العلماء[٣].

وقد أجمع العلماء قاطبةً على أنَّ من سبَّ عائشة رضي الله عنها بعد براءتها براءةً قطعيَّة بنصِّ القرآن، ورماها بما اتُّهمت به؛ فإنه كافرٌ؛ لأنه معاندٌ للقرآن[٤]، ومن الأحكام الَّتي عرفت في هذه الغزوة حكم العزل عن النِّساء، حيث سأل الصَّحابة الرَّسول ﷺ عنه، فأذن به، وقال: «ما عليكم ألا تفعلوا، ما من نسمةٍ كائنةٍ إلى يوم القيامة إلا وهي كائنةٌ» [البخاري (٥٢١٠)، ومسلم (١٤٣٨/١٢٥)، وأحمد (٣/٦٨ و٧٢)][٥]. فذهب الجمهور إلى جواز العزل عن الزَّوجة الحرَّة بإذنها[٦]، ونزلت آية التَّيمُّم في هذه الغزوة؛ تنويهاً بشأن الصَّلاة، وتنبيهاً على عظيم شأنها، وأنَّه لا يحول دون أدائها فقدُ الماء، وهو وسيلةُ الطَّهارة الَّتي هي أعظم شروطها، كما لا يحول الخوف، وفقدُ الأمن من إقامتها[٧].

* * *

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/٢٦٣).
(٢) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، المغازي، ص ٢٨١.
(٣) انظر: كتاب الأم، للشَّافعي (٤/١٨٦).
(٤) شرح صحيح مسلم، للنووي (٥/٦٤٣).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة، للعمري (٢/٤١٥).
(٦) انظر: نيل الأوطار، للشَّوكاني (٦/٢٢٢ ـ ٢٢٤).
(٧) صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ٢١٠، ٢١١.

الفصل الحادي عشر
غزوة الأحزاب (٥ هـ)

المبحث الأوَّل
تاريخ الغزوة، وأسبابها، وأحداثها

أولاً: تاريخ الغزوة، وأسبابها:

١ ـ تاريخ الغزوة:

ذهب جمهور أهل السِّير والمغازي إلى أن غزوة الأحزاب كانت في شهر شوَّال من السَّنة الخامسة[١]، وقال الواقديُّ[٢]: إنَّها وقعت في يوم الثلاثاء الثَّامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجريِّ، وقال ابن سعدٍ[٣]: إنَّ الله استجاب لدعاء الرَّسول ﷺ، فهزم الأحزاب يوم الأربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمسٍ من مهاجره ﷺ. ونقل عن الزُّهريِّ، ومالك بن أنس، وموسىٰ بن عقبة: أنَّها وقعت سنة أربعٍ هجريَّة[٤].

ويرى العلماء: أنَّ القائلين بأنَّها وقعت سنة أربع كانوا يعدُّون التاريخ من المحرم الَّذي وقع بعد الهجرة، ويلغون الأشهر الَّتي قبل ذلك إلى ربيع الأوَّل وهو مخالف لما عليه الجمهور من جعل التَّاريخ من المحرَّم سنة الهجرة[٥]، وجزم ابن حزم[٦]: أنَّها وقعت سنة أربعٍ لقول ابن عمر: أنَّ الرسول ﷺ ردَّه يوم أحدٍ ـ وهي في السَّنة الثَّالثة باتِّفاق ـ وهو ابن أربع عشرة سنة

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٤٣. وينظر الشكل (١٠) في الصفحة (٦١٤).

(٢) انظر: المغازي (٢/ ٤٤٠) بدون إسناد.

(٣) انظر: الطَّبقات (٢/ ٦٥، ٧٣) بإسنادٍ متصل.

(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ١٠٥).

(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٤٣.

(٦) انظر: جوامع السِّير، ص ١٨٥.

[البخاري (٤٠٩٧)، ومسلم (١٨٦٨)][1] ولكنَّ البيهقيَّ [دلائل النبوة (٢/٢٩٦)] وابن حجر[2]، وغيرهما فسَّروا ذلك بأنَّ ابن عمر كان يوم أحدٍ في بداية الرَّابعة عشرة، ويوم الخندق في نهاية الخامسة عشرة وهو الموافق لقول الجمهور[3].

وإلى ما ذهب إليه الجمهور ـ وهو الرَّاجح لديَّ ـ مال ابن القيِّم، حيث قال: وكانت سنة خمسٍ من الهجرة في شوال على أصحِّ القولين؛ إذ لا خلاف: أنَّ أُحداً كانت في شوَّال سنة ثلاثٍ، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربعٍ، ثمَّ أخلفوه من أجل جدب تلك السَّنة، فرجعوا، فلمَّا كانت سنة خمس جاؤوا لحربه[4].

٢ ـ أسبابها:

إنَّ يهود بني النَّضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما إن استقرُّوا بخيبر؛ حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتَّفقت كلمتُهم على التَّوجُّه إلى القبائل العربيَّة المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وكوَّنوا لهذا الغرض الخبيث وفداً يتكوَّن من سلام ابن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الرَّبيع بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبي عمَّار[5].

وقد نجح الوفد نجاحاً كبيراً في مهمَّته، حيث وافقت قريش الَّتي شعرت بمرارة الحصار الاقتصاديِّ المضروب عليها من قِبَل المسلمين، ووافقت غطفان طمعاً في خيرات المدينة، وفي السَّلب، والنَّهب، وتابعتهم قبائل أخرىٰ.

وقد قال وفد اليهود لمشركي مكَّة: إنَّ دينكم خيرٌ من دين محمَّدٍ، وأنتم أولى بالحقِّ منه[6]. وعن ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٢].

وحول هذه المقالة أشار الأستاذ ولفنسون إلى الخطأ الكبير الَّذي وقع فيه هؤلاء اليهود بتفضيلهم دين قريشٍ الوثنيَّ على دين الإسلام الَّذي يدعو إلى عبادة الإلٰه الواحد، فقال: «والَّذي يؤلم كلَّ مؤمن بإلٰهٍ واحدٍ من اليهود، والمسلمين على السَّواء، إنَّما هو تلك المحادثة الَّتي

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٤٤.
(٢) انظر: الفتح (٣/٣٩٦).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٤٤٤.
(٤) انظر: زاد المعاد (٢/٢٨٨).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/٢٣٧).
(٦) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري، د. علي معطي، ص ٣١٠.

جرت بين نفرٍ من اليهود ، وبين قريش الوثنيِّين ، حيث فضَّل هؤلاء النَّفر من اليهود أديان قريشٍ على دين صاحب الرِّسالة الإسلاميَّة»[١] .

ولا ريب أن قريشاً قد سُرَّت بما سمعت من مدحٍ لدينها ، فازدادت حماساً ، وأصبحت أكثر تصميماً على حرب المسلمين ، ثمَّ أعلنت موافقتها على هذه الدَّعوة ، والاشتراك في الحملة الَّتي ستهاجم المدينة ، وضربت لها موعداً[٢] .

وقد أبرم الوفد اليهوديُّ مع زعماء أعراب غطفان اتفاقيَّة الاتحاد العربيِّ الوثنيِّ اليهوديِّ العسكريِّ ضدَّ المسلمين ، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو :

أ ـ أن تكون قوَّة غطفان في جيش الاتِّحاد هذا ستَّةَ آلاف مقاتلٍ .

ب ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان «مقابل ذلك» كلَّ تمر خيبر لسنةٍ واحدةٍ[٣] .

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة ومعه عشرةُ آلاف مقاتلٍ ؛ أربعة آلاف من قريشٍ ، وأحلافها ، وستَّةُ آلافٍ من غطفان ، وأحلافها ، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة .

ثانياً : متابعة المسلمين للأحزاب :

كان جهاز أمن الدَّولة الإسلاميَّة على حذرٍ تام من أعدائه ؛ لذا فقد كان يتتبَّع أخبار الأحزاب ، ويرصد تحرُّكاتهم ، ويتابع حركة الوفد اليهوديِّ منذ خرج من خيبر في اتِّجاه مكَّة ، وكان على علمٍ تامٍّ بكلِّ ما يجري بين الوفد اليهوديِّ ، وبين قريش أوَّلاً ، ثمَّ غطفان ثانياً ، وبمجرَّد حصول المدينة على هذه المعلومات عن العدوِّ شرع الرَّسول ﷺ في اتخاذ الإجراءات الدِّفاعية اللاَّزمة ، ودعا إلى اجتماعٍ عاجلٍ ، حضره كبار قادة جيش المسلمين من المهاجرين ، والأنصار ، بحث فيه معهم هذا الموقف الخطير النَّاجم عن مساعي اليهود الخبيثة[٤] ، فأدلى سلمان الفارسيُّ رضي الله عنه برأيه الَّذي يتضمَّن حفر خندقٍ كبيرٍ لصدِّ عدوان الأحزاب ، فأُعْجِبَ النَّبيُّ ﷺ بذلك ، قال الواقديُّ رحمه الله : فقال سلمان : يا رسول الله! إنَّا إذا كنا بأرض فارس ، وتخوَّفنا الخيل ، خندقنا علينا ، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟ فأعجب رأي سلمان المسلمين[٥] .

---

(١) انظر : تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ولفنسون ، ص ١٤٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣١٠ .
(٣) انظر : غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٤١ .
(٤) انظر : غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ .
(٥) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٤٤٤) ، والطَّبقات الكبرى (٦/٢) ، ومحمَّد ﷺ : لمحمَّد رضا (حفر الخندق) .

وعندما استقرَّ الرَّأي ـ بعد المشاورة ـ على حفر الخندق ، ذهب النَّبيُّ ﷺ هو وبعض أصحابه لتحديد مكانه ، واختار للمسلمين مكاناً تتوافر فيه الحماية للجيش ، فقد ذكر الواقديُّ : أنَّ رسول الله ﷺ ركب فرساً له ، ومعه نفرٌ من أصحابه من المهاجرين ، والأنصار ، فارتاد موضعاً ينزله ، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سَلْعاً خلف ظهره ، ويخندق من المذاد إلى ذباب[١] إلى راتج[٢] ، وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سَلْع[٣] في حماية ظهور الصَّحابة .

كان اختيار تلك المواقع موفَّقاً؛ لأنَّ شمال المدينة هو الجانب المكشوف أمام العدوِّ ، والَّذي يستطيع منه دخول المدينة ، وتهديدها ، أمَّا الجوانب الأخرى فهي حصينةٌ منيعةٌ ، تقف عقبةً أمام أيِّ هجوم يقوم به الأعداء ، فكانت الدُّور من ناحية الجنوب متلاصقةً عاليةً كالسُّور المنيع ، وكانت حرَّة واقم[٤] من جهة الشَّرق ، وحرة الوبرة من جهة الغرب ، تقومان كحصنٍ طبيعيٍّ ، وكانت آطام بني قريظة في الجنوب الشَّرقي كفيلةً بتأمين ظهر المسلمين ، وكان بين الرَّسول ﷺ وبني قريظة عهدٌ ألاَّ يمالئوا عليه أحداً ، ولا يناصروا عدوّاً ضدَّه[٥] .

ويستفاد من بحث الرَّسول ﷺ عن مكانٍ ملائمٍ لنزول الجند أهمِّيَّةُ الموقع الذي ينزل فيه الجند ، وأنَّه ينبغي أن يتوافر فيه شرطٌ أساسيٌّ ، وهو الحماية التامَّة للجند؛ لأنَّ ذلك له أثرٌ واضحٌ على سير المعركة ، ونتائجها[٦] .

لقد كانت خطَّة الرَّسول ﷺ في الخندق متطورةً ، ومتقدِّمةً ، حيث شرع بالأخذ بالأساليب الجديدة في القتال ، ولم يكن حفر الخندق من الأمور المعروفة لدى العرب في حروبهم؛ بل كان الأخذ بهذا الأسلوب غريباً عنهم ، وبهذا يكون الرَّسول ﷺ هو أوَّل من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين ، فقد كان هذا الخندق مفاجأةً مُذهلةً لأعداء الإسلام ، وأبطل خطَّتهم الَّتي رسموها ، وكان من عوامل تحقيق هذه المفاجأة ما قام به المسلمون من إتقانٍ رفيع لسرِّية الخطَّة ، وسرعة إنجازها ، وكان هذا الأسلوب الجديد في القتال له أثرٌ في إضعاف معنويات الأحزاب ، وتشتيت قواتهم .

ثالثاً : اهتمام النبي ﷺ بالجبهة الدَّاخلية :

١ ـ لمَّا علم النَّبيُّ ﷺ بقدوم جيش الأحزاب ، وأراد الخروج إلى الخندق أمر بوضع ذراري

---

(١) ذباب : أكمةٌ صغيرة في المدينة ، يفصل بينها وبين جبل سلع ثنية الوداع .

(٢) راتج : حصنٌ من حصون المدينة لأناسٍ من اليهود .

(٣) جبل سلع : هو أشهر جبال المدينة . انظر : معجم البلدان (٣/ ٢٣٦) .

(٤) هي حرَّة المدينة الشَّرقية . انظر : معجم معالم الحجاز (٢/ ٢٨٣ ، ٢٨٥) .

(٥) انظر : العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول ﷺ ، ص ٤٤٢ .

(٦) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٤٢٦ .

المسلمين ، ونسائهم ، وصبيانهم في حصن بني حارثة؛ حتَّى يكونوا في مأمنٍ من خطر الأعداء ، وقد فعل ذلك ﷺ ؛ لأنَّ حماية الذَّراري ، والنِّساء ، والصِّبيان لها أثرٌ فعَّالٌ على معنويات المقاتلين؛ لأنَّ الجندي إذا اطمأنَّ على زوجه ، وأبنائه يكون مرتاح الضَّمير ، هادئ الأعصاب ، فلا يشغل تفكيره أمرٌ من أمور الحياة ، يُسخِّر كل إمكاناته ، وقدراته العقليَّة ، والجسديَّة للإبداع في القتال ، أمَّا إذا كان الأمر بعكس ذلك؛ فإنَّ أمر الجندي يضطرب، ومعنوياتُه تضعُف ويستولي عليه القلق ، ممَّا يكون له أثر في تراجعه عن القتال وبذلك تنزل الكارثة بالجميع[1] .

٢ ـ ومن الأمور الَّتي أسهمت في قوية، وتماسك الجبهة الدَّاخلية مشاركةُ النبي ﷺ جنده أعباء العمل، فقد شارك الرَّسول ﷺ الصَّحابة في العمل المضني ، فأخذ يعمل بيده الشَّريفة في حفر الخندق ، فعن ابن إسحاق ، قال: سمعت البراء يحدِّث قال: لما كان يوم الأحزاب ، وخندق رسول الله ﷺ ؛ رأيتُه ينقل من تراب الخندق حتَّى وارى عني التُّرابُ جِلدَة بطنِه ، وكان كثير الشَّعر . [البخاري (٤١٠٦) ، ومسلم (١٨٠٣)].

فعمل رسول الله ﷺ مع الصَّحابة بهمَّةٍ عاليةٍ لا تعرف الكلل ، فأعطى القدرة الحسنة لأصحابه حتَّى بذلوا ما في وسعهم لإنجاز حفر ذلك الخندق .

٣ ـ وكان ﷺ يشارك الصَّحابة رضي الله عنهم في آلامهم ، وآمالهم ، بل كان يستأثر بالمصاعب الجمَّة دونهم ، ففي غزوة الأحزاب نجد: أنَّه ﷺ كان يعاني ألم الجوع كغيره ، بل أشدَّ ، حيث وصل به الأمر إلى أن يربط حجراً على بطنه الشَّريف من شدَّة الجوع[2] ، ثمَّ إنَّه ﷺ شاركهم في آمالهم ، فحين وجد ما يسدُّ رمقه بعد هذا الجوع الَّذي استمر ثلاثاً ، لم يستأثر بذلك دونهم ، وهذا ما سوف نعرفه بإذن الله عند الحديث عن وليمة جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

٤ ـ رفع معنويات الجنود وإدخال السُّرور عليهم: اقترن حفر الخندق بصعوباتٍ جمَّة ، فقد كان الجو بارداً ، والرِّيح شديدةً ، والحالة المعيشية صعبةً ، بالإضافة إلى الخوف من قدوم العدو الَّذي يتوقَّعونه في كلِّ لحظةٍ ، ويضاف إلى ذلك العمل المضني حيث كان الصَّحابة يحفرون بأيديهم وينقلون التراب على ظهورهم ، ولاشكَّ في أن هذا الظرف ـ بطبيعة الحال ـ يحتاج إلى قدرٍ كبير من الحزم ، والجدِّ ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ لم ينسَ في هذا الظَّرف: أنَّ هؤلاء الجند إنَّما هم بشرٌ كغيرهم ، لهم نفوسٌ بحاجةٍ إلى الرَّاحة من عناء العمل ، كما أنَّها بحاجةٍ إلى مَنْ يدخل السُّرور عليها؛ حتَّى تَنسى تلك الآلام الَّتي تعانيها فوق معاناة العمل الرَّئيسي ، ولهذا نجد: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يرتجز بكلمات ابن رواحة ، وهو ينقل التُّراب:

---

(١) انظر: غزوة الأحزاب ، للدُّكتور محمد عبد القادر أبو فارس ، ص ٩٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٦ ، ١١٧ .

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... ولا تَصَدَّقْنَا ولا صَلَّيْنَا
فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا
إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ثُمَّ يَمدُّ صوته بآخرِها. [البخاري (٤١٠٦)].

وعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ أصحاب محمَّدٍ ﷺ كانوا يقولون يوم الخندق:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّداً ... عَلَى الإِسْلامِ مَا بَقِينَا أَبَداً

أو قال على الجهاد، والنَّبيُّ ﷺ يقول:

اللَّهُمَّ إِنَّ الْخَيْرَ خَيْرُ الآخِرَه ... فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والمُهَاجِرَه

[البخاري (٢٨٣٤)، ومسلم (١٨٠٥/ ١٣٠)].

لقد كان لهذا التَّبسُّط، والمرح في ذلك الوقت أثرُه في التَّخفيف عن الصَّحابة ممَّا يعانونه نتيجةً للظُّروف الصَّعبة، الَّتي يعيشونها، وكما كان له أثرُهُ في بعث الهِمَّة، والنَّشاط، بإنجاز العمل الَّذي كُلِّفوا بإتمامه، قبل وصول عدوِّهم[١].

٥ ـ تقدير ظروف الجند، والإذن بالانصراف عند الحاجة: كان الصَّحابة رضي الله عنهم على قدرٍ كبير من الأدب مع النَّبيِّ ﷺ، فكانوا يستأذنونه في الانصراف إذا عرضت لهم ضرورةٌ، فيذهبون لقضاء حوائجهم، ثمَّ يرجعون إلى ما كانوا فيه من العمل، رغبةً في الخير، واحتساباً له، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

ومعنى الآية الكريمة: إذا استأذنك يا محمَّد! الَّذين لا يذهبون عنك إلا بإذنك في هذه المواطن لقضاء بعض حاجاتهم؛ الَّتي تعرض لهم فائذن لمن شئت منهم في الانصراف عنك لقضائها، واستغفر لهم[٢]، فكان النَّبيُّ ﷺ بالخيار، إن شاء؛ أذن له؛ إذا رأى ذلك ضرورة للمستأذن، ولم ير فيه مضرَّة على الجماعة، فكان يأذن، أو يمنع حسب ما تقتضيه المصلحة، ويقتضيه مقام الحال[٣].

٦ ـ تقسيم الصَّحابة إلى دورياتٍ للحراسة: قسم النَّبيُّ ﷺ أصحابه إلى مجموعاتٍ للحراسة، ومقاومة كلِّ مَنْ يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول ﷺ، ص ٤٨٢.
(٢) انظر: صفوة التفاسير، للصَّابوني (٢/ ٣٥١).
(٣) أحكام القرآن، لابن العربيِّ (٣/ ١٤١٠).

الخندق ، وحراسة نبيِّهم ﷺ ، واستطاعوا أن يصدُّوا كلَّ هجومٍ حاول المشركون شنَّه ، وكانوا على أهبة الاستعداد جنوداً ، وقيادةً ، حتَّى إنَّهم استمرُّوا ذات يوم من السَّحَر إلى جوف اللَّيل في اليوم الثَّاني ، ويفوت المسلمين الصَّلواتُ الأربع ، ويقضونها لعجزهم عن التوقُّف لحظةً واحدةً في أثناء الاشتباك المباشر للقتال ، واستطاع عليٌّ بن أبي طالب مع مجموعة من الصَّحابة أن يصدُّوا محاولة عكرمة بن أبي جهلٍ ، بل تصدَّى عليٌّ لبطل قريش عمرو بن عبد ودٍّ ، وقتله[1] ، وكانت هناك مجموعةٌ من الأنصار تقوم بحراسة النَّبيِّ ﷺ في كلِّ ليلةٍ على رأسهم عبَّاد بن بشرٍ رضي الله عنه ، فالنَّبيُّ ﷺ هو القائد الأعلى وهو المشرف المباشر على إدارة المعركة، فهو الَّذي يرسم الخطط ، ويراقب تنفيذها ، فهو الَّذي :

أ ـ أمر بحفر الخندق ، بعد أن تمَّت المشاورة في ذلك ، فاختار مكاناً مناسباً لذلك ، وهي السُّهول الواقعة شمال المدينة ؛ إذ كانت هي الجهة الوحيدة المكشوفة أمام الأعداء .

ب ـ قسَّم أعمال حفر الخندق بين الصَّحابة ، كلَّ أربعين ذراعاً لعشرة من الصَّحابة ، ووكَّل بكلِّ جانبٍ جماعةً يحفرون فيه .

ج ـ سيطر على العمل ، فلا يستطيع أحدٌ ترك عمله إلا بإذنٍ منه ﷺ .

د ـ قسم ﷺ واجبات احتلال المواضع بنفسه بحيث تستمرُّ الحراسة على كلِّ شبرٍ من الخندق ليلاً ، ونهاراً ، ثمَّ إنَّه ﷺ كان يقوم بمهمَّة الإشراف العامِّ على الجند بتشجيعهم ، ورفع معنوياتهم .

هـ ـ استطاع ﷺ ـ لما يتمتَّع به من حنكةٍ ، وبراعةٍ سياسيَّةٍ مستمدَّةٍ من شخصيته النَّبويَّة ـ أن يمسك بزمام الأمور وينقذ المؤمنين من الموقف الحرج الَّذي حدث لهم عندما وصلت الأحزاب إلى المدينة ، وأصبح الخطر يهدِّد المدينة ، وما حولها[2] ، فقد توحَّدت قيادة المسلمين تحت زعامته ﷺ ، فكان ذلك من أسباب كسب المعركة ، والفوز بها .

* * *

---

(١) انظر : فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص ٥٠٤ .
وانظر : البداية والنِّهاية (فصل: نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق) ، وانظر : السِّيرة النبوية لابن هشام (غزوة الخندق) من حاول عبور الخندق من المشركين ، وراجع : الإصابة في معرفة الصَّحابة لابن حجر .

(٢) انظر : القيادة العسكريَّة في عصر الرَّسول ﷺ ، ص ١١ .

المبحث الثاني
اشتداد المحنة بالمسلمين

مع أنَّ المسلمين أخذوا بالاحتياطات كافَّةً في تأمين جبهتهم الدَّاخليَّة ، ومحاولة الدِّفاع عن الإسلام ، والمدينة من جيش الأحزاب الزَّاحف ، إلا أنَّ سنَّة الله الماضية لا نصر إلا بعد شدَّة ، ولا منحة إلا بعد محنة ، وكلَّما اقترب النَّصر زاد البلاء ، والامتحان ، وقد ازدادت محنة المسلمين في الخندق عندما :

أولاً : نَقْضُ اليهود من بني قريظة العهدَ ، ومحاولة ضرب المسلمين من الخلف :

كان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الَّذين يسكنون في جنوب المدينة ، فيقع المسلمون حينئذٍ بين نارين ، اليهود خلف خطوطهم ، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم ، ونجح اليهوديُّ زعيم بني النَّضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضمَّ مع الأحزاب لمحاربة المسلمين .

وسرت الشَّائعات بين المسلمين بأنَّ قريظة قد نقضت عهدها معهم ، وكان الرَّسول ﷺ يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه ؛ لأنَّ اليهود قوم لا عهد لهم ، ولا ذمَّة ، ولذلك انتدب النَّبيُّ ﷺ الزبير بن العوَّام «رجل المهمَّات الصَّعبة» ليأتيه من أخبارهم ، فذهب الزُّبير ، فنظر ثمَّ رجع ، فقال : يا رسول الله! رأيتهم يصلحون حصونهم ، ويُدرِّبون[1] طرقهم ، وقد جمعوا ماشيتهم[2] .

وبعد أن كثرت القرائن الدَّالة على نقض بني قريظة للعهد ؛ أرسل رسول الله ﷺ سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة ، وخَوَّات بن جبير رضي الله عنهم ، وقال لهم : انطلقوا حتَّى تنظروا : أَحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، أم لا؟ فإن كان حقّاً ؛ فالحنوا لي لحناً[3] أعرفه ، ولا تَـفُتُّوا في أَعْضَاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم ؛ فاجهروا به

---

(١) يُدربون طرقهم : يسهلون طرقهم من أجل السَّير إلى المسلمين .
(٢) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٤٥٧) .
(٣) لحناً : أي : كلاماً لا يفهمه أحدٌ سواي .

للنَّاس. [ابن هشام (٣/ ٢٣٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢٩)][(١)].

فخرجوا حتَّى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد، فرجعوا، فسلَّموا على النَّبيِّ ﷺ، وقالوا: عضَلٌ والقارَّة[(٢)]، فعرف النَّبيُّ ﷺ مرادهم[(٣)].

واستقبل النَّبيُّ ﷺ غدر بني قريظة بالثَّبات، والحزم، واستخدم كلَّ الوسائل الَّتي مِنْ شأنها أن تقوِّي روح المؤمنين، وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النَّبيُّ ﷺ في الوقت نفسه «سلمة بن أسلم» في مئتي رجلٍ، وزيد بن حارثة في ثلاثمئة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدَّت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيراً كانت محمَّلةً تمراً، وشعيراً، وتيناً؛ لتمدَّهم بها، وتقوِّيهم على البقاء، إلا أنَّها أصبحت غنيمةً للمسلمين الَّذين استطاعوا مصادرتها، وأتوا بها إلى النَّبيِّ ﷺ[(٤)].

ثانياً: تشديد الحصار على المسلمين، وانسحاب المنافقين ونشرهم الأراجيف:

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها، واشتدَّ الكرب على المسلمين، وتأزَّم الموقف، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن حالة الحرج، والتَّدهور، الَّتي أصابت المسلمين، ووصف ما وصل إليه المسلمون من جزعٍ، وخوفٍ، وفزعٍ في تلك المحنة الرَّهيبة أصدقَ وصفٍ، حيث قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وكان ظنُّ المسلمين بالله قويّاً، وقد سجَّله القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وأمَّا المنافقون؛ فقد انسحبوا من الجيش، وزاد خوفهم حتَّى قال مُعَتِّب بن قُشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمَّد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى، وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرُّجوع إلى بيوتهم بحجَّة أنَّها عورة، فقد كان موقفهم يتَّسم بالجبن، والإرجاف وتخذيل المؤمنين، وقد وردت رواياتٌ ضعيفةٌ تحكي

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن كثير (٣/ ١٩٩)، والقرطبي، تفسير آية (٩) من سورة الأحزاب، والطَّبري، والبداية والنِّهاية، لابن كثير (فصل: في نزول قريش بمجتمع الأسيال يوم الخندق).

(٢) قبيلتان من هذيل سبق منهما الغدر بأصحاب النَّبيِّ ﷺ في ذات الرَّجيع.

(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٩٥)، والسِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (غزوة الخندق).

(٤) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٣٢٣).

أقوالهم في السُّخرية ، والإرجاف ، والتَّخذيل[١] .

ولكن القرآن الكريم يتكفَّل بتصوير ذلك أدقَّ تصوير[٢] ، والآيات هي : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٣ ـ ٢٠].

إنَّ الآيات السَّابقة أشارت إلى النِّفاق ، وما تولَّد عنه من القلق في النُّفوس ، والجبن في القلوب ، وانعدام الثِّقة بالله عند تعاظم الخطوب ، والجرأة على الله تعالى بدل اللُّجوء إليه عند الامتحان ، ولا يقف الأمر عند الاعتقاد؛ بل يتبعه العمل المُخذِّل المُرْجِف ، فهم يستأذنون الرَّسول ﷺ للانصراف عن ميدان العمل ، والقتال بحججٍ واهيةٍ زاعمين: أن بيوتهم مكشوفةٌ للأعداء ، وإنَّما يقصدون الفرار من الموت لضعف معتقدهم ، وللخوف المسيطر عليهم ، بل ويحثُّون الآخرين على ترك موقعهم ، والرُّجوع إلى بيوتهم ، ولم يراعوا عقد الإيمان ، وعهود الإسلام[٣] .

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق ، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعدادٍ كبيرةٍ كلَّ ليلةٍ حول الخندق حتَّى الصَّباح ، وحاول خالد بن الوليد مع مجموعةٍ من فرسان قريش أن يقتحم الخندق على المسلمين في ناحيةٍ ضيِّقةٍ منه ، ويأخذهم على حين غِرَّةٍ ، لكنَّ أُسَيْدَ بن حضير في مئتين من الصَّحابة يراقبون تحرُّكاتهم ، وقد حصلت مناوشاتٌ استشهد فيها الطُّفَيْل بن النُّعمان ، والَّذي قتله وحشيٌّ ـ قاتل حمزة يوم أحدٍ ـ رماه بحربةٍ عبر الخندق ، فأصابت منه مقتلاً[٤] ، واستطاع حبَّان بن العَرِقَة ، من المشركين أن يرمي سهماً أصاب سعد بن

(١) انظر: المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٣٧٦) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٣١).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٢٤).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٢٥).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (٢/ ٤٢٤).

معاذ رضي الله عنه في أكحله[١] ، وقال: خذها وأنا ابن العرقة.

وقد قال سعد بن معاذ عندما أصيب: اللَّهُمَّ! إن كنت أبقيت من حرب قريشٍ شيئاً؛ فأبقني لها ، فإنَّه لا قومَ أحبُّ إليَّ من أن أجاهد من قومٍ آذوا رسولك ، وكذَّبوه ، وأخرجوه.

اللَّهُمَّ! وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم؛ فاجعلها شهادةً ، ولا تميتني حتَّى تقرَّ عيني من بني قريظة. [أحمد (٦/ ١٤١ ـ ١٤٢) ، وابن حبان (٧٠٢٨)].

وقد استجاب الله دعوة هذا العبد الصَّالح وهو الَّذي سيحكم فيهم ، ثمَّ وجَّه المشركون كتيبة غليظةً نحو مقرِّ رسول الله ﷺ فقاتلهم المسلمون يوماً إلى اللَّيل ، فلمَّا حانت صلاة العصر؛ دنت الكتيبة ، فلم يقدر النَّبيُّ ﷺ ، ولا أحدٌ من أصحابه الَّذين كانوا معه أن يصلُّوا ، وشُغِلَ بهمُ النَّبيُّ ﷺ ، فلم يصلِّ العصر ، ولم تنصرف الكتيبة إلا مع اللَّيل ، فقال رسول الله ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم ، وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى؛ حتَّى غابت الشمس» [البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)].

ثالثاً: محاولة النَّبيِّ ﷺ تخفيف حدَّة الحصار بعقد صلحٍ مع غطفان ، وبثِّ الإشاعات في صفوف الأعداء:

١ ـ سياسة النَّبيِّ ﷺ في المفاوضات مع غطفان: ظهرت حنكته ﷺ وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذَّات لمصالحتها على مالٍ يدفعه إليها على أن تترك محاربته ، وترجع إلى بلادها ، فهو يعلم ﷺ: أنَّ غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أيَّ هدفٍ سياسيٍّ يريدون تحقيقه أو باعثٍ عقائديٍّ يقاتلون تحت رايته ، وإنَّما كان هدفهم الأوَّل والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها ، ولهذا لم يحاول الرَّسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب ، وكنانة بن الرَّبيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب؛ لأنَّ هدف أولئك الرَّئيسي لم يكن المال ، وإنَّما كان هدفهم هدفاً سياسيّاً ، وعقائديّاً يتوقَّف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلاميِّ من الأساس ، لذا فقد كان اتصاله «فقط» بقادة غطفان ، الَّذين «فعلاً» لم يتردَّدوا في قبول العرض الَّذي عرضه عليهم النَّبيُّ ﷺ[٢] ، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن ، والحارث بن عوف) لطلب النَّبيِّ ﷺ ، وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقرِّ قيادة النَّبيِّ ﷺ ، واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحدٌ ، وشرع رسول الله ﷺ في مفاوضتهم ، وكانت تدور حول عرضٍ تقدَّم به رسول الله ﷺ يدعو فيه إلى عقد صلحٍ

---

(١) الأكحل: عرق في وسط الذراع في كل عضو منه شعبة ، إذا قطع لم يرقأ الدم.
(٢) انظر: غزوة الأحزاب ، لمحمَّد أحمد باشميل ، ص ٢٠١.

منفردٍ بينه ، وبين غطفان ، وأهمُّ البنود الَّتي جاءت في هذه الاتفاقيَّة المقترحة :

أ ـ عقد صلحٍ منفردٍ بين المسلمين وغطفان الموجودين ضمن جيوش الأحزاب .

ب ـ توادع غطفان المسلمين ، وتتوقف عن القيام بأيِّ عملٍ حربيٍّ ضدَّهم (وخاصَّة في هذه الفترة).

ج ـ تفكُّ غطفان الحصار عن المدينة ، وتنسحب بجيوشها عائدةً إلى بلادها .

د ـ يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلِّها من مختلف الأنواع ، ويظهر : أنَّ ذلك لسنةٍ واحدةٍ[١] ، فقد ذكر الواقديُّ : أنَّ رسول الله ﷺ قال لقائدي غطفان : أرأيت إن جعلت لكم ثلث ثمر المدينة ترجعان بمن معكم ، وتخذِّلان بين الأعراب؟ قالا : تعطينا نصف ثمر المدينة ، فأبى رسول الله ﷺ أن يزيدهما على الثُّلث ، فرضيا بذلك ، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر[٢] .

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله ﷺ من الوجهة العسكريَّة وضوح الهدف الَّذي خرجت غطفان من أجله ، وهو الوقود الذي يشعل نفوس هؤلاء ، ويحرِّكها في جبهة القتال ، ولاشكَّ في أنَّ اختفاء هذا الدَّافع يعني : أنَّ المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال ، وبذلك تضعف عنده الرُّوح المعنوية الَّتي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه ، وبذلك استطاع ﷺ أن يُفتِّت ، ويضعف من قوَّة جبهة الأحزاب[٣] .

وقد أبرز ﷺ في هذه المفاوضات جانباً من جوانب منهج النُّبوة في التَّحرك لفكِّ الأزمات عند استحكامها ، وتأزُّمها؛ لتكون لأجيال المجتمع المسلم درساً تربوياً من دروس التَّربية المنهجيَّة عند اشتداد البلاء[٤] ، وقبل عقد الصُّلح مع غطفان شاور رسولُ الله ﷺ الصحابة في هذا الأمر ، فكان رأيُهم عدم إعطاء غطفان شيئاً من ثمار المدينة ، وقال السَّعدان : سعدُ بن معاذ ، وسعدُ بن عبادة : يا رسول الله! أمراً تحبُّه ، فنصنعُه ، أم شيئاً أمرك الله به لابدَّ لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعُه لنا؟ فقال : «بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله! ما أصنع ذلك إلا لأنِّي رأيت العرب رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ ، وكالبوكم ـ أي : اشتدوا عليكم ـ من كلِّ جانبٍ ، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما» ، فقال له سعد بن معاذ : يا رسول الله! قد كنَّا وهؤلاء على الشِّرك بالله ، وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ، ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرةً واحدةً إلا قِرىً ـ

---

(١) انظر : غزوة الأحزاب ، لمحمَّد باشميل ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(٢) انظر : المغازي ، للواقدي (٢/ ٤٧٧) ، والجامع لأحكام القرآن ، للقرطبيِّ (آية : ٦١) .
(٣) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٤١٣ .
(٤) انظر : محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/ ١٧٦) .

أي: الطَّعام الَّذي يُصنع للضَّيف ـ أو بيعاً ، أفحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزَّنا بك ، وبه ، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجةٍ، والله لا نعطيهم إلا السَّيف، حتَّى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال النَّبيُّ ﷺ : «أنت وذاك». فتناول سعد بن معاذ الصَّحيفة ، فمحا ما فيها من الكتاب ، ثمَّ قال: ليَجْهدوا علينا. [ابن هشام (٣/ ٢٣٤)](١).

كان رد زعيمي الأنصار: سعدُ بن معاذ ، وسعدُ بن عبادة في غاية الاستسلام لله تعالى ، والأدب مع النَّبي ﷺ وطاعته ، فقد جعلوا أمر المفاوضة مع غطفان ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله تعالى ، فلا مجال لإبداء الرَّأي بل لابدَّ من التَّسليم ، والرِّضا.

والثَّاني: أن يكون شيئاً يحبُّه رسول الله ﷺ ، باعتباره رأيه الخاصّ، فرأيه مقدَّمٌ، وله الطَّاعة في ذلك.

الثَّالث: أن يكون شيئاً عمله الرَّسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم ، فهذا هو الَّذي يكون مجالاً للرَّأي.

ولمَّا تبيَّن للسَّعدين من جواب الرَّسول ﷺ : أنَّه أراد القسم الثَّالث: أجاب سعدُ بن معاذ بجوابٍ قويٍّ ، كبت به زعيمي غطفان ، حيث بيَّن أنَّ الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهليَّة؛ فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسلام؟! وقد أُعجب النَّبيُّ ﷺ بجواب سعدٍ ، وتبيَّن له منه ارتفاع معنويَّة الأنصار ، واحتفاظهم بالرُّوح المعنويَّة العالية ، فألغى بذلك ما بدأ من الصُّلح مع غطفان(٢).

وفي قوله ﷺ : «إنِّي قد علمت: أنَّ العرب قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ» [الطبراني في الكبير (٥٤٠٩) ، وابن هشام (٣/ ٢٣٤) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٣١)](٣).

دليلٌ على أنَّ رسول الله ﷺ كان يستهدف من عمله ألا يجتمع الأعداء عليه صفّاً واحداً ، وهذا يرشد المسلمين إلى عدَّة أمورٍ ، منها:

* أن يحاول المسلمون التفتيش عن ثغرات القوى المعادية.

* أن يكون الهدف الاستراتيجيُّ للقيادة المسلمة تحييد مَنْ تستطيع تحييده ، ولا تنسى القيادة الفتوى ، والشُّورى ، والمصلحة الآنيَّة ، والمستقبليَّة للإسلام(٤).

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ١٠٦).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ١٢٥).
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ١٠٦).
(٤) انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/ ٦٨٧).

وفي استشارة رسول الله ﷺ للصَّحابة يتبيَّن لنا أسلوبه في القيادة ، وحرصه على فرض الشُّورى في كلِّ أمرٍ عسكريٍّ يتَّصل بالجماعة ، فالأمر شورى ، ولا ينفرد به فردٌ حتَّى ولو كان هذا الفرد رسول الله ﷺ ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد ، ولم ينزل به وحيٌ[١] .

إن قبول الرسول ﷺ رأي الصحابة في رفض هذا الصلح يدل على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة؛ حيث يعرف قدرهم ويدركون قدره، ويحترم رأيهم ويحترمون رأيه ، ومصالحة النبي ﷺ مع قائدي غطفان تعد من باب السياسة الشرعية التي تراعى فيها المصالح والمفاسد حسب ما تراه القيادة الرشيدة للأمة[٢] .

إن موقف الصحابة من هذا الصلح يحمل في طياته ثلاثة معانٍ :

أ ـ أنه يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي ، والمشورة في أي أمر يخص الجماعة ، إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

ب ـ أنه يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله ورسوله ﷺ وبالإسلام .

ج ـ أنه يبين ما تمتلئ به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والرغبة القوية في قهر العدو ، مهما كثر عدده وعتاده أو تعدد حلفاؤه[٣] .

٢ ـ اهتمام الرسول ﷺ ببث الإشاعات في صفوف الأعداء :

استخدم النَّبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن ، فلقد كان يعلم ﷺ أن هناك تصدعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب ، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه ، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها ، والآن ساق المولى ـ عز وجل ـ نُعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ﷺ ليعلن إسلامه ويقول له : يا رسول الله ، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت . فقال له رسول الله ﷺ : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة . [ابن هشام (٣/ ٢٤٠) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦)][٤] .

فقام نُعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار ، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتها إلى صلحهم ، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها

---

(١) انظر : العبقريَّة العسكرية في غزوات الرَّسول ﷺ ، ص ٤١٤ .
(٢) انظر : القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، ص ٤١٤ .
(٣) انظر : القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ص ٤١٥ ، ٤١٦ .
(٤) انظر : البداية والنهاية (٤/ ١١٣) .

لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية؛ فالحرب خدعة[١].

وقد نجحت دعاية نُعيم بن مسعود أيما نجاح ، فغرست روح التشكيك ، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب ، مما أدى إلى كسر شوكتهم ، وتثبيط عزمهم ، وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية :

أ ـ أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف ، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نُصح .

ب ـ أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير ، وبصَّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية .

ج ـ أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له ، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته ، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته .

وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب[٢] .

* * *

(١) انظر : السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٤٣٠) .

(٢) انظر : القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ، ص ٤٧٧ .

المبحث الثَّالث
مجيء نصر الله والوصف القرآني لغزوة الأحزاب

أولاً: شدَّة تضرُّع الرَّسول ﷺ ونزول النَّصر:

كان رسول الله ﷺ كثير التَّضرُّع والدُّعاء، والاستعانة بالله، وخصوصاً في مغازيه، وعندما اشتدَّ الكرب على المسلمين أكثر ممَّا سبق حتَّى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديداً، فما كان من المسلمين إلا أن توجَّهوا إلى الرَّسول ﷺ وقالوا: يا رسول الله! هل من شيءٍ نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر، فقال: «نعم، اللَّهمَّ!! استر عوراتنا وآمن روعاتنا» [أحمد (٣/٣)، والبزار (٣١١٩)، ومجمع الزوائد (١٠/١٣٦)].

وجاء في الصَّحيحين من حديث عبد الله بن أبي أوفى، قال: دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «اللَّهمَّ! منزلَ الكتاب، سريعَ الحساب، هازم الأحزاب، اللَّهمَّ! اهزمهم، وزلزلهم». [البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢ / ٢٠ و٢١)].

فاستجاب الله ـ سبحانه ـ دعاء نبيِّه ﷺ فأقبلت بشائر الفرج، فقد صرفهم الله بحوله وقوَّته، وزلزل أبدانهم، وقلوبهم، وشتَّت جمعهم بالخلاف، ثمَّ أرسل عليهم الرِّيح الباردة الشَّديدة، وألقى الرُّعب في قلوبهم، وأنزل جنوداً من عنده سبحانه.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: وكانت هذه الرِّيح معجزةً للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ، والمسلمين كانوا قريباً منها، لم يكن بينهم وبينها إلا عرض الخندق، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبر عندهم بها...، بعث الله عليهم الملائكة، فقلعت الأوتاد، وقطعت أطناب الفساطيط[1]، وأطفأت النِّيران، وأكفأت القدور، وجالت الخيول بعضُها في بعضٍ، وأرسل الله عليهم الرُّعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب المعسكر؛ حتَّى كان سيِّد كلِّ خباءٍ يقول:

---

(١) الفساطيط: جمع فسطاط نوعٌ من الأبنية في السَّفر، وهو دون السرادق.

يا بني فلان! هلمَّ إليَّ ، فإذا اجتمعوا؛ قال لهم: النَّجاءَ ، النَّجاءَ! لما بعث الله عليهم الرُّعب[١].

وحرَص الرَّسول ﷺ أن يؤكِّد لصحبه ، ثمَّ للمسلمين في الأرض: أنَّ هذه الأحزاب الَّتي تجاوزت عشرة آلاف مقاتلٍ لم تُهزم بالقتال من المسلمين ـ رغم تضحياتهم ـ ولم تهزم بعبقرية المواجهة ، إنَّما هُزمت بالله وحده ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله وحدَه ، أعزَّ جنده ، ونصر عبده ، وغلب الأحزاب وحده ، فلا شيءَ بعدَه». [البخاري (٤١١٤) ، ومسلم (٢٧٢٤)].

ودعاء رسول الله ﷺ ربَّه ، واعتماده عليه وحدَه ، لا يتناقض أبداً مع التماس الأسباب البشريَّة للنَّصر ، فقد تعامل ﷺ في هذه الغزوة مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، فبذل جهده لتفريق الأحزاب ، وفك الحصَار ، وغير ذلك من الأمور الَّتي ذكرناها[٢].

إنَّ رسول الله ﷺ يعلِّمنا سنَّة الأخذ بالأسباب ، وضرورة الالتجاء إلى الله ، وإخلاص العبوديَّة له؛ لأنَّه لا تجدي وسائل القوَّة كلُّها إذا لم تتوفر وسيلةُ التَّضرع إلى الله ، والإكثار من الإقبال عليه بالدُّعاء ، والاستغاثة ، فقد كان الدُّعاء والتَّضرُّع إلى الله من الأعمال المتكرِّرة الدَّائمة الَّتي فزع إليها رسولُ الله ﷺ في حياته كلِّها[٣].

ثانياً: تحرِّي انصراف الأحزاب:

كان رسول الله ﷺ يتابع أمر الأحزاب ، ويحبُّ أن يتحرَّى عمَّا حدث عن قربٍ فقال: «ألا رجل يأتينا بخبر القوم ، جعله الله معي يوم القيامة؟» [مسلم (١٧٨٨)] ، فاستعمل ﷺ أسلوب التَّرغيب ، وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ ، وعندما لم يُجْدِ هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم ، والحزم في الأمر ، فعيَّن واحداً بنفسه ، فقال: «قم يا حذيفة! فائتنا بخبر القوم ، ولا تَذْعَرْهُم عليَّ» [مسلم (١٧٨٨)].

وفي هذا معنىً تربويٌّ وهو أنَّ القيادة النَّاجحة هي الَّتي توجِّه جنودها إلى أهدافها عن طريق التَّرغيب ، والتَّشجيع ، ولا تلجأ إلى الأمر ، والحزم إلا عند الضَّرورة.

قال حذيفة رضي الله عنه: فمضيت كأنَّما أمشي في حَمَّامٍ ، فإذا أبو سفيان يَصْلِي ظهرَه بالنَّار ـ أي: يدفئه ، ويدنيه منها ـ فوضعت سهماً في كبد القوس ، وأردت أن أرميه ، ثم ذكرت قول

---

(١) انظر: تفسير القرطبيِّ (١٤/ ١٤٤) ، وجامع البيان للطَّبريِّ (تفسير سورة الأحزاب).
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبوية ، للغضبان ، ص ٥٠٣.
(٣) انظر: فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٢.

رسول الله ﷺ: «لا تَذْعَرْهُمْ عليَّ»، ولو رميتُه لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمَّام، فأتيت رسول الله ﷺ، وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله ﷺ، وألبسني فضل عَبَاءَةٍ كانت عليه يُصَلِّي فيها، فلم أَزَلْ نائماً حتَّى أصبحت، فلمَّا أصبحت، قال رسول الله ﷺ: «قم يا نومان!». [مسلم (١٧٨٨)].

ويؤخذ من قصَّة حذيفة دروسٌ، وعبرٌ منها:

١ ـ معرفة رسول الله ﷺ بمعادن الرِّجال؛ حيث اختار حذيفة؛ ليقوم بمهمَّة التَّجسس على الأحزاب، وأنَّ معدن حذيفة معدنٌ ثمينٌ، فهو شجاعٌ، ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعةٍ نادرة، وهو بالإضافة إلى ذلك لبقٌ ذكيٌّ خفيف الحركة، سريع التخلُّص من المآزق الحرجة.

٢ ـ الانضباط العسكريُّ الَّذي كان يتحلَّى به حذيفة؛ فلقد مرَّت به فُرصةٌ سانحةٌ يستطيع أن يقتل فيها قائد الأحزاب، وهَمَّ بذلك، ولكنَّه ذكر أمر الرَّسول ﷺ ألا يَذْعَرَهُمْ، وأنَّ مهمَّته الإتيان بخبرهم، فنزع سهمه من قوسه[1].

٣ ـ كرامات الأولياء: إنَّ ما حدث لحذيفة بن اليمان عندما سار لمعرفة خبر الأحزاب في جوٍّ باردٍ ماطرٍ شديد الرِّيح وإذا به لا يشعر بهذا الجوِّ البارد، ويمشي وكأنما يمشي في حمَّامٍ، وتلازمه هذه الحالة مُدة بقائه بين الأحزاب وحتَّى عودته إلى معسكر المسلمين، لاشك هذه كرامةٌ يمنُّ الله بها على عباده المؤمنين[2].

٤ ـ لطف النَّبيِّ ﷺ مع حذيفة عند رجوعه، فقد كان ﷺ يترفَّق بأصحابه، ولم تمنعه صلاة اللَّيل، وحلاوة المناجاة من التلطُّف بحذيفة الَّذي جاء بأحسن الأنباء، وأصدق الأخبار، وأهمِّها، فشمله بكسائه الَّذي يصلِّي فيه؛ ليدفئه، وتركه ملفوفاً به حتَّى أتمَّ صلاته، بل حتَّى بعد أن أفضى إليه بالمهمَّة، فلمَّا وجبت المكتوبة؛ أيقظه بلطفٍ، وخفَّةٍ، ودُعابةٍ، قائلاً: «قم يا نومان!» دُعابة تقطر حلاوةً، وتفيض بالحنان، وتسيل رقَّةً، إنَّها صورةٌ نموذجيَّةٌ للرَّأفة والرَّحمة، اللَّتين تحلَّى بهما فؤاد الرَّسول ﷺ، وتطبيقٌ فريدٌ رفيعٌ لهما في أصحابه الكرام[3] وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٥ ـ وتستوقفنا سرعة البديهة لدى الصَّحابيِّ الكريم، وقد دخل في القوم، كما في رواية الزُّرقاني، وقال أبو سفيان: ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد جليسه، قال حذيفة: فضربت بيدي على

---

(١) انظر: فقه السِّيرة النَّبوية، للغضبان، ص ٥٠٥، السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٣٦٧.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٣٦٧.

(٣) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ٢٤٦.

يد الَّذي على يميني ، فقلت: من أنت؟ قال: معاوية بن أبي سفيان ، ثمَّ ضربت بيدي على يد الَّذي عن شمالي ، فقلت: مَنْ أنت؟ قال: عمرو بن العاص . . . .[1].

وهكذا بَدَرَهُم بالمسألة حتَّى لا يتيح لهم فرصةً ليسألوه ، وبهذا تخلَّص من هذا المأزِق الحرج الَّذي ربما أودى بحياته[2].

ثالثاً: الوصف القرآني لغزوة الأحزاب ، ونتائجها:

تحدَّث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب ، وردَّ الأمر كلَّه لله سبحانه ، وقد سجَّل القرآن الكريم غزوتي الأحزاب ، وبني قريظة ، والقرآن كعهدنا به يُسَجِّل الخالدات الَّتي تسع الزَّمان ، والمكان ، فالمسلمون معرَّضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم ، في عواصم بلدانهم ، ومعرَّضون لأن يتكالب عليهم الأعداء جميعاً ، فإذا كان القرآن قد سجل حادثتي الأحزاب ، وبني قريظة ، فذلك من سمة التَّكرار على مدى العصور[3]؛ لكي يستفيد المسلمون من الدُّروس والعبر من الحوادث السَّابقة الَّتي ذكرت في القرآن الكريم على وجه الخصوص ، والَّذي يتدبَّر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتم ببيان أمورٍ ، من أهمِّها ما يلي:

١ ـ تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم ، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٩].

٢ ـ التَّصوير البديع لما أصاب المسلمين من همٍّ بسبب إحاطة الأحزاب بالمدينة: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ [الأحزاب: ١٠].

٣ ـ الكشف عن نوايا المنافقين السَّيئة ، وأخلاقهم الذَّميمة ، وجبنهم الخالع ، ومعاذيرهم الباطلة ، ونقضهم للعهود ، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب: ١٢].

٤ ـ حضُّ المؤمنين في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ على التأسِّي برسول الله ﷺ ، في أقواله ، وأفعاله ، وجهاده ، وكلِّ أحواله ، استجابةً لقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٥ ـ مدح المؤمنين على مواقفهم النَّبيلة ، وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمانٍ صادقٍ ، ووفاء بعهد الله تعالى ، قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

---

(١) انظر: شرح الزُّرقاني (٢/ ١٢٠).
(٢) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٢٩٣.
(٣) انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/ ٦٦٢).

٦ ـ بيان سنَّةٍ من سنن الله الَّتي لا تتخلَّف ، وهي جعل العاقبة للمؤمنين والهزيمة لأعدائهم ، قال تعالى: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

٧ ـ امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين؛ حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتالٍ يُذْكر ، حيث ألقى ـ سبحانه ـ الرُّعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ، ورسوله ﷺ[1] ، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦ ـ ٢٧].

لقد كانت غزوة الأحزاب من الغزوات المهمَّة الَّتي خاضها المسلمون ضدَّ أعدائهم وحقَّقوا فيها نتائج مهمَّةً منها:

* انتصار المسلمين ، وانهزام أعدائهم ، وتفرُّقهم ، ورجوعهم مدحورين بغيظهم ، قد خابت أمانيهم ، وآمالهم.

* تغيُّر الموقف لصالح المسلمين؛ فانقلبوا من موقف الدِّفاع إلى الهجوم ، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ ﷺ حيث قال: «الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا ، نحن نسير إليهم». [البخاري (٤١١٠) ، وأحمد (٤/ ٢٦٢ ، و٦/ ٣٩٤)].

* كشفت هذه الغزوة يهود بني قريظة ، وحقدهم على المسلمين ، وتربُّص الدَّوائر بهم ، فقد نقضوا عهدهم مع النَّبيِّ ﷺ في أحلك الظُّروف ، وأصعبها.

* كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين ، وحقيقة المنافقين ، وحقيقة يهود بني قريظة ، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصاً للمسلمين ، وإظهاراً لحقيقة المنافقين ، واليهود.

* كانت غزوة بني قريظة نتيجةً من نتائج غزوة الأحزاب؛ حيث تمَّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الَّذين نقضوا العهد مع النَّبيِّ ﷺ في أحلك الظُّروف ، وأقساها[2].

رابعاً: التَّخلُّص من بني قريظة:

بعد عودة النَّبيِّ ﷺ من الخندق ، ووضعِه السِّلاح أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ بقتال بني قريظة ، فأمر الحبيب ﷺ أصحابه بالتوجُّه إليهم ، وقد أعلمهم بأنَّ الله تعالى قد أرسل جبريل؛ ليزلزل

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (٢/ ٤٩٠ ، ٤٩١).
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٤٢).

حصونهم ، ويقذف في قلوبهم الرُّعب ، وأوصاهم بأن «لا يصلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [البخاري (٤١١٩) ، ومسلم (١٧٧٠)].

وضرب المسلمون الحصار على بني قريظة خمساً وعشرين ليلةً[١] ، ولمَّا اشتدَّ الحصار ، وعظم البلاء على بني قريظة ، أرادوا الاستسلام ، والنُّزول على أن يحكِّم الرَّسول ﷺ فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه ، ونزلوا على حكمه ، ورأوا: أنَّه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس ، فجيء بسعدٍ محمولاً؛ لأنَّه كان قد أصابه سهمٌ في ذراعه يوم الخندق ، فقضى أن تُقتل المقاتِلة ، وأن تُسبى النِّساء والذُّرِّيَّة ، وأن تُقسم أموالهم ، فأقرَّه رسول الله ﷺ وقال: «قضيت بحكم الله» [البخاري (٣٠٤٣ و٤١٢٢) ، ومسلم (١٧٦٨/ ٦٤)].

ونفَّذ حكم الإعدام في أربعمئةٍ في سوق المدينة ، حيث حفرت أخاديد ، وقتلوا فيها بشكل مجموعاتٍ ، وقد نجت مجموعةٌ قليلةٌ جدّاً بسبب وفائها للعهد ، ودخولها في الإسلام ، وقسمت أموالُهم ، وذراريهم على المسلمين.

وهذا جزاءٌ عادلٌ نزل بمن أراد الغدر ، وتبرَّأ من حلفه للمسلمين ، وكان جزاؤهم من جنس عملهم حين عرَّضوا بخيانتهم أرواح المسلمين للقتل ، وأموالهم للنَّهب ، ونساءهم ، وذراريهم للسَّبي ، فكان أن عوقبوا بذلك جزاءً وفاقاً[٢].

ولم تقتل من نساء بني قريظة إلا واحدةٌ ، ونترك السَّيدة عائشة رضي الله عنها تحدِّثنا عنها قالت السَّيدة عائشة: لم يُقتل مِنْ نسائهم إلا امرأةٌ واحدةٌ قالت: والله! إنَّها لعندي ، تتحدث معي ، تضحك ظهراً ، وبطناً[٣]؛ ورسولُ الله ﷺ يقتل رجالها بالسُّوق؛ إذ هتف هاتفٌ باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله! قالت: قلت لها: ويلك! ما لك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت: لحدثٍ أحدثتُه[٤]. قالت: فانطلق بها ، فضُربت عنقها ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: والله! ما أنسى عجبي من طيب نفسها ، وكثرة ضحكها ، وقد عَرَفَتْ: أنَّها تُقتل. [أحمد (٦/ ٢٧٧) ، وأبو داود (٢٦٧١)][٥].

بالقضاء على بني قريظة خلت المدينة تماماً من الوجود اليهوديِّ ، وصارت خالصةً للمسلمين ، وخلت الجبهة الدَّاخلية من عنصرٍ خطرٍ ، لديه القدرة على المؤامرة ، والكيد ،

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٧٣.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧).
(٣) ظهراً وبطناً: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.
(٤) طرحت الرَّحا على خلَّاد بن سويد رضي الله عنه ، فقتلها رسول الله ﷺ به.
(٥) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٧٧ ، ومختصر سيرة ابن هشام (٢/ ٣٠) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير (فصل: في غزوة بني قريظة).

والمكر ، واضمحل حلم قريش ؛ لأنَّها كانت تعوِّل ، وتؤمِّل في يهود بأن يكون لهم موقف ضدَّ المسلمين ، وابتعد خطر اليهود الَّذي كان يمدُّ المنافقين بأسباب التَّحريض والقوَّة[1] .

إنَّ حماية الجبهة الدَّاخليَّة للدَّولة الإسلاميَّة من العابثين منهجٌ نبويٌّ كريمٌ ، رسمه الحبيب المصطفى ﷺ للأمَّة المسلمة .

* * *

(١) انظر : سيرة الرَّسول ﷺ ، دروزة (٢/ ٧٦) نقلاً عن دراسات في عهد النَّبوة ، للشجاع ، ص ١٥٣ .

المبحث الرَّابع
فوائد، ودروسٌ، وعبرٌ

أولاً: المعجزات الحسِّيَّة لرسول الله ﷺ:

ظهرت خلال مرحلة حفر الخندق معجزاتٌ حسِّيَّة للنَّبيِّ ﷺ، منها تكثير الطَّعام؛ الَّذي أعدَّه جابر بن عبد الله، فعن جابرٍ رضي الله عنه قال: إنَّا يوم الخندق مُحفر[1]، فعرضَتْ كُدْيَةٌ شديدةٌ، فجاؤوا النَّبيَّ ﷺ، فقالوا: هذه كديةٌ عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازلٌ» ثمَّ قام، وبطنه معصوبٌ بحجرٍ، ولبثنا ثلاثة أيَّام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النَّبيُّ ﷺ المِعْوَل، فضرب في الكُدْيَةِ، فعادت كثيباً أهيل[2] أو أهيم[3].

قال جابر: فقلت: يا رسول الله! ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنَّبيِّ ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبرٌ؛ فعندك شيءٌ؟ فقالت: عندي شعير، وعَناقٌ[4] فذبحتُ العَناق، وطحنتُ الشَّعير، حتى جعلنا اللَّحم بالبُرمة[5]، ثمَّ جئت النَّبيَّ ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافيِّ[6]، قد كادت أن تنضجَ، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله! ورجل، أو رجلان، قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال: «كثيرٌ طيِّب» قال: «قل لها: لا تنزع البُرمة، ولا الخبز من التنُّور حتَّى آتي».

فقال: قوموا، فقام المهاجرون، والأنصار، فلمَّا دخل على امرأته، قال: ويحك! جاء النَّبيُّ ﷺ بالمهاجرين، والأنصار، ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، قال: «ادخلوا، ولا تضاغطوا»[7]، فجعل يَكْسِر الخبز، ويجعل عليه اللَّحم، ويخمِّر البُرمة

---

(١) محفر: اسم فاعل من حفَّر.
(٢) أهيل: رملاً سائلاً، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٨٩).
(٣) أهيم: الرَّمل الَّذي لا يتمالك، وانظر: لسان العرب (٣/ ٨٥٨).
(٤) العناق: الأنثى من أولاد الماعز، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (٣/ ٣١٠).
(٥) البرمة: هي القدر مطلقاً، وانظر: النِّهاية في غريب الحديث (١/ ١٢١).
(٦) الأثافي: الحجارة التي تنصب ويجعل القدر عليها، وانظر: القاموس المحيط (٣/ ١٢٠).
(٧) ولا تضاغطوا: أي: لا تزاحموا، وانظر: لسان العرب (٢/ ٥٣٧).

والتَّنُّور إذا أخذ منه ، ويقرِّب إلى أصحابه ، ثم ينزع ، فلم يزل يَكْسِر الخبز ، ويغرف حتَّى شبعوا ، وبقي بقيَّةٌ ، قال: «كلي هذا ، وأهدي؛ فإنَّ الناس أصابتهم مجاعةٌ». [البخاري (٤١٠١) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢٣)].

وهذه ابنة بشير بن سعد تقول: دعتني أمِّي عمرة بنت رواحة ، فأعطتني حفنةً من تمرٍ في ثوبي ، ثمَّ قالت: أيْ بُـنَـيَّة! اذهبي إلى أبيك ، وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما ، قالت: فأخذتُها ، فانطلقت بها فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي ، وخالي ، فقال: «تعالَيْ يا بنية! ما هذا معك؟» فقلت: يا رسول الله! هذا تمرٌ بعثتني به أمِّي إلى أبي بشير بن سعدٍ ، وخالي عبد الله بن رواحة يتغذَّيانه. قال: «هاتيه!» قالت: فصببته في كفَّيْ رسول الله ﷺ فما ملأتهما ، ثمَّ أمر بثوبٍ ، فبُسط له ، ثمَّ دعا بالتَّمر عليه ، فتبدَّد فوق الثوب ، ثمَّ قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق: أن هلمَّ إلى الغذاء ، فاجتمع أهل الخندق عليه ، فجعلوا يأكلون منه ، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه ، وإنَّه ليسقط من أطراف الثَّوب. [ابن هشام (٣/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢٧)].

ففي هذين الخبرين معجزاتٌ حسِّيَّة ظاهرة للرسول ﷺ ، كما يظهر دور المرأة المسلمة في مشاركة المسلمين في جهادهم ، فعندما اشتغل المسلمون بحفر الخندق تركوا أعمالهم ، وبعدت عنهم أرزاقهم ، وقلَّ عنهم القوت ، وأصاب النَّاس جوعٌ ، وحرمانٌ ، حتَّى كان رسول الله ﷺ والمسلمون معه يشدُّون على بطونهم الحجارة من شدَّة الجوع ، فكانت المرأة المسلمة تعين المسلمين بإعداد ما قدرت عليه من الطَّعام[١].

ومن دلائل النُّبوة في أثناء حفر الخندق ، إخباره ﷺ عمَّار بن ياسر ، وهو يحفر معهم الخندق ، بأنَّه ستقتله الفئة الباغية [البخاري (٤٤٧) ، ومسلم (٢٩١٥)]؛ فقتل في صفِّين وكان في جيش عليٍّ[٢].

وعندما اعترضت صخرةٌ الصَّحابة وهم يحفرون ، ضربها الرَّسول ﷺ ثلاث ضربات ، فتفتَّتت ، قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر! أُعطيت مفاتيح الشَّام ، والله! إنِّي لأبصر قصورها الحمراء السَّاعة». ثمَّ ضربها الثانية ، فقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح فارس ، والله! إنِّي لأبصر قصر المدائن أبيض» ثمَّ ضرب الثَّالثة ، وقال: «الله أكبر! أعطيت مفاتيح اليمن ، والله! إنِّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه السَّاعة». [أحمد (٤/ ٣٠٣) ، وأبو يعلى (١٦٨٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٢١) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٣٠)][٣].

---

(١) انظر: المرأة في العهد النَّبويِّ ، ص ١٧٥.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٤٨.

(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٤٤٩.

وقد تحقَّقت هذه البشارة الَّتي أخبرت عن اتِّساع الفتوحات الإسلاميَّة ، والإخبار عنها في وقتٍ كان المسلمون فيه محصورين في المدينة ، يواجهون المشاقَّ ، والخوف ، والجوع ، والبرد القارس[(١)].

ثانياً : بين التَّصوُّر ، والواقع :

قال رجلٌ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله! أرأيتم رسول الله ، وصحبتموه؟ قال : نعم يا بن أخي! قال : فكيف كنتم تصنعون؟ قال : والله لقد كنَّا نجهد ، قال : فقال : والله! لو أدركناه ، ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . فقال حذيفة : يابن أخي! والله لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ، بالخندق[(٢)] . . . ثمَّ ذكر حديث تكليفه بمهمَّة الذَّهاب إلى معسكر المشركين . [سبق تخريجه] .

هذا تابعيٌ يلتقي بالصَّحابيِّ حذيفة ، ويتخيَّل : أنَّه لو وجد مع رسول الله ﷺ ؛ لاستطاع أن يفعل ما لم يفعله الصَّحابة الكرام ، والخيال شيءٌ ، والواقع شيءٌ آخر ، والصَّحابة رضي الله عنهم بشرٌ ، لهم طاقات البشر ، وقدراتهم ، وقد قدَّموا كلَّ ما يستطيعون ، فلم يبخلوا بالأنفس ، فضلاً عن المال والجهد ، وقد وضع ﷺ الأمور في نصابها بقوله : «خير القرون قرني» [البخاري (٦٤٢٩) ، ومسلم (٢٥٣٣)] فبيَّن : أن عملهم لا يعدله عملٌ .

إنَّ الذين جاؤوا من بعدُ ، فوجدوا سلطان الإسلام ممتدّاً ، وعاشوا في ظلِّ الأمن ، والرَّخاء ، والعدل ، بعيدين عن الفتنة والابتلاء ، هم بحاجةٍ إلى نقلةٍ بعيدةٍ يستشعرون من خلالها أجواء الماضي بكلِّ ما فيه من جهالاتٍ ، وضلالاتٍ ، وكفرٍ . . . وبعد ذلك يمكنهم تقدير الجهد المبذول من الصَّحابة حتَّى قام الإسلام في الأرض[(٣)] .

ثالثاً : سلمان منا أهل البيت[(٤)] :

قال المهاجرون يوم الخندق : سلمان منَّا ، وقالت الأنصار : سلمان منَّا ، فقال رسول الله ﷺ : «سلمان منَّا أهل البيت» [الحاكم (٣/ ٥٩٨) ، والطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٢٦١) ، وابن هشام (٣/ ٢٣٥) ومجمع الزوائد (٦/ ١٣٠)] ، وهذا الوسام النَّبويُّ الخالد لسلمان يشعر بأنَّ سلمان من المهاجرين ؛ لأنَّ أهل البيت من المهاجرين[(٥)] .

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٢٥) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٥٥) .
(٣) انظر : من معين السِّيرة ، للشَّامي ، ص ٢٩١ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٤٧) .
(٥) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/ ١٠٨) .

رابعاً: الصَّلاة الوسطى:

قال ﷺ: «ملأ الله عليهم بيوتهم، وقبورهم ناراً، كما شغلونا عن الصَّلاة الوسطى حتَّى غابت الشَّمس» [سبق تخريجه].

وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الحديث على كون الصَّلاة الوسطى هي صلاة العصر، كما هو منصوصٌ عليه، وألزم القاضي الماورديُّ مذهب الشَّافعي بهذا لصحَّة الحديث، وقد استدلَّ طائفةٌ من العلماء بهذا الصَّنيع على جواز تأخير الصَّلاة لعذر القتال، كما هو مذهب مكحولٍ، والأوزاعيِّ[1].

قال الدُّكتور البوطي: لقد فاتت النَّبيَّ ﷺ صلاةُ العصر، كما رأيت في هذه الموقعة؛ لشدَّة انشغاله، حتَّى صلاَّها قضاءً بعدما غربت الشَّمس، وفي رواياتٍ أخرى غير الصَّحيحين: أنَّ الذي فاته أكثرُ من صلاةٍ واحدةٍ، صلاَّها تباعاً بعدما خرج وقتُها، وفرغ لأدائها، وهذا يدلُّ على مشروعية قضاء الفائتة، ولا ينقض هذه الدَّلالة ما ذهب إليه البعض من أنَّ تأخير الصَّلاة لمثل ذلك الانشغال كان جائزاً إذ ذاك، ثمَّ نُسخ حينما شُرعت صلاة الخوف للمسلمين رجالاً، وركباناً عند التحام القتال بينهم وبين المشركين؛ إذ النَّسخ على فرض صحَّته ليس وارداً على مشروعية القضاء، وإنَّما هو وارد على صحَّة تأخير الصَّلاة بسبب الانشغال، أي: أنَّ نسخ صحَّة التأخير ليس نسخاً لما كان قد ثبت من مشروعية القضاء أيضاً، بل هي مسكوتٌ عنها، فتبقى على مشروعيَّتها السَّابقة[2].

خامساً: الحلال والحرام:

عَرَضَتْ قريشٌ فداءً مقابل جثَّة عمرو بن عبد ودٍّ، فقال ﷺ: «ادفعوا إليهم جيفته فإنَّه خبيث الجيفة، خبيث الدِّية، فلم يقبل منهم شيئاً». [أحمد (١/٢٤٨)، وابن هشام (٣/٢٦٥)].

حدث هذا والمسلمون في ضنكٍ من العيش، ومع ذلك فالحلال حلالٌ والحرام حرامٌ، إنَّها مقاييس الإسلام في الحلال والحرام، فأين هذا من النَّاس المحسوبين على المسلمين الَّذين يحاولون إيجاد المبرِّرات لأكل الرِّبا، وما شابهه؟![3].

سادساً: شجاعة صفيَّة عمَّة الرَّسول ﷺ:

كان ﷺ قد وضع النِّساء، والأطفال في حصن فارع، وهو حصنٌ قويٌّ؛ حمايةً لهم، لأنَّ المسلمين في شغلٍ عن حمايتهم لمواجهتهم جيوش الأحزاب، فعندما نقض يهود بني قريظة

---

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/ ٦٨٢).
(٢) انظر: فقه السِّيرة النَّبويَّة، ص ٢٢٣.
(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٩٤.

عهدهم مع رسول الله ﷺ أرسلت يهودياً ليستطلع وضع الحصن الَّذي فيه نساء المسلمين ، وأطفالهم ، فأبصرته صفيَّة بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله ﷺ ، فأخذت عموداً ، ونزلت من الحصن ، فضربته بالعمود ، فقتلته ، فكان هذا الفعل من صفيَّة رادعاً لليهود من التَّحرُّش بهذا الحصن الَّذي ليس فيه إلا النِّساء ، والأطفال ، حيث ظنَّت يهود بني قريظة : أنَّه محميٌّ من قبل الجيش الإسلاميِّ ، أو أنَّ فيه على الأقلِّ مَنْ يدافع عنه من الرِّجال(١) ، ففي هذا الخبر دليلٌ للمرأة في الدِّفاع عن نفسها ؛ إن لم تجد مَنْ يدافع عنها(٢) .

سابعاً : عدم صحَّة ما يروى عن جبن حسَّان رضي الله عنه :

وفي قصَّة صفيَّة عمَّة رسول الله ﷺ وقتْلِها لليهوديِّ جاءت روايةٌ سندها ضعيفٌ(٣) ؛ أنَّ صفية رضي الله عنها قالت لحسان بن ثابتٍ : إنَّ هذا اليهودي يُطِيف بالحصن ، كما ترى ، ولا آمنه أن يدلَّ على عورتنا مَنْ وراءنا من يهود ، وقد شُغِل عنَّا رسولُ الله ﷺ وأصحابه ، فانزِلْ إليه ، فاقتُلْه . فقال : يغفر الله لكِ يا بنت عبد المطلب! والله! لقد عرفتِ ما أنا بصاحب هذا؟ قالت صفيَّة رضي الله عنها : فلمَّا قال ذلك ، احتجزت عموداً ثمَّ نزلت من الحصن إليه ، فضربتُه بالعمود حتَّى قتلتُه ، ثم رجعت الحصن ، فقالت : يا حسان! انزل فاستلِبْه ، فإنَّه لم يمنعني أن أستلبه إلا أنَّه رجلٌ ، فقال : ما لي بسلبه من حاجةٍ يا بنت عبد المطلب! [ابن هشام (٣/ ٢٣٩) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)](٤) .

وهذا الخبر لا يصح لأمور منها :

١ ـ من حيث الإسناد ، فالخبر ليس مسنداً ، وهو ساقطٌ لا يصحُّ ، ولا يجوز أن يروى ، فيساء إلى صحابيٍّ من صحابة رسول الله ﷺ ، كان ينافح عن الدَّعوة ، وعن رسول الله ﷺ عُمُرَهُ كلَّه .

٢ ـ لو كان حسّان بن ثابت رضي الله عنه معروفاً بالجبن ؛ الَّذي ذكر عنه ؛ لهجاه أعداؤه ، ومبغضوه بهذه الخصلة الذَّميمة ، لاسيَّما الَّذين كان يهاجيهم ، فلم يسلم من هجائه أحدٌ من زعماء الجاهليَّة ، والرَّسول ﷺ كان يؤيِّده ، ويدعو له ، ويشجِّعه على هجاء زعماء المشركين(٥) .

---

(١) انظر : الرَّحيق المختوم ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
(٢) انظر : المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٢٤٦) .
(٣) انظر : صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٣٦٥ .
(٤) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٦٥ .
(٥) انظر : غزوة الأحزاب ، للدُّكتور أبو فارس .

ثامناً: أول مستشفى إسلامي حربي:

أنشأ المسلمون أوَّل مستشفى إسلاميٍّ حربيٍّ في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرَّسول صلوات الله وسلامُه عليه خيمةً في مسجده الشَّريف في المدينة، عندما دارت رحى غزوة الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رُفَيْدة الأسلميَّة الأنصاريَّة رئيسة ذلك المستشفى النَّبويِّ الحربيِّ، وبذلك أصبحت أوَّل ممرِّضةٍ عسكريَّةٍ في الإسلام[1]، وجاء في السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام: وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلم، يقال لها: رُفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة مَنْ به ضيعةٌ من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السَّهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتَّى أعوده من قريب...» [ابن هشام (٣/ ٢٥٠)، والطبري في تفسيره (٢١/ ١٥٢)].

ويفهم من النَّص السَّابق أنَّ مَنْ أصيب من المسلمين، إن كان له أهلٌ؛ اعتنى به أهلُه، وإن لم يكن له أهلٌ؛ جيء به إلى المسجد؛ حيث ضُربت خيمةٌ فيه لمن كانت به ضيعةٌ من المسلمين، وسعدُ بن معاذ الأوسيُّ ليس به ضيعةٌ، ولكن لمَّا أراد الرَّسول ﷺ الاطمئنان عليه باستمرارٍ، جعله في تلك الخيمة الَّتي أعدَّت لمن به ضيعةٌ، وليس له أهل؛ ذلك: أنَّ هؤلاء هم في رعاية رسول الله ﷺ، وإلا فلِمَ ضُربت الخيمة في المسجد، وكان بالإمكان ضربها في أيِّ مكانٍ آخر!

إنَّ سعد بن معاذٌ يكرَّم لمآثره، وما بذله في سبيل الله تعالى، فيكون هذا التَّكريم أن يجعل في خيمةٍ أعدَّت لمن به ضيعةٌ، وهكذا حينما يرتفع السَّادة يجعلون مع المغمورين الَّذين أخلصوا أعمالهم لله تعالى، فاستحقُّوا أن يكونوا في رعاية رسول الله ﷺ[2]، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أصبح دستوراً للمسلمين على مدى الزَّمن.

تاسعاً: المسلم يقع في الإثم، ولكنَّه يسارع إلى التَّوبة:

أرسل بنو قريظة إلى أبي لبابة بن عبد المنذر ـ وكانوا حلفاءه ـ فاستشاروه في النُّزول على حكم رسول الله ﷺ، فأشار إلى حلقه ـ يعني الذَّبح ـ ثمَّ ندم فتوجَّه إلى مسجد النَّبيِّ ﷺ، فارتبط به حتَّى تاب الله عليه، وقد ظلَّ مرتبطاً بالجذع في المسجد ستَّ ليالٍ تأتيه امرأتُه في وقت كلِّ صلاةٍ فتحلُّه للصَّلاة، ثمَّ يعود، فيرتبط في الجِذْع[3].

وقد قال أبو لبابة: لا أبرح مكاني هذا حتَّى يتوب الله عليَّ ممَّا صنعتُ. قالت أمُّ سلمة:

---

(١) انظر: المستشفيات الإسلاميَّة، للدُّكتور عبد الله السَّعيد، ص ٤٣.

(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ٢٩٤.

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٨٦).

فسمعت رسول الله ﷺ من السَّحر وهو يضحك ، فقلت: ممَّ تضحك يا رسول الله؟! أَضْحَكَ اللهُ سِنَّك ، قال: «تِيبَ على أبي لبابة» قالت: قلت: أفلا أبشِّره يا رسول الله؟! قال: بلى؛ إن شئتِ ، فقامت على باب حجرتها ـ وذلك قبل أن يضرب عليهنَّ الحجاب ـ فقالت: يا أبا لبابة؟ أبشر فقد تاب الله عليك!

قالت: فثار النَّاس؛ ليطلقوه ، فقال: لا والله! حتى يكون رسول الله ﷺ هو الَّذي يُطلقني بيده. فلمَّا مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصُّبح؛ أطلقه[1] عنه [ابن هشام (٣/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٦ ـ ١٧)] ، وذلك في الاعتراف بالذَّنب ، والتَّوبة النَّصوح ، وإنَّ موطن العبرة في هذا الموقف يكمن في تصرُّف أبي لبابة بعدما وقعت منه هذه الزَّلَّة الَّتي أفشى بها سرّاً حربيّاً خطيراً ، فأبو لبابة لم يحاول التَّكتُّم على ما بدر منه ، والظُّهور أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بمظهر الرَّجل الذي أدى مهمَّته بنجاحٍ ، وأنَّه لم يحصل منه شيءٌ من المخالفات ، وكان بإمكانه أن يخفي هذا الأمر ، حيث لم يطَّلعْ عليه أحد من المسلمين ، وأن يستكتم اليهود أمره ، ولكنَّه تذكَّر رقابة الله عليه ، وعلمه بما يُسِرُّ ، ويُعلن ، وتذكَّر حقَّ رسول الله ﷺ العظيم عليه ، وهو الَّذي ائتمنه على ذلك السِّرِّ ، ففزع لهذه الزَّلَّة فزعاً عظيماً[1] ، وأقرَّ بذنبه ، واعترف به ، وبادر إلى العقوبة الذَّاتيَّة التلقائيَّة ، دون انتظار التَّحقيق ، وتوقيع العقوبة الواجبة: إنَّها صورةٌ تطبيقيَّةٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

إنَّها صورةٌ فريدةٌ لتوقيع العقوبة من الإنسان نفسِه على نفسِه... ولا يفعل ذلك إلا أهل الإيمان ، وما ذلك إلا مِنْ آثار الإيمان العميق الرَّاسخ ، الَّذي لا يرضى لصاحبه أن يخالطه إثمٌ ، أو فسوقٌ.

وقد فرح الصَّحابة ، وفرح النَّبيُّ ﷺ نفسه بتوبة الله على أبي لبابة ، وتسابقوا إلى تهنئته ، حتَّى كانت أمُّ سلمة زوج النَّبيِّ ﷺ هي الَّتي بادرت بالتهنئة بعد الإذن ، فبشَّرته بقبول الله توبته[2].

وقد أنزل الله تعالى في أبي لبابة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ونزل في توبته قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢][3].

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ١٦٥).
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٦١.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٢٦٢).

عاشراً: من فضائل سعد بن معاذٍ رضي الله عنه:

ظهرت لسعد بن معاذ رضي الله عنه في هذه الغزوة فضائل كثيرةٌ، تدلُّ على فضله، ومنزلته عند الله ورسوله ﷺ؛ منها:

- استجابة الله تعالى لدعائه عندما قال: (اللَّهمَّ إنَّك تعلم: أنَّه ليس أحدٌ أحبَّ إليَّ أن أجاهدهم فيك من قومٍ كذَّبوا رسولك ﷺ، وأخرجوه، اللَّهم! فإن بقي من حرب قريش شيءٌ؛ فأبقني له حتَّى أجاهدهم فيك) وقد استُجيب دعاؤه فتحجَّر جرحُه، وتماثل للشِّفاء[1] حتَّى كانت غزوة بني قريظة، وجعل رسولُ الله ﷺ الحكم فيهم إليه، فحكم فيهم بالحقِّ، ولم تأخذه في الله لومةُ لائم، وهذا دليلٌ على تجرُّد قلبه لله تعالى[2].

ومن إكرام رسول الله ﷺ له قوله للأنصار عندما جاء سعدٌ للحكم في بني قريظة: «قوموا إلى سيدكم». [البخاري (٣٠٤٣ و٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٨/ ٦٤)][3].

وهذا تكريمٌ لسعدٍ، وتقديرٌ لشجاعته، حيث سمَّاه سيِّداً، وأمر بالقيام له[4].

وعندما نفَّذ حكم الله في يهود بني قريظة؛ رفع سعدٌ يده يدعو الله ثانيةً، يقول: اللَّهمَّ! فإنِّي أظنُّ أنَّك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم - يعني قريشاً والمشركين - فإنْ كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجر جرحي، واجعل موتتي فيها [سبق تخريجه][5]، وقد استُجيب دعاؤه، فانفجر جرحُه تلك اللَّيلة، ومات رحمه الله[6]!

ومن خلال دعائه الأوَّل، والثَّاني نلحظ هذا الدُّعاء العجيب، دعاء العظماء، الَّذين يعرفون: أنَّ رسالتهم في الحياة ليست الاستشهاد فقط؛ بل متابعة الجهاد إلى اللَّحظة الأخيرة، فهو المسؤول عن نصرة الإسلام في قومه، وأمَّته[7].

ونرى من سيرته: أنَّه لو أقسم على الله؛ لأبرَّه، فهو وجيهٌ في السَّموات، والأرض، فقد شاءت إرادة المولى - تعالى - أن يعيد الأمر في بني قريظة كلَّه إليه، وأن يطلب بنو قريظة أن يكون الحُكْمُ فيهم لسعدِ بن معاذٍ رضي الله عنه.

---

(١) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ٢٢٨.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٦/ ١٧٠).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٢٦٣).
(٤) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة، ص ٢٦٥.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٢٧٥).
(٦) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ٢٢٨.
(٧) انظر: التَّربية القياديَّة (٣/ ٧٠).

إنَّه لا يحرص كثيراً على الحياة ، بعد انتهاء الجهاد ، وانتهاء المسؤوليَّة ، وتأدية الأمانة المنوطة به في قيادة قومه لحرب الأحمر والأسود من النَّاس ، فإذا انتهت الحرب ، ووُضِعت بين المسلمين ، وقريش ، وشفى غيظ قلبه في الحكم في بني قريظة ، وبدأ قطف الثِّمار للإسلام ، فلا ثمرة أشهى عنده من الشَّهادة (فافجر جرحي ، واجعل موتتي فيه)(١) .

وقد تحقَّقت آماله ، فقد أصدر حكمه في بني قريظة ، وشهد مصرع حلفاء الأمس أعداء اليوم ، وهاهو جرحُه ينفجر(٢) .

وعندما انفجر جرحه نقله قومُه ، فاحتملوه إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم ، وجاء رسول الله ﷺ فقال: «انطلقوا» ، فخرج وخرج معه الصَّحابة ، وأسرع حتى تقطَّعت شسوع نعالهم ، وسقطت أرديتهم ، فشكا إليه أصحابه ذلك ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «إنِّي أخاف أن تسبقنا الملائكة فتغسله كما غسلت حنظلة» ، فانتهى إلى البيت ، وهو يُغسل ، وأمُّه تبكيه ، وتقول:

وَيْلُ أمِّ سَعْدٍ سَعْدا حَزَامَةً وَجَدّا

فقال: كلُّ نائحةٍ تكذب إلا أمَّ سعدٍ» ، ثمَّ خرج به قال: يقول له القوم: ما حملنا يا رسول الله! ميتاً أخف علينا منه! قال: «وما يمنعه أن يخفَّ ، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا ، ولم يهبطوا قطُّ قبل يومهم قد حملوه معكم» . [ابن هشام (٣/ ٢٦٤)، والألباني في الصحيحة (١١٥٨)](٣) .

وقد جاء في النَّسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما عددُ الملائكة الَّذين شاركوا في تشييع جنازة سعد ، فقد قال ﷺ : «هذا العبد الصَّالح الَّذي تحرَّك له العرش ، وفُتحت له أبواب السَّماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك ، لقد ضُمَّ ضمَّة ، ثمَّ أفرج عنه» [النسائي (٤/ ١٠١)](٤) يعني: سعداً.

وها هو رسول الله ﷺ يودِّع سعداً كما رَوَى عبد الله بن شدَّاد: دخل رسول الله ﷺ وهو يكيد نفسه ، فقال: «جزاك الله خيراً من سيِّد قومٍ ، فقد أنجزت ما وعدته ، ولينجزك الله ما وعدك . [ابن أبي شيبة (٥/ ٣٢٢) و(١٢/ ١٤٥)](٥).

لقد أثنى النَّبيُّ ﷺ على هذا العبد الصَّالح بعد موته كثيراً أمام الصَّحابة ؛ ليتعرَّف النَّاس على

---

(١) انظر: التَّربية القياديَّة (٤/ ٧١).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢٨٧).
(٤) انظر: سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢٩٥) وإسناده صحيحٌ.
(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٢٨٨) ورجاله ثقات.

أعماله الصَّالحة ، فيتأسَّوا به[1] ، فقد قال ﷺ : «اهتزَّ عرشُ الرَّحمن لموت سعد بن معاذ» [البخاري (٣٨٠٣) ، ومسلم (٢٤٦٦/ ١٢٣ و١٢٤)] .

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال : أُهْدِيَتْ لرسول الله ﷺ حلَّةُ حريرٍ ، فجعل أصحابه يلمسونه ، ويعجبون من لينها ، فقال : «أتعجبون من لين هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة خيرٌ منها ، وألين» . [البخاري (٣٨٠٢) ، ومسلم (٢٤٦٨/ ١٢٦)] .

ومع كلِّ هذه المآثر ، والمحاسن ، والأعمال الجليلة الَّتي قدَّمها لخدمة دين الله ، فقد تعرَّض لضمَّة القبر : لما انتهوا إلى قبر سعدٍ رضي الله عنه نزل فيه أربعةٌ : الحارث بن أوس ، وأُسَيْد بن الحضير ، وأبو نائلة سلكان ، وسلمة بن سلامة بن وقش ، ورسول الله ﷺ واقفٌ ، فلمَّا وضع في قبره تغيَّر وجه رسول الله ﷺ ، وسبَّح ثلاثاً ، فسبَّح المسلمون؛ حتَّى ارتجَّ البقيع ، ثمَّ كبَّر ثلاثاً ، وكبَّر المسلمون ، فسئل عن ذلك فقال : «تضايق على صاحبكم القبر ، وضمَّ ضمَّةً لو نجا منها أحدٌ؛ لنجا هو ، ثمَّ فرَّج الله عنه» . [سبق تخريجه][2] .

إنَّ هذا الصَّحابيَّ الجليل قد استُشْهِدَ وهو في ريعان شبابه ، فقد كان في السَّابعة والثلاثين من عمره يوم وافته منيته ، وهذا يعني أنَّه قاد قومه إلى الإسلام ، وهو في الثلاثين من عمره . . . فقد كانت هذه السِّيادة في العشرينات من عمره ، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين ، وإنَّما تتفجَّر الطَّاقات الكامنة ، والمواهب بعد سنِّ الأربعين ، الَّتي هي غاية الأَشُدِّ .

قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

فأيُّ طرازٍ هذا الَّذي حفل تاريخه بهذه المآثر ، واستبشر أهل السَّموات بقدومه ، واهتزَّ عرش الرَّحمن فرحاً لوفاته من دون خلق الله أجمعين![3] كان سعد بن معاذ رجلاً أبيض ، طوالاً ، جميلاً ، حسن الوجه ، أعين ، حسن اللِّحية[4] رحمة الله عليه ، ورضي عنه ، وأعلى ذكره في المصلحين .

حادي عشر : مقتل حيي بن أخطب ، وكعب بن أسد :

١ ـ مقتل حيي بن أخطب النَّضْرِيِّ :

روى عبد الرَّزَّاق في مصنَّفه بالسَّند إلى سعيد بن المسيِّب . . . فذكر بعض خبر الأحزاب ،

---

(١) انظر : التاريخ الإسلامي ، للحميدي (٦/ ١٧١) .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٤/ ٧٧) نقلاً عن مسند الإمام أحمد (٦/ ١٤١) .
(٣) انظر : القيادة الرَّبانيَّة (٤/ ٨٧) .
(٤) انظر : سير أعلام النُّبلاء (١/ ٢٩٠) .

وقريظة. . . إلى أن قال: فلمَّا فضَّ الله جموع الأحزاب؛ انطلق ـ يعني: حيي ـ حتَّى إذا كان بالرَّوحاء ذكر العهد، والميثاق الَّذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلمَّا أقبلت بنو قريظة أتي به مكتوفاً بعدُ، فقال حُيَيٌّ للنَّبيِّ ﷺ: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنَّه من يَخْذِلِ اللهُ يُخْذَل، فأمر به النَّبيُّ ﷺ، فَضُرِبَتْ عنقُه. [عبد الرزاق في المصنف (٩٧٣٧)، وابن هشام (٣/ ٢٥٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٣)][1].

ثمَّ إنَّه أقبل على النَّاس قبل تنفيذ حكم الإعدام، وقال لهم: أيُّها النَّاس! إنَّه لابأس بأمر الله، كتابٌ وقدَرٌ، وملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل، ثمَّ جلس، فضربت عنقُه[2].

وفي مقتل حييِّ بن أخطب دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

أ ـ لا يحيق المكر السَّيِّئ إلا بأهله:

فقد ألَّب القبائل العربيَّة، واليهوديَّة على محاربة الإسلام، ونبيِّه ﷺ، وأقنع بني قريظة بضرورة نقض العهد مع الرَّسول ﷺ وطعنه من الخلف، فجعل الله كيدَه في نحره، وكبته، وفي النِّهاية قادته محاولاتُه إلى حتفه.

إنَّ الله لا يُهمِل الظَّالمين، ولكن يُمهلُهم ويَستدرِجُهم، حتَّى إذا أخذهم؛ أخذهم أخذ عزيزٍ مقتدر، فكان أخذه أليماً شديداً، قال ﷺ: «إنَّ الله ليملي للظَّالم حتَّى إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ» [البخاري (٤٦٨٦)][3] ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

ب ـ التَّجلُّد في مواطن الشِّدَّة:

لقد تجلَّد حييٌّ وتقدَّم لتضرب عنقه؛ حتَّى لا يشمت فيه شامتٌ، وهو يعرف: أنَّه على باطلٍ، ظالمٌ لنفسه، قد أوردها موارد الهلاك، ومع هذا يموت على ذلك، والعزَّة بالإثم تأخذه إلى جهنَّم وبئس المصير؛ لأنَّه يعبد هواه، ولم يعبد ربَّه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ج ـ مَنْ يَخْذُلِ الله يُخذَل:

إنَّ الله تعالى إذا خذل أحداً؛ فليس له نصيرٌ يمنعه، أو يدفع عنه، قال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ

---

(١) القرطبي آية (٩) من سورة الأحزاب، والطَّبري، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٢٦٥)، والقرطبي آية (٩) من سورة الأحزاب، والطَّبري، والبداية والنِّهاية فصل: في غزوة بني قريظة، ومحمَّد ﷺ، لمحمَّد رضا.

(٣) انظر: الصِّراع مع اليهود لأبي فارس (٢/ ١١٢).

ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

كما أنَّ عداوة حُيَيٍّ للرَّسول ﷺ باعثها الحسد والحقد ، ولذلك عبر حُيَيٌّ صراحةً : أنَّ الله لم يكن معه يوماً من الأيام ، بل كان حُيَيٌّ في شقِّ الشَّيطان عدوّاً لأولياء الرَّحمن ، يشاقق الله ، فالله خاذلُه ، ومُسلِمُه لكلِّ ما يؤذيه ، ويُتعبه ، ولا توجد قوَّةٌ في الأرض ، ولا في السَّماء تنصره ، وتحول بينه وبين الهزيمة؛ لأنَّ إرادة الله هي النَّافذة ، وقدَره هو الكائن ، لا رادَّ لقضائه ، لا يعجزه شيءٌ في الأرض ، ولا في السَّماء[1]؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧].

٢ ـ مقتل كعب بن أسد القرظيِّ :

وجيء برئيس بني قريظة ، كعب بن أسد ، وقبل أن يَضْرِب رسول الله ﷺ عنقه جرى بينه وبين كعبٍ الحوار التَّالي :

قال رسول الله ﷺ : «كعبُ بن أسدٍ؟» .

قال كعبُ بن أسدٍ : نعم يا أبا القاسم!

قال رسول الله ﷺ : «ما انتفعتم بنصح ابن خراشٍ لكم ، وكان مصدِّقاً بي ، أما أمركُم باتِّباعي ، وإنْ رأيتمُوني تقرئوني منه السَّلام؟» .

قال كعب : بلى ، والتَّوراةِ يا أبا القاسم! ولولا أن تعيِّرني يهود بالجزع من السَّيف لاتَّبعتُك ، ولكنِّي على دين يهود .

فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه ، فضربت[2] .

وممَّا ترويه كتب السِّيرة النَّبويَّة عن يهود بني قريظة : أنَّهم كانوا يرسلون طائفةً تلو طائفةٍ؛ لتضرب أعناقهم ، وقد سألوا زعيمهم كعب بن أسد ، فقالوا : يا كعب! ما تراه يُصنع بنا؟ قال : أفي كلِّ موطنٍ لا تعقلون؟ ألا ترون الدَّاعي لا ينْزِع ، وأنَّه مَنْ ذهب به منكم لا يَرْجِع؟ هو والله! القتل . [ابن هشام (٣/ ٢٥٢) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٣)][3] .

ونلحظ في خبر مقتل كعب بن أسدٍ : أنَّه كان متعصِّباً ليهوديته ، وهو يعلم بُطلانها ، وأنَّه على علمٍ بصدق رسالة رسولنا ﷺ ، ولكنَّه لم يؤمن ، ولم يدخل الإسلام خوفاً من أن تعيِّره يهود

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/ ١١٣ ، ١١٤) .
(٢) انظر : اليهود في السُّنَّة المطهرة (١/ ٣٦٨) .
(٣) المصدر السابق نفسه .

بأنَّه جزع من السَّيف ، فعدم إيمانه ، وبقاؤه على الكفر كان نتيجة ريائه ، وحبِّه للثناء ، وخوفه من ذمِّه ، وتعييره ، وهذا دليلٌ على السَّفه ، والحُمْقِ ، وخذلان الله لهذا اليهوديِّ المخادِع[١] .

ثاني عشر: شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبير بن باطا ، وسلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءل:

١ ـ شفاعة ثابت بن قيس في الزَّبير بن باطا:

أقبل ثابت بن قيس بن شمَّاس إلى رسول الله ﷺ ، فقال: هب لي الزَّبِير اليهوديَّ أَجْزِه فقد كانت له عندي يدٌ يوم بعاثٍ ، فأعطاه إيَّاه ، فأقبل ثابتٌ حتَّى أتاه فقال: يا أبا عبد الرحمن! هل تعرفني؟ فقال: نعم ، وهل يُنْكِرُ الرَّجل أخاه؟! قال ثابت: أردت أن أَجْزِيكَ اليوم بيدٍ لك عندي يوم بُعاث ، قال: فافعل؛ فإنَّ الكريم يجزي الكريم ، قال: قد فعلت ، قد سألت رسول الله ﷺ ، فوهبك لي ، فأطلق عنك إساره ، فقال الزَّبير: ليس لي قائدٌ ، وقد أخذتم امرأتي ، وابني ، فرجع ثابتٌ إلى رسول الله ﷺ فاستوهبه امرأتَه ، وبنيه ، فوهبهم له ، فرجع ثابتٌ إلى الزَّبِير ، فقال: ردَّ إليك رسول الله ﷺ امرأتك وبنيك ، فقال الزَّبِير: حائط لي فيه أعذق ، وليس لي ولا لأهلي عيش إلا به ، فرجع ثابت إلى رسول الله ﷺ ، فوهبه لـه ، فرجع ثابت إلى الزَّبير ، فقال: قد ردَّ إليك رسول الله ﷺ أهلك ، ومالك ، فأسلِم؛ تسلَمْ ، قال: ما فعل الجليسان[٢]؟ وذكر رجال قومه ، قال ثابتٌ: قد قُتِلوا ، وفُرِغَ منهم ، ولعلَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يكون أبقاك لخير ، قال الزَّبِير: أسألك بالله يا ثابت! وبيدي التي عندك يوم بُعاثٍ إلا ألحقتني بهم ، فليس في العيش خيرٌ بعدهم ، فذكر ثابت ذلك لرسول الله ﷺ فأمر بالزَّبِير ، فقُتِل.
[ابن هشام (٣/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٣ ـ ٢٤)][٣].

٢ ـ شفاعة سلمى بنت قيس في رفاعة بن سَمَوْءَلٍ القرظيِّ:

كانت سلمى بنت قيس ، وكنيتها أمُّ المنذر أخت سليط بن قيس ، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ ، قد صلَّت معه القبلتين ، وبايعتْه بيعة النِّساء ، سألته رفاعة بن سَمَوْءَل القرظيَّ ، وكان رجلاً قد بلغ ، فلاذ بها ، وكان يعرفهم قبل ذلك ، فقالت: يا نبيَّ الله! بأبي أنت وأمِّي! هب لي رفاعة ، فإنَّه قد زعم أنَّه سيصلِّي ، ويأكل لحم الجمل ، فوهبه لها ، فاسْتَحْيَتْهُ.
[ابن هشام (٣/ ٢٥٥)][٤].

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/ ١١٥).
(٢) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٧٢).
(٣) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٧٣) ، والسِّيرة لابن هشام ، غزوة بني قريظة في سنة خمس قصَّة الزَّبير بن باطا.
(٤) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٧٣).

وفي هذا الخبر دليلٌ على أنَّ الإسلام يكرم المرأة ، ويعتبر شفاعتها! هذه هي معاملة المرأة في هذا الدِّين ، إنَّه يكرمها ، ويساعدُها ، ويشجِّعها على فعل الخير(١) .

ثالث عشر : من أدب الخلاف :

في اختلاف الصَّحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ : «ألاَ لاَ يُصَلِّيَنَّ أحدٌ العصر إلا في بني قريظة» [سبق تخريجه](١) فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال ، فصَّلى العصر لمَّا دخل وقتُه ، وبعضهم أخذ بالظَّاهر ، فلم يصلِّ إلا في بني قريظة؛ ولم يعنِّف النَّبيُّ ﷺ أحداً منهم ، أو عاتبه ، ففي ذلك دلالةٌ مهمَّةٌ على أصلٍ من الأصول الشَّرعية الكبرى ، وهو تقدير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع ، واعتبار كلٍّ من المتخالفين ، معذوراً ، ومثاباً ، كما أنَّ فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشَّرعيَّة ، وفيه ما يدلُّ على أنَّ استئصال الخلاف في مسائل الفروع الَّتي تنبع من دلالاتٍ ظنِّيَّةٍ أمرٌ لا يمكن أن يُتصوَّر أو يتم(٢) .

إنَّ السَّعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع معاندةٌ للحكمة الرَّبَّانيَّة ، والتدبير الإلهي في تشريعه ، عدا أنَّه ضربٌ من العبث الباطل؛ إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنِّيّاً محتملاً؟ ولو أمكن ذلك أن يتمَّ في عصرنا ، لكان أولى العصور به عصر رسول الله ﷺ ، ولكان أولى النَّاس بألا يختلفوا هم أصحابُه ، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما رأيت(٣) في الحديث السابق من الفقه أنه لا يعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله ، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصصه ، وفيه أيضاً أن المختلفين في الفروع من المجتهدين ، لا إثم على المخطئ؛ فقد قال ﷺ : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ» [البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦)] .

وحاصل ما وقع : أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّهي على حقيقته ، ولم يبالوا بخروج الوقت ـ وقت الصَّلاة ـ توجيهاً لهذا النَّهي الخاصِّ على النَّهي العامِّ عن تأخير الصَّلاة عن وقتها(٤) .

وقد علَّق الحافظ ابن حجر على هذه القصَّة ، فقال : ثمَّ الاستدلال بهذه القصَّة على أنَّ كلَّ مجتهدٍ مصيبٌ على الإطلاق ليس بواضح ، وإنَّما فيه ترك تعنيف من بذل وسعه ، واجتهد ، فيستفاد منه عدم تأثيمه ، وحاصل ما وقع في القصَّة : أنَّ بعض الصَّحابة حملوا النَّصَّ على حقيقته ، ولم يبالوا بخروج الوقت ترجيحاً للنَّهي الثَّاني على النَّهي الأوَّل ، وهو ترك تأخير

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/١١٦) .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٢٦ .
(٣) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٢٦ .
(٤) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/٢٨٦) .

الصَّلاة عن وقتها ، واستدلُّوا بجواز التأخير لمن اشتغل بأمر الحرب بنظير ما وقع في تلك الأيام بالخندق ، والبعض الآخر حملوا النَّهي على غير الحقيقة ، وأنَّه كنايةٌ على الحثِّ ، والاستعجال ، والإسراع إلى بني قريظة ، وقد استدلَّ به الجمهور على عدم تأثيمِ من اجتهد ، لأنَّه ﷺ لم يعنِّف أحداً من الطَّائفتين ، فلو كان هناك إثمٌ؛ لعنَّف مَنْ أَثِمَ[١] .

رابع عشر: توزيع غنائم بني قريظة ، وإسلام ريحانة بنت عمرو:

١ ـ توزيع غنائم بني قريظة: جمع صحابة رسول الله ﷺ الغنائم الَّتي خلَّفها بنو قريظة ، فكانت كما يلي: من السُّيوف ألفاً وخمسمئة سيفٍ ، ومن الرِّماح ألفي رمحٍ ، ومن الدُّروع ثلاثمئة درعٍ ، ومن التُّروس ألفاً وخمسمئة ترساً ، وجحفةً ، كما تركوا عدداً كبيراً من الشِّياه ، والإبل ، وأثاثاً كثيراً ، وآنيةً كثيرةً ، ووجد المسلمون دناناً من الخمر ، فوزعت الغنائم ، وهي الأموال المنقولة ، كالسِّلاح ، والأثاث ، وغيرها بين المحاربين من أنصارٍ ، ومهاجرين ممَّن شهدوا الغزوة ، فأعطى أربعة أخماس الغنائم لهم؛ إذ جعل للفَرَسِ سهمين ، وللرَّاجل سهماً ، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه ، وغير الفارس يأخذ سهماً واحداً له ، والخمس المتبقِّي هو سهم الله ورسوله ﷺ المقرَّر في كتابه تعالى[٢] .

وأما ما وجده رسول الله ﷺ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة؛ فقد أراقوه ، ولم يأخذوا منه شيئاً ، ولم ينتفعوا به كذلك ، وقد أسهم رسول الله ﷺ لسويد بن خلَّاد الَّذي قتلته المرأة اليهودية بالرَّحى ، وأعطى سهمه لورثته[٣] ، ولصحابيٍّ آخر مات في أثناء حصار بني قريظة[٤] ، كما استجاب رسول الله ﷺ للنِّساء اللَّواتي حضرن، ولم يسهم لهنَّ، منهنَّ: صفية بنت عبد المطلب، وأمُّ عمارة ، وأمُّ سليط، وأمُّ العلاء ، والسُّميراء بنت قيس ، وأمُّ سعد بن معاذ[٣] . وأمَّا الأموال غير المنقولة كالأراضي ، والدِّيار؛ فقد أعطاها رسول الله ﷺ للمهاجرين دون الأنصار ، وأمر المهاجرين أن يردُّوا إلى الأنصار ما أخذوه منهم من نخيلٍ وأرض ، وكانت على سبيل العارية، ينتفعون بثمارها[٥]، قال تعالى عن تلك الأراضي والدِّيار: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

قال الأستاذ محمَّد دَرْوَزَة: أمَّا عبارة ﴿ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ ﴾ فقد قال المفسرون: إنَّها أرض خيبر ، وإنَّ الجملة بشرى سابقة لفتحها ، غير أنَّ الذي تلهم روح الآية ومضمونها على ما يتبادر

---

(١) اختصاراً من فتح الباري (٧/ ٤٧٣) في شرح الحديث رقم (٤١١٩).
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/ ٩٦ ، ٩٧).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٩٧).
(٤) انظر: اليهود في السُّنَّة المطهَّرة (١/ ٣٧٥).
(٥) انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/ ٩٨).

لنا: أنَّها أرض لبني قريظة بعيدةٌ عن مساكنهم، آلت إلى المسلمين دون حربٍ، أو حصارٍ، ونتيجةً للمصير الذي صار إليه أصحابُها[١].

هذا وقد أرسل رسول الله ﷺ سعد بن عبادة رضي الله عنه بالخمس من الذُّرِّيَّة، والنِّساء إلى الشَّام فباعها، واشترى بالثَّمن سلاحاً، وخيلاً ليستعين به المسلمون في معاركهم مع الأعداء من يهود ومشركين، وكذلك بعث إلى نجدٍ سعد بن زيد، فباع سبياً، واشترى سلاحاً[٢].

٢ ـ إسلام ريحانة رضي الله عنها:

وكان من بين السَّبي ريحانةُ بنت عمرو بن خناقة إحدى نساء بني عمرو من بني قريظة، قد أراد الرَّسول ﷺ أن يتزوَّجها بعد أن تسلم، فتردَّدت، وبقيت وقتاً على دينها، ثمَّ شرح الله صدرها للإسلام، فأسلمت، فبعثها إلى بيت أمِّ منذر بنت قيس حتَّى حاضت ثمَّ طهرت، فجاءها، وخيَّرها: أيعتقها، ويتزوجها، أو تكون في ملكه ﷺ؟ فاختارت أن تكون في ملكه رضي الله عنها[٣].

خامس عشر: الإعلام الإسلاميُّ في غزوة الأحزاب:

قام شعراء الصَّحابة بدورهم الجهاديِّ، فقالوا قصائد رائعةً، وضَّحُوا بها موقف المسلمين في غزوة الأحزاب، نقتطف أبياتاً منها كنماذج لهذه القصائد، فَمِنْ ذلك قول كعب بن مالكٍ أخي بني سلمة:

وَسَائِلَةٍ تُسَائِلُ مَا لَقِيْنَا ... وَلَوْ شَهِدَتْ رأَتْنَا صَابِرِيْنَا
صَبَرْنَا لاَ نَرىٰ للهِ عِدْلاً ... عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِيْنَا
وكانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيْرَ صِدْقٍ ... بِهِ نَعْلُو البَرِيَّةَ أَجْمَعِيْنَا
نُقَاتِلُ مَعْشَراً ظَلَمُوا وَعَقُّوا ... وَكَانُوا بالعَدَاوَةِ مُرْصِدِيْنَا[٤]
نُعَالِجُهُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا ... بِضَرْبٍ يُعْجِلُ المُتَسَرِّعِيْنَا
تَرَانَا فِي فَضَافِضَ سَابِغَاتٍ ... كَغُدْرَانِ المَلا مُتَسَرْبِلِيْنَا[٥]

إلى أن قال:

لِنَنْصُرَ أَحْمَداً واللهَ حتَّى ... نَكُوْنَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِيْنَا

---

(١) انظر: سيرة الرَّسول ﷺ، لعزَّة دروزة (٢/ ٢٠٢).
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود (٢/ ٩٨).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٩٩)، والبداية والنِّهاية (فصل: في غزوة بني قريظة)، والسِّيرة النَّبوية لابن هشام غزوة بني قريظة (إسلام ريحانة).
(٤) المرصد: المعدُّ للأمر عدَّته.
(٥) متسربلينا: لابسين الدُّروع.

ويَعْلَــم أَهْــلُ مَكَّــةَ حِيْــنَ سَــارُوا وأَحْــزَابٌ أَتَــوا مُتَحَــزِّبِيْنَــا
بــأَنَّ الله لَيْــسَ لَــهُ شَــرِيْــكٌ وأَنَّ اللهَ مَــوْلَــىٰ المُــؤْمِنِيْنَــا
فــإِمَّــا تَقْتُلــوا سَعْــداً سَفَــاهــاً فــإِنَّ اللهَ خَيْــرُ القَــادِرِيْنَــا
سَيُــدْخِلُــه جِنــانــاً طَيِّبَــاتٍ تَكُــوْنُ مُقَــامَــةً للصَّــالِحِيْنَــا
كَمَــا قَــدْ رَدَّكــم فَــلاًّ شَــرِيْــداً بِغَيْظِكُــمُ خَــزَايَــا خَــائِبِيْنَــا
خَــزَايــا لَــمْ تنَــالُــوا ثَــمَّ خَيْــراً وَكِــدْتُــمْ أَنْ تَكُــونُــوا دَامِــرِيْنَــا
بِــرِيْــحٍ عَــاصِــفٍ هَبَّــت عَلَيْكُــمْ فَكُنْتُــمْ تَحْتَهَــا مُتَكَمِّهِيْنَــا[١]

وقال كعبُ بن مالكٍ رضي الله عنه في قصيدةٍ طويلةٍ يردُّ فيها على عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ:

ومَــوَاعِــظَ مِــنْ رَبِّنَــا نُهْــدَىَ بهــا بِلِسَــانِ أَزْهَــرَ طَيِّــبِ الأَثْــوَابِ
عُــرِضَــتْ عَلَيْنَــا فــاشْتَهَيْنَــا ذِكْــرَهــا مِــنْ بَعْــدِ مــا عُــرِضَــتْ عَلَــى الأَحْــزَابِ
حِكَمــاً يَــرَاهَــا المُجْــرِمُــون بِــزَعْمِهِــمْ حَــرَجــاً[٢] وَيَفْهَمُهَــا ذَوُو الأَلبَــابِ
جــاءتْ سَخِيْنَــةُ كَــيْ تُغَــالِــبَ رَبَّهَــا فَلَيُغْلَبَــنَّ مُغَــالِــبُ الغَــلاَّبِ

قال ابن هشام: حدَّثني مَنْ أثق به، قال: حدثني عبد الملك بن يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، قال: لمَّا قال كعب بن مالكٍ رضي الله عنه:

جَــاءَتْ سَخِيْنَــةُ كَــيْ تُغَــالِــبَ رَبَّهَــا فَلَيُغْلَبَــنَّ مُغَــالِــبُ الغَــلاَّبِ

قال له رسول الله ﷺ: «لقد شكرك الله يا كعب! على قولك هذا». [ابن هشام (٣/ ٢٧٣)].

* * *

(١) متكمِّهينا: عُمياً لا تبصرون.
(٢) حرجاً: حراماً.

الفصل الثَّاني عشر
ما بين غزوة الأحزاب ، والحديبية
مِنْ أحداثٍ مهمَّة

المبحث الأوَّل
زواج النَّبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها

ومع استمرار حركة السَّرايا ، وبناء الدَّولة ، وبسط هيبتها في الجزيرة العربيَّة ، كانت حركة البناء التَّشريعيِّ ، والاجتماعيِّ للأمَّة الإسلاميَّة تتكامل ، فنظام التَّبنِّي يُهدَم، والحجاب يُفرض ، وأدب الولائم يقرَّر ، وضرورة الالتزام بطاعة الله ورسوله يُؤكَّد على وجوبها ، وتُحارَب الأعراف الَّتي تعارض شرع الله تعالى ، ففي زواج رسول الله ﷺ بالسَّيدة زينب بنت جحش حكمٌ ، ودروسٌ ، وعبرٌ بقيت خالدةً على مرِّ العصور ، وكرِّ الدُّهور ، وتوالي الأزمان ، وهذه قصَّة أمِّ المؤمنين زينب بنت جحشٍ رضي الله عنها :

أولاً : اسمها ، ونسبها :

هي زينت بنت جحش بن رئاب بن يعمر الأسديَّة ، أخت عبد الله بن جحش ، وحمنة بنت جحش رضي الله عنهم .

أمُّها : أميمةُ بنت عبد المطَّلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيٍّ عمَّة رسول الله ﷺ ، وأخت حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه[(١)] .

يقال : كان اسمها : برَّة ، فسمَّاها النَّبيُّ ﷺ زينب ، وكانت تكنى أمَّ الحكم[(٢)] .

وكانت زينب رضي الله عنها من المهاجرات الأول ، ورعةً صوَّامة قوَّامة ، كثيرة الخير والصَّدقة ، فعن عائشة أمِّ المؤمنين رضي الله عنها ، قالت : قال رسول الله ﷺ : «أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً» . قالت : فكنَّ يتطاولن أيتهنَّ أطول يداً ، قالت : فكانت أطولنا يداً زينب لأنَّها

---

(١) انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (١/ ٣٧٢) .
(٢) انظر : الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، لابن عبد البرِّ (٤/ ١٨٤٩) .

كانت تعمل بيدها، وتصدَّق». [البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢)].

وقد مدحتها السَّيدة عائشة رضي الله عنها كثيراً، وقالت في حقِّها: لم أر امرأةً قطُّ خيراً في الدِّين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرَّحم، وأعظم صدقةً، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الَّذي تَصَدَّقُ به، وتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى، ما عدا سَوْرةً من حِدَّةٍ كانت فيها تُسْرِعُ منها الفيئة[1]. [مسلم (٢٤٤٢)، والنسائي (٧/ ٦٤ ـ ٦٦)].

ثانياً: زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه:

أراد الرَّسول ﷺ أن يحطِّم تلك الفوارق الطَّبقيَّة الموروثة في الأمَّة المسلمة من عادات الجاهليَّة؛ ليكون النَّاس سواسيةً كأسنان المشط، لا فضل لأحدٍ على أحد إلا بالتَّقوى، وكان الموالي ـ وهم الذين جرى عليهم الرِّقُّ، ثمَّ تحرَّروا ـ طبقةً أدنى من طبقة السَّادة، ومن الموالي كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ الَّذي أعتقه، ثمَّ تبناه، فرأى رسول الله ﷺ أن يزوِّج زيداً من شريفةٍ من بني أسد، وهي ابنة عمَّته زينب بنت جحش رضي الله عنها؛ ليبطل تلك الفوارق الطبقيَّة بنفسه في أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق، والعنف بحيث لا يحطِّمها إلا فعلٌ واقعيٌّ من رسول الله ﷺ؛ لتتَّخذ منه الأمَّةُ المسلمة أسوةً، وقدوةً، وتسير البشرية على هداه في هذا الطَّريق، وأيضاً لعلَّ من الحكمة في هذا الزَّواج: أنَّه كان مقدمةً لتشريع آخر، لا يقلُّ أهمِّيَّةً في حفظ توازن المجتمع، وحماية الأسرة عن الأوَّل، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر[1].

انطلق رسول الله ﷺ ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، فدخل على زينب بنت جحش الأسديَّة رضي الله عنها، فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بلى! فانكحيه»، قالت: يا رسول الله! أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقالت: يا رسول الله! قد رضيتَه لي زوجاً؟ قال: «نعم» قالت: لا أعصي رسول الله ﷺ، وقد زوَّجتُه نفسي. [الطبري في تفسيره (٢٢/ ١١)، والدر المنثور (٥/ ٦٠٩)].

وكان زيد بن حارثة إذ ذاك لا يزال يُدعى زيد بن محمَّد، فتزوَّجها زيد، وأصدقها في هذا الزَّواج عشرة دنانير، وستين درهماً، وخماراً، وملحفةً، ودرعاً، وخمسين مدّاً من طعامٍ، وعشرة أمدادٍ من تمرٍ[2].

---

(١) انظر: قضايا نساء النبي والمؤمنات، لحفصة بنت عثمان الخليفي، ص ٢٠٥.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٩).

ثالثاً: طلاق زيد لزينب رضي الله عنها:

شاءت حكمة الله تعالى ألا يتوافق زيدٌ ، وزينب في زواجهما ، وأصبحت حياة الزَّوجين لا تطاق ، وصمَّم زيدٌ على فراق زوجه زينب ، وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله ﷺ من عدم استطاعته البقاء مع زينب ، ورسول الله ﷺ يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها ، حتَّى أذن الله بالطَّلاق ، فطلَّقها زيدٌ ، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره ، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنةٍ ، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريباً من سنةٍ ، أو فوقها ، ثمَّ وقع بينهما (يعني: الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك ، واتَّق الله». [أحمد (٣/ ١٥٠) ، والترمذي (٣٢١٢)].

لم يبقَ لزيد رغبةٌ في إبقاء العلاقة الزَّوجيَّة معها؛ لأنَّه كان كريم النَّفس ، لا يريد أن يبني سعادته ، وراحته على شقاء الآخرين ، وتعاستهم ، والإضرار بهم ، ولهذا صمَّم على الفراق ، وعدم الإضرار بها؛ لأنَّها كانت تعيش في قلقٍ ، واضطرابٍ ، وانتهى زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه بزينب بنت جحش على هذا الوضع دون أيِّ تدخُّلٍ خارجيٍّ بينهما ، ووقع ذلك الطَّلاق بمحض اختياره ، وإرادته ، وقد كان رسول الله ﷺ ينهاه عن ذلك ، ويأمره بتقوى الله ، وإمساك زوجته[1] ، قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا السبب: «ذكر ابن أبي حاتم ، وابن جريرٍ آثاراً عن بعض السَّلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحَّتها ، فلا نوردها»[2].

رابعاً: الحكمة من زواج رسول الله ﷺ من زينب رضي الله عنها:

كانت عادة التَّبنِّي متغلغلةً في نفوس النَّاس ، ومشاعرهم ، وليس من السَّهل التغلُّب عليها ، وإلغاء الآثار المترتِّبة عليها ، كانت هذه العادة في صدر الإسلام في مكَّة ، وفي أوَّل الهجرة إلى المدينة ، ثمَّ شاء الله تعالى ، فنزلت الآيات في نفي أن يكون الأدعياء أبناء لمن ادَّعاهم في الحقيقة ، وإنَّما ذلك حسب دعوى المدَّعي فقط ، وذلك لا يغيِّر من الواقع شيئاً ، فقال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب: ٤].

ثمَّ أمر ـ تبارك وتعالى ـ بردِّ نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، فهذا من العدل ، والقسط ، والبرِّ ، فقال تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥].

---

(١) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٢٠٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٩١).

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: إنَّ زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنَّا ندعوه إلا زيد بن محمَّد، حتَّى نزل القرآن: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾. [البخاري (٤٧٨٢)].

ولم يجعل الله تعالى عدم معرفتهم لآبائهم الحقيقيين مبرراً لإبقاء تبنِّيهم لهم، بل حرم التَّبني في هذه الحالة، وأخبر أنَّهم حينئذٍ إخوانهم، ومواليهم، فقال تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

أي: فإن لم تعرفوا آباءهم، فليس بينكم وبينهم إلا الأخوَّة في الدِّين، والموالاة، وذلك عوضاً عمَّا فاتهم من النَّسب، فيقال: فلانٌ مولى فلان، أو مولى بني فلان[١].

وهذه الأخوَّة في الدِّين، والموالاة لها أهمِّيَّة كبرى، فهي ثابتةٌ حتَّى للذين عُرِف آباؤهم، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة رضي الله عنه: «أنت أخونا ومولانا» [أحمد (١/ ٩٨ و١١٥) عن علي، والبخاري (٢٦٩٩) عن البراء]، أي: أخونا في الإسلام، والولاية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وجاءت نصوصٌ أخرى تعالج هذا الأمر من جهةٍ أخرى، وهي جهة الابن، فجاء تحريم الانتساب إلى غير الأب الحقيقيِّ ـ والمنتسب يعلم ذلك ـ تحريماً قاطعاً، لا شبهة فيه[٢] قال ﷺ: «مَنِ ادَّعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه؛ فعليه لعنة الله، والملائكة، والنَّاس أجمعين، لا يقبل الله تعالى منه صَرْفاً ولا عَدْلاً[٣]». [البخاري (١٨٧٠)، ومسلم (١٣٧٠)].

وقد جعل الشَّارع لنشوء النَّسب سبباً واضحاً هو الاتِّصال بالمرأة عن طريق الزَّواج، أو ملك اليمين، وأبطل ما كان يجري عليه أهل الجاهليَّة من إلحاق الأولاد عن طريق العُهْرِ والزِّنى، قال ﷺ: «الولد للفراش، وللعاهر الحجر» [البخاري (٦٨١٨)، ومسلم (١٤٥٨)]، ومعناه: أنَّ من يجيء من الأولاد ثمرة لفراشٍ صحيحٍ قائمٍ على عقد الزَّواج، أو ملك اليمين يلتحق نسبه بأبيه، وأنَّ العُهْرَ والزِّنى لا يصلح أن يكون سبباً للنَّسب، وإنَّما يكون سبباً لشيءٍ آخر هو الرَّجم، والحجارة[٤].

ثمَّ إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعد أن منع، وحرَّم دعوة الابن بنسبته إلى من تبنَّاه، وأمر

(١) انظر: تفسير السَّعدي (٤/ ١٣٦).
(٢) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص ١٨٩.
(٣) صرفاً: توبة، وقيل: نافلة، عدلاً: أي: فدية، وقيل: فريضة.
(٤) انظر: علاقة الآباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلاميَّة، د. سعاد الصَّانع، ص ٥٢، ٥٣.

بدعوته منسوباً إلى أبيه الحقيقيِّ إن عرف، أو إلى الأخوة في الدِّين والموالاة، بعد ذلك بيَّن حكم من أخطأ، أو تعمَّد مخالفة هذا التَّشريع الإلٰهي، قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

فقد نفى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الجُناح (الإثم) عمَّن أخطأ في نسبة الابن إلى غير أبيه في الحقيقة، وذلك بعد الاجتهاد، واستفراغ الوسع، أو نسي، فنسب الابن إلى غير أبيه يجريان لسانه بذلك، وأثبت الحرج، والإثم لمن تعمَّد الباطل، وهو دعوة الرَّجل لغير أبيه بعد علمه بتحريم ذلك[١].

كانت عادة التَّبنِّي مستحكمةً في نفوس النَّاس، وقد أخذت أبعادها مع مرور الزَّمن، فكان زواج النَّبيِّ ﷺ بالسَّيدة زينب إلغاءً عمليّاً، وليس إلغاء ذهنيّاً فحسب[٢].

إنَّ الحكمة في زواج رسول الله ﷺ من السَّيدة زينب حكمةٌ واضحةٌ وظاهرةٌ، وقد بيَّنها الله تعالى بقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقد ذكر المبطلون من الكفار، وفروخهم، ومقلِّدوهم بما يَنعِقون به، ويردُّده الجهَّال متعلِّقين برواياتٍ مكذوبةٍ، خلاصتُها كما يفترون: أنَّ النبي ﷺ قد هوي زينب بنت جحش، بعد أن تزوَّجت بزيد بن حارثة، فلمَّا علم زيدٌ بذلك؛ أراد طلاقها ليتزوَّجها النَّبيُّ ﷺ[٣]، فهذا قولٌ باطلٌ.

وقد نسف الإمام ابن العربيِّ هذا القول من جذوره، فقال: فأمَّا قولكم: إنَّ النَّبيَّ ﷺ رآها ـ أي: رأى زينب بنت جحشٍ ـ فوقعت في قلبه؛ فباطلٌ، فإنَّه ﷺ كان معها في كلِّ وقتٍ، وموضعٍ، ولم يكن حينئذٍ حجابٌ، فكيف تنشأ معه، وينشأ معها، ويلحظها في كلِّ ساعةٍ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوجٌ؟! حاشا لذلك القلب المطهَّر من هذه العلاقة الفاسدة، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١] والنِّساء أفتن الزَّهرات، فيخالف هذا في المطلَّقات، فكيف في المنكوحات؟

ثمَّ إنَّ قوله تعالى: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ يعني: من نكاحك لها، وهو الذي أبداه لا سواه، أقول: فلو كان الَّذي أخفاه رسول الله ﷺ هو حبُّه لها؛ لأبداه الله تعالى،

---

(١) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص ١٩١، ١٩٢.
(٢) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣١١.
(٣) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة، لعبد الكريم زيدان (١١/ ٤٧٤، ٤٧٥).

وأظهره، فتيقَّنَّا: أنَّ الَّذي أخفاه رسول الله ﷺ من أمر زينب هو نكاحُه إيَّاها، وليس ما تخيَّله المبطلون من حبِّه لها[١].

إن الشرع أراد تأكيد إبطال نظام التَّبنِّي، وإبطال كلِّ نتائجه، وتعميق هذا الإبطال في النُّفوس، وتأكيده بالتَّطبيق العمليِّ، والقدوة، والتأسِّي بمن يُقتدى به في تطبيق هذه الأحكام الجديدة النَّاسخة، وهذا ما فعله رسولُ الله ﷺ بزواجه بزينب بأمرٍ من الله تعالى العزيز الحكيم[٢].

خامساً: قصَّة زواج رسول الله ﷺ من زينب، وما فيها من دروسٍ، وعبر:

لمَّا انقضت عدَّة زينب؛ قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب فاذكرها عليَّ، فانطلق زيد؛ حتَّى أتاها، وهي تخمِّر عجينها، قال: فلما رأيتُها عَظُمَتْ في صَدري، حتى ما أستطيع أن أنظر إليها: أنَّ رسول الله ﷺ ذكرها، فولَّيْتُها ظهري، ونكصْتُ على عَقِبي، فقلت: يا زينب أبشري!! أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أُوَامَر ربِّي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسولُ الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذنٍ. [أحمد (٣/ ١٩٥)، ومسلم (١٤٢٨/ ٨٧م)، والنسائي (٦/ ٧٩)]، وأصدقها أربعمئة درهم، وكان زواجه ﷺ بزينب في السَّنة الخامسة على المشهور، وقال الحافظ البيهقيُّ: تزوَّجها بعد بني قريظة[٣].

وأولم الرَّسول ﷺ في عرس زينب وليمةً كبيرةً، فأولم بشاةٍ، وقد دُعِي إلى الوليمة كلُّ من لقيه أنس رضي الله عنه بناءً على أمر الرَّسول ﷺ، فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: ما رأيت رسول الله ﷺ أولم على امرأةٍ من نسائه ما أولم على زينب، أَوْلَمَ بشاةٍ. [البخاري (٥١٦٨)، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٠)].

وهكذا تزوَّج رسولُ الله ﷺ - بأمر رَبِّه - زينب بنت جحش رضي الله عنها، بعد طلاق زيدٍ لها، وانقضاء عدَّتها، وفي زواجه ﷺ بزينب، وما نزل فيه من القرآن وما واكبه من أحداث - عظاتٌ، وعبرٌ[٤]، وقفنا عند بعضها، ويجدر بنا أن نتأمل في بعض الدُّروس، والعبر الَّتي لم نقف عليها، منها:

١ - كان خاطب زينب للنَّبيِّ ﷺ هو زوجها الأوَّل زيد بن حارثة رضي الله عنه، ولعلَّ اختيار رسول الله ﷺ لزيدٍ مقصودٌ لذاته؛ ليقطع بذلك ألسنة المتقوِّلين، وما قد يزعمونه من أنَّ طلاقها

---

(١) انظر: أحكام القرآن لابن العربيِّ (٣/ ١٥٣١، ١٥٣٢).
(٢) انظر: المفصَّل في أحكام المرأة (١١/ ٤٧٦).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤٧).
(٤) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات، ص ٣١٢

وقع بغير اختيارٍ منه ، وأنَّه قد بقي في نفسه من الرَّغبة فيها شيءٌ ، وفي هذا يقول ابن حجر : «هذا من أبلغ ما وقع في ذلك ، وهو أن يكون الَّذي كان زوجَها هو الخاطبُ ؛ لئلا يظنَّ أحدٌ : أنَّ ذلك وقع قهراً بغير رضاه ، وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها : هل بقي منه شيءٌ ، أم لا؟»[١] .

وفي هذا من الحكمة أيضاً : أن ما يقع بين الزَّوجين من نفرةٍ ، وخلافٍ ، ثمَّ طلاقٍ لا يجوز أن يكون مانعاً من نصح أحـد الزَّوجين للآخر ، وأن يـراعي فيه حقوق الأخوَّة الإيمانيَّة ، فهذا زيد برغم ما وقع بينه وبين زينب ، ورغم : أنَّ هذا كان بسببها ، فإنَّه ذهب يخطبُها لرسول الله ﷺ ، بـل ويقول لها : يا زينب! أبشري! .

٢ ـ في الآية الَّتي نزلت بشأن هذا الزَّواج عتابٌ للنَّبيِّ ﷺ من ربِّه ؛ إذ كان حين يأتيه زيدٌ يشكو زينب ، ومعاملتها له ، ورغبته في طلاقها يقول ﷺ : «أمسك عليك زوجك واتَّق الله» [سبق تخريجه] ، أي : اتَّق الله ، وَدَعْ طلاقها ، أو : اتق الله فيما تذكره من سوء عشرتها ؛ ورسول الله ﷺ يخفي في نفسه ما أبلغه الله به : أن زيداً سيطلِّقها ، وأنَّها ستكون زوجةً له ، ويخشى متى وقع هذا من كلام النَّاس في قولهم : تزوَّج مطلقة مَنْ تبنَّاه ، وهو زيد بن حارثة!

روى أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال : جاء زيد بن حارثة يشكو ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : «اتَّق الله ، وأمسك عليك زوجك» : قال أنس : لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي ؛ لكتم هذه الآية . [البخاري (٧٤٢٠)] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : لو كان محمَّدٌ ﷺ كاتماً شيئاً ممَّا أُنزل عليه ؛ لكتم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] . [أحمد (٦/ ٢٤١) ، ومسلم (١٧٧/ ٢٨٨) ، والترمذي (٣٢٠٨)] .

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن السَّعديُّ في تفسيره للآية : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ : «أي : أنعم الله عليه بالإسلام ، وأنعمت عليه بالعتق ، والإرشاد ، والتَّعليم ، حين جاءك مشاوراً في فراقها ، فقلت له ـ ناصحاً له ، ومخبراً بمصلحته ، مقدماً لها على رغبتك ـ : أمسك عليك زوجك ، ولا تفارقها ، واصبر على ما جاءك منها ، واتَّق الله في أمورك عامَّة ، وفي أمر زوجك خاصَّة ؛ فإن التَّقوى تحثُّ على الصَّبر ، وتأمر به . ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ الَّذي أخفاه : أنه لو طلقها زيد ؛ لتزوَّجها ﷺ »[٢] .

قال سيِّد قطب : الَّذي أخفاه النَّبيُّ ﷺ في نفسه وهو يعلم أنَّ الله مبديه ، وهو ما أعلمه الله :

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر (٨/ ٥٢٤) .
(٢) تفسير السَّعدي (٣/ ١٥٤) .

أنَّه سيفعله، ولم يكن أمراً صريحاً من الله، وإلا ما تردَّد فيه، ولا أخَّره، ولا حاول تأجيله، ولجهر به في حينه مهما كانت العواقب؛ الَّتي يتوقَّعها من إعلانه، ولكنَّه ﷺ كان أمام ما أعلمه الله، يتوجَّس في الوقت ذاته من مواجهته، ومواجهة النَّاس به، حتَّى أذن الله بكونه، فطلَّق زيدٌ زوجه في النِّهاية، وهو لا يفكر، لا هو، ولا زينب فيما سيكون بعد؛ لأنَّ العرف السَّائد كان يعدُّ زينب مطلقة ابنٍ لمحمَّد، لا تحلُّ له[1].

٣ ـ في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، منقبةٌ عظيمةٌ لزيد بن حارثة رضي الله عنه، فقد انفرد بهذا؛ إذ لم يُسَمِّ القرآن أحداً من الصَّحابة غيره، قال السُّهيلي: «كان يقال: زيد بن محمَّد حتَّى نزل: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِـَٔابَآئِهِمْ ﴾، فقال: أنا زيد بن حارثة، وحرم عليه أن يقول: أنا زيد بن محمَّد، فلما نُزع عنه هذا الشَّرف، وهذا الفخر، وعلم الله وحشته من ذلك شرَّفه بخصيصةٍ لم يكن يَخُصُّ بها أحداً من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، وهي: أنَّه سمَّاه في القرآن، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ يعني: من زينب، ومن ذكره الله تعالى باسمه في الذِّكر الحكيم؛ حتَّى صار اسمه قرآناً يُتلى في المحاريب، نوَّه به غاية التَّنويه، فكان في هذا تأنيسٌ له، وعوضٌ من الفخر بأبوَّة محمَّد ﷺ له، ألا ترى إلى قول أبيِّ بن كعب حين قال له النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا» [البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩)] فبكى، وقال: أوذكرتُ هنالك؟.

وكان بكاؤه من الفرح حين أُخبر: أنَّ الله تعالى ذكره، فكيف بمن صار اسمه قرآناً يُتلى مخلَّداً لا يبيد، يتلوه أهل الدُّنيا؛ إذا قرؤوا القرآن، وأهل الجنَّة أبداً، لا يزال على ألسنة المؤمنين، كما لم يزل مذكوراً على الخصوص عند ربِّ العالمين؛ إذ القرآن كلام الله القويم، وهو باقٍ لا يبيد، فاسم زيد هذا في الصُّحف المكرَّمة، المرفوعة المطهَّرة، تذكره في التِّلاوة السَّفرةُ الكرامُ البررة، وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبيٍّ من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له بسبب ما نُزع منه[2].

٤ ـ زواج النَّبيِّ ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها كان بأمر ربِّه، وهو الَّذي زوَّجه إيَّاها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٦٩).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ١٩٤).

وفي هذا شرفٌ عظيمٌ ، ومنقبةٌ جليلةٌ لزينب رضي الله عنها ، كانت تفاخر بها ـ وحقَّ لها ذلك ـ فعن أنسٍ رضي الله عنه ، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النَّبيِّ ﷺ تقول: زوَّجَكُنَّ أهاليكنَّ ، وزوَّجني الله من فوق سبع سموات ، وفي روايةٍ أخرى: كانت تفخر على نساء النَّبيِّ ﷺ ، وكانت تقول: إن الله أنكحني في السَّماء. [البخاري (٧٤٢٠ و٧٤٢١)].

ولعلَّ هذه المنقبة ، وهذا الشَّرف لزينب رضي الله عنها كان جزاءً لها حين أذعنت ، وخضعت لأمر رسول الله ﷺ حين أمرها بالزَّواج من مولاه زيد بن حارثة ، وكانت لذلك كارهةً ، ثمَّ لمَّا علمت: أنَّ رسول الله ﷺ يأمرها بذلك قبلت الزَّواج منه[1].

٥ ـ في وليمته ﷺ على زينب علامةٌ من علامات نبوَّته ، ودلالةٌ من دلائلها ، وهي تكثير الطَّعام بدعوته ، وفي هذه الوليمة أيضاً كان نزول آية حجاب نساء النَّبيِّ ﷺ ، وما شرع من آداب الضِّيافة[2].

فعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: تزوَّج رسول الله ﷺ ، فدخل بأهله ، قال: فصنعت أمِّي أمُّ سليم حيساً ، فجعلته في تَوْرٍ[3] ، فقالت: يا أنس! اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ ، فقل: بعثت بهذا إليك أمِّي ، وهي تقرئك السَّلام ، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! قال: فذهبتُ بها إلى رسول الله ﷺ ، فقلت: إنَّ أمِّي تقرئك السَّلام ، وتقول: إنَّ هذا لك منا قليلٌ يا رسول الله! فقال: ضعه ، ثمَّ قال: اذهب ، فادْعُ لي فلاناً ، وفلاناً ، ومن لقيت ، وسمَّى رجالاً ، قال: فدعوت من سمَّى ، ومن لقيت ، قال: قلت لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمئة.

وقال لي رسول الله ﷺ: «يا أنس! هات التَّوْر ، قال: فدخلوا حتَّى امتلأت الصُّفَّة ، والحُجرة ، فقال رسول الله ﷺ: ليتحلَّق عشرةٌ عشرةٌ ، وليأكل كلُّ إنسان ممَّا يليه ، قال: فأكلوا حتَّى شبعوا ، قال: فخرجتْ طائفةٌ ، ودخلت طائفةٌ ، حتَّى أكلوا كلُّهم ، فقال لي: يا أنس! ارفع ، قال: فرفعت فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ، قال: وجلس طوائف منهم يتحدَّثون في بيت رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ جالسٌ ، وزوجته موليَّةٌ وجهها إلى الحائط ، فَـثَـقُلُوا على رسول الله ﷺ ، فخرج رسول الله ﷺ على نسائه ، ثمَّ رجع ، فلمَّا رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ؛ ظنَّوا أنَّهم قد ثَقُلُوا عليه. [البخاري (٥١٦٣) ، ومسلم (١٤٢٨/ ٩٤ و٩٥) ، والنسائي (٦/١٣٦)] قال: فابتدروا الباب ، فخرجوا كلُّهم ، وجاء رسول الله ﷺ حتَّى أرخى السِّتر ، ودخل ، وأنا جالس في الحُجرة ، فلم يلبث إلا يسيراً حتَّى خرج عليَّ ، وأنزلت هذه

---

(١) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ والمؤمنات ، ص ٢١٨.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) تور: الإناء.

الآية ، فخرج رسول الله ﷺ وقرأها على النَّاس : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

قال الجعد[1] : قال أنس بن مالكٍ رضي الله عنه : أنا أَحْدَثُ النَّاسِ عهداً بهذه الآيات ، وحُجِبْنَ نساءُ النَّبيِّ ﷺ . [مسلم (١٤٢٨/ ٩٤) ، والترمذي (٣٢١٨)] .

وقد حَجَبَ رسول الله ﷺ نساءه لنزول آية الحجاب التي قال المولى ـ عز وجل ـ فيها : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ۝٥٣ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾ [الأحزاب : ٥٣ ـ ٥٤] .

وقد كان نزول آية الحجاب من موافقات عمر رضي الله عنه ، روى البخاريُّ في صحيحه عن أنسٍ ، قال : قال عمر رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله! يدخل عليك البرُّ ، والفاجر ، فلو أمرت أمهاتِ المؤمنين بالحجاب! فأنزل الله آية الحجاب . [البخاري (٤٧٩٠)] .

وبنزول هذه الآية كان تشريع الحجاب في الإسلام بالنِّسبة لأزواج النَّبيِّ ﷺ ، والمراد عدم إبداء شيءٍ من أجسامهنَّ للأجانب عنهنَّ ، وعدم محادثتهنَّ ، أو طلب شيءٍ منهن إلا من وراء حجاب ، أي : سِترٍ يكون بينهنَّ ، وبين غيرهنَّ ، ولمَّا نزلت قال الآباء ، والأبناء ، والأقارب لرسول الله ﷺ : ونحن أيضاً نكلمهنَّ من وراء حجاب؟

فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴾ [الأحزاب : ٥٥] .

ونزل أيضاً في شأن نساء النَّبيِّ في أدب الخطاب والإقامة في البيوت قوله تعالى : ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾ [الأحزاب : ٣٢ ـ ٣٣]

---

(١) الجعد بن دينار ، أبو عثمان اليشكريُّ ، البصريُّ ، من أصحاب أنس .

وجمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآية وإن كانت خطاباً لأزواج النَّبيِّ ﷺ فحكمها لجميع نساء الأمَّة، وإنَّما خصَّ نساء النَّبيِّ لمنزلتهنَّ، وعظم فضلهنَّ، ومكانتهنَّ من النَّبي ﷺ[١]، وقد قال الإمام القرطبيُّ في تفسيره: «معنى هذه الآية: الأمر بلزوم البيت، وإن كان الخطاب لنساء النَّبيِّ ﷺ فقد دخل غيرهنَّ فيه بالمعنى، هذا لو لم يرد دليلٌ يخصُّ جميع النِّساء، كيف والشَّريعة طافحةٌ بلزوم النِّساء بيوتهنَّ، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورةٍ على ما تقدَّم من غير موضعٍ؟!»[٢].

وقد فصَّل ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم ما يتعلَّق بالنِّساء المسلمات: من غضِّ البصر، وحفظ الفروج، وعدم إبداء مواضع الزِّينة من عنقٍ، وساقٍ، وعضُدٍ، وساعدٍ، وشعرٍ، ونحوها من العورة الظَّاهرة إلا للمحارم[٣]، وقد جاء ذلك في سورة النُّور، وقد بينت السُّنَّة النَّبويَّة كل ما يتعلَّق بالنِّساء من احتجاب، وتصوُّنٍ، وتعفُّفٍ، وعدم السُّفور، والخلاعة، والابتذال بما لا مزيد عليه[٢].

هذه بعض الدُّروس، والعبر استُخرجت من قصَّة زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، وما واكب ذلك الزَّواج من نزول آياتٍ بيِّناتٍ في أحكام الحجاب، وما شرع من آداب الضِّيافة.

هذا وقد توفِّيت زينت بنت جحش رضي الله عنها سنة عشرين من الهجرة، وعمرها ثلاث وخمسون سنة، وكانت كما أخبر النَّبيُّ ﷺ أوَّل نسائه لحاقاً به. [البخاري (١٤٢٠)، ومسلم (٢٤٥٢)][٤]، وقد بلغت مرويَّاتها عن النَّبيِّ ﷺ ـ وفق كتاب بقي بن مخلد ـ أحد عشر حديثاً[٥]، ولها في الكتب السِّتَّة خمسةُ أحاديث[٦]، اتُّفق لها في البخاريِّ، ومسلمٍ على حديثين[٧]، فقد تركت ذكراً طيباً في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة[٨].

* * *

---

(١) انظر: السنّة النبوية، لأبي شهبة (٢/ ٣١٢).
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (١٤/ ١٧٩).
(٣) انظر: السُّنَّة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٣١٢).
(٤) انظر: الطبقات الكبرى (٨/ ١١٥).
(٥) انظر: تلقيح الفهوم، لابن الجوزي، ص ٣٧٠.
(٦) انظر: تحفة الأشراف، للمزِّي (١١/ ٣٢١ ـ ٣٢٣).
(٧) انظر: سير أعلام النُّبلاء (٢/ ١٢١).
(٨) انظر: دور المرأة في خدمة الحديث، ص ٨٥.

المبحث الثاني

«الآن نغزوهم ، ولا يغزوننا»

[البخاري (٤١١٠) ، وأحمد (٤/ ٢٦٢)].

كان ﷺ يعمل حساب كلِّ القوى المجاورة ، ولا يغفل عن أيِّ قوَّة منها ، وقد صرَّح بعد غزوة الخندق بأنَّ الخطَّة القادمة هي غزو قريش ؛ فقد تغيرت موازين القوى ، وأصبح المسلمون لهم القدرة على الهجوم أكثر مِنْ قبل ، فسعى ﷺ لبسط سيادة الدَّولة على ما تبقَّى من قوى حول المدينة ؛ لأنَّ ذلك له صِلةٌ بالإعداد لغزو قريش في مرحلةٍ لا حقةٍ ، فقد قام ﷺ خلال عامٍ واحدٍ ـ العام السَّادس ـ بغزوتين ، وأرسل أربع عشرة سريَّةً ، غير ما قام به في نهاية العام الخامس الهجري ، وهذه الأعمال والتَّحرُّكات قصد منها المزيد من إنهاك قوى قريش بإحكام الحصار ، وتقليم أظفارها من خلال اقتطاع كلِّ ما يمدُّها بالقوَّة من حلفائها[1] فقد استثمر رسول الله ﷺ ، وأصحابه ما حقَّقوه من نجاح في صدِّ الأحزاب ، وإفشال خططهم ، وردِّهم كيد يهود بني قريظة في نحورهم ، فباشروا نشاطاً واسع النِّطاق ضدَّ خصومهم على الجبهات كافة ، فقد ضيّقوا الخناق الاقتصاديَّ على قريشٍ من جديدٍ ، كما نفَّذوا العديد من السَّرايا لمعاقبة المشركين في الأحزاب من جهةٍ ، أو للثأر من القبائل الَّتي كانت قد غدرت بالدُّعاة ، أو ناصبت الإسلام العداء ، وقد تمثَّل النشاط العسكريُّ الإسلاميُّ خلال هذه الفترة فيما يلي :

أولاً : سريَّة محمَّد بن مسلمة إلى بني القرطاء :

كانت العشائر النَّجديَّة من أجرأ العناصر البدويَّة الوثنيَّة على المسلمين ؛ لأن النَّجديين أهل قوَّةٍ ، وبأسٍ ، وعددٍ غامرٍ ، وقد رأينا كيف أنَّ العمود الفقريَّ لقوَّات الأحزاب الضَّاربة كان من هذه القبائل النَّجديَّة ؛ حيث كان رجال هذه القبائل الشَّرسة يشكِّلون الأغلبيَّة السَّاحقة من تلك القوَّة الضَّاربة ، ستة آلاف مقاتل من غطفان ، وأشجع ، وأسلم ، وفزارة ، وأسد ، كانت ضمن الجيوش الَّتي قادها أبو سفيان لحرب المسلمين ، فحاصرهم أهل المدينة .

ولهذا فإنَّ أوَّل حملةٍ عسكريَّةٍ وجَّهها النَّبيُّ ﷺ لتأديب خصومه بعد غزوة الأحزاب هي تلك

(١) انظر : دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ١٣٩ .

الحملة الَّتي جرَّدها على القبائل النَّجديَّة من بني بكر بن كلاب؛ الَّذين كانوا يقطنون القرطاء بناحية ضرية[١] على مسافة سبع ليالٍ من المدينة، ففي أوائل شهر المحرَّم عام خمس للهجرة، وبعد الانتهاء مباشرة من القضاء على يهود بني قريظة وجَّه ﷺ[٢] سريَّةً من ثلاثين من أصحابه عليهم محمَّد بن مسلمة لشنِّ الغارة على بني القرطاء من قبيلة بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من محرَّم سنة (٦ هـ)[٣]، وقد داهموهم على حين غِرَّةٍ، فقتلوا منهم عشرةً، وفرَّ الباقون، وغنم المسلمون إبلَهم، وماشيتهم، وفي طريق عودتهم أسروا ثُمامةَ بن أثال الحنفيَّ سيِّد بني حنيفة، وهم لا يعرفونه، فقدموا به المدينة، وربطوه بساريةٍ من سواري المسجد، فخرَج إليه النَّبيُّ ﷺ، فقال: «ماذا عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي خيرٌ يا محمد! إن تقتلني، تقتل ذا دمٍ، وإن تُنعم؛ تُنعم على شاكرٍ، وإن كنت تريد المال؛ فسل منه ما شئت. فتركه حتَّى كان الغد، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك: إنْ تُنعم؛ تنعم على شاكرٍ.

فتركه حتَّى كان بعد الغد، فقال: «ما عندك يا ثُمامة؟!» فقال: عندي ما قلت لك. فقال: «أطلقوا ثُمامة» فانطلق إلى نخلٍ قريبٍ من المسجد، فاغتسل، ثمَّ دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّداً رسولُ الله، يا محمد! والله! ما كان على الأرض وجهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهُك أحبَّ الوجوه إليَّ، والله! ما كان دينٌ أبغضَ إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحبَّ الدِّين إليَّ، والله! ما كان بلدٌ أبغضَ إليَّ من بلدك، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد إليَّ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العُمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسولُ الله ﷺ، وأمره أن يعتمر.

فلمَّا قدم مكَّة؛ قال له قائل: صَبَوْتَ؟ قال: لا والله! ولكنِّي أسلمت مع محمَّدٍ رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّةُ حنطةٍ حتَّى يأذن فيها النَّبيُّ ﷺ [البخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤/٥٩)][٤].

وقد برَّ بقسمه ممَّا دفع وجوه مكَّة إلى أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثُمامة ليخلِّيَ لهم حمل الطَّعام[٥]، فاستجاب النَّبيُّ ﷺ لرجاء قومه بالرَّغم من أنه في حالة حربٍ معهم، وكتب إلى سيِّد بني حنيفة ثُمامة: «أن خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم». فامتثل ثُمامة

---

(١) قريةٌ عامرةٌ قديمةٌ على وجه الدَّهر في طريق مكَّة من البصرة من نجدٍ.
(٢) انظر: صلح الحديبية، لباشميل، ص ٢٤.
(٣) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، المغازي، ص ٣٥١.
(٤) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٠).
(٥) المصدر السابق نفسه.

أمر نبيِّه ، وسمح لبني حنيفة باستئناف إرسال المحاصيل إلى مكَّة ، فارتفع عن أهلها كابوس المجاعة[١].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ؛ منها :

١ ـ جواز ربط الكافر في المسجد .

٢ ـ جواز المنِّ على الأسير الكافر ، وتعظيم أمر العفو عن المسيء ، لأنَّ ثُمامة أقسم : أنَّ بغضه انقلب حبّاً في ساعةٍ واحدةٍ ، لما أسداه النَّبيُّ ﷺ إليه من العفو والمنِّ بغير مقابل .

٣ ـ الاغتسال عند الإسلام كما فعل ثُمامة حين أسلم .

٤ ـ الإحسان يُزيل البُغض ، ويُنبت الحُبَّ .

٥ ـ يشرع للكافر إذا أراد عمل خيرٍ ثمَّ أسلم أن يستمرَّ في عمل ذلك الخير .

٦ ـ الملاطفة لمن يُرجى إسلامه من الأسارى ، إذا كان في ذلك مصلحةٌ للإسلام ، ولاسيَّما مَنْ يتبعُه على إسلامه العددُ الكثيرُ مِنْ قومه[٢] .

٧ ـ الإسلام يُغيِّر سلوك المؤمن حين يضع المسلم قدراته تحت الإسلام والمسلمين ، كما فعل ثُمامة بعدم إرساله القمح لأهل مكَّة إلا بإذنٍ من الرَّسول ﷺ .

٨ ـ ينبغي أن يخلع المؤمن على عتبة الإيمان وعند تركه للكفر كلَّ علاقاته السَّابقة ، ثمَّ يلتزم بأوامر ربِّ العالمين بعد إيمانه[٣] .

ثانياً : سَرِيَّة أبي عبيدة بن الجرَّاح إلى سيف البحر :

تعتبر سرية أبي عبيدة إلى سيف البحر استمراراً لسياسة النَّبيِّ ﷺ العسكريَّة لإضعاف قريش ، ومحاصرتها اقتصادياً على المدى الطَّويل ، فقد بعث ﷺ أبا عبيدة ابن الجراح في ثلاثمئة راكبٍ قِبَل السَّاحل ؛ ليرصدوا عيراً لقريش ، وعندما كانوا ببعض الطَّريق فني الزَّاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش ، فجُمع ، فكان قَدْرَ مِزْوَدِ تمرٍ ، يقوتهم منه كلَّ يوم قليلاً قليلاً ، حتَّى كان أخيراً نصيب الواحد منهم تمرةً واحدةً ، وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف ، فتقبَّلوا هذا الإجراء بصدورٍ رَحْبَةٍ دون تذمُّرٍ ، أو ضجرٍ ، بل إنَّهم ساهموا في خطَّة قائدهم التَّقشُّفيَّة ، فصاروا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقتٍ ممكنٍ[٤] ، يقول جابر رضي الله عنه أحد أفراد هذه

---

(١) انظر : السِّيرة الحلبيَّة (٢/٢٩٨) ، والاستيعاب ، لابن عبد البرِّ : ترجمة ثُمَامَة بن أُثَال الحنفيِّ .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٨٧ .
(٤) انظر : السرايا والبعوث النبوية ، ص ١١٨ .

السَّرِيَّة : (كنَّا نمصُّها كما يمصُّ الصَّبيُّ ، ثمَّ نشرب عليها من الماء ، فتكفينا يومنا إلى اللَّيل)[١] ، وقد سأل وهب بن كيسان جابراً رضي الله عنه : ما تغني عنكم تمرةٌ؟ فقال : لقد وجدنا فقدها حين فَنِيَتْ . [البخاري (٤٣٦٠) ، ومسلم (١٩٣٥/١٨)] .

وقد اضطر ذلك الجيش إلى أكل ورق الشَّجر ، قال جابر رضي الله عنه : وكنَّا نضرب بعصيِّنا الخَبَط[٢] ، ثمَّ نبلُّه بالماء ، فنأكله[٣] ، «فسمِّي ذلك الجيش جيش الخَبَط»[٤] ، وقد أثَّر هذا الموقف في قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أحد جنود هذه السَّريَّة الشُّجاعة ، وهو رجلٌ من أهل بيت اشتُهر بالكرم ، فنحر للجيش ثلاث جزائر[٥] ، ثمَّ نحر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثمَّ إنَّ أبا عبيدة نهاه . [البخاري (٤٣٦١) ، ومسلم (١٩٣٥/ ١٩)] .

فبينما هم كذلك من الجوع ، والجهد الشَّديدين ، إذ زفر البحر زفرةً أخرج الله فيها حوتاً ضخماً ، فألقاه على الشَّاطئ ، ويصف لنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مقدار ضخامة هذا الحوت العجيب ، فيقول: وانطلقنا على ساحل البحر ، فرُفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضَّخم[٦] ، فأتيناه فإذا هي دابةٌ تدعى العنبر[٧] ، قال: قال أبو عبيدة: ميتةٌ ، ثمَّ قال: لا ، بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله ، وقد اضطررتم ، فكلُوا ، قال: فأقمنا عليه شهراً ، ونحن ثلاثمئة حتَّى سَمِنَّا ، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وَقْب[٨] عينيه بالقِلال[٩] الدُّهنَ ، ونقتطع منه الفِدرَ[١٠] كالثَّور ، أو قدر الثَّور ، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينيه ، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ، ثمَّ رحَّل أعظمَ بعيرٍ منا ، فمرَّ من تحتها[١١] وتزوَّدنا من لحمه وشائق ، فلمَّا قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ[١٢] ، فقال :

---

(١) مسلم شرح النووي (١٣/ ٨٤) ، باب: إباحة ميتات البحر ، وأبو داود (كتاب الأطعمة) ، باب: (في دواب البحر) .
(٢) الخبط: ضرب الشجر بالعصا ليناثر ورقها ، واسم الورق الساقط: خَبَط .
(٣) شرح النووي (٣١/ ٨٤) .
(٤) البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة سيف البحر ، رقم (٤٣٦١) .
(٥) جمع جزور ، والجزور: البعير ، أو خاص بالناقة .
(٦) الكثيب: التل من الرمل .
(٧) العنبر: سمكة كبيرة يتخذ من جلدها التراس .
(٨) الوقب: النُّقرة التي تكون فيها العين .
(٩) القلال: جمع قُلَّة ، وهي الجرَّة العظيمة .
(١٠) الفدر: جمع فدرة وهي القطعة من اللَّحم .
(١١) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ١٢١ .
(١٢) انظر: شرح النَّووي (١٣/ ٨٥ ـ ٨٧) .

«ما حبسكم؟» قلنا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدَّابة[١]، فقال: «هو رزقٌ أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ، فتطعمونا» قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله. [البخاري (٤٣٦٢)، ومسلم (١٤٣٥/١٧)][٢].

كانت هذه السَّريَّة على الأرجح قبل صلح الحديبية، وليس في رجب سنة ثمانٍ كما ذكر ابنُ سعدٍ[٣]، وذلك لسببين: السَّبب الأول: أنَّ الرَّسول ﷺ لم يغزُ، ولم يبعث سَرِيَّةً في الشَّهر الحرام، والثَّاني: أنَّ رجب سنة ثمانٍ هو ضمن فترة سريان صلح الحديبية[٤].

وذكر ابن سعدٍ، والواقديُّ[٥]: أنَّ النبي ﷺ بعثهم إلى حيٍّ من جهينة، وقال ابن حجر[٦]: إنَّ هذا لا يغاير ظاهره مافي الصَّحيح؛ لأنَّه يمكن الجمع بين كونهم يتلقَّون عيراً لقريشٍ، ويقصدون حيّاً من جُهينة، ويحتمل أن يكون تلقيهم للعير ليس لمحاربتهم، بل لحفظهم من جهينة، ويقوِّي هذا الجمع ما عند مسلمٍ، أنَّ البعث كان إلى أرض جُهينة [مسلم (١٩٣٥/٢١)][٧].

وفي هذه القصَّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ حكمة أبي عبيدة رضي الله عنه حيث جمع الأزواد، وسوَّى بين المجاهدين في التوزيع؛ ليستطيع تجاوز الأزمة بهم، وذلك درسٌ تعلَّمه من رسول الله ﷺ عمليّاً أكثر من مرَّةٍ.

٢ ـ كرمُ قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما في وقت عصيب، ليس بيده يومها ما يخفِّف عن الناس، ففي رواية الواقديِّ: أنَّ قيس بن سعد رضي الله عنه استدان هذه النُّوق من رجلٍ جُهَنِيٍّ، وأنَّ أبا عبيدة رضي الله عنه نهاه قائلاً: تريد أن تخفر ذمَّتك، ولا مال لك[٨]، فأراد أبو عبيدة الرِّفق به[٩].

وقد بدأ قيس بن سعد ينحر، وينحر حتَّى نهاه أبو عبيدة، فقال له قيس بن سعد: يا أبا عبيدة! أترى أنَّ أبا ثابتٍ يقضي ديون النَّاس، ويحمل الكلَّ، ويطعم في المجاعة،

---

(١) صحيح سنن النسائي، للألباني رحمه الله (٣/ ٩١٠).
(٢) شرح النَّووي (١٣/ ٨٧).
(٣) انظر: الطبقات، لابن سعدٍ (٢/ ١٣٢)، والمغازي، للذَّهبي، ص ٥١٩.
(٤) انظر: المجتمع المدني، للعمري، ص ١٢٥.
(٥) انظر: المغازي (٢/ ٧٧٤)، والسِّيرة النَّبويَّة على ضوء مصادرها الأصليَّة، ص ٤٨٠.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة، ص ٤٨٠.
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣٢٣، والسرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ١١٩.
(٩) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ١١٩.

لا يقضي عنِّي تمر القوم مجاهدين في سبيل الله[١]، وقال ذلك قيس لأبي عبيدة لأنَّه قد اتَّفق مع رجلٍ من جهينة على أن يشتري منه نوقاً ينحرها للجيش على أن يعطيه بدل ذلك تمراً بالمدينة، وقد وافق الجهنيُّ على تلك الصَّفقة.

عندما علم سعد بن عبادة بنهي أبي عبيدة لقيس بحجَّة: أنَّه لا مال له، وإنَّما المال لأبيه؛ وهب ابنه أربع حوائط أدناها يُجَذُّ منه خمسون وَسْقاً[٢].

٣ ـ الحلال والحرام:

إنَّ المسلمين في هذه السَّريَّة بلغ بهم الجوع غايته، فكانت التَّمرة الواحدةُ طعامَ الرَّجل طوال يومٍ كامل في سفرٍ، ومشقَّةٍ، ويمرُّون وهم على تلك الحال من فقد التَّمر، وأكل الخبط على الجهنيِّ ـ الَّذي اشترى منه قيس ـ أو على قومه، فما يخطر بفكرهم أن يغيروا عليهم لينتزعوا منهم طعامهم، كما كانت الحال في الجاهليَّة؛ لأنَّهم اليوم ينطلقون بدين الله الَّذي جاء ليحفظ على النَّاس أموالهم ـ في جملة ما حفظ ـ وهم اليوم يفرِّقون بين الحلال، والحرام الَّذي تعلَّموه من منهج ربِّ العالمين[٣].

٤ ـ جواز أكل ميتة البحر:

وتدل القصَّة على جواز أكل ميتة البحر، وأنَّها لم تدخل في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

وقد قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦].

وقد صحَّ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيق، وعبد الله بن عباسٍ، وجماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم: (أنَّ صيد البحر ما صيد منه، وطعامهُ ما مات فيه).

وفي السُّنن عن ابن عمر مرفوعاً، وموقوفاً: (أُحلَّت لنا ميتتان، ودمان: فأمَّا الميتتان؛ فالسَّمك، والجراد، وأمَّا الدَّمان؛ فالكبِد، والطِّحال) [أحمد (٢/ ٩٧)، وابن ماجه (٣٢١٨)، والدارقطني (٤/ ٢٧١ و٢٧٢)] حديثٌ حسنٌ، وهذا الموقوف في حكم المرفوع؛ لأنَّ قول

---

(١) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣٢٣ نقلاً عن الزُّرقاني في شرحه (٢/ ٢٨٢).
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٢٤.

الصَّحابي: (أُحِلَّ لنا كذا، وحُرِّم علينا) ينصرف إلى إحلال النَّبيِّ ﷺ وتحريمه[١]، كما أنَّ في أكل الرَّسول ﷺ من لحم الحوت الَّذي تغذَّى منه المسلمون مدَّةً دليلاً على مشروعية أكل ميتة البحر[٢]، كما يستحبُّ للمفتي أن يتعاطى بعض المباحات الَّتي يشكُّ فيها المستفتي؛ إذا لم يكن فيه مشقَّةٌ على المفتي، وكان فيه طمأنينةٌ للمستفتي، قاله النَّوويُّ[٣].

٥ ـ بعض الأحكام الَّتي ذكرها الإمام النَّوويُّ:

قال النَّوويُّ: في هذا الحديث جواز صدِّ أهل الحرب، واغتيالهم، والخروج لأخذ مالهم، واغتنامه، وأنَّ الجيوش لابدَّ لها من أميرٍ يضبطها، وينقادون لأمره، ونهيه، وأنَّه ينبغي أن يكون الأمير أفضلَهم، أو مِنْ أفضلِهم، قالوا: ويستحبُّ للرُّفقة من النَّاس، وإن قلُّوا أن يؤمِّروا أحدهم عليهم، وينقادوا له، قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: يستحب للرُّفقة من المسافرين خلط أزوادهم، ليكون أبركَ، وأحسنَ في العشرة وألاَّ يختص بعضهم بأكلٍ دون بعضٍ، والله أعلم[٤].

ثالثاً: سرية عبد الرَّحمن بن عوفٍ إلى دومة الجندل:

كانت هذه السَّريَّة قد وجهت إلى أبعد مدىً وصلت إليه الجيوش النَّبويَّة في الجزيرة العربيَّة، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشَّام، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق، وهي تقوم في قلب الصَّحراء العربيَّة واسطة الصِّلة بين الرُّوم في أرض الشَّام، والعرب في الجزيرة، وسكَّانها من قبيلة كلبٍ الكبرى، وقد دخلوا في النَّصرانية نتيجة جوارهم، وتأثُّرهم بجوار الرُّوم النَّصارى، وهذه السَّريَّة تدخل ضمن مخطَّط النَّبيِّ ﷺ في احتكاكه مع الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة.

وأمَّا أمير السَّرِيَّة فهو عبد الرَّحمن بن عوف أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، ومن رجال الرَّعيل الأوَّل، فقد كان أحد الدَّعائم الكبرى للدَّعوة الإسلاميَّة منذ دخوله فيها على يد الصِّدِّيق رضي الله عنه.

ومهمَّة هذه السَّرية ذات جانبين: مهمَّةٌ دعويَّةٌ، ومهمَّةٌ حربيَّةٌ؛ لذلك انتدب لها عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي تربَّى على محض الإسلام منذ أيَّامه الأولى[٥].

---

(١) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ١٢٣.
(٢) انظر: السِّيرة النبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة، ص ٤٨٠.
(٣) شرح النَّوويِّ على مسلم (١٣/ ٨٦).
(٤) المصدر السابق نفسه (١٣/ ٨٦).
(٥) التَّربية القياديَّة (٤/ ١٦٧، ١٦٨).

وعن هذه السَّريَّة حدَّثنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فقال: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف، فقال: «تجهَّز فإنِّي باعثك في سريَّةٍ في يومك هذا، أو من غدٍ إن شاء الله»، قال ابن عمر: فسمعت ذلك، فقلت: لأدخلنَّ، فلأُصلِّينَّ مع النَّبيِّ الغداة، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرَّحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ، فصلَّيت، فإذا أبو بكرٍ، وعمر رضي الله عنهما، وناسٌ من المهاجرين فيهم عبد الرَّحمن بن عوف، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمَره أن يسير من اللَّيل إلى دومة الجندل، فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرَّحمن: «ما خلَّفك عن أصحابك؟» قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السَّحر، فهم معسكرون بالجُرْف، وكانوا سبعمئة رجلٍ، فقال: أحببت يا رسول الله! أن يكون آخر عهدي بك، وعليَّ ثياب سفري.

قال: وعلى عبد الرَّحمن بن عوفٍ عمامةٌ قد لفَّها على رأسه، قال ابن عمر: فدعاه النَّبيُّ ﷺ فأقعده بين يديه، فنقض عمامته بيده، ثمَّ عمَّمه بعمامةٍ سوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثمَّ قال: «هكذا فاعتم يا بن عوف!» قال: وعلى ابن عوف السَّيف مُتوشِّحه، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: «اغزُ باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تَغُلَّ، ولا تغدر، ولا تقتُل وليداً». قال ابن عمر رضي الله عنهما: ثمَّ بسط يده، فقال: «يا أيها النَّاس! اتقوا خمساً قبل أن يُحلّ بكم: ما نقص مكيالُ قومٍ إلا أخذهم الله بالسِّنين، ونقصٍ من الثَّمرات لعلَّهم يرجعون، وما نكث قومٌ عهدهم إلا سلَّط الله عليهم عدوَّهم، وما منع قوم الزَّكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السَّماء، ولولا البهائم لم يُمْطَرُوا، وما ظهرت الفاحشة في قومٍ إلا سلط الله عليهم الطَّاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم الله شيعاً، وأذاق بعضهم بأس بعض»[1].

قال: فخرج عبد الرَّحمن حتى لحق أصحابه، فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلمَّا حلَّ بها، دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أوَّل ما قدم لا يعطونه إلا السَّيف، فلمَّا كان اليوم الثَّالث أسلم الأصبغ بن عمروٍ الكلبيُّ، وكان نصرانيّاً، وكان رأسهم، فكتب عبد الرحمن إلى النَّبيِّ ﷺ يخبره بذلك، وبعث رجلاً من جُهينة يقال له: رافع بن مكيث، وكتب يخبر النَّبي ﷺ: أنَّه أراد أن يتزوَّج فيهم، فكتب إليه النَّبيّ ﷺ أن يتزوَّج بنت الأصبغ تماضر، فتزوَّجها عبد الرحمن، وبنى بها، ثمَّ أقبل بها، وهي أمُّ أبي سلمة بن عبد الرَّحمن بن عوف، وذكر الواقديُّ: أنَّ هذه السَّريَّة في شعبان سنة ستٍّ. [البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٨٥)][2].

---

(١) نصب الرَّاية للزيلعي (كتاب الصُّلح)، وكنز العمَّال للمتَّقي الهندي (بعث عبد الرحمن).

(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦١).

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ، وعبرٌ، منها:

١ ـ تواضع النَّبيِّ ﷺ لأصحابه، وشفقته عليهم، حيث ألبس عبد الرَّحمن بن عوف عمامته بيده، وهذا التَّواضع منه ﷺ يرفع من معنويات الصَّحابة رضي الله عنهم، ويدفعهم إلى بذل المزيد من الطَّاقة في سبيل خدمة هذا الدِّين؛ لأنَّ التَّلاحم والمودَّة بين القائد وجنوده من أهمِّ عوامل نجاح العمل، وتحقيق الأهداف[١].

٢ ـ كان جيش عبد الرَّحمن جيش مبادئ، وعقيدةٍ، فتحرَّك ضارباً في هذه الصَّحراء المترامية يحمل شرع الله إلى خلقه، وهدي رسوله إلى أمَّته، مستوعباً لمقاصد الجهاد، وأحكامه، فالجهاد ليس باسم محمَّد ﷺ، فهو عبد الله، ورسوله، ولا مكان لزعيمٍ، أو أمَّة، أو قبيلةٍ، أو رايةٍ، أو وطنٍ، أو جيشٍ، أو قوميَّةٍ بجوار هذه الرَّاية الخفَّاقة في هذا الوجود؛ راية الله تعالى. «اغزُ باسم الله» فحزب الله تعالى هو الَّذي يحيي هذه الصَّحراء الظَّمأى بغيث العقيدة الخالصة؛ عقيدة التَّوحيد[٢]، وهدفهم من هذا التحرُّك في سبيل الله وحدَه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

قتالهم لمن كفر بالله وليس القتال على المبدأ الجاهليِّ:

وأحيـانـاً عَلَـىٰ بَكْـرٍ أَخِينَـا ... إِذَا مَـا لَـمْ نَجِـدْ إلاَّ أَخَـانَـا

أمَّا هذا الجيش القويُّ الفتي، فهو يمضي في الأرض قُدُماً؛ ليقاتل من كفر بالله[٣].

٣ ـ ثمَّ نهى رسول الله ﷺ عبد الرَّحمن بن عوفٍ عن الغُلول، وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، ونهاه عن الغَدْر في العهود، وعن قتل الوِلْدان، وتلك نماذج من الأدب الإسلاميِّ في الجهاد، فالقتال نوعٌ من العنف، والقسوة، ولكنَّه بالنسبة للمسلمين؛ الَّذين طهَّر الله تعالى قلوبهم من الغلِّ، والحسد أمرٌ عارضٌ لإحقاق الحقِّ، وإزهاق الباطل، وحماية المحقِّين من المبطلين، وليس متأصِّلاً في نفوسهم، ولذلك كان محفوفاً بالآداب السَّامية الَّتي تجعل الإنسان الواحد جامعاً بين منتهى القوَّة، والبطش، ومنتهى الرَّحمة، والعطف[٤].

٤ ـ كان عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه سيِّداً من سادات هذه الأمَّة، وواحداً من أكبر دُعاتها، فهو يملك من الحلم، والحكمة، والثَّقافة، والتَّجربة، والعبقريَّة، والقِدَم في

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٦/ ١٨٤).
(٢) انظر: التَّربية القياديَّة (٤/ ١٧١).
(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٧٢).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي، للحميدي (٦/ ١٨٤)

الإسلام ، والبلاء فيه ما لا يملكه غيره ، ولهذا بذل كلَّ طاقاته لتحقيق الهدف الرَّئيسيِّ الأوَّل ، وهو الدُّخول في الإسلام ، وكان متريثاً هادياً خبيراً بالنُّفوس والقلوب ، فشحن كلَّ الإمكانات الفكريَّة ، والحركيَّة لإنجاح هذه المهمَّة العظمى ، وتكلَّل عمله بفضل الله تعالى بالنَّجاح الكبير ، وخاصَّة : أنَّ الجهد انصبَّ على إقناع الرَّئيس ، حسب توجيهات المصطفى ﷺ .

٥ ـ إنَّ إسلام سيد بني كلب في دومة الجندل الأصبغ بن عمرو على يد عبد الرَّحمن بن عوف ، يذكرنا بجعفر بن أبي طالب الَّذي أسلم على يديه النَّجاشي ملك الحبشة ، ومصعب بن عمير بالمدينة حيث استجاب له سادات الأوس ، والخزرج وزعامتُهم للإسلام ، وهذه الشَّخصيَّات العُظمى الثلاثة هم من الرُّوَّاد الأوائل ، ومن المؤسِّسين في المدرسة الإسلاميَّة الأولى بمكَّة المكرَّمة .

هذا عبد الرَّحمن بن عوف الَّذي أصيب بواحدٍ وعشرين جرحاً (أي : في غزوة أحدٍ) أدَّت بعضها إلى أن يكون عنده عرجٌ من شدَّتها ؛ يصنع ركائز العقيدة الإسلاميَّة بجيشه المظفَّر شمال الجزيرة العربيَّة وينضمُّ الكثيرون إلى الإسلام ؛ لتغدو دومة الجندل موقعاً جديداً من المواقع الإسلاميَّة ، في هذه الأطراف النائية ، فلا غنى للمسلمين عن هذه القلعة ، وعن هذه الموقعة للمستقبل القريب في المواجهة مع العرب ، والرُّوم المناوئين للإسلام[1] .

وهذه أوَّل مرَّةٍ يحكم الإسلام خارج حدوده ، ويتعايش المسلمون ، والنَّصارى في دولةٍ واحدةٍ ، فالَّذين أسلموا تُطَبَّق عليهم أحكام الإسلام ، والَّذين بقوا على نصرانيتهم تؤخذ منهم الجزية ، وكان هذا الانفتاح تدريباً جديداً للصَّحابة على المجتمعات الجديدة الَّتي سينتقلون إليها فيما بعد ، وينساحون في العراق ، والشَّام ، وفي قلب فارس ، والرُّوم ؛ ليعلِّموا النَّاس : أنَّ العقيدة تنبني من خلال الحوار ، لا من خلال السَّيف ، وأنَّ مبادئ الإسلام لها قوَّتها الذَّاتية الَّتي تشعُّ أنوارها على المجتمعات التي قد انغمست في الظَّلام البهيم[2] .

٦ ـ إنَّ زواج عبد الرَّحمن بن عوف من ابنة سيد بني كلب زعيم دومة الجندل يقوِّي الرَّوابط بين الزَّعيم المسلم الجديد بدومة الجندل ، وبين دولة الإسلام في المدينة ، ويربط مصيره بمصير دولة الإسلام ، ومصير الإسلام نفسه حين يشعر : أنَّ فلذة كبده مقيمةٌ في العرين الإسلاميِّ الَّذي أصبح يحنُّ له حنينه لأرضه ، وبلده[1] .

وقد كان ﷺ يحرص على أن يتزوَّج هو وقادتُه ببنات سادة القبائل ؛ لأنَّ ذلك كسبٌ كبيرٌ

---

(١) انظر : التربية القيادية (٤/ ١٧٤) .
(٢) انظر : التَّربية القياديَّة (٤/ ١٧٤) .

لدعوة الإسلام ، حيث تكون المصاهرة سبباً في القرب ، وامتصاص أسباب العداء ، ثمَّ الدُّخول في الإسلام[١] .

رابعاً: تأديب الغادرين: غزوة بني لحيان ، وغزوة الغابة ، وغيرهما:

١ ـ بعد رحيل الأحزاب انتقل المسلمون من دور الدِّفاع إلى دور الهجوم ، وأصبحوا يمسكون بأيديهم زمام المبادرة ، وحان الوقت لتأديب بني لحيان ـ الَّذين غدروا بِخُبيب ، وأصحابه يوم الرَّجيع ـ وأَخْذ ثأر الشُّهداء ، فخرج إليهم في مئتي صحابيٍّ ، في ربيعٍ الأوَّل ، أو جمادى الأولى سنة ستٍّ من الهجرة[٢] .

أ ـ تضليل العدوِّ:

كانت أرض بني لحيان من هُذيل تبعد عن المدينة أكثر من مئتين من الأميال ، وهي مسافةٌ بعيدة ، يلاقي مشاقاً كبيرة كلُّ مَنْ يريد قطعها ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ كان حريصاً على الاقتصاص لأصحابه من الَّذين استُشْهدوا (غَدْراً) على يد هذه القبائل الهمجيَّة الَّتي لا قيمة للعهود عندها .

وكما هي عادة النَّبيِّ ﷺ في تضليل العدوِّ الَّذي يريد مهاجمته ، اتَّجه بجيشه نحو الشَّمال ، بينما تقع منازل بني لحيان في أقصى الجنوب .

وقد أعلن النَّبيُّ ﷺ قبل تحرُّكه نحو الشَّمال: أنَّه يريد الإغارة على الشَّام ، وحتَّى أصحابه لم يعلموا: أنَّه يريد بني لحيان إلا عندما انحرف بهم نحو الجنوب ، بعد أن اتَّجه بهم متوغِّلاً نحو الشَّمال حوالي عشرين ميلاً . . . في حركةٍ تمويهيَّةٍ ـ على العدوِّ ـ بارعةٍ .

وكان تغيير خطِّ سيره من الشَّمال إلى الجنوب عند مكانٍ يقال له: (البتراء) ، ففي ذلك المكان عطف بجيشه نحو الغرب حتَّى استقام على الجادة مُنصباً نحو الجنوب[٣] .

ب ـ فرار اللِّحيانيِّين قبل وصول النَّبيِّ ﷺ:

كانت بنو لحيان على غاية التَّيقُّظ ، والانتباه ، فقد بثَّت الأرصاد ، والجواسيس في الطُّرق ليتحسَّسُوا لها ، ويتجسَّسُوا لذلك ، فما كاد النَّبيُّ ﷺ يقترب بجيشه من منازلهم حتَّى انسحبوا منها فارِّين ، وهربوا إلى رؤوس الجبال ، وذلك بعد أن نقلت إليهم عيونُهم خبر اقتراب جيش المسلمين من ديارهم .

ولمَّا وصل النَّبيُّ ﷺ بجيشه عسكر في ديارهم ، ثمَّ بثَّ السَّرايا من رجاله ليتعقبوا هؤلاء

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٦/ ١٨٦) .
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء مصادرها الأصليَّة ، ص ٤٦٨ .
(٣) انظر: صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

الغادرين ، ويأتوا إليه بمن يقدرون عليه ، واستمرَّت السَّرايا النَّبويَّة في البحث والمطاردة يومين كاملين ، إلا أنَّها لم تجد أيَّ أثرٍ لهذه القبائل الَّتي تمنَّعت في رؤوس تلك الجبال الشَّاهقة ، وأقام ﷺ في ديارهم يومين لإرهابهم ، وتحدِّيهم ، وليظهر للأعداء مدى قوَّة المسلمين ، وثقتهم بأنفسهم ، وقدرتهم على الحركة ، حتَّى إلى قلب ديار العدوِّ متى شاؤوا[١] .

ج ـ إرهاب المشركين بمكَّة :

رأى النَّبيُّ ﷺ أن يغتنم فرصة وجوده بجيشه قريباً من مكَّة ، فقرَّر أن يقوم بمناورةٍ عسكريَّةٍ يرهبُ بها المشركين في مكَّة ، فتحرَّك بجيشه حتَّى نزل به وادي عُسفَان[٢] ، وهناك استدعى أبا بكر الصِّدِّيق ، وأعطاه عشرة فوارس من أصحابه ، وأمره بأن يتحرَّك بهم نحو مكَّة ليبثَّ الذُّعر ، والفزع في نفوسهم ، فاتَّجه الصِّدِّيق بالفرسان العشرة نحو مكَّة حتَّى وصل بهم كُراع الغميم[٣] ، وهو مكانٌ قريب جداً من مكَّة ، فسمعت قريش بذلك ، فظنَّت : أنَّ النَّبيَّ ﷺ ينوي غزوها ، فانتابها الخوف ، والفزع ، والرُّعب ، وساد صفوفها الذُّعر ، هذا هو الَّذي هدف إليه النَّبيُّ ﷺ بهذه الحركة الَّتي كلَّف الصِّدِّيق أن يقوم بها .

أمَّا الصِّدِّيق وفرسانه العشرة فبعد أن وصلوا كُراع الغميم ، وعلموا أنَّهم قد أحدثوا الذُّعر ، والفزع في نفوس أهل مكَّة عادوا سالمين إلى النَّبيِّ ﷺ ، فتحرَّك بجيشه عائداً إلى المدينة . [الواقدي (٢/ ٥٣٥ ـ ٥٣٦) ، وابن سعد (٢/ ٧٨ ـ ٨٠) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٥٩٥)][٤] .

د ـ التَّرحُّم على الشُّهداء :

عندما وصل النَّبيُّ ﷺ إلى بطن (غُرَان)[٥] ، حيث لقي الشُّهداءُ من أصحابه مصرعهم على أيدي الخونة مِنْ هُذَيل ؛ تَرَحَّم على هؤلاء الشُّهداء ، ودعا لهم[٦] .

٢ ـ غزوة الغابة[٧] :

لم تكد تمضي ليالٍ قلائلُ على عودة رسول الله ﷺ من غزوته لبني لحيان ، حتَّى أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيلٍ لغطفان ، كان عددها أربعين على لقاح (الإبل الحوامل ذوات الألبان) لرسول الله ﷺ بالغابة ، وقتلوا ذرَّ بن أبي ذرٍّ الغفاري ، وأسروا زوجته ليلى ، واستاقوا

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٦ .
(٢) عسفان : قرية بين مكَّة والمدينة على نحو يومين من مكَّة .
(٣) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكَّة والمدينة ، وهو وادٍ .
(٤) انظر : صلح الحديبية ، ص ٣٧ .
(٥) غُران : بضمِّ أوله : واد بين ساية ، ومكَّة .
(٦) انظر : صلح الحديبية ، ص ٣٨ .
(٧) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشَّام فيه أموالٌ لأهل المدينة .

الإبل الَّتي كان عددها عشرين، ولمَّا علم الرَّسول ﷺ بخبر عُيَيْنَة؛ خرج في خمسمئةٍ من أصحابه في إثره، بعد أن استخلف سعد بن عبادة في ثلاثمئة من قومه، يحرسون المدينة[١].

وعند جبلٍ من ذي قَرَد[٢]، أدرك رسولُ الله ﷺ العدوَّ، فقتل بعضَ أفراده، واستنقذ الإبل[٣].

وقد أبدى سلمةُ بن الأكوع في هذه المعركة بطولةً نادرةً، وخاصَّة قبل وصول كتيبة الفرسان النَّبويَّة؛ حيث كان من ضمن الرُّعاة في منطقة الغابة، وظلَّ بمفرده يشاغل المغيرين، ويراميهم بالنَّبل، وكان من أعظم الرُّماة في عصره، وقد استخلص مجموعةً من الإبل المنهوبة قبل قدوم كتيبة الفرسان[٤].

أمَّا المرأة التي أسرها المغيرون من غطفان وهي زوجة ابن أبي ذرٍّ الَّذي قتله المشركون أثناء الغارة في الغابة، فقد عادت سالمة إلى المدينة بعد أن تمكَّنت من الإفلات من القوم على ظهر ناقةٍ تابعةٍ لرسول الله ﷺ، وقد نذرت إن نجَّاها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لتنحرنَّ تلك النَّاقة، فلمَّا أخبرت النَّبيَّ ﷺ عن نذرها؛ تبسَّم، وقال: «بئسما جزيتيها» أي: أنَّها حملتك، ونجت بك من الأعداء فيكون جزاؤها النَّحر؟! ثمَّ قال لها ﷺ: لا نذر في معصية الله، ولا فيما لا تملكين. [أحمد (٤/ ٤٣٠)، ومسلم (١٦٤١)، وأبو داود (٣٣١٦)][٥].

وقد عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن أمضى خمس ليالٍ خارجها[٦].

وهذه الغزوة تعتبر من أكبر الغزوات التأديبيَّة الَّتي قادها رسول الله ﷺ بنفسه ضدَّ أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب، وبني قريظة، وقبل غزوة خيبر[٧]. وتتابعت سرايا رسول الله ﷺ بعد غزوة قَرَد لتأديب المشركين، فنجت بعض هذه السَّرايا، وتعثر بعضُها الآخر، وكان أبرزها سرية عكَّاشة بن محصن الأسديِّ؛ التي عُرفت بسريَّة الغَمْر[٨]، وقد بعثها رسولُ الله ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ من الهجرة، إلى بني أسد، فوصلت إلى موضع يقال له: الغَمْر، فوجدت القوم قد هربوا، وتفرَّقوا في الجبال القريبة، فأغار عكَّاشة، وأصحابه على نعمٍ

(١) انظر: عيون الأثر، لابن سيِّد الناس (٢/ ٧٢، ٧٣).
(٢) ذو قرد: ماء على نحو بريدٍ من المدينة ممَّا يلي غطفان.
(٣) انظر: التاريخ السِّياسي العسكريّ، ص ٣٢٧.
(٤) انظر: صلح الحديبية، ص٤٣.
(٥) انظر: المصدر السابق نفسه، ص٤٥.
(٦) انظر: التَّاريخ السِّياسي، والعسكري، ص ٣٢٧.
(٧) انظر: صلح الحديبية، ص ٤٥.
(٨) الغمر: ماء لبني أسدٍ على ليلتين من فيد الَّذي هو قلعةٌ بطريق مكَّة.

لهم ، فغنموا مئتي بعير ، وعادوا إلى المدينة[1] .

ومن أبرزها أيضاً سريّة محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ إلى ذي القَصَّة[2] لإرهاب بني ثعلبة ، وعُوال ، ومنعهم من الإغارة على سرح المدينة ، وفي شهر ربيع الثَّاني سنة ستٍّ من الهجرة خرج محمَّد بن مسلمة في عشرةٍ من المسلمين حتَّى وردوا عليهم ليلاً ، فأحدق بهم القوم وهم مئة رجل ، فتراموا ساعةً من الليل ، ثمَّ حملت عليهم الأعراب بالرِّماح فقتلوهم ، ووقع محمَّد بن مسلمة جريحاً ، ولم يتمكَّن من العودة إلا بعد أن مرَّ به رجلٌ من المسلمين ، فحمله حتَّى ورد به المدينة[3] .

وعلى الأثر بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في أربعين رجلاً إلى منازلهم ، فلم يجدوا أحداً ، ولكنَّهم غنموا بعض نعمهم ، فساقوها ، وعادوا بها إلى المدينة[4] .

وفي شهر جُمادى الأولى من السَّنة نفسها كانت سريّة زيد بن حارثة الثَّانية إلى العيص[5] في سبعين ومئة راكب؛ لاعتراض قافلةٍ لقريش كانت مقبلةً من الشَّام ، فأدركها ، وأخذها ، وما فيها ، وأسر بعض أفرادها ، كان منهم أبو العاص بن الرَّبيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ، وأمُّه هالة بنت خويلد أخت خديجة زوجة رسول الله ﷺ ، والمغيرة بن معاوية بن أبي العاص[6] . وفي شعبان سنة ستٍّ من الهجرة خرجت سريَّةٌ بقيادة عليِّ بن أبي طالبٍ لتأديب بني سعد بن بكر الَّذين جمعوا النَّاس لإمداد يهود خيبر ، وقد بعثه رسول الله ﷺ في مئةٍ من المسلمين ، فأغار عليهم ، وغنم بعض نَعَمِهم ، وعاد بها إلى المدينة[7] .

كانت هذه السَّريّة تأديباً لكلِّ مَنْ تُسَوِّل له نفسه مساعدة اليهود في بغيهم المتوقع ، حيث علمت تلك القبائل : أنَّ عين المدينة يقظة لكلِّ ما يدور حولها ، وأنَّ جميع التَّحرُّكات كانت تحت المراقبة[8] ، فقد تميزت الدَّولة الإسلاميَّة بدقَّة رصدها لأعدائها ، وهكذا يكون التَّخطيط الحربيُّ السَّليم ، وذلك بقطع الطَّريق على تجمُّع الأعداد الكبيرة حتَّى بالإمدادات الصَّغيرة[9] .

---

(١) انظر : تاريخ الطَّبري (٢/ ٦٤٠).
(٢) ذو القصَّة ، موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الرَّبذة .
(٣) انظر : التَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ٣٢٨ .
(٤) انظر : الواقديُّ (١/ ٥٥١).
(٥) العيص : بينها وبين المدينة أربع ليالٍ .
(٦) انظر : محمَّد رسول الله ، لمحمَّد رضا ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٧) انظر : التاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٣٠ .
(٨) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٣٢٥ .
(٩) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٦/ ١٨٩).

إنَّ حركة السَّرايا، والبعوث الَّتي كان يقودها رسول الله ﷺ ترشد المسلمين إلى أهمِّية متابعة أخبار الأعداء، وجمع المعلومات عنهم، فقد كانت المعلومات تتجمَّع عند رسول الله ﷺ من مصادر متعدِّدة: سراياه الاستطلاعيَّة، المسلمين المتخفِّين المتعاطفين مع المسلمين، المعاهدين، الفراسة واستكشاف ما وراء السُّطور، المهم: أنَّ رسول الله ﷺ ما كان يفاجأ بتآمرٍ داخليٍّ، أو تهديدٍ خارجيٍّ، وهذا يجعل المسلمين في عصرنا أمام قضيَّةٍ يجب أن يعطوها كامل الاعتبار، مع ملاحظة الضَّوابط الشَّرعية[1].

خامساً: سرية كُرْز بن جابر الفهري إلى العُرنيِّين:

قدِم على رسول الله ﷺ جماعةٌ من عُكَل[2] وعُرينة[3]، في شوال من العام السَّادس الهجري[4]، وتكلَّموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله! إنَّا كنَّا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بذودٍ[5]، وراعٍ، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها، ويتمسَّحوا بأبوالها، فانطلقوا حتَّى إذا كانوا ناحية الحَرَّة؛ كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعيَ النَّبيِّ ﷺ، واستاقوا الذَّود، فبلغ النَّبيَّ ﷺ خبرُهم، فبعث الطَّلب في آثارهم[6]، فقبضوا عليهم، فأمر بهم، فسملوا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وأرجلهم، وتُركوا في ناحية الحرَّة حتَّى ماتوا على حالهم. قال قتادة راوي الحديث: بلغنا: أنَّ النبي ﷺ بعد ذلك كان يحثُّ على الصَّدقة، وينهى عن المُثْلَة. [البخاري (٤١٩٢)][7].

وقال أبو قلابة في حديثه: «هؤلاء قومٌ سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسولَه ﷺ»[8].

قال الجمهور: إنَّ الآية ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣]، قد نزلت في هؤلاء العُرنيِّين[9]،

---

(١) انظر: الأساس في السنّة (٢/ ٧١٢).
(٢) عكل: قبيلة من تيم الرباب.
(٣) عرينة: حيٌّ من بُجيلة.
(٤) من رواية الواقدي (٢/ ٥٦٨) معلقة، وابن سعد (٢/ ٩٣) معلقة.
(٥) الذَّود: الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل: ما بين الثنتين إلى التِّسعة.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٧٨.
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء مصادرها الأصليَّة، ص ٤٧٨.
(٩) انظر: سبل الهدى والرَّشاد، للشَّامي (٦/ ١٨١ ـ ١٩٠) فيها تفصيل.

وقيلت أسباب أخرى في نزولها[١].

وعلى كلِّ حالٍ فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فهذا الحكم باقٍ حتَّى يومنا هذا، وأدلُّ دليلٍ على ذلك ما أجمع عليه المسلمون من وجود حكم الحرابة في الإسلام، سواء كانت الآية نزلت في الكفَّار، أم في المسلمين، وهذه الآية نازلةٌ في المشركين، كما في البخاريِّ، فدلَّ ذلك على أنَّ العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب.

وكون المُثْلَة منسوخةً، أو منهياً عنها، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ سمل أعين العُرنيِّين لا يستدلُّ به في هذه القضيَّة؛ لكون العُرنيِّين سملوا أعين الرُّعاة، فصار سمل النَّبيِّ ﷺ لهم قصاصاً لا مُثْلَةً[٢].

إنَّ حادثة العُرَنيِّين ترتَّب عليها تنفيذ حكم الحرابة، ونزول آياتٍ بيناتٍ في هذا الحكم، فقد حصر المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ جزاء المحاربين في أربعة أمورٍ، وكان ذلك الحصر بأقوى أدوات الحصر، ثمَّ إنَّه وصف هؤلاء المحاربين بأوصافٍ يشمئزُّ منها كلُّ عاقل، ذلك أنَّه وصفهم بأنهم حاربوا الله تعالى، ورسوله ﷺ، وأنَّهم يريدون إفساد الأرض بتخويف سكَّانها، وتقتيلهم، وسلبهم، ونهب ممتلكاتهم ظلماً، وجوراً لا مستند لهم، ولا باعث إلا الإفساد، والطُّغيان، فكانت رحمةُ الله تعالى الرَّحيم بهم وبغيرهم مِنْ خلقه مقتضيةً الحكم عليهم بواحدٍ من أمورٍ أربعةٍ، وهي: القتل، أو الصَّلب، أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف، أو الإبعاد عن مخالطة العامَّة وعزلهم عنها بالنَّفي والتَّغريب؛ حتَّى لا تتكرَّر منهم تلك الجرائم الشَّنيعة، وحتى يرتدع غيرُهم عن ارتكاب مثل هذا الجرم الشَّنيع، ولكي يطهِّرَهم ما يوقع بهم من عقابٍ من الذُّنوب، والآثام؛ إن هم تابوا، ورجعوا إلى رشدهم، وصوابهم.

ثمَّ إنَّ هؤلاء لهم ذِلَّةٌ، ومهانةٌ في الحياة الدُّنيا لأذيَّتهم المسلمين، وقد علَّل تعالى لحوق تلك الرَّذيلة بهم مدَّة الحياة الدُّنيا بسبب ما اقترفوه من جريمة الحرابة، وباقيةٌ معهم إلى يوم القيامة؛ لكون الرَّب جلَّ وعلا أعدَّ لهؤلاء في الآخرة عذاباً عظيماً.

ثمَّ استثنى جلَّ وعلا من هؤلاء مَنْ أناب إليه، ورجع في أسلوبٍ حكيم مؤثِّرٍ داعٍ إلى رجوعهم، وتوبتهم من هذه الجريمة المنكرة، فلقد عفا عنهم تعالى إذا ما رجعوا وجاؤوا تائبين قبل القدرة عليهم؛ لكون تلك التَّوبة مظنَّةً لصدقهم في توبتهم، ورجوعهم عن غيِّهم؛ لأنَّهم رجعوا قبل القدرة عليهم.

وبتقييد العفو عنهم بتوبتهم قبل القدرة عليهم يفهم: أنَّهم إن قدر عليهم قبل التَّوبة؛ لا ينالون من العفو ما ينالونه لو تابوا قبل القدرة عليهم، وهذا نوعٌ من العلاج في غاية الدقَّة،

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٠/ ٢٤٢ـ ٢٤٤).

(٢) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة، د. عبد الله الشنقيطي، ص ٢٩٧، ٢٩٨.

والإنصاف، وفيه من الحفز على التَّقليل من هذه الجريمة، وتركها ما لا يخفى على ذي عقلٍ لبيب.

وكذلك الشَّأن في جميع أساليب القرآن الكريم العلاجيَّة، كلُّها توافق الذَّوق السَّليم، والعقل الرَّاجح المتَّزن المتمتِّع بصفاء الفطرة السَّليمة.

ثمَّ ختم تعالى الآيتين الكريمتين بأنَّه غفورٌ رحيمٌ لمن تاب منهم، وأصلح، فلا يقنط أحدٌ من رحمته الواسعة، ولا يحول بين العبد ورحمة ربِّه، ومغفرته عظيمُ ذنبه، وجسيم خطئه، ما لم يقارف شِرْكاً. وفي الجملة فقد عالجت الآيات القرآنيَّة الحرابة في المجتمع الإسلاميِّ علاجاً لا مزيد عليه، وذلك واضحٌ ممَّا يلي:

١ ـ وصف المحارِب بأنَّه محاربٌ لله تعالى، ولرسوله ﷺ.

٢ ـ عظم الجزاء المترتِّب على الحَرابة أيّاً كان هو.

٣ ـ مكانتُه الدَّنيئة في الدُّنيا، والآخرة؛ إن لم يتب.

٤ ـ يظهر علاج القرآن الكريم لهذه الجريمة الشَّنعاء بفتحه باب التَّوبة لمتعاطيها على مصراعيه؛ حتَّى لا يكون سدُّه في وجهه حافزاً له على التَّمادي في جرمه، والاستمرار في عتُوِّه[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٣ ـ ٣٤].

وهكذا كانت حركة بناء المجتمع، وإقامة الدَّولة متشابكةً في قضاياها العسكريَّة، والسِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، والأخلاقيَّة، والاقتصاديَّة.

* * *

(١) انظر: علاج القرآن الكريم للجريمة، ص ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥.

المبحث الثَّالث
تصفية المحرِّضين على الدَّولة

أولاً: سرية عبد الله بن عتيك لقتل سلاَّم بن أبي الحُقيق:

كان أبو رافع سلاَّم بن أبي الحُقَيْق من يهود بني النَّضير كثير التَّحريض على الدَّولة الإسلاميَّة، حتَّى إنَّه جعل لغطفان ومن حوله من قبائل مشركي العرب الجعل العظيم إن هي قامت لحرب رسول الله ﷺ، وشاع أمر أبي رافعٍ، وانتشر، وكان ممَّن ألَّب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار الَّتي يجب أن يوضع لها الحدُّ[١].

١ ـ توجُّه السَّرية إلى خيبر، ودخولها:

فبعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافعٍ اليهوديِّ رجالاً من الأنصار، فأمَّرَ عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع في حصنٍ له، فلمَّا دنوا منه، وقد غربت الشَّمس وراح النَّاس بسرحهم، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم فإنِّي منطلقٌ، ومتلطِّفٌ للبوَّاب لعلِّي أن أدخل، فأقبل حتَّى دنا من الباب، ثمَّ تقنَّع بثوبه كأنه يقضي حاجةً، وقد دخل النَّاس، فهتف به البواب: يا عبد الله! إن كنت تريد أن تدخل؛ فادخل فإنِّي أريد أن أغلق الباب، فدخلتُ، فكمنتُ، فلمَّا دخل النَّاس أغلق الباب، ثمَّ عَلَّقَ الأغاليق (أي: المفاتيح) على ودٍّ (أي: وتد)، قال ابن عتيك: فقمت إلى الأقاليد (المفاتيح) فأخذتُها، ففتحت الباب[٢].

٢ ـ تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع:

ولمَّا دخل أبو عتيك رضي الله عنه ومن معه من أفراد سريَّته إلى داخل الحصن؛ أخذوا ينتظرون الفرصة المناسبة لقتل هذا اليهوديِّ الخبيث أبي رافعٍ.

وقد جاء في البخاريِّ: أنَّ عبد الله بن عتيك أدرك نفراً من أصحاب أبي رافعٍ يسمرون عنده،

---

(١) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة، لمحمَّد قلعجي، ص ٢١٢.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٤٦٥، والبخاري كتاب المغازي، باب: قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق.

وكان في علالي له (أي: غرفة)، فكمنت (أي: اختبأت) حتَّى ذهب عنه أهلُ سَمَرِه، ولمَّا ذهبوا صعِد إليه. وكلَّما دخلَ باباً أغلقَه عليه من الدَّاخل حتى لا يحول أحدٌ بينه وبين تنفيذ العقوبة بحقِّ أبي رافع، فانتهى إلى أبي رافع فإذا هو في بيتٍ مظلمٍ وسط عياله لا يدري أين هو من البيت، قال ابن عتيك: فقلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟

قال ابن عتيك: فأهويتُ نحو الصَّوت فأضربه ضربةً بالسَّيف؛ وأنا دَهِشٌ فما أغنيتُ شيئاً (أي: لم أقتله).

وصاح، فخرجت من البيت، فأمكثُ غير بعيدٍ ثمَّ دخلتُ إليه.

فقلت: ما هذا الصَّوت يا أبا رافع؟!

قال: لأمِّك الويلُ! إنَّ رجلاً في البيت ضربني قَبْلُ بالسَّيف.

قلت: فأضربه ضربةً أثخنته، ولم أقتله، ثمَّ وضعت ضبيب السَّيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أنِّي قتلته.

فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً، حتَّى انتهيت إلى درجةٍ له، فوضعت رجلي وأنا أرى أنِّي قد انتهيتُ إلى الأرض، فوقعتُ في ليلةٍ مقمرةٍ، فانكسرتْ ساقي، فعصبتُها بعمامةٍ، ثمَّ انطلقت حتَّى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج اللَّيلة حتَّى أعلم أقتلته؟ فلمَّا صاح الدِّيك قام النَّاعي على السُّور، فقال: أنعىٰ أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقتُ إلى أصحابي، فقلت: النَّجاءَ، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النَّبيِّ ﷺ، فحدَّثته، فقال لي: «ابسط رجلك». فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنَّها لم أشتكها قطُّ. [البخاري (٤٠٣٩)].

وفي روايةٍ أخرى للبخاريِّ قال عبد الله بن عتيك: قلت: يا أبا رافع! قال: مَنْ هذا؟ قال: فعمدت نحو الصَّوت، فأضربه، وصاح فلم تُغْنِ شيئاً، ثمَّ جئت كأنِّي أغيثه.

فقلت: مالك يا أبا رافع؟! وغيَّرت صوتي، فقال: ألا أعجبك، لأمِّك الويلُ! دخل عليَّ رجلٌ فضربني بالسَّيف. قال: فعمدت له أيضاً فأضربه أخرى، فلم تُغْنِ شيئاً، فصاح، وقام أهله، ثمَّ جئتُ وغيَّرتُ صوتي كهيئة المُغيث، فإذا هو مستلقٍ على ظهره، فأضع السَّيف في بطنه ثمَّ أنكفئُ عليه، حتَّى سمعتُ صوت العَظْم. [البخاري (٤٠٤٠)].

وقد ذكرت كتب السِّيرة: أنَّ امرأة أبي رافع حينما ضُرِب بالسَّيف صاحت؛ فأراد قتلها، ثمَّ كف عن ذلك؛ لأنَّ رسول الله ﷺ قد نهاهم عن قتل النِّساء، والصِّبيان[1]، وأنَّ ابن عتيك كان يرطن بلغة اليهود، وأنَّه استخدمها مع زوجة أبي رافعٍ اليهوديِّ، وأهل بيته.

---

(١) انظر: شرح المواهب اللدنية (٢/ ١٦٨).

ويذكر كُتَّاب السِّيرة : أنَّ سرية ابن عتيك كلَّها شاركت في ضرب أبي رافع ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم ادَّعى : أنَّ ضربته كانت هي القاضية على أبي رافعٍ ، فقال رسول الله ﷺ : «عجِّلوا بأسيافكم» ، فأتوا بأسيافهم ، فنظر إليها ، ثمَّ قال : «هذا قتلَه» ، وهو سيف عبد الله بن أُنيس ، هذا أثر الطَّعام في سيف عبد الله بن أُنيس . [البخاري (٤٠٣٩ و٤٠٤٠) ، وابن سعد (٢/ ٩١ ـ ٩٢) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٠ ـ ٨١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٤٠٧ ـ ٤١٠) ، وابن هشام (٣/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨)] .

وقد يتوهَّم القارئ الكريم أنَّ هناك تناقضاً بين رواية البخاريِّ ، ورواية كتب السِّيرة الأخرى؛ الَّتي تقول : إنَّ الضربة القاضية كانت من عبد الله بن أُنيس ، والحقُّ : أنَّه ليس كذلك؛ ذلك لأنَّ عبد الله بن عتيك يخبر عن نفسه وأنَّه غلب على ظنِّه : أنَّه هو القاتل ، وأنَّه قد حكى عن دوره في ضرب اليهوديِّ أبي رافع ، ولا يعني هذا أنَّ غيره لم يشارك في قتله؛ إذ لم ينفِ هو مشاركة غيره له في قتل أبي رافع ، والرِّوايات يفسِّر بعضها بعضاً ، ويشرح بعضُها بعضاً ، والرِّوايات تذكر : أنَّ كلَّ واحد من أفراد السَّريَّة كان يدَّعي أنَّ ضربته هي القاضية والمميتة لأبي رافعٍ .

وقد نظر رسول الله ﷺ في دعواهم ، وفحص سيوفهم ، وحكم بعد ذلك بأنَّ الضَّربة القاضية كانت بسيف عبد الله بن أُنيس رضي الله عنه؛ لظهور أثر الطَّعام عليه ، أي : أنَّ هذا السَّيف قد دخل جوف أبي رافع ومزَّق أحشاءه ، وقطَّع أمعاءه ، وخلط غذاءه في جوفه[١] .

وقد ذكرت كتب السيرة أسماء سريَّة عبد الله بن عتيك ، وهم : مسعودُ بن سنان ، وعبدُ الله بن أُنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعي ، وخُزاعي بن أسود[٢] .

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها :

١ ـ أنَّ كلَّ أعضاء هذه السَّريَّة كانوا من الخزرج ، فقد حرصوا على أن ينافسوا إخوانهم من الأوس الَّذين قتلوا كعب بن الأشرف ، فقد كانوا كفرسي رهانٍ في المسابقة في الخيرات ، فهم لا يتنافسون على اغتنام مظاهر الحياة الدُّنيا من المال ، والمناصب ، وإنَّما يتسابقون إلى الفوز بمرضاة النَّبيِّ ﷺ الَّتي مآلها رضوانُ الله تعالى ، والسَّعادة الأخرويَّة[٣] .

قال كعب بن مالك : وكان ممَّا صنع الله تعالى به لرسوله ﷺ : أنَّ هذين الحيين من الأنصار : الأوس ، والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله ﷺ تصاول الفحلين ـ يعني : يتسابقان في خدمته ـ لا يصنع الأوس شيئاً فيه عن رسول الله ﷺ غناءً إلا قالت الخزرج : والله! لا تذهبون

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (١/ ١٨٩) .
(٢) انظر : صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٩١ .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٦/ ١٧٧) .

بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ ، وفي الإسلام ، قال: فلا ينتهون حتَّى يوقعوا مثلها ، وإذا فعلت الخزرج شيئاً؛ قالت الأوس مثل ذلك . [ابن هشام (٣/ ٢٨٦)] .

٢ ـ فائدةُ تعلُّم لغةِ العدوِّ : فقد استطاع عبد الله بن عتيك أن يصعد إلى حصن أبي رافع ، وأن يخاطب امرأته ، وأن يدخل بيته مطمئناً؛ لأنَّه خاطبه بلغته لغة اليهود في ذلك الوقت ، ويؤخذ من ذلك استحباب تعلُّم لغة غير المسلمين لا سيَّما الأعداء منهم ، وخاصَّة لأولئك العسكريين الَّذين يذهبون لمهمَّات استطلاعيَّة تجمع أخبار العدو ، وتزوِّد القيادة بها ، والقيادة ترسم[١] .

٣ ـ عناصر نجاح خطَّة ابن عتيك في قتل أبي رافع اليهوديِّ : ذهابُه وحدَه ، فقد قرر أن يذهب وحيداً إلى الحصن ، ويحاول أن يدخله ، ومن ثَمَّ يفتِّش عن طريقة يُدخل بها أفراد سريَّته ، وتصرُّفه العادي الَّذي لم يلفت انتباه أحدٍ من الحرَّاس ، وقدرته على التَّمويه على الحارس ، وإيهامه : أنَّه يقضي حاجته ، وهذا منع الحارس من النَّظر إليه ، وتفحُّصه ، وتفرُّسه في وجهه ، ومراقبة حركة الحارس الدَّقيقة بعد دخول الحصن ، وإغلاقه ، فقد كمن في مكانٍ لم يشعر به الحارس ، وراقب الحارس حتَّى وضع مفتاح الحصن في مكانٍ معيَّن ، وتابعه حتَّى انصرف ، وأخذ المفتاح ، وأصبح يستخدمه كيفما يشاء ، وفي أيِّ وقتٍ شاء[٢] .

٤ ـ عناية الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بأوليائه المؤمنين ، فهذا الصَّحابيُّ الجليل استمرَّ بعونٍ من الله تعالى يمشي ، ويبذل طاقته حتَّى بعد أن أصيبت رجله ، وكأنَّه لا يشكو من علَّةٍ ، حتَّى إذا انتهت مهمَّته تماماً ، وأصبح غير محتاجٍ لبذل الجهد؛ عاد إليه الألم ، وحمله أصحابه ، فلمَّا حدَّث النَّبيَّ ﷺ خبره؛ قال له : «ابسُطْ رِجلك» قال : فبسطت رجلي ، فمسحها ، فكأنَّها لم أشتَكِهَا قطُّ . [البخاري (٤٠٣٩)] .

٥ ـ فوائد من القصَّة استخرجها ابن حجر ، حيث قال : وفي هذا الحديث من الفوائد : جواز اغتيال المشرك الَّذي بلغته الدَّعوة ، وأصرَّ ، وقتل من أعان على رسول الله ﷺ بيده ، أو ماله ، أو لسانه . وجواز التَّجسُّس على أهل الحرب ، وتطلُّب غرَّتهم ، والأخذ بالشدَّة في محاربة المشركين ، وجواز إبهام القول للمصلحة ، وتعرُّض القليل من المسلمين للكثير من المشركين ، والحكم بالدَّليل ، والعلامة لاستدلال ابن عتيك على أبي رافع بصوته ، واعتماده على صوت النَّاعي بموته ، والله أعلم[٣] .

٦ ـ وجود عبد الله بن أُنيس جندياً في هذه السَّريَّة ، وليس أميراً فيها له دلالتُه الكبرى في

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (١/ ١٩١) .
(٢) انظر : الصراع مع اليهود (١/ ١٩٢ ، ١٩٣) .
(٣) فتح الباري (٧/ ٤٠٠) في شرح حديث (٤٠٣٩ ، ٤٠٤٠) .

عملية التَّربية والتَّعليم ، فهو العقبيُّ ، البدريُّ ، المصلِّي للقبلتين ؛ فهو من السَّابقين الأوَّلين من الأنصار ، وليس عبد الله بن أُنيس نكرةً في مجال الجهاد والبطولات ، فلا بدَّ أن نذكر : أنَّه السَّريَّة وحده الَّذي ابتعثه رسول الله ﷺ لاغتيال سفيان بن خالد الهُذلي في أطراف مكَّة ، وهو الَّذي كان يعدُّ العدَّة لغزو المدينة ، وهو الَّذي نجح نجاحاً باهراً في مهمَّته تلك ، وقتله في فراشه ، وداخل خيمته ، وأعجز قومه هرباً ، وعاد منتصراً مظفَّراً ، فهو مليءٌ بالمجد ، ومع ذلك فلم يكن أمير المجموعة ، إنَّما كان أحد أفرادها ، وهو يحمل هذا التَّاريخ المشرق في سجلاته عند ربِّه ـ عزَّ وجلَّ ـ قبل أن يكون عند النَّاس .

وهو درسٌ تربويٌّ خالدٌ قد استوعبه أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، وهذا النَّوع من التربية لا مثيل له في عالم الأرض ، فالَّذي يحكم في الجيوش تسلسل الرُّتب ، حتى إنَّ الرتبة الواحدة يحكم بها المتقدِّمُ المستجدَّ ، وعلى المستجدِّ السَّمع ، والطَّاعة للمتقدِّم ؛ ولو بأشهرٍ ، وبهذا المنطق لا يجوز أن يتقدَّم على عبد الله بن أُنيسٍ أحدٌ ، ولكنَّها التَّربية النَّبويَّة العظيمة الَّتي خطَّها النَّبيُّ ﷺ في أكثر من موقعٍ ؛ لتجعل هذا الجيل يتعلَّم من سابقه ، ويتدرَّب على يديه ، فطالما أرسل ﷺ سرايا فيها أبو بكرٍ ، وعمر جنديين عاديين في غمار الجنود[١] .

ثانياً : سريَّة عبد الله بن رواحة إلى اليُسير بن رِزَام اليهوديِّ :

بلغ رسول الله ﷺ أنَّ اليسير بن رِزام أمير اليهود بخيبر بعد سلام بن أبي الحُقَيق أخذ في جمع يهود الشَّمال ، وتحريضهم على رسول الله ﷺ ، ولم يكتفِ بذلك ، بل بدأ بتأليب قبائل غطفان ، وجمعها لقتال رسول الله ﷺ ، وحين علم رسول الله ﷺ ما يبيِّته اليهود له من الخديعة ، والمكر ، رأى ﷺ أن يتأكَّد من ذلك قبل أن يقدم على أمرٍ ما ، فأرسل عبد الله بن رواحة في نفرٍ من المسلمين ، روّاداً يكتشفون ما تخبئه يهود ، ومن لَفَّ لفَّها من مشركي العرب[٢] .

وقد تأكَّدت المخابرات النَّبويَّة من أمر اليُسَيْر بن رِزَام ، وكان هذا كافياً لقيام النَّبيِّ ﷺ ببعث سريَّةٍ في ثلاثين راكباً ، عليهم عبد الله بن رواحة ، وفيهم عبد الله بن أُنيس ، فأتوه ، فقالوا : أرسلنا إليك رسول الله ﷺ ليستعملك على خيبر ، فلم يزالوا به حتَّى تبعهم في ثلاثين رجلاً ، مع كلِّ رجلٍ منهم رديفٌ من المسلمين ، وكان هو رديف عبد الله بن أنيس على بعيره ، حتَّى إذا كانوا بَقرقَرة ثيار على ستَّة أميالٍ من خيبر ، ندم اليُسَيْر على مسيره إلى رسول الله ﷺ ، فأهوى بيده على سيف رديفه ابن أُنيس ، ففطن له ، فاقتحم به ، ثمَّ ضربه بالسَّيف ، فقطع رجله ،

(١) انظر : التربية القياديَّة (٤/١٤٨) .

(٢) انظر : اليهود في السنّة المطهَّرة (١/ ٣٨٨ ، ٣٨٩) .

وضربه اليُسَير بِمِخْرَشٍ[(١)] في يده مِنْ شواحط[(٢)]، فضرب به وجه عبد الله فأمَّه[(٣)]، ومال كلُّ رجلٍ من المسلمين على رديفه من اليهود فقتله، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه، فلمَّا قدِم ابن أُنيس على رسول الله ﷺ؛ تفل على شجَّته، فلم تَقِحْ، ولم تؤذه. [ابن هشام (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)][(٤)].

وكانت هذه السَّريَّة في شوال سنة ستٍّ من الهجرة[(٥)].

وفي هذه السَّريَّة دروسٌ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ كانت الخطَّة النَّبويَّة هي محاولة إيقاف نهر الدَّم بين اليهود والمسلمين ابتداءً، فقد كان دور عبد الله بن رواحة في هذا الاتجاه، غير أنَّ الحقد اليهوديَّ الَّذي أشرب قلوبهم، والسُّمَّ الَّذي ينفثونه على المسلمين، هو الَّذي غلب آخر الأمر، وأفسد الخطَّة كلَّها، فقد حاولوا الغدر بالمسلمين، فوقعت الدَّائرة عليهم.

٢ ـ إنَّ البأس في الحرب ما لم يكن غليظاً، وشديداً؛ فلن يحسم المواجهة مع العدوِّ، وسيجعل الحرب تفني كلَّ شيء، وتأكل كلَّ شيءٍ، فلا بدَّ من بثِّ الرَّهبة، والرُّعب في قلب العدوِّ، ولا بدَّ من الشِّدَّة معه حين لا يجدي الحوار، أو المناقشة، ولا بدَّ من الغلظة الَّتي تشعر العدوَّ: أنَّ مَنْ يقاتله لا يخشى في الله لومة لائم.

٣ ـ شهد العامُ السَّادس من الهجرة تصعيداً عنيفاً في عمليَّات المواجهة مع العدو، ولا يكاد يمرُّ شهرٌ دون سريَّةٍ، أو سريَّتين تضرب في الصَّحراء، وتفضُّ جمعاً، أو تحطِّم عدوّاً، أو تغتال طاغوتاً، فقد كان شعار المرحلة: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» [سبق تخريجه]، فقد كان حزب الله ينطلق في الآفاق باسم الله، يحمل المبادئ الخالدة، والقيم العليا يقدِّمها للخلق كافَّةً، ويزيح كلَّ طاغوتٍ يحول دون وصول هذه المبادئ، ونشهد حزب الله في أفراده جميعاً، والَّذين تلقوا أعلى مستويات التَّربية الخلقية، والفكريَّة، والعسكريَّة، والسياسيَّة كيف ينفِّذون هذا المنهج، وكيف يكون واقعُهم ترجمةً عمليَّةً وحيَّةً لمبادئهم، وكيف يتقدَّمون ليتصدَّروا مرحلةً جديدةً تبدأ معالمها، وملامحها مع صلح الحديبية[(٦)].

* * *

(١) المخرش: شبه المقرعة يضرب به، وهي معوجَّة الرأس.
(٢) الشَّواحط: شجر ابن النبع، من أشجار الجبال الَّتي يتَّخذ منها القسي.
(٣) فأمَّه: أي: جرحه في رأسه، والشَّجة المأمومة هي التي تبلغ أمَّ الرأس.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص٤٧٧، والبداية والنِّهاية (سنة ١١ هـ).
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٤٧٧.
(٦) انظر: التَّربية القياديَّة (٤/ ١٨٩ إلى ١٩٢).

الفصل الثَّالث عشر
الفتح المبين (صلح الحديبية)

[البخاري (٢٧٣١ و٢٧٣٢)، وأحمد (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٦) برقم (١٤)، وابن هشام (٣/ ٣٢١ ـ ٣٣٣)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٩٩ ـ ١٠٨)].

المبحث الأوَّل
تاريخه، وأسبابه، ومخرج رسول الله ﷺ إلى مكَّة

أولاً: تاريخه، وأسبابه:

في يوم الإثنين الأوَّل من ذي القعدة سنة (٦ هـ)[١]، خرج الرَّسول ﷺ من المدينة متوجهاً بأصحابه إلى مكَّة؛ لأداء العمرة[٢]. وسبب هذه الغزوة أنَّ رسول الله ﷺ رأى رؤيا في منامه ـ وهو في المدينة ـ، وتتلخَّص هذه الرُّؤيا في أنَّ النَّبيَّ ﷺ رأى: أنَّه قد دخل مكَّة مع أصحابه المسلمين محرماً مؤدِّياً للعمرة، وقد ساق الهدي معظِّماً للبيت مقدِّساً له، فبشر النَّبي ﷺ أصحابه، ففرحوا بها[٣] فرحاً عظيماً، فقد طال عهدُهم بمكَّة، والكعبة؛ الَّتي رضعوا حبَّها، ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها، وشوقاً إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطَّواف حولها، وتطلَّعت إليه تطلُّعاً شديداً، وكان المهاجرون أشدَّهم حنيناً إلى مكَّة، فقد ولدوا، ونشؤوا فيها، وأحبُّوها حبّاً شديداً، وقد حيل بينهم وبينها، فلمَّا أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك تهيَّؤوا لتلك الزيارة العظيمة[٤]، واستنفر ﷺ أهل البوادي والأعراب؛ ليخرجوا معه؛ لأنَّه كان يخشى أن تصدَّه قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد

---

(١) أجمع أهل العلم على تاريخها دون خلاف، وانظر: المجموع، للنووي (٧/ ٧٨).
(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٣٤).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (٢/ ٤٩٥).
(٤) انظر: السيرة النبوية، للندوي، ص ٢٧٣.

علمت بأمر التَّحالف العسكريِّ الَّذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنوَّرة وخيبر في شمالها ، وكان هدف هذا التَّحالف جعل الدولة الإسلاميَّة بين طرفي الكماشة ، ثمَّ إطباق فكَّيها عليها ، وإنهاء الوجود الإسلامي فيها ، فقد حان الوقت لكسر ذلك التَّحالف سياسيّاً ، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبةً ليست ملكاً لقريش ، بل هي تراث أبيهم إسماعيل ، ولهذا فليس من حقِّ قريش أن تمنع من زيارتها مَنْ تشاء ، وتجيز مَنْ تشاء ، فإذاً من حقِّ محمَّد ﷺ وأصحابه زيارةُ الكعبة[١] .

وانتشر خبر خروج رسول الله ﷺ بين قبائل العرب ، وكان انتشار الخبر له أثرٌ في الرأي العامِّ ، وخصوصاً بعدما أكَّد رسول الله ﷺ : أنَّه لا يريد حرباً ، وإنَّما يريد أن يعتمر ، ويعظِّم شعائر الله ، وحقَّق هذا الفعل الكريم مكاسب إعلاميَّةً رفيعة المستوى ، وقد كان هدف النَّبيِّ ﷺ معلناً : ألا وهو زيارة بيت الله الحرام ؛ لأداء العمرة ، فتجرَّد هو وأصحابه من المخيط ، ولبسوا ثياب الإحرام ، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة بعد أن قلَّد الهدي ، وأشعره[٢] .

وقد كان ﷺ على جانبٍ كبير من الحيطة ، والحذر ، فقد أرسل بشر بن سفيان الخزاعيَّ عيناً له[٣] ، وقدَّم بين يديه طليعة استكشافيَّةً مكوَّنةً من عشرين رجلاً ، وفي ذلك يقول الواقديُّ : «دعا رسول الله ﷺ عبَّاد بن بِشر فقدَّمه أمامه طليعةً في خيل المسلمين عشرين فارساً ، وكان فيها رجالٌ من المهاجرين ، والأنصار»[٤] ، وكان هدفه ﷺ من ذلك الاستعداد للطوارئ الَّتي يمكن أن يفاجأ بها ، ـ وأيضاً ـ فقد كانت مهمَّة هذه الطليعة استكشاف خبر العدوِّ[٥] .

وأخذ ﷺ بمشورة عمر في ذي الحليفة عندما قال له : يا رسول الله! تدخل على قومٍ هم لك أهل حربٍ بغير سلاحٍ ، ولا كراعٍ؟ فبعث النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة من يحمل له الكراع ، والسِّلاح[٦] وكان قصده ﷺ من ذلك الاستعداد لهؤلاء الأعداء ؛ الَّذين يملكون من السِّلاح ، والعتاد ما يستطيعون به إلحاق الأذى بالمسلمين ، والنَّيل منهم[٧] ، وهذا التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأسباب من هديه الكريم الَّذي جعله لأمَّته لتقتدي به من بعده ﷺ ؛ لما في ذلك من المصالح الكثيرة ، ولما فيه من درء مكايد الأعداء ؛ الَّذين يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائر[٣] .

---

(١) قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .
(٢) أشعره : إشعار البدن أن يشقَّ أحد جنبي سنام البدنة حتَّى يسيل دمها ، انظر : مرويات الحديبية ، ص ٥٥ .
(٣) انظر : مرويات غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٥٨ ، ٥٩ .
(٤) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٩٧٤).
(٥) انظر : صلح الحديبية ، لمحمد باشميل ، ص ٣٠٩.
(٦) تاريخ الطبري (٢/ ٦٢٢).
(٧) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص٤٨٩ .

ثانياً: وصول النّبي ﷺ إلى عُسْفَان:

لمَّا وصل رسول الله ﷺ إلى عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبيُّ الخزاعيُّ، فقال: يا رسول الله! هذه قريش قد سمعت بمسيرك؛ ومعها العُوذُ المطَافِيلُ[١]، قد لبسوا جلود النُّمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عَنْوَةً أبداً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح[٢] قريش! لقد أكلتهُم الحرب، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر النَّاس؟ فإن أصابوني؛ كان الَّذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام؛ وهم وافرون[٣]، وإن لم يفعلوا؛ قاتلوا وبهم قوَّة، فماذا تظن قريش؟ والله! إني لا أزال أجاهدهم على الَّذي بعثني الله له، أو تنفرد هذه السَّالفة[٤]».

وقد استشار ﷺ أصحابه لمَّا بلغه خبر استعداد قريش لصدِّه عن دخول البيت الحرام، وعرض ﷺ على الصَّحابة رضي الله عنهم المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم والتَّصميم:

١ ـ الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الَّذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدِّهم عن البيت.

٢ ـ قصد البيت الحرام فمن صدَّه عنه قاتله حتَّى يتمكن من تحقيق هدفه[٥]. ولمَّا عرض ﷺ المشورة في هذا الأمر على الصَّحابة؛ تقدَّم أبو بكر الصِّدِّيق برأيه الَّذي تدعمه الحجَّة الواضحة، حيث أشار على رسول الله ﷺ بترك قتالهم، والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة؛ حتَّى يكون بدء القتال منهم، فاستحسن النَّبيُّ ﷺ هذا الرَّأي، وأخذ به، وأمر النَّاس أن يمضوا في هذا السَّبيل[٦]، وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلَّى النَّبيُّ ﷺ بأصحابه صلاة الخوف بِعُسْفَان.

ثالثاً: الرَّسول ﷺ يغيِّر الطَّريق، وينزل بالحديبية:

ولمَّا بلغ رسول الله ﷺ: أنَّ قريشاً قد خرجت تعترض طريقه، وتنصب كميناً له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرِّر المصادمة، رأى أن يغيِّر طريق الجيش الإسلامي تفادياً للصِّدام مع المشركين، فقال: مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم؛ الَّتي هم بها؟ فقال رجلٌ مِنْ أسلم: أنا يا رسول الله! فسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب شَقَّ على المسلمين السَّير

---

(١) المراد: خرجوا ومعهم النِّساء، والأولاد لئلا يفرُّوا عنهم وهو على الاستعارة.
(٢) يا ويح: كلمة ترحُّم، وتوجُّع، انظر: لسان العرب (٣/ ٩٩٦).
(٣) وافرون: جمع وافر وهو الذي لم ينقص منه شيء، انظر: لسان العرب (٣/ ٩٥٨).
(٤) السيرة النبوية، لابن هشام، ومحمَّد ﷺ، لمحمد رضا.
(٥) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول ﷺ، ص ٤٨٩.
(٦) انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة، للشَّيخ عدنان النَّحوي، ص ١٦٠.

فيه ، حتَّى خرجوا إلى أرضٍ سهلة عند منقطع الوادي ، وعند ذلك قال رسول الله ﷺ للناس: «قولوا: نستغفر الله ، ونتوب إليه». فقالوا ذلك.

فقال: «والله إنَّها الحطَّة الَّتي عُرِضت على بني إسرائيل ، فلم يقولوها[1]».

فأمر رسول الله ﷺ النَّاس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحَمْشِ في طريق تخرجه إلى ثنية المرار ، فهبط الحديبية من أسفل مكَّة ، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفَّة ودون أن يشعر به أحد ، فما نظر خالدٌ إلا وقَـتَرَةُ (غبرة) جيش المسلمين قد ثارت ، فعاد مسرعاً هو ومن معه إلى مكَّة يُحذِّر أهلها ، ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ[2] وقد أصاب الذُّعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية ، حيث تعرَّضت مكَّة للخطر ، وأصبحت مهدَّدة من المسلمين تهديداً مباشراً[3].

يقول اللواء محمود شيت خطَّاب في هذا الدَّرس الرائع: لم تكن حركة المسلمين على هذا الطريق خوفاً من قوَّات الجيش ، فالَّذي يخاف من عدوِّه لا يقترب من قاعدته[2] الأصليَّة ، وهي مركز قوَّاته ، بل يحاول الابتعاد عن قاعدة العدو الأصليَّة؛ حتَّى يُطيل خط مواصلات العدوِّ ، وبذلك يزيد من صعوباته ، ومشاكله ، ويجعل فرصة النَّصر أمامه أقلَّ من حالة الاقتراب من قاعدته الأصليَّة[4].

وقد جاء في كتاب (اقتباس النِّظام العسكريِّ في عهد الرَّسول ﷺ) ما يُبيِّن الحكمة من تغيير الطُّرق ما نصُّه: ويؤخذ من اتِّخاذ الأدلَّة والتَّحوُّل إلى الطُّرق الآمنة: أنَّ القيادة الواعية البصيرة تسلك في سيرها بالجيش طرقاً بعيدةً عن المخاطر ، والمهالك ، وتتجنَّب الدُّروب التي تجعل الجيش خاضعاً تحت تصرُّفات العدوِّ ، وهجماته[5].

رابعاً: «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُقٍ ، ولكنْ حبسها حابسُ الفيل»:

وعندما اقترب الرَّسول ﷺ من الحديبية بركت ناقتُه القصواء ، فقال الصَّحابة رضي الله عنهم: خلأتِ القصواء[6] ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بِخُلُقٍ ، ولكن حبسها حابس الفيل». ثمَّ قال: «والَّذي نفسي بيده! لا يسألونني خطَّةً يعظِّمون فيها حرمات الله

---

(١) انظر: السِّيرة النبوية ، لابن هشام (٣/٣٣٨) ، ومحمَّد ﷺ ، لمحمَّد رضا.
(٢) غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٣٩.
(٣) انظر: السِّيرة النبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٧٤.
(٤) انظر: الرَّسول القائد ﷺ ، لمحمود شيت خطاب ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٣٧٤ نقلاً عن اقتباس النُّظم العسكريَّة ، ص ٢٥٨.
(٦) بركت من غير علةٍ ظاهرة ، فلم تبرح مكانها.

إلا أعطيتهم إيَّاها[١]» . ثمَّ زجرها ، فوثبت ، ثمَّ عدل عن دخول مكَّة ، وسار حتَّى نزل بأقصى الحديبية على ثمدٍ ـ بئر ـ قليل الماء ، وما لبثوا أن نزحوه ، ثمَّ اشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثمَّ أمرهم أن يجعلوه فيه ، فجاش لهم بالرِّيِّ ، فارتووا جميعاً[٢] ، وفي روايةٍ : أنه جلس على شفة البئر ، فدعا بماءٍ ، فمضمض ، ومجَّ في البئر[٣] . ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معاً وقعا ، كما ذكر ابن حجر[٤] ويؤيِّده ما ذكره الواقديُّ[٥] ، وعروة[٦] من أنَّ الرَّسول ﷺ تمضمض في دلوٍ ، وصبَّه في البئر ، ونزع سهماً من كنانته ، فألقاه فيها ، ودعا ، ففارت[٧] .

وفي بروك ناقة رسول الله ﷺ ، وقَسَمِه بعد ذلك دروسٌ ، وعبرٌ ، منها :

١ ـ كلُّ شيءٍ في هذا الكون يسير بأمر الله ، ومشيئته ، ولا يخرج في سيره عن مشيئته ، وإرادته ، فتأمَّل في ناقة رسول الله ﷺ أين بركت ، وكيف كره الصَّحابة بروكها ، وحاولوا إنهاضها لتستمرَّ في سيرها ، فيستمرُّوا في سيرهم إلى البيت العتيق مهما كانت النَّتائج ، ولكنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أراد غير ذلك[٨] .

٢ ـ وقد استنبط ابن حجرٍ العسقلانيُّ ـ رحمه الله ـ فائدةً جليلةً من قوله ﷺ : «حبسها حابس الفيل»[٩] ؛ فقال : وفي هذه القصَّة جواز التشبيه من الجهة العامَّة ، وإن اختلفت الجهة الخاصَّة ؛ لأنَّ أصحاب الفيل كانوا على باطلٍ محضٍ ، وأصحاب هذه النَّاقة كانوا على حقٍّ محضٍ ، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً ، أمَّا مِنْ أهل الباطل ؛ فواضحٌ ، وأمَّا مِنْ أهل الحقِّ فللمعنى الَّذي تقدَّم ذكره[١٠] .

٣ ـ ومن الفوائد : أن المشركين ، وأهل البدع والفجور ، والبُغاة ، والظَّلمة إذا طلبوا أمراً يعظِّمون فيه حرمةً من حرمات الله تعالى ؛ أُجيبوا إليه ، وأُعْطُوه ، وأُعِينوا عليه ؛ وإن مُنعوا غيره ، فيعانون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى ، لا على كفرهم وبغيهم ، ويُمنعون ممَّا

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٤ .
(٢) انظر : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٤ .
(٣) الفتح (٤/ ٧٥٨) رقم (٣٥٧٧) .
(٤) الفتح (١١/ ١٦٤) رقم (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) .
(٥) المغازي (٢/ ٥٨٨) .
(٦) من رواية أبي الأسود عنه ، كمَّا ذكر ابن حجر في الفتح (١١/ ١٦٤) .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٤ .
(٨) انظر : صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٣ .
(٩) انظر : فتح الباري ، لابن حجر (٦/ ٢٦٠) .
(١٠) انظر : فتح الباري ، لابن حجر (٦/ ٦١) .

سوى ذلك ، فكلُّ من التمس المعاونة على محبوبٍ مُرْضٍ له أجيب إلى ذلك كائناً مَنْ كان ، ما لم يترتَّب على إعانته على ذلك المحبوب مبغوضٌ للهِ أعظم منه، وهذا من أدقِّ المواضيع، وأصعبها، وأشقِّها على النُّفوس[١] .

٤ ـ إنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، جلَّت قدرتُه ، وعزَّت عظمتُه قضى ألا يكون قتالٌ بين المسلمين ، والمشركين من أهل مكَّة في هذه الغزوة بالذَّات لِحكَمٍ ظهرت فيما بعدُ؛ منها:

أ ـ إنَّ دخول المسلمين بالقوَّة يعني: أن تحدث مذابح ، وتَزْهَقَ أرواحٌ كثيرةٌ ، وتُسفَك دماءٌ غزيرةٌ من الطَّرفين ، وهذا أمرٌ لم يُرِدْه البارئ سبحانه ، وكان لمصلحة الفريقين: المؤمنين ، والمشركين.

ب ـ إنَّ من المحتمل أن ينال الأذى ، والقتل ، والتَّشريد على أيدي المؤمنين بعض المستضعفين من إخوانهم المسلمين في مكَّة؛ الَّذين يُخفون إسلامهم خوفاً من قومهم ، وهذا فيه ما فيه من المعرَّة الَّتي لا يليق بمسلمٍ أن يقع فيها.

قال سبحانه: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٥].

ج ـ لقد سبق في علم الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: أنَّ هؤلاء الَّذين يقفون اليوم صادِّين رسول الله ﷺ ، وأصحابه رضي الله عنهم عن المسجد الحرام هم الَّذين سيفتح الله قلوبهم إلى الإسلام ، وسيفتح الله على أيديهم بلاداً كثيرةً ، حين يحملون هذه الرِّسالة للنَّاس ، وينيرون ظلمة الطَّريق للمُدْلجين[٢] .

خامساً: السَّفارة بين الرَّسول ﷺ ، وقريش:

بذل رسول الله ﷺ ما في وُسْعِه؛ لإفهام قريش: أنَّه لا يريد حرباً معهم ، وإنَّما يريد زيارة البيت الحرام ، وتعظيمه ، وهو حقٌّ للمسلمين ، كما هو حقٌّ لغيرهم ، وعندما تأكَّدت قريش من ذلك أرسلت إليه مَنْ يفاوضه ، ويتعرَّف على قوَّة المسلمين ، ومدى عزمهم على القتال؛ إذا أُلجئوا إليه ، وطمعاً في صدِّ المسلمين عن البيت بالطُّرق السِّلميَّة من جهةٍ ثالثةٍ[٣] .

---

(١) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٧.
(٢) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٤٥.
(٣) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٥.

١ ـ رَكْبٌ من خزاعة بقيادة بُدَيْل بن ورقاء:

جاء بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجالٍ من خُزاعة، وكانت خزاعة عَيْبَةَ[١] نُصْح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، وبيَّنوا: أنَّ قريشاً تعتزم صدَّ المسلمين عن دخول مكة، فأوضح لهم الرَّسول ﷺ سبب مجيئه، وذكر لهم الضَّرر الَّذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينهم هدنةٌ إلى وقتٍ معلومٍ حتَّى يتَّضح لهم الأمر، وإن أبوا؛ فلا مناص من الحرب، ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريشٍ، وقالوا لهم: يا معشر قريش! إنَّكم تعجَلون على محمَّدٍ، إنَّ محمداً لم يأتِ لقتال، وإنَّما جاء زائراً هذا البيت. فاتَّهموهم، وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنَّما جاء لذلك؛ فلا والله! لا يدخلها علينا عَنْوَةً أبداً، ولا تتحدَّث بذلك العرب[٢]. وقد ظهرت براعة النَّبيِّ ﷺ السِّياسيَّة في عرضه على مشركي مكَّة الهدنة، والصُّلح؛ لأنَّ في ذلك فوائدَ كثيرةً، منها:

أ ـ بالهدنة يضمن حياد قريش، ويعزلها عن أيِّ صراعٍ يحدث في الجزيرة العربيَّة، سواءٌ كان هذا الصِّراع مع القبائل العربية الأخرى، أم مع اليهود؛ ذلك العدوُّ اللَّئيم الغادر؛ الَّذي يتربَّص بالمسلمين الدَّوائر.

ب ـ حرص الرَّسول ﷺ على أن يبقى باب الاتِّصال مفتوحاً بينه، وبين قريشٍ، ليسمع منهم، ويسمعوا منه بواسطة الرُّسل، والسُّفراء، وفي هذا تقريبٌ للنُّفوس وتبريدٌ لجوِّ الحرب، وإضعافٌ لحماسهم نحو القتال.

ج ـ حرصُه ﷺ على أن تُدْرِك خزاعةُ بقيادة بُديلٍ، والرَّكبُ الَّذي معه: أن حليفهم قويٌّ، فتزداد ثقتُهم به، وحلفهم له، ولبني هاشم من قبل الإسلام، فقد بقي، ولم يُلْغَ، وتأكَّد في صلح الحديبية.

د ـ إنَّ العقلاء الَّذين يفكِّرون بعقولهم حين يسمعون كلام الرَّسول ﷺ، وأنَّه جاء معظماً للبيت؛ والمشركون يردُّونه، وهو يصرُّ على تعظيمه سيقف هؤلاء بجانبه، ويتعاطفون معه، فيقوى مركزُه، ويضعُف مركز قريشٍ الإعلاميُّ، والدِّينيُّ في نفوس النَّاس.

هـ ـ إنَّ مشركي مكَّة لم يطمئنُّوا إلى كلام بُديلٍ الَّذي نقله إليهم؛ ذلك لأنَّهم يعلمون: أنَّ خُزاعة كانت عَيْبَةَ نُصْحٍ لرسول الله ﷺ، ويشعرون بودِّ خُزاعة للرَّسول ﷺ، والمسلمين[٣].

و ـ ويؤخذ من جواب رسول الله ﷺ لبُديل بن ورقاء حسنُ التلطُّف للوصول إلى الطَّاعات،

---

(١) أي: خاصَّته، وأصحاب سرِّه.

(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٣/ ٣٤٠)، والبداية والنِّهاية (غزوة الحديبية).

(٣) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص ٦٧.

وإن كانت غير واجبةٍ ما لم يكن ذلك ممنوعاً شرعاً؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أجاب المشركين لمَّا طلبوا منه، ولم يُظهر لهم ما في النُّفوس من البغض، والكراهية لهم لطفاً منه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ فيما يؤمِّل مِنَ البلوغ إلى الطَّاعة؛ الَّتي خرج من أجلها[١].

٢ ـ سفارة عروة بن مسعودٍ الثَّقفيِّ:

لم تقبل قريش ما نقله بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخُزاعيُّ عن رسول الله ﷺ؛ من أنَّه جاء زائراً للبيت، ولم يأتِ مقاتلاً، واتَّهمتهم، بل وأسمعتهم ما يكرهون، فاقترح عليهم عروةُ بن مسعودٍ الثَّقفي أن يقابل الرَّسول ﷺ، ويسمع منه، ثمَّ يأتيهم بالخبر اليقين[٢]، وقد ذكر ذلك البخاريُّ في صحيحه، فقال: . . . فقام عروةُ بن مسعودٍ فقال: أيْ قومِ، ألستم بالوالدِ؟ قالوا: بلى! قال: أولستُ بالولد؟ قالوا: بلى! قال: فهل تتَّهموني؟ قالوا: لا! قال: ألستم تعلمون أنِّي استنفرت أهل عكاظ[٣]، فلما بَلَّحُوا[٤] عليَّ جئتكم بأهلي، وولدي، ومن أطاعني؟ قالوا: بلى! قال: فإنَّ هذا قد عرض عليكم خُطَّةَ رُشْدٍ فاقبلوها، ودعوني آتِه، قالوا: ائته. فأتاه، فجعل يكلِّم النَّبي ﷺ، فقال النَّبيُّ ﷺ نَحْواً من قوله لبُدَيْلٍ، فقال عُرْوَةُ عند ذلك: أيْ محمَّدُ! أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحدٍ من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى فإنِّي والله لا أرى وجوهاً، وإنِّي لأرى أشواباً[٥] من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا، ويَدَعُوك. فقال أبو بكر: امْصُصْ بَظْرَ[٦] اللَّاتِ، أنحن نفرُّ عنه وندعه؟! فقال: مَنْ ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والَّذي نفسي بيده! لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِكَ بها؛ لأجبتُك.

لقد حاول عروة بن مسعود أن يشنَّ على المسلمين حرباً نفسيَّة حتَّى يهزمهم معنويّاً، فاستخدم عنصر الإشاعة، ويظهر ذلك عندما لوَّح بقوَّة قريشٍ العسكريَّة، معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريشٍ لا محالة، وذلك جدير بحدوث الفتنة، والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك حينما حاول إضعاف الثِّقة بين القائد، وجنوده، عندما قال للنَّبي ﷺ: فإنِّي والله! لا أرى وجوهاً، وإنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا، ويدعوك.

حاول ذلك من أجل التأثير على نفسيَّات المسلمين، ولخدمة أهداف قريشٍ العسكريَّة،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٦٨.
(٢) انظر: صلح الحديبية، لأبي فارس، ص ٦٨.
(٣) اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية في شمال الطَّائف يعقد كلَّ عام.
(٤) بلَّحوا عليَّ: أبَوا، كأنَّهم أعيوا عن الخروج معه، وإعانته (أي: امتنعوا).
(٥) أشواباً: أي: أخلاطاً من قبائل شتَّى.
(٦) البظر: ما تقطعه الخاتنة من بضع المرأة عند ختانها.

والإعلاميَّة ، وحاول ـ أيضاً ـ أن يفتعل أزمةً عسكريَّة كبيرةً بين النَّبيِّ ﷺ وجنوده من أجل التَّأثير على معنوياتهم ، وتحطيم عزائمهم ، وهذا من أقوى أساليب الحرب النَّفسية الَّتي استخدمت ضدَّ المسلمين أثناء تلك المفاوضات، وحاول عروة أن يثير الرُّعب، وذلك بتخويف المسلمين من قوَّة قريش الَّتي لا تقهر ، وتصوير المعركة بأنَّها في غير صالحهم. لقد مارس عروةُ بن مسعودٍ في مفاوضاته عناصر الحرب النفسيَّة من إشاعةٍ، وافتعال الأزمات، وإثارة الرُّعب[1]، إلا أنَّ تلك العناصر تحطَّمت أمام الإيمان العميق ، والتَّكوين الدَّقيق ، والصَّفِّ الإسلاميِّ المرصوص.

ومن المفارقات الرَّائعة الَّتي حصلت أثناء المفاوضات مع عروة بن مسعود، وهي من عجائب الأحداث الَّتي يستشفُّ منها الدَّليل القاطع على قوة الإيمان الَّتي كان يتمتَّع بها أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، وعلى قدرة هذا الدِّين من تحويل الإنسان من شيطانٍ مريدٍ إلى إنسان فاضلٍ نبيلٍ ، حيث كان أحد الذين يتولَّون حراسة النَّبيِّ ﷺ أثناء محادثاته مع عروة بن مسعود الثَّقفي في الحديبية هو المغيرة بن شُعبة[2] ، ابن أخي عروة بن مسعود نفسه، وكان المغيرة هذا قبل أن يهديه الله للإسلام شاباً فاتكاً سكِّيراً ، قاطعاً للطَّريق، غير أنَّ دخوله للإسلام حوَّله إلى إنسانٍ آخر ، وقد أصبح بفضل الله تعالى من الصَّفوة المؤمنة ، وقد وقع عليه الاختيار ليقوم بمهام حراسة النَّبيِّ ﷺ في ذلك الجو الملبَّد بغيوم الحرب، وكان من عادة الجاهليَّـة في المفاوضات، أن يمسك المفاوض بلحية الَّذي يراه ندّاً له أثناء الحديث ، وعلى هذه القاعدة كان عروة بن مسعود يمسك بلحية رسول الله ﷺ أثناء المناقشة ، الأمر الَّذي أغضب المغيرة بن شعبة؛ الَّذي كان قائماً على رأس رسول الله ﷺ بالسَّيف يحرسه ، وعلى وجهه المغفر ، فانتهر عمَّه ، وقرع يده بقائم السَّيف قائلاً له: اكفف يدك عن مسِّ لحية رسول الله ﷺ قبل ألا تصلَ إليك ، وكان النَّبيُّ ﷺ يبتسم لِلَّذي يجري بين عروة المشرك وبين ابن أخيه المؤمن.

ولمَّا كان المغيرة بن شعبة يقف بلباسه الحربيِّ متوشحاً سيفه ، ودرعه ، وعلى وجهه المغفر؛ فإنَّ عمَّه عروة لم يكن باستطاعته معرفته ، فقال للنَّبيِّ ﷺ وهو في أشدِّ الغضب: ليت شعري من أنت يا محمَّد مِنْ هذا الَّذي أرى من بين أصحابك؟ فقال له رسول الله ﷺ : هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة ، فقال له عمُّه: وأنت بذلك يا غُدَر؟! لقد أورثتنا العداوة من ثقيف أبد الدَّهر ، والله ما غسلت غدرتك إلا بالأمس ، كان المغيرة صحب قوماً في الجاهليَّة ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثمَّ جاء ، فأسلم ، فقال النَّبيُّ ﷺ : أمَّا الإسلام فأقبل ، وأمَّا المال فلست منه في شيء.

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، لسليم حجازي ، ص ١٣١ ، ١٣٢.

(٢) أسلم قبل عمرة الحديبية ، وشهدها ، وشهد بيعة الرضوان ، أصيبت عينه في اليرموك وكان رسول سعد بن أبي وقاص إلى رستم ، انظر: الإصابة (٣/ ٤٥٢).

لقد فشل عروة في مفاوضاته، ورجع محذِّراً قريشاً من أن تدخل في صراعٍ مسلَّحٍ مع النَّبيِّ ﷺ، وأصحابه، وقال لهم: . . . يا قوم! إنِّي قد وفدت على الملوك: على كسرى، وهرقل، والنَّجاشي، وإنِّي والله ما رأيت ملكاً قطُّ أطوع فيمن هو بين ظهرانيه من محمَّد، وأصحابه، والله! ما يشدُّون إليه النَّظر، وما يرفعون عنده الصَّوت، وما يكفيه إلا أن يشير إلى أمرٍ، فيفعل، وما يتنخَّمُ، وما يبصق إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم يمسح بها جلده، وما يتوضَّأ إلا ازدحموا عليه أيُّهم يظفر منه بشيءٍ.

وقد حزرت القوم، واعلموا أنَّكم إن أردتم السَّيف؛ بذلوه لكم، وقد رأيت قوماً ما يبالون ما يُصنعُ بهم؛ إذا منعوا صاحبهم. والله! لقد رأيت نسيات معه، إن كنَّ ليسلمنه أبداً على حالٍ، فَـرَوا رأيكم، وإيَّاكم وإضجاع[1] الرَّأي، فمادُّوه يا قوم، اقبلوا ما عرض، فإنِّي لكم ناصحٌ مع أنِّي أخاف ألا تُنْصَروا عليه؛ رجلٌ أتى هذا البيت معظِّماً له، معه الهدي، ينحره، وينصرف! فقالت قريش: لا تكلَّم بهذا يا أبا يعفور[2]! لو غيرك تكلَّم بهذا؛ لَلُمْنَاهُ، ولكن نردُّهُ عن البيت في عامنا هذا، ويرجع قابل[3].

لقد انتقلت الحرب النَّفسيَّـة وتأثيرها في صفوف المسلمين لتعمل داخل جبهة قريشٍ، وفي نفوسهم، فقد كان تصوير عروة لما رآه صادقاً، حيث بيَّن لقريشٍ وضع المسلمين في الحديبية، من طاعتهم لنبيِّهم الكريم، وحبِّهم له، وتفانيهم بالدِّفاع عنه، وبما يتمتَّعون به من معنوياتٍ عاليةٍ جدّاً، واستعدادٍ عسكريٍّ، ونفسيٍّ يفوق الوصف، فكان ذلك بمثابة التَّحذير الفعليِّ لقريش بعدم التَّعجُّل، والدُّخول في حربٍ مع النَّبيِّ ﷺ، وأصحابه، ممَّا قد تكون نتائج هذه المعركة لصالح المسلمين، الأمر الَّذي أُسقِطَ في أيدي زعمائها، ولم تكن قريش تتوقَّعه أبداً في تقويمها للأمور.

لقد كان وَقْعُ كلِّ كلمةٍ قالها سيِّد ثقيف كالصَّاعقة على مسامع نفوس زعماء قريش، لقد كان ﷺ موفقاً من قبل الله تعالى، ولذلك نجد أثره على عروة بن مسعود ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في معسكر قريش، وأخذت جبهة قريش تتداعى أمام قوَّة الحقِّ الصَّامدة، وكذلك فقد انهارت حُجَّة قريش في جمعها للعرب ضدَّ النَّبيِّ ﷺ.

لقد نجح النَّبيُّ ﷺ بحكمته، وذكائه نجاحاً عظيماً باستخدام الأساليب الإعلاميَّة، والدبلوماسيَّة المتعدِّدة للحصول على الغاية المنشودة، وهي تفتيت جبهة قريش الدَّاخلية، وإيقاع الهزيمة في نفوسهم، وإبعاد حلفائهم عنهم، وإنَّ هذه النتيجة لتعدُّ بحقٍّ نصراً ساحقاً

---

(١) إضجاع الرأي: أي: الوهن في الرأي.
(٢) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثَّقفي.
(٣) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٥٩٨).

حقّقه رسول الله ﷺ على الجبهات السّياسيّة ، والإعلاميّة ، والعسكريّة[١] .

٣ ـ سفارة الحُلَيْسِ بن علقمة :

ثمَّ بعثوا الحُلَيْسَ بن علقمة الكِنانيَّ سيِّد الأحابيش ، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ قال: «إنَّ هذا من قوم يتألَّهون ، فابعثوا الهدي في وجهه حتَّى يراه» ، وأمر برفع الصَّوت في التَّلبية ، فلمَّا رأى الحُلَيْسُ الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده؛ رجع إلى قريشٍ قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ ، وذلك إعظاماً لما رأى[٢] ، فقد كان الوادي مجدباً لا ماء فيه ، ولا مرعى ، وقد أكل الهدي أوباره من طول الحبس عن مَحِلِّه ، ورأى المسلمين؛ وقد استقبلوه رافعين أصواتهم بالتَّلبية ، وهم في زيِّ الإحرام ، وقد شعِثوا من طول المكوث على إحرامهم. . . ولذلك استنكر تصرُّف قريشٍ بشدَّةٍ ، وانصرف سيِّد بني كنانة عائداً من حيث أتى دون أن يفاتح النَّبيَّ ﷺ بشيءٍ ، أو أن يفاوضه ، كما كان مقرَّراً من قبل ، واعتبر عمل قريش عدوانيّاً ضدَّ زوَّار بيت الله الحرام ، ولا يجوز لأحدٍ أن يؤيِّدها ، أو أن يناصرها على ذلك[٣] ، فرجع محتجّاً على قريشٍ الَّتي أعلنت غضبها لصراحة الحُلَيْس ، وحاولت أن تتلافى هذا الموقف الَّذي يهدِّد بانقسامٍ خطير في جبهة قريشٍ العسكريَّة ، ونسف الحلف المعقود بين قريش ، والأحابيش ، وقالوا لزعيم الأحابيش: إنَّما كلُّ ما رأيت هو مكيدةٌ من محمَّدٍ ، وأصحابه ، فاكفف عنَّا حتَّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به[٤] .

لقد كان النَّبيُّ ﷺ عالماً ، ومستوعباً لشخصية الحُلَيْس ، ونفسيَّته ، ويظهر ذلك في قوله ﷺ : «هذا من قوم يتألَّهون» ، فالواضح من هذه المعلومة: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان على معرفةٍ تامَّةٍ بهذا الرَّجل ، وبحكم هذه المعرفة قد درس شخصيته دراسةً موضوعيَّةً ، وذلك بما كان عنده من حبٍّ شديدٍ من التعظيم للحرمات ، والمقدَّسات والعمل على الاستفادة الكاملة من هذا الجانب في كسب المعرفة ، وعلى هذا الأساس فقد قام ﷺ بوضع خطَّةٍ مُحْكَمةٍ مناسبةٍ تقضي بوضع الحقائق كاملةً أمام هذا الرَّجل، وإظهار موقف المسلمين، أو على الأقلِّ وقوفه على الحياد في هذا الصِّراع .

والجدير بالذِّكر: أنَّ الحُلَيْسَ كان يتمتَّع بسمعةٍ طيِّبةٍ بين العرب جميعاً؛ وذلك لما يتميَّز به من رجاحة العقل ، ولما يتمتَّع به من مركزٍ ممتازٍ بوصفه زعيماً ، وقائداً لقوات الأحابيش ، كما كان يتمتَّع باحترامٍ وتقديرٍ من جانب النَّبيِّ ﷺ وقريشٍ على حدٍّ سواء ، لهذا فإنَّه إذا ما تبيَّن له أنَّ

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، ص ١٤٥ .
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٤٨٨ .
(٣) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ١٠٨ .
(٤) الواقدي ، المغازي (٢/ ٦٠٠).

الحقِّ ، والعدل في جانب المسلمين؛ فإنَّه يستطيع أن يقوم بدورٍ مهمٍّ في إحلال السَّلام بين الطَّرفين المتنازعين ، والعمل على كبح جماح قريش ، وإقناعها بالعدول عن موقفها العدائيِّ ضدَّ المسلمين ، وصدِّهم عن المسجد الحرام . ومن هنا فقد كانت الدِّراسة النَّفسيَّة التي قام بها رسول الله ﷺ لشخصيَّة الحُلَيْس تتناسب كلِّيّاً مع المبادئ الَّتي يؤمن بها ، وعلى ذلك فقد كانت درجة التأثير والاستجابة الناتجة عن هذه العمليَّة إيجابيةً تماماً[١] ، ومرضيةً .

وهكذا استطاع ﷺ أن يؤثِّر على عروة بن مسعود ، والحُلَيْس بن علقمة ممَّا جعل الانشقاق يدبُّ في صفوف مشركي مكَّة . يقول الأستاذ العقَّاد عن قدرة الرَّسول ﷺ في توظيف الطَّاقات ، وإدارة الصِّراع : كان رسول الله ﷺ الخبير بتجنيد بعوث الحرب ، وبعوث الاستطلاع ، خبيراً كذلك بتجنيد كلِّ قوَّةٍ في يده متى وجب القتال ، إن كانت قوَّة رأيٍ ، أو قوَّة لسانٍ ، أو قوَّة نفوذٍ ، فما نعرف أنَّ أحداً وجَّه قوَّة الدَّعوة توجيهاً أشدَّ ، ولا أنفع في بلوغ الغاية من توجيهه ﷺ . ثمَّ يضيف الكاتب قائلاً : والدَّعوة في الحرب ـ كما لا يخفى ـ لها غرضان أصيلان من بين أغراضها العديدة :

أحدهما : إقناع خصمك والنَّاس بحقِّك .

وثانيهما : إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه ، وإيقاع الشَّتات بين صفوفه . ثمَّ يقول : وربما بلغ النَّبيُّ ﷺ برجلٍ واحدٍ في هذا الغرض ما لم تبلغه الدُّول بالفِرَق المنظَّمة[٢] .

٤ ـ سفارة مِكْرَز بن حَفْصٍ :

وكان من سفراء قريش يوم الحديبية مِكْرَزُ بن حفصٍ ، وقد روى البخاريُّ ذلك فقال : . . . فقام رجلٌ منهم ، يقال له : مِكْرَز بن حفصٍ ، فقال النَّبيُّ ﷺ : هذا مكرَز ، وهو رجلٌ فاجر ، فجعل يُكَلِّمُ النَّبيَّ ﷺ ، فبينما هو يكلِّمه إذ جاء سُهَيْلُ بن عمرو ، قال مَعْمَر : فأخبرني أيُّوب عن عكرمة : أنَّه لما جاء سهيل بن عمرو ، قال النَّبيُّ ﷺ : «قد سَهُلَ لكم من أمركم» ولنا حديثٌ مع سهيلٍ بإذن الله تعالى .

سادساً : الوفود النَّبويَّة إلى قريشٍ ، ووقوع بعض الأسرى في يد المسلمين :

رأى النَّبيُّ ﷺ أنَّ من الضَّرورة إرسال مبعوثٍ خاصٍّ من جانبه إلى قريشٍ يبلِّغهم فيها نواياه السِّلميَّة بعدم الرَّغبة في القتال ، واحترام المقدَّسات ، ومن ثَمَّ أداء مناسك العمرة ، والعودة إلى المدينة، فوقع الاختيار على أن يكون مبعوث الرَّسول ﷺ إلى قريش (خِراشَ بن أُميَّة الخُزاعيَّ) ، وحمله على جملٍ يقال له : (الثَّعلب) ، فلمَّا دخل مكَّة عقرت به قريش ، وأرادوا

---

(١) انظر : منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، ص ١١١ .
(٢) انظر : عبقرية محمَّد ﷺ ، ص ٤٩ .

قتل خِرَاش، فمنعهم الأحابيش، فعاد خِراش بن أميَّة إلى رسول الله ﷺ، وأخبره بما صنعت قريش، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسل سفيراً آخر لتبليغ قريشٍ رسالة رسول الله ﷺ، ووقع اختيار الرَّسول ﷺ في بداية الأمر على عمر بن الخطَّاب[١]، فاعتذر لرسول الله ﷺ عن الذَّهاب إليهم، وأشار على رسول الله ﷺ أن يبعث عثمان مكانه[٢]، وعرض عمر رضي الله عنه رأيه هذا معزَّزاً بالحجَّة الواضحة، وهي ضرورة توافر الحماية لمن يخالط هؤلاء الأعداء؛ وحيث إنَّ هذا الأمر لم يكن متحقِّقاً بالنِّسبة لعمر رضي الله عنه؛ فقد أشار على النَّبيِّ ﷺ بعثمان رضي الله عنه؛ لأنَّ له قبيلةً تحميه من أذى المشركين حتَّى يبلِّغ رسالة رسول الله ﷺ[٢]، وقال لرسول الله ﷺ: إنِّي أخاف قريشاً على نفسي، قد عرفَتْ عداوتي لها، وليس بها من بني عديٍّ مَنْ يمنعني، وإن أحببت يا رسول الله! دخلت عليهم[٢]، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً. قال عمر: ولكن أدلُّك يا رسول الله! على رجلٍ أعزَّ بمكَّة منِّي، وأكثر عشيرةً، وأمنع: عثمان بن عفان.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه، فقال: اذهب إلى قريشٍ فخبرهم، أنَّا لم نأتِ لقتال أحدٍ، وإنما جئنا زوَّاراً لهذا البيت، معظِّمين لحرمته، معنا الهديُ، ننحرُه، وننصرف، فخرج عثمان بن عفَّان رضي الله عنه حتَّى أتى بلدح[٣]، فوجد قريشاً هنالك، فقالوا: أين تريد؟

قال: بعثني رسول الله ﷺ إليكم، يدعوكم إلى الله، وإلى الإسلام، تدخلون في الدِّين كافَّةً، فإنَّ الله مظهرٌ دينه، ومعزٌّ نبيه، وأخرى: تكفُّون، ويلي هذا منه غيرُكم، فإن ظفروا بمحمَّدٍ؛ فذلك ما أردتم، وإن ظفر محمَّدٌ؛ كنتم بالخيار أن تدخلوا فيما دخل فيه النَّاس، أو تقاتلوا؛ وأنتم وافرون جامُّون، إنَّ الحرب قد نهكتكم، وأذهبت بالأماثل منكم...... فجعل عثمان يكلِّمهم، فيأتيهم بما لا يريدون، ويقولون: قد سمعنا ما تقول، ولا كان هذا أبداً، ولا دخلها علينا عَنْوَةً، فارجع إلى صاحبك، فأخبره أنَّه لا يصل إلينا.

فقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحَّب به، وأجاره، وقال: لا تقصر عن حاجتك، ثمَّ نزل عن فرسٍ كان عليه، فحمل عثمان على السَّرج، وردفه وراءه، فدخل عثمان مكَّة، فأتى أشرافهم رجلاً رجلاً: أبا سفيان بن حرب، وصفوان بن أميَّة، وغيرهما، منهم من لقي ببلدح، ومنهم من لقي بمكَّة، فجعلوا يردُّون عليه: إن محمَّداً لا يدخلها علينا أبداً[٤].

---

(١) انظر: غزوة الحديبية، لأبي فارس، ص ٨٣.

(٢) انظر: المغازي، للواقديِّ (٢/ ٦٠٠).

(٣) مكانٌ قريبٌ من مكَّة.

(٤) زاد المعاد (٣/ ٢٩٠)، والسِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٣/ ٣٤٤).

وعرض المشركون على عثمان رضي الله عنه أن يطوف بالبيت ، فأبى[(١)] ، وقام عثمان بتبليغ رسالة رسول الله ﷺ إلى المستضعفين بمكَّة وبشَّرهم بقرب الفرج ، والمخرج[(٢)] ، وأخذ منهم رسالةً شفهيَّة إلى رسول الله ﷺ جاء فيها: اقرأ على رسول الله ﷺ منا السَّلام ، إنَّ الَّذي أنزله بالحديبية لقادرٌ على أن يدخله بطن مكَّة[(٣)] .

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصُّلح ، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر ، وكانت معركةٌ ، وتراموا بالنَّبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كلُّ واحدٍ من الفريقين بمن فيهم[(٤)] ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن ذلك ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

وقد روى مسلم سبب نزول الآية السابقة: أنَّ ثمانين رجلاً من أهل مكَّة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التَّنعيم متسلِّحين ، يريدون غِرَّة[(٥)] النَّبيِّ ﷺ وأصحابه ، فأخذهم سِلْماً[(٦)] ، فاستحياهم[(٧)] ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ الآية المذكورة. [مسلم (١٨٠٨)، وأحمد (٣/ ١٢٢)، وأبو داود (٢٦٨٨)، والترمذي (٣٢٦٤)].

وهذا سلمة بن الأكوع يحدِّثنا عمَّا حدث قال: ثمَّ إنَّ المشركين راسلونا الصُّلح ، حتَّى مشى بعضنا في بعضٍ ، واصطلحنا ، قال: وكنت تبيعاً[(٨)] لطلحة بن عبيد الله ، أسقي فرسه ، وأحسُّه[(٩)] ، وأخدمه ، وآكل من طعامه ، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله قال: فلمَّا اصطلحنا نحن وأهل مكَّة ، واختلط بعضنا ببعض ، أتيت شجرةً فكسحت شوكها[(١٠)] ، فاضطجعت في أصلها ، قال: فأتاني أربعةٌ من المشركين من أهل مكَّة ، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ ، فأبغضتُهم ، فتحوَّلت إلى شجرةٍ أخرى ، وعلَّقوا سلاحهم ، واضطجعوا ، فبينما هم كذلك ؛ إذ نادى منادٍ من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زُنَيْمٍ! قال: فاخترطت

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٤).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩٠).
(٣) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٨٥.
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٥) (غِرَّة) الغرَّة: هي الغفلة: أي: يريدون غفلته. (شرح النَّووي ١٢/ ١٨٧).
(٦) سلماً: المراد به الاستسلام والإذعان. (شرح النَّووي ١٢/ ١٨٧).
(٧) فاستحياهم: فاستبقاهم. (المفردات للراغب ، ص ١٤٠).
(٨) تبيعاً: خادماً أتبعه. (شرح النووي ١٢/ ١٧٦).
(٩) وأحسه: أي احك ظهره بالمحسة لأزيل عنه الغبار ، وانظر: (شرح مسلم ، النووي ١٢/ ١٧٦).
(١٠) فكسحت شوكها: أي كنست ما تحتها من الشوك ، وانظر: (شرح مسلم ، النووي ١٢/ ١٧٦).

سيفي[١] ثمَّ شددت على أولئك الأربعة وهم رقود ، فأخذت سلاحهم ، فجعلته ضِغْثاً[٢] في يدي . قال: ثمَّ قلت: والَّذي كرَّم وجه محمَّد! ما يرفع أحدٌ منكم رأسه إلا ضربت الَّذي فيه عيناه[٣] ، قال: ثمَّ جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ . قال: وجاء عمِّي عامرٌ برجلٍ من العَبَلاتِ[٤] يقال له: مِكْرَزٌ ، يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرسٍ مُجَفَّفٍ[٥] في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال: «دعوهم ، يكن لهم بدء الفُجُور وثِنَاه»[٦] فعفا عنهم رسول الله ﷺ ، وأنزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤] [مسلم (١٨٠٧)].

قال ابن كثير: هذا امتنانٌ من الله تعالى على عباده المؤمنين حيث كفَّ أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوءٌ ، وكفَّ أيدي المؤمنين عن المشركين ، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرٌ للمؤمنين ، وعافيةٌ في الدُّنيا ، والآخرة[٧].

والكفُّ: منع الفاعل من فعلٍ أراده ، أو شرع فيه ، وهو مشتقٌّ من اسم الكفِّ الَّتي هي اليد؛ لأنَّ أصل المنع أن يكون دفعاً باليد ، ويقال: كفَّ يده عن كذا: إذا منعه من تناوله بيده[٨].

وقوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ قال الرَّاغب: البطن خلاف الظَّهر في كلِّ شيءٍ ، ويقال للجهة السُّفلى: بطنٌ ، وللجهة العُليا: ظهرٌ[٩].

وجمهور المفسِّرين حملوا بطن مكَّة في الآية على الحديبية من إطلاق البطن على أسفل المكان ، والحديبية قريبةٌ من مكَّة وهي إلى مكَّة أقرب ، وهي من الحلِّ ، وبعض أرضها من الحرم ، وهي على الطَّريق بين مكَّة وجُدَّة ، وهي إلى مكَّة أقرب[١٠].

وختم الآية سبحانه بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤] هذه

---

(١) فاخترطت سيفي: أي سللته. (شرح مسلم ، النووي ١٢/١٧٦).
(٢) ضغثاً: الضغث: الحزمة. (شرح مسلم ، النووي ١٢/ ١٧٦).
(٣) الذي فيه عيناه: يريد رأسه.
(٤) العبلات: قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد. (شرح مسلم النووي ، ١٢/ ١٧٧).
(٥) مجفَّف: أي: عليه تجفاف ، وهو ثوب كالجلِّ يلبسه الفرس ليقيه من السِّلاح.
(٦) (وثناه): أي: عودة ثانيةً (شرح مسلم ، للنَّوويِّ ١٢/ ١٧٦).
(٧) تفسير ابن كثير (٤/ ١٩٢).
(٨) انظر: التَّحرير والتنوير (٢٦/ ١٧٨).
(٩) انظر: المفردات ، للرَّاغب ، ص ٥١.
(١٠) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٢٦/ ١٨٤).

إشارةٌ إلى أنَّ كف بعضهم عن بعض كان للمسلمين ؛ إذ منُّوا على العدوِّ بعد التمكُّن منه[١].

سابعاً: بيعة الرِّضوان:

لمَّا بلغ النَّبيَّ ﷺ : أنَّ عثمانَ رضي الله عنه قُتِل دعا رسولُ الله ﷺ أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ، ومناجزتهم ، فاستجاب الصَّحابة ، وبايعوه على الموت [البخاري (٤١٦٩) ، ومسلم (١٨٦٠)] ، سوى الجَدِّ بن قَيس ، وذلك لنفاقه[٢]. وفي روايةٍ: أنَّ البيعة كانت على الصَّبر[٣]. وفي روايةٍ على عدم الفرار [مسلم (١٨٥٦) ، وأحمد (٣/ ٣٩٦) ، والترمذي (١٥٩٤) ، والنسائي (٧/ ١٤٠ و١٤١)] ولا تعارض في ذلك؛ لأنَّ المبايعة على الموت تعني: الصَّبر ، وعدم الفرار[٤].

وكان أوَّل مَنْ بايعه على ذلك أبو سنان عبد الله بن وهب الأسديُّ[٥] ، فخرج النَّاس بعده يبايعون على بيعته[٦] ، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرَّاتٍ ، في أوَّل النَّاس ، وأوسطهم ، وآخرهم[٧] ، وقال النَّبيُّ ﷺ بيده اليمنى: «هذه عن عثمان» فضرب بها على يده. [البخاري (٣٦٩٨) ، والترمذي (٣٧٠٦) ، وأحمد (١/ ١٠١ و١٢٠)].

وكان عددُ الصَّحابة الَّذين أخذ منهم الرَّسول ﷺ المبايعة تحت الشجرة ألفاً وأربعمئة صحابيٍّ[٨] ، وقد تحدَّث القرآن الكريم عن أهل بيعة الرِّضوان ، وورد فضلُهم في نصوصٍ كثيرةٍ من الآيات القرآنيَّة ، والأحاديث النَّبويَّة ؛ منها:

١ ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

وهذه الآيـة فيها ثناءٌ ، ومدحٌ عظيمٌ لأهل بيعـة الرِّضوان ؛ فقـد جعل الله مبايعتهم لرسوله ﷺ مبايعةً لـه ، وفي هذا غاية التَّشريف ، والتَّكريم لهم رضي الله عنهم[٩].

قال ابن القيِّم: وتأمَّل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (٢/ ٢٣٠).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٦.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٩١).
(٧) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٠٤.
(٨) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٤٨٢.
(٩) انظر: عقيدة أهل السنَّة في الصَّحابة ، د. ناصر حسن الشَّيخ (١/ ٢٠٥).

فلمَّا كانوا يبايعون رسول الله ﷺ بأيديهم ، ويضرب بيده على أيديهم ، وكان رسول الله ﷺ هو السَّفير بينه وبينهم كانت مبايعتهم له مبايعة لله تعالى ، ولما كان سبحانه فوق سمواته على عرشه ، وفوق الخلائق كلِّهم كانت يده فوق أيديهم ، كما أنَّه سبحانه فوقهم[١] .

ومعنى قوله في الآية: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً جزيلاً وهو الجنَّة ، وما يكون فيها ممَّا لا عينٌ رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشرٍ[٢] .

٢ ـ وقال تعالى مخبراً برضاه عنهم: ﴿ ۞ لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ ـ ١٩] .

فقد أخبر الله تعالى أنَّه رضي عن أولئك الصَّفوة الأخيار من أهل بيعة الرِّضوان ، ومَنْ رضي الله عنه لا يسخط عليه أبداً ، فَلِلَّهِ ما أعظم هذا التكريم الذي ناله أهل بيعة الرضوان ، وما أعلاه من مَنْقَبَةٍ! ومعنى الآية: ﴿ ۞ لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لقد رضي الله يا محمد! عن المؤمنين ﴿ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ يعني: بيعة أصحاب رسول الله ﷺ بالحديبية حين بايعوه على مناجزة قريشٍ الحرب ، وعلى ألاَّ يفرُّوا ، ولا يولُّوهم الأدبار تحت الشَّجرة ، وكانت بيعتهم إيَّاه هنالك تحت شجرة السَّمُرة ﴿ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي: فعلم ربك يا محمد! ما في قلوب المؤمنين من أصحابك؛ إذ يبايعونك تحت الشَّجرة من صدق النِّيَّة ، والوفاء بما يبايعونك عليه ، والصبر ﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: فأنزل الطمأنينة والثَّبات على ما هم عليه من دينهم ، وحسن بصيرتهم بالحقِّ الَّذي هداهم الله له ﴿ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وهو فتح خيبر ، وأمَّا قوله تعالى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ أي: وأثاب الله هؤلاء الَّذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشَّجرة مع ما أكرمهم به من رضاه عنهم ، وإنزاله السَّكينة عليهم ، وإثابته إيَّاهم فتحاً قريباً ، وهو ما أجرى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أيديهم من الصُّلح بينهم ، وبين أعدائهم ، وما حصل بذلك من الخير العامِّ المستمرِّ المتَّصل بفتح خيبر ، وفتح مكَّة ، ثمَّ فتح سائر البلاد ، والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العزِّ ، والنَّصر ، والرِّفعة في الدُّنيا ، والآخرة[٣] ، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

٣ ـ أخبر الله تعالى عن أهل بيعة الرِّضوان: أنَّه ألزمهم كلمة التَّقوى ، الَّتي هي كلمة التَّوحيد ، وأنَّهم كانوا أحقَّ بها وأهلها. قال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ

---

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ١٧٢) .
(٢) انظر: روح المعاني ، للآلوسي (٢٦/ ٩٧) .
(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ٨٥ ـ ٨٦) ، وتفسير القرطبي (١٦/ ١٧٨) .

حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

فلقد بيَّن الله تعالى في هذه الآية: أنَّه ألزم الصَّحابة رضي الله عنهم كلمة التَّقوى، وأكثر المفسرين على أنَّ المراد بكلمة التَّقوى هي: (لا إله إلا الله)، وبيَّن أنَّهم أحقُّ بها من كفَّار قريش، وأنَّهم كانوا أهلها في علم الله؛ لأنَّ الله تعالى اختار لدينه، وصحبة نبيِّه ﷺ أهل الخير[1]. ذلك هو الثَّناء في القرآن على الصَّحابة الَّذين بايعوا النَّبيَّ ﷺ بيعة الرِّضوان بالحديبية، وقد ورد الثَّناء عليهم في السُّنَّة المطَّهرة في أحاديث كثيرةٍ، ومن ذلك ما يلي:

أ ـ مِنْ حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال لنا رسولُ الله ﷺ يوم الحديبية: «أنتم خيرُ أهل الأرض»، وكنا ألفاً وأربعمئة، ولو كنت أبصر؛ لأريتكم موضع الشَّجرة. [البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦/ ٧١)].

هذا الحديث صريحٌ في فضل أصحاب الشَّجرة، فقد كان من المسلمين إذ ذاك جماعةٌ بمكَّة، وبالمدينة، وبغيرهما، وتمسَّك به بعض الشِّيعة في تفضيل عليٍّ على عثمان؛ لأنَّ عليّاً كان من جملة من خوطب بذلك، وممَّن بايع تحت الشَّجرة، وكان عثمان حينئذٍ غائباً، وهذا التمسُّك باطلٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ بايع عنه، فاستوى معهم عثمان في الخيريَّة المذكورة، ولم يقصد في الحديث إلى تفضيل بعضهم على بعضٍ[2].

ب ـ وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أخبرتني أمُّ مبشِّر: أنَّها سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل النَّار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله! فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النَّبيُّ ﷺ: «قد قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢]». [أحمد (٦/ ٢٨٥)، ومسلم (٢٤٩٦)، وابن ماجه (٤٢٨١)].

قال النَّوويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: قوله ﷺ: «لا يدخل النَّار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشَّجرة أحدٌ؛ الَّذين بايعوا تحتها». قال العلماء: معناه: لا يدخلها أحدٌ منهم قطعاً. . . . وإنَّما قال: إن شاء الله للتبرُّك، لا للشكِّ. وأمَّا قول حفصة: بلى! وانتهار النَّبيِّ ﷺ لها، فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال النَّبيُّ ﷺ: «وقد قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾» فيه دليلٌ للمناظرة، والجواب على وجه الاسترشاد، وهو مقصودُ حفصة لا أنَّها أرادت ردَّ مقالته ﷺ. والصَّحيح:

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦/ ١٠٣ ـ ١٠٦).
(٢) فتح الباري (٧/ ٤٤٣).

أنَّ المراد بالورود في الآية: المرور على الصِّراط، وهو جسرٌ منصوبٌ على جهنَّم، فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون[١].

ج ـ وروى الإمامُ مسلم بإسناده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «من يصعد الثَّنيَّةَ ثنيةَ المُرَارِ[٢]، فإنَّه يُحطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل». قال: فكان أوَّل مَنْ صعدها خيلنا؛ خيلُ بني الخزرج، ثمَّ تتامَّ النَّاس، فقال رسول الله ﷺ: «كلُّكم مغفورٌ له إلا صاحب الجمل الأحمر». فأتيناه، فقلنا له: تعال يستغفر لك رسول الله ﷺ، فقال: والله! لأن أجد ضالَّتي أحبُّ إليَّ من أن يستغفر لي صاحبُكم، قال: وكان رجلاً ينشد ضالةً له. [مسلم (٢٧٨٠/ ١٢)].

وهذا الحديث تضمَّن فضيلةً عظيمةً لأصحاب الحديبية رضي الله عنهم، وتلك الفضيلة مغفرةُ الله لهم، وأكرمْ بها مِنْ فضيلة منحهم إيَّاها الرَّبُّ ـ جل وعلا ـ لإخلاصهم في طاعتهم واستجابتهم لله، والرَّسول ﷺ بالسَّمع، والطَّاعة![٣].

إنَّ جيل الحديبية له سماتٌ كما في النُّصوص الصَّحيحة، فهم خير أهل الأرض، وغفر الله لهم، ولا يدخل منهم أحدٌ النَّار، وهذا الجيل مكوَّنٌ من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصار من أهل بدرٍ، ومن صلَّى القبلتين، ومن التحق بهم من الَّذين اتَّبعوهم بإحسانٍ.

وحين نُمعن النَّظر في هذا الجيل الفريد مقارنةً مع أهل بدرٍ؛ نلاحظ ارتفاع عدد المهاجرين إلى النِّصف من الجيش، وهذا الارتفاع الهائل في عدد المهاجرين من ثلاث وثمانين في بدرٍ إلى ثمانمئة، كان معظمه من القبائل العربيَّة المجاورة، وهي قبائل صغيرةٌ؛ إذا قيست بالقبائل الكبرى، لكنَّ شبابها كانوا يغدون إلى المدينة، ينضوون تحت لواء رسول الله ﷺ، ويتلقَّون التَّربية اليوميَّة في المسجد، والتَّربيَّة العملية في المعارك، والغزوات، فيتدرَّبون على الجنديَّة الخالصة، ويفقهون دينهم مباشرةً من رسول ربِّ العالمين ﷺ، وينشؤون في ظلال القدوة العُليا لهم من السَّابقين الأوَّلين من المهاجرين، والأنصار، ويتنافسون في الطَّاعة، والامتثال لأمر الله، ورسوله، فنالت قبائلهم بذلك شرفاً ربا على القبائل الكُبرى؛ الَّتي تخاذلت في الانضمام للإسلام، فقبيلة أسلم، وغفار كانت على رأس هذه القبائل، ويعود الفضل ـ بعد الله ـ في ذلك إلى الرَّعيل الأوَّل منهم، واللبنات الأولى الَّتي انضمَّت إلى الدَّعوة، إلى أبي ذرٍّ الغفاريِّ، الَّذي كان من السَّابقين في إسلامه بمكَّة، ومضى داعياً في قومه حتَّى جاءه سبعون بيتاً من غفار يؤمُّ بهم المدينة بعد أحدٍ، وإلى بريدة بن الحصيب الأسلميِّ، الَّذي تلقَّى

---

(١) شرح النَّووي على صحيح مسلم (١٦/ ٨٥).
(٢) ثنية المُرَار: مهبط الحديبية والمُرار.
(٣) انظر: عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة (١/ ٢١٢).

رسولَ الله ﷺ قبل دخوله المدينة ، فأسلم ، ومعه سبعون من قومه كذلك[١] .

أمَّا القبائل الأخرى من مُزينة ، وجُهينةَ ، وأَشْجَع ، وخُزاعةَ ؛ فقد بدأ شبابُها يفدون إلى المدينة ، لكن بأعدادٍ ضئيلةٍ ، وبقي كيان القبيلة على الشِّرك ، وبقي أعرابيّاً بعيداً عن محضن التَّربية العظيم داخل المدينة ، فلم يُتَح له هذا الفضل ، والاغتراف من رحيق النُّبوَّة ، ولهذا كانت الآيات الَّتي نزلت في المخلَّفين من الأعراب كالصَّواعق على رؤوسهم ؛ لتخلُّفهم عن الانضمام إلى الجيش الإسلاميِّ الماضي إلى الحديبية[٢] .



(١) انظر : التربية القياديّة (٤/ ٢١٤) .

(٢) التربية القيادية (٤/ ٢١٦) .

المبحث الثَّاني
صلح الحديبية[١] وما ترتَّب عليه مِنْ أحداث

أولاً: مفاوضة سهيل بن عمرٍو لرسول الله ﷺ:

لمَّا بلغ قريشاً أمر بيعة الرِّضوان ، وأدرك زعماؤها تصميم الرَّسول ﷺ على القتال؛ أوفدوا سهيل بن عمرو في نفرٍ من رجالهم لمفاوضة النَّبيِّ ﷺ[٢] ، ولمَّا رأى رسول الله ﷺ سهيلاً؛ قال: لقد أراد القوم الصُّلح حين بعثوا هذا الرَّجل[٣] .

كان سهيل بن عمرٍو أحدَ زعماء قريشٍ البارزين الَّذين كانوا يُعْرَفون بالحنكة السِّياسيَّة، والدَّهاء، فهو خطيبٌ ماهرٌ، ذو عقلٍ راجحٍ، ورزانةٍ ، وأصالةٍ في الرَّأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصُّلح ، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفَّان رضي الله عنه ، وقد استعرض الفريقان النُّقاط الَّتي يجب أن تتضمَّنها معاهدة الصُّلح ، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا الَّتي كانت تشكِّل مثار الخلاف بينهما ، هذا وقد اتَّفق الفريقان من حيث المبدأ على بعض النُّقاط ، واختلفا على البعض الآخر ، وقد طال البحث ، والجدل ، والأخذ والرَّدُّ حول هذه البنود ، وبعد المراجعات ، والمفاوضات تقاربت وجهات النَّظر بين الفريقين.

وعند الشُّروع في وضع الصِّيغة النِّهائية للمعاهدة ، وكتابتها لتكون نافذة المفعول رسميّاً حدث خلاف بين الوفدين على بعض النقاط ، كاد أن يعثِّر سير هذه الاتفاقيَّة ، فعندما شرع النَّبيُّ ﷺ في إملاء صيغة المعاهدة المتَّفق عليها؛ أمر الكاتب ، وهو الإمام عليُّ بن أبي طالبٍ بأن يبدأ المعاهدة بكلمة: «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» ، وهنا اعترض رئيس الوفدِ القرشيِّ سهيلُ بن عمرٍو قائلاً: لا أعرف الرَّحمٰن! اكتب: «باسمك اللَّهُمَّ» ، فضجَّ الصَّحابة على هذا الاعتراض ، قائلين: هو الرَّحمٰن ، ولا نكتب إلا الرَّحمٰن ، ولكنَّ النَّبيَّ ﷺ تمشياً مع سياسة

---

(١) ينظر الشكل (١١) في الصفحة (٦١٥).
(٢) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠.
(٣) انظر: مغازي الواقديِّ (٢/ ٦٠٢ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥).

الحكمة ، والمرونة ، والحلم ، قال للكاتب : «اكتب : باسمك اللَّهُمَّ»[١] ، واستمرَّ في إملاء صيغة المعاهدة هذه ، فأمر الكاتب أن يكتب : «هذا ما اصطلح عليه رسول الله» ، وقبل أن يكمل الجملة اعترض رئيس الوفد القرشيِّ على كلمة (رسول الله) قائلاً: لو أعلم أنَّك رسولُ الله ما خالفتُك ، واتَّبعتُك ، أفترغب عن اسمك ، واسم أبيك محمَّد بن عبد الله؟! اكتب اسمك ، واسم أبيك[١].

واعترض المسلمون على ذلك ، ولكن رسول الله ﷺ بحكمته ، وتسامحه ، وبُعْدِ نظره حسم الخلاف ، وأمر الكاتب بأن يشطب كلمة (رسول الله) من الوثيقة ، فالتزم الصَّحابة الصَّمت ، والهدوء.

إنَّ النَّبيَّ ﷺ وافق المشركين على ترك كتابة «بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم» وكتابة « باسمك اللَّهم» بدلاً عنها ، وكذا وافقهم على كتابة «محمَّد بن عبد الله» وترك كتابة «رسول الله ﷺ » ، وكذا وافقهم على ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين دون من ذهب منهم إليهم ، وإنما وافقهم في هذه الأمور للمصلحة المهمَّة الحاصلة بالصُّلح ، مع أنَّه لا مفسدة في هذه الأمور ، أمَّا البسملة ، وباسمك اللَّهمَّ فمعناهما واحدٌ ، وكذا قوله «محمَّد بن عبد الله» هو أيضاً رسولُ الله ﷺ ، وليس في ترك وصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا الموضع بالرَّحمن الرَّحيم ما ينفي ذلك ، ولا في ترك وصف النَّبي ﷺ بالرِّسالة ما ينفيها ، فلا ضرر ، ولا مفسدة فيما طلبوه ، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحلُّ من تعظيم آلهتهم ، ونحو ذلك.

وأمَّا شرط ردِّ مَنْ جاء منهم ، وعدم ردِّ من ذهب إليهم ، فقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ تعليل ذلك ، والحكمة فيه في هذا الحديث بقوله : «مَنْ ذهب منَّا إليهم فأبعده الله! ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ، ومخرجاً» ، ثمَّ كان كما قال ﷺ . [سبق تخريجه][٢].

وتمَّ عقد هذه المعاهدة ، وكانت صياغتُها من عشرة بنود جاءت على الشَّكل التَّالي :

١ ـ باسمك اللَّهم.

٢ ـ هذا ما صالح عليه محمَّد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

٣ ـ واصطلحا على وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضُهم عن بعضٍ.

٤ ـ على أنَّه مَنْ قدم مكَّة من أصحاب محمَّد حاجاً ، أو معتمراً ، أو يبتغي من فضل الله ؛ فهو

---

(١) انظر : مغازي الواقدي (٢/ ٦١٠).

(٢) انظر : المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة (٢/ ٣٤٢).

آمنٌ على دمه ، وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر ، أو إلى الشَّام ، يبتغي من فضل الله ؛ فهو آمنٌ على دمه ، وماله .

٥ ـ على أنَّه مَنْ أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه ؛ ردَّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممَّن مع محمَّد ، لم يردُّوه عليه .

٦ ـ وأنَّ بيننا عَيبةً مكفوفةً ، وأنَّه لا إسلال ، ولا إغلال[1] .

٧ ـ وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عَقْدِ محمَّدٍ ، وعهده دخله ، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريشٍ ، وعهدهم دخل فيه . (فتواثبت خزاعة ، فقالوا : نحن في عقد محمَّد وعهده ، وتواثبت بنو بكرٍ ، فقالوا : نحن في عقد قريشٍ ، وعهدهم) .

٨ ـ وأنت ترجع عنَّا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكَّة ، وأنَّه إذا كان عام قابلٍ خرجنا عنك ، فدخلتها بأصحابك ، فأقمت بها ثلاثاً ، معك سلاحُ الرَّاكب ، السُّيوف في القُرُب ، ولا تدخلها بغيرها .

٩ ـ وعلى أنَّ هذا الهَدْيَ وما جئتنا به ؛ فلا تقدمه علينا .

١٠ ـ وشهد على الصُّلح رجالٌ من المسلمين ، ورجالٌ من المشركين :

فمن المسلمين : أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، وعبد الله بن سهيل بن عمرو ، وسعد بن أبي وقَّاص ، ومحمَّد بن مسلمة ، وعليُّ بن أبي طالبٍ كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين .

ومن المشركين : مِكْرزَ بن حفص ، وسهيل بن عمرو[2] .

تُعَدُّ هذه المعاهدة أساساً للمعاهدات الإسلاميَّة ، وأنموذجاً فريداً للمعاهدات الدَّوليَّة بما سبقها من مفاوضاتٍ ، وما حوته مِنْ شروطٍ ، وما تمثَّل بها من خلق النَّبيِّ ﷺ في النُّزول عند رضا الطَّرف الآخر ، وفي كيفية الصِّياغة والالتزام . هذه المعاهدة سبقها مفاوضاتٌ من قبل المشركين ، والمسلمين ، وفشل بعض الممثِّلين في الوصول إلى اتفاق ، ودارت مشاوراتٌ شتَّى من الجانبين قبل الوصول إليه ، حتَّى توصل الفريقان إلى اتفاقٍ عن طريق ممثِّل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله ﷺ على ملأ المسلمين .

---

(١) العيبة هنا مثلٌ : والمعنى : أنَّ بيننا صدوراً سليمةً في المحافظة على العهد ؛ الَّذي عقدناه بيننا ، وقد يشبه صدر الإنسان الذي هو مستودع سره بالعيبة التي هي وعاءٌ من جلدٍ تُصان فيه الثياب . وقوله : لا إسلال ، ولا إغلال : تعني : الإسلال من السَّلَّة ، وهي السَّرقة ، والإغلال أي : الخيانة والمعنى العام : أن بعضنا يأمن بعضاً على نفسه ، وماله ، فلا يتعرَّض لدمه ، ولا لماله .

(٢) انظر : المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي ، د. محمد الدِّيك ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ .

عُقدت هذه المعاهدة في الوقت الَّذي كان فيه المسلمون بمركز القوَّة ، لا الضَّعف ، وكان باستطاعتهم ألاَّ يقبلوا شروطها الَّتي اغتاظ منها كثيرٌ من الصَّحابة ، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله ﷺ الَّذي لا ينطق عن الهوى ، وقد تمادى رسول قريشٍ على رسول الله ﷺ في مفاوضته ، وكان فرداً بين جيش المسلمين ، فلم ينله أذىً ، ولم يتمادَ عليه المسلمون بالقتل ؛ «لأنَّ السُّفراء لا تُقتل» ، ولكنَّ رسول الله ﷺ يرضيه ، ويسعه بالحلم ، واللِّين ، حتَّى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام ، وهي حقن الدِّماء ، وإحلال السَّلام ، ورجاء أن يعقل القوم الحقَّ ، وأن يراجعوا المواقف ، ويسمعوا كلام الله[1] ، وتدخل الدَّعوة الإسلاميَّة طوراً جديداً بصورٍ أخرى في الانتشار والاتِّصال بالنَّاس ، وعندما نتأمَّل نصوص المعاهدة التي تمَّت في الحديبية فإننا نأخذ منها الآتي :

١ ـ أنَّ ديباجة المعاهدات الإسلاميَّة كانت تبدأ باسم الله ، أو باسمك اللَّهمَّ ، والقانون الدَّولي في صياغة المعاهدات يقول : «تبدأ كتابة المعاهدات بديباجة يتَّفق عليها طرفا التَّعاقد» .

والَّذي يجب أن نلاحظه : أنَّ المعاهدات في الإسلام تستند إلى الله تعالى ؛ الَّذي تبدأ باسمه سبحانه ، حيث هو الرَّقيب ، والحسيب على ما في النَّوايا والقلوب ، واسم الله مقدَّسٌ في كلِّ قلبٍ يؤمن به ، حتَّى أولئك الذين فسدت عقائدُهم ، فإنَّهم لا ينكرون الله ، ولكنَّهم أفسدوا تصوُّرهم لذات الله ، وقد جرت أعراف بعض الَّذين يستهوون قلوب العامَّة بالشِّعارات الجوفاء أن يقولوا بدل اسم الله : باسم الشَّعب ، أو باسم الأمَّة ، باعتبار قدسيَّة ما يبدؤون به كما يزعمون ، ولكنَّ الَّذي يؤمن بالله لا يعدل عن قدسية الله في اعتقاده ، ولذلك كانت البداية «باسمك اللَّهُمَّ» .

٢ ـ ذكر في المعاهدة طرفا التعاقد بعد (الدِّيباجة) كما يسمِّيها القانون الدَّوليُّ ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام من أنَّه يذكر بعد الدِّيباجة أسماء الممثِّلين ، أو الدُّول الَّتي هي أطراف في عقد المعاهدة .

٣ ـ بواعث المعاهدة : فقد جاء في بداية هذه المعاهدة ذكر الصُّلح لأجل وضع الحرب عن النَّاس عشر سنين ، يأمن فيهنَّ النَّاس ، ويكفُّ بعضهم عن بعضٍ ، وهذا ما عليه القانون الدَّولي العام كذلك .

٤ ـ الدُّخول في صلب المعاهدة ، وشروطها ، حيث ذكر رسول الله ﷺ في هذه المعاهدة الشُّروط المتَّفق عليها بين الطَّرفين ، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ العام .

٥ ـ في معاهدة صلح الحديبية جواز ابتداء الإمام (رئيس الدَّولة الإسلاميَّة) بطلب صلح العدو

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقَّف ذلك على أن يكون ابتداء الطَّلب منهم[(١)] .

٦ ـ أنَّ مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزٌ للمصلحة الرَّاجحة ، ودفع ما هو شرٌّ منه ، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناها[(٢)] .

٧ ـ أنَّ صلح الحديبية سمَّاه الله فتحاً ؛ لأنَّ الفتح في اللُّغة هو فتح المغلق ، والصُّلح الَّذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً ففتحه الله ، والصُّلح كذلك يفتح القلوب المغلقة نحو الطَّرف الآخر .

لقد كانت الصُّورة الظَّاهرة في شروط الحديبية فيها ضيمٌ للمسلمين ، وهي في باطنها عزٌّ ، وفتحٌ ، ونصرٌ ، حيث كان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراء المعاهدة من الفتح العظيم من وراء سترٍ رقيقٍ ، وكان يعطي المشركين كلَّ ما سألوه من الشُّروط الَّتي لم يحتملها أكثر أصحابه ، ورؤوسهم ، وهو ﷺ يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوبٍ[(٣)] .

٨ ـ إنَّ المعاهدة قد تكون مفتوحةً لمن يحبُّ أن يدخل فيها من الأطراف ، أو الدُّول الأخرى، وهذا ما عليه القانون الدَّوليُّ ؛ حيث أجاز أن تكون المعاهدة مفتوحةً لمن يحبُّ الدُّخول فيها من الأطراف الأخرى، فقد دخلت خزاعة ، وكنانة في الصُّلح الذي أنهى حالة الحرب القائمة بين هاتين القبيلتين والَّتي امتدَّت سنواتٍ عديدةً[(٤)] .

٩ ـ إنَّ المعاهدة لابدَّ لها من توقيع الأطراف ، والإشهاد عليها ، وتوقيع رسول الله ﷺ وإشهاد أصحابه إنَّما هو بمثابة التَّوقيع على المعاهدة ، والتَّصديق عليها ، كما هو في القانون الدَّوليِّ العامِّ .

١٠ ـ إنَّ المعاهدة يجوز أن يكون الوسيط فيها طرفاً محايداً ، أو طرفاً يقرِّب بين وجهات النَّظر ، كوساطة سيد الأحابيش (الحُلَيْس بن عَلْقَمَةَ) حليف قريش الأكبر ، حيث طلبت منه قريش أن يكون وسيطاً بينهم وبين المسلمين ، وكان الحُلَيْسُ ذا عقلٍ راجحٍ ، وبصيرةٍ نافذةٍ ، وكان سيِّداً مطاعاً ، وكان رسول الله ﷺ يعرفه ، ويعرف فيه التألُّه الشَّديد ، والتَّعظيم للحرم .

وعندما اختارته قريش كانت تطمع في أن يكون لمركزه الممتاز بين العرب ، ولما يتمتَّع به من تقديرٍ لدى النَّبيِّ ﷺ تأثيرٌ على الرَّسول ﷺ وأصحابه[(٥)] .

---

(١) انظر : زاد المعاد ، لابن القيِّم (٣/ ٣٠٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٠٦) .
(٣) انظر المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٢ .
(٤) انظر : صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٨٠ .
(٥) انظر : صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ١٩٩ ـ ٢٠٠ .

وهذا ما يقرُّه القانون الدَّوليُّ؛ حيث إنَّ المعاهدة قد تعقد بوساطة دولةٍ أخرى ليست طرفاً في النِّزاع ، أو أحد المبعوثين الَّذين لا علاقة لهم ، أو لدولتهم بالنِّزاع القائم بين طرفي التعاقد.

١١ ـ إن المعاهدة تُعَدُّ نافذة المفعول بمجرَّد الاتفاق على المعاهدة ، وشروطها ، حتَّى لو لم تكتب ، ولو لم يوقِّع عليها الطَّرفان ، وذلك كما حدث لأبي جندل بن سهيل بن عمرو الَّذي ردَّه الرَّسول ﷺ بموجب قبوله عليه السَّلام بالبند الخامس من المعاهدة ، والَّذي يقول: «على أنَّه من أتى محمَّداً من قريشٍ بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم. . .» ، فمنذ أعلن رسول الله ﷺ التزامه بهذا الشَّرط أجراه ، ولم تكن المعاهدة قد كتبت بعد ، ولم يوقِّع عليها الطرفان.

١٢ ـ إنَّ المعاهدة تُكتب من نسختين ، ويأخذ كلُّ طرفٍ نسخةً طِبْقَ الأصل من المعاهدة؛ حيث إنَّه بعد أن تمَّت إجراءات الصُّلح النِّهائية في الحديبية؛ أخذ كلٌّ من الفريقين نسخةً من وثيقة الصُّلح التَّاريخيَّة ، وانصرف الوفد القرشيُّ راجعاً إلى مكَّة[1].

ثانياً: موقف أبي جندل والوفاء بالعهد:

إنَّ من أبلغ دروسِ صلح الحديبية درسَ الوفاء بالعهد ، والتَّقيُّد بما يفرضه شرف الكلمة من الوفاء بالالتزامات؛ الَّتي يقطعها المسلم على نفسه ، وقد ضرب رسول الله ﷺ بنفسه أعلى مثلٍ في التَّاريخ القديم ، والحديث لاحترام كلمةٍ لم تكتب ، واحترام كلمةٍ تكتب كذلك ، وفي الجدِّ في عهوده ، وحبِّه للصَّراحة ، والواقعيَّة ، وبغضه التَّحايل ، والالتواء ، والكيد ، وذلك حينما كان يفاوض (سهيل بن عمرو) في الحديبية ، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال ، وقد فرَّ من مشركي مكَّة ، وكان أبوه يتفاوض مع الرَّسول ﷺ ، وكان هذا الابن ممَّن آمنوا بالإسلام وجاء مستصرخاً بالمسلمين ، وقد انفلت من أيدي المشركين.

فلمَّا رأى سهيلٌ ابنه؛ قام إليه وأخذه بتلابيبه ، وقال: يا محمد! لقد لجَّت القضيَّةُ بيني وبينك ـ أي: فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا ـ فقال رسول الله ﷺ: صدقت ، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أُرَدُّ إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فلم يغنِ عنه ذلك شيئاً ، وردَّه رسول الله ﷺ ، وقال لأبي جندل: إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك ، وأعطونا عهداً ، وإنَّا لا نغدر بهم. غير أنَّ النَّبيَّ ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصُّلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم ، طمأن أبا جندل وبشَّره بقرب الفرج له ، ولمن على شاكلته من المسلمين ، وقال له ـ وهو يواسيه ـ: «يا أبا جندل! اصبر ،

(١) انظر: المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٣.

واحتسب ، فإنَّ الله جاعلٌ لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ، ومخرجاً» [سبق تخريجه][(١)].

وفي هذه الكلمات النَّبويَّة المشرقة العظيمة دلالةٌ ليس فوقها دلالةٌ على مقدار حرص رسول الله ﷺ ، وتمسُّكه بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه ، وعواقبه فيما يبدو للنَّاس[(٢)].

لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ، ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد ، أثبت فيه الرَّسول ﷺ والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم ، وحبس مشاعرهم ، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل ، وتأثَّروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه ، والدِّماء تنزف منه ؛ ممَّا زاد في إيلامهم ، حتَّى إنَّ الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة ، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبُه بفظاظة الوثنيِّ الجلف ، ليعود به مرَّة أخرى إلى سجنه الرَّهيب في مكَّة .

وقد صبر أبو جندل ، واحتسب لمصابه في سبيل دينه ، وعقيدته ، وتحقَّق فيه قول الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣].

فلم تمرَّ أقلُّ من سنة حتَّى تمكَّن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكَّة من الإفلات من سجون مكَّة ، وأصبحوا قوَّةً صار كفار مكَّة يخشونها بعد أن انضمُّوا إلى أبي بصير ، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشَّام[(٣)]. وسيأتي تفصيل ذلك لاحقاً بإذن الله تعالى .

ثالثاً : احترام المعارضة النَّزيهة :

بعد الاتفاق على معاهدة الصُّلح ، وقبل تسجيل بنودها ظهرت بين المسلمين معارضةٌ شديدةٌ ، وقويَّةٌ لهذه الاتفاقيَّة ، وخاصَّةً في البندين اللَّذين يلتزم النَّبيُّ ﷺ بموجبهما بردِّ من جاءه من المسلمين لاجئاً ، ولا تلتزم قريشٌ بردِّ مَنْ جاءها من المسلمين مرتدّاً ، والبند الَّذي يقضي بأن يعود المسلمون من الحديبية إلى المدينة دون أن يدخلوا مكَّة ذلك العام ، وقد كان أشدَّ النَّاس معارضة لهذه الاتفاقيَّة ، وانتقاداً لها عمر بن الخطَّاب ، وأُسيد بن حضير سيِّد الأوس ، وسعد بن عُبادة سيِّد الخزرج .

وقد ذكر المؤرِّخون : أنَّ عمر بن الخطَّاب أتى رسول الله ﷺ مُعلناً معارضته لهذه الاتفاقيَّة ، وقال لرسول الله ﷺ : ألست برسول الله؟ قال : «بلى!» قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : «بلى!»

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٧).
(٢) انظر : محمَّد رسول الله ﷺ ، لمحمَّد الصادق عرجون (٤/ ٢٧٥).
(٣) انظر : صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٣٢٢ إلى ٣٢٥.

قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى!» قال: فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟! قال: «إنِّي رسولُ الله ، ولستُ أعصيه[١]» .

وفي روايةٍ : «أنا عبد الله ، ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يُضيِّعني[٢]» قلت : أوليس كنت تحدِّثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال : «بلى! فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت : لا . قال : «فإنَّك آتيه ، ومطوِّفٌ به» . قال عمر : فأتيت أبا بكرٍ ، فقلت له : يا أبا بكر! أليس برسول الله؟ قال : بلى! قال : أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى! قال : أوليسوا بالمشركين؟ قال : بلى! قلت : فعلام نُعطى الدَّنيَّة في ديننا؟ فقال أبو بكر ـ ناصحاً الفاروق بأن يترك الاحتجاج والمعارضة ـ: الزم غرزه ـ أي : أمره ـ ، فإنِّي أشهد أنَّه رسول الله ، وأنَّ الحقَّ ما أمر به ، ولن يخالف أمر الله ، ولن يضيِّعه الله . [سبق تخريجه][٣] .

وبعد حادثة أبي جندل المؤلمة المؤثِّرة عاد الصَّحابة إلى تجديد المعارضة للصُّلح ، وذهبت مجموعة منهم إلى رسول الله ﷺ بينهم عمر بن الخطاب لمراجعته ، وإعلان معارضتهم ، إلا أنَّ النَّبيَّ ﷺ بما أعطاه الله من صبرٍ ، وحكمةٍ ، وحلمٍ ، وقوَّة حجَّةٍ استطاع أن يقنع المعارضين بوجاهة الصُّلح ، وأنَّه في صالح المسلمين ، وأنَّه نصرٌ لهم[٤] ، وأنَّ الله سيجعل للمستضعفين من أمثال أبي جندل فرجاً ، ومخرجاً ، وقد تحقَّق ما أخبر به ﷺ .

وبهذا يتبيَّن : أنَّ الرَّسول ﷺ وضع قاعدة احترام المعارضة النَّزيهة ، حيث قرَّر ذلك بقوله ، وفعله ، وهو ـ والله أعلم ـ إنَّما أراد بهذا الفعل إرشاد القادة من بعده إلى احترام المعارضة النَّزيهة ؛ الَّتي تصدر من أتباعهم ، وذلك بتشجيع الأتباع على إبداء الآراء السَّليمة ؛ الَّتي تخدم المصلحة العامَّة[٥] .

وهذا الهدي النَّبويُّ الكريم بيَّن : أنَّ حرِّيَّة الرأي مكفولةٌ في المجتمع الإسلاميِّ ، وأنَّ للفرد في المجتمع المسلم الحرِّيَّة في التَّعبير عن رأيه ، ولو كان هذا الرَّأي نقداً لموقف حاكم من الحكَّام ، أو خليفةٍ من الخلفاء ، فمن حقِّ الفرد المسلم أن يبيِّن وجهة نظره في جوٍّ من الأمن ، والأمان دون إرهابٍ ، أو تسلُّط يخنق حرِّية الكلمة ، والفكر .

ونفهم من معارضة عمر لرسول الله ﷺ : أنَّ المعارضة لرئيس الدَّولة في رأيٍ من الآراء ،

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ص ٣٣٣ .
(٢) انظر : تاريخ الطَّبري (٢/ ٦٣٤) .
(٣) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٦) .
(٤) انظر : صلح الحديبية ، لباشميل ، ص ٢٧٠ .
(٥) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد رسول الله ﷺ ، ص ٤٩٥ .

وموقف من المواقف ليست جريمةً تستوجب العقاب ، ويُغَيَّب صاحبها في غياهب السُّجون[١] .

رابعاً: التَّحلُّل من العمرة ومشورة أمِّ سلمة رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله ﷺ من قضية كتابة الصُّلح قال لأصحابه: «قوموا ، فانحروا ، ثمَّ احلقوا . . . » حتَّى قال ذلك ثلاث مرَّاتٍ ، فلمَّا لم يقم منهم أحدٌ؛ دخل على أمِّ سلمة ، فذكر لها ما لقي مِنَ النَّاس ، فقالت أمُّ سلمة: يا نبي الله! أتحبُّ ذلك؟ اخرج ، ثمَّ لا تُكلِّم أحداً منهم كلمةً؛ حتى تنحر بُدنك ، وتدعو حالقك فيحلقك. فخرج ، فلم يكلِّم أحداً منهم حتَّى فعل ذلك: نحر بُدْنه ، ودعا حالقه ، فلمَّا رأوا ذلك؛ قاموا ، فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتَّى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. [سبق تخريجه].

وقد حلق رجالٌ يوم الحديبية ، وقصَّر آخرون ، فقال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصِّرين يا رسول الله؟! قال: «يرحم الله المحلِّقين!» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟! قال: «والمقصرين». [البخاري (١٧٢٧) ، ومسلم (١٢٠١) ، عن ابن عمر ، وأحمد (١/ ٢١٦) عن ابن عباس][٢] .

وكان في هدي النَّبيِّ ﷺ في الحديبية جملٌ لأبي جهلٍ في رأسه بُرَةٌ[٣] من فضَّةٍ ، يغيظ بذلك المشركين. [أحمد (١/ ٢٣٤) ، وأبو داود (١٧٤٩) ، وابن ماجه (٣٠٧٦) ، والطبراني في المعجم الكبير (١١١٤٧ و١١١٤٨)][٤] .

وفي هذه الحادثة تستوقفنا أمورٌ فيها دروسٌ ، وعبرٌ منها:

١ ـ كان رأي أمِّ سلمة سديداً ، ومباركاً؛ حيث فهمت رضي الله عنها عن الصَّحابة: أنَّه وقع في أنفسهم أن يكون النَّبيُّ ﷺ أمرهم بالتَّحلُّل أخذاً بالرُّخصة في حقِّهم ، وأنَّه يستمرُّ على الإحرام أخذاً بالعزيمة في حقِّ نفسه ، فأشارت على النَّبيِّ ﷺ أن يتحلَّل لينتفي عنهم هذا الاحتمال ، وعرف النَّبيُّ ﷺ صواب ما أشارت به ، ففعله ، فلمَّا رأى الصَّحابة ذلك؛ بادروا إلى فعل ما أمرهم به ، فلم يبق بعد ذلك غايةٌ تُنتظر ، فكان ذلك رأياً سديداً ، ومشورةً مباركةً ، وفي ذلك دليلٌ على استحسان مشاورة المرأة الفاضلة ما دامت ذات فكرةٍ صائبةٍ ، ورأيٍ سديدٍ[٥] ، كما أنَّه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجلٍ ، أو امرأةٍ ما دامت مشورةً صائبةً ، وهذا عين التَّكريم للمرأة الَّتي يزعم أعداء الإسلام: أنَّه غمطها حقَّها ، وتجاهل وجودها ، وهل

(١) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٨) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة .
(٣) البَرَّة: حلقةٌ تُجعل في أنف البعير ليذلَّ ، ويرتاض .
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٤٩) ، وتحفة الأحوذي ، للمباركفوري (كتاب الحج) .
(٥) انظر: ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، ص ١٦١ .

هناك اعترافٌ واحترامٌ لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبيٍّ مرسلٍ ، ويعمل النَّبيُّ ﷺ بمشورتها لحلِّ مشكلة اصطدم بها ، وأغضبته؟![١].

٢ ـ أهمِّيَّة القدوة العملية : فقد دعا رسول الله ﷺ إلى أمر وكرَّره ثلاث مرَّاتٍ ، وفيهم كبار الصَّحابة ، وشيوخهم ، ومع ذلك لم يستجب أحدٌ لدعوته ، فلمَّا قدم رسول الله ﷺ على الخطوة العمليَّة ؛ الَّتي أشارت بها أمُّ سلمة تحقَّق المراد ، فالقدوة العمليَّة في مثل هذه المواقف أجدى ، وأنفع[٢].

٣ ـ حكم الإحصار في العمرة والحجِّ : دلَّ عمل الرَّسول ﷺ بعد الفراغ من أمر الصُّلح من التحلُّل ، والنَّحر ، والحلق على أنَّ المحصر يجوز له أن يتحلَّل ، وذلك بأن يذبح شاةً حيث أحصر ، أو ما يقوم مقامها ، ويحلق ، ثمَّ ينوي التَّحلُّل ممَّا كان قد أهلَّ به ، سواءٌ كان حجّاً ، أو عمرةً ، كما دلَّ على أنَّ المتحلِّل لا يُلزم بقضاء الحجِّ ، أو العمرة إذا كان متطوِّعاً ، وخالف الحنفيَّة ، فرأوا : أنَّ القضاء بعد المباشرة واجبٌ ؛ بدليل أنَّ جميع الَّذين خرجوا معه ﷺ في صلح الحديبية خرجوا معه في عمرة القضاء ، إلا مَنْ توفي ، أو استشهد منهم في غزوة خيبر[٣].

خامساً : العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح :

ثمَّ انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية قاصداً المدينة ، حتَّى إذا كان بين مكَّة والمدينة نزلت سورة الفتح ، قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾ [الفتح : ١١] .

وقد عبَّر رسول الله ﷺ عن عظيم فرحته بنزولها ، وقال : أُنزلت عليَّ الليلة سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممَّا طلعت عليه الشَّمس [البخاري (٤١٧٧) ، عن أسلم ، ومسلم (١٧٨٦) عن أنس] ، ثمَّ قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : هنيئاً مريئاً فما لنا؟ فأنزل الله :

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ٥] [البخاري (٤١٧٢) عن أنس] .

وقد أسرع النَّاس إلى رسول الله ﷺ وهو واقفٌ على راحلته بكراع الغميم فقرأ عليهم : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ فقال رجل : يا رسول الله! أفتحٌ هو؟ قال : «نعم ، والذي نفسي بيده! إنَّه لفتح» [أبو داود (٢٧٣٦) ، والحاكم (٢/١٣١)] فانقلبت كآبة المسلمين ، وحزنُهم إلى فرحٍ غامرٍ ،

---

(١) انظر : المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة ، ص ٢٧٣ .
(٢) انظر : تأمُّلات في السِّيرة النَّبويَّة ، لمحمَّد السَّيِّد الوكيل ، ص ٢١١ .
(٣) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص٢٤٣ .

وأدركوا: أنَّهم لا يمكن أن يحيطوا بالأسباب والنَّتائج ، وأنَّ التَّسليم لأمر الله ، ورسوله فيه كلُّ الخير لهم ، ولدعوة الإسلام[1] .

كان حديث القرآن الكريم عن هذا الحدث العظيم في سورة الفتح ، وكان القرآن الكريم له منهجُه الخاصُّ في عرضه لغزوة الحديبية ، فنجد في حديثه عن هذه الغزوة: أنَّه سمى الصُّلح الذي وقع بين الفريقين مع عدم وقوع القتال فتحاً مبيناً .

إنَّنا بالتَّأمُّل في أسباب النُّزول نجد: أنَّ سورة الفتح نزلت بعد انتهاء النَّبيِّ ﷺ من الصُّلح ، وهو عائدٌ إلى المدينة النَّبويَّة ، وبعد أن خاض النَّبيُّ ﷺ ، والمؤمنون تلك التَّجارب العظيمة من الأمل في العمرة إلى مواجهة المشركين ، إلى بيعة الرِّضوان ، إلى الصُّلح الَّذي لم يكن بعض الصَّحابة راضين عنه ، ودارت في أنفسهم أشياء كثيرةٌ حول هذه الأحداث الجسام .

ينزل القرآن الكريم ويبيِّن للمسلمين: أنَّ هذا الصُّلح هو فتحٌ مبين ، ويؤكِّد: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان على صوابٍ في قبول الصُّلح؛ لتزداد ثقة المؤمنين برسول الله ﷺ حين يبشِّره الله على الملأ من الدُّنيا بأنَّ الله تعالى فتح بالصُّلح ليغفر له ما تقدَّم من ذنبه ، وما تأخَّر كرامةً منه سبحانه لرسوله ، ليزداد المسلمون ثقةً ، واطمئناناً بأنَّهم على الصَّواب ، وأن ما فعلوه هو الحقُّ ، ومآله السَّعادة ، ثمَّ بيَّن سبحانه أنَّ توفيق الله كان مع المؤمنين؛ فهو الَّذي وفَّقهم للصَّبر مع رسوله ، وموافقتهم أخيراً على ما جنح له من أمر الصُّلح ، وأنَّ ذلك كان بسبب إنزال السَّكينة في قلوبهم ، حتَّى على قلوب من أنكر بعض شروط الصُّلح ، واستسلم للأمر على مضضٍ ، فلم يحصل رفضٌ لهذا الصُّلح ، بل كلُّهم نزلوا على أمر رسوله ﷺ بفضل السَّكينة؛ الَّتي أنزلها عليهم ، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ٤] .

فالقرآن الكريم يبيِّن: أنَّ الله هو الَّذي أنزل السَّكينة عليهم ليتذكَّروا فضله ، ويداوموا على شكره ، وهذا الإعلام بإنزال السَّكينة ممَّا يتميَّز به حديث القرآن الكريم عن هذه الغزوة؛ إذ السَّكينة أمرٌ معنويٌّ لا يعلم نزوله إلا الله ، وأشار القرآن الكريم إلى بيعة الرِّضوان ، وهي مبايعة الصَّحابة للنَّبيِّ على الموت ، فأثنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على هذه البيعة ، وكتب لها الخلود في القرآن ، وقرَّر أنَّها مبايعةٌ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح : ١٠] .

وبهذا نرى ما يتميَّز به القرآن الكريم في حديثه عن الغزوات ، فهو يبيِّن الحقائق ويصحِّح

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٤٩) .

العقائد ، ويربِّي النُّفوس ، ويفضح المنافقين ، ويبشر المسلمين بغنائم قريبةٍ تحقَّقت في خيبر ، وبين أصحاب الأعذار ، فليس كلُّ مَنْ تخلَّف عن الجهاد يُعاتب ، وإنَّما هناك استثناء ، وهذا من كمال رحمته الإلٰهيَّة ، ثمَّ لما تمَّ صلح الحديبية ، وعاد المسلمون إلى المدينة ، ولم يتحقَّق ما قصدوه من دخول مكَّة ؛ أشار ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الرُّؤيا الَّتي سبق أن رآها النَّبيُّ ﷺ وبشَّر بها أصحابه ، وبيَّن أنَّها رؤيا صِدْقٍ ، وأنَّها ستتحقَّق . قال تعالى : ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح : ٢٧] .

ثمَّ خُتمتِ السُّورة الجليلةُ بصفات مدحٍ للنَّبيِّ ﷺ ولأصحابه الكرام[1] .

قال تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح : ٢٨ ، ٢٩] .

هذه الآيات الكريمة وصفت أصحاب محمَّدٍ في أحلى ، وأجمل صورةٍ ، إنَّها صورةٌ عجيبةٌ يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع ، صورةٌ مؤلَّفةٌ من عدَّة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظَّاهرة ، والمضمرة .

فلقطةٌ تُصوِّر حالتهم مع الكفَّار ، ومع أنفسهم : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ ، أشدَّاء على الكفار ، وفيهم آباؤهم ، وإخوتهم ، وذوو قرابتهم ، وصحابتهم ، ولكنَّهم قطعوا هذه الوشائج جميعاً ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وهم فقط إخوة الدِّين ، فهي الشدَّة لله ، والرَّحمة لله .

اللَّقطة الثَّانية : ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ والتَّعبير يوحي كأنَّما هذه هي هيئتهم الدَّائمة ؛ الَّتي يراها الرَّائي حين يراهم ، ذلك : أنَّ هيئة الرُّكوع والسُّجود تمثِّل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصليَّة في حقيقة نفوسهم ، فعبَّر عنها تعبيراً يثبِّتها كذلك في زمانهم ، حتَّى لكأنهم يقضون زمانهم كلَّه ركَّعاً سجداً .

واللَّقطة الثَّالثة : مثلها ، ولكنَّها لقطةٌ لبواطن نفوسهم ، وأعماق سرائرهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ فهذه هي صورة مشاعرهم الدَّائمة الثَّابتة ، كلُّ ما يشغَل بَالَهُم ، كلُّ ما تتطلَّع إليه أشواقهم ، هو فضلُ الله ، ورضوانُه ، ولا شيء وراء الفضل والرِّضوان يتطلَّعون إليه ، ويشتغلون به .

---

(١) انظر : حديث القرآن الكريم (٢/٥٤٨ إلى ٥٥٥) .

واللَّقطة الرَّابعة: تثبت أثر العبادة الظَّاهرة، والتَّطلُّع المضمر في ملامحهم، ونضجها على سماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ سيماهم في وجوههم من الإشراق، والوضاءة، والصَّفاء، والشَّفافية، وليست هذه السِّيما هي النُّكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذِّهن عند سماع قوله: ﴿مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ فالمقصود بأثر السُّجود هو أثر العبادة، واختار لفظ السُّجود؛ لأنَّه يمثِّل حالة الخشوع، والخضوع والعبوديَّة لله في أكمل صورها، فهو أثر هذا الخشوع، أثره في ملامح الوجه، حيث تتوارى الخيلاء، والكبرياء، والفراهة، ويحلُّ مكانها التَّواضع النَّبيل، والشَّفافية الصَّافية، والوضاءة الهادئة، والذُّبول الخفيف؛ الَّذي يزيد وجه المؤمن وضاءةً، وصباحةً، ونُبلاً.

وهذه الصُّورة الوضيئة الَّتي تمثِّلها هذه اللَّقطات ليست مستحدثةً، إنَّما هي ثابتةٌ لهم في لوحة القدر، ومِنْ ثمَّ فهي قديمةٌ جاء ذكرها في التَّوراة: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وصفتهم الَّتي عرفهم الله بها في كتاب موسى، وبشَّر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ وصفهم في بشارته بمحمَّد ومن معه أنَّهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فهو زرعٌ تامٌّ قويٌّ يخرج فرخه من قوَّته، وخصوبته، ولكنَّ هذا الفرخ لا يُضعف العود بل يشدُّه: ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ وأنَّ العود آزر فرخه، فشدَّه ﴿فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ الزَّرع، وضخمت ساقه، وامتلأت ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ لا معوجّاً، ولا منحنياً، ولكن مستقيماً قوياً سوياً.

هذه صورته في ذاته، فأمَّا وقعه في نفوس أهل الخبرة، والزَّرع، والعارفين، منه النَّامي المثمر، ومنه البائر، فهو وقع البهجة والإعجاب: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ وهم رسول الله وأصحابُه، وأمَّا وقعه في نفوس الكفَّار؛ فعلى العكس، فهو وقع الغيظ والكَمَد ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾، وتعمُّد إغاظة الكفار يوحي بأنَّ هذه الزِّراعة زرعةُ الله أو زرعة رسوله، وأنَّهم ستارٌ لِقَدره، وأداةٌ لإغاظة أعداء الله.

وهذا المثل ثابتٌ في الإنجيل في بشارته بمحمَّدٍ ﷺ ومَنْ معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت الله في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة ـ صحابة رسول الله ـ فتثبُت في صلب الوجود كلِّه، وتتجاوب بها أرجاؤه، وهو يستمع إليها من بارئ الوجود، وتبقى أنموذجاً للأجيال تحاول أن تحقِّقها ليتحقَّق معنى الإيمان في أعلى الدَّرجات.

وفوق هذا التكريم كلِّه وعد الله بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو وعدٌ يجيء في هذه الصِّيغة العامَّة بعدما تقدَّم من صفتهم الَّتي تجعلهم أوَّل الدَّاخلين في هذه الصِّيغة العامَّة ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وذلك التكريم وحده

حسبُهم ، وذلك الرِّضا وحدَه أجرٌ عظيمٌ ، ولكنَّه الفيض الإلٰهيُّ بلا حدودٍ ولا قيود ، والعطاء الإلٰهيُّ عطاءٌ غير مجذوذ[١].

يقول سيِّد قطب رحمه الله: « . . . ومرةً أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرناً أن أستشرف وجود هؤلاء الرِّجال السُّعداء ، وقلوبهم؛ وهم يتلقَّون هذا الفيض الإلٰهيَّ من الرِّضا ، والتَّكريم ، والوعد العظيم ، وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار الله ، وفي ميزان الله ، وانظر إليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السُّورة ، وقد قرئت عليهم ، وهم يعيشون فيها بأرواحهم ، وقلوبهم ، ومشاعرهم ، وسماتهم ، وينظر بعضهم في وجوه بعضٍ ، فيرى أثر النِّعمة الَّتي يُحِسُّها وهو في كيانه»[٢]. لقد أيقن الصَّحابة الكرام أنّ الدَّعوة قد دخلت في طورٍ جديد ، وفتح أكيد ، وآفاق أوسع ، وامتدادٍ أرحب ، وأنَّ من طبيعة هذا الدِّين أن ينمو ، وينتعش في أجواء السِّلم ، والأمن أكثر منه وقت الحرب ، ولمسوا مع الأيام نتائج صلح الحديبية الَّتي كان من أهمِّها:

١ ـ اعترفت قريش في هذه المعاهدة بكيان الدَّولة المسلمة ، فالمعاهدة دائماً لا تكون إلا بين ندَّين ، وكان لهذا الاعتراف أثرُه في نفوس القبائل المتأثِّرة بموقف قريشٍ الجحوديِّ؛ حيث كانوا يرون: أنَّها الإمام والقدوة.

٢ ـ دخلت المهابة في قلوب المشركين ، والمنافقين ، وتيقَّن الكثير منهم بغلبة الإسلام ، وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثيرٍ من صناديد قريش إلى الإسلام؛ مثل خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، كما تجلَّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلُّفهم.

٣ ـ أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام ، وتعريف النَّاس به ، ممَّا أدى إلى دخول كثيرٍ من القبائل فيه ، يقول الإمام الزُّهري: «فما فتح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه ، إنَّما كان القتال حيث التقى النَّاس ، فلمَّا كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وأمن النَّاس بعضهم بعضاً ، والتقوا ، فتفاوضوا في الحديث ، والمنازعة ، فلم يكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السَّنتين مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك»[٣].

وعقَّب عليه ابن هشامٍ بقوله: والدَّليل على قول الزُّهريِّ: أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى

---

(١) انظر: التربية القيادية (٤/ ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢).
(٢) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٢٦/ ٣٣٣٣).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٣/ ٣٥١).

الحديبية في ألف وأربعمئةٍ في قول جابر بن عبد الله ، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[١] .

٤ ـ أمن المسلمون جانب قريش ، فحوَّلوا ثقلهم على اليهود ، ومَنْ كان يناوئهم من القبائل الأخرى ، فكانت غزوة خيبر بعد صلح الحديبية .

٥ ـ مفاوضات الصُّلح جعلت حلفاء قريش يفقهون موقف المسلمين ، ويميلون إليه ، فهذا الحُلَيْسُ بن علقمة عندما رأى المسلمين يلبُّون؛ رجع إلى أصحابه ، قال: لقد رأيت البُدْن قد قُلِّدَتْ ، وأُشْعِرت ، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت .

٦ ـ مكَّن صلح الحديبية النَّبيَّ ﷺ من تجهيز غزوة مؤتة ، فكانت خطوةً جديدةً لنقل الدَّعوة الإسلاميَّة بأسلوبٍ آخر خارج الجزيرة العربيَّة .

٧ ـ ساعد صلح الحديبية النَّبيَّ ﷺ على إرسال رسائل إلى ملوك الفرس ، والرُّوم ، والقبط يدعوهم إلى الإسلام .

٨ ـ كان صلح الحديبية سبباً ومقدِّمةً لفتح مكَّة ، يقول ابن القيِّم: «كانت الهدنةُ مُقَدِّمةً بين يدي الفتح الأعظم ، الَّذي أعزَّ الله به رسوله ، وجنده ، ودخل النَّاسُ به في دين الله أفواجاً ، فكانت هذه الهدنة باباً له ، ومفتاحاً ، ومؤذناً بين يديه ، وهذه سنَّةُ الله ـ سبحانه ـ في الأمور العظام الَّتي يقضيها قدراً ، وشرعاً أن يوطِّئَ لها بين يديها مقدِّماتٍ ، وتوطئاتٍ تُؤذِنُ بها ، وتدلُّ عليها»[٢] .

سادساً: أبو بصير في المدينة وقيادته لحرب العصابات:

في أعقاب صلح الحديبية مباشرةً استطاع أبو بصير عُتْبَةُ بن أُسَيْدٍ أن يفرَّ بدينه من سجون الشِّرك في مكَّة المكرَّمة ، وأن يلتحق برسول الله ﷺ في المدينة ، فبعثت قريش في إثره اثنين مِنْ رجالها إلى رسول الله ﷺ ليرجعا به ، تنفيذاً لشرط المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ لأبي بصير: «يا أبا بصير! إنَّا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإنَّ الله جاعلٌ لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ، ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك» فقال أبو بصير: يا رسول الله! أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ قال: «يا أبا بصير ، انطلق؛ فإنَّ الله سيجعل لك ، ولمن معك من المستضعفين فرجاً ، ومخرجاً» [أحمد (٤/ ٣٢٥) ، وابن هشام (٣/ ٣٣٧)] .

فانطلق معهما ، وقد شقَّ ذلك على المسلمين وهم ينظرون بحزنٍ إلى أخيهم في العقيدة ،

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٥١ ، ٣٥٢) .

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٠٩) .

وهو يعود إلى سجنه بمكَّة بعد أن استطاع أن يفلت من ظلم قريش ، ولكنَّ رسول الله ﷺ كان يهتمُّ بالوفاء بالعهود ، والمواثيق ، ولم يكن عنده مجرَّد نظريةٍ مكتوبةٍ على الورق ، ولكنَّه كان سلوكاً عملياً في حياته ، وفي علاقته الدَّولية ، فقد أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالوفاء بالعهود، وحذَّر من نقض الأيمان بعد توكيدها في كثير من الآيات القرآنيَّة ، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وبهذا يكون الوفاء بالعهد عند المسلمين قاعدةً أصوليَّة من قواعد الدِّين الإسلاميِّ ، الَّتي يجب على كلِّ مسلمٍ أن يلتزم بها[(١)].

لقد التزم رسول الله ﷺ بعهده مع قريش ، وسلَّم أبا بصير إليهما ، وانطلق معهما ، فلمَّا كان بذي الحُليفة؛ قال لأحد صاحبيه: أصارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم. قال: أنظر إليه؟ قال: انظر؛ إن شئت ، فاستلَّه أبو بصير ، ثم علاه به حتَّى قتله ، ففرَّ الآخر إلى رسول الله ﷺ فقال: قتل صاحبُكم صاحبي ، فما لبث أبو بصير أن حضر ، متوشحاً السَّيف ، وقال: يا رسول الله! وفَت ذمَّتك ، وأدَّى الله عنك ، أسلمتني بيد القوم ، وقد امتنعت بديني أن أُفتن فيه ، أو يُعْبَث بي[(٢)]. فقال النَّبيُّ ﷺ: «ويل أمِّه! مسْعَرُ[(٣)] حربٍ. لو كان له أحدٌ!». [أحمد (٤/ ٣٣١)، والبخاري (٢٧٣٢)، وأبو داود (٢٧٦٥)].

فلمَّا سمع ذلك عرف: أنَّه سيردُّه إليهم ، فخرج حتَّى أتى سيف البحر ، وقد فهم المستضعفون بمكَّة من عبارة الرَّسول ﷺ أنَّ أبا بصير بحاجةٍ إلى الرِّجال ، فأخذوا يفرُّون من مكة إلى أبي بصير في سيف البحر ، فلحق به أبو جندل بن سهيل بن عمرٍو ، وغيره ، حتَّى اجتمع عند أبي بصير عصبةٌ قويَّةٌ ، فما يسمعون بعيرٍ لقريشٍ خرجت إلى الشَّام إلا اعترضوا طريقها ، وقتلوا مَنْ فيها ، وأخذوا الأموال التي كانوا يتَّجرون بها ، فأرسل المشركون إلى النَّبيِّ ﷺ يناشدونه الله ، والرَّحم لمَا أرسل إلى أبي بصيرٍ ، ومن معه ، ومن أتاه منهم ، فهو آمنٌ ، وتخلَّوا في ذلك عن أقسى شروطهم الَّتي صبُّوا فيها كؤوس كبريائهم ، فذلَّت قريشٌ من حيث طلبت العزَّ[(٤)].

فأرسل إليهم النَّبيُّ ﷺ وهم بناحية العيص ، فقدموا عليه ، وكانوا قريباً من السِّتِّين ، أو

---

(١) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣٢٩.

(٢) انظر: السيرة النبوية ، لابن هشام (٣/ ٣٥٣).

(٣) مِسْعَر: موقد حربٍ ومهيجها.

(٤) انظر: محمَّد رسول الله ، لصادق عرجون (٤/ ٢٨١).

السَّبعين[(١)] فآوى النَّبيُّ ﷺ تلك العصبة المؤمنة الَّتي أقضَّت مضاجع قريشٍ ، وأرغمتها على إسقاط شرطها التَّعسُّفيِّ ، فزادت بهم قوَّة المسلمين ، وقويت بهم شوكتُهم ، واشتدَّ بأسهم ، غير أنَّ أبا بصيرٍ ، رأس تلك العصابة ، ومؤسِّسها لم يقدَّر له أن يكون معها ، فقد وافاه كتاب النَّبيِّ ﷺ بالعودة إلى المدينة وهو على فراش الموت ، فلفظ أنفاسه حيث كان في الثَّغر ، وهواه في قلب المجتمع النَّبويِّ في المدينة[(٢)] .

إنَّ قصَّة أبي جندلٍ ، وأبي بصيرٍ ، وما احتملاه في سبيل العقيدة ، وما أبدياه من الثَّبات ، والإخلاص ، والعزيمة ، والجهاد؛ حتَّى مرَّغوا رؤوس المشركين بالتُّراب ، وجعلوهم يتوسَّلون للمسلمين لترك ما اشترطوه عليهم في الحديبية ، هذه القصَّة نموذجٌ يُقتدى به في الثَّبات على العقيدة ، وبذل الجهد في نصرتها ، وفيها ما يشير إلى مبدأ: «قد يسع الفرد ما لا يسع الجماعة» ، فقد ألحق أبو بصير ، وجماعتُه الضَّرر بالمشركين في وقتٍ كانت فيه دولة الإسلام لا تستطيع ذلك وفاءً بالصُّلح ، لكنَّ أبا بصير ، وأصحابَه خارجُ سلطة الدَّولة ـ ولو في ظاهر الحال ـ ولم يكن ما قام به أبو بصير ، والمستضعفون بمكَّة مجرَّد اجتهادٍ فرديٍّ لم يحظ بإقرار الرَّسول ﷺ حيث لم يأمر أبا بصير بالكفِّ عن قوافل المشركين ابتداءً ، أو بالعودة إلى مكَّة ، إنَّ ذلك لم يحدث ، فكان إقراراً له؛ إذ كان موقف أبي بصير ، وأصحابه في غاية الحكمة ، حيث لم يستكينوا لطغاة مكَّة يفتنونهم عن دينهم ، ويمنعونهم من اللَّحاق بالمدينة ، فاختاروا موقفاً فيه خلاصُهم ، وإسناد دولتهم بأعمالٍ تُضعِف اقتصاد مكَّة ، وتزعزع إحساسها بالأمن في وقت الصُّلح ، بل يمكن القول بأن اتِّخاذ هذا الموقف كان بإشارةٍ ، وتشجيعٍ من النَّبيِّ ﷺ حين وصف أبا بصير[(٣)] بأنَّه: «مِسْعَرُ حربٍ . لو كان معه أحدٌ!» [سبق تخريجه] .

إنَّ المتأمِّل في هذه الأحداث يرى رعاية الله الَّتي أولاها لهؤلاء الصَّحابة الكرام ، ولا شكَّ : أنَّ هناك أسباباً بذلوها ، فأهَّلتهم لتلك الرِّعاية من الله سبحانه ، فقد بيَّن سبحانه في كتابه المؤهِّلات لرعايته وعنايته .

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨] .

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦] .

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ [الطلاق: ٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٥١) .
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٢٩٦ .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٥٢) .

لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه الصِّفات قد توافرت في الصَّحابة رضي الله عنهم ، فنالوا تلك الرِّعاية والعناية من الله ، ومتى توافرت في شخصٍ ، أو أمَّةٍ في كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ فإنَّ رعاية الله سوف تنزل عليهم ؛ لأنَّ الله قد وعد بذلك ، ووعده الحقُّ[1].

سابعاً: امتناع النَّبيِّ ﷺ عن ردِّ المهاجرات:

صمَّمت مجموعةٌ من النِّساء المستضعفات في مكَّة على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام، وفي مقدِّمة هؤلاء النِّساء أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط ، فقد هاجرت إلى رسول الله ﷺ بعد صلح الحديبية ، فأراد كفار مكَّة أن يردُّوهن ؛ فأنزل الله تعالى في حقِّهنَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠]. [خبر رفض رسول الله ﷺ إرجاع أم كلثوم؛ رواه ابن سعد (٨/ ٢٣٠ ـ ٢٣١) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٢٢٩) ، ومجمع الزوائد (٧/ ١٢٣)].

ومعنى الآيات الكريمة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ ، قال ابن عباس: كان امتحانهنَّ أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً عبد الله ورسولُه ، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذه الآية هي الَّتي حرَّمت المسلمات على المشركين ، قال القرطبيُّ: هذا أوَّل دليلٍ على أنَّ الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها إسلامُها لا هجرتُها[2].

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ .

أي: أعطوا أزواج المهاجرات من المشركين الَّذي غرموه عليهنَّ من الأصدقة.

وقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ قال ابن كثيرٍ: يعني: إذا أعطيتموهنَّ أصدقتهنَّ ؛ فانكحوهنَّ ؛ أي: تزوَّجوهنَّ بشرط: انقضاء العدَّة ، والوليِّ ، وغير ذلك[3].

وفي قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ العصم: جمع العصمة ؛ وأصل العصمة: الحبل ، وكلُّ ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، والمراد بالعصمة هنا: النِّكاح ، الكوافر: جمع كافرة ، والمعنى: أنَّ الله تعالى نهى المؤمنين عن المقام على نكاح الكوافر ، وأمرهم بفراقهنَّ ، وقد

(١) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٢٠.
(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٦٣).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥١).

طلَّق عمر بن الخطَّاب امرأتين كانتا له في الشِّرك لمَّا نزلت هذه الآية. [البخاري (٣٧٣٢)].

وقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

قال المفسِّرون: كان مَنْ ذهب من المسلمات مرتدَّاتٍ إلى الكفَّار من أهل العهد يقال للكفَّار: هاتوا مهرها. ويقال للمسلمين إذا جاء أحدٌ من الكافرات مسلمةً مهاجرةً: ردُّوا إلى الكفار مهرها. وكان ذلك نصفاً، وعدلاً في الحالتين، وكان هذا حكم الله مخصوصاً بذلك الزَّمان في تلك النَّازلة خاصَّةً بإجماع الأمَّة قاله ابن العربيِّ[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

يعني: إن لحقت امرأةٌ مؤمنةٌ بكفَّار أهل مكَّة، وليس بينكم، وبينهم عهدٌ، ولها زوجٌ مسلمٌ قِبَلكُم، فغنمتم، فأعطوا هذا الزَّوج المسلم مهره من الغنيمة قبل أن تخمَّس[٢]. وقال الزُّهريُّ: يُعطىٰ من مال الفيء، وعنه: يعطى من صداق مَنْ لحق بنا[٣].

وقال مجاهد: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أصبتم غنيمةً من قريشٍ، أو غيرهم[٤].

قال أبو السُّعود: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي: فجاءت عقبتكم؛ أي: نوبتكم من أداء المهر، شبَّه ما حكم به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارةً، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى بأمرٍ يتعاقبون فيه، كما يتعاقب في الرُّكوب، وغيره[٥].

وقوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن كثير: فلو أنَّها ذهبت بعد هذه الآية امرأةٌ من أزواج المؤمنين إلى المشركين؛ ردَّ المؤمنون إلى زوجها النَّفقة، الَّتي أنفق عليها من العقِب الَّذي بأيديهم؛ الذي أمروا أن يردُّوه على المشركين من نفقاتهم الَّتي أنفقوا على أزواجهم اللَّاتي آمنَّ، وهاجرن، ثمَّ ردُّوا إلى المشركين فضلاً إن كان بقي لهم[٦].

وختم الآية الكريمة بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي احذروا أن تعتدوا ما أمرتم به.

قال الزُّهريُّ: وما نعلم أحداً من المهاجرات ارتدَّت بعد إيمانها [البخاري (٢٧٣٣)]، وقال ابن

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٦٨)، وحديث القرآن الكريم (٢/ ٥٤٥).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٤٥).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٢).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٢).
(٥) انظر: تفسير أبي السعود (٨/ ٢٤٠).
(٦) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥٢).

حجر: أراد الزُّهريُّ بذلك الإشارة إلى أنَّ المعاقبة المذكورة بالنِّسبة إلى الجانبين إنَّما وقعت في الجانب الواحد؛ لأنَّه لم يُعرف أحدٌ من المؤمنات فرَّت من المسلمين إلى المشركين بخلاف عكسه[(١)].

لقد حدث خلافٌ في فهم البند القائل: من أتى محمَّداً ﷺ من قريش بغير إذن وليِّه ردَّه عليهم، فالمشركون يرون: أنَّ النَّص يشمل الرِّجال، والنِّساء، والرَّسول ﷺ يرى: أنَّ النَّص للرِّجال دون النِّساء؛ إذ النَّصُّ جاء بصيغة المذكَّر، ولقد أيَّد الله رسوله ﷺ فيما ذهب إليه، فلم يُرجع مسلمةً هاجرت إلى المدينة فراراً بدينها، بل امتحنها، وقبلها بناءً على أمر ربِّه ـ سبحانه وتعالى ـ[(٢)].

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة تعقيباً على آية الامتحان: والآية تفهم مع الاستئناس بالرِّوايات المنسقة إجمالاً معها: أنَّ بعض المؤمنات اللَّاتي لم يستطعن أن يهاجرن إلى المدينة قبل الصُّلح اغتنمن فرصةً فهاجرن خِلْسةً، وأنَّ ذويهنَّ جاؤوا يطالبون بإعادتهن وفقاً لشروط الصُّلح، فنزلت الآية تنهى عن إعادتهنَّ، وتأمر بالتَّعويض على أزواجهنَّ، وقد تعدَّدت الأقوال في حقيقة نصِّ وثيقة الصُّلح، ومنها أنَّه كان مطلقاً، وبصيغة التَّذكير، فرأى المكِّيُّون: أنَّه شاملٌ للرِّجال، والنساء معاً، فجاؤوا يطالبون بالإعادة، ورأى النَّبيُّ ﷺ: أنَّه لا يشمل النِّساء، فنزلت الآية حاسمةً للأمر، وهذا هو المعقول[(٣)].

وقال الأستاذ الغزاليُّ: «وقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردُّوا النِّسوة المهاجرات بدينهنَّ إلى أوليائهنَّ، إمَّا لأنَّهم فهموا: أنَّ المعاهدة خاصَّةٌ بالرِّجال فحسب، أو لأنَّهم خشوا على النِّساء اللَّاتي أسلمن أن يضعفن أمام التَّعذيب والإهانة، وهنَّ لا يستطعن ضرباً في الأرض، ورَدّاً للكيد، كما فعل أبو جندل، وأبو بصير، وأضرابهما، وأيّاً كان الأمر؛ فإنَّ احتجاز مَنْ أسلم من النِّساء تمَّ بتعليم القرآن»[(٤)].

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه، شرح الحديث السابق (٥/ ٤١٥).
(٢) انظر: غزوة الحديبية، ص ١٧٨.
(٣) انظر: سيرة الرَّسول ﷺ، لدروزة (٢/ ٣٥٤).
(٤) انظر: فقه السِّيرة، للغزاليِّ، ص ٣٦٧.

المبحث الثَّالث
دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد

كانت غـزوة الحديبية غنيَّـةً بالدُّروس العقائديَّة ، والفقهيَّـة ، والأصوليَّـة ، والتَّربويَّة. . . إلخ ، وسوف أذكر منها بعض الدُّروس على سبيل المثال لا الحصر :

أولاً : أحكام تتعلَّق بالعقيدة :

١ ـ حكم القيام على رأس الكبير وهو جالس :

في قيام المغيرة بن شعبة على رأس النَّبيِّ ﷺ بالسَّيف ـ ولم يكن من عادته أن يقام على رأسه وهو قاعد ـ سنةٌ يقتدى بها عند قدوم رسل العدوِّ من إظهار العزِّ ، والفخر ، وتعظيم الإمام ، وطاعته ، ووقايته بالنُّفوس ، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين ، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين ، وليس هذا من النَّوع الَّذي ذمَّه النَّبيُّ ﷺ بقوله : «مَنْ أحبَّ أن يتمثَّل له الرِّجال قياماً ؛ فليتبوأ مقعده من النَّار» . [أبو داود (٥٢٢٩) ، والترمذي (٢٧٥٥)] .

كما أنَّ الفخر ، والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النَّوع المذموم في غيره[١] ، ويشبه هذا ما فعله أبو دُجانة في غزوة أحدٍ ، فكلُّ ما يدلُّ على التكبُّر ، أو التجبُّر في المشي ممنوع شرعاً ، ولكنَّه جائزٌ في حالة الحرب بخصوصها ، بدليل قوله ﷺ عن مشية أبي دُجانة : «إنَّها مشيةٌ يكرهُها الله إلا في هذا الموضع» . [الطبراني في المعجم الكبير (٦٥٠٨) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٠٩)][٢] .

٢ ـ استحباب الفأل ، وأنَّه مغاير للطِّيرة :

لمَّا جاء سُهيل بن عمروٍ لمفاوضة رسول الله ﷺ ؛ قال رسول الله : «سهَّل أمركم» . [سبق تخريجه][٣] . ففي الحديث استحباب التفاؤل ، وأنَّه ليس من الطِّيرة المكروهة[٤] .

---

(١) انظر : زاد المعاد (٣/ ٣٠٤) ، باب ما جاء في القيام .
(٢) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٤١ .
(٣) انظر : زاد المعاد (٣/ ٣٠٥) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٠٥) .

وقد جاءت أحاديث عن النَّبيِّ ﷺ تبيِّن معنى الفأل ، قال رسول الله ﷺ : «لا طيرة ، وخيرُها[(١)] الفأل» . قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟! قال: «الكلمة الصَّالحة يسمعُها أحدُكم» [البخاري (٥٧٥٤ و٥٧٥٥) ، ومسلم (٢٢٢٣/ ١١٠)] .

والفرق بين الفأل ، والطِّيرة : أنَّ الفأل من طريق حسن الظَّنِّ بالله ، والطِّيرة لا تكون إلا في السُّوء ، فلذلك كُرِهَتْ[(٢)] .

وقد ذُكِرَتِ الطِّيرة عند النَّبيِّ ﷺ فقال: «أحسنها الفأل ، ولا تردُّ مسلماً ، فإذا رأى أحدكم ما يكره؛ فليقل: اللّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السَّيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوَّة إلا بك» . [أبو داود (٣٩١٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٣٩)] .

٣ ـ بيان كفر من اعتقد: أنَّ للكوكب تأثيراً في إيجاد المطر:

قال خالدٌ الجهنيُّ رضي الله عنه: صلَّى لنا ـ أي: من أجلنا ، أو بنا ـ رسولُ الله ﷺ صلاة الصُّبح بالحديبية ـ على أثر سماءٍ[(٣)] كانت من اللَّيلة ـ فلمَّا انصرف؛ أقبل على النَّاس ، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ، ورسوله أعلم . قال: «أصبح من عبادي مؤمنٌ بي ، وكافر ، فأمَّا مَنْ قال: مُطِرنا بفضل الله ، ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكب ، وأمَّا مَنْ قال: بِنَوْءِ[(٤)] كذا ، وكذا؛ فذلك كافرٌ بي ، ومؤمنٌ بالكوكب» . [البخاري (٨٤٦) ، ومسلم (٧١)] .

وقد حمل العلماء الكفر المذكور في الحديث على أحد نوعيه الاعتقاديِّ ، أو كفر النِّعمة بحسب حال القائل .

فمن قال: مُطرنا بنوء كذا معتقداً: أنَّ للكوكب فاعلية ، وتأثيراً في إيجاد المطر فهو كافرٌ كفراً مخرجاً من الملَّة ، قال الشَّافعيُّ: مَنْ قال: مطرنا بنوء كذا ، وكذا على ما كان أهل الجاهليَّة يعنون من إضافة المطر إلى أنَّه بنوء كذا ، فذلك كفرٌ ، كما قال رسول الله ﷺ ؛ لأنَّ النَّوء وقتٌ ، والوقت مخلوقٌ لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً ، ومن قال: مُطرنا بنوء كذا على معنى مُطرنا في وقت كذا؛ فلا يكون كفراً ، وغيره من الكلام أحبُّ إليَّ منه[(٥)] .

فالشافعي يقصد هنا الكفر الاعتقاديَّ[(٦)] .

---

(١) انظر: غزوة الحديبية للحكمي ، ص ٣٠٣ .
(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٢٥) .
(٣) أثر سماء: المقصود: المطر .
(٤) الأنواء: ثمان وعشرون منزلة ينزل القمر كل ليلة في منزلة .
(٥) الأم (١/ ٢٥٢) .
(٦) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٠٤ .

٤ ـ هل يجوز التبرُّك بفضلات الصَّالحين ، وآثارهم؟

ففي حديث عروة بن مسعودٍ وهو يصف أصحاب رسول الله ﷺ حوله؛ قال: فو الله ما تنخَّم رسول الله ﷺ نخامةً إلا وقعت في كف رجلٍ منهم ، فدلك بها وجهه وجلدَه. . . وإذا توضَّأ كادوا يقتتلون على وضوئه . [سبق تخريجه] .

وقد علق الشَّاطبيُّ على هذا الحديث ، وأحاديث أخرى تماثله ، فقال: فالظَّاهر في مثل هذا النَّوع أن يكون مشروعاً في حقِّ مَنْ ثبتت ولايتُه ، واتِّباعه لسنَّة رسول الله ﷺ وأن يُتبرَّك بفضل وضوئه ، ويُتدلَّك بنخامته ، ويُستشفى بآثاره كلِّها ، إلا أنَّه عارضنا في ذلك أصلٌ مقطوعٌ به في متنه مشكلٌ في تنزيله ، وهو أنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم بعد موته عليه السلام لم يقع من أحدٍ منهم في شيءٍ من ذلك بالنِّسبة إلى مَنْ خَلَفَه؛ إذ لم يترك النَّبيُّ ﷺ بعد موته ، أفضل من أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه ، فهو كان خليفتُه ، ولم يُفعل به شيءٌ من ذلك ، ولا عمر رضي الله عنه وهو كان أفضل الأمَّة بعده ، ثمَّ كذلك عثمان ، ثمَّ عليٌّ ، ثمَّ سائر الصحابة الَّذين لا أحد أفضل منهم في الأمَّة ، ثمَّ لم يثبت لواحدٍ منهم من طريقٍ صحيحٍ معروفٍ أنَّ متبرِّكاً تبرك به على أحد تلك الوجوه ، أو نحوها؛ بل اقتصروا على الاقتداء بالأفعال ، والأقوال ، والسِّير الَّتي اتَّبعوا فيها النَّبيَّ ﷺ ، فهو إذاً إجماع منهم على ترك تلك الأشياء(١) .

وقد أخرج ابن وهب في جامعه من حديث يونس بن يزيد عن ابن شهابٍ؛ قال: حدَّثني رجلٌ(٢) من الأنصار: أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا توضَّأ ، أو تنخَّم ابتدر من حوله من المسلمين وضوءه ، ونخامته ، فشربوه ، ومسحوا به جلودهم ، فلمَّا رآهم يصنعون ذلك؛ سألهم: «لم تفعلون هذا؟» قالوا: نلتمس الطَّهور ، والبركة بذلك. فقال رسول الله ﷺ : «من كان منكم يحبُّ أن يحبَّه الله ، ورسولُه؛ فَلْيَصْدُقِ الحديث ، ولْيُؤَدِّ الأمانة ، ولا يؤذِ جاره» . [عبد الرزاق في المصنف (١٩٧٤٨) ، وذكره الألباني في الصحيحة (٢٩٩٨)] .

وهذا الحديث أفاد أنَّ الأَوْلى ترك التبرُّك مع رسول الله ﷺ ، ولعلَّ سكوت النَّبيِّ ﷺ عن ذلك يوم الحديبية ليرى عروةُ بن مسعود رسولُ قريشٍ مدى تعلُّق الصَّحابة رضي الله عنهم بالنَّبي ﷺ وحبِّهم له ، لا سيَّما وقد قال للنَّبيِّ ﷺ : إنِّي لأرى أشواباً من النَّاس خليقاً أن يفرُّوا ، ويدعوك [سبق تخريجه] . هذه بعض المسائل العقائديَّة .

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣٠٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن أبي قرد رضي الله عنه ، الترغيب والتَّرهيب (٣/ ٥٨٩) .

ثانياً: أحكام فقهيّة وأصوليّة:

١ ـ قصّة كعب بن عجرة، ونزول آية الفدية:

قال كعب بن عُجرة رضي الله عنه: وقف عليَّ رسول الله ﷺ بالحديبية، ورأسي يتهافت[١] قملاً، فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟»[٢] قلت: نعم. قال: «فاحلق رأسك». أو قال: «احلق» قال: فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فقال النّبيُّ ﷺ: «صم ثلاثة أيامٍ، أو تصدَّق بفَرَقٍ بين ستَّةٍ، أو انسُكْ[٣] بما تيسَّر» [البخاري (١٨١٥)، ومسلم (١٢٠١/٨٢)].

وفي رواية مسلمٍ: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ مرَّ به؛ وهو بالحديبية، قبل أن يدخل مكَّة، وهو مُحْرِمٌ، وهو يُوقِدُ تحت قِدْرٍ، والقملُ يتهافتُ على وجهه، فقال: «أيؤذيك هوامُّك هذه؟» قال: نعم. قال: «فاحْلِقْ رأسَك، وأطْعِمْ فَرَقاً بين سِتَّةٍ مساكينَ ـ والفَرق: ثلاثةُ آصُعٍ ـ أو صُمْ ثلاثة أيامٍ، أو انسُكْ نسيكة» [مسلم (١٢٠١/٨٣)، والترمذي (٢٩٧٤)]. وآية البقرة المذكورة تبيِّن حكم مَنْ كان محرماً وبه أذى من رأسه، وهي نزلت في كعب بن عُجرة خاصَّة، وأصبح لكلِّ مسلمٍ يمرُّ بالحالة نفسِها.

٢ ـ مشروعية الصّلاة في الرِّحال:

روى ابن ماجه عن أبي المليح بن أسامة؛ قال: خرجت إلى المسجد في ليلةٍ مطيرةٍ تماماً، فلمَّا رجعت استفتحتُ، فقال أبي[٤]: مَنْ هذا؟ قال: أبو المليح. قال: لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية وأصابتنا سماءٌ لم تبلَّ أسافل نعالنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: «صلّوا في رحالكم» [أبو داود (١٠٥٩)، والنسائي (٢/١١١)، وابن ماجه (٩٣٦)]. وهذا الحديث صحيحٌ، فسنده متَّصلٌ برواية الثِّقات، وقد صحَّحه ابن حجر[٥].

٣ ـ انصراف المسلمين من الحديبية، ونومهم عن صلاة الصُّبح:

كانت مدَّة إقامة المسلمين بالحديبية بضعة عشر يوماً، ويقال: عشرين ليلةً على قول الواقديِّ[٦]، وابن سعدٍ[٧].

---

(١) يتهافت: يتساقط. النهاية (٥/٢٦٦).
(٢) الهوام: جمع هامة وهي ما يدب من الأخشاش، والمراد القمل.
(٣) انسك: اذبح. النهاية (٥/٤٨).
(٤) أسامة بن عمير الهذلي البصري صحابيٌّ تفرَّد ولده عنه.
(٥) فتح الباري (٢/١٨٤)، غزوة الحديبية، للحكمي، ص ٢٢١.
(٦) انظر: مغازي الواقدي (٢/٦١٦).
(٧) انظر: الطّبقات الكبرى (٢/٩٨).

وعن ابن عائذٍ: أنَّ رسول الله ﷺ أقام في غزوته هذه شهراً ونصفاً[(١)].

والَّذي يبدو: أنَّ الواقديَّ، وابن سعدٍ أرادا تحديد مدَّة إقامته ﷺ في الحديبية، أما ابن عائذٍ فقصد الزَّمن الَّذي استغرقته غيبة النَّبيِّ ﷺ منذ خروجه من المدينة إلى عودته إليها.

وبعد أن تحلَّل المسلمون من عمرتهم تلك؛ قفلوا راجعين إلى المدينة، فلمَّا كان من اللَّيل عدلوا عن الطَّريق للنَّوم، ووكَّلوا بلالاً بحراستهم، فنام بلالٌ، ولم يوقظهم إلا حرُّ الشَّمس[(٢)]، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه؛ حيث قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ زمن الحديبية، فقال رسول الله ﷺ: «من يكلؤنا؟»[(٣)]. فقال بلالٌ: أنا. فناموا حتَّى طلعت الشَّمس، واستيقظ النَّبيُّ ﷺ، فقال: «افعلوا كما كنتم تفعلون». قال: ففعلنا. قال: «فكذلك فافعلوا لمن نام أو نسي» [أبو داود (٤٤٧)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٨٠٢)، وأحمد (١/ ٣٨٦ و٣٩١)].

وقد وردت أحاديث أخرى تفيد أنَّ قصَّة نومهم عن صلاة الصُّبح وقعت في غير الحديبية، وحاول بعض العلماء التَّوفيق بين هذه النُّصوص، وذهب الدُّكتور حافظ الحكمي إلى أنَّ ما ورد من اختلاف بين حديث عبد الله بن مسعود في قصَّة الحديبية وغيره محمولٌ على تعدُّد القصَّة، كما رجَّح ذلك النَّوويُّ[(٤)]، وجنح إليه ابنُ كثيرٍ[(٥)]، وابن حجرٍ[(٦)]، والزُّرقانيُّ، بل قال السُّيوطيُّ: لا يجمع إلا بتعدُّد القصَّة[(٧)].

٤ ـ مشروعية الهدنة بين المسلمين، وأعدائهم، ومقدار المدَّة التي تجوز المهادنة عليها:

استدلَّ العلماء، والأئمَّة بصلح الحديبية على جواز عقد هدنةٍ بين المسلمين، وأهل الحرب من أعدائهم إلى مدَّةٍ معلومةٍ، سواءٌ أكان ذلك بعوضٍ يأخذونه منهم، أم بغير عوضٍ، أمَّا بدون عوض فلأنَّ هدنة المدينة كانت كذلك، وأما بعوضٍ فبقياس الأولى؛ لأنَّها إذا جازت بدون عوضٍ، فلأن تجوز بعوض أقرب، وأوجه.

وأمَّا إذا كانت المصالحة على مالٍ يبذله المسلمون، فهو غير جائزٍ عند جمهور المسلمين، لما فيه من الصَّغَار لهم؛ ولأنَّه لم يثبت دليلٌ من الكتاب، أو السُّنَّة على جواز ذلك، قالوا: إلا

---

(١) انظر: شرح الزُّرقاني على المواهب (٢/ ٢١٠).
(٢) انظر: غزوة الحديبية، ص ٢٥١.
(٣) يكلؤنا: يحرسنا.
(٤) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٨١ ـ ١٨٢) وغزوة الحديبية، ص ٢٥٨.
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢١٣).
(٦) فتح الباري (١/ ٤٤٩)، وشرح الزرقاني على الموطأ (١/ ٤٧).
(٧) انظر: تنوير الحوالك (١/ ٣٣).

إنْ دعت إليه ضرورةٌ لا محيص عنها ، وهو أن يخاف المسلمون الهلاك ، أو الأسر؛ فيجوز ، كما يجوز للأسير فداء نفسه بالمال .

وقد ذهب الشَّافعيُّ وأحمد رحمهم الله وكثير من الأئمَّة إلى أنَّ الصُّلح لا ينبغي أن يكون إلا إلى مدَّةٍ معلومةٍ ، وأنَّه لا يجوز أن تزيد المدَّة على عشر سنواتٍ مهما طالت؛ لأنَّها هي المدَّة الَّتي صالح النَّبيُّ ﷺ قريشاً عليها عام الحديبية[١] .

وذهب آخرون إلى جواز الهدنة أكثر من عشر سنين على ما يراه الإمام من المصلحة ، وهو قول أبي حنيفة[٢] .

والتَّحقيق : أنَّ القول الأول هو الرَّاجح لظاهر الحديث ، وإنْ وُجدت مصلحةٌ في الزيادة على العشر جدَّد العقد ، كما قال الشَّافعي[٣] .

وقال بعض المتأخِّرين[٤]: يجوز عقد صلح مؤبَّد غير مؤقَّتٍ بمدَّةٍ معيَّنةٍ ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ [النساء : ٩٠].

وهذا قولٌ مبنيٌّ على أنَّ الأصل في علاقة المسلمين بالكفَّار هي السَّلم ، لا الحرب[٥] ، وأنَّ الجهاد إنَّما شرع لمجرد الدِّفاع عن المسلمين ، فحسب[٥] .

وهذا القول مردودٌ لما يلي :

أ ـ أنَّ صاحب هذا القول قد خرق الاتِّفاق بعد أن حكاه بنفسه؛ حيث قال : اتَّفق الفقهاء على أن عقد الصلح مع العدوِّ لابدَّ من أن يكون مقدوراً بمدَّة معيَّنةٍ ، فلا تصح المهادنة مطلقةً إلى الأبد من غير تقديرٍ بمدَّة[٦] .

ب ـ الآية الَّتي استدل بها منسوخةٌ بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة : ٥].

---

(١) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٤٢ .
(٢) انظر : فتح القدير (٥/٥٤٦) ، وغزوة الحديبية ، ص ٢٩٤ .
(٣) انظر : غزوة الحديبية ، ص ٢٩٥ .
(٤) آثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، للدكتور وهبة الزُّحيلي ، ص ٦٨٠ .
(٥) انظر : آثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، للزُّحيلي ، ص ٦٧٥ .
(٦) انظر آثار الحرب في الفقه الإسلامي ، للزحيلي ، ص ٦٧٥ .

فقد نقل ذلك ابن جرير[١] عن عكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد ، وحكاه القرطبيُّ[٢] عن مجاهدٍ. ثمَّ قال: وهو أصحُّ شيءٍ في معنى الآية.

ج ـ الأصل الَّذي انبنى عليه هذا القول مردودٌ بآية براءة السَّابقة ، وبواقع سيرة الرَّسول ﷺ ، وخلفائه مع أعدائهم.

د ـ أمَّا فكرة: أنَّ الجهاد إنَّما شرع للدِّفاع عن المسلمين ، فهي فكرةٌ دخيلةٌ ، وقد تصدَّى لها سيِّد قطب[٣] رحمه الله ، ففنَّدها ، وبيَّن: أنَّ سبب نشوئها هو الانهزام أمام هجمات المستشرقين ، وعدم الفهم لمرحليَّة الدَّعوة[٤].

٥ ـ المُطْلَق يجري على إطلاقه:

هذه قاعدةٌ أصوليَّةٌ يؤيِّدها ما رواه ابن هشام عن أبي عبيد: أنَّه قال: إنَّ بعض من كان مع رسول الله ﷺ قال له لمَّا قدم المدينة: ألم تقل يا رسول الله! إنَّك تدخل مكَّة آمناً؟ قال: «بلى! أفقلتُ لكم من عامي هذا؟» قالوا: لا ، قال: «فهو كما قال لي جبريلُ عليه السلام». [ابن هشام (٣/ ٣٤١)][٥].

وفي هذا الأثر تبشير المؤمنين بفتح مكَّة في المستقبل ، وإيماءٌ بالوحي الصَّادق إلى ذلك النَّصر ، ولفتٌ لهم إلى وجوب التَّسليم لأمره بإطلاقٍ كلَّما ورد مطلقاً دون تحميله زياداتٍ وقيوداً تصرفه عن إطلاقه[٦].

٦ ـ وجوب طاعته ﷺ ، والانقياد لأمره؛ وإن خالف ظاهر ذلك القياس ، أو كرهته النُّفوس:

جاء في قصَّة الحديبية: أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، وبعضَ الصَّحابة رضي الله عنهم كرهوا الصُّلح مع قريش[١]؛ لما رأوا في شروطها من الظُّلم ، والإجحاف في حقِّهم ، لكنَّهم ندموا بعد ذلك على صنيعهم ، ورأوا: أنَّهم وقعوا في حرجٍ؛ إذ كيف يكرهون شيئاً رضيه رسول الله ﷺ! وظلَّت تلك الحادثة درساً لهم فيما استقبلوا من حياتهم ، وكانوا يحذِّرون غيرهم من الوقوع فيما وقعوا فيه من الاعتماد على الرَّأي[٧] ، فكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول: (أيها النَّاس! اتهموا الرَّأي على الدِّين ، فلقد رأيتُني أردُّ أمر رسول الله ﷺ برأيي

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٩/ ٢٤ ـ ٢٦).
(٢) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٠٨).
(٣) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٤٣٣) وما بعدها.
(٤) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٢٩٦.
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٢٩٧.
(٦) انظر: غزوة الحديبية ، للحكمي ، ص ٣١٣.
(٧) المصدر السابق نفسه.

اجتهاداً ، فو الله! ما آلو عن الحقِّ ، وذلك يوم أبي جندل) [البزار (١٨١٣) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٤٥ ـ ١٤٦)].

وكان سهل بن حنيف رضي الله عنه يقول: اتَّهموا رأيكم ؛ رأيتُني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردَّ أمر رسول الله ﷺ ؛ لرَدَدْتُه[١].

ولقد بقي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه برهةً من الزَّمن متخوفاً أن يُنزل الله به عقاباً لِلَّذي صنع يوم الحديبية ، فكان رضي الله عنه يتحدَّث عن قصَّته تلك ، ويقول: فما زلت أصوم ، وأتصدَّق ، وأعتق مِنَ الَّذي صنعت مخافة كلامي الَّذي تكلَّمت به يومئذٍ ؛ حتَّى رجوت أن يكون خيراً. [ابن هشام (٣/ ٣٣١)][٢].

قال ابن الديبع الشَّيباني تعليقاً على هذه الحادثة: قال العلماء: لا يخفى ما في هذه القصَّة من وجوب طاعته ﷺ والانقياد لأمره ؛ وإن خالف ظاهرُ ذلك مقتضى القياس ، أو كَرِهَتْهُ النُّفوس ، فيجب على كلِّ مكلَّفٍ أن يعتقد: أنَّ الخير فيما أمر به ، وأنَّه عين الصَّلاح المتضمِّن لسعادة الدُّنيا والآخرة ، وأنَّه جاء على أتمِّ الوجوه وأكملها ، غير أنَّ أكثر العقول قصرت عن إدراك غايته ، وعاقبة أمره[٣].

ثالثاً: أنموذج من التَّربية النَّبويَّة:

في قول رسول الله ﷺ: «مَنْ يَصْعَدُ الثَّنِيَّة ثَنِيَّة المُرَارِ ؛ فإنَّه يُحَطُّ عنه ما حُطَّ عن بني إسرائيل؟» [سبق تخريجه].

يظهر في هذا الحديث جانبٌ عظيمٌ من جوانب التَّربية النَّبويَّة يستحقُّ التأمُّل والتَّدبُّر ، فرسول الله ﷺ يشجِّع أصحابه على صعود الثَّنيَّة ، ثمَّ يخبرهم: أنَّ الذي يجتازها سينال مغفرةً من الله تعالى ، وحين نتأمَّل هذا الحديث تبرز لنا معانٍ عظيمةٌ منها:

١ ـ أنَّ رسول الله ﷺ يريد أن يربط قلوب أصحابه باليوم الآخر في كلِّ لحظةٍ من لحظات حياتهم.

٢ ـ أنَّه يريد لفت أنظارهم إلى أنَّ كلَّ حركةٍ يتحرَّكونها ، وكلَّ عملٍ يقومون به ـ حتَّى ما يرون: أنه من العادات أو من دواعي الغريزة ـ يجب استغلاله للتَّزوُّد لذلك اليوم ، وكان ﷺ يسعى دائماً لترسيخ تلك المعاني في نفوس الصَّحابة ، فنراه يقول في موطنٍ آخر: «وفي بُضْعِ أحدكم صدقةٌ» قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدُنا شهوته ؛ ويكون له فيها أجرٌ؟ قال: «أرأيتم لو

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) انظر: حدائق الأنوار ومطالع الأسرار (٢/ ٦٢٢).
(٣) انظر: مرويات غزوة الحديبية ، ص ٣١٥.

وضعها في حرامٍ؛ أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال؛ كان له أجرٌ». [أحمد (٥/ ١٦٧ و١٦٨)، ومسلم (١٠٠٦)، وأبو داود (٥٢٤٣) و(٥٢٤٤)].

ويقول في موطنٍ ثالث: «وإنَّك مهما أنفقت من نفقةٍ فإنَّها صدقةٌ، حتَّى اللُّقمة الَّتي ترفعُها إلى في امْرَأتك». [البخاري (٢٧٤٢)، ومسلم (١٦٢٨)].

إنَّ تلك المعاني - إذا تمكَّنت في قلب المسلم - لكَفِيْلةٌ بأن تصبُغَ حياته كلَّها بصبغة العبودية لله وحده، وإذا شملت العبادة كلَّ نواحي حياة المسلم؛ فإنَّ لهذا الشُّمول آثاراً مباركةً سوف يشعر بها الفرد في نفسه، ثم يلمسها فيمن حوله[١].

ومن أبرز تلك الآثار أمران:

أ - أن يصبُغ حياة المسلم وأعماله بالصِّبغة الرَّبَّانيَّة، ويجعله مشدوداً إلى الله في كلِّ ما يؤدِّيه، فهو يقوم به بنيَّة العابد الخاشع، وروح القانت المخبت، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كلِّ عملٍ نافعٍ، وكلِّ إنتاجٍ صالحٍ، وكلِّ ما ييسِّر له، ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة، على أمثل وجوهها، فإنَّ ذلك يزيدُ رصيدهُ من الحسنات، والقربات عند الله تعالى، كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدُّنيويِّ، وتجويده، وإتقانه، ما دام يقدِّمه إلى ربِّه سبحانه ابتغاء رضوانه، وحسنِ مثوبته.

ب - أنَّه يمنح المسلم وحدة الوُجهة، ووحدة الغاية في حياته كلِّها، فهو يرضى رباً واحداً في كلِّ ما يأتي، ويدع، ويتَّجه إلى هذا الرَّبِّ بسعيه كلِّه الدِّينيِّ والدُّنيويِّ، لا انقسام، ولا صراع، ولا ازدواج في شخصيته، ولا في حياته[٢].

ولقد عاش الصَّحابة الكرام تلك المعاني، وحوَّلوها إلى حقائق ملموسةٍ في حياتهم كلِّها، وما حفظ الله سيرتهم إلا لكي نقتديَ بهم في حياتنا، وتكونَ حجَّةً على كلِّ مَنْ جاء بعدهم[٣].

* * *

---

(١) انظر: مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، ص ٣١٥.

(٢) انظر: العبادة في الإسلام، للقرضاويِّ، ص ٦٦.

(٣) انظر: مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، ص ٣١٦، لقد استفدت في فصل غزوة الحديبية استفادة كبيرة من كتاب مرويات غزوة الحديبية، للحكمي، وصلح الحديبية، لباشميل، وغزوة الحديبية، لأبي فارس، وكانت هذه الكتب هي العمدة في هذا الفصل، كما استفدت من غيرها كمراجع ومصادر.

الفصل الرَّابع عشر
أهم الأحداث ما بين الحديبية ، وفتح مكة

المبحث الأوَّل
غزوة خيبر

أولاً: تاريخها ، وأسبابها:

ذكر ابن إسحاق[١]: أنَّها كانت في المحرَّم من السَّنة السَّابعة للهجرة ، وذكر الواقديُّ[٢] أنَّها كانت في صفر ، أو ربيع الأول من السَّنة السَّابعة للهجرة بعد العودة من غزوة الحديبية ، وذهب ابن سعدٍ[٣] إلى أنَّها في جمادى الأولى سنة سبعٍ ، وقال الإمامان: الزُّهريُّ ، ومالكٌ: إنَّها في محرَّم من السَّنة السَّادسة[٤] ، وظاهر الخلاف بين ابن إسحاق ، والواقديِّ يسيرٌ ، وهو نحو الشَّهرين ، وكذلك فإنَّ الخلاف بينهما ، وبين الإمامين الزُّهري ، ومالكٍ مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السَّنة الهجريَّة الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك ، وقد رجَّح ابن حجر[٥] قول ابن إسحاق على قول الواقديِّ[٦].

لم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين حتَّى نزل فيهم زعماء بني النَّضير؛ الَّذين حزَّ في نفوسهم إجلاؤهم عن ديارهم ، ولم يكن الإجلاء كافياً لكسر شوكتهم ، فقد غادروا المدينة ومعهم

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٣/ ٤٥٥)ـ معلقاً. وينظر الشكل (١٢) في الصفحة (٦١٦).
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٦٣٤).
(٣) انظر: الطَّبقات ، لابن سعد (٢/ ١٠٦).
(٤) انظر: تاريخ دمشق ، لابن عساكر (١/ ٣٣).
(٥) انظر: الفتح (١٦/ ٤١) ، والسِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٠.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٠.

النِّساء ، والأبناء ، والأموال ، وخلفهم القيان يضربن الدُّفوف ، والمزامير بزهاءٍ ، وفخرٍ ما رئي مثله في حيٍّ من النَّاس في زمانهم(١) .

وكان من أبرز زعماء بني النَّضير الذين نزلوا في خيبر سلاَّم بن أبي الحُقَيق ، وكِنانة بن أبي الحُقيق ، وحُيَيُّ بن أخطب ، فلمَّا نزلوا دان لهم أهلُها(٢) .

وكان تـزعُّمُ هؤلاء ليهود خيبر كافياً في جرِّها إلى الصِّراع ، والتَّصدِّي ، والانتقام من المسلمين ، فقد كان يدفعهم حقدٌ دفينٌ ، ورغبةٌ قويَّةٌ في العودة إلى ديارهم داخل المدينة ، وكان أوَّل تحرُّكٍ قويٍّ ما حدث في غزوة الأحزاب حيث كان لخيبر وعلى رأسها زعماء بني النَّضير دورٌ كبيرٌ في حشد قريش ، والأعراب ضدَّ المسلمين ، وتسخير أموالهم في ذلك ، ثمَّ سعيهم في إقناع بني قريظة بالغدر ، والتَّعاون مع الأحزاب(٢) ، بل إنَّهم أنفقوا أموالهم ، واستغلُّوا علاقاتهم مع يهود بني قُريظة من أجل نُصرة الأحزاب وطَعْنِ المسلمين في ظهورهم(٣) ، وهكذا أصبحت خيبر مصدر خطرٍ كبيرٍ على المسلمين ، ودولتهم النَّامية .

تفرَّغ المسلمون بعد صلح الحديبية لتصفية خطر يهود خيبر الَّذي أصبح يهدِّد أمن المسلمين ، ولقد تضمَّنت سورة الفتح الَّتي نزلت بعد الحديبية وعداً إلهياً بفتح خيبر ، وحيازة أموالها غنيمةً(٣) .

قال تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الفتح : ١٨ ـ ٢١] .

ثانياً : مسير الجيش الإسلاميِّ إلى خيبر :

سار الجيش إلى خيبر بروحٍ إيمانيَّةٍ عاليةٍ ، على الرَّغم من علمهم بمنعة حصون خيبر ، وشدَّة بأس رجالها ، وعتادها الحربيِّ ، وكانوا يكبِّرون ، ويهلِّلون بأصواتٍ مرتفعةٍ ، فطلب منهم النَّبيُّ ﷺ أن يرفُقوا بأنفسهم قائلاً : «أيُّها النَّاس! اربَعُوا على أنفسكم ، فإنَّكم لا تدعون أصمَّ ، ولا غائباً ، ولكن تدعون سميعاً بصيراً» [البخاري (٦٣٨٤) ، ومسلم (٢٧٠٤)] .

وكان سيره ﷺ بالجنود ليلاً ، فقد قال سلمةُ بن الأكوع رضي الله عنه : خرجنا مع النَّبي ﷺ إلى خيبر ، فسرنا ليلاً ، وكان عامر بن الأكوع يحدو بالقوم ، ويقول :

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣١٩) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٤٩) .

اللّهُـــمَّ لَـــوْلاَ أَنْـــتَ مَـــا اهْتَـــدَيْنَـــا ولاَ تَصَـــــدَّقْنَـــــا وَلاَ صَلَّيْنَـــــا
فَـــاغْفِـــرْ فِـــدَاءً لَـــكَ مَـــا اتَّقَيْنَـــا وَثَبِّـــــتِ الأَقْـــــدَامَ إِنْ لاَقَيْنَـــــا
وَأَلْقِيَـــــنْ سَكِيْنَـــــةً عَلَيْنَـــــا إِنَّـــــا إِذَا صِيْـــــحَ بِنَـــــا أتينــــا
وَبِـــــالصِّيَـــــاحِ عَـــــوَّلُـــــوا عَلَيْنَـــــا

فقال رسول الله ﷺ : «مَنْ هذا السَّائق؟» قالوا : عامر بن الأكوع .

قال : «يرحمه الله!» .

قال رجلٌ ـ هو عمر بن الخطَّاب ـ[1] مِنَ القومِ : وَجَبَت يا نبيَّ الله! لولا أمتعتنا به . [البخاري (٤١٩٦) ، ومسلم (١٨٠٢)] .

وعندما وصل الجيش الإسلاميُّ بالصَّهباء ـ وهي من أدنى خيبر ـ صلَّى العصر ، ثمَّ دعا بالأزواد ، فلم يؤت إلا السَّويق ، فأمر به فثري ، فأكل ، وأكل معه الصَّحابة ، ثمَّ قام إلى المغرب ، فمضمض ثمَّ صلَّى بالصَّحابة ، ولم يتوضَّأ . [البخاري (٤١٩٥) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢٠٠)][2] .

وكان ﷺ قد بعث عبَّاد بن بِشْرٍ رضي الله عنه في سريَّةٍ استطلاعيَّة يتلقَّط أخبار العدوِّ ، ويستطلع إن كان هناك كمائن ، فلقي في الطَّريق عيناً لليهود من أشجع ، فقال : من أنت؟ قال : باغٍ أبتغي أبعرة ضلَّت لي ، أنا على إثرها . قال عبَّاد : ألك علمٌ بخيبر؟ قال : عهدي بها حديثٌ ، فيمَ تسألني عنه؟ قال : عن اليهود؟ قال : نعم ، كان كنانة بن أبي الحُقيق ، وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غَطَفان ، فاستنفروهم وجعلوا لهم ثمر خيبر سنةً ، فجاؤوا مُعَدِّين ، مؤيَّدين بالكُراع والسِّلاح ، يقودهـم عتبة بـن بدرٍ ، ودخلوا معهم في حصونهم ، وفيهم عشرة آلاف مقاتلٍ ، وهم أهل الحصون الَّتي لا ترام ، وسلاحٌ ، وطعامٌ كثيرٌ ، لو حُصِرُوا لسنين؛ لكفاهم ، وماءٌ يشربون في حصونهم ، ما أرى لأحدٍ بهم طاقة ، فرفع عبَّاد بن بشرٍ السَّوط ، فضربه ضرباتٍ ، وقال : ما أنت إلا عينٌ لهم ، اصدقني ، وإلا ضربتُ عنقك! فقال الأعرابيُّ : القوم مرعوبون منكم ، خائفون ، وَجِلون؛ لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود ، وقال لي كنانة : اذهب معترضاً للطَّريق ، فإنهم لا يستنكرون مكانك ، واحزرهم لنا ، وادنُ منهم كالسَّائل لهم ما تقوى به ، ثمَّ ألقِ إليهم كثرة عددنا ، ومددنا ، فإنَّهم لن يدعوا سؤلك ، وعجِّل الرَّجعة إلينا بخبرهم[3] .

---

(١) انظر : فتح الباري (٧/ ٥٣٠) .
(٢) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/ ٣٠) .
(٣) انظر : المغازي ، للواقدي (٢/ ٦١٠ ـ ٦٤١) .

وعندما وصل جيش المسلمين إلى مشارف خيبر ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «قفوا» . ثمَّ قال : «اللّهُمَّ ربَّ السَّموات ، وما أظْلَلْنَ ، وربَّ الأرضين ، وما أَقْلَلْنَ ، وربَّ الشَّياطين ، وما أَضْلَلْنَ ، وربَّ الرِّياح ، وما ذَرَيْن ، فإنَّا نسألك خير هذه القرية ، وخير أهلها ، وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرِّها ، وشرِّ أهلها ، وشرِّ ما فيها ، اقدموا باسم الله» [ابن حبان (٢٧٠٩) ، والحاكم (٢/ ١٠٠ ـ ١٠١) ، والنسائي في اليوم والليلة (٥٤٣) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٥٢) ، وابن خزيمة (٥٦٥) ، والطبراني في الكبير (٧٢٩٩)] . وكان يقولها لكلِّ قرية دخلها .

ولما أدرك رسول الله ﷺ اللَّيل أمر الجيش بالنَّوم على مشارف خيبر ، ثم استيقظوا مبكرين ، وضربوا خيامهم ، ومعسكرهم بوادي الرَّجيع ، وهو وادٍ يقع بين خيبر وغطفان ؛ حتى يقطعوا المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان(١) .

ولمَّا أصبح الصُّبح خرجت اليهود بمساحيهم(٢) ، ومكاتلهم(٣) ، فلمَّا رأوا جيش المسلمين قالوا : محمدٌ والله! محمدٌ والخَميس ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «الله أكبر! الله أكبر! خربت خيبر ، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ ، فساء صباحُ المنذرين» [البخاري (٦١٠) ، ومسلم (١٣٦٥/ ١٢٠)] .

ثالثاً : وصف تساقط حصون خيبر :

هرب اليهود إلى حصونهم ، وحاصرهم المسلمون ، وأخذوا في فتح حصونهم واحداً تلو الآخر ، وكان أوَّل ما سقط من حصونهم ناعمٌ ، والصَّعب بمنطقة النَّطاة ، وأبو النِّزار بمنطقة الشِّقِّ ، وكانت هاتان المنطقتان في الشَّمال الشَّرقي من خيبر ، ثمَّ حصن القَمُوص المنيع في منطقة الكتيبة ، وهو حصن ابن أبي الحُقَيْق ، ثم أسقطوا حصني منطقة الوَطيح ، والسَّلالم(٤) .

وقد واجه المسلمون مقاومةً شديدةً وصعوبةً كبيرةً عند فتح بعض هذه الحصون ، منها حصن ناعمٍ ؛ الَّذي استشهد تحته محمود بن مسلمة الأنصاريُّ ، حيث ألقى عليه مرحبُ رحىً مِنْ أعلى الحصن(٥) ، والَّذي استغرق فتحه عشرة أيام(٦) ، فقد حمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصِّدِّيق ، ولم يفتح الله عليه ، وعندما جهَد النَّاس ، قال رسول الله ﷺ : إنَّه سيدفع اللِّواء غداً إلى رجلٍ يحبُّه الله ورسولُه ، ويحبُّ الله ورسولَه ، لا يرجع حتَّى يُفْتَح له ، فطابت نفوس المسلمين ، فلمَّا صلَّى فجر اليوم الثَّالث دعا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، ودفع إليه اللِّواء ، فحمله ، فتمَّ فتح الحصن على يديه . [الحاكم (٣/ ٣٧)] .

---

(١) انظر : الصِّراع مع اليهود (٢/ ٤٥) .
(٢) المساحي : جمع ، ومفردها : مسحاة ، والمسحاة : المجرفة من الحديد .
(٣) المكاتل : جمع مكتل ، وهو المقطف الكبير .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٠١ .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) انظر : الواقدي (٢/ ٦٥٧) .

وكان عليٌّ يشتكي من رَمَدٍ في عينيه عندما دعاه الرَّسول ﷺ ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ، ودعا له ، فبَرَأَ. [البخاري (٤٢١٠) ، ومسلم (٢٤٠٦)].

ولقد أوصى الرَّسول ﷺ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم ، وقال له: «فو الله! لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن تكون لك حُمُرُ النَّعَمِ». [البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦)].

وعندما سأله عليٌّ رضي الله عنه: يا رسول الله! على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قاتلهم حتَّى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك؛ منعوا منك دماءهم ، وأموالَهم إلا بحقِّها ، وحسابهم على الله». [مسلم (٢٤٠٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٦٠)].

وعندما حاصر المسلمون هذا الحصن برز لهم سيِّده ، وبطلُهم مِرْحَبٌ ، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع ، ثمَّ بارزه عليٌّ فقتله[١] ، وقيل: قتله محمَّد بن مسلمة ، ممَّا أثر سلبياً في معنويات اليهود ، ومِنْ ثَمَّ هزيمتهم[٢].

ووردت مجموعةٌ من روايات تخبر بأن علياً رضي الله عنه تترَّس بباب عظيم ، كان عند حصنِ ناعمٍ ، بعد أن أسقط يهوديٌّ ترسه مِنْ يده. وكلُّها رواياتٌ ضعيفةٌ [أحمد (٦/ ٨)، والطبري في تاريخه (٣/ ٩٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢١٢) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٥٢)][٣] ، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوَّة عليٍّ ، وشجاعته ، فيكفيه ما ثبت في ذلك ، وهو كثيرٌ[٤].

توجَّه المسلمون إلى حصن الصَّعب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعمٍ ، وأبلى حامل رايتهم الحُباب بن المنذر بلاءً حسناً ، حتَّى افتتحوه بعد ثلاثة أيام ، ووجدوا فيه الكثير من الطَّعام والمتاع يوم كانوا في ضائقةٍ من قلَّة الطَّعام ، ثمَّ توجَّهوا بعده إلى حصن قلعة الزُّبير ـ الَّذي اجتمع فيه الفارُّون من حصن ناعمٍ ، والصَّعبِ ، وبقيَّةِ ما فتح من حصون يهود ـ فحاصروه ، وقطعوا عنه مجرى الماء الَّذي يغذِّيه ، فاضطروهم إلى النزول للقتال ، فهزموهم بعد ثلاثة أيَّام ، وبذلك تمَّت السَّيطرة على آخر حصون منطقة النَّطاة؛ الَّتي كان فيها أشدُّ اليهود ، ثمَّ توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق وبدؤوا بحصن أُبَيٍّ ، فاقتحموه ، وأفلت بعضُ مقاتلته إلى حصن نزار ، وتوجَّه إليهم المسلمون فحاصروهم ، ثمَّ افتتحوا الحصن ، وفرَّ بقيَّة أهل الشِّقِّ من حصونهم ، وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع ، وحصن الوَطِيح ، وحصن السَّلالم ، فحاصرهم

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ٥٠٢.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٢٤).
(٤) المصدر السابق نفسه.

المسلمون لمدَّة أربعة عشر يوماً حتَّى طلبوا الصُّلح[١] .

وهكذا فُتحت خيبر عَنْوةً[٢]؛ استناداً إلى النَّظر في مجريات الأحداث التي سقناها ، وما روى البخاريُّ[٣] ، ومسلمٌ[(١٣٦٥/ ١٢٠)] ، وأبو داود[(٣٠٠٩)][٤] من أنَّ رسول الله ﷺ غزا خيبر ، وافتتحها عَنْوةً[٥] .

وبذلك سقطت سائر خيبر بيد المسلمين ، وسارع أهل فَدَك في شمال خيبر إلى طلب الصُّلح ، وطلبوا منه أن يحقن دماءهم ، وبذلوا له الأموال فوافق على طلبهم [مسلم (١٥٥١) ، وأحمد (٢/ ٤٥١) ، وأبو داود (٣٠٠٦) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٣٧ ـ ١٣٨)][٦] فكانت فدك خالصةً لرسول الله ﷺ ؛ لأنَّه لم يوجف عليها بخيلٍ ، ولا ركاب ، وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعةُ قرى بين خيبر ، وتيماء ليالي[٧] ، ثمَّ استسلمت ، فغنم المسلمون أموالاً كثيرةً ، وتركوا الأرض والنَّخل بيد اليهود ، وعاملهم عليها مثل خيبر ، وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ، ووادي القرى[٨] .

وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهوديَّة أمام قوَّات المسلمين ، وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثةً وتسعين رجلاً[٩] ، وسبيت النِّساء والذَّراري ، منهنَّ صفيَّةُ بنت حُيَيٍّ بن أخطب ، فأعتقها رسولُ الله ﷺ ، وتزوَّجها . [البخاري (٣٧١) ، ومسلم (١٣٦٥)] .

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق[١٠] ، وخمسة عشرَ فيما ذكر الواقديُّ[١١] .

رابعاً: الأعرابيُّ الشَّهيد ، والرَّاعي الأسود ، وبطلٌ إلى النَّار :

١ ـ الأعرابيُّ الشَّهيد :

جاء رجلٌ من الأعراب إلى النَّبيِّ ﷺ ، فآمن به ، واتَّبعه ، فقال : أهاجر معك . فأوصى به

---

(١) انظر : الواقدي (٢/ ٦٥٨ ـ ٦٧١) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٠٤ .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) انظر : مغازي الواقديِّ (٢/ ٦٩٩) .
(٧) انظر : تاريخ خليفة ، ص ٨٥ نقلاً عن ابن إسحاق .
(٨) زاد المعاد (٣/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥) .
(٩) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٠٤ .
(١٠) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٢٧) .
(١١) انظر : المغازي (٢/ ٧٠٠) .

بعض أصحابه ، فلمَّا كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله ﷺ شيئاً ، فقسمه ، وقسم للأعرابيِّ ، فأعطى أصحابه ما قسَم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلمَّا جاء؛ دفعوه إليه ، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قسمه لك رسولُ الله ﷺ ، فأخذه فجاء به للنَّبيِّ ﷺ ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟! قال: «قَسْمٌ قسمتُه لك». قال: ما على هذا اتبعتُك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ها هنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهمٍ فأموتَ ، فأدخلَ الجنَّة ، فقال: «إن تَصْدُقِ الله؛ يَصْدُقْكَ» ثم نهض إلى قتال العدوِّ ، فأُتي به إلى النَّبيِّ ﷺ؛ وهو مقتولٌ ، فقال: «أهو هو؟» قالوا: نعم.

قال: «صَدَقَ اللهَ ، فَصَدَقَهُ».

فكفَّنه النَّبيُّ ﷺ في جُبَّته، ثمَّ قدَّمه، فصلَّى عليه ، وكان من دعائه له: «اللَّهُمَّ هذا عبدُك خرج مهاجراً في سبيلك، قُتِل شهيداً، وأنا عليه شهيدٌ». [النسائي (٤/ ٦٠ ـ ٦١)، والحاكم (٣/ ٥٩٥ ـ ٥٩٦)، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٢٢٢)، وفي السنن الكبرى (٤/ ١٥ ـ ١٦)].

٢ ـ الرَّاعي الأسود:

وجاء عبدٌ أسودُ حبشيٌّ من أهل خيبر ، كان في غنمٍ لسيده ، فلمَّا رأى أهل خيبر قد أخذوا السِّلاح ، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الَّذي يزعم: أنَّه نبيٌّ. فوقع في نفسه ذكر النَّبيِّ ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسول الله ، وألا تعبد إلا الله». قال العبد: فما لي إن شهدت ، وآمنت بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، قال: «لك الجنَّة إنْ مِتَّ على ذلك. فأسلم ، ثمَّ قال: يا نبيَّ الله! إنَّ هذه الغنم عندي أمانةٌ ، فقال رسول الله ﷺ: «أخرجها من عندك وارمها بـ(الحصباء)؛ فإنَّ الله سيؤدِّي عنك أمانتك». ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيِّدها ، فعلم اليهوديُّ: أنَّ غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ﷺ في النَّاس، فوعظهم، وحضَّهم على الجهاد، فلمَّا التقى المسلمون واليهود؛ قُتِلَ ـ فيمن قُتِلَ ـ العبدُ الأسود ، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم ، فأُدخل في الفسطاط ، فزعموا: أنَّ رسول الله ﷺ اطَّلع في الفُسطاط ، ثمَّ أقبل على أصحابه ، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خيبر ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يُصَلِّ لله سجدةً قطُّ». [الحاكم (٢/ ١٣٦)، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٤٣)، وفي الدلائل (٤/ ٢١٩ ـ ٢٢٠)][1].

٣ ـ بطل لكنَّه إلى النَّار:

كان في جيش المسلمين بخيبر رجلٌ لا يدع للمشركين شاذَّةً ، ولا فاذَّةً[2] إلا اتَّبعها يضربها

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٣، ٣٢٤) والسِّيرة الحلبيَّة (٣/ ٣٩)، وابن كثير في البداية والنِّهاية.

(٢) الشَّاذ: الَّذي يفارق الجماعة ، الفاذُّ: الَّذي لم يختلط بالجماعة.

بسيفه ، فقال رسول الله ﷺ : «أما إنَّه من أهل النَّار» . فقالوا : أيُّنا من أهل الجنَّة إن كان من أهل النَّار؟! فقال رجلٌ : والله لا يموت على هذه الحال أبداً ، فاتَّبعه حتَّى جرح ، فاشتدَّت جراحتُه ، واستعجل الموت ، فوضع سيفه بالأرض ، وذبابه بين ثدييه ، ثمَّ تحامل عليه ، فقتل نفسه ، فجاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال : أشهد إنَّك رسول الله! قال : «وما ذاك؟» فأخبره ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «إنَّ الرَّجل ليعمل بعمل أهل الجنَّة فيما يبدو للناس ، وإنَّه من أهل النَّار ، وإنَّه ليعمل بعمل أهل النَّار فيما يبدو للنَّاس ، وإنَّه لمن أهل الجنَّة». [البخاري (٤٢٠٢ و٤٢٠٧) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٢٥٢)].

خامساً: قدوم جعفر بن أبي طالبٍ ، ومَنْ معه من الحبشة :

قدم جعفر بن أبي طالبٍ ، وصحبُه من مهاجري الحبشة على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر ، فقبَّلهُ رسول الله ﷺ بين عينيه ، والتزمه ، وقال : «ما أدري بأيِّهما أنا أَسَرُّ بفتح خيبر ، أم بقدوم جعفر؟!» [الطبراني في الصغير (٣٠) ، وفي الأوسط (٢٠٢٤) ، وفي الكبير (١٤٧٠) ، وابن سعد (٤/ ٣٥) ، والحاكم (٣/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩) ، والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٠١) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٧١ ـ ٢٧٢)]. وكان ﷺ قد أرسل في طلبهم من النَّجاشيِّ عمرو بن أميَّة الضَّمريَّ ، فحملهم في سفينتين ، ووافق قدومهم عليه يوم فتح خيبر ، وقد رافق جعفراً في قدومه أبو موسى الأشعريُّ ، ومن كان بصحبته من الأشعريِّين[١] .

فعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال : بلغنا مَخْرَجُ النَّبيِّ ﷺ ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه ، أنا ، وأخوان لي ، أنا أصغرهم ، أحدُهم أبو بُرْدَةَ ، والآخر أبو رُهْم ، إمَّا قال : في بضع ، وإمَّا قال : في ثلاثةٍ وخمسين ، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي ، فركبنا سفينةً فألقتنا سفينتنا إلى النَّجاشيِّ بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبي طالبٍ فأقمنا جميعاً ، فوافقنا النَّبيَّ ﷺ حين افتتح خيبر . [البخاري (٤٢٣٠) ، ومسلم (٢٥٠٢)].

لقد مكث جعفر وإخوانه في الحبشة بضعة عشر عاماً ، نزل خلالها قرآنٌ كثيرٌ ، ودارت معارك شتَّى مع الكفَّار ، وتقلَّب المسلمون قبل الهجرة العامَّة وبعدها في أطوارٍ متباينةٍ ، حتَّى ظنَّ البعض أنَّ مهاجري الحبشة ـ وقد فاتهم هذا كلُّه ـ أقلُّ قدراً من غيرهم[٢] .

فعن أبي موسى : « . . كان أناس يقولون لنا : سبقناكم بالهجرة ، ودخلت أسماء بنت عُمَيْسٍ على حفصة زوج النَّبيِّ زائرةً ـ وكانت هاجرت إلى النَّجاشيِّ فيمن هاجر ـ فدخل عمر على حفصة؛ وأسماء عندها ، فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عُميس . قال

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٣٥٣.
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٣٥٠.

عمر: الحبشيَّة هذه؟ البحريَّة هذه؟ قالت أسماء: نعم! قال عمر: سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحقُّ برسول الله منكم! فغضبت ، وقالت: كلاَّ والله! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعظُ جاهلكم ، وكنَّا في أرض البُعَدَاء البُغضَاء بالحبشة! وذلك في الله وفي رسول الله ، وايْمُ الله! لا أطعَم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتَّى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ ، وأسأله ، والله! لا أكذب ، ولا أزيغ ، ولا أزيد عليه. فلمَّا جاءت النَّبيَّ ﷺ ؛ قالت: كذا وكذا ، قال: «ليس بأحقَّ بي منكم، وله ، ولأصحابه هجرةٌ واحدةٌ ، ولكم أنتم ـ أهل السَّفينة ـ هجرتان». [سبق تخريجه].

فأخذت أسماء هذا الوسام ، ووزَّعته على جميع أعضاء الوفد؛ حيث كانوا[1] كما قالت: يأتوني أرسالاً يسألونني عن هذا الحديث ، ما مِنَ الدُّنيا شيءٌ هم به أفرحُ ، ولا أعظم في نفوسهم ممَّا قال لهم النَّبيُّ ﷺ . [سبق تخريجه].

وقد أشركهم النَّبيُّ ﷺ في مغانم خيبر بعد أن استأذن من الصَّحابة رضي الله عنهم الَّذين شاركوا في فتحها[2].

سادساً: تقسيم الغنائم:

١ ـ كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرَّسول ﷺ غنيمةً من حيث الأراضي ، والنَّخيل ، والثِّياب ، والأطعمة ، وغير ذلك ، ومن خلال وصف كتب السِّيرة نلاحظ: أنَّ الغنائم كانت تتكوَّن من:

أ ـ الطَّعام: فقد غنم المسلمون كثيراً من الأطعمة من حصون خيبر ، فقد وجدوا فيها الشَّحم ، والزَّيت ، والعسل ، والسَّمن وغير ذلك ، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة ، ولم يخمِّسها[3].

ب ـ الثِّياب ، والأثاث ، والإبلُ ، والبقر ، والغنم: لقد أخذ رسول الله ﷺ خمسها ووضعه فيما وضعه الله فيه ، ووزَّع أربعة أخماسها على المجاهدين.

ج ـ السَّبي: لقد سبى رسولُ الله ﷺ كثيراً من نساء اليهود ، ووزَّع السَّبي على المسلمين ، فهو غنيمةٌ ، ويأخذ حكم الغنيمة.

د ـ أمَّا الأراضي ، والنَّخيل: فقد قسمها النَّبيُّ ﷺ إلى ستَّةٍ وثلاثين سهماً ، جمع كلُّ سهم مئة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمئة سهم ، فكان لرسول الله ﷺ لنوائبه ، وما ينزل به من أمور

---

(١) انظر: فقه السِّيرة ، للغضبان ، ص ٥٣٥.
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (٣/ ٩٦).
(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٤٠).

المسلمين وللمسلمين النِّصف من ذلك ، وهو ألفٌ وثمانمئة سهم ، ووزَّع النِّصف الآخر ، وهو ألف وثمانمئة سهم[١] .

هـ ـ وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدَّة صحفٍ من التَّوراة، فطلب اليهود ردَّها ، فأمر بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرُّومان حينما فتحوا أورشليم ، وأحرقوا الكتب المقدَّسة ، وداسوها بأرجلهم ، ولا ما صنع النَّصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حين أحرقوا كذلك صحف التَّوراة[٢] .

وقد أبقى رسولُ الله ﷺ يهود خيبر فيها على أن يعملوا في زراعتها ، وينفقوا عليها من أموالهم ، ولهم نصف ثمارها ، على أنَّ للمسلمين حقَّ إخراجهم منها متى أرادوا ، وكان اليهود قد بادروا بعرض ذلك على النَّبيِّ ﷺ ، وقالوا: نحن أعلم بالأرض منكم ، فوافق على ذلك بعد أن همَّ بإخراجهم منها . [أبو داود (٣٤١٠) ، وابن ماجه (١٨٢٠)][٣] .

وقد اشترط عليهم أن يجليهم عنها متى شـاء ، وهنا تظهر براعةٌ سياسيَّةٌ جديدةٌ في عقد الشُّروط ؛ فإنَّ بقاء اليهود في الأرض يفلحونها يوفِّر للمسلمين الجنود المجاهدين في سبيل الله ، ومن جهـةٍ أخرى فإنَّ اليهـود هم أصحـاب الأرض ، وهم أدرى بفلاحتها من غيرهـم ، فبقاؤهم فيها يعطي ثمرةً أكثر ، وأجود ، وبخاصَّةٍ: أنَّهم لن يأخذوا أجراً ، ولكنَّهم سيأخذون نصف ما يخرج من الأرض، قلَّ ، أو كثر .

وقد ضمن الرَّسول ﷺ ـ بشرط إجلائهم متى شاء المسلمون ـ إخضاعهم وكسر شوكتهم ؛ لأنَّهم يعلمون: أنَّهم إذا فعلوا شيئاً يضرُّ بالمسلمين سيطردونهم منها ، ولا يعودون إليها أبداً .

وقد حدث ذلك فعلاً في عهد سيدنا عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، حيث اعتدوا على عبد الله بن عمر ، ففدعوا[٤] يديه من المرفقين ، وكانوا قبل ذلك في عهد الرَّسول ﷺ اعتدوا على عبد الله بن سهل ، فقتلوه ، فلمَّا تحقَّق عمر من غدرهم، وخيانتهم؛ أمر بإجلائهم[٥] .
وحاول يهود خيبر أن يُخفوا الفضَّة ، والذَّهب، وغيبوا مَسْكاً[٦] لحُيَيِّ بن أخطب ، وكان قد قتل مع بني قريظة ، وكان احتمله معه يوم بني النَّضير حين أجليت بنو النَّضير ، فسأل رسول الله ﷺ

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود ، لأبي فارس (٣/ ١٤١ ـ ١٤٢).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٤١٩).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (١/ ٣٢٨).
(٤) الفَدَعُ: عوجٌ في المفاصل كأنها قد فارقت مواضعها.
(٥) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، لمحمَّد سيِّد الوكيل ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(٦) المَسْك: الجلد عامَّة ، أو جلد السَّخلة خاصَّة (السَّخلة: ولد الشاة).

سَعْيَةَ عمَّ حُيَيِّ بن أخطب: «أين مَسْكُ حُيَيِّ بن أخطب؟» قال: أذهبته الحروب، والنَّفقات[١]. فقال رسولُ الله ﷺ: العهد قريبٌ ، والمال أكثر من ذلك ، فدفعه رسولُ الله ﷺ إلى الزُّبير بن العوَّام ، فمسَّه بعذابٍ ، وقد كان حُيي قبل ذلك دخل خربـة ، فقال عمُّه: قد رأيت حُيياً يطوف في خربةٍ ها هنا، فذهبوا ، فطافوا ، فوجدوا المسك في الخربة[٢].

وبعد الاتِّفاق الَّذي تمَّ بين رسول الله ﷺ ويهود خيبر على إصلاح الأرض جعل رسولُ الله ﷺ عبد الله بن رواحة يأتيهم كلَّ عام ، فيخرصُها عليهم ، ثم يضمِّنهم الشَّطر. فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدَّة خَرْصِه[٣] ، وأرادوا أن يَـرْشُوه فقال: يا أعداء الله! تطعموني السُّحت؟ والله! لقد جئتكم من عند أحبِّ النَّاس إليَّ ، ولأنتم أبغضُ النَّاس إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير ، ولا يحملني بغضي إيَّاكم وحبِّي إيَّاه على ألاَّ أعدل عليكم! فقالوا: بهذا قامت السَّموات ، والأرض[٤].

لقد أصبحت خيبر ملكاً للمسلمين ، وصارت مورداً مهمّاً لهم ، قال ابن عمر رضي الله عنه: «ما شبعنا حتَّى فُتِحَتْ خيبر» [البخاري (٤٢٤٣)] ، وقد تحسَّن الوضع الاقتصاديُّ بعد خيبر ، وردَّ المهاجرون المنائح الَّتي أعطاهم إيَّاها الأنصار من النَّخل[٥].

سابعاً: زواج رسول الله ﷺ من صفيَّة بنت حُيَيٍّ بن أخطب:

لمَّا فتح المسلمون القَمُوص ـ حصن بني أبي الحُقيق ـ كانت صفيَّة في السَّبي ، فأعطاها لدحية الكلبي ، فجاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! أعطيت دحية صفيَّة بنت حُيَيٍّ سيدة قومها ، وهي ما تصلح إلا لك ، فاستحسن النَّبيُّ ﷺ ما أشار به الرَّجل ، وقال لدحية: خذ جاريةً من السَّبي غيرها ، ثمَّ أخذها رسولُ الله ﷺ وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها. [سبق تخريجه] ، ثمَّ تزوجها بعد أن طَهُرت من حَيْضَتها[٦] وبعد أن أسلمت.

ولم يخرج النَّبيُّ ﷺ من خيبر حتَّى طهرت صفيَّة من حيضها ، فحملها وراءه ، فلمَّا صار إلى منزلٍ على ستة أميالٍ من خيبر؛ مال يريد أن يعرِّس بها ، فأبت عليه ، فوجد في نفسه ، فلمَّا كان

---

(١) انظر: السِّيرة النبوية الصَّحيحة (١/٣٢٦) ، ونصب الرَّاية للزَّيلعي (كتاب السِّيَرَ) فصل: باب الغنائم وقسمتها.

(٢) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية لابن تيمية ، وتاريخ الإسلام ، للذهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص٤٢٤.

(٣) الخرص: الحَزْرُ ، والحدْس ، والتَّخمين. وخرَّص العدد: أي قدَّره تقديراً بظنٍّ لا إحاطةٍ.

(٤) انظر: تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص ٤٢٤.

(٥) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٥٢.

(٦) انظر: الصِّراع مع اليهود (٣/١٠١).

بالصَّهباء نزل بها هناك ، فمشطتها أمُّ سليم ، وعطَّرتها ، وزفَّتها إلى النَّبيِّ ﷺ ، وبنى بها ، فسألها: «ما حملك على الامتناع من النُّزول أوَّلاً؟» فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود ، فعظمت في نفسه ، ومكث رسولُ الله ﷺ بالصَّهباء ثلاثة أيام ، وأوْلَمَ عليها ، ودعا المسلمين ، وما كان فيها من لحمٍ ، وإنَّما التَّمر ، والأَقِطُ ، والسَّمن ، فقال المسلمون: إحدى أمهات المؤمنين ، أو ما ملكت يمينُه لها ، فلمَّا ارتحل وطَّأ لها خلفه ومدَّ عليها الحجاب ، فأيقنوا أنَّها إحدى أمَّهات المؤمنين . [سبق تخريجه][1] .

وقد كانت أم المؤمنين صفيَّة بنت حُيَيٍّ قد رأت رؤيا ، فقد روى البيهقيُّ ـ رحمه الله ـ بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن عمر رضي الله عنهما في حديثٍ طويلٍ قال: ورأى رسول الله ﷺ بعين صفيَّة خضرةً ، فقال: يا صفيَّة! ما هذه الخضرة؟ فقالت: كان رأسي في حجر ابن حُقَيْقٍ ، وأنا نائمةٌ ، فرأيت كأنَّ قمراً وقع في حجري ، فأخبرتُه بذلك فلطمني ، وقال: تَمَنَّيْنَ ملك يثرب . [البيهقي في الكبرى (٩/ ١٣٨)] .

وهكذا صدَّق الله رؤيا صفيَّة رضي الله عنها ، وأكرمها بالزَّواج من رسوله ﷺ ، وأعتقها من النَّار ، وجعلها أماً للمؤمنين ، وزوجاً في الجنَّة لخاتم الأنبياء والمرسلين[2] ، وقد أكرمها رسول الله ﷺ غاية الإكرام ، وكان يجلس عند بعيره فيضع ركبته لتضع صفيةُ رجلها على ركبته حتَّى تركب ، وقد بلغ من أدبها: أنَّها كانت تأبى أن تضع رجلها على ركبته ، فكانت تضع ركبتها على ركبته ، وتركب . [البخاري (٢٢٣٥)] .

وهذه صفيَّة رضي الله عنها تحدِّثنا عن خلق رسول الله ﷺ ، فتقول: ما رأيت أحداً قطُّ أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ ؛ لقد رأيته ركب بي في خيبر ، وأنا على عجز ناقته ليلاً ، فجعلت أنعس ، فتضرب رأسي مؤخرة الرَّحل ، فيَمسُّني بيده ، ويقول: «يا هذه! مهلاً» [أبو يعلى (٧١٢٠) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٥٢)][3] . وعن صفيَّة رضي الله عنها: أنَّها بلغها عن عائشة وحفصة أنهما قالتا: نحن أكرم على رسول الله ﷺ من صفيَّة ، نحن أزواجه وبنات عمِّه ، فدخل عليها ﷺ فأخبرته ، فقال: «ألا قلت: وكيف تكونان خيراً منِّي ؛ وزوجي محمَّد ، وأبي هارون ، وعمِّي موسى؟!» . [الترمذي (٣٨٩٢) ، والحاكم (٤/ ٢٩)] .

لقد تأثَّرت صفيَّة بأخلاق رسول الله ﷺ ، وأصبح ﷺ أحبَّ إليها من أبيها ، وزوجها السَّابق ، والنَّاس أجمعين ، بل أصبح أحبَّ إليها من نفسها ، تفديه بكلِّ ما تملك حتَّى نفسها ، وإذا ألمَّ به مرضٌ ؛ تمنَّت أن يكون فيها ، وأن يكون رسول الله ﷺ سليماً معافىً ، فقد أخرج ابن

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٨٤) .
(٢) انظر: الصِّراع مع اليهود (٣/ ١٢٢) .
(٣) انظر: السِّيرة الحلبيَّة (٣/ ٤٥) .

سعد رحمه الله بإسنادٍ حسنٍ عن زيد بن أسلم رضي الله عنه ، قال: اجتمع نساؤه ﷺ في مرضه الَّذي تُوفِّي فيه ، فقالت صفيَّة رضي الله عنها: إنِّي والله يا نبيَّ الله لوددت أنَّ الَّذي بك بي! فغمز بها أزواجُه ، فأبصرهنَّ رسول الله ﷺ فقال: «مَضْمِضْنَ» فقلن: من أيِّ شيء؟ فقال: «من تغامزكنَّ بها ، والله إنَّها لصادقة[١]!».

وممَّا له صلةٌ بزواج رسول الله ﷺ بصفيَّة بنت حُيَيٍّ حراسة أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يوم أن دخل بصفيَّة ، فعن ابن إسحاق: أنَّه قال: ولمَّا أعرس رسول الله ﷺ بصفيَّة بخيبر ، أو ببعض الطَّريق ، فبات بها رسول الله ﷺ في قبَّةٍ له ، وبات أبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بني النَّجار متوشِّحاً سيفه ، يحرس رسول الله ﷺ ، ويَطيف بالقُبَّة؛ حتَّى أصبح رسولُ الله ﷺ ، فلمَّا رأى مكانه؛ قال: «ما لك يا أبا أيوب؟!» قال: يا رسول الله! خفت عليك من هذه المرأة ، وكانت امرأةً قد قتَلْتَ أباها ، وزوجها ، وقومها ، وكانت حديثة عهدٍ بكفرٍ ، فخفتُها عليك[٢] ، فسُرَّ رسول الله ﷺ بعمله الَّذي ينبئ عن غاية الحبِّ ، والإيمان ، وقال: «اللَّهمَّ احفظ أبا أيوب كما بات يحرُسني!». [ابن هشام (٣/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥)][٣].

وكان زواجُ رسول الله ﷺ بصفية فيه حكمةٌ عظيمةٌ ، فهو لم يرد بزواجه منها قضاء شهوةٍ ، أو إشباعاً للغريزة كما يزعم الأفَّاكون ، وإنما أراد إعزازها ، وتكريمها ، وصيانتها من أن تفترش لرجلٍ لا يعرف لها شرفها ، ونسبها في قومها ، وهذا إلى ما فيه من العزاء لها؛ فقد قُتل أبوها من قبلُ ، وزوجُها ، وكثيرٌ من قومها ، ولم يكن هناك أجمل ممَّا صنعه الرَّسول ﷺ معها ، كما أنَّ فيه رباط المصاهرة بين النَّبيِّ ﷺ واليهود؛ عسى أن يكون في هذا ما يخفِّف من عدائهم للإسلام ، والانضواء تحت لوائه ، والحدِّ من مكرهم ، وسعيهم بالفساد[٤].

وكانت أمُّ المؤمنين صفيَّة رضي الله عنها عاقلةً ، وحليمةً ، وصادقةً ، يروى: أنَّ جاريةً لها أتت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه فقالت: إنَّ صفية تحبُّ السَّبت ، وتصل اليهود ، فبعث إليها فسألها عن ذلك ، فقالت: أمَّا السَّبت فإنِّي لم أحبَّه منذ أبدلني الله به الجمعة ، وأما اليهود فإنَّ لي فيهم رحماً فأنا أصلُها ، فقبل منها ، ثمَّ قالت للجارية: ما حملك على هذا؟ قالت: الشَّيطان ، فقالت لها: اذهبي فأنت حرَّة.

---

(١) انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٢/ ٢٣٣) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة (كتاب النساء).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٢٨) ، والبداية والنهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة لابن هشام (بناء النَّبيِّ ﷺ بصفيَّة ، وحراسة أبي أيوب للقُبَّة) ، وكنز العمال (للمتَّقي الهندي).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).
(٤) المصدر السابق نفسه.

وكانت وفاتها في رمضان سنة خمسين للهجرة في زمن معاوية ، وقيل: سنة اثنتين وخمسين رضي الله عنها ، وأرضاها[١].

ثامناً: محاولةٌ أثيمةٌ لليهود: الشَّاة المسمومة:

قال أبو هريرة رضي الله عنه: «لمَّا فُتحت خيبر؛ أهديت لرسول الله ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ ، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي مَنْ كان ها هنا من اليهود». فَجُمِعُوا له ، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إنِّي سائلُكُم عن شيءٍ؛ فهل أنتم صَادِقيَّ عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم!

فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أبوكم؟».

قالوا: فلان.

فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم ، بل أبوكم فلان».

فقالوا: صدقت.

فقال: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟».

فقالوا: نعم يا أبا القاسم! وإن كذبنا؛ عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

قال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أهل النَّار؟».

فقالوا: نكون فيها يسيراً ، ثمَّ تخلفونا فيها.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها ، والله! لا نَخْلُفُكُم فيها أبداً».

ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ؛ إن سألتكم عنه؟».

قالوا: نعم.

فقال: «هل جعلتم في هذه الشَّاة سُماً؟».

فقالوا: نعم.

فقال: «ما حملكم على ذلك؟».

فقالوا: إن كنت كاذباً؛ نَسْتَرِحْ منك ، وإن كنت نبيّاً لم يضرَّك. [البخاري (٣١٦٩) ، وأحمد (٢/ ٤٥١)].

قال: صاحب بلوغ الأماني عن الشَّاة المسمومة: أهدتها إليه زينب بنت الحارث اليهوديَّة

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٣٨٥).

امرأة سلاَّم بن مشكم ، وكانت سألت : أيُّ عضوٍ من الشَّاة أحبُّ إليه؟ فقيل : الذِّراع ، فأكثرت فيها من السُّمِّ ، فلمَّا تناول الذِّراع؛ لاك منها مضغةً ، ولم يَسُغْها ، وأكل منها معه بِشْرُ بن البراء ، فأساغ لقمةً ، ومات منها[١] .

وفي مغازي عروة : فتناول الذِّراع ، فانتهش منها ، وتناول بِشرُ عظماً آخر ، فانتهش منه ، فلمَّا أرغم رسولُ الله ﷺ ، أرغم بشرٌ ما في فيه ، فقال رسول الله ﷺ : «ارفعوا أيديكم ، فإنَّ كتف الشَّاة تخبرني أنِّي قد بغيت فيها» فقال بِشْرُ بن البراء : والَّذي أكرمك! لقد وجدت ذلك في أكلتي؛ الَّتي أكلت، ولم يمنعني أن ألفظَها إلا أنِّي كرهت أن أنغِّص طعامك، فلمَّا أكَلْتَ ما في فيك؛ لم أرغبْ بنفسي عن نفسك، ورجوتُ ألاَّ تكون رغمتها، وفيها بغي. [الطبراني في الكبير (١٢٠٤)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٥٣)][٢] .

وقال ابن القيِّم: وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت: أردت قتلك ، فقال: «ما كان الله لِيُسَلِّطَكِ عليَّ». قالوا: ألا تقتلها؟ قال: «لا» [مسلم (٢١٩٠)] . ولم يتعرَّض لها ، ولم يعاقبها ، واحتجم على الكاهل ، وأمر مَنْ أكل منها فاحتجم ، فمات بعضُهم[٣] .

وقد اختُلف في قتل المرأة ، والصَّحيح : أنَّه لما مات بشر؛ قتلها[٤] . ولقد كان السُّمُّ الذي وضعته اليهودية قوياً جدّاً؛ إذ مات بشر بن البراء فوراً ، وبقي رسول الله ﷺ يعاوده ألم السُّمِّ حتَّى انتقل إلى الرفيق الأعلى بعد أن بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة ، وتركها على المحجَّة البيضاء ، ليلُها كنهارها[٥] . وقد روى الإمام البخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النَّبيُّ ﷺ يقول في مرض موته الَّذي مات فيه: «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الَّذي أكلت بخيبر ، فهذا أوانُ وجَدْتُ انقطاعَ أَبْهَرِي[٦] من ذلك السُّمِّ». [البخاري (٤٤٢٨)][٧] .

تاسعاً: الحجَّاج بن عِلاط السُّلَمِيُّ ، وإرجاعُ أمواله من مكَّة:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر قال الحجَّاج بن عِلاَط :

---

(١) البخاري ، كتاب الجزية والموادعة ، حديث رقم (٣١٦٩) .
(٢) انظر: بلوغ الأماني بحاشية الفتح الرباني (٢١/ ١٢٣) .
(٣) انظر: مغازي رسول الله ﷺ ، لعروة بن الزبير، ص١٩٨ ، والبداية والنهاية ، وكتاب المغازي والسير (باب غزوة خيبر) .
(٤) زاد المعاد (٣/ ٣٣٦) .
(٥) انظر: الصِّراع مع اليهود (٣/ ١٢١) .
(٦) أبهري: عرق مستبطن بالظَّهر متَّصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه .
(٧) فتح الباري ، شرح حديث رقم (٥٧٧٧) ، والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام ، وزيادة الجامع الصَّغير للسُّيوطي .

يا رسول الله! إنَّ لي بمكَّة مالاً ، وإنَّ لي بها أهلاً ، وإنِّي أريد أن أكتبهم ، فأنا في حلٍّ إن أنا نلت منك ، وقلت شيئاً؟ فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما يشاء ، فأتى امرأته حين قدم ، فقال: اجمعي لي ما كان عندك ، فإنِّي أريد أن أشتري من غنائم محمَّد وأصحابه ، فإنَّهم قد استبيحوا ، أو أصبت أموالهم ، قال: ففشا ذلك في مكَّة فانقمع المسلمون ، وأظهر المشركون فرحاً ، وسروراً ، قال: وبلغ الخبر العبَّاس رضي الله عنه فعقِر ، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزريُّ عن مقسم قال: فأخذ ابناً له يشبه رسول الله ﷺ يقال له: قُثَم ، فاستلقى ، فوضعه على صدره ، وهو يقول:

حُبِّي قُثَم حُبِّي قُثَم شَبِيهُ ذِي الأَنْفِ الأَشَم

نَبِيُّ رَبِّ ذِي النِّعَمْ بِرَغْمِ أَنْفِ مَنْ رَغِم

قال ثابت بن أنسٍ: ثمَّ أرسل غلاماً له إلى الحجَّاج ، فقال له: ويلك! ما جئت به؟ وماذا تقول؟ فما وعد الله خيرٌ ممَّا جئت به ، قال: فقال الحجَّاج بن عِلَاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السَّلام ، وقل له: فليخلُ لي في بعض بيوته لآتيه ، فإنَّ الخبر على ما يسرُّه ، فجاءه غلامُه ، فلمَّا بلغ باب الدَّار قال: أبشر يا أبا الفضل! قال: فوثب العبَّاس فَرِحاً ، حتَّى قبَّل بين عينيه ، فأخبره بما قال الحجَّاج ، فأعتقه ، قال: ثمَّ جاء الحجَّاج فأخبره: أنَّ رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر ، وغنم أموالهم ، وجرت سهام الله في أموالهم ، واصطفى رسول الله ﷺ صفيَّة بنت حُيَيٍّ ، فأخذها لنفسه ، وخيَّرها أن يعتقها ، وتكون زوجته[1] ، ولكنِّي جئت لمالي ، وإنِّي استأذنت النَّبيَّ ﷺ ، فأذن لي ، فأخفِ عليَّ يا أبا الفضل ثلاثاً ، ثمَّ اذكُر ما شئت[2] ، فجمعت امرأته ما كان عندها من حليٍّ ، ومتاع ، فجمعه ، فَدَفَعَتْهُ إليه ، ثمَّ انشمر به ، فلما كان بعد ثلاثٍ أتى العباس امرأة الحجَّاج ، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته: أنَّه ذهب يوم كذا وكذا ، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل! لقد شقَّ علينا الَّذي بلغك ، قال: أجل ، لا يخزيني الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا ، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله ﷺ صفيَّة بنت حُيَيٍّ لنفسه ، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به ، قالت: أظنُّك والله صادقاً ، قال: فإنِّي صادقٌ ، الأمر على ما أخبرتك ، فقال: ثمَّ ذهب حتَّى أتى مجالس قريش ، وهم يقولون إذا مرَّ بهم: لا يصيبك إلا خيرٌ يا أبا الفضل! قال لهم: لم يصبني إلا خيرٌ بحمد الله ، قد أخبرني الحجَّاج بن عِلَاط أنَّ خيبر قد فتحها الله على رسوله ﷺ ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى صفيَّة لنفسه ، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثاً ، وإنَّما جاء ليأخذ ماله ، وما كان له من شيءٍ ها هنا ، ثمَّ يذهب. قال: فرد الله الكآبة الَّتي كانت بالمسلمين

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٥٩.
(٢) انظر: تاريخ الذَّهبي ، والمغازي ، ص ٤٣٩.

على المشركين ، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئباً حتَّى أتوا العباس ، فأخبرهم الخبر فسُرَّ المسلمون ، وردَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ما كان من كآبةٍ ، أو غيظٍ ، أو حزنٍ على المشركين. [أحمد (٣/ ١٣٨ ـ ١٣٩) ، والبزار (١٨١٦) ، وأبو يعلى (٣٤٧٩) ، والطبراني في الكبير (٣١٩٦) ، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٥١) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٤٦٦ ـ ٤٦٩)].

وفي هذا الخبر فقهٌ غزيرٌ؛ منه: جواز كذب الإنسان على نفسه ، وعلى غيره؛ إذا لم يتضمَّن ضرر ذلك الغير إذا كان يُتوصل بالكذب إلى حقِّه ، كما كذب الحجَّاج بن عِلَاط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكَّة من غير مضرَّة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأمَّا ما نال مَنْ بمكَّة من المسلمين من الأذى ، والحزن بمفسدة؛ فيسيرٌ في جنب المصلحة الَّتي حصلت بالكذب ، ولا سيما تكميل الفرح والسُّرور ، وزيادة الإيمان الَّذي حصل بالخبر الصَّادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الرَّاجحة.

عاشراً: بعض الأحكام الفقهيَّة المتعلِّقة بالغزوة:

وردت في غزوة خيبر أحكامٌ شرعيَّةٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ تحريم أكل لحوم الحُمُرِ الأهليَّة:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهليَّة. [البخاري (٤٢١٨) ، ومسلم (٥٦١)][(١)].

٢ ـ حرمة وطء السَّبايا الحوامل:

قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَسْقِ ماءه زَرْعَ غيره». [أبو داود (٢١٥٨) ، والترمذي (١١٣١)][(٢)].

٣ ـ حرمة وطء السَّبايا غير الحوامل قبل استبراء الرَّحم:

قال رسول الله ﷺ: «لا يحل لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأةٍ من السَّبي حتَّى يستبرئها». [أحمد (٤/ ١٠٨) ، وأبو داود (٢١٥٨) و(٢١٥٩) ، والبيهقي في الكبرى (٩/ ١٢٤)][(٣)].

والاستبراء إنَّما يكون بأن تطهر من حيضةٍ واحدةٍ فقط ، ولا تجب عليها العدَّة؛ وإن كانت

---

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ١٢٢ ـ ١٢٣).
(٢) انظر: الطبقات (٢/ ١١٣).
(٣) انظر: الرَّوض الأنف (٤/ ٤١).

متزوِّجة من كافرٍ ، سواءٌ مات ، أو بقي حيّاً؛ لأنَّ العدَّة وفاءٌ للزَّوج الميِّت ، وحداد عليه ، ولا يُحَدُّ على الكافر كما علمت[١] .

٤ ـ حرمة ربا الفضل :

عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، وأبي هريرة رضي الله عنهما : أنَّ رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر ، فجاءه بتمرٍ جنيبٍ ، فقال رسول الله ﷺ : «كلُّ تمرِ خيبر هكذا؟» فقال: لا والله يا رسول الله! إنَّا لنأخذ الصَّاع من هذا بالصَّاعين، والثلاثة. فقال: «لا تفعل! بعِ الجمع بالدَّراهم، ثمَّ ابتع بالدَّراهم جنيباً». [البخاري (٤٢٤٤)، ومسلم (١٥٩٣)] .

فالتَّفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل؛ إذا اشترى صاعاً بأكثر من صاعٍ ، فالزِّيادة هنا هي الرِّبا ، وهذا محرَّمٌ كما رأيت؛ إذ نهى النَّبيُّ ﷺ عن ذلك ، وأرشد إلى الحلِّ السَّليم بأن يبيع ما لديه من تمرٍ ثمَّ يشتري بما لديه من نقودٍ ما يشتهي من تمرٍ؛ لأنَّ الحاجة قد تدفع صاحبها إلى قبول الرِّبا[٢] .

٥ ـ حرمة بيع الذَّهب بالذَّهب العَيْن ، وتبر الفضَّة بالوَرِق العَيْن :

روي عن عبادة بن الصَّامت: أنَّه قال: نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر أن نبيع ، أو نبتاع تِبْرَ الذَّهب بالذَّهب العَيْن ، وتِبْرَ الفِضَّة بالوَرِق العَيْن ، وقال: «ابتاعوا تبر الذَّهب بالوَرِق العَيْن ، وتبر الفضَّة بالذَّهب العَيْن». [ابن هشام (٣/ ٣٤٦)] .

والمراد من الحديث: أن يباع الذَّهب بالذَّهب مثلاً بمثلٍ ، والفضَّة بالفضَّة مثلاً بمثلٍ ، بلا زيادةٍ ، ولا نقصٍ؛ وعندما يُقابل الذَّهب بالفضة لا تشترك المماثلة ، كما هو معلومٌ ، وثابتٌ في الصِّحاح[٣] .

٦ ـ مشروعية المساقاة والمزارعة :

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال: أعطى النَّبيُّ ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ، ويزرعوها ، ولهم شطرُ ما يخرج منها . [سبق تخريجه] .

وقد تساءل بعض الباحثين : لم جاءت أحكام هذه البيوع في خيبر؟ وما الحكمة من ذلك؟

وأجاب الشَّيخ محمَّد أبو زهرة على هذا ، فقال: إنَّ فتح خيبر كان فتحاً جديداً بالنِّسبة

---

(١) انظر: الصِّراع مع اليهود (٣/ ١٣٤) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٣٢١ .

للعلاقات الماليَّة الَّتي يجري في ظلِّها التَّبادل الماليُّ ، فكانت فيها شرعيَّة المزارعة ، والمساقاة ، ولم تكن تجري كثيراً في يثرب[١] .

٧ ـ حلُّ أكل لحوم الخيل :

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خيبر عن أكل لحوم الحمر ، ورخَّص في الخيل . [البخاري (٥٥٢٠) ، ومسلم (١٩٤١/ ٣٦ و٣٧)] .

٨ ـ تحريم المتعة :

عن عليٍّ رضي الله عنه قال: إنَّ رسول الله ﷺ نهى عن متعة النِّساء يوم خيبر ، وعن أكل لحوم الحمر الإنسيَّة . [البخاري (٥٥٢٣) ، ومسلم (١٤٠٧)] .

٩ ـ مشاركة المرأة في غزوة خيبر :

روت أميَّة بنت أبي الصَّلت عن امرأةٍ من بني غفار ؛ قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نسوةٍ من بني غفار ، فقلن: يا رسول الله! قد أردنا أن نخرجَ معك إلى وجهك هذا ـ وهو السَّير إلى خيبر ـ فنداويَ الجرحى ، ونعينَ المسلمين بما استطعنا. فقال: «على بركة الله» . قالت: فخرجنا معه ، قالت: فو الله لنَزَلَ رسولُ الله ﷺ إلى الصُّبح ، ونزلتُ عن حقيبة رَحْلِهِ ، قالت: وإذا بها دم منِّي ـ وكانت أوَّل حيضةٍ حضتها ـ قالت: فتقبَّضْتُ إلى النَّاقة ، واستحييت. فلمَّا رأى رسول الله ﷺ ما بي ، ورأى الدَّم قال: «ما لك؟ لعلَّك نُفِسْتِ؟» قالت: قلت: نعم؟ قال: «فأصلحي من نَفْسِك ، ثمَّ خذي إناءً من ماءٍ ، فاطْرَحي فيه ملحاً ، ثم اغسلي ما أصاب الحقيبة من الدَّم ، ثم عودي لِمَرْكَبِكِ» قالت: فلمَّا فتح الله خيبر ؛ رضخ لنا من الفيء ، وأخذ هذه القلادة الَّتي تَرَيْنَ في عنقي ، فأعطانيها ، وعلَّقها بيده في عنقي ، فو الله لا تفارقني أبداً[٢] ، وكانت في عنقها حتَّى ماتت ، ثمَّ أوصت أن تدفن معها. قالت: وكانت لا تطهر من حيضها ، إلا جعلت في طهرها ملحاً ، وأوصت به أن يجعل في غُسْلها حين ماتت. [أحمد (٦/ ٣٨٠) ، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٤٠٧) ، وابن سعد (٨/ ٢١٤) ، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٠٤) ، وابن هشام (٣/ ٣٥٧)] .

وهي صورةٌ حيَّةٌ أمام كلِّ فتاةٍ مسلمةٍ ، تحرص على أن تشارك في أجر الجهاد مع المسلمين[٣] .

وهكذا كانت حياة الرَّسول ﷺ تعليماً ، وتربيةً للأمَّة في السِّلم ، والحرب على معاني العقيدة ، وحقيقة العبادة ، وهذا غيضٌ من فيضٍ ، وجزءٌ من كلٍّ .

---

(١) انظر: خاتم النبيين (٢/ ١١٠٤) ، والصراع مع اليهود (٣/ ١٣٦) .
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٠٥) .
(٣) انظر: فقه السِّيرة ، لمنير الغضبان ، ص ٥٣٤ .

هذا وقد أحدث فتحُ خيبر ، وَفَدَك ، ووادي القرى ، وتيماء دوياً هائلاً في الجزيرة العربيَّة بين مختلف القبائل ، وقد أصيبت قريش بالغيظ ، والكآبة؛ إذ لم تكن تتوقَّع ذلك ، وهي تعلم مدى حصانة قلاع يهود خيبر ، وكثرة مقاتليهم ، ووفرة سلاحهم ، ومؤونتهم ، ومتاعهم[(١)] .

أمَّا القبائل العربيَّة الأخرى المناصرة لقريش؛ فقد أدهشها خبر هزيمة يهود خيبر ، وخذلها انتصار المسلمين السَّاحق ، ولذلك فإنَّها جنحت إلى مسالمة المسلمين ، وموادعتهم بعد أن أدركت عدم جدوى استمرارها في عدائهم ، ممَّا فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربيَّة ، بعد أن تعزَّزت مكانة المسلمين في أعين أعدائهم إلى جانب ما تحقَّق لهم مِنْ خيرٍ ، وتعزيزٍ لوضعهم الاقتصاديِّ[(٢)] .

واستمرَّت حركة السَّرايا بعد خيبر، وكانت كثيرةً، وأمَّرَ عليها ﷺ كبار الصَّحابة، وكان في بعضها قتالٌ ، ولم يكن في بعضها قتال[(٣)] .

* * *

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٥٣).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٢٢١ .

المبحث الثَّاني
دعوة الملوك والأمراء[(١)]

أولاً: كان صلح الحديبية إيذاناً ببداية المدِّ الإسلاميِّ:

فقد انساح هذا المدُّ إلى أطراف الجزيرة العربيَّة ، بل تجاوزها إلى ما وراء حدود الجزيرة العربيَّة ، فمنذ أن عقد الرَّسول ﷺ صلح الحديبية مع قريشٍ ، وما تلا ذلك من إخضاع يهود شمال الحجاز في خيبر ، ووادي القرى ، وتيماء ، وفَدَكَ إلى سيادة الإسلام؛ فإنَّ الرَّسول ﷺ لم يألُ جهداً لنشر الإسلام خارج حدود الحجاز ، وكذلك خارج حدود الجزيرة العربيَّة ، وقد عبَّر ﷺ عن هذا المنهج قولاً وعملاً من خلال إرساله عدداً من الرُّسل ، والمبعوثين إلى أمراء أطراف الجزيرة العربيَّة ، وإلى ملوك العالم المعاصر خارج الجزيرة العربيَّة.

وتُعَدُّ هذه الخُطوة نقطة تحوُّلٍ مهمَّةٍ في تاريخ العرب ، والإسلام ، ليس لأنَّ الرَّسول ﷺ سوف يوحِّد عرب الجزيرة العربيَّة تحت راية الإسلام ، فحسب ، ولكن لأنَّ هؤلاء العرب بعد أن اعتنقوا الإسلام ، وتمثَّلوا رسالة السَّماء أنيط بهم حمل الدَّعوة الإسلاميَّة إلى البشريَّة كافَّةً[(٢)].

ويشير المنهج النَّبويُّ في دعوة الزُّعماء والملوك إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدَّعوة ، فإلى جانب دعوة الأمراء ، والشُّعوب اختار الرَّسول ﷺ أسلوباً جديداً من أساليب الدَّعوة ، وهو مراسلة الملوك ، ورؤساء القبائل ، وكان لأسلوب إرسال الرَّسائل إلى الملوك ، والأمراء أثرٌ بارزٌ في دخول بعضهم الإسلام ، وإظهار الودِّ من البعض الآخر ، كما كشفت هذه الرَّسائل مواقف بعض الملوك ، والأمراء من الدَّعوة الإسلامية ، ودولتها في المدينة ، وبذلك حقَّقت هذه الرَّسائل نتائج كثيرةً ، واستطاعت الدَّولة الإسلاميَّة من خلال ردود الفعل المختلفة تجاه الرَّسائل أن تنتهج نهجاً سياسيّاً ، وعسكريّاً واضحاً ، ومتميِّزاً[(٣)] ، وإليك أهم هذه الرَّسائل:

---

(١) ينظر الشكلان (١٣ و١٤) في الصفحتين (٦١٧ و٦١٨).
(٢) انظر: السَّفارات النَّبويَّة ، د. محمَّد العقيلي ، ص ١٥.
(٣) انظر: العلاقات الخارجيَّة للدَّولة الإسلاميَّة ، د. سعيد المهجر ، ص ١١٢.

١ ـ فقد وردت روايةٌ صحيحةٌ ، تضمَّنت نصَّ كتاب النَّبيِّ ﷺ الَّذي بعثه مع دحيةَ الكلبيِّ إلى هرقل عظيم الرُّوم[1] وذلك في مدة هدنة الحديبية ، وهو كما يلي :

«بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم ، من محمَّد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم ، سلامٌ على من اتَّبع الهُدى : أمَّا بعد : فإنِّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلمْ؛ تسلم ، يؤتك الله أجرك مرَّتين ، فإنْ تولَّيت؛ فعليك إثم الأَرِيسِيِّينَ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. [البخاري (٤٥٥٣) ، ومسلم (١٧٧٣)].

ولقد تسلَّم هرقل رسالة النَّبيِّ ﷺ ودقَّق في الأمر كما في الحديث الطَّويل المشهور بين أبي سفيان وهرقل المرويِّ في الصَّحيحين حين سأله عن أحوال النَّبي ﷺ ، وقال بعد ذلك لأبي سفيان : (إن كان ما تقول حقاً؛ فسيملك موضع قدميَّ هاتين ، وقد كنت أعلم : أنَّه خارج ، ولم أكن أظنُّه منكم ، فلو أنِّي أعلم أنِّي أخلص إليه؛ لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده؛ لغسلت عن قدميه) . [انظر تخريج الحديث السابق].

٢ ـ أرسل النَّبيُّ ﷺ بكتابٍ إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسيَّة ، مع عبد الله بن حُذافة السَّهميِّ ، «أمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين[2] ، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلمَّا قرأه؛ مزَّقه ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمَزَّقوا كُلَّ ممزَّق» [أحمد (١/ ٢٤٣) ، والبخاري (٤٤٢٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٨٧)][3] ، ونصُّ الرِّسالة كما أوردها الطَّبريُّ كالتَّالي : «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على مَنِ اتَّبع الهُدى ، وآمن بالله ، ورسوله ، وشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً؛ لينذر من كان حيّاً ، أسلم؛ تسلم ، فإن أبيت؛ فعليك إثمُ المجوس» . [تاريخ الطبري (٢/ ٦٥٤ ـ ٦٥٥)].

٣ ـ أمَّا كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، فقد أرسله مع عمرو بن أميَّة الضَّمْريِّ ، وقد جاء في الكتاب :

«بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من محمَّدٍ رسول الله ، إلى النَّجاشيِّ ملك الحبشة ، أسلم أنت ، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إلٰه إلا هو الملكُ ، القدُّوس ، السَّلامُ ، المؤمنُ ، المهيمنُ ، وأشهد أنَّ عيسى ابنَ مريم روحُ الله ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم البتول الطَّيِّبة الحصينة ، فحملت به ، فخلقه من روحه ، ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٤٤) ، وقد اعتمدت عليه في توثيق مصادر الرَّسائل .

(٢) شرح المواهب اللّدنية (٣/ ٣٤١) .

(٣) كانت الرسالة في محرم سنة ٧ هـ كما في زاد المعاد .

له ، والموالاة في طاعته ، وأن تتَّبعني ، وتؤمن بالَّذي جاءني ، فإنِّي رسول الله ، وإنِّي أدعوك ، وجنودَك إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وقد بلَّغتُ ، ونصحتُ ، فاقبلوا نصيحتي ، والسَّلام على من اتَّبع الهُدى» . [نصب الراية للزيلعي (٤/ ٤٢١)] .

٤ ـ أمَّا كتاب النَّبيِّ ﷺ إلى المقوقس حاكمِ مصر[١] ، وكذلك ردُّ المقوقس إليه[٢] ؛ فلم يثبت من طرقٍ صحيحةٍ ، ولا يعني ذلك نفي إرسالِ الكتابِ إليه ، كما أنَّ ذلك لا يعني الطَّعن بصحة النُّصوص من النَّاحية التاريخيَّة ، فربما تكون صحيحةً من حيث الشَّكل ، والمضمون ، غير أنَّها لا يمكن أن يحتجَّ بها في السِّياسة الشَّرعيَّة[٣] ، فلقد أورد محمَّد بن سعد في طبقاته[٤] : أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعث إلى المقوقس ، جُريج بن مينا ملك الإسكندريَّة وعظيم القبط ، كتاباً مع حاطب بن أبي بلتعة اللَّخميِّ ، وأنَّه قال خيراً ، وقارب الأمر ، غير أنَّه لم يسلم ، وأهدى إلى النَّبيِّ ﷺ عدَّة هدايا كان بينها مارية القبطيَّة ، وأنَّه لما ورد جواب المقوقس إلى النَّبيِّ ﷺ قال : «ضَنَّ الخبيث بمُلْكِه ، ولا بقاء لِمُلْكِه» . [الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤٢٢)][٥] .

٥ ـ وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب ، أخا بني أسد بن خُزيمة برسالة إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِر الغسَّاني صاحب دمشق[٦] ، حين عودته والمسلمين من الحديبية ، وقد تضمَّن نصُّ الرِّسالة قوله : «سلامٌ على من اتَّبع الهُدىٰ ، وآمن به ، إنِّي أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحدَه لا شريك له ، يُبْقي لك ملكك» . [الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤٢٤) ، والطبري في تاريخه (٢/ ٦٥٢)] .

٦ ـ وأرسل رسول الله ﷺ سُلَيطَ بن عمرٍو العامريَّ بكتابٍ إلى هَوْذَةَ بن عليٍّ الحنفي[٧] عند مقدمه من الحديبية ، وقد اشترط هَوْذَةُ الحنفيُّ على الرسول ﷺ بعد قراءته رسالته إليه أن يجعل له بعض الأمر معه ، فرفض النَّبيُّ ﷺ أن يقبل ذلك . [الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤٢٥) ، وابن طولون في إعلام السائلين (١٠٥ ، ١٠٧)] .

٧ ـ وأرسل ﷺ أبا العلاء الحضرميَّ[٨] بكتابه إلى المنذر بن ساوى العبديِّ ، أمير البحرين

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٤٦) .
(٢) المصدر السَّابق نفسه .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٥٩) .
(٤) انظر : الطَّبقات الكبرى (١/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) .
(٥) البداية والنِّهاية (٥/ ٣٤٠) .
(٦) انظر : تاريخ الطَّبري (٢/ ٦٥٢) .
(٧) كان صاحب اليمامة ، ومات بعد فتح مكة بقليل .
(٨) انظر : صبح الأعشى ، للقلقشندي (٦/ ٣٦٨) .

بعد انصرافه من الحديبية ، ونقلت المصادر التَّاريخيَّة: أنَّ المنذر قد استجاب لكتاب النَّبيِّ ﷺ ، فأسلم ، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين ، فأمَّا أهل البلاد من اليهود ، والمجوس فإنَّهم صالحوا العلاء ، والمنذر على الجزية من كلِّ حالم دينار [الزيلعي في نصب الراية (٤/ ٤٢٠)] (أي: على كلِّ بالغ دينار) ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى برواية عروة بن الزُّبير ، وجاء فيه:

«سلام أنت ، فإنِّي أحمد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو ، أمَّا بعد فإنَّ مَنْ صلَّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا؛ فذلك المسلم الَّذي له ذمَّة الله ، وذمَّة الرَّسول ، فمن أحبَّ ذلك من المجوس؛ فإنَّه آمنٌ ، ومن أبى؛ فإن الجزية عليه». [أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٠ برقم ٥٠)].

وفي ذي القعدة سنة (٨ هـ) بعث النَّبيُّ ﷺ عمرو بن العاص بكتابه إلى جَيفر وعبدٍ ابني الجُلُنْدَىٰ الأزديَّين بعُمَان[1] ، وقد جاء فيه: «من محمَّدٍ النَّبيِّ رسول الله لعباد الله الأزديِّين ملوك عُمان ، وأسد عمان ، ومن كان منهم بالبحرين؛ إنَّهم إن آمنوا ، وأقاموا الصَّلاة ، وآتوا الزَّكاة ، وأطاعوا الله ، ورسوله ، وأعطَوا حقَّ النَّبيِّ ﷺ ، ونسكوا نسك المؤمنين ، فإنَّهم آمنون وأنَّ لهم ما أسلموا عليه ، غير أنَّ مال بيت النَّار ثُنْياً لله ورسوله ، وأنَّ عشور التَّمْرِ صدقةٌ ، ونصفُ عشور الحبِّ ، وأنَّ للمسلمين نصرهم ، ونصحَهم ، وأنَّ لهم على المسلمين مثل ذلك ، وأنَّ لهم أرحاءهم يطحنون بها ما شاؤوا». [أبو عبيد في كتاب الأموال (ص ٣٠ ـ ٣١ برقم ٥٢)].

وأوردت المصادر بعد ذلك عدداً كبيراً من المرويات عن رسائل أخرى لم تثبت من النَّاحية الحديثيَّة[2].

ثانياً: مواصفاتُ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة:

قام اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطَّاب بجمع الرَّسائل ، وتحدَّث عن الرُّسل في كتابه الفريد «سفراء النَّبيِّ ﷺ» استنبط من خلالها شروطَ ومواصفاتِ رَجُلِ الدِّبلوماسيَّة الإسلاميَّة ، ومن أهم تلك الشُّروط ، والمواصفات:

١ ـ الإسلام ، والدَّعوة إليه:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

---

(١) انظر: صبح الأعشى (٦/ ٣٧٦).

(٢) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٤٨).

وإذا كان المسلمون كلُّهم دعاةً إلى الله تعالى ؛ فرسل النَّبيِّ ﷺ إلى الملوك والأمراء في زمانه هم صفوة الدُّعاة[١] .

٢ ـ الفصاحة والوضوح :

الفصاحة ، وجزالة اللَّفظ ، والدقَّة في توصيل المعاني إلى السَّامعين شرطٌ أساسيٌّ في الرَّجل الَّذي يتصدَّى للمهمَّة الدِّبلوماسيَّة ، وقد طلب موسى تدعيمه بموقف الفصاحة من هارون أخيه : ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴾ [طه : ٢٩ ـ ٣١] وقد اختار الرَّسول ﷺ كلَّ سفرائه ، ومبعوثيه من العرب الَّذين تربَّوا في الجزيرة العربيَّة ومع البدو أحياناً ، فقد كانوا أصحاب نقاوةٍ ، لم تتكدَّر باختلاط الأعاجم بعد ، فقد كانوا على قدرٍ كبيرٍ من الفصاحة ، والوضوح .

٣ ـ حسن الخلق :

أخلاق السَّفير النَّبويِّ هي أخلاق الإسلام الَّتي بيَّنها الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القرآن الكريم ، وفصَّلها رسول الله ﷺ في سنَّته ، وأهمُّها في السَّفير : الصِّدقُ ، والتَّواضع[٢] .

٤ ـ العلم :

لا نريد هنا أن نبيِّن منزلة العلم ؛ لأنَّ الكلام على هذه المسألة طويلٌ ، ولكنَّنا نؤكِّد هنا : أنَّ العلم بالشَّيء هو وسيلة نقل الفكرة ، والمبدأ ، لذا عندما تنظر إلى جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه وهو يحاور النَّجاشيَّ ، ثم يقرأ عليه سورة : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ تتيقَّن من دقَّة الاختيار النَّبويِّ ، ونصاعة خطاب العالِم ، ودقَّة اختياره للألفاظ ، والعبارات[٣] .

٥ ـ الصَّبر :

قال تعالى : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] والحقيقة : أن الصبر هو عدَّة الدَّاعية ، وزاده المستمر ، ولو تصفَّحت سيرة الرَّسول ﷺ وسيرة صحابته الأجلاَّء ؛ لوجدتها حافلةً بالصَّبر على الدَّعوة ، وموقفُ الطَّائف شاهدٌ على ذلك .

---

(١) انظر : سفراء الرَّسول ﷺ لمحمود شيت خطاب (٢/ ٢٥٨) .

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٢٧٨) .

(٣) الفقه السِّياسيُّ للوثائق النَّبويَّة ، لخالد الفهداوي ، ص ١١٤ .

٦ ـ الشَّجاعة :

وقد تحدَّث التَّاريخ الإسلاميُّ عن شجاعة السُّفراء ، والَّذين أرسلهم الرَّسول ﷺ إلى الملوك ، وأنَّهم كانوا لا يخافون لومة لائم .

٧ ـ الحكمة :

وقد كان سفراء الرَّسول ﷺ يتَّصفون بالحكمة ، فهذا عمرو بن العاص كان مُسدَّداً في أقواله ، وأفعاله ، قيل لعمرو : ما العاقل؟ قال : (الإصابة بالظَّنِّ ، ومعرفة ما يكون بما قد كان) ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشَّرِّ ، إنَّما العاقل الذي يعرف خير الشَّرَّيْنِ[١] .

٨ ـ سعة الحيلة :

يجب أن يكون السَّفير مدركاً لأبعاد المناورة السِّياسيَّة ، متأنِّياً كتوماً . وسعةُ الحيلة الَّتي ترتكز أوَّلاً ، وقبل كلِّ شيءٍ على الذَّكاء من أهم سمات السَّفير ، وقد كان سفراء الرَّسول ﷺ يتَّصفون بالذَّكاء ، والدَّهاء ، وتوقُّع الأحداث ، والحساب لكلِّ ما يمكن أن يحدث ، وهذه مقوِّمات سعة الحيلة .

٩ ـ المظهر :

تميَّز سفراء النَّبيِّ ﷺ بالمظهر الحسن مع نقاء المخبر ، وقد حرص النَّبيُّ ﷺ على اختيار سفرائه من بين أصحابه الَّذين تتوافر فيهم صفاتٌ شكليَّة جميلةٌ إلى جانب سماتهم العقليَّة ، والنفسيَّة سالفة الذِّكر[٢] .

هذه أهم الصِّفات الَّتي استخلصها اللِّواء الرُّكن محمود شيت خطاب من خلال دراسته القيِّمة لسفراء النَّبيِّ ﷺ والَّتي ينبغي للسَّفير المسلم أن يتحلَّى بها ، وتكون للدَّولة الإسلاميَّة مقياساً في اختيار مَنْ ترشِّحه لهذا المنصب الخطير .

ثالثاً : دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد :

١ ـ الأَرِيْسِيُّون :

وردت كلمة (الأَرِيْسيِّين) أو (اليَرِيْسِيِّين) ـ على اختلاف الرِّوايات ـ في الكتاب الَّذي وُجِّه إلى (هرقل) وحدَه ، ولم ترد في كتابٍ من الكتب الَّتي أرسلت إلى غيره ، واختلف علماء

---

(١) انظر : الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، وقد نقل عن سفراء الرَّسول ﷺ (٢/ ٣٠١) .
(٢) انظر : مقوِّمات السُّفراء في الإسلام ، لحسن فتح الباب ، ص ٦٠ .

الحديث واللُّغة في مدلول هذه الكلمة ، فالقول المشهور : أن (الأريسيِّين) جمع (أريسي) وهم الخول ، والخدم ، والأكَّارون[١] .

وذهب العلامة أبو الحسن النَّدويُّ إلى أنَّ المراد بالأريسيِّين هم أتباع (أريوس) المصري ، وهو مؤسِّس فرقةٍ مسيحيَّةٍ كان لها دورٌ كبير في تاريخ العقائد المسيحيَّة والإصلاح الدِّيني ، وقد شغلت الدَّولة البيزنطيَّة ، والكنيسة المسيحيَّة زمناً طويلاً ، و(أريوس) هو الَّذي نادى بالتَّوحيد ، والتَّمييز بين الخالق ، والمخلوق ، والأب ، والابن ـ على حدِّ تعبير المسيحيين ـ لعدَّة قرون[٢] .

ودامت عقيدة (أريوس) ودعوته تصارعان الدَّعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح ، وتسويته بالإله الواحد الصَّمد ، وكانت الحرب سجالاً ، وقد دان بهذه العقيدة عددٌ كبيرٌ من النَّصارى في الولايات الشَّرقية من المملكة البيزنطيَّة إلى أن عقد تيوسورس الكبير مَجْمعاً مسيحيّاً في القسطنطينية ، قضى بألوهيَّة المسيح ، وإبنيَّته ، وقضى هذا الإعلان على العقيدة الَّتي دعا إليها (أريوس) واختفت ، ولكنَّها عاشت بعد ذلك ، ودانت بها طائفةٌ من النَّصارى ، اشتهرت بالفرقة الأريسيَّة ، أو الأريسيِّين ، فَمِنَ المرجَّح المعقول : أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما عنى هذه الفرقة بقوله : «فإن تولَّيت ، فإنَّما عليك إثم الأَرِيْسيِّين» فإنَّها هي القائمة بالتَّوحيد النِّسبي في العالم المسيحي الَّذي تتزعمُه الدولة البيزنطيَّة العظمى ، الَّتي كان على رأسها (هرقل)[٣] .

وقد تحدَّث الإمام أبو جعفر الطَّحاويُّ عن هذه الفرقة ، فقال : وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني : أنَّ في رهط هرقل فرقةً تعرف بالأروسية ، توحِّد الله ، وتعترف بعبودية المسيح لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولا تقول شيئاً ممَّا يقول النَّصارى في ربوبيته ، وتؤمن بنبوَّته ، فإنَّها تُمسِك بدين المسيح مؤمنةً ، بما في إنجيله ، جاحدةً لما يقوله النَّصارى سوى ذلك ، وإذا كان ذلك كذلك ؛ جاز أن يقال لهذه الفرقة (الأريسيُّون) في الرَّفع و(الأريسيين) في النَّصب والجر ، كما ذهب إليه أصحاب الحديث[٤] .

٢ ـ اعتبارات حكيمة خاصَّة بالملوك :

في رسائل رسول الله ﷺ للملوك فوارقُ دقيقةٌ مؤسَّسةٌ على حكمة الدَّعوة ، روعي فيها

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٠٥ .

(٣) وقد ذهب إلى ما ذهب إليه العلامة النَّدويُّ الدُّكتور معروف الدَّواليبي في الأريسيين يؤيِّد ما قاله النَّدوي : أنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما عنى بقوله : «فإن توليت فإنَّ عليك إثم اليريسيين» أتباع أريوس الفرقة المسيحيَّة الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النَّافية لألوهيته ، وقد جاء هذا البحث القيِّم في رسالة : نظرات إسلاميَّة ، ص ٦٨ ـ ٨٣ ، وانظر : السِّيرة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٧ .

(٤) انظر : مشكل الآثار (٣/ ٣٩٩) .

ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد الَّتي يدينون بها ، و(الخلفيَّات) الَّتي يمتازون بها ، فلمّا كان هرقل ، والمقوقس يدينان بألوهيَّة المسيح كليّاً ، أو جزئيّاً ، وكونه ابنُ الله ، جاءت في الكتابَيْن اللَّذين وُجِّها إليهما كلمة (عبد الله) مع اسم النَّبيِّ ﷺ صاحب هاتين الرِّسالتين ، فيبتدئ الكتابان بعد التَّسمية بقوله: «من محمَّدٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الرُّوم» وبقوله: «من محمَّد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القِبْط» بخلاف ما جاء في كتابه ﷺ إلى كسرى أبرويز ، فاكتفى بقوله: «من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس» وجاءت كذلك آية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] في هذين الكتابين ، وما جاءت في كتابه إلى كسرى أبرويز؛ لأنَّ الآية تخاطب أهل الكتاب؛ الَّذين دانوا بألوهيَّة المسيح ، واتَّخذوا أحبارهم ، ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وقد كان هرقل إمبراطور الدَّولة البيزنطيَّة ، والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيَّين ، وزعيمين دينيَّين كبيرين للعالم المسيحي ، مع اختلافٍ يسيرٍ في الاعتقاد في المسيح: «هل له طبيعةٌ أم طبيعتان؟»[(١)].

ولما كان كسرى أبرويز وقومُه يعبدون الشَّمس والنَّار ، ويدينون بوجود إلٰهين: أحدهما يمثِّل الخير ، وهو: يزدان ، والثَّاني يمثِّل الشَّرَّ وهو: إهرمن ، وكانوا بعيدين عن مفهوم النُّبوَّة ، والتَّصوُّر الصَّحيح للرِّسالة السَّماوية ، جاءت في الكتاب الَّذي وجه إلى الإمبراطور الإيراني عبارة: «وأنِّي رسول الله إلى النَّاس كافَّةً لينذر من كان حيّاً»[(٢)].

وقد كان تلقِّي الملوك لهذه الرِّسائل يختلف: فأمَّا هرقل ، والنَّجاشيُّ ، والمقوقس؛ فتأدَّبوا ، وتلطَّفوا في جوابهم ، وأكرم النَّجاشيُّ ، والمقوقس رُسُلَ رسولِ الله ﷺ ، وأرسل المقوقس هدايا؛ منها جاريتان كانت أحدَهما ماريةُ أمُّ إبراهيم (ابن رسول الله) ، وأمَّا كسرى أبرويز؛ فلما قُرِئَ عليه الكتاب مزَّقه ، وقال: «يكتب إليَّ هذا؛ وهو عبدي؟!» فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «مزَّق الله ملكه!» [سبق تخريجه].

وأمر كسرى باذان ـ وهو حاكمه على اليمن ـ بإحضاره ، فأرسل بابويه يقول له: إن ملك الملوك قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ، وقد بعثني إليك لتنطلق معي ، فأخبره رسول الله ﷺ بأنَّ الله سلَّط على كسرى ابنه شيرويه ، فقتله[(٣)].

وقد تحقَّق ما أنبا به رسول الله ﷺ بكلِّ دقَّة ، فقد استولى على عرشه ابنه (قباذ) الملقب بـ(شرويه) وقُتِل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعازٍ منه سنة (٦٢٨ م) ، وقد تمزَّق ملكُه بعد وفاته ،

---

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للنَّدوي ، ص٣٨ـ٣٩.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٢٩٠.
(٣) انظر: تاريخ الطبَّري (٣/ ٩٠ ـ ٩١) ، والإصابة في معرفة الصَّحابة.

وأصبح لعبةً في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة ، فلم يعش (شرويه) إلا ستَّة أشهرٍ ، وتوالى على عرشه في مدَّة أربع سنوات عشرة ملوكٍ ، واضطرب حبل الدَّولة إلى أن اجتمع النَّاس على (يزدجرد) وهو آخر ملوك بني ساسان ، وهو الَّذي واجه الزَّحف الإسلاميَّ ؛ الَّذي أدَّى إلى انقراض الدَّولة السَّاسانيَّة ؛ الَّتي دامت ، وازدهرت أكثر من أربعة قرون انقراضاً كلِّيّاً ، وكان ذلك في سنة (٦٣٧ م) ، وهكذا تحقَّقت هذه النُّبوءة في ظرف ثماني سنين[١] .

٣ ـ الوصف العام لرسائل الرَّسول ﷺ :

ويلاحظ الباحث : أنَّ الوصف العام لكتب الرَّسول ﷺ إلى الملوك والأمراء يكاد يكون واحداً ، ويمكننا أن نستخرج منها الأمور التَّالية :

أ ـ نلاحظ أنَّ جميع كتب الرَّسول ﷺ الَّتي أرسلها إلى الملوك ، والرُّؤساء يفتتحها ﷺ بالبسملة ، والبسملة آية من كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وفي تصدير الكتاب بها أمورٌ مهمَّةٌ ؛ كاستحباب بدء الكتب بـ «بسم الله الرَّحمن الرَّحيم» اقتداءً برسولنا محمَّد ﷺ ، فقد واظب عليها في كتبه ﷺ ، كما أنَّ فيها جواز كتابة آيةٍ من القرآن الكريم في كتاب ، وإن كان هذا الكتاب موجهاً إلى الكافرين ، وفيها جواز قراءة الكافر لآيةٍ ، أو أكثر من القرآن الكريم ؛ لأنَّ كتب رسول الله ﷺ تضمَّنت البسملة ، وغيرها ، وفيها جواز قراءة الجنب لآيةٍ ، أو أكثر من القرآن الكريم ؛ لأنَّ هذا الكافر الَّذي أرسلت إليه الرِّسالة ، وتضمَّنت البسملة وغيرها لا يحترز من الجنابة ، والنَّجاسة ، فيقرأ الرِّسالة ؛ التي اشتملت على آياتٍ من القرآن الكريم ؛ وهو جنبٌ .

ب ـ ونستنبط من رسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء الآتي :

* مشروعيَّة إرسال السُّفراء المسلمين إلى زعماء الكفر ؛ لأنَّ كلَّ كتابٍ كان يكتبه الرَّسول ﷺ يكلِّف رجلاً من المسلمين يحمله إلى المرسل إليه .

* مشروعية الكتابة إلى الكفَّار في أمر الدِّين ، والدُّنيا .

* ينبغي أن يكتب في الكتاب اسم المُرْسِل ، والمُرْسَل إليه ، وموضوع الكتاب ، وهو واحدٌ في جميع الكتب ، ويتلخَّص في دعوتهم إلى الإسلام .

* عدم بدء الكافر بتحيَّة الإسلام ، وهي السَّلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته ؛ ذلك لأنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يطرح السَّلام في كتبه على ملكٍ من ملوك الكفر ، بل كان يصدِّر كتبه بقوله : السَّلام على من اتَّبع الهدى ، أي : آمن بالإسلام . ويؤخذ من هذا عدم جواز مخاطبة الكافر بتحيَّة الإسلام .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٠٠ .

* اتخاذ الخاتم: فقد كان رسول الله ﷺ يختم رسائله بعد كتابتها بخاتمه ، وقد كُتب عليه ثلاث كلمات:

محمَّد رسولُ الله

[البخاري (٦٥) ، ومسلم (٢٠٩٢)][(١)].

فعن أنسٍ رضي الله عنه قال: لمَّا أراد النَّبيُّ ﷺ أن يكتب إلى الرُّوم؛ قيل له: إنَّهم لا يقرؤون كتاباً إلا أن يكون مختوماً ، فاتَّخذَ خاتماً مِنْ فضَّة ، فكأنِّي أنظر إلى بَيَاضِه في يده ، ونقش فيه محمَّدٌ رسول الله. [البخاري (٢٩٣٨)].

٤ ـ تقدير الرِّجال:

لمَّا أسلم باذان بن ساسان وكان أميراً على اليمن لم يعزله رسول الله ﷺ ، بل أبقاه أميراً عليها بعد إسلامه ، حين رأى فيه الإداريَّ النَّاجح ، والحاكم المناسب ، ممَّا يُدلِّل على أنَّ الرَّسول ﷺ يقدِّر الكفاءات في الرِّجال ، ويضع الرَّجل المناسب في المكان المناسب ، ومن الجدير بالذِّكر: أنَّ الرَّسول ﷺ قد ولَّى ولده ـ أي: ولد باذان ـ شهراً أميراً على اليمن بعد موت أبيه[(٢)].

٥ ـ جواز أخذ الجزية من المجوس:

وهذا الحكم استخرج من كتاب النَّبي ﷺ الَّذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يحدِّد فيه الموقف من اليهود ، والمجوس؛ إذ ورد فيه: «ومن أقام على يهوديَّته ، أو مجوسيَّته؛ فعليه الجزية»[(٣)]

وقد ذهب ابن القيِّم مع طائفة من العلماء إلى جواز أخذ الجزية من كلِّ إنسان يبذلُها ، سواءٌ أكان كتابيّاً أم غير كتابيٍّ؛ كعبدة الأوثان من العرب ، وغيرهم ، فقد جاء في زاد المعاد: «وقد قالت طائفةٌ في الأمم كلِّها إذا بذلوا الجزية؛ قبلت منهم؛ أهل الكتابين بالقرآن ، والمجوس بالسُّنَّة ، ومن عداهم ملحقٌ بهم؛ لأنَّ المجوس أهل شركٍ لا كتاب لهم ، فأخذُها منهم دليلٌ على أخذها من جميع المشركين ، وإنَّما لم يأخذها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب؛ لأنَّهم أسلموا قبل نزول آية الجزية ، فإنَّها نزلت بعد تبوك»[(٤)].

٦ ـ جواز أخذ هدية الكافر:

لقد أرسل المقوقس عظيم القبط حاكم مصر ـ وهو كافرٌ ـ مع سفير رسول الله حاطب بن أبي بلتعة هديةً تشتمل على جاريتين ، وكسوةٍ للرَّسول ﷺ ، وبغلةٍ يركبها ، فقبلها رسولُ الله

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠.
(٢) غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٤٢ ، ونصب الراية ، للزيلعي
(٣) المصدر السَّابق نفسه.
(٤) انظر: زاد المعاد (٥/ ٩١).

ﷺ ، وإحدى هاتين الجاريتين ماريةُ القبطيَّة[١] .

٧ ـ من نتائج إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء :

أظهر الرَّسول ﷺ في سياسته الخارجيَّة درايةً سياسيَّةً فاقت التَّصوُّر ، وأصبحت مثالاً لمن جاء بعده من الخلفاء ، كما أظهر ﷺ قوَّةً ، وشجاعةً فائقتين ، فلو كان غير رسول الله ﷺ ؛ لخشي عاقبة ذلك الأمر ، لا سيَّما وأنَّ بعض هذه الكتب قد أرسلت إلى ملوكٍ أقوياء على تخوم بلاده؛ كهرقل ، وكسرى ، والمقوقس ، ولكنَّ حرص رسول الله ﷺ ، وعزيمته على إبلاغ دعوة الله ، وإيمانه المطلق بتأييد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، كلُّ ذلك دفعه لأن يُقْدِم على ما أقدم عليه ، وقد حقَّقت هذه السِّياسة النتائج الآتية :

أ ـ وطَّد الرَّسول ﷺ بهذه السِّياسة أسلوباً جديداً في التَّعامل الدَّوليِّ لم تكن تعرفه البشريَّة من قبلُ .

ب ـ أصبحت الدَّولة الإسلاميَّة لها مكانتُها ، وقوَّتُها ، وفرضت وجودها على الخريطة الدَّوليَّة لذلك الزَّمان .

ج ـ كشفت للرَّسول ﷺ نوايا الملوك ، والأمراء ، وسياستهم نحوه ، وحكمهم على دعوته .

د ـ كانت مكاتبة الملوك خارج جزيرة العرب تعبيراً عمليّاً على عالمية الدَّعوة الإسلاميَّة ، تلك العالميَّة الَّتي أوضحتْها آياتٌ نزلت في العهد المكِّي ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وهكذا ، فإنَّ رسائل النَّبيِّ ﷺ إلى أمراء العرب والملوك المجاورين لبلاده تُعَدُّ نقطة تحوُّلٍ في سياسة دولة الرَّسول الخارجيَّة ، فعظم شأنُها ، وأصبحت لها مكانةٌ دينيَّةٌ ، وسياسيَّةٌ بين الدُّول ، وذلك قبل فتح مكة ، كما أنَّ هذه السياسة مهَّدت لتوحيد الرَّسول ﷺ لسائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود[٢] .

* * *

---

(١) انظر : غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٤٣ .

(٢) انظر : التَّاريخ السِّياسي والعسكري لدولة المدينة ، ص ٣٥١ .

المبحث الثَّالث
عمرة القضاء[١]

وفي ذي القعدة في السَّنة السَّابعة من الهجرة خرج الرَّسول ﷺ إلى مكَّة قاصداً العمرة ، كما اتَّفق مع قريشٍ في صلح الحديبية ، وقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النِّساء ، والصِّبيان ، ولم يتخلَّف من أهل الحديبية إلا مَنِ استُشْهِدَ في خيبر ، أو مات قبل عمرة القضاء[٢].

وقد اتَّجه رسولُ الله ﷺ وأصحابه الكرام من المدينة باتجاه مكَّة المكرَّمة في موكبٍ مهيبٍ يشقُّ طريقه عبر القرى ، والبوادي ، وكان كلَّما مرَّ الموكب النَّبويُّ بمنازل قومٍ من الذين يسكنون على جانبي الطَّريق بين مكَّة والمدينة؛ خرجوا ، وشاهدوا منظراً لم يألفوه مِنْ قبلُ ، حيث كان المسلمون بزيٍّ واحدٍ من الإحرام ، وهم يرفعون أصواتهم بالتَّلبية ، ويسوقون هديهم في علاماته ، وقلائده ، في مظهرٍ بهيٍّ لم تشهد المنطقة له مثيلاً[٣].

أولاً: الحيطة والحذر من غدر قريش:

اصطحب النَّبيُّ ﷺ معه السِّلاح الكامل ، ولم يقتصر على السُّيوف ، تحسُّباً لكلِّ طارئٍ قد يقع ، خاصَّةً وأنَّ المشركين في الغالب لا يحافظون على عهدٍ قطعوه ، ولا عَقْدٍ عقدوه[٤].

وما إن وصل خبر مسير النَّبيِّ ﷺ ، ومعه هذا العدد الضَّخم ، وهذه الأسلحة المتنوِّعة ، وفي مقدِّمة القافلة مئتا فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة ، حتَّى أرسلت قريش إلى رسول الله ﷺ مكرز بن حفص في نفرٍ من قريش؛ ليستوضحوا حقيقة الأمر ، فقابلوه في بطن يأجُج[٥] بمرِّ الظَّهران فقالوا له: يا محمد! والله ما عرفناك صغيراً ، ولا كبيراً بالغدر! تدخل بالسِّلاح الحرم

---

(١) ينظر الشكل (١٥) في الصفحة (٦١٩).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، ص ٤٦٤.
(٣) انظر: منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣١٠.
(٤) صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٧.
(٥) موضع قرب مكَّة على ثمانية أميالٍ منها.

على قومك ، وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد ، وأنَّه لن يدخل الحرم غير السُّيوف في أغمادها ، فقال رسول الله ﷺ : «لا ندخلها إلا كذلك» ثمَّ رجع مكْرَزُ مسرعاً بأصحابه إلى مكَّة ، فقال: إن محمداً لا يدخل بسلاح ، وهو على الشَّرط ؛ الَّذي شرط لكم. [البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٢١) ، والواقدي في المغازي (٣/ ٧٣٤) ، وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٢١)].

ووضع رسول الله ﷺ السِّلاح خارج الحرم قريباً منه تحسُّباً لكلِّ طارئ ، وأبقى عنده مئتي فارسٍ بقيادة محمَّد بن مسلمة يحرسونه ، وينتظرون أمر الرَّسول ﷺ ليتحرَّكوا في أيِّ جهةٍ ، وينفِّذوا أيَّ أمرٍ ، ويقاتلوا متى دعتِ الضَّرورة لذلك[١].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يأمن غدر مشركي قريش ، وخيانتهم ، فقد تُسوِّل لهم أنفسُهم أن ينصبوا كميناً ، أو أكثر للمسلمين ، ويشنُّوا عليهم هجوماً مباغتاً ، ولذلك احتاط ، وأخذ الحذر ، ووفَّى بعهده ، ووعده لقريش ، وعلَّم الأمَّة لكي تحذر من أعدائها[٢] ، وفي بقاء كوكبةٍ من الصَّحابة في حراسة الأسلحة ، والعتاد؛ لكي يراقبوا الموقف بدقَّةٍ ، وتحفُّزٍ معنىً من معاني العبادة في هذا الدِّين[٣].

ثانياً: دخول مكَّة ، والطَّواف ، والسَّعي:

ومن بطن يأجج تابع رسولُ الله ﷺ سيره نحو مكَّة على راحلته القصواء ، فدخلها من الثَّنيَّة الَّتي تطلعه على الحجون ، والمسلمون حوله متوشِّحون سيوفهم ، محدقون به من كلِّ جانب ، يسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشيءٍ ، وأصواتهم تعجُّ بالتَّلبية لله العليِّ الكبير[٤].

هذه التَّلبية الجماعيَّة الَّتي تعجُّ أصوات المسلمين بها ، والَّتي لم تنقطع منذ أن أحرموا ، واستمرَّت حتَّى دخلوا مكَّة ، فقد كان للتَّلبية مغزىً ومعنىً ، فهي تعلن التَّوحيد ، وترفع شعاره ، وتعني إبطال الشِّرك ، وإسقاط رايته ، وتعلن الحمد ، والثَّناء على الله الَّذي مكَّنهم من أداء هذا النُّسك[٥]. فهذه بعض معاني تلبية المسلم بقوله: لبيك اللَّهُمَّ لبَّيك ، لبَّيك لا شريك لك لبَّيك ، إنَّ الحمد ، والنِّعمة لكَ والمُلك ، لا شريك لك.

وكان عبد الله بن رواحة آخذاً بزمام راحلته ، وهو يرتجز بشعره:

خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبِيْلِهِ ... خَلُّوا فكلُّ الخَيْرِ في رَسُوْلِهِ
يَا رَبِّ إنِّي مؤمنٌ بِقِيْلِهِ ... أَعْرِفُ حقَّ اللهِ في قَبُوْلِهِ

---

(١) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٨.
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٧٥.
(٣) المصدر السَّابق نفسه ، ص ٢٧٧.
(٤) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري ، ص ٣٥٣
(٥) انظر: صلح الحديبية ، ص ٢٧٧.

ضَـرْبـاً يُـزِيْـلُ الهَـامَ عَـنْ مَقِيْلِـهِ وَيُـذْهِـلُ الخَلِيْـلَ عَـنْ خَلِيْلِـهِ

[البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٢٣) ، والترمذي (٢٨٤٧) ، والنسائي (٥/ ٢٠٢)][١].

وكان مظهراً دعوياً مؤثِّراً عندما بدأ الموكب النَّبويُّ الكريم يقترب من بيوت مكَّة المكرَّمة ، وأبنيتها ، شاقاً طريقه باتِّجاه الكعبة المشرَّفة ، وهم في مظهرهم المَهِيْب ، وأصواتُهم تشقُّ عَنان السَّماء بالتَّلبية ، فقد ذكرت معظم كتب السِّير ، والمغازي : أنَّ قسماً من أهالي مكَّة خرج إلى رؤوس الجبال لينظر إلى المسلمين من الأماكن العالية ، والقسم الأكبر وقف عند دار النَّدوة المجاورة للكعبة الشَّريفة آنذاك ؛ ليشاهدوا رسول الله ﷺ ، وأصحابه الكرام أثناء دخولهم مكَّة المكرَّمة ، وبيت الله الحرام[٢].

وكان المشركون قد أطلقوا شائعةً ضدَّ المسلمين مفادها : أنَّهم وهنتهم[٣] حُمَّى يثرب ، فأمر النَّبيُّ ﷺ أصحابه أن يرمُلوا في الأشواط الثَّلاثة ، وأن يمشوا ما بين الرُّكنين [البخاري (٤٢٥٦) ، ومسلم (١٢٦٦)] ؛ لكي يرى المشركون قوَّتهم ، ودخل رسول الله ﷺ البيت الحرام ، واضطبع[٤] بردائه فأخرج عضده اليُمنى وشرع في الطَّواف ، وأصحابه يتابعونه ، ويقتدون به ، ولما رأى المشركون ذلك ؛ قالوا : هؤلاء الَّذين زعمتم أنَّ الحمَّى قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلد مِنْ كذا ، وكذا! [مسلم (١٢٦٦)][٥].

وقد قصد رسول الله ﷺ بهذه الطَّريقة الَّتي فعلها عند دخوله المسجد الحرام ، وهي الاضطباع ، والهرولة ، ورفع الأصوات بالتَّلبية أن يُرهِب قريشاً ، وأن يُظهر لها قوَّة المسلمين ، وعزيمتهم ، وتمسُّكهم بدينهم ، ومناعة جبهتهم.

وقد أثَّر هذا الأسلوب في نفوس المشركين[٦] وبهذا الأسلوب النَّبويِّ الكريم أغاظ الرَّسول ﷺ المشركين ، وكايدهم ، فقد كان ﷺ يتقرَّب إلى الله بمكايدتهم ، وإغاظتهم ، ففي غزوة أحد أذن ﷺ لأبي دُجانة أن يمشي متبختراً أمام المشركين لإظهار عزَّة المؤمن ؛ ولأنَّ ذلك يَغِيْظُ المشركين ، وزيادةً في إغاظتهم كان يلبس العصابة الحمراء دون أن ينكر الرَّسول ﷺ ذلك . وفي غزوة الحديبية ساق رسول الله ﷺ في الهدي جمل أبي جهل الَّذي غنمه في بدرٍ ؛ ليراه المشركون ، فيزدادوا غيظاً حين يذكرون مصارع قتلاهم ، وذلَّ أسراهم ، وها هو ذا ﷺ يأمر

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٨١ .
(٢) انظر : منهج الإعلام الإسلامي في صلح الحديبية ، ص ٣١٤ .
(٣) أضعفتهم .
(٤) الاضطباع : هو أن يدخل بعض ردائه تحت عضده اليمين ، ويجعل طرفه على منكبه
(٥) صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٤٨١ .
(٦) انظر : منهج الإعلام الإسلاميِّ ، ص ٣١٥ .

المسلمين في عمرة القضاء بإظهار التَّجلُّد ، والهرولة؛ لإغاظتهم ، ومكايدتهم ، وردِّ كيدهم في نحورهم[١] ، وقد ذكر ابن القيِّم: «أنَّ رسول الله ﷺ كان يكيد المشركين بكلِّ ما يستطيع»[٢].

فهذه حربٌ نفسيَّةٌ شنَّها رسول الله ﷺ على المشركين ، وقد آتت أُكُلَها ، ولقد أقام الرَّسول ﷺ في مكَّة ثلاثة أيام ، ومعه المسلمون يرفعون راية التَّوحيد ، ويطوفون بالبيت العتيق ، ويرفعون الأذان ، ويقيمون الصَّلاة ، ويصلِّي بهم رسول الله ﷺ الصَّلوات الخمس في جماعة ، وكان بلالُ بن رباح رضي الله عنه بصوته النَّديِّ يرفع الأذان من فوق ظهر الكعبة ، فكان وقعه على المشركين كالصَّاعقة[٣].

ولم ينسَ ﷺ مجموعة الحراسة الَّتي كانت تحرس الأسلحة ، والعتاد بأن يرسل من يقوم بمهمَّتهم ممَّن طاف ، وسعى مكانهم ويأتي هؤلاء ليؤدُّوا النُّسك ، فقد كان ﷺ يتعامل مع نفوسٍ يدرك حقيقة شوقها لبيت الله الحرام ، وما جاءت للمرَّة الثانية ، وقطعت هذه المسافة الشَّاسعة إلا لتنال هذا الشَّرف ، وتَبُلَّ هذا الظَّمأ ، فتطوف مع الطَّائفين، وتسعى مع السَّاعين، فعمل ﷺ على مراعاة النُّفوس، وساعدها ولبَّى مطالبها من أجل إصلاحها والرُّقيِّ بها؛ إنَّه من منهج النُّبوَّة في التَّربية[٤].

ثالثاً: زواجه من أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

كانت ميمونة أختُ أمِّ الفضل زوجةِ العبَّاس بن عبد المطلب فتاةً في السَّادسة والعشرين ، قد جعلت أمر زواجها بعد وفاة زوجها أبي رُهْم بن عبد العزَّى إلى أختِها أمِّ الفضل ، فجعلته أمُّ الفضل إلى زوجها العبَّاس ، فزوَّجها العباس من ابن أخيه النَّبيِّ ﷺ ، وأصدقها عنه أربعمئة درهم[٥] ، وهي خالة عبد الله بن عبَّاس ، وخالد بن الوليد ، ولمَّا انقضت الثَّلاثة أيَّام؛ الَّتي نصَّ عليها عهد الحديبية؛ أراد النَّبيُّ ﷺ أن يتَّخذ من زواجه من ميمونة وسيلةً لزيادة التَّفاهم بينه وبين قريش ، فجاءه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزَّى مُوْفَدَين من نفرٍ من قريشٍ ، فقالوا: إنَّه قد انقضى أجلُك ، فاخرج عنَّا ، فقال النَّبيُّ ﷺ كما ذكر ابن إسحاق: «وما عليكم لو تركتموني ، فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاماً ، فحضرتموه؟!». قالوا: لا حاجة لنا في طعامك ، فاخرج عنا. فخرج ، وخلَّف أبا رافعٍ مولاه على ميمونة حتَّى أتاه بها بِسَرِفٍ

---

(١) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص ٢٨٢.
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٣٧١).
(٣) انظر: صلح الحديبية ، لأبي فارسٍ ، ص ٢٧٠.
(٤) المصدر السابق نفسه ، ص٢٧٧.
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة ، ص ٣٢٦.

(موضع قرب التَّنعيم) فبنى بها هناك [ابن هشام (٤/ ١٤) ، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٣٠)] ، وهي آخر مَنْ تزوَّج الرَّسول ﷺ من نسائه ، وآخر من مات من نسائه بعده ، وأنَّها ماتت ، ودفنت بِسَرِفٍ ، فمكان عرسها هو مكان دفنها رضي الله عنها ، وأرضاها[1].

وفي زواج رسول الله ﷺ بميمونة مسألةٌ فقهيَّةٌ اختلف الفقهاء فيها ، وهي : هل تزوَّج ﷺ بميمونة وهو محرمٌ «عقد نكاحه عليها فقط» أو عقد عليها بعد التَّحلُّل؟[2] وقد أجاد الفقهاء في تفصيلها .

رابعاً : التحاق بنتِ حمزة بن عبد المطَّلب بركب المسلمين :

لقد تغيَّرت النُّفوس ، والعقول بتأثير الإسلام تغيُّراً عظيماً ، فعادت البنت ـ التي كان يتعيَّر بها أشراف العرب ، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل فراراً من العار ، وزهداً في البنات ـ حبيبةً يتنافس في تربيتها المسلمون ، وكانوا سواسيةً ، لا يرجع بعضُهم على بعضٍ إلا بفضلٍ ، أو حقٍّ[3] ، فلمَّا أراد النَّبيُّ ﷺ الخروج من مكَّة ، تبعته ابنة حمزة تنادي يا عمّ ! يا عمّ ! فتناولها عليٌّ رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السَّلام : دونك ابنةَ عمِّك ، فاختصم فيها عليٌّ ، وزيدٌ ، وجعفرٌ .

قال علي : أنا أخذتُها ، وهي بنت عمِّي . وقال جعفر : هي ابنة عمِّي ، وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النَّبيُّ ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». وقال لعليٍّ: «أنت منِّي، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خَلقي، وخُلُقي». وقال لزيد: «أنت أخونا، ومولانا» [البخاري (٢٧٠٠) و(٤٢٥١) ، والترمذي (١٩٠٤)] .

وقال عليٌّ رضي الله عنه للنَّبيِّ ﷺ : ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال ﷺ : «إنَّها ابنة أخي من الرَّضاعة» . [البخاري (٤٢٥١) من حديث البراء ، ومسلم (١٤٤٦) عن علي] .

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، وأحكامٌ ، وفوائد؛ منها :

١ ـ الخالة بمنزلة الأمِّ .

٢ ـ الخالة تُقدَّم على غيرها في الحضانة؛ إذا لم يوجد الأبوان .

٣ ـ تزكية رسول الله ﷺ لجعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه ، ووصفه له بقوله : «أشبهت خلقي ، وخُلقي» .

---

(١) انظر : هذا الحبيب محمَّد ﷺ يا محبُّ ، للجزائريِّ ، ص ٣٧٥ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٥٨ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٢١ .

٤ ـ منقبة عليٍّ رضي الله عنه: تأمَّل قوله ﷺ: «أنت منِّي وأنا منك» والمعنى: أنت منِّي وأنا منك في النَّسب والصِّهر، والسَّابقة، والمحبَّة.

٥ ـ منقبة زيد بن حارثة: يقول له الرَّسول ﷺ: «أنت أخونا، ومولانا» لأنَّه كان أخاً لحمزة بن عبد المطلب، فقد آخى الرَّسول ﷺ بينهما، وهو باجتهاده يريد أن يكون عليه ما على الأخ الشَّقيق من واجباتٍ، والواجب هنا أن يكون وليّاً على بنت حمزة رضي الله عنه.

٦ ـ الخالة تُقدَّم على العمَّة في الحضانة: لقد حكم النَّبيُّ ﷺ لزوجة جعفر بالحضانة؛ وعمَّتها صفيَّة بنت عبد المطلب حيَّةٌ موجودةٌ.

٧ ـ زواج المرأة لا يُسقط حقَّها في الحضانة: فقد حكم الرَّسول ﷺ بالحضانة لخالة بنت حمزة؛ وهي متزوِّجة من جعفر بن أبي طالبٍ رضي الله عنه.

٨ ـ لابدَّ من موافقة الزَّوج على حضانة زوجته لابنة أختها؛ لأنَّ الزَّوجة محتبَسةٌ لمصلحته، ومنفعته، والحضانة قد تفوِّت هذه المصلحة جزئيّاً، فلابدَّ من استئذانه، ونلاحظ هنا أنَّ جعفر بن أبي طالبٍ قد طالب بحضانة بنت عمِّه حمزة لخالتها وهي زوجةٌ له، فدلَّ على رضاه بذلك.

٩ ـ إنَّ الطِّفل إذا رضع مع عمِّه يصبح أخاً له في الرَّضاعة، وتصبح بناتُه كلُّهن بنات أخيه من الرَّضاعة، فيحرم عليه نكاحهنَّ[1].

خامساً: أثر عمرة القضاء على الجزيرة، وإسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة:

لقد كان تأثير هذه العمرة على قريشٍ، وعلى عرب الجزيرة تأثيراً بالغاً، فقد حملت في مضمونها، مهمَّةً دعويَّةً عظيمةً، ولقد تأثَّر أهل مكَّة من هذه العمرة السِّلميَّة.

يقول اللِّواء محمود شيت خطَّاب: أثَّرت عمرة القضاء في هذه الفترة على معنويات قريشٍ تأثيراً كبيراً، فقد وقف الكثير من قريش عند دار النَّدوة بمكَّة، كما عسكر آخرون فوق الهضاب المحيطة بها ليشهدوا دخول الرَّسول ﷺ وأصحابه، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ المسجد؛ اضطبع بردائه، وأخرج عضده اليُمنى، ثمَّ قال: «رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوَّةً» [سبق تخريجه]. ثمَّ استلم الرُّكن، وأخذ يهرول، وأصحابه معه، فلم يكد يترك الرَّسول ﷺ مكَّة حتَّى وقف خالد بن الوليد يقول في جمعٍ من قريش: لقد استبان لكلِّ ذي عقلٍ: أنَّ محمَّداً ليس بساحرٍ،

---

(١) انظر: زاد المعاد، وفيه تفصيل كثير (٣/ ٣٧٤، ٣٧٥)، وصلح الحديبية، لأبي فارس، ص ٢٨٦، ٢٨٧.

ولا شاعرٍ ، وأنَّ كلامه من كلام ربِّ العالمين ، فحقٌ لكلِّ ذي لُبٍّ أن يتَّبعه . وسمع أبو سفيان بما كان من قول خالد بن الوليد ، فبعث في طلبه ، وسأله عن صحَّة ما سمع ، فأكَّد له خالدٌ صحَّته ، فاندفع أبو سفيان إلى خالدٍ في غضبه ، فحجزه عنه عكرمة ، وكان حاضراً ، وقال: مهلاً يا أبا سفيان! فو الله! خِفْتُ لِلَّذي خِفْتُ أن أقول مثل ما قال خالد ، وأكون على دينه ، أنتم تقتلون خالداً على رأيٍ رآه ، وهذه قريش كلُّها تبايعت عليه ، والله! لقد خفت ألا يحول الحول حتَّى يتَّبعه أهل مكَّة كلُّهم. وأسلم من بعد خالد بن الوليد عمرو بن العاص ، وحارس الكعبة نفسها عثمان بن طلحة؛ بل وظهر الإسلام في كلِّ بيت من قريش سراً وعلانيةً ، وبهذه النتيجة الطَّيبة يمكننا القول بأنَّ عمرة القضاء هذه قد فتحت أبواب قلوب أهل مكَّة قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكَّة نفسها[١] .

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد: «وحسبُك: أنَّ عمرة القضاء هذه قد جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بالدَّعوة المحمَّدية ما أقنع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وهما في رجاحة العقل ، والخُلُق مثلان متكافئان ، يُحتذى بهما»[٢] .

١ ـ إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه :

ونترك عمرو بن العاص يحدِّثنا عن إسلامه؛ حيث قال: لمَّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق؛ جمعت رجالاً من قريش؛ كانوا يرون رأيي ، ويسمعون منِّي ، فقلت لهم: تعلمون والله! أنِّي أرى أمر محمَّدٍ يعلو الأمور علواً منكراً ، وإنِّي قد رأيت أمراً ، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنَّجاشي ، فنكون عنده ، فإن ظهر محمَّدٌ على قومنا؛ كنَّا عند النَّجاشيِّ ، فإنَّا أن نكون تحت يديه أحبَّ إلينا من أن نكون تحت يَدَيْ محمَّدٍ ، وإن ظهر قومنا ، فنحن مَنْ قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا خير ، قالوا: إنَّ هذا الرَّأي! قلت: فأجمعوا لنا ما نهديه له ، وكان أحبَّ ما يهدى إليه من أرضنا الأدم[٣] ، فجمعنا له أدماً كثيراً ، ثمَّ خرجنا حتَّى قدمنا عليه ، فو الله إنَّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أميَّة الضَّمْرِيُّ ، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه ، قال: فدخل عليه ، ثمَّ خرج من عنده ، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أميَّة الضَّمْريُّ ، لو دخلت على النَّجاشيِّ ، وسألته إيَّاه ، فأعطانيه ، فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنِّي أجزأت عنها[٤]؛ حيث قتلت رسول محمَّدٍ. قال: فدخلت عليه ، فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال: مرحباً صديقي ، أهديت إلي من بلادك

---

(١) انظر: الرَّسول القائد ﷺ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٢) انظر: عبقرية محمَّد ﷺ ، ص ٦٩ .
(٣) الأدم: الجلد.
(٤) أجزأت عنها: كفيتها.

شيئاً؟ قال: قلت: نعم ، أيها الملك! قد أهديت إليك أدماً كثيراً ، قال: ثمَّ قربته إليه فأعجبه ، واشتهاه ، ثمَّ قلت له: أيُّها الملك! إنِّي قد رأيت رجلاً خرج من عندك ، وهو رسول رجلٍ عدوٍّ لنا ، فأعطنيه لأقتله؛ فإنَّه قد أصاب من أشرافنا ، وخيارنا ، قال: فغضب ، ثمَّ مدَّ يده ، فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنَّه قد كسره ، فلو انشقت لي الأرض؛ لدخلت فيها فَرَقاً منه ، ثمَّ قلت له: أيها الملك! والله! لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتُكَهُ ، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه النَّاموس الأكبر الَّذي كان يأتي موسى لِقَتْلِهِ؟! قال: قلت: أيُّها الملك! أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو! أطعني واتَّبعه ، فإنَّه والله لعلى الحقِّ ، وليَظْهَـرَنَّ على مَنْ خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده ، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم ، فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثمَّ خرجت إلى أصحابي ، وقد حال رأيي عمَّا كان عليه ، وكتمت على أصحابي إسلامي ، ثمَّ خرجت عامداً إلى رسول الله؛ لأسلم ، فلقيت خالد بن الوليد ، وذلك قبيل الفتح ، وهو مقبلٌ من مكَّة ، فقلت: أين يا أبا سليمان؟! قال: والله لقد استقام المَنْسِمُ[1] ، وإن الرَّجل لنبيٌّ ، أذهب والله! فأسلم ، فحتَّى متى؟! قال: قلت: والله! ما جئت إلا لأسلم. قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ ، فتقدَّم خالد بن الوليد ، فأسلم ، وبايع ، ثمَّ دنوت ، فقلت: يا رسول الله! إنِّي أبايعك على أن يُغفر لي ما تقدَّم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخَّر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو! بايع؛ فإنَّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله ، وإنَّ الهجرة تجبُّ ما كان قبلها» قال: فبايعته ، ثمَّ انصرفت. [أحمد (٤/ ١٩٨ ـ ١٩٩) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٨) ، وابن هشام (٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩١)][2].

وفي روايةٍ قال: (. . . فلمَّا جعل الله الإسلام في قلبي؛ أتيت النَّبيَّ ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه ، قال: فقبضت يدي ، قال: «مالك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفرَ لي. قال: «أما علمت: أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحجَّ يهدم ما كان قبله؟»). [مسلم (١٢١) ، وأحمد (٤/ ٢٠٥) ، وابن خزيمة (٢٥١٥)].

٢ ـ إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وهذا خالد بن الوليد يحدِّثنا عن قصَّة إسلامه ، فيقول: . . . لمَّا أراد الله بي من الخير ما أراد؛ قذف في قلبي حُبَّ الإسلام وحضرني رشدي ، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّدٍ ، فليس موطنٌ أشهده إلاَّ أنصرف ، وأنا أرى في نفسي أنِّي مُوضعٌ في غير شيءٍ ،

---

(١) استقام المنسم: تبين الطَّريق ، ووضح.
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٤٩٤.

وأنَّ محمَّداً سيظهر ، فلمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية؛ خرجت في خيل المشركين ، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعُسْفان ، فقمت بإزائه ، وتعرَّضت له ، فصلَّى بأصحابه الظُّهر آمناً منا ، فهمَمْنا أن نغير عليه ، ثم لم يُعزَم لنا ـ وكانت فيه خيرة ـ فاطَّلع على ما في أنفسنا من الهموم ، فصلَّى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منِّي موقعاً ، وقلت: الرَّجل ممنوعٌ! وافترقنا ، وعدل عن سَنن خيلنا وأخذ ذات اليمين ، فلمَّا صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعته قريش بالرَّواح؛ قلت في نفسي: أيُّ شيءٍ بقي؟ أين المذهب؟ إلى النَّجاشيِّ! فقد اتَّبع محمداً ، وأصحابُه آمنون عنده ، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانيَّةٍ ، أو يهوديَّةٍ ، فأقيم مع عجم تابعاً ، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك؛ إذ دخل رسول الله ﷺ عُمرة القضيَّة ، فتغيَّبتُ ، فلم أشهد دخوله ، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النَّبيِّ ﷺ في عُمرة القضية ، فطلبني ، فلم يجدني ، فكتب إليَّ كتاباً ، فإذا فيه: بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، أمَّا بعد: فإنِّي لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعَقْلُك عَقْلُك! ومثلُ الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك ، فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به! فقال: «ما مِثْلُهُ جَهِلَ الإسلامَ! ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره» فاستدرك يا أخي! ما فاتك ، فقد فاتتك مواطنُ صالحةٌ.

قال: فلمَّا جاءني كتابه؛ نَشِطْتُ للخروج ، وزادني رغبةً في الإسلام ، وسرَّتني مقالةُ رسول الله ﷺ . قال خالد: وأرى في النَّوم كأني في بلادٍ ضيِّقةٍ جديبةٍ ، فخرجت إلى بلدٍ أخضرَ واسعٍ ، فقلت: إنَّ هذه لرؤيا ، فلمَّا قدمت المدينة؛ قلت: لأذكرنَّها لأبي بكرٍ ، قال: فذكرتها ، فقال: هو مخرجُك الَّذي هداك الله للإسلام ، والضِّيق الَّذي كنت فيه من الشِّرك ، فلمَّا أجمعت للخروج إلى رسول الله قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان بن أميَّة ، فقلت: يا أبا وهب! أما ترى ما نحن فيه؟ إنَّما نحن أكلَةُ رأس[1] ، وقد ظهر محمَّدٌ على العرب ، والعجم ، فلو قدمنا على محمَّدٍ فاتَّبعناه؛ فإنَّ شرف محمَّدٍ على العرب.

فأبى أشدَّ الإباء ، وقال: لو لم يبقَ غيري من قريشٍ ما اتَّبعته أبداً! فافترقنا ، وقلت: هذا رجلٌ موتور يطلب وِتْراً ، قد قُتل أبوه ، وأخوه ببدرٍ. فلقيت عكرمة بن أبي جهل ، فقلت له مثل الَّذي قلت لصفوان ، فقال لي مثل ما قال صفوان ، قلت: فاطوِ ما ذكرت مَنْ قُتل من آبائه ، فكرهتُ أذكِّره ، ثمَّ قلت: وما عليَّ وأنِّي راحلٌ من ساعتي ، فلقيت عثمان بن طلحة فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت: إنَّما نحن بمنزلة ثعلب في جُحرٍ ، لو صُبَّ عليه ذَنوبٌ[2] من ماءٍ؛ لخرج.

---

(١) أي: هم قليل ، يشبعهم رأسٌ واحدٌ ، وهو جمع آكل.
(٢) الذَّنوب: الدلو العظيمة.

قال: وقلت له نحواً ممَّا قلت لصاحبيه ، فأسرع في الإجابة ، وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو ، وهذه راحلتي بفجٍّ مُنَاخةٌ. قال: فاتَّعدت أنا وهو بيأجج ، إن سبقني؛ أقام ، وإن سبقته؛ أقمت عليه.

قال: فادَّلجنا سحراً فلم يطلع الفجر حتَّى التقينا بيأجج ، فغدونا حتَّى انتهينا إلى الهَدَّة ، فنجد عمرو بن العاص بها ، فقال: مرحباً بالقوم! فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدُّخول في الإسلام ، واتِّباع محمَّد ﷺ. قال: وذلك الَّذي أقدمني.

قال: فاصطحبنا جميعاً حتَّى قدمنا المدينة ، فأنخنا بظاهر الحرَّة ركابنا ، فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فَسُرَّ بنا ، فَلَبِسْتُ من صالح ثيابي ، ثمَّ عمدت إلى رسول الله ﷺ ، فلقيني أخي ، فقال: أسرع فإنَّ رسول الله ﷺ قد أُخبر بك فَسُرَّ بقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعت المشي ، فطلعت عليه ، فما زال يتبسَّم إليَّ حتَّى وقفتُ عليه ، فسلمت عليه بالنُّبوَّة ، فرد عليَّ السَّلام بوجهٍ طَلْقٍ ، فقلت: إنِّي أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسولُ الله. فقال: «الحمد لله الَّذي هداك! قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير». قلت: يا رسول الله! قد رأيتَ ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحقِّ ، فادع الله أن يغفرها لي! فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله». قلت: يا رسول الله! على ذلك؟ فقال: «اللَّهم! اغفر لخالدٍ كلَّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك». قال خالد: وتقدَّم عمرو ، وعثمانُ ، فبايعا رسول الله ﷺ ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ ، فو الله! ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل بي أحداً من أصحابه فيما حزبه. [البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ٣٤٩ ـ ٣٥٢)][(١)].

وفي إسلام عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما دروسٌ ، ولطائف ، وعبرٌ ، منها:

أ ـ غضبة النَّجاشيِّ تدلُّ على صدق إيمانه ، وحبِّه لرسول الله ﷺ ، وحبُّه للمسلمين ، وصِدْق النَّجاشيِّ كان له أثرٌ في إيمان عمرو بن العاص ، ودخوله في الإسلام ، وبذلك نال النَّجاشيُّ أجراً عظيماً حيث جذب إلى الإسلام رجلاً من عظماء قريش[(٢)].

ب ـ كان إسلام عمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام ، والمسلمين ، فلقد سخَّر عقله الكبير ، ودهاءه العظيم لصالح دعوة الإسلام ، وخسر الكفار بإسلامه خسارةً كبيرةً؛ لأنَّهم كانوا

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٣٩ ، ٢٤٠) ، والتَّاريخ الإسلامي (٧/ ٩٥).
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ٩٠).

يُعِدُّونه لعظائم الأمور؛ الَّتي تحتاج إلى دهاءٍ ، ومقدرةٍ على التأثير ، وخاصَّةً فيما يتعلَّق بعدائهم مع المسلمين(١) .

ج ـ أدرك خالد بن الوليد: أنَّ العاقبة لرسول الله ﷺ ، وتأمَّل قوله: لقد شهدت هذه المواطن كلَّها على محمَّد ، فليس موطنٌ أشهده إلا أنصرف؛ وأنا أرى في نفسي أنّي مُوضعٌ في غير شيءٍ ، وأن محمَّداً سيظهر(٢) . وفي هذا عبرةٌ لكلِّ الَّذين يحاربون الإسلام(٣) .

د ـ الاهتمام بالبشر طريقٌ من طرق التأثير عليهم ، وكسبهم إلى الصَّفِّ المؤمن ، ولذلك قال رسول الله ﷺ للوليد بن الوليد: «ما مِثْل خالدٍ يجهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجدَّه مع المسلمين على المشركين؛ لكان خيراً له ، ولقدَّمناه على غيره»(٤) . فكان لهذه الكلمات البليغة أعظمُ الأثر في تحوُّل قلب خالدٍ ، وتوجُّهه نحو الإسلام ، وقد كان رسول الله ﷺ عليماً في مخاطبة النُّفوس ، والتَّأثير عليها ، فلقد أدرك مواهب خالد في القيادة ، والزَّعامة ، فوعد بتمكينه من ذلك ، وتقديمه على غيره في هذا المضمار ، ومدح ﷺ سداد رأيه ، ورجاحة عقله ، ونُضْجَ فكره ، فانتزع ﷺ بهذه الكلمات كلَّ الجوانب الَّتي تجعل خالداً يظلُّ على الشِّرك الَّذي لم يكن مقتنعاً به إلا بمقدار ما حصل له فيه من قيادةٍ وتصدُّرٍ ، فلمَّا كان ما هيَّأه له المشركون سيحصل له؛ إذا دخل في الإسلام ، واطمأنَّ بأنَّه لو أسلم؛ لن يكون في آخر القائمة ، ولن يكون مهملاً ، شجَّعه ذلك على التغلُّب على وساوس إبليس ، ورجَّح ما اطمأنت إليه نفسه من الميل إلى الإسلام ، فعزم على الدُّخول فيه .

لقد كان إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد قوَّةً للإسلام ، وضعفاً للشِّرك ، وكتب الله على أيديهما صفحاتٍ مشرقةً من تاريخ المسلمين الجهاديِّ أصبحت باقيةً في ذاكرة الأمَّة ، وتاريخها المجيد على مرِّ الدُّهور ، وكرِّ العصور ، وتوالي الأزمان(٥) .

* * *

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) انظر : صلح الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٦٣ .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/ ٩٥) .
(٤) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/ ٩٥) .
(٥) المصدر السابق نفسه ، (٧/ ٩٦) .

المبحث الرابع
سريَّة مؤتة (٨ هـ)(١)

أولاً: أسبابها، وتاريخها:

أشعل عرب الشَّام فتيل الصِّراع بين المسلمين والبيزنطيِّين ، فقد دأبت قبيلة كلب من قُضاعة ؛ الَّتي كانت تنزل على دومة الجندل على مضايقة المسلمين ، وحاولت أن تفرض عليهم نوعاً من الحصار الاقتصاديِّ عن طريق إيذائها للتُّجار الَّذين كانوا يحملون السِّلع الضَّرورية من الشَّام إلى المدينة ، ولذلك غزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (٥ هـ) ، لكنَّه وجدهم قد تفرَّقوا ، كما أنَّ رجالاً من جُذام ، ولَخْم قطعوا الطَّريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بحِسْمَىٰ بعد إنجازه لمهمَّةٍ أناطها به رسول الله ﷺ واستلبوا كلَّ ما معه ، فكانت سَرِيَّة زيد بن حارثة إلى حِسْمَى في سنة (٦ هـ)، ويضاف إلى ذلك أيضاً ما قامت به قبيلتا مذحج ، وقُضاعة من اعتداءٍ على زيد بن حارثة ، وصحبه في العام المذكور (٦ هـ) ، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثةٍ بغرض الدَّعوة إلى الله .

وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدوانيُّ يأخذ منحنىً أكثر خطورةً(٢) ، بعد مقتل الحارث بن عُميرٍ الأزدي رسول رسول الله ﷺ إلى حاكم (بُصرى) التَّابع لحاكم الرُّوم ، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغسَّاني بضرب عنق رسولِ رسولِ الله ، ولم تجر العادة بقتل الرُّسل والسُّفراء ، كما أنَّ الحارث بن أبي شمر الغسَّاني حاكم دمشق أساء استقبال مبعوث رسول الله ، وهدَّد بإعلان الحرب على المدينة .

ثمَّ حدث بعد ذلك بما يزيد قليلاً عن العام أن بعث رسول الله سرية بقيادة عمرو بن كعب الغفاري ؛ ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له : (ذات أطلاح) ، فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام ، وأحاطوا بالدُّعاة من كلِّ مكانٍ ، وقاتلوهم حتَّى قتلوهم جميعاً ، إلا أميرهم كان جريحاً فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة ، فأخبر رسول الله ﷺ(٣) .

---

(١) ينظر الشكل (١٦) في الصفحة (٦٢٠) .

(٢) انظر : المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، لعبد الرحمن أحمد سالم ، ص ٨٧ .

(٣) انظر : تاريخ الطَّبري (٣/ ١٠٣) ، والإصابة ، لابن حجر ، والسِّيرة النَّبوية ، لابن هشام ، ومحمَّد ﷺ ، لمحمد رضا (ما قبل سرية مؤتة من الحوادث) .

وقد قام نصارى الشَّام بزعامة الإمبراطورية الرومانيَّة بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام ، أو يفكِّر في ذلك ، فقد قتلوا والي مَعَانَ حين أسلم ، وقتل والي الشَّام من أسلم من عرب الشَّام[١].

كانت هذه الأحداث المؤلمة ـ وبخاصَّةٍ مقتل سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عُمير الأزدي ـ محركةً لنفوس المسلمين ، وباعثاً لهم ليضعوا حدّاً لهذه التصرُّفات النَّصرانيَّة العدوانيَّة ، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة ، الذين سُفِكَت دماؤهم بغير حقٍّ إلا أن يقولوا ربُّنا الله ونبيُّنا محمَّد رسول الله[٢] ، كما أنَّ تأديب عرب الشام التابعين للدَّولة الرُّومانيَّة ، والَّذين دأبوا على استفزاز المسلمين ، وتحدِّيهم ، وارتكاب الجرائم ضدَّ دعاتهم أصبح هدفاً مهمّاً ؛ لأنَّ تحقيق هذا الهدف معناه : فرض هيبة الدَّولة الإسلاميَّة في تلك المناطق ، بحيث لا تتكرَّر مثل هذه الجرائم في المستقبل ، وبحيث يأمن الدُّعاة المسلمون على أنفسهم ، ويأمن التُّجار المتردِّدون بين الشَّام والمدينة من كلِّ أذىً يحول دون وصول السِّلع الضَّرورية إلى المدينة[٣] .

وفي سنة (٨ هـ) أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتَّجهُّز للقتال ، فاستجابوا للأمر النَّبويِّ ، وحشدوا حشوداً لم يحشدوها من قبل ؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السَّريَّة ثلاثة آلاف مقاتل ، واختار النَّبيُّ ﷺ للقيادة ثلاثة أمراء على التَّوالي : زيد بن حارثة ، ثمَّ جعفر بن أبي طالب ، ثمَّ عبد الله بن رواحة[٤] ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال : أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة ، فقال رسول الله ﷺ : إن قُتل زيدٌ ؛ فجعفرٌ ، وإن قُتل جعفرٌ فعبد الله بن رواحة . [البخاري (٤٢٦١)] .

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش الإسلاميَّ أن يأتوا المكان الَّذي قتل فيه الحارث بن عمير الأزديُّ رضي الله عنه ، وأن يَدْعوا من كان هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا ؛ فبها ، ونعمت ، وإن أبوا ؛ استعينوا بالله عليهم ، وقاتلوهم[٥] . وقد زوَّد الرَّسول ﷺ الجيش في هذه السَّريَّة ، وغيرها من السَّرايا بوصايا تتضمَّن آداب القتال في الإسلام[٦] ، فقد أوصى رسول الله ﷺ أصحابه بقوله : «أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزو باسم الله في سبيل

---

(١) انظر : خاتم النَّبيِّين ﷺ (٢/ ١١٣٩) نقلاً عن الصِّراع مع الصَّليبيين ، لأبي فارس ، ص ٢٠ .
(٢) انظر : الصراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص ٢٠ .
(٣) انظر : المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، ص ٨٩ .
(٤) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٠ .
(٥) انظر : السِّيرة الحلبيَّة (٢/ ٧٨٧) .
(٦) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢١ .

الله مَنْ كفر بالله ، لا تغدِروا ، ولا تقتُلوا وليداً ، ولا امرأةً ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعةٍ ، ولا تقربوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تهدموا بناءً ، وإذا لقيتم عدوَّكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث : فإمَّا الإسلام ، وإمَّا الجزية ، وإمَّا الحرب»[(١)] .

ثانياً: وداع الجيش الإسلامي :

لمَّا تجهز الجيش الإسلاميُّ ، وأتمَّ استعداده؛ توجَّه رسول الله ﷺ والمسلمون يودِّعون الجيش ، ويرفعون أكفَّ الضَّراعة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن ينصر إخوانهم المجاهدين ، لقد سلَّموا عليهم ، وودَّعوهم بهذا الدُّعاء : دفع الله عنكم ، وردَّكم صالحين غانمين[(٢)]!

ولما ودَّع النَّاس عبد الله بن رواحة ، وسلَّموا عليه ، بكى ، وانهمرت الدُّموع من عينيه ساخنةً غزيرةً ، فتعجَّب النَّاس من ذلك ، وقالوا : ما يبكيك يا بن رواحة؟! فقال : والله ما بي حبُّ الدُّنيا ، ولا صَبَابَةٌ بكم ، ولكنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آيـة من كتاب الله يذكر فيها النَّـار : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم : ٧١] ، فلست أدري كيف بي بالصَّدرِ بعد الوُرود؟! فقال لهم المسلمون : صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردَّكم إلينا صالحين! فقال عبد الله بن رواحة :

لَكنَّنِـي أَسْـأَلُ الـرَّحْمـنَ مَغْفِـرَةً ... وَضَـرْبَـةً ذَاتَ فَـرْغٍ تَقْـذِفُ الـزَّبَـدَا
أَوْ طَعْنَـةً بِيَـدَيْ حَـرَّانَ مُجْهِـزَةً ... بِحَـرْبَـةٍ تُنْفِـذُ الأَحْشَـاءَ والْكَبِـدَا
حَتَّـى يُقَـالَ إِذَا مَـرُّوا عَلَـى جَـدَثِـي ... أَرْشَـدَهُ اللهُ مِـنْ غـازٍ وَقَـدْ رَشَـدَا

[ابن هشام (٤/ ١٥ ـ ١٦) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٥٩)] .

وودَّع رسولُ الله ﷺ عبد الله بن رواحة ، فقال ابن رواحة يخاطب رسول الله ﷺ :

يُثَبِّـتُ اللهُ مـا آتـاكَ مِـنْ حَسَـنٍ ... تَثْبِيْـتَ مُـوْسَـىٰ وَنَصْـراً كـالَّـذِي نُصِـرُوا
إِنِّـي تَفَـرَّسْـتُ فِيْـكَ الْخَيْـرَ نَـافِلَـةً ... فِـرَاسَـةً خَـالَفْتُهُـم فِـي الَّـذي نَظَـرُوا
أَنْـتَ الـرَّسُـولُ فَمَـنْ يُحْـرَمْ نَـوَافِلَـهُ ... والـوَجْـهُ مِنْـهُ فَقَـدْ أَزْرَىٰ بِـهِ القَـدَرُ

[البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠) ، وابن هشام (٤/ ١٦)][(٣)].

ثالثاً: الجيش يصل إلى مَعَان واستشهاد الأمراء الثلاثة :

لما وصل الجيش الإسلاميُّ إلى مَعَان من أرض الشَّام ـ وهي الآن محافظةٌ من محافظات الأردن ـ بلغه : أنَّ النَّصارى الصَّليبيِّين مِنْ عربٍ ، وعجمٍ قد حشدوا حشوداً ضخمةً لقتالهم ؛ إذ

---

(١) انظر : المغازي (٢/ ٧٥٧ ـ ٧٥٨).
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٢١).
(٣) انظر : مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزُّبير ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

حشدت القبائل العربيَّة مئة ألف صليبي من لَـخْمٍ ، وجُذَام وبَهرَاء وبَلِيٍّ ، وعيَّنت لهم قائداً ، هو مالك بن رافلة ، وحشد هرقل مئة ألف نصرانيٍّ صليبيٍّ من الرُّوم ، فبلغ جيشهم مئتي ألف مقاتلٍ ، مزوَّدين بالسِّلاح الكافي ، يرفلون في الدِّيباج لينبهر المسلمون بهم ، وبقوَّتهم[١] ، ولقد قام المسلمون في مَعَان يومين يتشاورون في التَّصدِّي لهذا الحشد الضَّخم ، فقال بعضهم : نرسل إلى رسول الله ﷺ في المدينة نخبره بحشود العدوِّ ، فإن شاء أمدَّنا بالمدد ، وإن شاء أمرنا بالقتال[٢] ، وقال بعضُهم لزيد بن حارثة قائد الجيش : وقد وطئت البلاد ، وأخفت أهلها ، فانصرف ، فإنَّه لا يعدل العافية شيءٌ[٣] ، ولكن عبد الله بن رواحة حسم الموقف بقوله : يا قوم! والله إنَّ الذي تكرهون للَّذي خرجتم تطلبون الشَّهادة! وما نقاتل النَّاس بعددٍ ، ولا قوَّةٍ ، ولا كثرةٍ ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الَّذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا؛ فإنَّما هي إحدى الحسنيين : إمَّا ظهورٌ ، وإمَّا شهادةٌ! فألهبت كلماتُه مشاعر المجاهدين ، واندفع زيد بن حارثة بالنَّاس إلى منطقة مؤتة جنوب الكرك يسير حيث آثر الاصطدام بالرُّوم هناك ، فكانت ملحمةٌ سجَّل فيها القادة الثلاثة بطولةً عظيمةً انتهت باستشهادهم[٤] ، فقد استبسل زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وتوغَّل في صفوف الأعداء وهو يحمل راية رسول الله ﷺ حتَّى شاط (أي : سال دمه) في رماح القوم.
[الطبراني في الكبير (٤٦٥٥) ، وابن هشام (٤/ ١٩) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٥٩)].

ثمَّ أخذ الرَّاية جعفر ، وانبرى يتصدَّى لجموع المشركين الصَّليبيِّين ، فكثَّفوا حملاتهم عليه ، وأحاطوا به إحاطة السِّوار بالمعصم ، فلم تلن له قناةٌ ، ولم تهن له عزيمةٌ؛ بل استمرَّ في القتال وزيادةً في الإقدام نزل عن فرسه ، وعقرها ، وأخذ ينشد :

يَا حَبَّذا الجَنَّةُ واقْتِرَابُهَا ... طَيِّبَةً وَبَارِداً شَرَابُهَا
والرُّومُ رُومٌ قَدْ دَنَا عَذَابُهَا ... كَافِرَةٌ بَعِيْدَةٌ أَنْسَابُهَا
عَلَيَّ إذ لاقَيْتُهَا ضِرَابُهَا

[انظر تخريج الحديث السابق].

لقد أخذ رضي الله عنه اللِّواء بيده اليمنى ، فقطعت ، فأخذه بشماله ، فقطعت ، فاحتضنه بعضديه ، وانحنى عليه حتَّى استُشْهِد وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، ولقد أُثْخِنَ رضي الله عنه بالجراح؛ إذ بلغ عدد جراحه تسعين ، بين طعنةٍ برمحٍ ، أو ضربةٍ بسيفٍ ، أو رميةٍ بسهمٍ ، وليس

---

(١) انظر : شرح المواهب اللَّدنية (٢/ ٢٧١).
(٢) انظر : زاد المعاد (٣/ ٣٨٢).
(٣) انظر : تاريخ دمشق ، لابن عساكر (١/ ٣٩٦).
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٦٨).

من بينهما جرح في ظهره ، بل كلُّها في صدره[١] .

روى الإمام البُخاريُّ ـ رحمه الله ـ في صحيحه بإسناده إلى عبد الله بن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما قال: كنت في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب ، فوجدناه في القتلى ، ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين من طعنةٍ ، أو رميةٍ . [البخاري (٤٢٦١) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٦١)] .

ولقد عوَّض الله ـ تبارك وتعالى ـ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأكرمه على شجاعته ، وتضحيته بأن جعل له جناحين يطير بهما في الجنَّة حيث يشاء ، فقد روى البخاريُّ في صحيحه بإسناده إلى عامرٍ ؛ قال: كان ابن عمر إذا حَيّا ابن جعفر ؛ قال: السَّلام عليك يا بن ذي الجناحين . [البخاري (٤٢٦٤) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٧٢)] .

وبعد استشهاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه تسلَّم الرَّاية عبد الله بن رواحة الأنصاريُّ رضي الله عنه وامتطى جواده ، وهو يقول:

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلِنَّهْ ... لَتَنْزِلِنَّ أَوْ لَتُكْرَهِنَّهْ
إِنْ أَجْلَبَ[٢] النَّاسُ وشَدُّوا الرَّنَّهْ[٣] ... مَالِيْ أَرَاكِ تَكْرَهِيْنَ الْجَنَّهْ
قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتِ مُطْمَئِنَّهْ ... هَلْ أَنْتِ إلا نُطْفَةٌ فِي شَنَّهْ
يَا نَفْسُ إلا تُقْتَلِيْ تَمُوْتِي ... هَذا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صَلِيْتِ
ومَا تَمَنَّيْتِ فَقَدْ أُعْطِيْتِ ... إِنْ تَفْعَلِي فِعْلَهُمَا هُدِيْتِ

[البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤) ، وابن هشام (٤/ ٢١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٥٩)] .

ويُذكر: أنَّ ابن عمٍّ لعبد الله بن رواحة قد قدَّم له قطعةً من لحمٍ ، وقال له: شدَّ بهذا صُلبك ، فإنَّك لقيت في أيَّامك هذه ما لقيت ، فأخذه من يده ، ثمَّ انتهش منه نهشةً ، ثمَّ سمع جلبةً ، وزخاماً في جبهة القتال ، فقال يخاطب نفسه: وأنت في الدُّنيا! ثمَّ ألقى قطعة اللَّحم من يده ، وتقدَّم يقاتل العدو حتَّى استُشْهِد رضي الله عنه وكان ذلك في آخر النَّهار[٤] .

رابعاً: المسلمون يختارون خالد بن الوليد قائداً:

ولمَّا استُشْهِد عبدُ الله بن رواحة رضي الله عنه ، وسقطت الرَّاية من يده فالتقطها ثابت بن أقرم بن ثعلبة بن عديِّ بن العجلان البلويُّ الأنصاريُّ وقال: يا معشر المسلمين! اصطلحوا على

---

(١) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٥٨ .
(٢) إن أَجْلَبَ القوم: صاحوا ، واجتمعوا .
(٣) الرَّنة: صوت ترجيع شبه البكاء .
(٤) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٦١ .

رجلٍ منكم ، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل! فاصطلح النَّاس على خالد بن الوليد[١] ، وجاء في (إمتاع الأسماع): أنَّ ثابت بن أقرم نظر إلى خالد بن الوليد ، فقال: خذ اللِّواء يا أبا سليمان! فقال: لا آخذه ، أنت أحقُّ به ، أنت رجلٌ لك سنٌّ ، فقد شهدت بدراً ، فقال ثابت: خذه أيُّها الرَّجل ، فو الله ما أخذته إلا لك!

فأخذه خالد بن الوليد رضي الله عنه[٢] ، وأصبحت الخطَّة الأساسيَّة المنوطة بخالدٍ في تلك السَّاعة العصيبة من القتال أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعيِّ ، فبعد أن قدَّر الموقف واحتمالاته المختلفة تقديراً دقيقاً ، ودرس ظروف المعركة دراسةً وافيةً ، وتوقَّع نتائجها اقتنع بأنَّ الانسحاب بأقلِّ خسارةٍ ممكنةٍ هو الحلُّ الأفضل ، فقوَّة العدوِّ تبلغ (٦٦) ضعفاً لقوة المسلمين ، فلم يبقَ أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظَّم ، وعلى هذا الأساس وضع خالدٌ الخطَّة التالية:

أ ـ الحؤول بين جيش الرُّوم وجيش المسلمين؛ ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب ـ لبلوغ هذا الهدف لابدَّ من تضليل العدوِّ بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين ، فيخفِّف من ضغطه ، وهجماته ، ويتمكَّن المسلمون من الانسحاب ، وصمد خالدٌ حتَّى المساء عملاً بهذه الخطَّة ، وغيَّر في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه ، فاستبدل الميمنة بالميسرة ، ومقدِّمة القلب بالمؤخِّرة ، وفي أثناء عملية الاستبدال اصطنع ضجَّة صاخبةً ، وجلبةً قويَّةً ، ثمَّ حمل على العدوِّ ، عند الفجر ، بهجماتٍ سريعةٍ متتالية ، وقويَّة؛ ليُدخل في رُوعِه: أنَّ إمدادات كثيرةً وصلت إلى المسلمين[٣].

ونجحت الخطَّة؛ إذ بدا للعدوِّ صباحاً: أنَّ الوجوه والرَّايات الَّتي تواجهه جديدةٌ لم يرها من قبل، وأنَّ المسلمين يقومون بهجماتٍ عنيفةٍ، فأيقن: أنَّهم تلقَّوا إمدادات، وأنَّ جيشاً جديداً نزل إلى الميدان ، وكان البلاء الحسن الَّذي أبلاه المسلمون قد فتَّ في عضد الرُّوم ، وحلفائهم ، فأدركوا أنَّ إحراز نصرٍ حاسمٍ ونهائيٍّ على المسلمين أمرٌ مستحيلٌ ، فتخاذلوا ، وتقاعسوا عن متابعة الهجوم ، وضعف نشاطهم واندفاعهم ، فخفَّ الضَّغط عن جيش المسلمين ، وانتهز خالدٌ الفرصة ، فباشر الانسحاب ، وكانت عملية التَّراجع الَّتي قام بها خالدٌ في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليَّات في التاريخ العسكريِّ مهارةً ونجاحاً ، بل إنَّها تتَّفق وتتلاءم مع التَّكتيك الحديث للانسحاب ، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب ، ولمَّا أصبح الجناحان بمنأىً عن العدوِّ وفي مأمنٍ عنه؛ عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين ، إلى أن

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٢٧).
(٢) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩).
(٣) البداية والنِّهاية (٤/ ٢٤٧) ، والواقدي (٢/ ٧٦٤).

تمكَّن ، وضمن سلامة الانسحاب كُلِّيّاً[١] ، ويقول المؤرِّخون: إنَّ خسارة المسلمين لم تتعدَّ الاثني عشر قتيلاً في هذه المعركة ، وإنَّ خالداً قال: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيَّة» . [البخاري (٤٢٦٥) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٧٣)] .

ويمكن القول بأنَّ خالداً بخطَّته تلك ، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمةٍ ماحقةٍ، وقتلٍ محقَّقٍ ، وأنَّ انسحابه كان قمَّة النَّصر بالنِّسبة لظروف المعركة؛ حيث يكون الانسحاب في ظروفٍ مماثلةٍ أصعب حركات القتال ، بل أجداها ، وأنفعها[٢] .

خامساً: معجزةُ الرَّسول ﷺ ، وموقف أهل المدينة من الجيش:

ظهرت معجزةٌ للرَّسول ﷺ في أمر هذه السَّرِيَّة ، فقد نعى إلى المسلمين في المدينة زيداً ، وجعفراً ، وابن أبي رواحة قبل أن يصل إليه خبرهم ، وحزن رسول الله ﷺ لما وقع للسَّرِيَّة ، وذرفت عيناه الدُّموع ، ثمَّ أخبرهم بتسلُّم خالدٍ للرَّاية ، وبشَّرهم بالفتح على يديه ، وأسماه: سيفَ الله[٣] ، وبعد ذلك قدِم من أخبرهم بأخبار السَّرِيَّة ، ولم يزد عمَّا أخبرهم به النَّبيُّ ﷺ[٤] .

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقَّاهم رسول الله ﷺ ، والمسلمون ، ولقيهم الصِّبيان يشتدُّون ، ورسولُ الله ﷺ مقبلٌ مع القوم على دابةٍ ، فقال: خذوا الصِّبيان ، واحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر ، فأتي بعبد الله ، فأخذه ، فحمله على يديه ، وجعل النَّاس يحثون على الجيش التُّراب ، ويقولون: يا فُرَّار! أفررتم من سبيل الله! ويقول رسول الله ﷺ : «ليسوا بالفُرَّار ، ولكنَّهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى» . [البيهقي في الدلائل (٤/ ٣٧٤) ، وابن هشام (٤/ ٢٤)][٥] .

وإنَّ الإنسان ليعجب من هذه التَّربية النَّبويَّة الَّتي صنعت من الأطفال الصِّغار ، رجالاً وأبطالاً يرون العودة من المعركة دون شهادةٍ في سبيل الله فراراً من سبيل الله ، لا يكافؤون عليه إلا بحثو التُّراب في وجوههم ، فأين شبابنا المتسكِّعون في الشَّوارع ، من هذه النماذج الرَّفيعة من الرجولة الفذَّة المبكِّرة؟! ولن تستطيع الأمَّة أن ترتفع إلى هذه الأهداف النَّبيلة ، والقِمم الشَّوامخ إلا بالتَّربية الإسلاميَّة الجادَّة القائمة على المنهاج النَّبويِّ الكريم[٦] .

---

(١) انظر: معارك خالد بن الوليد ، د. ياسين سويد ، ص ١٧٣ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٥ .
(٣) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٦٠) .
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٥٥) .
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٢٨ ، وتاريخ الذهبي ، ص ٤٩١ . والبداية والنِّهاية ، لابن كثير ، وقال: هذا مرسل من هذا الوجه وفيه غرابة .
(٦) انظر: دروس وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٣٥٨ .

سادساً: دروس ، وعبر ، وفوائد:

ففي هذه الغزوة دروسٌ ، وعبرٌ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ أهمِّيَّة هذه المعركة:

تُعَدُّ هذه المعركة من أهمِّ المعارك الَّتي وقعت بين المسلمين والنَّصارى الصَّليبيِّين من عربٍ ، وعجمٍ؛ لأنَّها أوَّل صدامٍ مسلَّحٍ ذي بالٍ بين الفريقين ، وأثَّرت تلك المعركة على مستقبل الدَّولة الرُّومانيَّة ، فقد كانت مقدمةً لفتح بلاد الشَّام ، وتحريرها من الرُّومان ، ونستطيع أن نقول: إنَّ تلك الغزوة هي خطوةٌ عمليَّةٌ قام بها النَّبيُّ ﷺ للقضاء على دولة الرُّوم المتجبِّرة في بلاد الشَّام ، فقد هزَّ هيبتها في قلوب العرب ، وأعطت فكرة عن الرُّوح المعنويَّة العالية عند المسلمين ، كما أظهرت ضعف الرُّوح المعنوية في القتال عند الجنديِّ الصَّليبيِّ النَّصرانيِّ[١] ، وأعطت فرصةً للمسلمين للتَّعرُّف على حقيقة قوات الرُّوم ، ومعرفة أساليبهم في القتال.

٢ ـ حبُّ الشَّهادة باعثٌ للتَّضحية:

إنَّ الصَّبر ، والثَّبات ، والتَّضحية الَّتي تجلَّت من كلِّ واحدٍ من الأمراء الثَّلاثة ، وسائر الجند كان مبعثها الحرص على ثواب المجاهدين ، والرَّغبة في نيل الشَّهادة؛ لكي يكرمهم الله برفقة النَّبيِّين ، والصِّدِّيقين ، والشُّهداء ، والصَّالحين ، ويدخلوا جنَّات الله الواسعة ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر.

٣ ـ تميُّز هذه المعركة عن سائر المعارك:

فهي الوحيدة الَّتي جاء خبرها من السَّماء؛ إذ نعى النَّبيُّ ﷺ استشهاد الأبطال الثَّلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة ، بل وأخبر النَّبيُّ ﷺ عن أحداثها ، وتمتاز أيضاً عن غيرها بأنَّها الوقعة الوحيدة الَّتي اختار النَّبيُّ ﷺ لها ثلاثة أمراء على التَّرتيب هم: زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالبٍ ، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم[٢].

٤ ـ إكرام النَّبيِّ ﷺ لآل جعفر:

لمَّا أصيب جعفر دخل رسول الله ﷺ على أسماء بنت عُمَيْسٍ فقال: «ائتني ببني جعفرٍ» ، فأتت بهم ، فشمَّهم ، وقبَّلهم ، وذرفت عيناه ، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر ، وأصحابه شيءٌ؟ قال: «نعم ، أصيبوا هذا اليوم!» فجعلت تصيح ، وتولول ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا تغفُلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعاماً ، فإنَّهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم». [أحمد (٦/ ٣٨٠) ، وابن ماجه

---

(١) انظر: الصِّراع مع الصليبيِّين ، ص ٦٤.

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٦٦.

(١٦١١) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٦١) ، والبيهقي في الدلائل (٤/ ٣٧٠) ، وابن هشام (٤/ ٢٢)] ، ونلحظ في هذا الخبر عدَّة أمورٍ ؛ منها :

أ- جواز بكاء المرأة على زوجها المُتَوَفَّى :

أُخِذ هذا مِنْ فعل أسماء بنت عُمَيْسٍ رضي الله عنها حينما نعى النَّبيُّ ﷺ زوجها ، ومن معه ، فبكت ، وصاحت ، فلم ينكر عليها النَّبيُّ ﷺ ، ولم ينهها عن ذلك ، ولو كان ممنوعاً ؛ لنهاها عن ذلك ، والبكاء الَّذي نهى عنه الإسلام هو ما كان سائداً عند أهل الجاهليَّة من النُّواح ، واللَّطم ، وشقِّ الجيوب ، والتَّبرُّم بقضاء الله ، وقدَرِه ، وما إلى ذلك ممَّا يكون سبباً في معصية الخالق سبحانه .

ب- استحباب صنع الطَّعام لأهل الميت :

وقد ندب الرَّسول ﷺ النَّاس أن يصنعوا طعاماً لآل جعفر ، وهذا فيه مواساةٌ لأهل المُتَوَفَّىٰ ، وتخفيفُ مُصابهم ، وفي الوقت نفسه تكافلٌ بينهم ، وهذه السُّنَّة خالفتها بعض الشُّعوب الإسلاميَّة ، وأصبح أهل الميت يصنعون الطَّعام للقادمين ، وهذا أمر قبيحٌ ينبغي أن يبتعد عنه المسلمون[١] .

هذا وقد نهى رسولُ الله ﷺ عن البكاء بعد ثلاثٍ ، فقد دخل على أسماء ، وقال لها : «لا تبكوا على أخي بعد اليوم ، ادعو لي بني أخي» ، فجيء بهم كأنَّهم أَفْرُخ فدعا بالحلاق فحلق لهم رؤوسهم [أحمد (١/ ٢٠٤) ، وأبو داود (٤١٩٢) ، والنسائي (٨/ ١٨٢)] ، ثمَّ قال : أمَّا محمَّد فشبيه عمِّنا أبي طالب ، وأما عبد الله فشبيه خَلْقِي ، وخُلُقِي ، ثمَّ أخذ بيمين عبد الله ، وقال : «اللَّهُمَّ! اخلُف جعفراً في أهله ، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» قالها ثلاثاً[٢] . ولمَّا ذَكَرَتْ له أمُّهم يُتْمَهم ، وضعفهم ؛ قال لها : «العَيْلَةَ تخافين عليهم ؛ وأنا وليُّهم في الدُّنيا والآخرة؟!» [أحمد (١/ ٢٠٤)][٣] .

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ خطَّه رسولُ الله ﷺ لرعاية ، وتكريم أبناء الشُّهداء ؛ لكي تسير الأمَّة على نهجه الميمون[٤] .

ج- زواج أبي بكرٍ الصِّدِّيق من أسماء بنت عميس :

وبعد أن انقضت عدَّة أسماء بنتِ عُمَيْسٍ ، خطبها أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ،

---

(١) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٦٨ .
(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٢٥٢) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ٤٣٠) .

فتزوَّجها ، وولدت له محمَّد بن أبي بكرٍ ، وبعدما توفي الصِّدِّيق تزوَّجها بعده عليُّ بنُ أبي طالبٍ ، وولدت له أولاداً رضي الله عنه ، وعنهم أجمعين[(١)] .

وقد ذكر ابن كثيرٍ : أنَّ أسماء بنتَ عُمَيْسٍ رَثَتْ زوجها جعفر بن أبي طالب بقصيدةٍ تقول فيها :

فَـآلَيْـتُ لاَ تَـنْـفَـكُّ نَفْسِـي حَـزِيْنَـةً ... عَلَيْـكَ وَلاَ يَـنْـفَـكُّ جِلْـدِي أَغْبَـرا
فَلِلَّـهِ عَيْنـا مَـنْ رأىٰ مِثْلَـهُ فَتَـىً ... أَكَـرَّ وأَحْمَـرَ فـي الهِيَـاجِ وأَصْبَـرَا[(٢)]

٥ ـ مِنْ فقه القيادة :

إنَّه درسٌ عظيمٌ يقدِّمه لنا الصَّحابيُّ الجليل ثابت بنُ أقرم العجلانيُّ عندما أخذ اللِّواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة رضي الله عنه آخرِ الأمراء ، وذلك أداءً منه للواجب ؛ لأنَّ وقوع الرَّاية معناه : هزيمةُ الجيش ، ثمَّ نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً ، وفي زحمة الأحداث قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعلٍ ، فاصطلح النَّاس على خالدٍ .

وفي روايةٍ : أنَّ ثابتاً مشى باللِّواء إلى خالدٍ ، فقال خالدٌ : لا آخذه منك ، أنت أحقُّ به ، فقال : والله! ما أخذته إلا لك .

إنَّ مضمون كلتا الرِّوايتين واحدٌ ، وهو أنَّ ثابتاً جمع المسلمين أوَّلاً ، وأعطى القوس باريها ، فأعطى الرَّاية أبا سليمان خالد بن الوليد[(٣)] ، ولم يقبل قول المسلمين : أنت أميرنا ؛ ذلك : أنَّه يرى فيهم مَنْ هو أكفأ منه لهذا العمل ، وحينما يتولَّى العملَ مَنْ ليس له بأهلٍ ، فإنَّ الفساد متوقَّعٌ ، والعمل حينما يكون لله تعالى ، لا يكون فيه أثرٌ لحبِّ الشُّهرة ، أو حظِّ النَّفس .

إنَّ ثابتاً لم يكن عاجزاً عن قيادة المسلمين ـ وهو ممَّن حضر بدراً ـ ولكنَّه رأى من الظُّلم أن يتولَّى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه ، حتَّى ولو لم يمضِ على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر ؛ لأنَّ الغاية هي السَّعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن ، والطريقة المُثْلَى[(٤)] .

إنَّ كثيراً ممَّن يتزعَّمون قيادة الدَّعوة الإسلاميَّة اليوم يضعون العراقيل أمام الطَّاقات الجديدة ، والقُدرات الفذَّة ، خوفاً على مكانتهم القياديَّة ، وامتيازاتهم الشَّخصية ، وأطماعهم الدُّنيوية ، فعلى أولئك القادة أن يتَّعظوا من هذا الدَّرس البليغ لمن كان له قلب ، أو ألقى السَّمع وهو شهيد .

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥٣) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/ ١٢٤) .
(٤) انظر : من معين السيرة ، للشَّامي ، ص ٣٧٦ .

٦ ـ درس نبوي في احترام القيادة:

قال عوف بن مالكٍ الأشجعيُّ رضي الله عنه: خرجت مع مَنْ خرج مع زيد بن حارثة في غزوة مؤتة ، ورافقني مَدَدِيٌّ من اليمن[(١)] . . . . ومضينا ، فلقينا جموع الرُّوم ، فيهم رجلٌ على فرسٍ له أشقر ، عليه سرجٌ مذهَّب ، وله سلاحٌ مذهَّب ، فجعل الرُّومي يضرب المسلمين ، فقعد له المَدَدِيُّ خلف صخرةٍ ، فمرَّ به الرُّومي فعرقب فرسه بسيفه ، وفر الرُّومي ، فعلاه بسيفه ، فقتله ، وحاز فرسه ، وسلاحه ، فلمَّا فتح الله للمسلمين؛ بعث إليه خالد بن الوليد فأخذ منه بعض السَّلب ، قال عوف: فأتيت خالداً ، وقلت له: أما علمت: أنَّ رسول الله ﷺ قضى بالسَّلب للقاتل؟ قال: بلى! ولكني استكثرتُه ، قلت: لتردَّنها إليه ، أو لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ، فأبى أن يردَّ عليه .

قال عوف: فاجتمعنا عند رسول الله ، فقصصت عليه قصَّة المدديِّ وما فعل خالدٌ ، فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد! ما حملك على ما صنعت؟» قال: استكثرته ، فقال: «ردَّ عليه الَّذي أخذتَ منه» .

قال عوف: فقلت: دونكها يا خالد! ألم أوف لك؟ فقال رسول الله ﷺ: «وما ذلك؟» فأخبرتُه ، قال: فغضب رسول الله ﷺ ، وقال: «يا خالد لا تردَّ عليه ، هل أنتم تاركون لي أُمَرَائِي؟ لكم صَفْوَةُ أمرهم ، وعليهم كَدَرُه» . [أحمد (٦/ ٢٧) ، ومسلم (١٧٥٣) ، وأبو داود (٢٧١٩ و٢٧٢٠)] .

هذا موقفٌ عظيمٌ من النَّبيِّ ﷺ في حماية القادة ، والأمراء من أن يتعرَّضوا للإهانة بسبب الأخطاء الَّتي قد تقع منهم ، فهم بشر معرَّضون للخطأ ، فينبغي السَّعي في إصلاح خطئهم من غير تنقُّصٍ ، ولا إهانةٍ ، فخالد حين يمنع ذلك المجاهد سلبه لم يقصد الإساءة إليه ، وإنَّما اجتهد ، فغلَّب جانب المصلحة العامَّة؛ حيث استكثر ذلك السَّلَب على فردٍ واحد ، ورأى: أنَّه إذا دخل في الغنيمة العامَّة؛ نفع عدداً أكبر من المجاهدين ، وعوف بن مالكٍ أدَّى مهمَّته في الإنكار على خالدٍ ، ثمَّ رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ حينما لم يقبل خالد قوله ، وكان المفترض أن تكون مهمَّته قد انتهت بذلك؛ لأنَّه ـ والحال هذه ـ قد دخل في أمرٍ من أوامر الإصلاح ، وقد تمَّ الإصلاح على يده ، ولكنَّه تجاوز هذه المهمَّة حيث حوَّل القضيَّة من قضيةٍ إصلاحيَّةٍ إلى قضيَّةٍ شخصيَّةٍ ، فأظهر شيئاً من التَّشفِّي من خالدٍ ، ولم يقرَّه النَّبيُّ ﷺ على ذلك ، بل أنكر عليه إنكاراً شديداً ، وبيَّن حقَّ الولاة على جنودهم ، وكون النَّبيِّ ﷺ أمر خالداً بعدم ردِّ السَّلب على صاحبه لا يعني أنَّ حقَّ ذلك المجاهد قد ضاع؛ لأنَّه لا يمكن أن يأخذ رسول الله ﷺ إنساناً بجريرة

(١) مدَديٌّ أي: جاء مدداً ، وفي رواية: رجل من حمير .

غيره ، فلابدَّ: أنَّ ذلك المجاهد قد حصل منه الرِّضا ، إمَّا بتعويضٍ عن ذلك السَّلَب ، أو بتنازلٍ منه ، أو غير ذلك فيما لم يُذكر تفصيلُه في الخبر(١) .

إنَّ الأمَّة الَّتي لا تقدِّر رجالها ، ولا تحترمهم لا يمكن أن يقوم فيها نظامٌ ، إنَّ التَّربية النَّبويَّة استطاعت بناء هذه الأمَّة بناءً سليماً ، وما أحرى المسلمين اليوم أن يكون كل إنسانٍ في مكانه ، وأن يُحترم ، ويُقدَّر بمقدار ما يقدِّم لهذا الدِّين! ويبقى الجميع بعد ذلك في الإطار العامِّ الَّذي وصف الله به المؤمنين: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤] .

وفي قوله ﷺ: «هل أنتم تاركون لي أُمَرائي؟!» وسامٌ آخرُ يُضاف إلى خالدٍ رضي الله عنه ، حيث عُدَّ من أمراء الرَّسول ﷺ ، وهذا من المنهاج النَّبويِّ الكريم في تقدير الرِّجال(٢) .

٧ ـ مقاييس الإيمان ، وأثرها في المعارك:

توقَّف الجيشُ الإسلاميُّ في مَعَان يناقش كثرة جيش العدوِّ ، وكانت المقاييس المادِّيَّة لا تشجعهم على خوض المعركة ، ومع ذلك تابعوا طريقهم ، ودخلوا بمقاييس إيمانيَّة ، فهم قد خرجوا يطلبون الشَّهادة ، فلماذا إذاً يفرُّون ممَّا خرجوا لطلبه؟!

قال زيد بن أرقم: كنت يتيماً لعبد الله بن رواحة في حجره ، فخرج بي في سفره ذلك مُردفي على حقيبة رَحْلِهِ ، فوالله: إنَّه ليسير ليلةً؛ إذ سمعته ينشد أبياتاً منها:

وَجَاءَ المُسْلِمُونَ وَغَادَرُونِي ... بِأَرْضِ الشَّامِ مُشْتَهَى الثَّوَاءِ

فلمَّا سمعتُها منه بَكَيْتُ ، قال: فخفقني بالدِّرَّةِ ، وقال: وما عليك يا لُكَعُ أن يرزقني الله الشَّهادة ، وترجعَ بين شُعْبَتَي الرَّحل!(٣) .

إنَّ التأمُّل بعمقٍ في غزوة مؤتة يساعدنا في معالجة الهزيمة النَّفسيَّة والرُّوحيَّة؛ الَّتي تمرُّ بها الأمَّة ، وإقامة الحجَّة على القائلين بأنَّ سبب هزيمتنا التفوُّق التِّكنولوجي لدى الأعداء ، لقد سجل ابن كثير رأيه في هذه المعركة ، وقال: « . . . . هذا عظيمٌ جدّاً أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدِّين؛ أحدُهما ، وهو الفئة الَّتي تقاتل في سبيل الله ، عدَّتها ثلاثةُ آلافٍ ، وأخرى كافرةٌ وعدَّتها مئتا ألف مقاتلٍ ، من الرُّوم مئة ألف ، ومن نصارى العرب مئة ألفٍ ، يتبارزون ، ويتصاولون ، ثمَّ مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلاَّ اثنا عشر رجلاً ، وقد قتل من المشركين

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/ ١٣٠) .
(٢) انظر: من معين السيرة ، ص ٣٧٨ .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٢٤ ، ٢٥) .

خلقٌ كثيرٌ ، هذا خالدٌ وحده يقول : لقد اندقَّت في يدي يوم مؤتة تسعةُ أسيافٍ ، فما بقي في يدي إلا صفيحةٌ يمانيةٌ ، فيا ترى كم قتل بهذه الأسياف كلِّها؟! دع غيره من الأبطال والشُّجعان من حملة القرآن ، وقد تحكَّموا في عبدة الصُّلبان عليهم لعائن الله في ذلك الزَّمان ، وفي كلِّ أوان»[1] .

٨ ـ من شعر كعب بن مالك في بكاء قتلى مؤتة :

حيث قال :

فِـيْ لَيْلَـةٍ ورَدَتْ عَلَـيَّ هُمُـومُهَـا ... طَـوْراً أحِـنُّ[2] وتَـارَةً أَتَمَلْمَـلُ[3]
واعْتَـادَنِـي حُـزنٌ فَبِـتُّ كَـأَنَّنِـي ... بِبَنَـاتِ نَعْـشٍ والسِّمَـاكِ مُـوَكَّـلُ[4]
وكَـأَنَّمَـا بَيْـنَ الجَـوَانِـحِ والحَشَـىٰ ... مِمَّـا تَـأَوَّبَنِـي شِهَـابٌ مُـدْخَـلُ[5]
وَجْـداً عَلَـى النَّفَـرِ الَّـذِيـنَ تَتَـابَعُـوا ... يَـوْمَـاً بِمُـؤْتَـةَ أُسْنِـدُوا لَـمْ يُنْقَلُـوا
صَلَّـى الإلَـٰـهُ عَلَيْهِـمُ مِـنْ فِتْيَـةٍ ... وَسَقَـى عِظَـامَهُـمُ الغَمَـامُ المُسْبِـلُ[6]
صَبَـرُوا بِمُـؤْتَـةَ لـلإلَـٰـهِ نُفُـوسَهُـمْ ... حَـذَرَ الـرَّدى ومَخَـافَـةً أن يَنْكُلُـوا[7]
فَمَضَـوْا أَمَـامَ المُسْلِمِيْـنَ كَـأَنَّهُـمْ ... فُنُـقٌ[8] عَلَيْهِـنَّ الحَـدِيْـدُ المُـرْفَـلُ[9]
إِذْ يَهْتَـدُوْنَ بِجَعْفَـرٍ وَلِـوَائِـهِ ... قُـدَّامَ أَوَّلِهِـمْ فَنِعْـمَ الأَوَّلُ
حَتَّـى تَفَـرَّجَـتِ الصُّفُـوفُ وَجَعْفَـرٌ ... حَيْـثُ الْتَقَـى وَعْـثُ الصُّفُـوفِ مُجَـدَّلُ
فَتَغَيَّـرَ القَمَـرُ المُنِيْـرُ لِفَقْـدِهِ ... والشَّمْـسُ قَـدْ كَسَفَـتْ وكَـادَتْ تَـأْفِلُ[10]

هذه بعض الأبيات التي بكى بها مالك بن كعب شهداء مؤتة ، ولم يتغيَّب حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن نظم القصائد في بكاء قتلى مؤتة ، وبكاء جعفر بن أبي طالبٍ ، وزيدِ بن حارثة ، وعبد الله بن رواحة ، فقد كانت المؤسَّسة الإعلاميَّة تقوم بدورها بتفوُّقٍ وجدارةٍ ، وتتعبَّد المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ بما خصَّها به من مَلَكَاتٍ ومواهبَ شعريَّةٍ فذَّةٍ .

* * *

---

(١) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٢٥٩) .
(٢) أحنُّ : من الحنين ، وفي رواية : أخنُّ : صوت يخرج من الأنف عند البكاء .
(٣) أتململ : أتقلب متبرماً بمضجعي .
(٤) يريد : أنَّه بات يرعى النُّجوم طول ليله من طول السُّهاد .
(٥) المدخل : النافذ إلى الدَّاخل .
(٦) المسبل : الممطر .
(٧) صبروا نفوسهم : حبسوها على ما يريدون ، ينكلوا : يرجعوا خائبين .
(٨) فُنُق : الفحول من الإبل .
(٩) المُرْفَل : الَّذي تنجرُّ أطرافه على الأرض ، يريد أن دروعهم سابغة .
(١٠) تأفِلُ : تغيب ، انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٣٣ ، ٣٤) .

المبحث الخامس
سريَّة ذات السَّلاسل

لَمْ تَمضِ سوى أيَّام على عودة الجيش من مؤتة إلى المدينة حتَّى جهَّز النَّبيُّ ﷺ جيشاً بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السَّلاسل ؛ وذلك لتأديب قُضاعة التي غرَّها ما حدث في مؤتة ، والَّتي اشتركت فيها إلى جانب الرُّوم ، فتجمَّعت تريد الدُّنوَّ من المدينة ، فتقدَّم عمرو بن العاص في ديارها ، ومعه ثلاثمئةٍ من المهاجرين والأنصار ، ولما وصل إلى مكان تجمُّع الأعداء بلغه : أنَّ لهم جموعاً كثيرة ، فأرسل إلى رسول الله ﷺ يطلب المدد ، فجاءه مددٌ بقيادة أبي عبيدة بن الجرَّاح[١] ، وقاتل المسلمون الكفَّار ، وتوغَّل عمرو في ديار قُضاعة الَّتي هربت ، وتفرقت ، وانهزمت ، ونجح عمرو في إرجاع هيبة الإسلام لأطراف الشَّام ، وإرجاع أحلاف المسلمين لصداقتهم الأولى ، ودخول قبائل أخرى في حلف المسلمين وإسلام الكثيرين من بني عبس ، وبني مُرَّة ، وبني ذبيان ، وكذلك فزارة وسيِّدها عيينة بن حصن في حلفٍ مع المسلمين ، وتبعها بنو سُلَيم ، وعلى رأسهم العبَّاس بن مرداس ، وبنو أشجع ، وأصبح المسلمون هم الأقوى في شمال بلاد العرب ؛ وإن لم يكن في بلاد العرب جميعها[٢] .

دروسٌ ، وعبرٌ ، وحكَمٌ :

وفي هذه السرية دروس وعبر وحكم منها :

١ ـ إخلاص عمرو بن العاص رضي الله عنه :

قال عمرو بن العاص : بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال : «خُذْ عليك ثيابك ، وسلاحَك ، ثمَّ ائتني» فأتيتُه ، وهو يتوضَّأ ، فصعَّد فيَّ النَّظر ، ثمَّ طأطأ ، فقال : «إنِّي أريد أن أبعثك على جيشٍ[٣] ، فيسلِّمك اللهُ ، ويغنمك ، وأرغب لك في المال رغبةً صالحة» ، قال : قلت : يا رسول الله! ما أسلمتُ من أجل المال ، ولكنِّي أسلمتُ رغبةً في الإسلام ، وأن أكون مع

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٤٧١) .

(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ٤٣٣) .

(٣) جيش سريَّة ذات السَّلاسل .

رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ . «يا عمرو! نعم المال الصَّالح للمرء الصَّالح». [أحمد (٤/ ١٩٧) ، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) ، وابن حبان (٣٢١١) ، والحاكم (٢/ ٢) و(٢/ ٢٣٦)].

فهذا الموقف يدلُّ على قوَّة إيمان ، وصدق ، وإخلاص عمرو بن العاص للإسلام وحرصه على ملازمة رسول الله ﷺ ، وقد بيَّن له رسولُ الله ﷺ : أنَّ المال الحلال نعمةٌ إذا وقع بيد الرَّجل الصَّالح ؛ لأنه يبتغي به وجه الله ، ويصرفه في وجوه الخير ، ويَعِفُّ به نفسه ، وأسرته[١] .

٢ ـ الاتِّحاد قوَّةٌ ، والتَّنازع ضعفٌ:

عندما وصل المدد الَّذي بعثه رسول الله ﷺ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح لجيش عمرو في ذات السَّلاسل ، أراد أبو عبيدة أن يؤمَّ الناس ، ويتقدَّم عَمْراً ، فقال له عمرو: إنَّما قَدِمْتَ عليَّ مدداً لي ، وليس لك أن تؤمَّني ، وأنا الأمير ، وإنَّما أرسلك النَّبيُّ ﷺ إليَّ مدداً ، فقال المهاجرون: كلاَّ ، بل أنت أمير أصحابك ، وهو أمير أصحابه ، فقال عمرو: لا ، بل أنتم مددٌ لنا ، فلمَّا رأى أبو عبيدة الاختلاف ـ وكان حَسَنَ الخلق ، ليِّن الطَّبع ـ قال: لتطمئنَّ يا عمرو! ولتعلمنَّ: أنَّ آخر ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ أن قال: «إذا قدمت على صاحبك ، فتطاوعا ، ولا تختلفا» ، وإنَّك والله إن عصيتني ؛ لأطيعنَّك ، فأطاع أبو عبيدة ، فكان عمرو يصلِّي بالنَّاس[٢] .

لقد أدرك أبو عبيدة رضي الله عنه أنَّ أيَّ اختلافٍ بين المسلمين في سريَّة ذات السَّلاسل يؤدِّي إلى الفشل ، ومِنْ ثَمَّ تغلُّب العدو عليهم ، ولهذا سارع إلى قطع النِّزاع ، وانضمَّ جندياً تحت إمرة عمرو بن العاص امتثالاً لأمر الرَّسول ﷺ : «لا تختلفا»[٣] .

٣ ـ حرص عمرو بن العاص على سلامة قوَّاته:

ظهرت عبقرية عمرو العسكريَّة في ذات السَّلاسل في حرصه على وحدة الصَّفِّ ، وفي حرصه على سلامة قوَّاته ، ويتجلَّى ذلك في عدَّة صورٍ ؛ منها:

أ ـ أنَّه كان يسير ليلاً ، ويختفي نهاراً:

كان عمرو يدرك بثاقب بصره ، وبُعْد نظره: أنَّ العدوَّ يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره قبل اللقاء بينهما ، فيستعدَّ للقاء جيش المسلمين ، ولهذا رأى عمرو رضي الله عنه أن السَّير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على قوَّاته ، وحقَّق بذلك أمرين مُهَمَّين:

* إخفاء تحرُّكاته عن عدوِّه ، وبذلك يضمن سلامة قوَّاته .

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٧/ ١٣٣).

(٢) انظر: مغازي رسول الله ﷺ لعروة ، ص ٢٠٧ ، وأسانيدها ضعيفةٌ ، والبداية والنِّهاية لابن كثير غزوة ذات السَّلاسل.

(٣) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢٠٩ .

* حماية الجند من شدَّة الحرِّ ، وحتَّى يبقى لهم نشاطُهم ، فيَصِلُون إلى مكان المواجهة؛ وهم أقوياء على مجابهة أعدائهم .

ب ـ عدم السَّماح للجند بإيقاد النَّار :

عندما طلب الجنود من عمرو أن يسمح لهم بإيقاد النَّار لحاجتهم الماسَّة إلى التَّدفئة؛ منعهم من ذلك؛ معتمداً في ذلك على خبرته الحربيَّة ، وعمق فكره العسكريِّ ، وخوفاً من وقوع مفسدةٍ أعظم من تلك المصلحة ، وهي أن يمتدَّ الضَّوء ، فيكشف المسلمين ـ وهم قلَّة ـ لأعدائهم ، فيهجموا عليهم ، ويتجلَّى هذا الفقه في حزمه الشديد مع أصحابه عندما كلَّمه أبو بكر في ذلك ، فقال: لا يوقد أحدٌ منهم ناراً إلا قذفته فيها ، فلمَّا رجعوا إلى المدينة ، ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فسأله رسول الله ﷺ ، فقال: كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً ، فيرى عدوُّهم قلَّتهم[1] .

فأقرَّه النَّبيُّ ﷺ على فعله .

ج ـ منع الجند من مطاردة أعدائهم :

عندما هزم المسلمون أعداءهم؛ طمعوا فيهم ، فأرادوا مطاردتهم ، وتتبُّع فلولهم، ولكنَّ قائد السَّريَّة منع جنده من ذلك؛ لئلا يترتَّب على هذه المطاردة مفسدةٌ أعظم منها ، وهي أن يقع المسلمون في كمين ، ويتجلَّى هذا الفقه في قول عمرو بن العاص رضي الله عنه للرَّسول ﷺ : وكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد[2] ، فأقرَّه النَّبيُّ ﷺ على هذا التَّصرُّف الحكيم؛ الَّذي حقَّق للجيش الأمن والحماية[3] .

٤ ـ من فقه عمرو بن العاص رضي الله عنه :

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه: احتلمت في ليلةٍ باردةٍ في غزوة ذات السَّلاسل ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فتيمَّمت ، ثمَّ صلَّيت بأصحابي الصُّبح ، فذكروا ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال: يا عمرو! صليت بأصحابك وأنت جنب؟! فأخبرته بالَّذي منعني من الاغتسال ، وقلت: إنِّي سمعت الله يقول: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً . [أحمد (٤/٢٠٣ ـ ٢٠٤) وأبو داود (٣٣٤)][4] .

وقد استنبط بعض الأحكام من هذه القصَّة :

أ ـ التَّيمُّم يقوم مقام الغُسل بالنِّسبة للجُنُبِ مع وجود الماء؛ إذا خشي أن يؤدِّي استخدامُ الماء

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٠٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٥٤٠ .
(٤) انظر: صحيح السيرة النَّبوية ، ص ٥٠٩ ، وقال إبراهيم العلي: الحديث إسناده صحيح .

إلى الضَّرر ، فلقد تيمَّم عمرو بن العاص لمَّا أصبح جنباً مع وجود الماء عنده ، وصلَّى وأقرَّه الرَّسول ﷺ ، ولم ينكر عليه.

ب - يجوز الاجتهاد في عهده ﷺ : فقد اجتهد عمرو بن العاص ، فتوضَّأ ، واغتسل ، وصلَّى ، وقد احتلم في تلك اللَّيلة الباردة اعتماداً على قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فلم ينكر عليه الرَّسول ﷺ اجتهاده؛ بل أقرَّه على أمرين: الأوَّل: جواز الاجتهاد. والثَّاني: تصحيح اجتهاده.

ج - من الأسباب المبيحة للتَّيمُّم تعذُّر استخدام الماء - وإنْ وجد - للبرد الشَّديد.

د - تجوز إمامة المتيمِّم بالمتوضِّئ: فقد صلى عمرو بن العاص؛ وهو مُتيَمِّمٌ إماماً بخمسمئة صحابي قد توضَّؤوا ، وأقرَّه الرَّسول ﷺ على ذلك ولم ينكر عليه.

هـ - اجتهاد عمرو بن العاص يدلُّ على فقهه ، ووفور عقله ، ودقَّة استنباطه الحكم من دليله[1]؛ ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرِّعون عليها الأحكام ، فإنَّ الَّذي يستوقفنا[2] في السِّيرة منها تلك السُّرعة في أخذ عمرو للقرآن ، وصلته به؛ حتى بات قادراً على فقه الأمور من خلال الآيات ، وهو لم يمضِ على إسلامه أربعة أشهر ، إنَّه الحرص على الفقه في دين الله ، وقد يكون عمرو - وهذا احتمال واردٌ - على صلةٍ بالقرآن قبل إسلامه يتتبَّع ما يستطيع الوصول إليه ، وحينئذٍ نكون أمام مثالٍ آخر من عظمة هذا القرآن الَّذي لوى أعناق الكافرين ، وجعلهم وهم في أشدِّ حالات العداوة لهذا الدِّين يحاولون استماع هذا القرآن ، كما رأينا ذلك في العهد المكِّيِّ ، ويؤيد هذا ما رأيناه من معرفته بالقرآن حينما طلب من النَّجاشيِّ أن يسأل مهاجري الحبشة عن رأيهم في عيسى عليه السلام[3].

٥ - من نتائج سرايا رسول الله ﷺ في الشَّمال:

اتَّجهت حملات المسلمين العسكريَّة بعد صلح الحديبية نحو الشَّمال ، وأصبح غرب الجزيرة وجنوبُها الغربيُّ حيث تقبع مكَّة آمنةً في ظلال الصُّلح[4] ، وحقَّقت سرايا رسول الله ﷺ ، أهدافها ، ومقاصدها في شمال الجزيرة ، فوصلت إلى حدود الرُّوم ، فأمَّنت حدود الدَّولة الإسلاميَّة ، وبسطت هيبتها ، وأفشلت محاولات الإغارة على المدينة ، وبذلك حقَّقت سياسة النَّبيِّ ﷺ في حركة السَّرايا هدفين عظيمين هما:

---

(١) انظر: غزوة الحديبية ، لأبي فارس ، ص ٢١٠.
(٢) القائل هو: صالح أحمد الشَّامي ، صاحب (من معين السِّيرة) ، ص ٣٨١.
(٣) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٨١.
(٤) انظر: المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٧٠.

١ ـ تأمين حماية الدِّين الإسلاميِّ في الدَّاخل .

٢ ـ حمايته في الخارج[١] .

وما مِنْ شكٍّ في أنَّ المتتبِّع لأحداث السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفة ، والمطَّلع على تفاصيلها ، ودقائقها بإمعانٍ يجد بحقٍّ أنَّ صلح الحديبية هو من أهم المكاسب السِّياسيَّة ، والعسكرية ، والإعلاميَّة ، بل هو حصيلة كسبٍ لأعظم معركةٍ دارت بين الإسلام والوثنية في العهد النبوي ، من حيث النتائج الإيجابيَّة التي رسَّخت دعائم الإسلام من جهةٍ ؛ وصدَّعت بفعلها قواعد الشِّرك ، والوثنيَّة من جهةٍ أخرى ، وما حدث في خيبر من فتوحٍ ، وفي مؤتة من نصرٍ ، وفي ذات السَّلاسل من توسيع هيبة الدولة الإسلاميَّة إلا نتائج تابعةٌ لصلح الحديبية[٢] ، وبسبب القدرة الفائقة في تعامل النَّبيِّ ﷺ مع سنن الله في المجتمعات ، والشُّعوب ، وبناء الدُّول .

* * *

(١) الإعلام في صدر الإسلام ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، ص ١٧٣ .

(٢) انظر : منهج الإعلام الإسلامي ، ص ٣٣٧ .

الفصل الخامس عشر
غزوة فتح مكَّة (٨ هـ)[١]

المبحث الأوَّل
أسبابها، والاستعداد للخروج والشُّروع فيه

أوَّلاً: أسبابها:

١ ـ ارتكبت قريش خطأً فادحاً عندما أعانت حلفاءها بني بكرٍ على خُزاعة حليفة المسلمين بالخيل، والسِّلاح، والرِّجال، وهجم بنو بكرٍ، وحلفاؤهم على قبيلة خُزاعة عند ماءٍ يقال له: الوَتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها[٢]، ولمَّا لجأت خُزاعة إلى الحرم الآمن، ولم تكن متجهِّزةً للقتال، لتمنع بني بكرٍ منه؛ قالت لقائدهم: يا نوفل! إنَّا قد دخلنا الحرم، إلٰهك، إلٰهك! فقال نوفل: لا إلٰه اليوم، يا بني بكر! أصيبوا ثأركم[٣]، عندئذٍ خرج عمرو بن سالم الخُزاعيُّ في أربعين من خُزاعة، حتَّى قدموا على رسول الله ﷺ في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكرٍ، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريشٍ بني بكرٍ عليهم، ووقف عمرو بن سالم على رسول الله ﷺ وهو جالسٌ في المسجد بين ظهراني النَّاس، فقال:

يَا رَبِّ إنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدَا ... حِلْفَ أَبِيْنَا وأَبِيْهِ الأَتْلَدَا
قَدْ كُنْتُمْ وُلْداً، وَكُنَّا وَالِدا ... ثُمَّتَ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يدا[٤]
فانْصُرْ هَدَاكَ الله نَصْراً أَعْتَدَا ... وادْعُ عِبَادَ الله يأْتُوا مَدَدَا
فِيْهِمْ رَسُولُ الله قَدْ تَجَرَّدا ... إنْ سِيْم خَسْفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدَا
فِيْ فَيْلَقٍ كالبَحْرِ يَجْرِي مُزبِدَا ... إنَّ قُرَيْشاً أَخْلَفُوكَ المَوْعِدَا
ونقَضُوا مِيْثَاقَكَ المُؤَكَّدا ... وجَعَلُوا لي في (كَدَاءٍ) رُصَّدا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أدْعُو أحدَا ... وَهُمْ أَذَلُّ وأَقَلُّ عَدَدَا

---

(١) ينظر الشكل (١٧) في الصفحة (٦٢١).
(٢) انظر: الواقدي (٢/ ٧٨١ ـ ٧٨٤).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ٣٩)، والبداية والنِّهاية، لابن كثير.
(٤) يريد: أنَّ أم عبد مناف، وأمَّ قصير خزاعيتان.

هُـمْ بَيَّتُـونَـا بـالـوَتِيْـرِ هُجَّـدًا وقَتَلُـونَـا رُكَّعـاً وسُجَّـدَا

فقال النبي ﷺ: «نُصرتَ يا عمرو بن سالم! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب!» ولمَّا عرَض السَّحاب مِنَ السَّماء؛ قال: «إنَّ هذه السَّحابة لتستهلُّ بنصر بني كعبٍ». [البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤)، وفي الدلائل (٥/ ٦ ـ ٧)، وابن هشام (٤/ ٣٦ ـ ٣٧)، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٧٨)].

وجاء في روايةٍ: أنَّ رسول الله ﷺ بعد أن سمع، وتأكَّد من الخبر؛ أرسل إلى قريش، فقال لهم: «أما بعد: فإنَّكم إنْ تبرؤوا من حلف بني بكرٍ، أتُدوا خُزاعة[1]، وإلا أوذنكم بحربٍ، فقال قرظة بن عبد عمروٍ بن نوفل بن عبد منافٍ صهر معاوية: إنَّ بني بكرٍ قومٌ مشائيم، فلا ندري ما قتلوا لنا سبَدَ، ولا لَبَد[2]، ولا نبرأ من حلفهم، فلم يبقَ على ديننا أحدٌ غيرهم، ولكن نؤذنه بحربٍ[3].

وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ لم يفاجئ قريشاً بالحرب، وإنَّما خيَّرهم بين هذه الخصال الثلاث فاختاروا الحرب[4].

٢ ـ أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش:

بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصُلح، وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة، ودخل على رسول الله ﷺ يعرض حاجته؛ أعرض عنه النَّبيُّ ﷺ، ولم يجبه، فاستعان بكبار الصَّحابة أمثال أبي بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعليٍّ؛ حتَّى يتوسطوا بينه وبين رسول الله ﷺ، فأبوا جميعاً، فعاد أبو سفيان إلى مكَّة من غير أن يحظى بأيِّ اتفاقٍ، أو عهدٍ[5]، وممَّا يذكر عند نزوله في المدينة أنَّه لمَّا دخل على ابنته أمِّ حبيبة ـ أمِّ المؤمنين ـ وأراد أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ؛ طوته عنه، فقال: يا بنية! ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عنِّي؟ قالت: بل هذا فراش رسول الله ﷺ، وأنت مشركٌ نجس! قال: والله! لقد أصابك بعدي شرٌّ[6].

وهذا الموقف لا يستغرب من أمِّ حبيبة، فهي ممَّن هاجر الهجرتين، وقد قطعت صِلاتِها

---

(١) أي: تدفعوا دية قتلاهم.
(٢) السَّبد: الشَّعر، واللَّبد: الصُّوف، يعني: إن فعلنا ذلك؛ لم يبق لنا شيء.
(٣) انظر: المطالب العالية (٤/ ٢٤٣) رقم ٤٣٦١، قال ابن حجر: مرسل صحيح الإسناد.
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ١٦٤).
(٥) انظر: التَّاريخ السِّياسي والعسكري، د. علي معطي، ص ٣٦٥.
(٦) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٤٧٩)، والإصابة، لابن حجر، ومحمَّد ﷺ، لمحمَّد رضا (غزوة فتح مكة).

بالجاهليَّة منذ أمدٍ بعيد ، إنَّها لم ترَ أباها منذ ستَّ عشرة سنة ، فلمَّا رأته لم تر فيه الوالد الَّذي ينبغي أن يُقدَّر ، ويُحترم ، وإنَّما رأت فيه رأس الكفر الَّذي وقف في وجه الإسلام ، وحارب رسوله ﷺ تلك السَّنوات الطَّويلة[١] ، وهذا ما كان يتَّصف به الصَّحابة رضي الله عنهم من تطبيق أحكام الإسلام في الولاء ، والبراء ، وإعزاز الإسلام ، والمسلمين .

وفي مخاطبة أمِّ حبيبة لأبيها بهذا الأسلوب ـ مع كونه أباها ، ومع مكانته العالية في قومه ، وعند العرب ـ دليلٌ على قوَّة إيمانها ، ورسوخ يقينها ، لقد كان في سلوك أمِّ حبيبة مظهرٌ من اجتهاد الصَّحابة البالغ في إظهار أمرٍ له أهمِّيَّته البالغة في المحافظة على شخصيَّة المسلم ، ودفع معنويَّته إلى النَّماء ، والحيويَّة[٢] .

وأمام نقض قريشٍ للعهود والمواثيق مع المسلمين ، فقد عزم رسولُ الله ﷺ على فتح مكَّة ، وتأديب كفَّارها ، وقد ساعده على ذلك العزم بعد توفيق الله عدَّة أسبابٍ ؛ منها :

أ ـ قوَّة جبهة المسلمين الدَّاخليَّة في المدينة ، وتماسكها ، فقد تخلَّصت الدَّولة الإسلامية من غدر اليهود ، وتمَّ القضاء على يهود بني قينقاع ، وبني النَّضير ، وبني قريظة ، ويهود خيبر .

ب ـ ضعف جبهة الأعداء في الدَّاخل ؛ وفي مقدِّمة هؤلاء : المنافقون ؛ الَّذين فقدوا الركن الرَّكين لهم ، وهو يهود المدينة ، فهم أساتذتهم الَّذين يوجِّهونهم ، ويشيرون عليهم .

ج ـ اهتمَّ رسول الله ﷺ بتطوير القوَّة العسكريَّة ، وإرسال السَّرايا في فترة الصُّلح ، وبذلك أصبحت متفوِّقةً على قوَّة مشركي قريش ، حيث العدد والعُدَّة ، والرُّوح المعنويَّة .

د ـ كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصادياً ، وبعد أن قويت الدَّولة الإسلاميَّة اقتصادياً ، فقد فتح المسلمون خيبر ، وغنموا منها أموالاً كثيرةً .

هـ ـ انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة ، وهذا يطمئن القيادة حين تتَّخذ قرارها العسكري بنقل قوَّاتها ، ومهاجمة أعدائها .

و ـ قيام السبب الجوهريِّ ، والقانونيِّ لغزو مكَّة ، وهو نقض قريش للعهد ، والعقد[٣] ، ونلحظ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يضيِّع قانون الفرصة ، وتعامَلَ معه بحكمةٍ بالغةٍ ، فكان فتح خيبر ، وذلك بعد صلح الحديبية ، والآن تُتاح فرصةٌ أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها ، وتغيَّرت موازين القوى في المنطقة ، فكان لابدَّ من الاستفادة من المُعْطيات الجديدة ، فأعدَّ ﷺ جيشاً لم

---

(١) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٣٩٥ .
(٢) انظر : التَّاريخ الإسلاميَّ (٧/ ١٧٠ ، ١٧١) .
(٣) انظر : السِّيرة ، لأبي فارس ، ص ٤٠١ .

تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل ، فقد وصلتْ عدَّته إلى عشرة آلاف رجلٍ[١] .

ثانياً: الاستعداد للخروج:

إنَّ حركة النَّبيِّ ﷺ في بناء الدَّولة، وتربية المجتمع، وإرسال السَّرايا ، وخروجه في الغزوات تعلِّمنا كيفيَّة التَّعامل مع سنَّة الأخذ بالأسباب ، سواءً كانت تلك الأسباب مادِّيَّة أو معنويَّةً ، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السُّنَّة واضحةً في هديه ﷺ ، فعندما قرَّر ﷺ السَّير لفتح مكة؛ حرص على كتمان هذا الأمر حتَّى لا يصل الخبر إلى قريش ، فتعد العدَّة لمجابهته ، وتصدُّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه ، وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة :

١ ـ أنَّه كتم أمره حتَّى على أقرب النَّاس إليه :

فقد أخذ النَّبيُّ ﷺ بمبدأ السِّرِّيَّة المطلقة ، والكتمان الشَّديد حتَّى عن أقرب النَّاس إليه ، وهو أبو بكر رضي الله عنه أقربُ أصحابه إلى نفسه ، وزوجتُه عائشة رضي الله عنها أحبُّ نسائه إليه ، فلم يعرف أحدٌ شيئاً عن أهدافه الحقيقية ، ولا اتِّجاه حركته ، ولا العدوُّ الَّذي ينوي قتاله ، بدليل أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مَقْصَدِ الرسول ﷺ قالت له: ما سمَّى لنا شيئاً ، وكانت أحياناً تصمت ، وكلا الأمرين يدلاَّن على أنَّها لم تعلم شيئاً عن مقاصده ﷺ[٢] .

ويستنبط من هذا المنهج النبوي الحكيم أنَّه ينبغي للقادة العسكريين أن يخفوا خططهم عن زوجاتهم؛ لأنهنَّ ربما يُذِعْنَ شيئاً من هذه الأسرار عن حسن نيَّةٍ ، فتتناقلها الألسن حتَّى تصير سبباً في حدوث كارثةٍ عظيمةٍ[٣] .

٢ ـ أنه بعث سريَّةً بقيادة أبي قتادة إلى بطن إِضَم :

بعث النَّبيُّ ﷺ قبل مسيره إلى مكَّة سَرِيَّةً مكوَّنةً من ثمانية رجال ، وذلك لإسدال السِّتار على نياته الحقيقيَّة ، وفي ذلك يقول ابن سعد: «لمَّا همَّ رسول الله ﷺ بغزو أهل مكَّة بعث أبا قتادة بن ربْعِي في ثمانية نفرٍ سَرِيَّةً إلى بطن إِضَم[٤] ، لِيَظُنَّ الظَّانُّ: أنَّ رسول الله ﷺ توجَّه إلى تلك النَّاحية ، فمضوا ، ولم يلقوا جمعاً ، فانصرفوا حتَّى انتهوا إلى ذي خُشُب[٥] ، فبلغهم: أنَّ

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٢/ ٢٤٤) ، والتَّاريخ السياسي والعسكري ، ص ٣٦٦ .

(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٨٢) ، والرَّسول القائد ﷺ ، لمحمود شيت خطاب ، ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٣) انظر: القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٤) بطن إِضَم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان ، وقناة ، والعقيق .

(٥) ذو خشب: هو موضع على مرحلة من المدينة إلى الشَّام يبعد عن المدينة ٣٥ ميلاً .

رسول الله ﷺ قد توجَّه إلى مكَّة ، فأخذوا على (بيبن) حتَّى لقُوا النَّبيَّ ﷺ بالسُّقيا[(١)]»[(٢)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر ، وسلوك ما يمكن من أساليب التَّضليل على الأعداء والإيهام ، الَّتي من شأنها صرف أنظار النَّاس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلاميَّة الَّتي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله ، حتى تُحقِّق أهدافها ، وتَسْلَم من كيد أعدائها[(٣)].

٣ ـ أنَّه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء :

بثَّ ﷺ رجال استخبارات الدَّولة الإسلاميَّة داخل المدينة ، وخارجها؛ حتَّى لا تنتقلَ أخبارُه إلى قريشٍ ، وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب[(٤)]، فكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب قيماً بهم ، فيقول : لا تَدَعُوا أحداً يمرُّ بكم تنكرونه إلا رددتموه ، إلا مَنْ سلك إلى مكَّة فإنَّه يُتحفَّظ به ، ويُسأل عنه ، أو ناحية مكَّة[(٥)].

إنَّ جَمْعَ المعلومات سلاحٌ ذو حدَّين ، وقد استفاد الرَّسول ﷺ من حدِّه النافع لصالح المسلمين ، وأبطل مفعول الحدِّ الآخر باتباعه السِّرِّيَّة ، واتخاذها أساساً لتحرُّكاته ، واستعداداته؛ ليحرم عدوه من الحصول على المعلومات الَّتي تفيده في الاستعداد لمجابهة هذا الجيش بالقوَّة المناسبة[(٦)].

٤ ـ دعاؤه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش :

وبعد أن أخذ رسول الله ﷺ بالأسباب البشريَّة الَّتي في استطاعته؛ توجَّه إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالدُّعاء والتَّضرُّع قائلاً : «اللَّهُمَّ! خذ على أسماعهم ، وأبصارهم فلا يَرَوننا إلا بغتةً ، ولا يسمعون بنا إلا فجأة» . [البيهقي في الدلائل (٥/ ١١)][(٧)].

وهذا شأن النَّبيِّ ﷺ في أموره يأخذ بجميع الأسباب البشريَّة ، ولا ينسى التَّضرُّع ، والدُّعاء لربِّ البريَّة؛ ليستمدَّ منه التَّوفيق والسَّداد .

---

(١) السُّقيا : موضع يقع في وادي القرى ، معجم البلدان (٣/ ٢٨٨).
(٢) انظر : الطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/ ١٣٢).
(٣) انظر : القيادة العسكرية ، ص ٤٩٨.
(٤) الأنقاب : جمع نقب ، وهو كالعريف على القوم.
(٥) التحفظ : هو الاحتراز والتَّيقُّظ ، مغازي الواقدي (٢/ ٧٩٦) ، ومحمَّد ﷺ ، لمحمَّد رضا.
(٦) انظر : القيادة العسكرية ، ص ٣٦٥.
(٧) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٢٨٢) ، ومحمَّد ﷺ (غزوة فتح مكة) ، لمحمَّد رضا.

٥ ـ إحباط محاولة تجسُّس حاطبٍ لصالح قريش:

عندما أكمل النَّبيُّ ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكَّة يخبرهم فيه نبأ تحرك النَّبيِّ ﷺ إليهم، ولكنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أطلع نبيَّه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرِّسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النَّبيُّ ﷺ عليّاً، والزُّبير، والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخٍ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهدَّدوها أن يفتِّشوها إن لم تُخرِج الكتاب؛ فسلَّمته لهم، ثمَّ استدعى حاطباً رضي الله عنه للتَّحقيق، فقال: يا رسول الله! لا تعجل عليَّ، إنِّي كنت امرأً مُلصَقاً في قريشٍ ـ يقول: كنت حليفاً ـ ولم أكن من أنفُسِها، وكان مَنْ معك من المهاجرين مَنْ لهم قراباتٌ يحمون بها أهليهم، وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النَّسب فيهم أن أتَّخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أما إنَّه قد صدقكم».

فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله! دعني أضربْ عنق هذا المنافق! فقال ﷺ: «إنَّه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على مَنْ شهد بدراً، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم[1]». [أحمد (١/ ٧٩ ـ ٨٠)، والبخاري (٣٩٨٣)، ومسلم (٢٤٩٤)].

فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

إنَّ الآية السَّابقة رسمت منهجاً للمسلمين في تعاملهم مع الكافرين، فمعنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾:

قال القرطبيُّ: السُّورة أصلٌ في النَّهي عن موالاة الكفار[1]، والمراد بهم: المشركون، والكفَّار الذين هم محاربون لله، ولرسوله، وللمؤمنين الَّذين شرع الله عداوتهم، ومصارمتهم، ونهى أن يُتَّخذوا أولياء، وأصدقاء[2].

وقوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تخبرونهم بسرائر المسلمين، وتنصحون لهم، وهم كافرون بنبيِّكم، وبقرآنكم الَّذي أنزله الله عليكم بالحقِّ الواضح.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ قال ابن كثير: هذا مع ما قبله من التَّهييج على عداوتهم، وعدم موالاتهم؛ لأنَّهم أخرجوا الرَّسول ﷺ وأصحابه من بين أظهركم

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٨/ ٥٢).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٦).

كراهةً لما هم عليه من التَّوحيد ، وإخلاص العبادة لله وحدَه ، ولهذا قال تعالى : ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي : لم يكن لكم عندهم ذنبٌ إلا إيمانكم بالله ربِّ العالمين[١] .

وقوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي : إن كنتم كذلك فلا تتَّخذوهم أولياء ، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم ؛ فلا توالوا أعدائي ، وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم ، وأموالكم حَنَقاً عليكم ، وسُخطاً لدينكم[٢] .

وقوله تعالى : ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ أي : تُسِرُّون إليهم بالنَّصيحة .

قال ابن كثير : أي : تفعلون ذلك ؛ وأنا العالم بالسَّرائر ، والضَّمائر ، والظواهر[٣] .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي : مَنْ يُسِرُّ لهم ويكاتِبُهم منكم فقد أخطأ قَصْدَ الطريق[٤] .

يقول أستاذي ، وشيخي الدكتور محمَّد بن بكر آل عابد : هذه الآية الكريمة نجدها تمهيداً بين يدي فتح مكَّة حيث حثَّ الله المسلمين على عدم موالاة الكفار ، حتى لا يتأثَّر المهاجرون بروابط الرَّحم ، والقربى ، والمصلحة المادِّيَّة التي كانت تربط كثيراً منهم بأهل مكَّة[٥] .

ويقول الأستاذ سيِّد قطب : على الرَّغم من كلِّ ما ذاق المهاجرون من العنت ، والأذى من قريش ؛ فقد ظلَّت بعض النُّفوس تودُّ لو وقعت بينهم وبين أهل مكَّة المحاسنة ، والمودَّة ، وأن لو انتهت هذه الخصومة القاسية الَّتي تكلِّفهم قتال أهليهم ، وذوي قرابتهم ، وتقطع ما بينهم ، وبينهم من صلاتٍ ، وكأنَّ الله يريد استقصاء هذه النُّفوس ، واستخلاصها من كلِّ هذه الوشائج ، وتجريدها لدينه ، وعقيدته ، ومنهجه . . . فكان يأخذهم يوماً بعد يوم بعلاجه النَّاجع البالغ ؛ بالأحداث ، وبالتَّعقيب على الأحداث ؛ ليكون العلاج على مسرح الأحداث ، وليكون الطَّرْقُ ؛ والحديدُ ساخنٌ[٦] .

إنَّ ما قام به حاطبٌ أمرٌ عظيمٌ ، ولذلك نزل القرآن الكريم يوجِّه المجتمع المسلم نحو ما يجب عليهم فعلُه نحو أعداء دينهم ، كما أنَّ النَّبيَّ ﷺ عامل حاطباً معاملةً رحيمةً تدلُّ على

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٣٤٧).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) انظر : تفسير القرطبي (١٨/ ٥٤).
(٥) انظر : حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٦٨ ، ٥٦٩).
(٦) انظر : في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٨).

حرصه الشَّديد على الوفاء لأصحابه ، وإقالة عثرات ذوي السَّوابق الحسنة منهم ، لقد جعل ﷺ من ماضي حاطب المجيد سبباً في العفو عنه .

وهذا منهجٌ نبويٌّ حكيمٌ ، فلم ينظر النَّبيُّ ﷺ إلى حاطب من زاوية مخالفته تلك فحسب ، وإن كانت كبيرةً ، وإنَّما راجع رصيده الماضي في الجهاد في سبيل الله تعالى ، وإعزاز دينه ، فوجد : أنَّه قد شهد بدراً ، وفي هذا توجيهٌ للمسلمين إلى أن ينظروا إلى أصحاب الأخطاء نظرةً متكاملةً ، وذلك بأن ينظروا فيما قدَّموه لأمَّتهم من أعمالٍ صالحةٍ في مجال الدَّعوة ، والجهاد ، والعلم ، والتَّربية ، فإنَّ الَّذي يساهم في إسقاط فروض الكفاية عن الأمَّة يستحقُّ التَّقدير ، والاحترام ، وإن بدرت منه بعض الأخطاء ، هذا فيما إذا كان ما صدر من هؤلاء خطأً محضاً ، وزلَّة قدمٍ ، فكيف إذا كان ما صدر منهم رأياً علميّاً ناتجاً عن الاجتهاد؛ وهم أهلٌ لذلك؟!

إنَّ بعض طلاَّب العلم في عصرنا هذا يتسرَّعون في نقد العلماء ، والدُّعاة بسبب آراء اجتهاديَّةٍ يرى بعض العلماء أنَّهم أخطؤوا فيها ، وقد يصل النَّقد إلى حدِّ السُّخريَّة ، والاستهزاء بهم ، وترى هؤلاء الطُّلاب يُجسِّمون أخطاء هؤلاء الكبار ، ويبرزونها بشكلٍ يوحي للسَّامعين ، والقرَّاء : أنَّ أولئك الَّذين تعرَّض إنتاجهم للنَّقد ليس لهم أيُّ رصيدٍ في خدمة الإسلام والمسلمين ، والمفترض في هذا المجال أن تُذكر حسنات هؤلاء أوَّلاً ، ويعرَّف المسلمون بجهادهم ، وبلائهم في الإسلام ، وجهودهم في مجال العلم، والدَّعوة ، ثمَّ تُذكر الأمور ، الَّتي يراها المنتقدون أخطاء، وما يرونه من الصَّواب في ذلك من لزوم الأدب في النَّقد العلميِّ، والبعد عن أسلوب السُّخرية ، والتَّنقيص ، هذا شيءٌ مما يرشدنا له أسلوب النَّبيِّ ﷺ في مواجهة هذا الخطأ الكبير الَّذي ارتكبه حاطبُ بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، إنَّ تاريخ حاطب الكبير في الجهاد في سبيل الله شفع له عند رسول الله ﷺ ، ولذلك لم يتعرَّض للإدانة، أو للعقوبة ، بل كان مانعاً له ممَّا هو أقلُّ من ذلك ، حيث لم يُسمَع من مسلمٍ كلمةٌ واحدةٌ في نقده ، والإساءة إليه بعد قول النَّبيِّ ﷺ : «ولا تقولوا له إلا خيراً» . [سبق تخريجه][1] .

ومن الحوار الَّذي تمَّ بين الرَّسول ﷺ ، وعُمر بن الخطَّاب في شأن حاطبٍ يمكن أن نستخرج بعض الدُّروس ، والعبر :

١ ـ حكم الجاسوس القتل : فقد أخبر عمر بذلك ، ولم ينكر عليه الرَّسول ﷺ ولكن منع مِنْ إيقاع العقوبة كونُه بدريّاً .

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٧/ ١٧٦) .

٢ ـ شدَّة عمر في الحقِّ: لقد ظهرت هذه الشدة في الحقِّ، وغيرتُه على الدِّين حينما طالب بضرب عنق حاطبٍ.

٣ ـ الكبيرة لا تسلُبُ الإيمان: إنَّ ما ارتكبه حاطبٌ كبيرةٌ، وهي التجسُّس؛ ومع هذا ظلَّ مؤمناً.

٤ ـ لقد أطلق عمر على حاطبٍ صفة النِّفاق بالمعنى اللُّغويِّ لا بالمعنى الاصطلاحي في عهده رضي الله عنه؛ إذ النِّفاق: إبطانُ الكفر، والتَّظاهر بالإسلام، وإنَّما الَّذي أراده عمر: أنَّه أبطن خلاف ما أظهر؛ إذ أرسل كتابه الَّذي يتنافى مع الإيمان الذي خرج يُجاهد من أجله، ويبذل دمه في سبيله[١].

٥ ـ تأثُّر عمر من ردِّ الرَّسول ﷺ، فتحوَّل في لحظاتٍ من رجلٍ غاضبٍ ينادي بإجراء العقوبة الكبيرة على حاطبٍ إلى رجلٍ يبكي من الخشية، والتأثير، ويقول: الله، ورسوله أعلم؛ ذلك لأنَّ غضبه كان لله، ولرسوله، فلمَّا تبيَّن له أنَّ الَّذي يُرضي الله تعالى، ورسوله ﷺ هو غضُّ النَّظر عن ذلك الخطأ، ومعاملة صاحبه بالحسنى تقديراً لرصيده في الجهاد؛ استجاب لذلك[٢].

٦ ـ لا سابقة يُقتدى بها في عمل حاطبٍ؛ ذهب لهذا الرأي الدُّكتور عبد الكريم زيدان؛ حيث قال: لا يجوز الاقتداء بعمل حاطبٍ في العفو عمَّن يعمل عمله؛ لأن العفو عنه كان لِعِلَّةٍ لم يعد يمكن تحقيقها في غيره بعد عصر الصَّحابة وهو كونه شهد بدراً، فعلى الجَمَاعة أن تفقه ذلك، وهذا ما فقهه الإمام مالك؛ إذ قال: يقتل الجاسوس المسلم؛ ممَّا يدلُّ على أنَّ إسلام الجاسوس لا يعصمه ولا يقيه من عقوبة القتل لخطورة جرمه؛ فإذا فعل أحد أعضاء الجماعة ما فعله حاطبٌ، أو بمستواه من الخطورة عوقب بما يستحقُّه[٣]. وناقش هذه المسألة العلامة ابن القيِّم، وذكر أقوال الأئمَّة الأربعة، ثم قال: والصَّحيح: أنَّ قتله راجعٌ إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحةً للمسلمين؛ قتله، وإن كان استبقاؤه أصلحَ؛ استبقاه[٤].

ثالثاً: الشُّروع في الخروج، وأحداثٌ في الطَّريق:

١ ـ خرج رسول الله ﷺ قاصداً مكَّة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة[٥]،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٤٠٤.
(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي للحميديِّ (٧/ ١٧٦، ١٧٧).
(٣) المُستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٢).
(٤) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٤٣).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٥٦٠، ٥٦١.

واستخلف على المدينة أبا رُهْمٍ ، كلثوم بن حُصَيْن بن عُتبة بن خلف الغفاريَّ[١] ، وكان عدد الجيش عشرة آلاف ، فيهم المهاجرون ، والأنصار الَّذين لم يتخلَّف منهم أحدٌ ، فلمَّا وصل الجيش الكُدَيْدَ ـ الماء الذي بين قديد وعُسفان ـ أفطر رسول الله ﷺ وأفطر النَّاس معه. [البخاري (٤٢٧٥) ، ومسلم (١١١٣)].

وفي الجحفة لقيه العبَّاس بن عبد المطلب عمُّه وقد خرج مهاجراً بعياله ، فسُرَّ ﷺ[٢] ، وفي خروج العبَّاس بأهله ، وأولاده من مكَّة وكان بها بمثابة المراسل العسكريِّ ، أو مدير الاستخبارات هناك يشير إلى أنَّ مهمَّته فيها قد انتهت ، وخاصَّةً إذا لاحظنا أنَّ بقاءه في مكَّة كان بأمر الرَّسول ﷺ[٣] .

٢ ـ إسلام أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أمية :

خرج أبو سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أميَّة بن المغيرة من مكَّة ، فلقيا رسول الله ﷺ بثنية العقاب فيما بين مكَّة والمدينة ، فالتمسا الدُّخول عليه ، فكلَّمته أمُّ سلمة ، فقالت: يا رسول الله! ابن عمِّك ، وابن عمَّتك ، وصهرُك ، فقال: «لا حاجة لي فيهما ، أمَّا ابن عمِّي ؛ فهتك عرضي ، وأما ابن عمَّتي ، وصهري ، فهو الذي قال لي بمكة ما قال». فلما خرج الخبر إليهما بذلك ، ومع أبي سفيان بن الحارث ابنٌ له ، فقال: واللهِ! ليأذننَّ رسولُ الله ﷺ ، أو لآخذنَّ بيد ابني هذا ، ثمَّ لنذهبنَّ في الأرض حتَّى نموت عطشاً ، أو جوعاً ، فلمَّا بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقَّ لهما ، فدخلا عليه ، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه ، واعتذاره ممَّا كان مضى فيه ، فقال:

لَعَمْـرُكَ إنِّـيْ يَـوْمَ أَحْمِـلُ رَايَـةً ... لِتَغْلِـبَ خَيْـلُ الَّـلاتِ خَيْـلَ مُحَمَّـدِ
لَكَالمُـدْلِـجِ الْحَيْـرَانِ أَظْلَـمَ لَيْلُـهُ ... فَهَـذا أَوَانُ الحَـقِّ أُهْـدَىٰ وَأَهْتَـدِي
فَقُـلْ لِثَقِيْـفٍ لاَ أُرِيْـدُ قِتَـالَكُـمْ ... وَقُـلْ لِثَقِيْـفٍ تِلْـكَ عِنْـدِي فَـأَوْعِـدِي
هَـدَانِـي هَـادٍ غَيْـرُ نَفْسِـي وَدَلَّنِـي ... عَلَـى اللهِ مَـنْ طَـرَّدْتُ كُـلَّ مُطَـرَّدِ
أَفِـرُّ سَـرِيْعـاً جَـاهِـداً عَـنْ مُحَمَّـدٍ ... وأُدْعَـىٰ وَإِنْ لَـمْ أَنْتَسِـبْ لِمُحَمَّـدِ
هُـمُ عُصْبَـةٌ مَـنْ لَـمْ يَقُـلْ بِهَـوَاهُـمُ ... وإِن كـان ذا رأْيٍ يُلَـمْ ويُفَنَّـدِ
أُرِيْـدُ لأَرْضِيَهُـمْ وَلَسْـتُ بِـلاَئِـطٍ ... مَـعَ القَـوْمِ مَـا لَـمْ أُهْـدَ فـي كُـلِّ مَقْعَـدِ
فَمَـا كُنْـتُ فـي الجَيْـشِ الَّـذي نَـالَ عَـامِـراً ... ومَـا كـانَ عَـنْ غَيْـرِ لِسَـانِـي ولاَ يَـدِي

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص ٥٦١.
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٨٦) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي فارس ، ص ٤٠٦.
(٣) انظر: تأملات في السِّيرة النَّبوية ، لمحمَّد السيد الوكيل ، ص ٢٥٤.

قَبَائِلُ جَاءَتْ مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ تَوَابِعُ جَاءَتْ مِنْ سِهَامٍ وَسَرْدَدِ
وإِنَّ الَّذي أَخْرَجْتُمُ وَشَتَمْتُمُ سَيَسْعَى لَكُمْ سَعْيَ امْرِئٍ غَيْرَ مُقْعَدِ[١]

قال: فلمَّا أنشد رسولَ الله ﷺ: على الله مَنْ طَرَّدْتَ كُلَّ مُطَرَّدِ، ضرب رسول الله ﷺ في صدره، فقال: «أنت طَرَّدْتَنِي كلَّ مُطَرَّد». [ابن سعد (٤/ ٤٩ ـ ٥٠)، والطبراني في الكبير (٧٢٦٤)، والطبري في تاريخه (٣/ ١١٤ ـ ١١٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٧ ـ ٢٨)، وابن هشام (٤/ ٤٣ ـ ٤٤)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٥)].

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله ﷺ كثيراً، وأمَّا عبد الله بن أميَّة؛ فقد قال لرسول الله ﷺ: فوالله! لا أؤمِنُ بك حتَّى تتَّخذَ إلى السَّماء سُلَّماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتَّى تأتيها، ثمَّ تأتي بصكٍّ معه أربعة من الملائكة يشهدون لك، كما تقول، ثمَّ وايم الله! لو فعلتَ ذلك ما ظننت أنِّي أصدِّقك[٢].

ومع فداحة جرمهما فإنَّ النَّبيَّ ﷺ عفا عنهما، وقبل عذرهما، وهذا مثالٌ عالٍ في الرَّحمة، والعفو، والتَّسامح، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السَّابقة بهذه القصيدة البليغة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ ﷺ وبيان اهتدائه به، ولقد حسُن إسلامه، وكان له موقفٌ مشرِّفٌ في الجهاد مع رسول الله ﷺ في معركة حُنَين[٣].

٣ ـ النُّزول بمرِّ الظَّهران وإسلام أبي سفيان بن حربٍ سيِّد قريش:

وتابع رسول الله ﷺ سيره حتى أتى مَرَّ الظَّهْران[٤]، فنزل فيه عشاءً، فأمر الجيش، فأوقدوا النِّيران، فأُوقِدَت عشرةُ آلاف نارٍ، وجعل رسولُ الله ﷺ على الحرس عمرَ بن الخطَّاب[٥].

قال العبَّاس: فقلت: واصباح قريش! والله! لئن دخل رسول الله ﷺ مكَّة عَنْوَةً قبل أن يأتوه، فيستأمنوه: إنَّه لهلاكُ قريش إلى آخر الدَّهر! وركب بغلة رسول الله ﷺ، وخرج يلتمس مَنْ يوصل الخبر إلى مكَّة؛ ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عَنْوَةً، وكان أبو سفيان، وحكيم بن حزام، وبُدَيْل بن ورقاء خرجوا يلتمسون الأخبار، فلمَّا رأوا النِّيران؛ قال أبو سفيان: ما رأيت كاللَّيلة نيراناً قطُّ، ولا عسكراً، فقال بُدَيْل: هذه والله خُزاعة حَمَشَتْها[٦] الحربُ، فقال أبو سفيان: خزاعة أذلُّ، وأقلُّ من أن تكون هذه نيرانها،

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٥١٧.
(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٢٩٥ ـ ٣٠٠).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ١٨٢).
(٤) مرَّ الظهران: واد من أودية الحجاز شمال مكة بـ ٢٢ ك. م.
(٥) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣٨٧، والطَّبقات، لابن سعد (٢/ ١٣٥).
(٦) حمشتها الحرب: أحرقتها.

وعسكرها! وسمع العباس أصواتهم ، فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة! فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم ، قال: مَالَكَ؟ فداك أبي وأمي! قال العبَّاس: قلت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسولُ الله ﷺ في النَّاس واصباح قريشٍ واللهِ! قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي! قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتَّى آتي بك رسول الله ، فأستأمنه لك ، قال: فركب خلفي ، ورجع صاحباه ، فجئت به ، كلَّما مررت بنارٍ من نيران المسلمين قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها؛ قالوا: عمُّ رسولِ الله على بغلته ، حتَّى مررت بنار عمر بن الخطَّاب فقال: مَنْ هذا؟ وقام إليَّ فلمَّا رأى أبا سفيان على عجز الدَّابة قال: أبو سفيان عدوُّ الله! الحمد لله الَّذي أمكن منك بغير عَقْدٍ ، ولا عهدٍ ، ثمَّ خرج يشتدُّ نحو رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر ، فقال: يا رسول الله! هذا أبـو سفيان ، قد أمكن الله منه بغير عَقْدٍ ، ولا عهدٍ ، فدعني فلأضرب عنقه ، قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي قد أجرته .

فلما أكثر عمر في شأنه؛ قلت: مهلاً يا عمر! فوالله! أن لو كان من بني عديٍّ ما قلت هذا ، ولكنَّك قـد عرفت أنَّـه من رجال بني عبد مناف ، فقال: مهـلاً يا عباس ! فوالله لإسلامُك يـوم أسلمت كان أحبَّ إلي من إسـلام الخطَّاب لو أسلم ، وما بي إلا أنِّي قد عرفت أنَّ إسلامك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطَّاب لو أسلم ، فقال ﷺ: «اذهب به يا عباس! إلى رحلك ، فإذا أصبحت؛ فائتني به».

فلمَّا أصبح؛ غدوت به ، فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ ، قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يَأْنِ لك أن تعلم أنَّه لا إله إلا الله؟!» قال: بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمَك ، وأوصلَك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عنِّي بعد. قال: «ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنِّي رسولُ الله ؟!».

قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك ، وأكرمَك ، وأوصلَك ! أمَّا هذه والله! فإنَّ في النَّفس منها حتَّى الآن شيئاً. فقال له العبَّاس: ويحك! أسلم قبل أن تُضْرَب عنقُك ، قال: فشهد شهادة الحقِّ ، فأسلم.

قال العبَّاس: قلت: يا رسول الله! إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر ، فاجعل له شيئاً ، قال: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمنٌ ، ومن دخل المسجد فهو آمنٌ» فلمَّا ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس! احبسه بمضيق الوادي عند خَطْم الجبل ، حتَّى تمرَّ به جنود الله ، فيراها».

قال: فخرجت حتَّى حبستُـه حيث أمرنـي رسول الله ﷺ ومرَّت القبائل على راياتها ، كلَّما مرَّت قبيلـةٌ؛ قال: يا عباس! مَنْ هذه؟ فأقول: سُليم. فيقول: مالي ، ولسُليم! ثمَّ تمرُّ به القبيلة ، فيقول: يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ فأقول: مُزينة ، فيقول: مالي ولمزينة! . . . حتَّى مرَّ به

رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون، والأنصار، لا يُرى منهم إلا الْحَدَقُ من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس! مَنْ هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين، والأنصار.

قال: ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ، ولا طاقةٌ! ثمَّ قال: والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة. قال: فنعم إذاً، قال: قلت: النَّجاءَ إلى قومك. [البخاري (٤٢٨٠) وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٧٤ ـ ٣٧٨)، وابن سعد (٢/ ١٣٤ ـ ١٣٧)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٣٢ ـ ٣٥)، والمطالب العالية (٤/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٤ ـ ١٦٧)، وابن هشام (٤/ ٤٤ ـ ٤٧)][١].

إنَّ في هذه القصَّة دروساً، وعبراً، وحِكَماً في كيفيّة معاملة رسول الله ﷺ للنُّفوس البشريَّة، ومن أهم هذه الدُّروس:

١ ـ عندما أصبح أبو سفيان رهينةً بيد المسلمين، وأصبح رهن إشارة النَّبيِّ ﷺ، وَهَمَّ به عمر، وأجاره العبَّاس، ثمَّ جاء في صبيحة اليوم الثاني لِيَمْثُلَ بين يدي رسول الله ﷺ، وكانت المفاجأة الصَّاعقة له بدل التَّوبيخ، والتَّهديد، والإذلال أن يُدْعى إلى الإسلام، فتأثَّر بهذا الموقف، واهتزَّ كيانُه، فلم يملك إلا أن يقول: بأبي أنت وأمِّي يا محمد! ما أحلمَك، وأكرمَك، وأوصلَك! إنَّه يفدي رسول الله ﷺ بأبيه وأمِّه، ويُثني عليه الخير كلَّه: ما أحلمَك، وأكرمَك، وأوصلَك[٢]! وعندما قال العبَّاس للنَّبيِّ ﷺ: إنَّ أبا سفيان رجلٌ يحبُّ الفخر، فاجعل له شيئاً، فقال النَّبيُّ ﷺ: «نعم! مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ. . » ففي تخصيص بيت أبي سفيان شيءٌ يُشْبِع ما تتطلَّع إليه نفس أبي سفيان، وفي هذا تثبيتٌ له على الإسلام، وتقويةٌ لإيمانه[٣]، وكان هذا الأسلوب النَّبويُّ الكريم عاملاً على امتصاص الحِقْدِ من قلب أبي سفيان، وبرهن له بأنَّ المكانة الَّتي كانت له عند قريش لن تنتقص شيئاً في الإسلام؛ إنْ هو أخلص له، وبذل في سبيله[٤]، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ على العلماء، والدُّعاة إلى الله أن يستوعبوه، ويعملوا به في تعاملهم مع النَّاس.

٢ ـ وفي قول رسول الله ﷺ لعمِّه العبَّاس عن أبي سفيان: «احبِسْه بمضيق الوادي، حتَّى تمرَّ به جنود الله، فيراها[٥]» ففعل العبَّاس، وكان ﷺ يريد أن يشنَّ حرباً نفسيَّةً للتَّأثير على

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٠.
(٢) انظر: السَّابق، وانظر: فقه السيرة النَّبوية، للغضبان، ص ٥٦٤.
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٣).
(٤) انظر: قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة، لمحمَّد رواس، ص ٢٤٥.
(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٤/ ٥٢).

معنويَّات قريش ، حتى يتسنَّى له القضاء على روح المقاومة عند زعيم مكَّة ، وحتَّى يرى أبو سفيان بعَيْنَيْ رأسه مدى قوَّة ما وصل إليه الجيش الإسلاميُّ من تسليح ، وتنظيم ، وحسن طاعةٍ ، وانضباطٍ ، وبذلك تتحطَّم أيُّ فكرةٍ في نفوس المكِّيِّين يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك إذا دخل مكَّة لتحريرها من براثن الشِّرك ، والوثنيَّة[1] ، وبالفعل تمَّ ما رسمه رسولُ الله ﷺ ، وأدرك أبو سفيان قوَّة المسلمين ، وأنَّه لا قِبَل لقريشٍ بهم ، حتَّى إذا مرَّت به كتيبة المهاجرين ، والأنصار ؛ قال أبو سفيان : سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين ، والأنصار . قال : ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ، ولا طاقةٌ! والله يا أبا الفضل! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان! إنَّها النُّبوَّة . قال : فنعم إذاً . . .»[2] .

إنَّها النُّبوَّة ، تلك هي الكلمة الَّتي أدارتها الحكمة الإلٰهيَّة على لسان العبَّاس ، حتَّى تصبح الردَّ الباقي إلى يوم القيامة على كلِّ مَنْ يتوهَّم ، أو يوهم أنَّ دعوة النَّبيِّ ﷺ إنَّما كانت ابتغاء ملكٍ ، أو زعامةٍ ، أو إحياء قوميَّةٍ ، أو عصبيَّةٍ ، وهي كلمةٌ جاءت عنواناً لحياة رسول الله ﷺ من أوَّلها إلى آخرها ، فقد كانت ساعاتُ عمره ، ومراحلُها كلُّها دليلاً ناطقاً على أنَّه بُعِث لتبليغ رسالة الله إلى النَّاس ، لا لإشادة ملكٍ لنفسه في الأرض[3] .

لقد تعمَّد النَّبيُّ ﷺ شنَّ الحرب النَّفسيَّة على أعدائه أثناء سيره لفتح مكَّة ، حيث أمر رسولُ الله ﷺ بإيقاد النِّيران ، فأوقدوا عشرة آلاف نارٍ في ليلةٍ واحدةٍ حتَّى ملأت الأفق ، فكان لمعسكرهم منظرٌ مهيبٌ ، كادت تنخلع قلوب القرشيِّين من شدَّة هوله[4] ، وقد قصد النَّبيُّ ﷺ من ذلك تحطيم نفسيَّات أعدائه ، والقضاء على معنويَّاتهم حتَّى لا يفكروا في أيَّة مقاومة ، وإجبارهم على الاستسلام ؛ لكي يتمَّ له تحقيق هدفه دون إراقة دماءٍ ، وبتطبيق هذا الأسلوب تمَّ له ﷺ ما أراد ، ولقد كان اهتمامُ النَّبيِّ ﷺ بمعنويات المقاتل ونفسيَّته سبقاً عسكريّاً ، بدليل أنَّ المدارس العسكريَّة الَّتي جاءت فيما بعد جعلت هذا الأمر موضع العناية ، والاهتمام من النَّاحية العسكريَّة[5] .

* * *

---

(١) انظر : القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٤٤٧ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/ ٥٢) ، وسبق تخريجه .
(٣) انظر : فقه السِّيرة النَّبويَّة ، للبوطي ، ص ٢٧٥ .
(٤) انظر : الطبقات ، لابن سعد (٢/ ١٣٥) .
(٥) انظر : العبقرية العسكريَّة ، وغزوات الرَّسول ﷺ ، تأليف اللِّواء محمَّد فرج ، ص ٥٦٥ .

المبحث الثَّاني
خُطَّة النَّبيِّ ﷺ لدخول مكَّة وفتحها

أولاً: توزيع المهام بين قادة الصَّحابة:

عندما وصل النَّبيُّ ﷺ إلى ذي طُوى[(١)]؛ وزَّع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المُجَنَّبة اليُمنى، وجعل الزُّبير على المُجَنَّبة اليُسرى، وجعل أبا عبيدة على البَيَاذِقَةِ[(٢)]، وبطن الوادي، فقال: «يا أبا هريرة! ادعُ لي الأنصار» فدعاهم، فجاؤوا يهرولون، فقال: يا معشر الأنصار! هل ترون أوباش قريش؟! قالوا: نعم. قال: انظروا إذا لقيتموهم غداً أن تحصدوهم حصداً، وأخفى بيده، ووضع يمينه على شماله، وقال: «موعدكم الصَّفا». [مسلم (١٧٨٠)].

وبعث رسول الله ﷺ الزُّبير بن العوَّام على المهاجرين، وخيلهم، وأمره أن يدخل من كَداء مِنْ أعلى مكَّة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتَّى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة، وسليم، وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكَّة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدِّمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفُّوا أيديهم، ولا يقاتلوا إلا مَنْ قاتلهم[(٣)]، وبهذا كانت المسؤوليَّات واضحةً، وكلٌّ قد عرف ما أُسندِ إليه من مهام، والطَّريق الذي ينبغي أن يسير فيه[(٤)].

ودخلت قوَّات المسلمين مكَّة من جهاتها الأربع في آنٍ واحدٍ، ولم تلقَ تلك القوات مقاومةً، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربةٌ قاضيةٌ لفلول المشركين؛ حيث عجزت عن التَّجمُّع وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربيَّة الحكيمة الَّتي لجأ إليها رسول الله ﷺ عندما أصبح في مركز القوَّة في العدد والعتاد، ونجحت خطَّة الرَّسول ﷺ فلم يستطع المشركون المقاومة، ولا الصُّمود أمام الجيش الزَّاحف، إلى أمِّ

---

(١) انظر: من معين السيرة، ص ٣٨٩.
(٢) البياذقة: الرَّجالة.
(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ٣٩٠.
(٤) المصدر السابق نفسه.

القُرى ، فاحتلَّ كلُّ فيلقٍ منطقته الَّتي وُجِّه إليها ، في سلمٍ ، واستسلامٍ؛ إلا ما كان من المنطقة الَّتي توجَّه إليها خالد[١] ، فقد تجمَّع متطرفو قريشٍ؛ ومنهم: صفوان بن أميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وغيرهم ، مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخَنْدَمَة) ، وتصدَّوا للقوَّات المتقدِّمة بالسِّهام ، وصمَّموا على القتال؛ فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم ، وما هي إلا لحظات حتَّى قضى على تلك القوَّة الضَّعيفة ، وشتَّت شمل أفرادها ، وبذلك أكمل الجيش السَّيطرة على مكَّة المكرَّمة[٢] ، وقد حدَّثتنا كتب السِّيرة ، والتَّاريخ عن قصَّة حِمَاس بن قيس بن خالدٍ من قبيلة بني بكرٍ ، فقد أعدَّ سلاحاً لمقاتلة المسلمين ، وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ، ويتعهَّدُه ، تسأله: لماذا تُعِدُّ ما أرى؟ فيقول: لمحمَّد ، وأصحابه ، وقالت امرأته له يوماً: والله! ما أرى أنَّه يقوم لمحمَّدٍ وصحبه شيءٌ! فقال: إنِّي والله لأرجو أن أُخدمَكِ بعضهم ، ثمَّ قال:

إن يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِيْ عِلَّةٌ ... هَذَا سِلاَحٌ كَامِلٌ وألَّةٌ[٣]
وَذُو غِرَارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّةْ

فلمَّا جاء يوم الفتح ناوش حِمَاسٌ هذا شيئاً من قتالٍ مع رجال عكرمة ، ثمَّ أحس بالمشركين يتطايرون مِنْ حوله أمام جيش خالدٍ ، فخرج منهزماً حتَّى بلغ بيته ، فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب.

فقالت المرأة لفارسها: فأين ما كنت تقول؟!

فقال يعتذر لها:

إنَّكِ لَوْ شَهِدْتِ يَوْمَ الخَنْدَمَهْ ... إذْ فَرَّ صَفْوَانُ وَفَرَّ عِكْرِمَهْ
أَبُو يَزِيْدَ قَائِمٌ كالمُؤتمَهْ[٤] ... واسْتَقْبَلَتْهُمْ بالسُّيُوفِ المُسْلِمَهْ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمْجُمَهْ ... ضَرْبَاً فَلاَ يُسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَهْ
لَهُمْ نَهِيتٌ[٥] خَلفَنَا وَهَمْهَمَهْ ... لا تَنْطِقِي فِي اللَّوْمِ أَدْنَى كَلِمَهْ[٦]

لقد أُعْلِنَ في مكَّة قُبيل دخول جيش المسلمين أسلوبَ منع التجوُّل؛ لكي يتمكَّنوا من دخول مكَّة بأقلِّ قدرٍ من الاشتباكات ، والاستفزازات ، وإراقة الدِّماء ، وكان الشعار المرفوع: «من

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص ٣٩٧.
(٢) انظر: قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية ، ص ١٢٢ ، ١٢٣.
(٣) الألَّة: الحربة لها سنان طويل ، وذو غرارين: سيف ذو حدين.
(٤) المؤتمة: المرأة التي مات زوجها ، وترك لها أيتاماً ، وأبو زيد: سهيل بن عمرو.
(٥) النَّهيت: صوت الصَّدر.
(٦) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٩٥).

دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن» ، وجعل ﷺ لدار أبي سفيان مكانةً خاصَّةً كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيِّين بالسِّلم ، والهدوء ، ويستخدمه كمفتاح أمانٍ يفتتح أمامه الطَّريق إلى مكَّة دون إراقة دماء ، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر ؛ الَّتي يحبُّها أبو سفيان ، حتَّى يتمكَّن الإيمان في قلبه[١].

لقد دخل أبو سفيان إلى مكَّة مسرعاً ، ونادى بأعلى صوته :

يا معشر قريش! هذا محمَّدٌ جاءكم فيما لا قِبَل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت : اقتلوا الحَمِيْتَ الدَّسِمَ الأحْمَس ـ تشبّهه بالزِّقِّ لسمنه ـ قُبِّحَ مِنْ طليعة قوم! قال : ويلكم! لا تَغُرَّنَّكُمْ هذه مِنْ أنفسكم ، فإنَّه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به ، فَمَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن قالوا : قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وتفرَّق النَّاس إلى دورهم ، وإلى المسجد[٢].

وحرص النَّبيُّ ﷺ أن يدخل الكَدَاء الَّتي بأعلى مكَّة[٣] تحقيقاً لقول صاحبه الشَّاعر المبدع حسَّان بن ثابت حين هجا قريشاً ، وأخبرهم بأنَّ خيل الله تعالى ستدخل من كَدَاء ، وتُعتبر هذه القصيدة من أروع ما قال حسَّان ؛ حيث قال :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيْرُ النَّقْعَ[٤] مَوْعِدُهَا كَدَاءُ
يُنَازِعْنَ الأَعِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ ... عَلَى أَكْتَافِهَا الأَسَلُ الظِّمَاءُ
تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٍ ... يُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ
فَإمَّا تُعْرِضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا ... وكَانَ الفَتْحُ وانْكَشَفَ الغِطَاءُ
وإلا فَاصْبِرُوا لِجَلادِ يَوم ... يُعِزُّ[٥] اللهُ فِيْهِ مَنْ يَشَاءُ
وَجِبْرِيْلُ رسُولُ الله فِيْنَا ... وَرُوْحُ القُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ
وَقَالَ الله قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدَاً ... يَقُوْلُ الحَقَّ فِي ذَاكَ البَلاَءُ
شَهِدْتُ بِهِ فَقُومُوا صَدِّقُوهُ ... فَقُلْتُم لا نَقُومُ وَلاَ نَشَاءُ
وقَالَ اللهُ قَدْ سَيَّرْتُ جُنْدَاً ... هُمُ الأَنْصَارُ عُرْضَتُهَا اللِّقَاءُ
لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ

---

(١) انظر : دراسة في السِّيرة ، د. عماد الدين خليل ، ص ٢٤٥ .
(٢) انظر : البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).
(٣) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٢٤ .
(٤) النَّقع : موضع قرب مكَّة ، أو الغبار .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٣٠٩).

فَنُحْكِمُ بالقَوافِي مَنْ هَجَانَا ... وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدِّمَاءُ
أَلاَ بَلِّغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي ... مُغْلَغَلَةً[1] فقد بَرِحَ الخَفَاءُ
بأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْداً ... وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ
هَجَوْتَ مُحمَّداً فأجِبْتُ عَنْهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِي ذاكَ الجَزَاءُ
أَتَهْجُوْهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ
هَجَوتَ مُبَارَكاً بَرّاً حَنِيْفاً ... أَمِينَ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ
أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... ويَمْدَحُهُ وينْصُرُه سَوَاءُ
فإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ
لِسَانِيْ صَارِمٌ لا عَيْبَ فِيْهِ ... وبَحْرِي لاَ تُكَدِّرُهُ الدِّلاَءُ[2]

وممَّا يؤيِّد حرص النَّبيِّ ﷺ على دخوله من كَدَاء ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لمَّا دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النِّساء يَلْطِمْنَ وجوه الخَيْلِ بالخُمُر[3]، فتبسَّم إلى أبي بكرٍ، فقال: يا أبا بكر! كيف قال حسَّان؟ فأنشده قوله:

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمطِّراتٍ ... تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّسَاءُ[4]

ثانياً: دخولٌ خاشعٌ متواضعٌ، لا دخول فاتحٍ متعالٍ:

دخل رسول الله ﷺ يوم فتح مكة وعليه عمامةٌ سوداءُ بغير إحرامٍ، [أحمد (١/ ٣٦٣) ومسلم (١٣٥٨)، وأبو داود (٤٠٧٦)، والترمذي (١٧٣٥)، والنسائي (٥/ ٢٠١)، وابن ماجه (٢٨٢٢)]، وهو واضعٌ رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتَّى إنَّ ذقنه ليكاد يَمَسُّ واسطة الرَّحل. [البيهقي في الدلائل (٥/ ٦٨)، والحاكم (٣/ ٤٧)، وأبو يعلى (٣٣٩٣)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٩)]. ودخل وهو يقرأ سورة الفتح. [البخاري (٤٢٨١)، ومسلم (٧٩٤/ ٢٣٨)] مستشعراً نعمة الفتح، وغفران الذُّنوب، وإفاضة النَّصر العزيز[5]، وعندما دخل مكَّة فاتحاً - وهي قلبُ جزيرة العرب، ومركزُها الرُّوحيُّ، والسِّياسيُّ - رفعَ كلَّ شعارٍ من شعائر العدل والمساواة، والتَّواضع، والخضوع، فأردف أسامة بن زيدٍ، [البخاري (٤٢٨٩)]؛ وهو ابن مولى رسول الله ﷺ، ولم يردف أحداً من أبناء بني هاشم، وأبناء أشراف قريشٍ، وهم كثير، وكان ذلك صبح

---

(١) مغلغلة: رسالة محمولة من بلدٍ إلى بلد.
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٠٩).
(٣) الخُمُر: جمع خمار، مأخوذ من الخمر، وهو السِّتر؛ وهو ما تستر به النِّساء رؤوسهنَّ.
(٤) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٣١).
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي في المدينة، ص ٣٩٦.

يوم الجمعة لعشرين ليلةٍ خلت من رمضان ، سنة ثمانٍ من الهجرة[١] .

يقول محمَّد الغزالي في وصف دخول النَّبيِّ ﷺ لمكَّة :

على حين كان الجيش الزَّاحف يتقدَّم ، ورسول الله ﷺ على ناقته تُتوِّج هامته عمامةٌ سوداء ، ورأسُه خفيض من شدَّة التَّخشُّع لله ، لقد انحنى على رحله ، وبدا عليه التَّواضع الجمُّ ، إنَّ الموكب الفخم المهيب الَّذي ينساب به حثيثاً إلى جوف الحرم ، والفيلق الدَّارع الَّذي يحفُّ به ينتظر إشارةً منه فلا يبقى بمكَّة شيءٌ آمنٌ ، إنَّ هذا الفتح المبين ليذكِّره بماضٍ طويل الفصول كيف خرج مطارَداً؟ وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيَّداً ، وأيّ كرامةٍ عظمى حفَّه الله بها هذا الصَّباح الميمون ، وكلَّما استشعر هذه النَّعماء ، ازداد لله على راحلته خشوعاً وانحناءً[٢] .

هذا وقد حرص النَّبيُّ ﷺ على تأمين الجبهة الدَّاخلية في مكَّة عند دخوله يوم الفتح ، ولذلك عندما بلغه مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تُستحلُّ الكعبة ، قال ﷺ : «هذا يوم يُعظِّم الله فيه الكعبة ، ويومٌ تُكسى فيه الكعبة» [البخاري (٤٢٨٠) ، والبيهقي في الدلائل (٣٨/٥) ، والطبري في تاريخه (١١٨/٣)]. وأخذ الراية من سعد بن عبادة ، وسلَّمها لابنه قيس بن سعدٍ ، وبهذا التَّصرُّف الحكيم حال دون أيِّ احتمالٍ لمعركةٍ جانبيَّةٍ هُمْ في غنىً عنها ، وفي الوقت نفسه لم يُثِرْه ، ولا آثار الأنصارَ ، فهو لم يأخذ الرَّاية من أنصاري ويسلِّمها لمهاجرٍ ؛ بل أخذها من أنصاريٍّ وسلمها لابنه ، ومن طبيعة البشر ألاَّ يرضى الإنسان بأن يكون أحدٌ أفضَل منه إلا ابنه[٣] .

ولمَّا نزل رسولُ الله ﷺ بمكَّة ، واطمأن النَّاس ، خرج حتَّى جاء البيت ، فطاف به ، وفي يده قوسٌ ، وحول البيت وعليه ثلاثمئةٍ وستون صنماً ، فجعل يطعنها بالقوس ، ويقول : ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١] ، ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩] ، والأصنام تتساقط على وجوهها[٤] ، وإنَّه لمظهر رائعٌ لنصر الله ، وعظيم تأييده لرسوله ﷺ ؛ إذ كان يطعن تلك الآلهة الزَّائفة المنثورة حول الكعبة بعصاً معه ، فما يكاد يطعن الواحد منها بعصاه ، حتَّى ينكفئ على وجهه ، أو ينقلب على ظهره جُذاذاً[٥] ، ورأى في الكعبة الصُّور ، والتَّماثيل؛ فأمر بالصُّور ، وبالتَّماثيل فكسرت[٦] ، وأبَى أن يدخل جوف

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي الحسن النَّدوي ، ص ٣٣٧ .
(٢) انظر : فقه السِّيرة ، للغزالي ، ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .
(٣) انظر : قيادة الرسول ﷺ السِّياسيَّة والعسكريَّة ، ص ١٩٦ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٣٩ .
(٥) انظر : فقه السيرة ، للبوطي ، ص ٢٨٢ .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٣٩ .

الكعبة حتَّى أخرجت الصُّور ، وكان فيها صورةٌ يزعمون: أنَّها صورة إبراهيم ، وإسماعيل ، وفي أيديهما من الأزلام ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «قاتلهم الله! لقد علموا ما استقسما بها قطُّ». [أحمد (١/ ٣٦٥) ، والبخاري (٤٢٨٨)].

ثم دخل البيت ، وكبَّر في نواحيه ، ثمَّ صلَّى ، فقد روى ابن عمر: أنَّ رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو ، وأسامة ، وبلال ، وعثمان بن طلحة ، فأغلقها عليه ، ثم مكث فيها ، قال ابن عمر: فسألت بلالاً حين خرج: ما صنع رسول الله؟ قال: جعل عمودين عن يساره ، وعموداً عن يمينه ، وثلاثة أعمدة وراءه ـ وكان البيت يومئذٍ على ستَّة أعمدة ـ ثمَّ صلَّى. [مسلم (١٣٢٩) ، وأبو داود (٢٠٢٣) ، والنسائي (٢/ ٦٣) ، وبنحوه البخاري (٥٠٥)][١].

وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة ، قبل أن يسلم ، فأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يكون المفتاح له مع السِّقاية ، لكن النَّبي ﷺ دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ، وردَّه إليه قائلاً: «اليوم يوم برٍّ ووفاء» [الطبراني في الكبير (٨٣٩٥) ، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٨٣ ـ ٨٤) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٧)][٢] ، وكان ﷺ قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه ، فحلم عنه ، وقال: «يا عثمان! لعلَّك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي ، أضعه حيث شئت». فقال: لقد هلكت قريش يومئذٍ ، وذلَّت ، فقال: «بل عَمَرَتْ ، وعزَّتْ يومئذٍ» ووقعت كلمتُه من عثمان بن طلحة موقعاً ، وظنَّ: أنَّ الأمر سيصير إلى ما قال[٣] ، ولقد أعطى له رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة قائلاً له: «هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم برٍّ ووفاء» [سبق تجريجه][٤] ، «خذوها خالدةً ، تالدةً ، لا ينزعها منكم إلا ظالمٌ[٥]». وهكذا لم يشأ النَّبيُّ ﷺ أن يستبدَّ بمفتاح الكعبة ، بل لم يشأ أن يضعه في أحدٍ من بني هاشم ، وقد تطاول لأخذه رجالٌ منهم ، لما في ذلك من الإثارة أوَّلاً ، ولما به من مظاهر السَّيطرة ، وبسط النُّفوذ ، وليست هذه من مهام النُّبوَّة بإطلاق ، . . . هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله ﷺ ؛ البرُّ ، والوفاء حتَّى للذين غدروا ، ومكروا ، وتطاولوا[٦].

هذا وقد أمر النَّبي ﷺ بلالاً رضي الله عنه أن يصعد فوق ظهر الكعبة ، فيؤذِّن بالصَّلاة ، فصعد بلال ، وأذَّن بالصَّلاة ، وأنصت أهل مكَّة للنِّداء الجديد على آذانهم كأنَّهم في حُلُمٍ ، إنَّ

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٦١ ، ٦٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦١) والبداية والنِّهاية ، لابن كثير.
(٣) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٦٢).
(٥) انظر: المغازي (٢/ ٨٣٨).
(٦) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٠١.

هذه الكلمات تقصف في الجوِّ، فتقذف بالرُّعب في أفئدة الشَّياطين، فلا يملكون أمام دويِّها إلا أن يولُّوا هاربين، أو يعودوا مؤمنين: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر[١].

ذلك الصَّوت الَّذي كان يهمس يوماً ما تحت أسواط العذاب: أَحَد! أَحَد! أَحَد! هاهو اليوم يجلجل فوق كعبة الله تعالى قائلاً: لا إلٰه إلا الله، محمَّدٌ رسولُ الله!؛ والكلُّ خاشعٌ مُنْصِتٌ خاضع[٢].

ثالثاً: إعلان العفو العام:

١ ـ نال أهل مكَّة عفواً عامّاً برغم أنواع الأذى الَّتي ألحقوها بالرَّسول ﷺ ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلاميِّ على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم؛ وهم مجتمعون قرب الكعبة، ينتظرون حكم الرَّسول ﷺ فيهم، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟!» فقالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، فقال: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم!». [البيهقي في الكبرى (٩/ ١١٨)، وفي الدلائل (٥/ ٥٨)، وابن سعد (٢/ ١٤١ ـ ١٤٢)][٣].

وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل، أو السَّبي، وإبقاء الأموال المنقولة، والأراضي بيد أصحابها، وعدم فرض الخراج عليها، فلم تُعامل مكَّة كما عوملت المناطق الأخرى المفتوحة عَنْوَةً لقدسيَّتها، وحرمتها؛ فإنَّها دار النُّسك، ومتعبَّد الخلق، وحرم الرَّبِّ تعالى، لذلك ذهب جمهور الأئمَّة من السَّلف، والخلف إلى أنَّه لا يجوز بيع أراضي مكَّة، ولا إجارة بيوتها، فهي مناخٌ لمن سبق، يسكن أهلها فيما يحتاجون إلى سكناه من دورها، وما فضل عن حاجتهم فهو لإقامة الحجَّاج، والمعتمرين، والعبَّاد القاصدين. وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضي مكَّة، وإجارة بيوتها، وأدلَّتهم قويَّةٌ في حين أنَّ أدلة المانعين مرسلةٌ، وموقوفةٌ[٤].

٢ ـ إهدار النَّبيِّ ﷺ لبعض الدِّماء:

إلى جانب ذلك الصَّفح الجميل كان هناك الحزم الأصيل الَّذي لابدَّ أن تتَّصف به القيادة الحكيمة الرَّشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشَّامل بضعة عشر رجلاً أمر بقتلهم ـ وإن وجدوا متعلِّقين بأستار الكعبة ـ؛ لأنَّه عظمت جرائمُهم في حقِّ الله ورسوله، وحقِّ الإسلام، ولما كان

(١) انظر: فقه السِّيرة للغزاليِّ، ص ٣٨٣.
(٢) انظر: فقه السِّيرة للبوطي، ص ٢٦٩.
(٣) انظر: المجتمع المدني، للعمري، ص ١٧٩.
(٤) انظر: المجتمع المدني، للعمري، ص ١٨٠.

يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين النَّاس بعد الفتح[١].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: وقد جَمَعْت أسماءهم مِنْ متفرِّقات الأخبار، وهم: عبد العُزَّى بن خَطَل، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وعِكْرِمَة بن أبي جهل، والحويرث بن نُقَيْذٍ ـ مصغراً ـ، ومِقْيَس بن صُبَابة، وهَبَّار بن الأسود، وقينتان لابن خطل «فَرْتَنَىٰ، وقُرَيْبَة» كانتا تغنيان بهجو النَّبي ﷺ، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارثَ بن طُلَاطِل الخزاعيَّ، وذكر الحاكم: أنَّ فيمن أُهْدِرَ دمه كعبَ بن زُهَيْر، ووحشيَّ بْنَ حَرْبٍ، وَهِنْدَ بنتَ عُتْبَة[٢].

وَمِنْ هؤلاء مَنْ قُتِل، ومنهم مَنْ جاء مسلماً تائباً، فعفا عنه الرَّسول ﷺ، وحسن إسلامُه[٣].

٣ ـ خطبةُ النَّبيِّ ﷺ غداة الفتح، وإسلامُ أهل مكَّة:

وفي غداة الفتح بلغ النَّبيَّ ﷺ: أنَّ خزاعة حلفاءه عدت على رجلٍ من هذيلٍ، فقتلوه، وهو مشركٌ برجلٍ قتل في الجاهليَّة، فغضب، وقام بين النَّاس خطيباً، فقال: «يا أَيُّها النَّاس! إنَّ الله قد حرم مكَّة يوم خلق السَّموات، والأرض، فهي حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحلُّ لامرئٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يَعْضِدَ ـ يقطع ـ فيها شجراً، لم تَحلَّ لأحدٍ كان قبلي، ولا تَحِلُّ لأحدٍ يكون بعدي، ولم تَحِلَّ لي إلا هذه السَّاعة غضباً على أهلها، ثمَّ قد رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشَّاهدُ منكم الغائب، فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إنَّ الله قد أحلَّها لرسوله، ولم يُحِلَّها لكم».

«يا معشر خزاعة! ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر القَتْلُ إنْ نفع، لقد قتلتُم قتيلاً لأَدِيَنَّه، فمن قتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النَّظرين، إن شاؤوا فَدَمُ قاتله، وإن شاؤوا فَعَقْلُه».
[أبو داود (٤٥٠٤)، والترمذي (١٤٠٦)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٨٣ ـ ٨٤)][٤].

كان من أثر عفو النَّبيِّ ﷺ الشَّامل عن أهل مكَّة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم أن دخل أهلُ مكَّة رجالاً، ونساءً، وأحراراً، وموالي في دين الله طواعيةً، واختياراً، وبدخول مكَّة تحت راية الإسلام دخل النَّاس في دين الله أفواجاً، وتمَّت النِّعمة ووجب الشُّكر[٥]، وبايع رسول الله ﷺ النَّاس جميعاً، الرِّجالَ، والنِّسَاءَ، والكبارَ، والصِّغار، وبدأ بمبايعة الرِّجال،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٤٥١)، وتأمُّلات في السيرة، ص ٢٦٢.

(٢) فتح الباري: في شرح حديث رقم (٤٢٨٠).

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٤٥١).

(٤) المصدر السابق نفسه، وعقله: أي ديته. والبداية والنِّهاية، لابن كثير، صفة دخوله ﷺ مكَّة.

(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٥٦).

فقد جلس لهم على الصَّفا ، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام ، والسَّمع ، والطَّاعة لله ، ولرسوله فيما استطاعوا ، وجاء مُجَاشِعٌ بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح ، فقال لرسول الله ﷺ : جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة ، فقال ﷺ : «ذهب أهل الهجرة بما فيها» فقال : على أيِّ شيءٍ تبايعه؟ قال : «أبايعه على الإسلام ، والإيمان ، والجهاد» . [أحمد (٣/ ٤٦٩) ، والبخاري (٤٣٠٥ و٤٣٠٦) ، ومسلم (١٨٦٣)] .

وقد روى البخاريُّ : أنَّ رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : «لا هجرةَ بعد الفتح ، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ ، وإذا استُنْفِرْتم ، فانفروا» [البخاري (١٨٣٤) ، ومسلم (١٣٥٣)] ، والمراد : أنَّ الهجرة الَّتي كانت واجبةً من مكَّة قد انتهت بفتح مكة ، فقد عزَّ الإسلامُ ، وثبتت أركانُه ودعائمهُ ، ودخل النَّاس فيه أفواجاً ، أمَّا الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أو من بلدٍ لا يَقْدِرُ أن يقيم فيه دينَه ، ويظهر شعائرَه إلى بلدٍ يتمكَّن فيه من ذلك ، فهي باقيةٌ إلى يوم القيامة ، ولكن هذه دون تلك ، فقد تكون واجبةً ، وقد تكون غير واجبةٍ ، كما أنَّ الجهاد والإنفاق في سبيل الله مشروعٌ وباقٍ إلى يوم القيامة ، ولكنَّه ليس كالإنفاق ، ولا الجهاد قبل فتح مكَّة .

قال عزَّ شأنه[1] : ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠] .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرِّجال ؛ بايع النِّساء ـ وفيهنَّ هِنْدُ بنتُ عُتْبَةَ متنكِّرةً ، خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ؛ لما صنعت بحمزة ـ على ألاَّ يشركن بالله شيئاً ، ولا يَسْرِقْنَ ، ولا يَزْنِيْنَ ، ولا يقتلن أولادهنَّ ، ولا يأتين ببهتانٍ يفترينه بين أيديهنَّ ، وأرجلهنَّ ، ولا يعصين في معروفٍ ، ولما قال النَّبيُّ ﷺ : «ولا يَسْرِقْنَ» قالت هند : يا رسول الله ، إنَّ أبا سفيان رجلٌ شحيحٌ لا يعطيني ما يكفيني ، ويكفي بنيَّ ، فهل عليَّ مِنْ حرجٍ إذا أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال لها ﷺ : «خذي من ماله ما يكفيك وبنيك بالمعروف» ، ولما قال : «ولا يزنين» قالت هند : وهل تزني الحرَّة؟! ولمَّا عرفها رسولُ الله ﷺ قال لها : «وإنك لهند بنت عُتْبَة؟» قالت : نعم ، فاعف عمَّا سلف عفا الله عنك .

وقد بايعن رسول الله ﷺ من غير مصافحةٍ ، فقد كان لا يصافح النِّساء ، ولا يَمَسُّ يد امرأةٍ إلا امرأةً أحلَّها الله له ، أو ذات محرمٍ منه ، وفي الصَّحيحين عن عائشة رضي الله عنها : أنَّها قالت : لا والله! ما مسَّت يد رسول الله يد امرأةٍ قطُّ . [البخاري (٥٢٨٨) ، ومسلم (١٨٦٦)] وفي

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٢٥٧) .

روايةٍ: ما كان يبايعهنَّ إلا كلاماً، ويقول: «إنَّما قولي لامرأةٍ واحدةٍ كقولي لمئة امرأةٍ»[١].

رابعاً: بَعْثُ خالدِ بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جَذِيْمَةَ داعياً إلى الإسلام، وكان ذلك في شهر شوَّال من السَّنة الثَّامنة للهجرة[٢] قَبْلَ حنين، ومعه جنودٌ من بني سُلَيْم، ومُدْلَج، والأنصار، والمهاجرين، كان تعدادُهم حوالي ثلاثمئةٍ وخمسين رجلاً، فلمَّا رأى بنو جَذِيْمَةَ الجيش بقيادة خالدٍ، أخذوا السِّلاح، فقال لهم خالدٌ: ضعوا السِّلاح فإنَّ النَّاس قد أسلموا، فقام رجلٌ منهم يسمَّى جحدراً، فقال: ويلكم يا بني جَذِيْمَةَ! إنَّه خالد؛ والله! ما بعد وضع السِّلاح إلا الإسار، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله! لا أضع سلاحي أبداً، فلم يزالوا به حتَّى وضع سلاحه، فلمَّا وضع السِّلاح أمر بهم خالد فكُتِّفُوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسراً، وقتلاً، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمر خالدٌ أن يقتل كلُّ واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر، وامتنع معه آخرون من قَتْلِ أسراهم، فلمَّا قَدِموا على رسول الله ﷺ، أخبروه، فغضب، ورفع يديه إلى السَّماء قائلاً: اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إليك ممَّا صنع خالدٌ. [أحمد (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١)، والبخاري (٤٣٣٩)، والنسائي (٨/ ٢٣٧)، وابن سعد (٢/ ١٤٧ ـ ١٤٨)][٣].

ودار كلام بين خالدٍ، وعبد الرحمن بن عوف حول هذا الموضوع حتَّى كان بينهم شرٌّ، فقد خشي ابن عوف أن يكون ما صدر عن خالدٍ ثأراً لعمِّه الفاكه بن المغيرة الَّذي قتله جَذِيْمَةُ في الجاهليَّة، ولعلَّ هذا الذي وقع بينهم هو ما أشار إليه الحديث المرويُّ عند مسلمٍ، وغيره: كان بين ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيءٌ، فسبَّه خالدٌ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابي، فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهباً؛ ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه» [البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)][٤].

وبعث رسولُ الله ﷺ عليّاً، فودى لهم قتلاهم، وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم، وبراءةً من دمائهم[٥]، وبهذا التَّصرُّف النَّبويِّ الحكيم واسى النَّبيُّ ﷺ بني جَذِيْمَة، وأزال ما في

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣١٩)، ومحمَّد ﷺ، لمحمَّد رضا (البيعة).

(٢) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة، ص ٢٤٨.

(٣) انظر: السِّيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/ ٤٦٤).

(٤) انظر: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص ٥٧٩.

(٥) المصدر السابق نفسه.

نفوسهم مِنْ أسى ، وحزن[١] ، وكان قتل خالد لبني جَذِيْمَةَ تأوُّلاً منه ، واجتهاداً خاطئاً ، وذلك بدليل أنَّ الرَّسول ﷺ لم يعاقبه على فعله[٢] .

خامساً: هدم بيوت الأوثان:

بعد أن طُهِّرَ البيتُ الحرامُ من الأوثان الَّتي كانت فيه ، كان لابدَّ من هدم البيوت الَّتي أقيمت للأوثان ، فكانت معالم للجاهليَّة ردحاً طويلاً من الزَّمن[٣] ، فكانت سرايا رسول الله تترى؛ لتطهير الجزيرة؛ منها:

١ ـ سرية خالد بن الوليد إلى العزَّى:

توجَّهت سريةٌ قوَّتها ثلاثون فارساً ، بقيادة خالد بن الوليد إلى الطَّاغوت الأعظم منزلةً ، ومكانةً عند قريش وسائر العرب (العُزَّىٰ) لإزالته من الوجود نهائيّاً ، وعندما وصلت السَّريَّة إلى العزَّى بمنطقة نخلة قام إليها خالدٌ: فقطع السَّمُرَاتِ ، وهدم البيت الَّذي كان عليه[٤] ، وهو يردِّد:

كفرانك لا سبحانك إنِّي رأيتُ الله قد أهانك

[الطبراني في الكبير (٣٨١١) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٦)][٥].

ثمَّ رجع خالدٌ وأصحابه إلى رسول الله ﷺ وقدَّم تقريره بإنجاز المهمَّة ، ولكنَّ النبي ﷺ استدرك على قائد السَّريَّة ، وقال له: «هل رأيت شيئاً؟» قال: لا[٦] ، فقال: «ارجع فإنَّك لم تصنع شيئاً»[٧] ، فرجع خالد متغيظاً حَنِقاً على عدم إنهاء مهمَّته على الوجه المطلوب ، فلمَّا وصل إليها ، ونظرت السَّدنة إليه ، عرفوا: أنَّه جاء هذه المرَّة ليكمل ما فاته في المرَّة السَّابقة ، فهربوا إلى الجبل ، وهم يصيحون: يا عزَّىٰ خبِّليه ، يا عزَّىٰ عوِّريه ، فأتاه خالد ، فإذا امرأةٌ عُرْيانةٌ ناشرةٌ شعرها تحثو التُّراب على رأسها ، فتقدَّم إليها خالدٌ رضي الله عنه بشجاعته المعروفة ، وضربها بالسَّيف حتَّى قتلها ، ثمَّ رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، فقال: «تلك هي العزَّى». [أبو يعلى (٩٠٢) ، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٧٧) ، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٦)][٨].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لأبي شهبة (٢/ ٤٦٥).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٩.
(٣) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٣٩٤.
(٤) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبوية ، ص ٢٨٢.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) انظر: المغازي (٢/ ٨٧٤).
(٧) انظر: السرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٢.
(٨) المصدر السابق نفسه.

٢ ـ سرية سعد بن زيدٍ الأشهليِّ إلى مَناة:

مناة اسم صَنَمٍ كانت على ساحل البحر الأحمر ممَّا يلي قديداً[(١)] ، في منطقة تُعْرَف بالمُشَلَّل[(٢)] ، وكانت للأوس ، والخزرج ، وغسَّان ومن دان بدينهم ، يعبدونها ويعظِّمونها في الجاهليَّة ، ويهلُّون منها للحجِّ ، وقد بلغ من تعظيمهم إيَّاها: أنَّهم كانوا لا يطوفون بين الصَّفا والمروة تحرُّجاً ، وتعظيماً لها ، حيث كان ذلك سُنَّةً في آبائهم ، مَنْ أحرم لمناة لَمْ يطُفْ بين الصَّفا والمروة[(٣)] ، ولم تزل هذه عادتُهم حتَّى أسلموا ، فلمَّا قدموا مع النَّبيِّ ﷺ للحجِّ ذكروا ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٤)] ، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، ومبتدع الأوثان ، محرِّف الحنيفيَّة دين إبراهيم عليه السلام عمرُو بن لحي الخُزاعيُّ[(٥)] ، فلمَّا فتح الله على المسلمين مكَّة بعث رسول الله ﷺ إلى مناة رجلاً من أهلها سابقاً الَّذين كانوا يعظِّمونها في الجاهليَّة ، وهو سعد بن زيد الأشهليُّ رضي الله عنه على رأس سِرِيَّةٍ قوَّتها عشرون فارساً ، وكان واجب السَّرِيَّة هو إزالة مناة من الوجود نهائيّاً[(٣)] .

انطلق زيدٌ ومن معه في مسيرٍ اقترابيٍّ سريعٍ لإنجاز المهمَّة المحدَّدة ، حتَّى وصل إليها ، فقابله سادنها متسائلاً: ما تريد؟ قال: هدم مَناةَ ، قال: أنت وذاك ، فأقبل سعد يمشي إليها ، وتخرج إليه امرأةٌ عُرْيَانَةٌ سوداء ثائرة الرَّأس تدعو بالوَيْل ، وتضرب صَدْرها[(٦)]، فصاح بها السَّادن صيحة الواثق: مَناةُ دُونَك بعضَ عُصَاتك[(٤)]، ولكن صيحته ذهبت أدراج الرِّياح ، فلم يأبه سعدٌ رضي الله عنه بكلِّ ذلك ، وضربها ضربةً قاتلةً قضت عليها ، ثمَّ أقبل مع أصحابه على الصَّنم (فهدموه ، ولم يجدوا في خزانتها شيئاً ، وانصرف راجعاً إلى رسول الله ﷺ)[(٧)] .

---

(١) ما بين مكَّة والمدينة.

(٢) المُشَلَّل مِنْ قديد ، وبالمشلَّل كانت مناةُ.

(٣) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٦ .

(٤) شرح النووي على مسلم (٩/ ٢٢).

(٥) انظر: السرايا والبعوث النَّبوية ، ص ٢٨٧ .

(٦) انظر: الطَّبقات (٢/ ١٤٦).

(٧) انظر: السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٨٨ ، قال مؤلف الكتاب الدُّكتور بريكك العمري: الخبر ضعيف من الناحية الحديثية ، ويمكن الاستئناس به تاريخيّاً ، حيث ذكر أهل المغازي أنَّ رسول الله ﷺ أرسل بعض السَّرايا لتحطيم الأصنام في الجزيرة العربيَّة ، ولا يمكن استثناء مناة من ذلك؛ لكونها أحد أكبر الطَّواغيت في الجزيرة ، ولقد اعتمدت في دراسة السرايا والبعوث على هذه الرِّسالة العلميَّة الَّتي أشرف عليها الدُّكتور أكرم العمري.

٣ـ سرية عمرو بن العاص إلى سواع :

قال تعالى مخبراً عن قوم نوح : ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح : ٢٣] .

وسواع المذكور ضمن هذه الأصنام : هو اسم صنمٍ كان لقوم نوحٍ عليه السَّلام ، ثمَّ صار بعد ذلك لقبيلة هُذَيْلٍ المضريّة[١] ، وظلَّ هذا الوثن منصوباً تعبده هُذيل وتعظِّمه حتَّى إنَّهم كانوا يحجُّون إليه[٢] ، حتَّى فتحت مكَّة ، ودخل هذيلٌ فيمن دخل في دين الله أفواجاً ، فبعث رسول الله ﷺ سريةً بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه لتحطيم سواع ، ويحدِّثنا قائد السَّريّة عن مهمَّته ، فيقول : «فانتهيت إليه ، وعنده السَّادن ، فقال : ما تريد؟ قلت : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمَه ، قال : لا تقدر على ذلك ، قلتُ : لِمَ؟ قالت : تُمْنَعُ ، قلت : حتَّى الآن أنت في الباطل ، ويحك! هل يسمع ، أو يبصر؟! قال : فدنوت منه فكسرتُه ، وأمرت أصحابي ، فهدموا بيت خزانته ، فلم يجدوا شيئاً ، ثمَّ قلت للسَّادن : كيف رأيت؟ قال : أسلمتُ لله[٣] .

ونستفيد من حركة السَّرايا الَّتي أرسلها رسولُ الله ﷺ للقضاء على الأصنام ، والأوثان : أنَّه لا يجوز إبقاء مواضع الشِّرك ، والطَّواغيت بعد القدرة على هدمها ، وإبطالها يوماً واحداً ، فإنَّها شعائر الكفر ، والشِّرك ، وهي أعظمُ المنكرات ، فلا يجوز الإقرارُ عليها مع القدرة ألبتَّة .

وهذا حكمُ المشَاهِدِ الَّتي بُنيت على القبُور الَّتي اتخذت أوثاناً ، وطواغيت تُعْبَد من دون الله ، والأحجار الَّتي تُقصد للتَّعظيم ، والتَّبرُّك ، والنَّذر ، والتَّقبيل ، لا يجوز إبقاء شيءٍ منها على وجه الأرض عند القدرة على إزالتها ، وكثيرٌ منها بمنزلة اللاَّت ، والعزَّى ، ومناة الثَّالثة الأخرى ، أو أعظم شركاً عندها ، وبها[٤] .

* * *

(١) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٢٩٢ .
(٢) انظر : سبل الرَّشاد ، للشَّامي (٦/ ٣٠٣) .
(٣) انظر : المغازي ، للواقدي (٢/ ٨٧٠) ، ومحمَّد ﷺ ، لمحمَّد رضا (سرية عمرو بن العاص إلى سُواع) .
(٤) انظر : السَّرايا والبعوث النَّبويَّة ، ص ٣٠٢ .

المبحث الثَّالث
دروس وعبر وفوائد

أولاً: تفسير سورة النَّصر، وكونُها علامةً على أجَل رسولِ الله ﷺ:

قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ يكثر من قوله: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» قالت: فقلت: يا رسول الله! أراك تكثر مِنْ قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه!» فقال: خبَّرني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي فإذا رأيتُها أكثرت من قول: «سبحان الله وبحمده، أستغفر الله، وأتوب إليه» فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣]». [مسلم (٤٨٤/ ٢٢٠)].

قال القرطبيُّ: وذلك لمَّا فُتِحتْ مكَّةُ؛ قالت العرب: أما إذا ظَفِر محمَّد بأهل الحرم، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل، فليس لكم به يدان (أي: طاقة) فكانوا يُسْلمون أفواجاً: أمَّةً أمَّةً[1]، وكان عمرو بن سلمة يقول: كنَّا بماءٍ ممرِّ النَّاس وكان يمرُّ بنا الرُّكبان، فنسألهم: ما للنَّاس؟ ما للنَّاس؟ ما هذا الرَّجل؟ فيقولون: يزعم أنَّ الله أرسله، أُوحي إليه، أو: أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذاك الكلام، وكأنَّما يَقِرُّ في صدري، وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنَّه إن ظهر عليهم؛ فهو نبيٌّ صادق؛ فلمَّا كانت وقعة أهل مكَّة؛ بادر كلُّ قوم بإسلامهم.

وهذه السُّورة تسمَّى سورة التَّوديع: حيث جاءت مخبرةً بقرب أجل المصطفى ﷺ[2]، فعن ابن عباسٍ، قال: كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدرٍ، فكأنَّ بعضهم وجد في نفسه، فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناءٌ مثله؟! ، فقال عمر: إنَّه ممَّن قد علمتم. فدعاني ذات يومٍ، فأدخلني معهم، فما رأيت أنَّه دعاني يومئذ إلا ليريهم منِّي! قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ حتَّى ختم السُّورة؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَد الله، ونستغفره إذا

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرَّسول ﷺ (٢/ ٥٧٢).

نصرنا ، وفتح علينا ، وسكت بعضُهم ، فلم يقل شيئاً ، فقال لي: أكذاك تقول يا بْنَ عباسٍ؟! فقلت: لا ، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه له ، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ ـ وذلك علامة أجلك ـ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول. [البخاري (٤٣٩٤)].

ويقول سيِّد قطب في بيان بعض ما يستفاد من هذه السُّورة: في مطلع السُّورة إيحاءٌ معيَّنٌ لإنشاء تصوُّرٍ خاصٍّ عن حقيقة ما يجرى في هذه الكون من أحداثٍ ، وما يقع في هذه الحياة من حوادثَ ، وعن دور الرَّسول ﷺ ، ودور المؤمنين في هذه الدَّعوة ، وحدِّهم الَّذي ينتهون إليه في هذا الأمر . . . . هذا الإيحاء يتمثَّل في قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فهو نصرٌ يجيء به الله في الوقت المناسب الَّذي يقدِّره في الصُّورة الَّتي يريدها ، للغاية الَّتي يرسمُها ، وليس للنَّبيِّ ، ولا لأصحابه من أمره شيءٌ ، وليس لهم في هذا النَّصر يدٌ ، وليس لأصحابه فيه كسبٌ ، وليس لذواتهم منه نصيبٌ ، وليس لنفوسهم منه حظٌّ ، إنَّما هو أمر الله يحقِّقه بهم ، أو بدونهم ، وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم ، وأن يقيمهم عليه حُرَّاساً ، ويجعلهم عليه أمناء ، هذا هو كلُّ حظِّهم من النَّصر ، والفتح ، ومن دخول النَّاس في دين الله أفواجاً[1].

وهذا معنىً إيمانيٌّ عميقٌ ، حرص القرآن على تثبيته في نفوس المؤمنين ، ألا وهو: أنَّ التَّمكين بيد الله تعالى ، فهو الَّذي يختار الزَّمان ، والمكان ، والأشخاص الَّذين يريد أن يُجرِيَ على أيديهم نصره ، وفتحه ـ سبحانه وتعالى ـ ، وهو كرمٌ وفضلٌ من الله محضٌ خصَّ به الصَّادقين مِنْ عباده.

ثانياً: مواقفُ دعويَّةٌ وقدرةٌ رفيعةٌ في التَّعامل مع النُّفوس:

١ ـ إسلام سهيل بن عمرو:

قال سهيل بن عمرو: لمَّا دخل رسول الله ﷺ مكَّة ، وظهر ، انقحمت[2] بيتي وأغلقتُ عليَّ بابي ، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل: أن اطْلُبْ لي جواراً من محمَّدٍ ، وإنِّي لا آمن مِنْ أن أُقتل ، وجعلت أتذكَّر أثري عند محمَّدٍ ، وأصحابه ، فليس أحدٌ أسوأ أثراً منِّي ، وأنِّي لقيتُ رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلحقه أحدٌ ، وكنت الذي كاتبتُه ، مع حضوري بدراً ، وأحداً ، وكلَّما تحرَّكتْ قريشٌ؛ كنت فيها ، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله ، فقال: يا رسول الله! تؤمِّنه؟ فقال: «نعم ، هو آمنٌ بأمان الله ، فليظهر!» ثمَّ قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «من لقي سهيل بن عمرو فلا يشدَّ النَّظر إليه ، فليخرج فلعمري! إنَّ سهيلاً له عقلٌ ،

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٩٦).

(٢) أي: رميت بنفسي.

وشرفٌ ، وما مثل سهيل جهل الإسلام ، ولقد رأى ما كان يُوضع فيه: أنَّه لم يكن له بنافع!» فخرج عبد الله إلى أبيه ، فقال سُهيل: كان والله بَرّاً ، صغيراً ، وكبيراً! فكان سهيل يقبل ، ويدبر ، وخرج إلى حنين مع النَّبيِّ ﷺ وهو على شركه حتَّى أسلم بالجِعِرَّانة. [الحاكم (٣/ ٢٨١)][(١)].

لقد كانت لهذه الكلمات التَّربويَّة الأثر الكبير على سهيل بن عمروٍ؛ حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبرِّ طوال عمره ، ثمَّ دخل في الإسلام بعد ذلك ، وقد حسُن إسلامه ، وكان مكثراً من الأعمال الصَّالحة[(٢)] ، يقول الزُّبير بن بكَّار: كان سهيل بعدُ كثير الصَّلاة والصَّوم والصَّدقة ، خرج بجماعته إلى الشَّام مجاهداً ، ويقال: إنَّه صام ، وتهجَّد حتى شحب لونُه ، وتغيَّر ، وكان كثير البُكاء إذا سمع القرآن ، وكان أميراً على كُرْدُوسَةٍ[(٣)] يوم اليرموك[(٤)].

٢ ـ إسلام صفوان بن أميَّة:

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه: . . . وأمَّا صفوان بن أميَّة فهرب حتَّى أتى الشُّعَيبة[(٥)] ، وجعل يقول لغلامه يسار ـ وليس معه غيره ـ: ويحك! انظر مَنْ ترى ، قال: هذا عُمَيرُ بن وهبٍ ، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي! قد ظاهر محمداً عليَّ. فلحقه فقال: يا عُمَيْرَ! ما كفاك ما صنعت بي؟ حمَّلتني دَيْنَك وعيالك ، ثمَّ جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلتُ فداك! جئتك من عند أبرِّ النَّاس ، وأوصل النَّاس ، وقد كان عُمير قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! سيِّد قومي خرج هارباً ليقذف نفسه في البحر ، وخاف ألا تُؤمِّنه فداك أبي ، وأمي! قال رسول الله ﷺ: «قد أمنته» فخرج في أثره ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أمَّنك. فقال صفوان: لا والله! لا أرجع معك حتَّى تأتيني بعلامةٍ أعرفها ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا رسول الله! جئت صفوان هارباً يريد أن يقتل نفسه ، فأخبرته بما أمَّنْتَه فقال: لا أرجع حتَّى تأتي بعلامةٍ أعرفها ، فقال رسول الله ﷺ: «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها ، وهو البُرْدُ الَّذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذٍ مُعتجراً[(٦)] به ، بُرد

---

(١) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٤٦ ـ ٨٤٧).

(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميدي (٧/ ٢١٦ ، ٢١٧).

(٣) الكُرْدُوسَةُ: طائفة عظيمةٌ من الخيل أو الجيش ، (ج) كراديس.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ١٩٥).

(٥) الشعيبة: مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز ، وهو كان مرفأ مكَّة ، ومرسى سفنها قبل جدَّة ، انظر: معجم البلدان (٥/ ٢٧٦).

(٦) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفَّها على رأسه ، ويردَّ طرفها على وجهه ، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه. (النهاية ٣/ ٦٩).

حَبِرة[١] ، فخرج عمير في طلبه ثانيةً حتَّى جاء بالبُرْد ، فقال: أبا وهب! جئتك من عند خير النَّاس ، وأوصل النَّاس ، وأبرِّ الناس ، وأحلم النَّاس ، مَجْده مَجْدُك ، وعزُّه عزُّك ، ومُلكه مُلكُك ، ابن أمِّك وأبيك ، اذكرِ الله في نفسك.

قال له: أخاف أن أُقتل ، قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام ، فإن رضيت وإلا سيَّرك شهرين ، فهو أوفى النَّاس ، وأبرُّهم ، وقد بعث إليك ببرده الَّذي دخل فيه معتجراً ، تعرفه؟ قال: نعم ، فأخرجه ، فقال: نعم ، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله ، ورسول الله ﷺ يُصلِّي بالمسلمين العصر بالمسجد ، فوقفا. فقال صفوان: كم تُصَلُّون في اليوم واللَّيلة؟ قال: خمس صلوات ، قال: يُصلِّي بهم محمَّد؟ قال: نعم. فلمَّا سلَّم؛ صاح صفوان: يا محمد! إنَّ عمير بن وهب جاءني ببردك ، وزعم: أنَّك دعوتني إلى القدوم عليك ، فإن رضيت أمراً ، وإلاَّ سيرتني شهرين. قال: انزل أبا وهب. قال: لا والله! حتى تبيِّن لي ، قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر ، فنزل صفوان. [البيهقي في الدلائل (٥/ ٤٦) ، وابن هشام (٤/ ٦٠)].

وخرج رسول الله ﷺ قِبَلَ هوازن ، وخرج معه صفوان ، وهو كافرٌ ، وأرسل إليه يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه مئة درعٍ بأداتها ، فقال: طوعاً ، أو كرهاً؟ قال رسول الله ﷺ: «عاريةٌ مُـؤَدَّاةٌ» [أحمد (٣/ ٤٠١ و٦/ ٤٦٥) ، وأبو داود (٣٥٦٢) ، والحاكم (٣/ ٤٩) ، والبيهقي في الكبرى (٦/ ٨٩)] ، فأعاره ، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين ، فشهد حنُيناً ، والطَّائف ، ثمَّ رجع رسول الله ﷺ إلى الجِعِرَّانة ، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها ، ومعه صفوان بن أميَّة؛ جعل صفوان ينظر إلى شعْبٍ مُلِئَ نَعَماً ، وشاءً ، ورِعَاءً ، فأدام إليه النَّظر ورسول الله ﷺ يرمقُه فقال: «أبا وهب ، يعجبُك هذا الشِّعب؟» قال: نعم ، قال: «هو لك وما فيه». فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفسُ أحدٍ بمثل هذا إلا نفسُ نبيٍّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ، وأسلم مكانه. [الواقدي في المغازي (٢/ ٨٥٣ ـ ٨٥٥) ، وكنز العمال (٣٠١٧٠)].

ونلاحظ في هذا الخبر أنَّ النَّبيَّ ﷺ حاول أن يتألَّف صفوان بن أميَّة إلى الإسلام حتَّى أسلم ، وذلك بإعطائه الأمان ، ثمَّ بتخييره في الأمر أربعة أشهر ، ثمَّ بإعطائه من مال العطايا الكبيرة التي لا تصدر من إنسانٍ عاديٍّ ، فأعطاه أولاً مئةً من الإبل مع عددٍ من زعماء مكَّة ، ثمَّ أعطاه ما في أحد الشِّعاب من الإبل ، والغنم ، فقال: ما طابت نفس أحدٍ بهذا إلا نفس نبيٍّ ، ثمَّ أسلم مكانه[٢] ، وقد وصف لنا صفوان بن أميَّة عطاء النَّبيِّ ﷺ فقال: والله! لقد أعطاني رسول الله ﷺ

---

(١) الحَبِرَةُ: ضربٌ من ثياب اليمن.

(٢) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٠).

ما أعطاني ، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ. [مسلم (٢٣١٣)].

٣ـ إسلام عكرمةَ بنِ أبي جهلٍ :

قال عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنه : قالت أمُّ حكيمٍ امرأة عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنها : يا رسول الله! قد هرب عكرمة منك إلى اليمن ، وخاف أن تقتله ؛ فأَمِّنْهُ! فقال رسول الله ﷺ : «هو آمن» فخرجت أمُّ حكيمٍ في طلبه ، ومعها غلامٌ لها روميٌّ ، فراودها عن نفسها ، فجعلت تُمَنِّيه حتَّى قدمت على حَيٍّ مِنْ عَكٍّ[1] ، فاستغاثتهم عليه ، فأوثقوه رباطاً ، وأدركت عكرمةَ وقد انتهى إلى ساحلٍ من سواحلِ تهامة ، فركب البحر ، فجعل نُوتيُّ السَّفينة يقول له : أخلص! فقال : أيُّ شيءٍ أقول : قال : قل : لا إله إلا الله ، قال عكرمة : ما هربت إلا مِنْ هذا ، فجاءت أمُّ حكيم على هذا الكلام ، فجعلت تلحُّ عليه ، وتقول : يا بن عم! جئتك من عند أوصل النَّاس ، وأبرِّ النَّاس ، وخير النَّاس ، لا تُهلِكْ نَفْسَكَ! فوقف لها حتَّى أدركته ، فقالت : إنِّي قد استأمنت لك محمَّداً رسول الله ﷺ ، قال : أنت فعلت؟ قالت : نعم ، أنا كلَّمتُه ، فأمَّنك ، فرجع معها وقال : ما لقيت من غلامك الرُّوميِّ؟ فخبَّرته خبره ، فقتله عكرمةُ ، وهو يومئذٍ لم يُسلم ، فلمَّا دنا من مكَّة ؛ قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً ، فلا تَسُبُّوا أباه ، فإنَّ سبَّ الميِّت يؤذي الحيَّ ، ولا يبلغ الميِّت».

قال : وجعل عكرمة يطلب امرأته يُجامعها ، فتأبى عليه ، وتقول : إنَّك كافرٌ ، وأنا مسلمةٌ ، فيقول : إنَّ أمراً منعك منِّي لأمرٌ كبير ، فلمَّا رأى النَّبيُّ ﷺ عكرمة ؛ وثب إليه ـ وما على النَّبيِّ ﷺ رداءٌ ـ فرحاً بعكرمة ، ثمَّ جلس رسولُ الله ﷺ فوقف بين يديه ، وزوجتُه مُتنقبةٌ ، فقال : يا محمد! إن هذه أخبرتني أنَّك أمَّنتني .

فقال رسول الله ﷺ : «صَدَقَتْ ، فأنت آمن!» فقال عكرمة : فإلامَ تدعو يا محمد؟! قال : «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله ، وأن تقيم الصَّلاة وتؤتي الزَّكاة ، وتفعل ، وتفعل» ، حتَّى عدَّ خصال الإسلام . فقال عكرمة : والله! ما دعوتَ إلا إلى الحقِّ ، وأمرٍ حسنٍ جميلٍ ، قد كنت والله! فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه ، وأنت أصدقُنا حديثاً ، وأبرُّنا برّاً! ثمَّ قال عكرمة : فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه ، فسُرَّ بذلك رسولُ الله ﷺ ، ثمَّ قال : يا رسول الله! علِّمني خيرَ شيءٍ أقوله . قال : «تقول أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمَّداً عبده ورسوله» قال عكرمة : ثُمَّ ماذا؟ قال رسول الله ﷺ : «تقول : أُشْهِدُ الله وأُشْهِد مَنْ حضر أنِّي مسلمٌ مهاجرٌ ، ومجاهدٌ» . فقال عكرمة ذلك .

---

(١) عك : مخلاف من مخاليف مكَّة التهاميَّة ، معجم ما استعجم ، ص ٢٢٣ .

فقال رسول الله ﷺ: «لا تسألني اليوم شيئاً أعطيه أحداً إلا أعطيتُكَه» فقال عكرمة: فإنِّي أسألك أن تستغفر لي كلَّ عداوةٍ عاديتُكها، أو مسيرٍ وُضعتُ فيه، أو مقام لقيتُك فيه، أو كلام قلتُه في وجهك، أو وأنت غائبٌ عنه، فقال رسول الله ﷺ: «اللّهمَّ! اغفر له كلَّ عداوةٍ عادانيها، وكلَّ مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال منِّي مِنْ عرضٍ في وجهي، أو أنا غائبٌ عنه!» فقال عكرمة: رضيتُ يا رسول الله! لا أدع نفقةً كنت أنفقُها في صدٍّ عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالاً كنتُ أقاتل في صدٍّ عن سبيل الله إلا أبليتُ ضعفه في سبيل الله، ثمَّ اجتهد في القتال حتَّى قتل شهيداً[١].

وبعد أن أسلم رد رسول الله ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول. [ابن هشام (٤/ ٦١)][٢].

كان سلوك النَّبيِّ ﷺ في تعامله مع عكرمة لطيفاً حانياً، يكفي وحدَه لاجتذابه إلى الإسلام، فقد أعجل نفسه عن لبس ردائه، وابتسم له، ورحَّب به، وفي روايةٍ: قال له: «مرحباً بالراكب المهاجر!» [الترمذي (٢٧٣٥)، والطبراني في الكبير (٧/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤)، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٨٥)].

فتأثَّر عكرمة من ذلك الموقف، فاهتزَّت مشاعره، وتحرَّكت أحاسيسه، فأسلم، كما كان لموقف أمِّ حكيم بنت الحارث بن هشام أثرٌ في إسلام زوجها، فقد أخذت له الأمان من رسول الله ﷺ، وغامرت بنفسها تبحث عنه لعلَّ الله يهديه إلى الإسلام كما هداها إليه، وعندما أرادها زوجها، امتنعت عنه، وعلَّلت ذلك بأنَّه كافرٌ وهي مسلمةٌ، فعظم الإسلام في عينه وأدرك أنَّه أمام دين عظيمٍ، وهكذا خطت أم حكيم في فكر عكرمة بداية التَّفكير في الإسلام، ثمَّ تُوِّج بإسلامه بين يدي رسول الله ﷺ، وكان صادقاً في إسلامه، فلم يطلب من رسول الله ﷺ دنيا؛ وإنَّما سأله أن يغفر الله تعالى له كلَّ ما وقع فيه من ذنوبٍ ماضية، ثمَّ أقسم أمام النَّبيِّ ﷺ بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله تعالى بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، وأن يُبليَ في الجهاد في سبيل الله بضعف ما كان يبذله في الجاهلية، ولقد بَرَّ بوعده، فكان من أشجع المجاهدين، والقادة في سبيل الله تعالى في حروب الردَّة، ثمَّ في فتوح الشام، حتَّى وقع شهيداً في معركة اليرموك بعد أن بذل نفسه، وماله في سبيل الله[٣].

٤ ـ مثلٌ من تواضع النَّبيِّ ﷺ: إسلام والد أبي بكر:

قالت أسماء بنت أبي بكر الصِّديق رضي الله عنها: لمَّا دخل رسول الله ﷺ مكَّة، ودخل المسجد؛ أتى أبو بكر بأبيه يقودُه، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ قال: «هلاَّ تركت الشيخ في بيته حتَّى

---

(١) يعني: يوم اليرموك.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٢/ ٨٥١ ـ ٨٥٣).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٥).

أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله! هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثمَّ مسح صدره، ثمَّ قال له: «أسلم»، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر، وكأنَّ رأسه ثغامةٌ، فقال رسول الله ﷺ: «غيِّروا هذا من شعره» [أحمد (٦/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (٢٤/ ٨٨ ـ ٨٩) برقم (٢٣٦)، وابن حبان (٧٢٠٨)، والحاكم (٣/ ٤٦ ـ ٤٧)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٧٣ ـ ١٧٤)][1]، ويروى: أنَّ رسول الله ﷺ هنَّأ أبا بكرٍ بإسلام أبيه[2].

وفي هذا الخبر منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنَّه النَّبيُّ ﷺ في توقير كبار السِّنِّ واحترامهم، ويؤكِّد ذلك قوله ﷺ: «ليس منَّا من لم يوقِّر كبيرنا، ويرحم صغيرنا» [أحمد (١/ ٢٥٧)، والترمذي (١٩٢١)، وابن حبان (٤٥٩)].

وقوله ﷺ: «إنَّ من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشَّيبة المسلم» [أبو داود (٤٨٤٣)]، كما أنَّه ﷺ سَنَّ إكرام أقارب ذوي البلاء، والبذل، والعطاء، والسَّبق في الإسلام؛ تقديراً لهم على ما بذلوه من خدمةٍ للإسلام والمسلمين، ونصر دعوة الله تعالى[3].

٥ ـ مثلٌ من عفو النَّبيِّ ﷺ وحلمه: إسلام فضالة بن عُمَيْرٍ:

أراد فُضالة بن عُمَيْر بن الملوح اللَّيثي قتل النَّبيِّ ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلمَّا دنا منه، قال رسولُ الله ﷺ: «أفضالة؟» قال: نعم فضالة يا رسول الله! قال: «ماذا كنت تحدِّث به نفسك؟» قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فَضَحِكَ النبي ﷺ، ثم قال: «استغفر الله» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبُه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتَّى ما مِنْ خلق الله شيءٌ أحبَّ إلي منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأةٍ كنت أتحدَّث إليها، فقالت: هَلمَّ إلى الحديث، فقلت: لا! وانبعث فضالة يقول:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيْثِ فَقُلْتُ لاَ ... يَأْبَى عَلَيْكِ اللهُ والإِسْلاَمُ
لَوْ مَا رأيتِ محمَّداً وَقَبِيْلَهُ ... بِالْفَتْحِ يَوْمَ تُكَسَّرُ الأَصْنَامُ
لَرَأَيْتِ دِيْنَ اللهِ أَضْحَى بَيِّنَاً ... والشِّرْكُ يَغْشَى وَجْهَهُ الإِظْلاَمُ

[ابن هشام (٤/ ٥٩ ـ ٦٠)][4].

ثالثاً: أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله؟!

قال عروة بن الزُّبير: إنَّ امرأةً سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومُها إلى أسامة بن زيدٍ يستشفعونه، قال عروة: فلمَّا كلَّمه أسامةُ فيها؛ تلوَّن وجه رسول الله ﷺ، فلمَّا

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ٥٤، ٥٥).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٥٧٧.
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميديِّ (٧/ ١٩٥).
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٧/ ٢١٣).

كان العشيُّ؛ قام رسول الله ﷺ خطيباً فأثنى على الله بما هو أهلُه ، ثمَّ قال: «أمَّا بعد ، فإنَّما أهلك النَّاس قبلكم: أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف؛ تركوه ، وإذا سرق فيهم الضَّعيف ، أقاموا عليه الحدَّ ، والَّذي نفس محمد بيده! لو أنَّ فاطمة بنت محمَّدٍ سرقت؛ لقطعت يدها» ، ثمَّ أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقُطِعَتْ يـدُها ، فحسنت توبتُها بعد ذلـك وتزوَّجت . قالت عائشـة رضي الله عنها: فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتها إلى رسول الله ﷺ . [البخاري (٤٣٠٤) ، ومسلم (١٦٨٨/ ٩)] .

وهكذا يستمرُّ البناء التربويُّ للأمَّة ، ونرى العدل في إقامة شرع الله على القريب والبعيد على حدٍّ سواء ، ووجدت قريش نفسها أمام تشريع ربَّانيٍّ لا يفرق بين النَّاس ، فهم كلُّهم أمام ربِّ العالمين سواءٌ ، وأصبحت معايير الشَّرف هي الالتزام بأوامر الله تعالى ، وفي هذا الموقف الَّذي أثار غضب رسول الله الشديد ، واهتمامه الكبير لعبرةٌ للمسلمين ، حتى لا يتهاونوا في تنفيذ أحكام الله تعالى ، أو يشفعوا لدى الحاكم من أجل تعطيل الحدود الإسلاميَّة[1] .

رابعاً: «أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانئ !»:

قالت أمُّ هانئ بنت أبي طالب: لمَّا نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكَّة؛ فرَّ إليَّ رجلان من أحمائي ، من بني مخزوم ـ وكانت عند هُبيرة بن أبي وهب المخزوميِّ ـ قالت: فدخل عليَّ عليُّ بن أبي طالب أخي ، فقال: والله! لأقتلنَّهما ، فأغلقتُ عليهما باب بيتي ، ثمَّ جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكَّة ، فوجدته يغتسل من جَفنةٍ إنَّ فيها لأثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلمَّا اغتسل ، أخذ ثوبه ، فتوشَّح به ، ثمَّ صلى ثماني ركعاتٍ من الضُّحى ، ثمَّ انصرف إليَّ ، فقال: «مرحباً ، وأهلاً يا أم هانئ ! ما جاء بك ؟» فأخبرته خبر الرَّجلين ، وخبر عليٍّ؛ فقال: «قد أجرنا مَنْ أجرتِ ، وأمَّنَّا مَنْ أمَّنْتِ ، فلا يقتلهما». [البخاري (٣١٧١) ، ومسلم (٣٣٦/ ٨٢)][2] .

خامساً: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنة أعين»:

كان عبد الله بن سعد بن أبي السَّرح قد أسلم وكتب الوحيَ ثمَّ ارتد ، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ مكَّة ، وقد أهدر دمه؛ فرَّ إلى عثمان ، وكان أخاه من الرَّضاعة ، فلمَّا جاء به ليستأمنَ له؛ صمت عنه رسولُ الله ﷺ طويلاً ، ثم قال: «نعم» فلمَّا انصرف مع عثمان؛ قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حين رآني قد صَمَتُّ ، فيقتله؟!» فقالوا:

---

(١) انظر: من معين السيرة ، ص ٤٠٢ ، والتَّاريخ الإسلامي (٧/ ٢٣٣).

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٥٩ ، ٦٠) ، وصحيح السِّيرة ، ص ٥٢٧ .

يا رسول الله! هلاَّ أومأت إلينا؟ فقال: «إنَّ النَّبيَّ لا يقتُل بإشارة» [الطبراني في الأوسط (٦٥٧٣)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٦٧)][(١)].

وفي روايةٍ: «إنَّه لا ينبغي لنبيٍّ أن يكون له خائنةُ أعين» [أبو داود (٢٦٨٣) و(٤٣٥٩)، والنسائي (٧/ ١٠٥ ـ ١٠٦)][(٢)].

قال ابن هشام: وقد حسن إسلامُه بعد ذلك، وولاَّه عمر بعض أعماله، ثمَّ ولاه عثمان[(٣)].

وقال ابن كثير: ومات وهو ساجدٌ في صلاة الصُّبح، أو بعد انقضاء صلاتها في بيته[(٤)].

سادساً: «المحيا محياكم، والمماتُ مماتُكم»:

قال أبو هريرة: .... أتى رسولُ الله ﷺ الصَّفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعضٍ: أمَّا الرَّجل؛ فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشيرته، قال أبو هريرة رضي الله عنه: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يَخْفَ علينا، فليس أحدٌ من النَّاس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتَّى يقضي، قال: فلمَّا قُضِيَ الوحي؛ رفع رأسه، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار! قلتم: أمَّا الرَّجل، فأدركته رغبةٌ في قريته، ورأفةٌ بعشيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله! قال: «فما اسمي إذاً؟! كلا، إنِّي عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله، وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم».

قال: فأقبلُوا إليه يبكون، ويقولون: والله! ما قلنا الَّذي قلنا إلا الظنَّ بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإنَّ الله ورسولَه ليصدِّقانكم، ويعذرانكم». [أحمد (٢/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩)، ومسلم (١٧٨٠)][(٥)].

سابعاً: إسلام عبد الله بن الزِّبَعْرى شاعر قريش:

لمَّا فُتِحَتْ مكَّةُ فرَّ عبد الله بن الزِّبَعْرَىٰ السَّهميُّ إلى نجران، فلحقته قوافي حسَّان، فقد كان خصماً عنيداً للإسلام، فراح يعيِّره بالجُبْن، والفِرار، فقال له:

لاَ تَعْـدِمَـنْ رَجُـلاً أَحَلَّـكَ بُغْضُـهُ ... نَجْـرَانَ فِـي عَيْـشٍ أَحَـذَّ لَئِيـمِ[(٦)]

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٩٦).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص ٥٢٨.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ٥٨).
(٤) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٢٩٦).
(٥) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٥٢٩، ٥٣٠، والبداية والنهاية، لابن كثير، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام، وكنز العمال، للمتقي الهندي (الأنصار رضي الله عنهم).
(٦) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٠٧).

أي: فَلْيُبْقِ الله لنا محمَّداً ﷺ هذا الرَّجل العظيم الَّذي أحلَّك بغضُه ديارَ نجران، وليُدمِ الله عليك ابن الزِّبعرى عيشاً مهيناً أشأم.

ثمَّ راح حسَّان يستنزل غضب الله ومَقْتَه على ابن الزِّبعرى وعلى نجله، ويسأل الله تعالى أن يخلِّده في سوء العذاب، وأليمه[1]:

غَضِبَ الإلَـهُ عَلَـى الـزِّبَعْـرَى، وَابْنَـهُ وعَـذَابُ سُـوءٍ فـي الحَيَـاةِ مُقِيْـمُ

فتطايرت تلك الأبيات، ووصلت إلى ابن الزِّبَعْرَىٰ، فقام، وقعد، وقلب أموره، ثمَّ أراد الله به الخير، فعزم على الدُّخول في الإسلام، ثمَّ توجَّه إلى مكَّة، وقصد رسول الله ﷺ وأعلن إسلامه، وطلب مِنْ رسول الله ﷺ أن يستغفر له كلَّ عداوةٍ له، وللإسلام، فقال له رسول الله ﷺ: «إن الإسلام يجبُّ ما قبله[2]»، ثمَّ أدناه رسول الله ﷺ منه، وآنسه، ثمَّ خلع عليه حلَّة[3]، وقد أجمع الرُّواة أنَّ ابن الزِّبَعْرَىٰ رضي الله عنه قال بعد إسلامه شعراً كثيراً حسناً يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ[4]، قال ابن عبد البرِّ ـ رحمه الله ـ: وله ـ أي: لابن الزِّبَعْرىٰ ـ في مدح النَّبي ﷺ أشعارٌ كثيرةٌ، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كُفْرِه[5].

وكذا نصَّ ابنُ حجرٍ في الإصابة: ثمَّ أسلم، ومدح النَّبيَّ ﷺ، فأمر له بِحُلَّةٍ[6].

وقال القرطبي: «وكان شاعراً مُجيداً، وله في مدح النَّبيِّ ﷺ أشعارٌ كثيرةٌ، ينسخ بها ما قد مضى في كفره»[7]، وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام، وَمِنَ الشُّعراء الَّذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثمَّ منَّ اللهُ عليه بالتَّوبة والإنابة، والرُّجوع إلى الإسلام، والقيام بنصره والذَّبِّ عنه[8].

ومن القصائد الرَّائعة الَّتي قالها في مدح النَّبيِّ ﷺ، وندمه على محاربة الإسلام، وتأخُّره في الدُّخول فيه:

---

(١) الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى، محمَّد كاتبي، ص ٩٢.
(٢) المغازي (٢/٨٤٨).
(٣) الأعلام، للزركلي (٤/٨٧)، والإصابة، لابن حجر (٢/٣٠٨) نقلاً عن المرجع الذي بعده.
(٤) انظر: الصَّحابي الشَّاعر عبد الله بن الزِّبعرى، ص ٩٧.
(٥) انظر: الاستيعاب، لابن عبد البرِّ (٢/ ٣١٠).
(٦) انظر: الإصابة (٢/٣٠٨).
(٧) انظر: تفسير القرطبيّ (٦/ ٤٠٧).
(٨) البداية والنِّهاية (٤/٣٠٨).

مَنَعَ الرُّقادَ بَلابِلٌ وهُمُومُ ... واللَّيْلُ مُعْتَلِجُ[١] الرِّوَاقِ[٢] بَهِيمُ[٣]

مِمَّا أَتَانِي أَنَّ أَحْمَدَ لامَنِيْ ... فِيْهِ فَبِتُّ كَأَنَّنِي مَحْمُوْمُ

يا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَىٰ أَوْصَالِهَا ... عَيْرَانَةٌ[٤] سُرُحُ الْيَدَيْنِ غَشُوْمُ[٥]

إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِيْ ... أَسْدَيْتُ إذ أَنَا في الضَّلالِ أَهِيْمُ

أَيَّامَ تأْمُرُنِي بِأَغْوَىٰ خُطَّةٍ ... سَهْمٌ وتأْمُرُنِي بِهَا مَخْزُوْمُ

وأمُدُّ أَسْبَابَ الرَّدَىٰ ويَقُودُنِي ... أَمْرُ الغُوَاةِ وأَمْرُهُمْ مَشْؤومُ

فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ... قَلْبِي وَمُخْطِئُ هَذِهِ مَحْرُوْمُ

مَضَتِ العَداوَةُ وانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا ... ودَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنَنَا وَحُلُومُ

فاغْفِرْ فِدىً لكَ والِدَيَّ كِلاَهُمَا ... زَلَلِي فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومُ

وعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ المَلِيْكِ عَلاَمَةٌ ... نُورٌ أَغَرُّ وخَاتَمٌ مَخْتُومُ

أَعْطَاكَ بَعْدَ مَحَبَّةٍ بُرْهَانَهُ ... شَرَفاً وبُرْهَانُ الإِلٰهِ عَظِيْمُ

وَلَقَدْ شَهِدْتُ بأَنَّ دِيْنَكَ صَادِقٌ ... حَقٌّ وأَنَّكَ في العِبَادِ جَسِيْمُ

واللهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفَىٰ ... مُسْتَقْبَلٌ في الصَّالِحِيْنَ كَرِيْمُ

قَرْمٌ عَلاَ بُنْيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ ... فَرْعٌ تَمَكَّنَ في الذُّرا وأُرُوْمُ[٦]

ثامناً: من الأحكام الشَّرعيَّة الَّتي تؤخذ من الغزوة، ومكانُ نزول الرَّسول ﷺ بمكَّة:

١ ـ اتَّضحت كثير من الأحكام الشَّرعيَّة خلال فتح مكَّة؛ منها:

أ ـ جواز الصَّوم، والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصيةٍ؛ حيث صام الرَّسول ﷺ في مسيرة الجيش من المدينة حتَّى بلغ كُدَيْداً، فأفطر[٧].

ب ـ صلَّى النَّبيُّ ﷺ صلاة الضُّحى ثمانيَ ركعاتٍ خفيفةً، واستدلَّ قوم بهذا على أنَّها سنَّةٌ مؤكَّدةٌ[١].

---

(١) معتلج: ملتطم.
(٢) الرِّواق: مقدم اللَّيل.
(٣) بهيم: لا ضوء فيه إلى الصَّباح.
(٤) عيرانة: راحلة.
(٥) غشومُ: شجاعٌ، لا يثنيه أمرٌ عن عزمه.
(٦) انظر: البداية والنِّهاية (٤/٣٠٧، ٣٠٨)، أروم: أصل.
(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص ٥٧٤.

ج ـ قصر الصَّلاة الرُّباعية للمسافر ، فقد أقام النَّبيُّ ﷺ بمكَّة تسعةَ عَشَرَ يوماً يقصر الصَّلاة[١] .

د ـ تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدَّة ثلاثة أيام[٢] ، ويرى الإمام النَّوويُّ[٣] : أنَّه وقع تحريمه ، وإباحته مرَّتين ؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر ، فحُرِّم يومها ، ثمَّ أبيح يوم الفتح ، ثمَّ حُرِّم للمرة الثَّانية إلى الأبد . ويرى ابن القيِّم[٤] : أن المتعة لم تُحرَّم يوم خيبر ، وإنَّما كان تحريمها فقط يوم الفتح ، وله في هذا مناقشةٌ طويلةٌ عند كلامه عن الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث غزوة خيبر ، وغزوة الفتح . والمتَّفق عليه : أنَّها حرِّمت إلى الأبد بعد الفتح[٥] .

هـ ـ قرَّر الرَّسول ﷺ : أنَّ الولد للفراش ، وللعاهر الحجر . [سبق تخريجه] . كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة زمعة ، فقد تنازع فيه سعدُ بن أبي وقَّاص وعبد بن زمعة ، فقضى فيه رسول الله ﷺ لعبد بن زمعة ؛ لأنَّه ولد على فراش أبيه . [سبق تخريجه] .

و ـ عدم جواز الوصيَّة بأكثر من ثلث المال ، كما في قصَّة سعد بن أبي وقَّاص حين مرض بمكَّة ، واستشار الرَّسول ﷺ في أن يوصيَ بأكثر من الثُّلث[٦] .

هذه بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من أحداث الغزوة ، والفتح العظيم .

٢ ـ مكان نزول الرَّسول ﷺ بمكَّة :

نزل رسولُ الله ﷺ بالحجون في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين ، وقال عندما سأله أسامة بن زيد إن كان سينزل في بيته : «وهل ترك لنا عقيلٌ من رباع ، أو دور؟!» [البخاري (١٥٨٨) ، ومسلم (١٣٥١)] مبيناً : أنَّه لا يرث المسلم الكافر [البخاري (٦٧٦٤) ، ومسلم (١٦١٤)][٧] ، وكان عقيل قد ورث أبا طالب ، هو وطالب أخوه ، وباع الدُّورَ كلَّها ، وأمَّا عليٌّ ، وجعفرٌ فلم يرثاه لأنَّهما مسلمان ، وأبو طالب مات كافراً[٨] .

---

(١) انظر : المجتمع المدني ، ص ١٨٥ .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصلية ، ص ٥٧٥ .
(٣) النَّوويُّ على شرح مسلم (٩/ ١٨١) ، وقد اعتمدت في فقه الأحكام على ما استخرجه الدُّكتور العمري في المجتمع المدني ، والدُّكتور مهدي رزق الله في السِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة .
(٤) انظر : زاد المعاد (٣/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥ ـ ٤٥٩ ـ ٤٦٤) .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٥٧٥ .
(٦) المجتمع المدني ، للعمري ، ص ١٨٦ .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة ، للعمري (٢/ ٤٨٢) .
(٨) المصدر السابق نفسه .

تاسعاً: من نتائج فتح مكَّة:

كان لفتح مكَّة نتائجُ كثيرةٌ؛ منها:

١ ـ دخلت مكَّة تحت نفوذ المسلمين، وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشِّرك في حنين، والطائف، ومن ثَمَّ في العالم أجمع.

٢ ـ أصبح المسلمون قوةً عظمى في جزيرة العرب، وبعد فتح مكَّة تحقَّقت أمنية الرَّسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، وبرزت قوَّةٌ كبرى في الجزيرة العربيَّة لا يستطيع أيُّ تجمُّع قبليٍّ الوقوف في وجهها، وهي مؤهَّلةٌ لتوحيد العرب تحت راية الإسلام، ثمَّ الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم، والطُّغيان، وتأمين الحرِّيَّة لخلق الله؛ لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده دون سواه[1].

٣ ـ كان لهذا الفتح آثارٌ عظيمةٌ دينيَّةٌ، وسياسيَّةٌ، واجتماعيَّة، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمَسُها كلُّ مَنْ يُمعن النَّظر في هذا الفتح المبارك.

فأمَّا الآثار الاجتماعيَّة؛ فتمثَّلت في رفقه ﷺ بالنَّاس، وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يُعلِّمهم، ويفقِّههم في دينهم فقد أبقى معاذ بن جبل رضي الله عنه في مكَّة بعد انصرافه عنها ليصلِّيَ بالنَّاس، ويفقِّههم في دينهم.

وأمَّا الآثار السِّياسيَّة، فقد عيَّن عتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ أميراً على مكَّة، يحكم بين النَّاس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظَّالم[2].

وأمَّا الآثار الدِّينيَّة؛ فإنَّ فتح مكة، وخضوعها لسلطان الإسلام قد أقنع العرب جميعاً بأن الإسلام هو الدِّين الَّذي ارتضاه الله لعباده، فدخلوا فيه أفواجاً[3].

٤ ـ تحقَّق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصَّادقين، بعدما ضحَّوا بالغالي، والنَّفيس، وحقَّقوا شروط التَّمكين، وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه، كسنَّة الابتلاء، والتَّدافع، والتَّدرُّج، وتغيير النُّفوس، والأخذ بالأسباب، ولا ننسى تلك الصُّورة الرَّائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذِّناً بالصَّلاة بعد أن عُذِّبَ في بطحاء مكَّة، وهو يردد: أحد! أحد! في أغلاله وحديده، هاهو اليوم قد صعد فوق الكعبة ليرفع صوته الجميل بالأذان؛ وهو في نشوة الإيمان.

* * *

---

(١) انظر: قيادة الرسول ﷺ السِّياسية والعسكريَّة، لأحمد عرموش، ص ١٢٩.

(٢) انظر: تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ، ص ٢٦٦.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦٧.

الفصل السَّادس عشر
غزوة حنين، والطَّائف (٨ هـ)[١]

المبحث الأوَّل
أسبابها، وأحداث المعركة

لمَّا فتح الله مكَّة على رسوله، والمؤمنين، وخضعت له قريشٌ، خافت هوازن، وثقيفٌ، وقالوا: قد فرغ محمَّد لقتالنا، فلنغزُه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولَّوْا عليهم مالكَ بن عوف النَّصْريَّ، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبنو هلال، ولم يحضرها من هوازن كعبٌ، وكلابٌ، وكان معهم دُرَيْدُ بنُ الصِّمَّة، وكان معروفاً بشدَّة البأس في الحرب، وأصالة الرَّأي، إلا أنَّه كان كبيراً فلم يكن له إلا الرأي، والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يُخرجوا وراءهم النِّساء والذَّراري، والأموال حتى لا يفرُّوا، فلمَّا علم بذلك دُرَيْدُ؛ سأله: لِمَ ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كلِّ رجلٍ أهلَه، ومالَه؛ ليقاتل عنهم، فقال دُرَيْدُ: راعي ضأنٍ والله، وهل يردُّ المنهزمَ شيءٌ؟! إنَّها إن كانت لك؛ لم ينفعك إلا رجلٌ بسيفه، ورمحه، وإن كانت عليك؛ فُضِحْتَ في أهلك ومالك!! ولكنَّه لم يستمع لمشورته[٢].

أوَّلاً: أهمُّ أحداث غزوة حنين:

تحرَّك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال، ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوَّال[٣]، وقد استخلف الرَّسول ﷺ عَتَّابَ بْنَ أَسِيْدٍ على مكَّة عند خروجه، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفاً من المسلمين، أمَّا عدد هوازن، وثقيف: فكانوا ضعف عدد

---

(١) ينظر الشكلان (١٨ و١٩) في الصفحتين (٦٢٢ و٦٢٣).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٤٦٧)، والسِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ٨٨).
(٣) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠).

المسلمين، أو أكثر، ولما رأى بعض الطُّلقاء جيش المسلمين؛ قالوا: لن نُغْلَبَ اليوم من قلَّة، ودخل الإعجابُ في النُّفوس[(١)].

أ ـ التعبئة الَّتي اتَّخذها مالكُ بن عوف زعيمُ هوازن، وثقيف:

اتَّخذ مالك بن عوف زعيم قبائل هوازن وثقيف تعبئةً عاليةً، مرَّت بمراحل:

١ ـ رفع الرُّوح المعنويَّة لدى جنوده:

وقف مالك خطيباً في جيشه، وحثَّهم على الثَّبات، والاستبسال، وممَّا قال في هذا الجمع الحاشد: إنَّ محمداً لم يقاتل قطُّ قبل هذه المرَّة، وإنما كان يلقى قوماً أغماراً[(٢)]، لا علم لهم بالحرب فيُنصَرُ عليهم[(٣)].

٢ ـ حشر ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين، وأطفالهم، وأموالهم خلفهم، وقد قصد من وراء هذا التَّصرُّف دفع المقاتلين إلى الاستبسال، والثبات أمام أعدائهم؛ لأنَّ المقاتل ـ من وجهة نظره ـ إذا شعر أنَّ أعزَّ ما يملك وراءهُ في المعركة؛ صعُب عليه أن يلوذ بالفرار مخلِّفاً ما وراءه في ميدان المعركة؛ عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه، قال: افتتحنا مكَّة، ثمَّ غزونا حنيناً، فجاء المشركون بأحسن صفوفٍ رأيتُ، قال: فصُفَّتِ الخَيْلُ، ثُمَّ صُفَّت المقاتلة، ثمَّ صُفَّتِ النِّساءُ من وراء ذلك، ثُمَّ صُفَّتِ الغنم، ثم صُفَّتِ النَّعَمُ. [مسلم (١٠٥٩/١٣٦)].

٣ ـ تجريد السُّيوف، وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التَّصرُّف يؤذن بإصرار المقاتل على الثَّبات أمام الخصم حتَّى النَّصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقاً لهذا، بدليل قوله: إذا أنتم رأيتم القوم؛ فاكسروا جفون سيوفكم، وشدُّوا شدَّة رجلٍ واحدٍ عليهم. [الحاكم (٣/٤٨ ـ ٤٩)، ومجمع الزوائد (٦/١٧٩ ـ ١٨٠)].

٤ ـ وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كان عند مالك بن عوف النَّصْرِيِّ معلوماتٌ وافيةٌ عن الأرض الَّتي ستدور عليها المعركة، ولهذا رأى أن يستغلَّ هذه الظُّروف الطَّبيعيَّة لصالح جيشه، فعمل بمشورة الفارس المحنَّك دُرَيْدُ بن الصِّمَّة في نصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٩٧).

(٢) أغمار: جمع غُمر، بضم الغين، وإسكان الميم، وهو الذي لم يجرِّب الأمور.

(٣) انظر: مغازي (٣/ ٨٩٣).

قوات المسلمين لولا لطفُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعنايتُه.

٥ ـ الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضمنَ الخطَّة الَّتي رسمها القائد الهوازنيُّ الأخذُ بزمام المبادرة، ومهاجمة المسلمين؛ لأنَّ النَّصر في الغالب يكون للمهاجم، أمَّا المدافع فغالباً ما يكون في مركز الضَّعف، ولهذا آتت هذه الخطَّة ثمارها بعض الوقت، ثمَّ انقلبت موازين القوى ـ بفضل الله تعالى ـ ثمَّ بثبات رسول الله ﷺ حيث كسب المسلمون الجولة، وانتصروا على أعدائهم[١].

٦ ـ شن الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين:

كان من ضمن بنود الخطَّة الحربيَّة الَّتي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازنيُّ، استعمال سلاحٍ معنويٍّ، له تأثيرٌ كبيرٌ في النُّفوس، فقد شنَّ الحرب النَّفسيَّة ضدَّ المسلمين من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال الَّتي صحبها معه في الميدان، فجعلها وراء جيشه ثمَّ أركب عليها النساء، فكان لذلك المشهد منظرٌ مهيب يحسب من يراه: أنَّ هذا الجيش مئة ألف مقاتلٍ، وهو ليس كذلك[٢].

ب ـ خطوات الرَّسول ﷺ لصدِّ هذه الحشود:

لمَّا بلغ النبي ﷺ عزم هوازن على حربه بعد أن تمَّ له فتح مكَّة ـ شرَّفها الله ـ قام بالآتي:

١ ـ أرسل عبدَ الله بن أبي حَدْرَد الأسْلميَّ حتَّى يوافيه بخبر هوازن:

فذهب رضي الله عنه، ومكث بينهم يوماً أو يومين، ثم عاد، وأخبر النَّبي ﷺ بما رأى[٣].

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرَّسول ﷺ وعاد على وجه السُّرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنَّه قصَّر رضي الله عنه في أداء هذا الواجب؛ حيث لم يختلط بهوازن اختلاطاً كاملاً بحيث يسمع، ويرى ما يُدبَّر ضدَّ المسلمين هناك، وكان من أهمِّ ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين الَّتي احتلُّوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن الَّتي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي، حتَّى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحدَ الأسباب الرَّئيسة وراء هزيمة المسلمين في أوَّل المعركة، وما حدث نتيجةً لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثَّابتة لرسول الله ﷺ؛ لأنَّ هذا الأمر ليس وحياً من الله ـ سبحانه وتعالى ـ وإنَّما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكريَّة، وقد

---

(١) انظر: القيادة العسكرية على عهد رسول الله ﷺ، ص ٢٥٢.
(٢) انظر: غزوة حنين، للشَّيخ محمَّد أحمد باشميل، ص ١٢٨ ـ ١٣١.
(٣) انظر: تاريخ الطَّبري (٣/ ٧٣).

بذل النَّبيُّ ﷺ جهده في سبيل الحصول على أدقِّ المعلومات، وأوفاها؛ لكي يضع على ضوئها الخطَّة العسكريَّة المناسبة لمجابهة العدوِّ[(١)].

٢ـ عُدَّة الجيش، واستعارة الدُّروع، والرِّماح:

أعدَّ رسول الله ﷺ جيشاً قوامه عشرة آلاف، وهم مَنْ خرجوا معه من المدينة، وألفان من مسلمة الفتح، فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفاً، عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: لمَّا كان يوم حنين؛ أقبلت هوازن، وغطفان بذراريهم، ونَعَمِهم؛ ومع النَّبيِّ ﷺ يومئذٍ عشرة آلاف، ومعه الطُّلقاء[(٢)]، وهم ألفان [مسلم (١٠٥٩/١٣٥)]، وسعى ﷺ لتأمين عُدَّة الجيش فطلب من ابن عمِّه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارةً، وطلب من صفوان بن أميَّة دروعاً، وتكفَّل ﷺ بالضَّمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهم. عن صفوان بن يعلى بن أميَّة عن أبيه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم ـ أو قال: فادفع إليهم ـ ثلاثين درعاً، وثلاثين بعيراً، أو أقلَّ من ذلك» فقال له: العارية مؤدَّاة يا رسول الله؟! قال: فقال النَّبيُّ ﷺ: «نعم» [أحمد (٤/ ٢٢٢)، وأبو داود (٣٥٦٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٥٧٤٤)].

وفي روايةٍ: أنَّ رسول الله ﷺ استعار منه يوم حنين دروعاً، فقال: أغصباً يا محمد؟! قال: «لا، بل عاريةٌ مضمونةٌ». قال: فضاع بعضها، فعرض عليه رسول الله ﷺ أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب. قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم، ثمَّ أسلم. [أحمد (٦/ ٤٦٥)، وأبو داود (٣٥٦٢)، والحاكم (٣/ ٤٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٨٩)].

٣ـ ثباته ﷺ وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثُّوا كتائبهم في شعابه، ومنعطفاته، وأشجاره، وكانت خطَّتهم تتمثَّل في مباغتة المسلمين بالسِّهام في أثناء تقدُّمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين، وأمطروهم من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم، وماج بعضهم في بعضٍ، ونتيجةً لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش، ولاذوا بالفرار، كلٌّ يطلب النَّجاة لنفسه، وبقي الرَّسول ﷺ، ونفرٌ قليل في الميدان يتصدَّوْن لهجمات المشركين، ونترك العباس عمَّ الرسول ﷺ يصف لنا ذلك المشهد المهيب، حيث يقول: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمتُ أنا، وأبو سفيان بن الحارث رسولَ الله ﷺ، فلم نفارقه،

---

(١) انظر: القيادة العسكريَّة على عهد رسول الله ﷺ، ص ٣٦٩.
(٢) الطُّلقاء: هم الذين أطلقهم النَّبيُّ ﷺ بعد فتح مكة، وخلَّى سبيلهم.

ورسول الله ﷺ على بغلةٍ له بيضاء، فلمَّا التقى المسلمون والكفار؛ وَلَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بغلته قِبَلَ الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أَكُفُّها إرادة ألاَّ تسرع، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس! نادِ أصحاب السَّمُرَة».

فقال العباس ـ وكان رجلاً صَيِّتاً ـ فقلت: بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله! لكأن عَطْفَتَهم حين سمعوا صوتي عَطْفَةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك! يا لبيك! قال: فاقتتلوا والكفَّارَ، والدَّعوةُ في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثمَّ قُصِرتِ الدَّعوة على بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله ﷺ: «هذا حينَ حميَ الوطيسُ». [مسلم (١٧٧٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، وابن هشام (٤/ ٨٧)].

لقد أيّد الله نبيَّه ﷺ يوم حنينٍ بأمورٍ، منها:

* نزول الملائكة من السَّماء.

* سلاح الرُّعب[1].

* **تأثير قبضتي الحصى والتُّراب في أعين الأعداء.**

من الأسلحة المادِّية الَّتي أيَّد الله بها رسولَه ﷺ يوم حنين تأثير قبضتي الحصى والتُّراب اللَّتين رمى بهما وجوه المشركين، حيث دخل في أعينهم كلِّهم من ذلك الحصى والتُّراب، فصار كلُّ واحد يجد لها في عينيه أثراً، فكان من أسباب هزيمتهم[2]، قال العبَّاس رضي الله عنه: ثمَّ أخذ رسول الله ﷺ حصياتٍ، فرمى بهنَّ وجوه الكفَّار. ثمَّ قال: «انهزَموا وربِّ محمَّد!» قال: فذهبت أنظر فإذا القتالُ على هيئته فيما أرى، قال: فوالله! ما هو إلا أن رماهم بحصياته، فما زلت أرى حدَّهم كليلاً، وأمرهم مُدْبراً. [سبق تخريجه].

ثانياً: مطاردة فلول الفارِّين إلى أوطاس، والطَّائف:

أ ـ قال أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه:

لمَّا فرغ النَّبيُّ ﷺ من حنين؛ بعث أبا عامر على جيشٍ إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصِّمَّة، فَقُتِلَ دُرَيْدُ، وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في رُكبته، رماه جُشميٌّ بسهمٍ فأثبته في رُكبته، فانتهيت إليه، فقلت: يا عمُّ! مَنْ رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الَّذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني وَلَّى، فاتَّبَعْتُهُ،

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، ص ٥٥٩.

(٢) انظر: القيادة العسكرية في عهد رسول الله ﷺ، ص ٢٥٩.

وجعلت أقول له: ألا تستحي، ألا تثبت، فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسَّيف فقتلتُه، ثمَّ قلت لأبي عامرٍ، قتل الله صاحبك. قال: فانْزِع هذا السَّهم، فنزعتُه، فنزل منه الماء.

قال: يابن أخي! أقرئ النَّبيَّ ﷺ السَّلام، وقل له: استغفر لي، واسْتَخْلَفَني أبو عامرٍ على النَّاس، فمكث يسيراً ثمَّ مات. فرجعتُ، فدخلت على النَّبيِّ ﷺ في بيته على سريرٍ مُرْمَلٍ[1]، وعليه فراش قد أثَّر رمالُ السَّرير بظهره، وجنبيه، فأخبرته بخبرنا، وخبر أبي عامر، وقوله: قل له: استغفر لي، فدعا بماء، فتوضَّأ، ثمَّ رفع يديه فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعُبيد أبي عامر». ورأيت بياضَ إبطيه. ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ! اجعله يوم القيامة فوق كثيرٍ من خلقك من النَّاس» فقلت: ولي فاستغفر، فقال: «اللَّهُمَّ! اغفر لعبد الله بن قيس ذنبَه، وأدخله يوم القيامة مُدْخلاً كريماً».

قال أبو بردة[2]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى. [البخاري (٢٨٨٤)، ومسلم (٢٤٩٨)].

ب ـ محاصرة الفارّين إلى الطائف:

حاصر رسول الله ﷺ أهل الطَّائف واستخدم أساليب متنوعةً في القتال، والحصار، ومارس الشُّورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النَّفسيَّة، والدِّعاية في صفوف الأعداء، ومن هذه الأساليب:

١ ـ استخدم ﷺ أسلوباً جديداً في القتال:

استعمل النَّبيُّ ﷺ في حصاره للطَّائف أسلحةً جديدةً لم يسبق له أن استعملها من قبلُ، وهذه الأسلحة هي:

ـ المنجنيق:

فقد ثبت: أنَّ الرَّسول ﷺ استعمل هذا السِّلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطَّائف، فعن مكحولٍ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النَّبيَّ ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطَّائف. [أبو داود في المراسيل (٣٣٥)، والترمذي في نهاية الحديث (٢٧٦٢)].

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثَّقيلة ذات التأثير الفعَّال على من وُجِّهَت إليه، فبحجارته تُهدَّم الحصون والأبراج، وبقنابله تُحرَّق الدُّور والمعسكرات، وهذا النَّوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته، واستخدامه عند القتال[3].

---

(١) أي: معمول بالرِّمال، وهي حبال الحصر الَّتي تضفر بها الأسرَّة.
(٢) أبو بردة هو ابن أبي موسى الأشعري راوي الحديث عن أبيه.
(٣) انظر: المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة، للواء محمد فرج، ص ٤٠٧.

ـ الدَّبابة:

ومن أسلحة الحصار الثَّقيلة الَّتي استعملها الرَّسول ﷺ لأوَّل مرَّةٍ في حصار الطائف: الدَّبابة، والدَّبابة على شكل بيت صغير تُعمل من الخشب، وتُتَّخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يُراد نقض جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزاً لهم من الرَّمي[1].

ـ الحسَك الشَّائِك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرَّسول ﷺ في حصاره لأهل الطائف الحسَك الشَّائك، وهو من وسائل الدِّفاع الثابتة، ويُعمل من خشبتين تُسمَّران على هيئة الصليب، حتَّى تتألَّف منها أربعةُ شعبٍ مدبَّبة، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل، والمشاة، فتتعطَّل حركة السَّير السَّريعة المطلوبة في ميدان القتال[2].

وقد ذكر أصحاب المغازي، والسِّير: أنَّ الرَّسول ﷺ استعمل هذا السِّلاح في حصاره لأهل الطَّائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشَّائك حول حصن ثقيف[3] وفي هذا إشارة لقادة الأمَّة خصوصاً، والمسلمين عموماً ألاَّ يعطِّلوا عقولهم، وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النَّافع، والجديد الَّذي يُحَقِّق للأمَّة مصلحة الدَّارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

٢ ـ اختيار رسول الله ﷺ مكاناً مناسباً عند القتال:

نزل الجيش في مكانٍ مكشوف قريبٍ من الحصن، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السِّهام؛ فأصيب من جرَّاء ذلك ناسٌ كثيرون، وحينئذٍ عرض الحُبَابُ بنُ المنذر على الرَّسول ﷺ فكرة التَّحوُّل من هذا الموقع إلى مكانٍ آمنٍ من سهام أهل الطَّائف، فقبل ﷺ هذه المشورة، وكلَّف الحُبَاب؛ لكونه من ذوي الخبرات الحربيَّة الواسعة في هذا المجال بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب رضي الله عنه ثمَّ حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النَّبيَّ ﷺ بذلك، فأمر النَّبيُّ ﷺ جيشه بالتَّحوُّل إلى المكان الجديد.

وهذا شاهد عيان يحدِّثنا عَمَّا رأى، قال عمرو بن أميَّة الضَّمريُّ رضي الله عنه: لقد اطلع علينا مِنْ نبلهم ساعة نَزَلْنا شيءٌ الله به عليم، كأنَّه رَجْلُ جرادٍ، وترَّسنا لهم حتَّى أصيب ناسٌ من المسلمين بجراحةٍ، ودعا رسول الله ﷺ الحُبَاب، فقال: «انظر مكاناً مرتفعاً مستأخراً عن

---

(١) انظر: القيادة في عهد الرَّسول ﷺ، ص ٤٠٥.
(٢) انظر: الفن الحربي في صدر الإسلام، للواء عبد الرؤوف عون، ص ١٩٥.
(٣) انظر: الطَّبقات الكبرى (٢/ ٢١٤).

القوم» فخرج الحُبَاب حتَّى انتهى إلى موضع مسجد الطَّائف[١] خارج القرية، فجاء إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبره، فأمر النَّبيُّ ﷺ أن يتحوَّلوا[٢].

٣ ـ استخدام الحرب النَّفسيَّة والدِّعاية:

لما اشتدَّت مقاومة أهل الطائف، وقتلوا مجموعةً من المسلمين؛ أمر النَّبيُّ ﷺ بتحريق بساتين العنب، والنَّخل في ضواحي الطَّائف للضغط على ثقيفٍ، ثمَّ أوقف هذا العمل بعد أَثرِهِ في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله وبالرَّحم أن يترك هذا العمل، ووجَّه النَّبيُّ ﷺ نداءً لِعَبِيدِ الطَّائف أنَّ من ينزل من الحصن، ويخرج إلى المسلمين فهو حرٌّ، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثَّقفي، فأسلموا، فأعتقهم، ولم يعدهم إلى ثقيفٍ بعد إسلامهم[٣].

٤ ـ الحكمة من رفع الحصار:

كانت حكمة رسول الله ﷺ في رفع الحصار واضحةً، فالمنطقة المحيطة بها لم تعد تابعةً لها، بل صارت ضمن سيادة الدَّولة الإسلاميَّة، ولم تعد تستمدُّ قوَّتها إلا من امتناع حصونها، فحصارها ورفعه سواء أمام القائد المحنَّك، وقد استشار رسول الله ﷺ مَنْ حوله في عمليَّة الحصار[٤]، فقال نوفل بن معاوية الدَّيليُّ: ثعلب في حجرٍ؛ إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرَّك! فأمر رسول الله ﷺ ابن الخطَّاب فأذَّن في النَّاس بالرَّحيل، فضج النَّاس من ذلك، وقالوا: نرحل، ولم يُفتح علينا الطَّائف؟! فقال رسول الله ﷺ: «فاغدوا على القتال»، فغدوا فأُصيب المسلمون بجراحاتٍ، فقال رسول الله ﷺ: «إنا قافلون غداً إن شاء الله»، فسُرُّوا بذلك، وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسولُ الله ﷺ يضحك. [البخاري (٤٣٢٥)، ومسلم (١٧٧٨)]. فلمَّا ارتحلوا، واستقلُّوا، قال: «قولوا: آيبون، تائبون، عابدون، لربنا حامدون» [أحمد (٢/ ٢١)، والبخاري (١٧٩٧)، ومسلم (١٣٤٤)][٥]، وقيل: يا رسول الله! ادعُ الله على ثقيفٍ، فقال: «اللَّهمَّ اهدِ ثقيفاً، وائتِ بهم». [أحمد (٣/ ٣٤٣)، والترمذي (٣٩٤٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٢٠١)، وانظره في مشكاة المصابيح (٥٩٨٦)][٦].

* * *

---

(١) مسجد الطَّائف: هو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عبَّاسٍ.

(٢) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٤١٦).

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥١٠).

(٤) انظر: دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة، للشجاع، ص ٢٠٦.

(٥) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٩٧).

(٦) المصدر السابق نفسه، وصحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٥٦٦.

المبحث الثاني
فقه الرَّسول ﷺ في التَّعامل مع النُّفوس

ويظهر هذا الفقه في عدَّة مواقف من هذه الغزوة، منها:

أـ لا رجعة للوثنيَّة:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهليَّة، وكانت لبعض القبائل شجرةٌ عظيمةٌ خضراء يقال لها: ذاتُ أنواطٍ، يأتونها كلَّ سنةٍ، فيعلِّقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع بصرهم على الشَّجرة، فتحلَّبَتْ أفواههم على أعياد الجاهليَّة الَّتي هجروها، ومشاهدها الَّتي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله! اجعل لنا «ذاتَ أنواطٍ» كما لهم «ذاتُ أنواطٍ»، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر! قلتُم والذي نفس محمد بيده! كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم. [أحمد (٥/٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٢٥)][١].

وهذا يعبِّر عن عدم وضوح تصوُّرهم للتَّوحيد الخالص رغم إسلامهم، ولكن النَّبيَّ ﷺ أوضح لهم ما في طلبهم من معانـي الشِّرك، وحذَّرهم من ذلـك، ولم يعاقبهم، أو يعنِّفهم؛ لعلمه بحداثة عهدهم بالإسلام[٢]، وقد سمح لهم الرَّسول ﷺ بالمشاركة في الجهاد، لأنَّه لا يشترط فيمن يخرج للجهاد أن يكون قد صحَّح اعتقاده تماماً من غبش الجاهليَّة، وإنَّما الجهاد عمل صالح يثاب عليه فاعله، وإن قصر في بعض أمور الدِّين الأخرى، بل الجهاد مدرسةٌ تربويَّةٌ تعليميَّةٌ يتعلَّم فيه المجاهدون كثيراً من العقائد، والأحكام، والأخلاق، وذلك لما يتضمَّنه من السَّفر، وكثرة اللِّقاءات الَّتي يحصل فيها تجاذب الأحاديث، وتلاقح الأفكار[٣].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص ٣٤٩.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٤٩٧).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (٨/ ٦٢).

ب ـ الإعجابُ بالكثرة يحجبُ نصر الله :

الإعجابُ بالكثرة حجب عن المسلمين النَّصر في بداية المعركة ، وقد عبَّر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] .

وقد نبَّه إلى هذا رسول الله ﷺ حينما أوضح : أنَّه «لا حول ، ولا قوَّة إلا بالله» فيقول : «اللَّهُمَّ بك أجُول ، وبك أَصُولُ ، وبك أُقَاتِل» [أحمد (٣/ ٣٣٢ و٣٣٣) ، وابن حبان (١٩٧٥) ، والنسائي في اليوم والليلة (٦١٤) ، والدارمي (٢٤٨٥)] .

وهكذا أخذ الرَّسول ﷺ يراقب المسلمين ، ويقوِّم ما يظهر من انحرافاتٍ في التَّصوُّر والسُّلوك حتَّى في أخطر ظروف المواجهة مع خصومه العُتاة[١] .

وعلى الرَّغم من الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في بداية غزوة حنين ، وفرار معظم المسلمين في ميدان المعركة ؛ لأنَّهم فوجئوا بما لم يتوقَّعوه ، فإنَّ رسول الله ﷺ لم يعنِّف أحداً ممَّن فرَّ عنه ؛ حتَّى حينما طالبه بعض المسلمين أن يقتل الطُّلَقَاء لأنَّهم فرُّوا ، ولم يوافق على هذا[٢] .

ج ـ الغنائم وسيلةٌ لتأليف القلوب :

رأى ﷺ أن يتألَّف الطُّلقاء ، والأعراب بالغنائم تأليفاً لقلوبهم ؛ لحداثة عهدهم بالإسلام ، فأعطى لزعماء قريش ، وغطفان ، وتميم عطاءً عظيماً ، إذ كانت عطيَّة الواحد منهم مئةً من الإبل ، ومن هؤلاء: أبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، وحكيم بن حزام ، وصفوان بن أميَّة ، وعيينة بن حصن الفزاري ، والأقرع بن حابس ، ومعاوية ، ويزيد ابنا أبي سفيان ، وقيس بن عديٍّ[٣] ، وكان الهدف من هذا العطاء المجزي هو تحويل قلوبهم من حب الدُّنيا إلى حبِّ الإسلام ، أو كما قال أنس بن مالك: إنْ كان الرجل ليسلمُ ما يريد إلا الدُّنيا ، فما يسلمُ حتَّى يكونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدُّنيا وما عليها [سبق تخريجه] .

وعبَّر عن هذا صفوان بن أميَّة فقال: لقد أعطاني رسولُ الله ﷺ ما أعطاني ، وإنَّه لأبغض النَّاس إليَّ ، فما برح يعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ . [سبق تخريجه] .

---

(١) انظر : المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة ، للعمري ، ص ١٩٩ .
(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٣) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٤٢١ .

وقد تأثَّر حدثاء الأنصار من هذا العطاء بحكم طبيعتهم البشريَّة، وتردَّدت بينهم قالةٌ، فراعى ﷺ هذا الاعتراض، وعمل على إزالة التوتُّر، وبيَّن لهم الحكمة في تقسيم الغنائم، وخاطب الأنصار خطاباً إيمانيّاً، عقليّاً، عاطفيّاً، وجدانيّاً، ما يملك القارئ المسلم على مر الدُّهور، وكر العصور، وتوالي الزَّمان إلا البكاء عندما يمرُّ بهذا الحدث العظيم، فعندما دخل سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء؛ الذي أصبت، قسمت في قومك؛ وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيءٌ. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله! ما أنا إلا مِنْ قومي. قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فجاء رجالٌ من المهاجرين، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم.

فلمَّا اجتمعوا؛ أتى سعدٌ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمِد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: «يا معشر الأنصار، ما قالةٌ بلغتني عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها في أنفسكم، ألم آتكم ضلالاً، فهداكم الله بي، وعالةً، فأغناكم الله بي، وأعداءً، فألف الله بين قلوبكم؟» قالوا: الله ورسولُه أمنُّ، وأفضل، ثمَّ قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟!» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ولرسوله المنُّ، والفضل؟ قال: «أما والله لو شئتم؛ لقلتم، فلصدقتم، ولصُدِّقتم: أتيتنا مكذَّباً، فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار! في أنفسكم في لَعَاعَةٍ من الدُّنيا تألَّفت بها قوماً؛ ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب النَّاس بالشَّاء[1]، والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟! فوالذي نفس محمدٍ بيده! لما تنقلبون به خيرٌ ممَّا ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك النَّاس شِعباً، ووادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً، ووادياً؛ لسلكت شِعْبَ الأنصار، وواديها، الأنصارُ شِعَارٌ، والنَّاس دثار[2]، اللَّهُمَّ! ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

قال: فبكى القوم حتَّى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْماً وحظّاً، ثمَّ انصرف رسول الله ﷺ وتفرَّقوا. [أحمد (٣/ ٧٦ ـ ٧٧)، ومجمع الزوائد (١٠/ ٣٢)][3]، وفي رواية: «إنَّكم ستلقون بعدي أثرةً، فاصبروا حتَّى تلقوني على الحوض» [البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)].

وممَّا يجدر الإشارة إليه في هذا المقام: أنَّ هذه المقالة لم تصدر من الأنصار كلِّهم، وإنَّما

---

(١) بالشَّاء: أي: الشِّياه، وهي الأغنام.
(٢) دثار: هو الثَّوب الذي يكون فوق الشِّعار.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٧٤).

قالها حديثو السِّنِّ منهم، بدليل ما ورد في الصَّحيحين عن أنسٍ بن مالك رضي الله عنه: أنَّ ناساً من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المئة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً، ويتركُنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم؟! قال أنس بن مالك: فحُدِّث رسول الله ﷺ مِنْ قولهم، فأرسل إلى الأنصار، فجمعهم في قبَّةٍ من أَدَم، فلمَّا اجتمعوا؛ جاءهم رسول الله ﷺ فقال: «ما حديثٌ بلغني عنكم؟» فقال له فقهاء الأنصار: أمَّا ذوو رأينا يا رسول الله! فلم يقولوا شيئاً، وأمَّا أُناسٌ منَّا حديثةٌ أسنانُهم؛ قالوا: يغفر الله لرسول الله! يعطي قريشاً، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهدٍ بكفرٍ أتألَّفهم». [البخاري (٤٣٣١)، ومسلم (١٠٥٩)].

ويرى الإمام ابن القيِّم ـ استدلالاً بهذه الحادثة ـ: أنَّه قد يتعيَّن على الإمام أن يتألَّف أعداءه لاستجلابهم إليه، ودفع شرِّهم عن المسلمين، فيقول: الإمام نائبٌ عن المسلمين، يتصرَّف لمصالحهم وقيام الدِّين، فإن تعيَّن ذلك ـ أي: التَّأليف ـ للدَّفع عن الإسلام، والذَّبِّ عن حوزته، واستجلاب رؤوس أعدائه إليه، ليأمن المسلمون شرَّهم، ساغ له ذلك، بل تعيَّن عليه، فإنَّه وإن كان في الحرمان مفسدةٌ، فالمفسدة المتوقَّعة من فوات تأليف هذا العدوِّ أعظم، ومبنى الشَّريعة على دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أكمل المصلحتين بتفويت أدناهما، بل بناء مصالح الدُّنيا، والدِّين على هذين الأصلين[١].

والتَّأليف لهذه الطَّائفة إنَّما هو من قبيل الإغراء، والتَّشجيع في أوَّل الأمر، حتَّى يخالط الإيمان بشاشة القلب، ويتذوَّق حلاوته.

ويوضح الشيخ محمَّد الغزالي ـ رحمه الله ـ حقيقة هذا الأمر في مثالٍ محسوسٍ، فيقول: «إنَّ في الدُّنيا أقواماً كثيرين يُقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم، فكما تُهدى الدَّواب إلى طريقها بحزمة برسيم تظلُّ تَمُدُّ إليها فمها، حتَّى تدخل حظيرتها آمنةً، فكذلك هذه الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون الإغراء حتَّى تستأنس بالإيمان، وتهشَّ له»[٢].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ ضرب للأنصار صورةً مؤثِّرةً: قومٌ يبشَّرون بالإيمان يقابلهم قومٌ يبشَّرون بالجِمال، وقوم يصحبهم رسول الله يقابلهم قوم يصحبهم الشَّاء، والبعير، لقد أيقظتهم تلك الصُّور، وأدركوا أنَّهم وقعوا في خطأٍ ما كان لأمثالهم أن يقعوا فيه، فانطلقت حناجرهم بالبكاء، ومآقيهم بالدُّموع، وألسنتهم بالرِّضا، وبذلك طابت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٤٨٦).

(٢) انظر: فقه السِّيرة، ص ٤٢٧.

بفضل سياسة النَّبيِّ ﷺ الحكيمة في مخاطبة الأنصار[١].

د ـ الصَّبر على جفاء الأعراب:

لقد ظهر من رسول الله ﷺ الكثير من الصَّبر على جفاء الأعراب، وطمعهم في الأموال، وحرصهم على المكاسب، فكان مثالاً للمربِّي الَّذي يدرك أحوالهم، وما جبلتهم عليه بيئتُهم، وطبيعةُ حياتهم من القساوة، والفظاظة، والرُّوح الفرديَّة، فكان يبيِّن لهم خُلُقَه، ويطمئنهم على مصالحهم، ويعاملهم على قدر عقولهم، فكان بهم رحيماً، ولهم مربّياً، ومصلحاً، فلم يسلك معهم مسلك ملوك عصره مع رعاياهم؛ الَّذين كانوا ينحنون أمامهم، أو يسجدون، وكانوا دونهم محجوبين، وإذا خاطبوهم؛ التزموا بعبارات التَّعظيم، والإجلال كما يفعل العبد مع ربِّه، أمَّا الرَّسول ﷺ فكان كأحدِهم يخاطبونه، ويعاتبونه، ولا يحتجب عنهم قطُّ، وكان الصَّحابة رضوان الله عليهم يراعون التأدُّب بحضرته، ويخاطبونه بصوتٍ خفيضٍ، ويكِنُّون له في أنفسهم المحبَّة العظيمة، وأمَّا جفاة الأعراب؛ فقد عنفهم القرآن على سوء أدبهم، وجفائهم، وارتفاع أصواتهم، وجرأتهم في طبيعة مخاطبتهم للرسول ﷺ[٢]، وهذه مواقف تدلُّ على حسن معاملة رسول الله ﷺ للأعراب:

١ ـ الأعرابيُّ الذي رفض البُشْرَىٰ:

قال أبو موسى الأشعري: كنت عند النَّبيِّ ﷺ ـ وهو نازلٌ بالجِعْرَانَةِ بين مكَّة والمدينة ـ ومعه بلالٌ، فأتى النَّبيَّ ﷺ أعرابيٌّ فقال: ألا تنجزُ لي ما وعدتني؟ فقال له: «أَبْشِر!» فقال: قد أكثرتَ عليَّ مِنْ (أبشر). فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «رَدَّ البُشْرَىٰ، فاقبلا أنتما» قالا: قَبِلْنا. ثمَّ دعا بقدح فيه ماءٌ، فغسل يديه، ووجهه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال: «اشْرَبَا منه، وأفرغا على وجوهكما، ونحوركما، وأبشرا» فأخذا القدح، ففعلا، فنادت أمُّ سلمة من وراء السِّتر: أن أفضلا لأمِّكما. فأفضلا لها منه طائفةً. [البخاري (٤٣٢٨)، ومسلم (٢٤٩٧)].

٢ ـ مقولة الأعرابيِّ: (ما أريد بهذه القسمة وجه الله!):

قال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: «لَّما كان يومُ حنينٍ آثر رسولُ الله ﷺ ناساً في القِسْمَة، فأعطى الأقرعَ بن حابسٍ مِئَـةً من الإبل، وأعطى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في القِسْمَة، فقال رجلٌ: والله! إنَّ هذه القِسْمَة ما عُدِلَ فيها، وما أُرِيدَ فيها وجهُ الله! قال: فقلتُ: والله لأخبرنَّ رسولَ الله ﷺ، قال: فأتيتُه، فأخبرتُه بما قال، قال: فتغيَّر وجْهُهُ حتَّى كان كالصِّرْفِ. ثمَّ قال: «فمَنْ يعدلُ إن لم يعدلِ اللهُ ورسولُه؟!» قال: ثمَّ قال:

---

(١) انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوَّة، ص ٢١٩.
(٢) المصدر السابق نفسه.

«يرحم الله موسى! قد أُوذي بأكثرَ من هذا، فَصَبَرَ». قال: قلت: لا جرمَ لا أرفعُ إليه بعدها حديثاً. [البخاري (٤٣٣٦)، ومسلم (١٠٦٢)].

٣ ـ تعامله مع هوازن لمَّا أسلمت:

جاء وفد هوازن لرسول الله ﷺ بالجِعْرَانَةِ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله! إنَّا أصلٌ وعشيرةٌ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك، فامنن علينا مَنَّ الله عليك، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صُرد، فقال: يا رسول الله! إنَّما في الحظائر من السَّبايا خالاتُك، وحواضنُك اللاَّتي كن يكفلنك، ولو أنَّا مَلَحْنَا لابن أبي شمر أو النُّعمان بن المنذر[1] ثُمَّ أصابنا منها مثل الَّذي أصابنا منك رجونا عائدتهما، وعطفهما، وأنت رسول الله خير المكفولين، ثمَّ أنشأ يقول:

أُمْنُنْ عَلَيْنَا رسُولَ اللهِ فِي كَرمٍ ... فَإِنَّكَ المَرْءُ نَرْجُوهُ وَنَنْتَظِرُ[2]

إلى أن قال:

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا ... إِذْ فُوكَ يَمْلَؤُهُ مِنْ مَحْضِهَا دَرَرُ

امْنُنْ عَلَى نِسْوَةٍ قَدْ كُنْتَ تَرْضَعُهَا ... وإِذْ يَزِيْنُكَ مَا تَأْتِي وَمَا تَذَرُ

فكان هذا سبب إعتاقهم عن بكرة أبيهم، فعادت فواضله عليه السَّلام عليهم قديماً وحديثاً، وخصوصاً، وعموماً[3].

فلما سمع رسول الله ﷺ من الوفد قال لهم: «نساؤكم، وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟» فقالوا: يا رسول الله! خيَّرتنا بين أحسابنا، وأموالنا؟ بل أبناؤنا، ونساؤنا أحبُّ إلينا، فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا ما كان لي، ولبني عبد المطلب، فهو لكم، وإذا أنا صليت بالنَّاس فقوموا، فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا، فإني سأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم» فلمَّا صلَّى رسول الله ﷺ بالنَّاس الظُّهر؛ قاموا؛ فقالوا ما أمرهم به رسول الله ﷺ، فقال: «أمَّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. وقال الأقرع بن حابس: أمَّا أنا وبنو تميم؛ فلا، وقال عُيَيْنَةُ: أمَّا أنا وبنو فزارة؛ فلا، وقال العبَّاس بن مرداس السُّلَمِيُّ: أما أنا، وبنو سليم، فلا، فقالت بنو سُليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، قال عبَّاس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني؟ فقال رسول الله ﷺ: «من أمسك منكم بحقِّه فله بكلِّ إنسان سِتُّ فرائض من أوَّل فيءٍ نصيبه» فردّوا إلى النَّاس نساءهم،

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥٢).

(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣٥٢).

(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤).

وأبناءهم. [أحمد (٢/ ١٨٤)، والطبراني في الكبير (٥٣٠٤)، والطبري في تاريخه (٣/ ١٣٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٤ ـ ١٩٥)، ومجمع الزوائد (٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨)][1].

وفي روايةٍ: . . . فخطب رسول الله ﷺ في المؤمنين، فقال: «إنَّ إخوانكم هؤلاء جاؤونا تائبين، وإنِّي أردت أن أردَّ إليهم سبيهم، فَمن أحبَّ منكم أن يطيِّبَ ذلك؛ فليفعلْ، ومن أحبَّ أن يكون على حظِّه حتَّى نعطيه إيَّاه من أوَّل ما يفيء الله علينا، فليفعلْ» فقال الناس: طيّبْنا يا رسول الله! لهم، فقال لهم: «إنَّا لا ندري من أَذِنَ منكم فيه ممَّن لم يأذن، فارجعوا حتَّى يرفع إلينا عرفاؤكم أمرَكم». فرجع النَّاس فكلمهم عرفاؤهم، ثمَّ رجعوا إلى النَّبيِّ ﷺ فأخبروه: أنَّهم طيَّبوا، وأذنوا. [البخاري (٤٣١٨ و٤٣١٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٩٢)][2].

وقد سُرَّ الرَّسول ﷺ بإسلام هوازن، وسألهم عن زعيمهم مالك بن عوف النَّصريِّ، فأخبروه: أنَّه في الطَّائف مع ثقيفٍ، فوعدهم بردِّ أهله، وأمواله عليه، وإكرامه بمئةٍ من الإبل إن قدم عليه مسلماً، فجاء مالكٌ مسلماً، فأكرمه وأمَّره على قومه، وبعض القبائل المجاورة، ولقد تأثَّر مالك بن عوف، وجادت قريحته لمدح النَّبيِّ ﷺ فقال:

مَا إنْ رأَيْتُ ولاَ سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ ... فِي النَّاسِ كُلِّهِم بِمِثْلِ مُحَمَّدِ
أَوْفَىٰ وأَعْطَىٰ لِلْجَزِيْلِ إِذَا اجْتُدِي ... وَمَتَى تَشَأْ يُخْبِرْكَ عَمَّا فِي غَدِ
وإذا الكَتِيْبَةُ عَرَّدَتْ[3] أَنْيَابُهَا ... بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرْبِ كُلِّ مُهَنَّدِ
فكأنَّهُ لَيْثٌ عَلَى أَشْبَالِهِ ... وَسْطَ الهَبَاءَةِ[4] خَادِرٌ[5] فِي مَرْصَدِ[6]

لقد كانت سياسته ﷺ مع خصومه مرنةً إلى أبعد الحدود، وبهذه السِّياسة الحكيمة استطاع ﷺ أن يكسب هوازن، وحلفاءها إلى صفِّ الإسلام، واتَّخذ من هذه القبيلة القويَّة رأس حربةٍ يضرب بها قوى الوثنية في المنطقة ويقودها زعيمهم مالك بن عوف الَّذي قاتل ثقيفاً في الطَّائف حتَّى ضيَّق عليهم، وقد فكَّر زعماء ثقيف في الخلاص من المأزق بعد أن أحاط الإسلام بالطَّائف من كلِّ مكان، فلا تستطيع تحرُّكاً، ولا تجارةً، فمال بعض زعماء ثقيف إلى الإسلام؛ مثل عروة بن مسعودٍ الثَّقفيِّ، الَّذي سارع إلى اللَّحاق برسول الله ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أن قسم غنائم حنين، واعتمر من الجِعْرَانَةِ، فالتقى به قبل أن يصل إلى المدينة، وأعلن

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥٢، ٣٥٣).
(٢) البخاري، كتاب المغازي، رقم ٤٣١٩.
(٣) عرَّدت: اشتدت وضربت، القاموس المحيط (١/ ٣١٣).
(٤) الهباءة: غبار الحرب، مختار الصحاح، ص ٦٨٩.
(٥) الخادر: المقيم في عرينه، والخدر سترٌ يُمَدُّ للجارية من ناحية البيت.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٤٤).

إسلامه ، وعاد إلى الطَّائف ، وكان من زعماء ثقيف محبوباً عندهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، وأذَّن في أعلى منزله ، فرماه بعضُهم بسهامٍ، فأصابوه ، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطَّائف[١].

إنَّ الإنسان ليعجب من فقه النَّبيِّ ﷺ في معاملة النُّفوس ، وفي سعيه الحثيث لتمكين دين الله تعالى ، لقد استطاع ﷺ أن يزيل معالم الوثنيَّة ، وبيوتات العبادة الكفريَّة من مكَّة ، وما حولها ، ورتَّب ﷺ الأمور التنظيمية للأراضي الَّتي أضيفت للدَّولة الإسلاميَّة ، فعيَّن عَتَّاب بن أَسِيد أميراً على مكَّة ، وجعل معاذ بن جبل مرشداً ، وموجِّهاً ومعلِّماً ، ومربِّياً[٢] ، وعيَّن على هوازن مالك بن عوف قائداً ، ومجاهداً ، ثمَّ اعتمر ، ورجع إلى المدينة ﷺ .

* * *

---

(١) المصدر السابق نفسه ، (٤/ ١٩٢).

(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ١٥٣).

المبحث الثَّالث
دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد

أولاً: تفسير الآيات التي نزلت في غزوة حنين:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

في الآيات السَّابقة تصويرٌ بيانيٌّ بديعٌ لحال المسلمين، فيه تنقُّلٌ بالسَّامع من صورةٍ إلى صورة: من صورة المسلمين؛ وهم معجبون بكثرتهم، مسرورون بها، إلى صورة فشلهم، وهزيمتهم مع هذه الكثرة، فلم تنفعهم، إلى صورة الخوف الَّذي أصابهم حتَّى لم تعد الأرض تسعهم، وأقفلت منافذها في وجوههم إلى الصُّورة الحسِّيَّة لهذا الفشل في الفرار، والنُّكوص، وتولية الأدبار حتَّى لم يبقَ حول النَّبي ﷺ إلا القليل، وبعد الخوف الشَّديد الَّذي أصاب المؤمنين في مبدأ لقائهم بأعدائهم في غزوة حنين يجيء نصر الله؛ الَّذي عبَّر عنه ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

السَّكينة: الطُّمأنينة، والرَّحمة، والأمنة، وهي من السُّكون، وهو ثبوت الشَّيء بعد التَّحرُّك، أو من السَّكن، وهو كل ما سكنَت إليه، واطمأنت به من أهلٍ، وغيرهم[1].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ قال القاسميُّ: أي: ما تسكنون، وتثبتون به من رحمته، ونصره، وانهزام الكفار، واطمئنان قلوبهم للكرِّ بعد الفرِّ ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: الَّذين انهزموا، وإعادة الجارِّ للتنبيه على اختلاف حاليهما، أو الَّذين ثبتوا

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/٥٩٨).

مع رسول الله ﷺ ولم يفرّوا، أو على الكلّ؛ وهو الأنسب[١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾: قال الطَّبريُّ: هي الملائكة[٢].

وقوله: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

أي: وعذَّب الذين كفروا بالقتل، والسَّبي، والأسر، وذلك هو جزاء الكافرين في الدُّنيا ما داموا يستحبُّون الكفر على الإيمان، ويعادون أهله، ويقاتلونهم عليه[٣].

ثمَّ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: ويتوب الله من بعد هذا التَّعذيب على من يشاء من المشركين بأن يوفقهم للدُّخول في الإسلام، والله غفورٌ رحيمٌ لمن تاب، وآمن، فرحمتُه وسعت كلَّ شيءٍ[٤].

قال سيِّد قطب: «فبابُ المغفرة دائماً مفتوحٌ لمن يخطئ، ثمَّ يتوب، إنَّ معركة حُنين الَّتي يذكرها السِّياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوَّةٍ غير قوَّته لـتَكْشِفُ لنا حقيقةً أخرى ضمنيَّةً، حقيقة القوى الَّتي تعتمد عليها كلُّ عقيدة. إنَّ الكثرة العدديَّة ليست بشيءٍ، إنَّما هي القلَّة العارفة، المتَّصلة، الثَّابتة، المتجرِّدة للعقيدة، . . . . . لقد قامت كلُّ عقيدةٍ بالصَّفوة المختارة، لا بالزَّبد الَّذي يذهب جُفاءً، ولا بالهشيم الَّذي تذروه الرِّياح»[٥].

إنَّ غزوة حنين سُجِّلت في القرآن الكريم؛ لكي تبقى درساً للأمَّة في كلِّ زمانٍ، ومكان، ولقد عُرِضَتْ في القرآن الكريم على منهجيَّة ربانيَّة كان من أهم معالمها الآتي[٦]:

أ ـ بيَّن القرآن الكريم، أن المسلمين أصابهم الإعجاب بكثرة عددهم. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، ثم بيَّن القرآن أنَّ هذه الكثرة لا تفيد ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾.

ب ـ بيَّن القرآن الكريم: أنَّ المسلمين انهزموا، وهربوا ما عدا النَّبيِّ ﷺ، ونفرٌ يسيرٌ من أصحابه. قال تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

ج ـ بيَّن القرآن الكريم: أنَّ الله نصر رسوله ﷺ في هذه المعركة، وأكرمه بإنزال السَّكينة عليه، وعلى المؤمنين. فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) انظر: تفسير القاسمي (٨/ ١٥١).
(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٠/ ١٠٣، ١٠٤).
(٣) انظر: تفسير المراغي (٤/ ٨٧).
(٤) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٥٩٩).
(٥) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٨).
(٦) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٠٢، ٦٠٣).

د ـ بيّن القرآن الكريم: أنَّ الله أمدَّ نبيَّه محمَّداً ﷺ بالملائكة في حنين. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

وأكَّد ـ سبحانه ـ على أنَّه يقبل التَّوبة من عباده، ويوفِّق مَنْ شاء إليها. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثانياً: أسباب الهزيمة، وعوامل النَّصر في حُنين:

أ ـ أسباب الهزيمة:

أسباب الهزيمة في الجولة الأولى عدَّة أسباب، منها:

١ ـ أنَّ شيئاً من العُجْبِ تسرب إلى قلوب المسلمين، لمَّا رأوا عددهم، فقد قال رجلٌ منهم: لن نُغلب اليوم من قلَّة، فشقَّ ذلك على النَّبيِّ ﷺ، فكانت الهزيمة.

٢ ـ خروج شبَّانٍ ليس لديهم سلاحٌ، أو سلاحٌ كافٍ، وإنَّما عندهم حماسٌ وتسرُّعٌ.

٣ ـ أنَّ عدد المشركين كان كثيراً، بلغ أكثر من ضعفي عدد المسلمين.

٤ ـ أنَّ مالك بن عوف سبق بجيشه إلى حُنَيْن، فتهيَّأ هنالك، ووضع الكمائن والرُّماة في مضايق الوادي، وعلى جوانبه، وفاجؤوا المسلمين برميهم بالنِّبال، وبالهجوم المباغت.

٥ ـ كان العدو مهيَّأً، ومنظَّماً، ومستعدّاً للقتال حال مواجهته لجيش المسلمين، فقد جاء المشركون بأحسن صفوفٍ رُئيت: صفُّ الخيل، ثمَّ المقاتلة، ثمَّ النِّساء من وراء ذلك، ثمَّ الغنم، ثمَّ النَّعَم.

٦ ـ وجود ضعاف الإيمان الَّذين أسلموا حديثاً في مكَّة، ففرُّوا، فانقلبت أولاهم على أخراهم، فكان ذلك سبباً لوقوع الخلل، وهزيمة غيرهم[1].

ب ـ عوامل النَّصر:

كانت عوامل النَّصر في حنين عدَّة أسباب منها:

١ ـ ثبات الرَّسول ﷺ في القتال، وعدم تراجعه، ممَّا جعل الجنود يثبتون، ويستجيبون لنداء القائد الثَّابت.

٢ ـ شجاعة القائد: فالرَّسول القائد لم يثبت في مكانه فحسب؛ بل تقدَّم نحو عدوه راكباً بغلته، فطفق يَرْكُضُ ببغلته قِبَل الكفار، والعبَّاس آخذٌ بلجام البغلة يكفُّها ألاَّ تسرع.

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٤٠٩).

٣ ـ ثبات قلَّةٍ من المسلمين معه، وحوله حتَّى جاء الَّذين تولَّوا، وأكملوا المسيرة، مسيرة الثَّبات، والبرِّ، والقتال حتَّى النَّصر.

٤ ـ سرعة استجابة الفارِّين، والتحاقهم بالقتال.

٥ ـ وقوع الجيش المعادي في خطأٍ عسكريٍّ قاتل، وهو عدم الاستمرار في مطاردة الجيش الإسلاميِّ بعد فراره، ممَّا أعطى فرصةً ثمينةً للجيش الإسلاميِّ ليلتقط أنفاسه، ويعود إلى ساحة القتال، ويستأنف القتال من جديدٍ بقيادة القائد الثابت الشُّجاع رسول الله ﷺ.

٦ ـ رَمْيَةُ الحصى: فقد أخذ النَّبي ﷺ حصياتٍ فرمى بهنَّ وجوه الكفار ثمَّ قال: «انهزموا وربِّ محمد!» [سبق تخريجه].

٧ ـ الاستعانة، والاستغاثة بالله ـ عز وجلَّ ـ: فقد كان الرسول ﷺ يلحُّ على الله في الدُّعاء بالنَّصر على الأعداء.

٨ ـ إنزال الملائكة في الغزوة، ومشاركتها فيها، وقد سجَّل الله هذه المشاركة في كتابه الكريم في سورة التَّوبة[1]: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾.

ثالثاً: الأحكام المستنبطة من غزوة حنين، والطَّائف:

١ ـ نزول الآية الكريمة: ﴿۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] في يوم أوطاس لبيان حكم المسبيات المتزوِّجات، وقد فرَّق السَّبي بَيْنَهُنَّ وبين أزواجهنَّ، فأوضحت الآية جواز وطئهنَّ؛ إذا انقضت عدَّتهنَّ؛ لأنَّ الفرقة تقع بينهنَّ وبين أزواجهن الكفار بالسَّبي، وتنقضي العدَّة بالوضع للحامل، وبالحيض لغير الحامل[2].

٢ ـ منع المخنثين خلقة من الدُّخول على النِّساء الأجنبيات: وكان ذلك مباحاً إذ لا حاجة للمخنَّث بالنِّساء، وكان سبب المنع ما رواه البخاريُّ عن زينب بنت أبي سلمة عن أمِّها أمِّ سلمة: دخل عليَّ النبيُّ ﷺ وعندي مخنَّثٌ، فسمعتُه يقول لعبد الله بن أبي أميَّة: يا عبد الله! أرأيت إن فتح الله عليكم الطَّائف غداً، فعليك بابنة غيلان، فإنَّها تُقبل بأربعٍ وتُدْبِرُ بثمانٍ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لا يدخلَنَّ هؤلاء عليكم». [البخاري (٤٣٢٤)].

وفي هذا المنع حرص النَّبيِّ ﷺ على سلامة أخلاق المجتمع الإسلاميِّ.

٣ ـ النَّهي عن قصد قتل النِّساء، والأطفال، والشُّيوخ، وكذلك الأجراء ممَّن لا يشتركون

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي فارس، ص ٤٢٣.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٢٠).

في القتال ضدَّ المسلمين: وقد ذكر ابن كثيرٍ: أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ يوم حنين بامرأةٍ قتلها خالدُ بن الوليد؛ والنَّاس متقصِّفون[1] عليها، فقال رسول الله ﷺ: «ما كانت هذه لتقاتل» وقال لأحدهم: «الحق خالداً، فقل له: لا يقتلن ذريةً، ولا عسيفاً» وفي روايةٍ: فقال له: إنَّ رسول الله ﷺ ينهاك أن تقتل وليداً، او امرأة، أو عسيفاً. [أحمد (٣/٤٨٨)، وأبو داود (٢٦٦٩)، وابن ماجه (٢٨٤٢)، والنسائي في الكبرى (٨٥٧١ و٨٥٧٢ و٨٥٧٣)، وابن حبان (٤٧٩١)].

٤ ـ تشريع العمرة من الجِعْرَانَةِ:

أحرم النَّبيُّ ﷺ بعمرة من الجِعْرَانَةِ وكان داخلاً إلى مكَّة، وهذه هي السُّنة لمن دخلها من طريق الطَّائف، وما يليه، وأمَّا ما يفعله كثيرٌ مما لا علم عندهم من الخروج من مكَّة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرةٍ ثمَّ يرجع إليها؛ فهذا لم يفعله رسول الله ﷺ، ولا استحبَّه أحدٌ من أهل العلم، وإنَّما يفعله عوامُّ النَّاس، زعموا أنَّه اقتداء بالنَّبيِّ ﷺ، وغلطوا، فإنَّه إنَّما أحرم منها داخلاً إلى مكَّة، ولم يخرج منها إلى الجِعْرَانةِ؛ ليحرم منها[2].

٥ ـ إرشاده ﷺ للأعرابيِّ بأن يصنع في العمرة ما يصنع في الحجِّ:

قال يعلى بن منبِّه: جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ، وهو بالجِعْرَانَةِ وعليه جبَّةٌ، وعليها خلوقٌ[3]، أو قال: أثر صفرةٍ، فقال: كيف تأمرني أصنع في عمرتي؟ قال: وأُنزل على النَّبيِّ ﷺ الوحيُ، فَسُتِرَ بثوبٍ، وكان يعلى يقول: وددت أني أرى النَّبيَّ ﷺ، وقد أُنْزل الوحي عليه، قال: فرفع عمر طرف الثَّوب عنه، فنظرت إليه، فإذا له غطيطٌ. قال: فلمَّا سُرِّيَ عَنْهُ قال: «أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصُّفرة ـ أو قال ـ: أثر الخلوق، واخلَعْ عنك جبَّتك، واصنعْ في عمرتك ما أنت صانع في حجَّتك». [البخاري (١٥٣٦)، ومسلم (١١٨٠)].

٦ ـ مَنْ قتل قتيلاً فله سَلَبُه:

قال أبو قتادة: لمَّا كان يوم حنين نظرتُ إلى رجلٍ من المسلمين يقاتل رجلاً من المشركين، وآخر من المشركين يَخْتِلُه من ورائه ليقتله، فأسرعت إلى الَّذي يَخْتِله، فرفع ليضربني، فضربت يده فقطعتُها، ثمَّ أخذني، فضمَّني ضمّاً شديداً حتَّى تخوَّفْتُ، ثمَّ برك فتحلَّل، ودفعته، ثمَّ قتلته، وانهزم المسلمون، وانهزمت معهم، فإذا بعمر بن الخطَّاب في النَّاس، فقلت له: ما شأنُ النَّاس؟ قال: أمرُ الله، ثمَّ تراجع الناس إلى رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «من أقام بينة على قتيلٍ قتله؛ فله سلبه» فقمت لألتمس بينةً على قتيلي، فلم أرَ أحداً يشهد لي، فجلست،

---

(١) متقصِّفون: متجمعون.

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٥٠٤).

(٣) خلوقٌ: طِيبٌ.

ثمَّ بدا لي فذكرتُ أمره لرسول الله ﷺ فقال رجلٌ من جلسائه: سلاح هذا القتيل الَّذي يذكر عندي، فأرضِهِ منه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: كلا لا يعطه أصيبغ[١] من قريشٍ، ويدع[٢] أسداً من أُسْدِ الله يقاتل عن الله، ورسوله ﷺ، قال: فقام رسول الله ﷺ فأدَّاه إلي فاشتريت منه خرافاً[٣]، فكان أوَّل مالٍ تأثَّلتُهُ في الإسلام. [البخاري (٤٣٢١)، ومسلم (١٧٥١)].

ونلحظ في هذا الخبر: أنَّ أبا قتادة الأنصاريَّ رضي الله عنه حرص على سلامة أخيه المسلم، وقتل ذلك الكافر بعد جهدٍ عظيم، كما أنَّ موقف الصِّدِّيق رضي الله عنه فيه دلالةٌ على حرصه على إحقاق الحقِّ، والدِّفاع عنه، ودليلٌ على رسوخ إيمانه، وعمق يقينه، وتقديره لرابطة الأخوَّة الإسلاميَّة، وأنَّها بمنزلةٍ رفيعةٍ بالنسبة له[٤].

٧ ـ النهي عن الغلول:

أخذ النَّبيُّ ﷺ يوم حنين وَبَرةً من سنام بعيرٍ من الغنائم، فجعلها بين أصبعيه، ثمَّ قال: «أيُّها النَّاس! إنَّه لا يحلُّ لي ممَّا أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردودٌ عليكم، فأدُّوا الخياط، والمخيط، وإيَّاكم، والغلول، فإنَّ الغلول عارٌ، ونارٌ، وشنارٌ على أهله في الدُّنيا، والآخرة»[٥].

ولمَّا سمع النَّاس هذا الزَّجر بما فيه من وعيد من رسول الله ﷺ، أشفقوا على أنفسهم، وخافوا خوفاً شديداً، فجاء أنصاريٌّ بكبَّة خيطٍ من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله! أخذت هذه الوبرة لأخيط بها بَرْذَعَةَ بعيرٍ لي دَبِر، فقال له ﷺ: «أمَّا حقِّي منها، وما كان لبني عبد المطَّلب فهو لك». فقال الأنصاريُّ: أما إذ بلغ الأمر فيها ذلك فلا حاجة لي بها، فرمى بها مِنْ يده. [أحمد (٢/ ١٨٤)، وأبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي (٦/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)].

وأمَّا عقيل بن أبي طالب؛ فقد دخل على امرأته فاطمة بنت شيبة يوم حنين، وسيفه ملطَّخٌ دماً، فقال لها: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع المنادي يقول: من أخذ شيئاً فليردَّه، حتَّى الخياط، والمخيط، فرجع عقيل فأخذ الإبرة من امرأته، فألقاها في الغنائم[٦].

وهذا التَّشديد في النَّهي عن الغلول، وتبشيعه بهذه الصُّورة الشَّائهة المرعبة، ولو كان في

---

(١) لا يعطه: أي لا يعطي رسول الله ﷺ. وقوله أصيبغ: نوع من الطُّيور شبه به؛ لعجزه، وضعفه.
(٢) يدع: يترك.
(٣) خرافاً: أي: بستاناً أقام الثمر مقام الأصل.
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي، للحميدي (٨/ ٢٦).
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٥٣)، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام (تقسيم الفيء).
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٤٥).

شيءٍ تافهٍ لا يُلتفت إليه ، يمثِّل مَعْلماً من أهم معالم المنهج النبويِّ في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم في حياته العمليَّة ؛ إيماناً ، وأمانة ، وفي التزام الأفراد بهذا التَّوجيه يتطهَّر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة ؛ لأنَّ التَّساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها ، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانيَّة التي لا تليق بالمجتمع المسلم[1] .

٨ ـ وفاء نذر كان في الجاهلية :

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لمَّا قفلنا من حنين سأل عمرُ النَّبيَّ ﷺ عن نَذْرٍ كان نذره في الجاهليَّة اعتكافاً ، فأمره النَّبيُّ ﷺ بوفائه . [البخاري (٤٣٢٠) ، ومسلم (١٦٥٦)] .

رابعاً : مواقف لبعض الصَّحابة والصَّحابيات :

١ ـ أنس بن أبي مرثدٍ الغنويُّ ، وحراسة المسلمين :

قال رسول الله ﷺ قبل اندلاع معركة حنين : «من يحرسنا اللَّيلة؟» فقال أنسُ بن أبي مرثدٍ : أنا يا رسول الله! قال ﷺ : «فاركب» ، فركب ابن أبي مرثد فرساً له ، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له ﷺ : «استقبل هذا الشِّعْب حتَّى تكون في أعلاه ، ولا نُغْزَنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيلة» .

قال سهيل بن الحنظليَّة : فلمَّا أصبحنا ؛ خرج رسول الله ﷺ إلى مُصَلاَّه ، فركع ركعتين ، ثمَّ قال : «هل أحسنتم فارسكم؟» قالوا : ما أحسنَّاه ، فثوِّب بالصَّلاة ، فجعل ﷺ يصلِّي ، وهو يلتفت إلى الشِّعب ، حتَّى إذا قضى صلاته ، قال : «أبشروا! فقد جاءكم فارسكُم» ، فجعل ينظر إلى خلال الشَّجر في الشِّعب ، فإذا هو قد جاء حتَّى وقف عليه ، فقال : إنِّي انطلقت حتَّى إذا كنت في أعلى الشِّعب حيث أمرني ﷺ ، فلمَّا أصبحت طلعتُ الشِّعبين كليهما فنظرت ، فلم أرَ أحداً ، فقال ﷺ : «هل نزلت اللَّيلة؟» ، فقال : لا ، إلا مصلِّياً ، أو قاضي حاجةٍ ، فقال له ﷺ : «قد أوجبت ، فلا عليك أن تعمل بعدها» [أبو داود (٢٥٠١) ، والنسائي في الكبرى (٨٨١٩)][2] .

وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النَّبويُّ الكريم في الاهتمام بالأفراد ، فقد ظهر اهتمام النَّبيِّ ﷺ بطليعة القوم حتَّى جعل يلتفت في صلاته ، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمرٍ مهمٍّ ، ثمَّ إنَّه ﷺ قال : «أبشروا ! فقد جاء فارسكم» إنَّها الكلمة الَّتي يستعملها ﷺ في إخبارهم بما يسرُّهم من الأمور العظيمة ، تلك هي أهمِّية الفرد في المجتمع الإسلاميِّ ، إنَّه ليس كمَّاً مهملاً ، ولا رقماً في سجلٍ ، ولا بزالاً في آلةٍ ، يستغنى عنه عند الضَّرورة ليؤتى بغيره ، إنَّها بعض التَّفسير للمنهج

---

(١) انظر : محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (٤/ ٣٨٧ ، ٣٨٨) .

(٢) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٥٠ ، وابن حجر ، وابن كثير ، في البداية والنِّهاية ، وابن هشام ، في السِّيرة النبويَّة .

الإلهيِّ[١] في قوله: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

كما أنَّ في هذه القصَّة مَعْلَماً من معالم المنهج النَّبويِّ الكريم في وجوب اليقظة، وتعرُّف أحوال العدو، ومراقبة حركاته، ومعرفة ما عنده من القوَّة عدداً وعدَّةً، وما رسمه من خططٍ حربيَّةٍ، وهي سياسةٌ مهمَّةٌ بالنسبة للقادة الَّذين يسعون لإعلاء كملة الله في الأرض[٢].

وأمَّا قول الرَّسول ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل بعدها»، فهذا محمول على النَّوافل الَّتي يكفِّر الله بها السيئات، ويرفع بها الدَّرجات، والمقصود: أنَّه عمل عملاً صالحاً كبيراً يكفي لتكفير ما قد يقع منه مِنْ سيئاتٍ في المستقبل، ويرفع الله به درجاته في الجنَّة، وليس المقصود: أنَّ هذا العمل يكفيه عن أداء الواجبات[٣].

٢ ـ شجاعة أمِّ سُلَيْمٍ يوم حنين:

قال أنس رضي الله عنه: إنَّ أمَّ سُلَيْمٍ اتخذت يوم حنين خِنْجَراً[٤]، فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله! هذه أمُّ سليم معها خنجرٌ، فقال لها رسول الله ﷺ: «ما هذا الخنجر؟» قالت: اتَّخذته إن دنا مني أحد من المشركين؛ بقرت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله! اقتلْ مَنْ بعدنا[٥] من الطُّلقاء[٦]، انهزموا بك[٧]، فقال رسول الله: «يا أمَّ سُلَيْم! إنَّ الله قد كفى، وأحسن». [مسلم (١٨٠٩)].

٣ ـ الشَّيماء بنت الحارث أخت النَّبيِّ ﷺ من الرَّضاعة:

كان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله ﷺ الشَّيماء بنت الحارث، وبنت حليمة السَّعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرَّضاعة، وعنَّفوا عليها في السَّوق، وهم لا يدرون، فقالت للمسلمين: تعلمون والله! أنِّي لأختُ صاحبكم من الرَّضاعة، فلم يصدِّقوها حتَّى أتوا بها رسولَ الله ﷺ، ولما انتهت الشَّيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله! إنِّي أختك من الرَّضاعة، قال: «ما علامة ذلك؟» قالت: عَضَّةٌ عَضَضْتَنِيهَا في ظهري، وأنَّا مُتَوَرِّكَتُك[٨]،

---

(١) انظر: معين السِّيرة، ص ٤٢٩.
(٢) انظر: محمد رسول الله، لصادق عرجون (٤/ ٣٦٦).
(٣) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١٤).
(٤) خنجراً: سكيناً كبيرة ذات حدين.
(٥) من بعدنا: من سوانا.
(٦) الطلقاء: هم الذين أسلموا يوم الفتح وكانوا سبب الانهزام في المرة الأولى.
(٧) انهزموا بك: انهزموا عنك.
(٨) متوركتُك: يعني: حاملتك على وركي.

وعرف رسولُ الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيَّرها، وقال: «إن أحببت؛ فعندي مُحَبَّةً مُكْرمَةً، وإن أحببت أن أُمَتِّعَكِ، وترجعي إلى قومك؛ فعلتُ» فقالت: بل تمتِّعني، وتردُّني إلى قومي[1]، ومتَّعها رسول الله ﷺ فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أَعْبُدٍ، وجاريةً، ونعماً، وشاء. [الطبري في تاريخه (٣/ ١٣١ ـ ١٣٢)، وابن هشام (٤/ ١٠٠ ـ ١٠١)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ١٦٩ ـ ٢٠٠)، وعبد الرزاق في المصنف (٧/ ٤٧٩) برقم (١٣٩٥٨)][2].

خامساً: إسلام كعب بن زهير ـ الشَّاعر ـ والهيمنة الإعلاميَّة على الجزيرة:

لمَّا قدم رسول الله ﷺ من الطَّائف؛ جاءه كعب بن زهير ـ الشَّاعر ابن الشَّاعر ـ وكان قد هجا رسول الله ﷺ، ثمَّ ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثَّه أخوه (بُجَيْر) على أن يأتي رسول الله ﷺ تائباً مسلماً، وحذَّره من سوء العاقبة؛ إن لم يفعل ذلك، فقال قصيدته الَّتي يمدح فيها رسول الله ﷺ، والتي اشتهرت بقصيدة (بانت سعاد) فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلَّى الصُّبح، ثمَّ جلس إليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول الله ﷺ: «إنَّ كعب بن زهير جاء يستأمنُك تائباً مسلماً، فهل أنت قابلٌ منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله! دعني وعدوَّ الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك، فقد جاء تائباً نازعاً» وأنشد كعب قصيدته اللاَّمية الَّتي قال فيها:

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ[3]
ومَا سُعَادُ غَدَاةَ الطَّرْفِ إِذْ رَحَلُوا ... إِلاَّ أغَنُّ قَرِيرُ العَيْنِ مَكْحُولُ[4]

ومنها:

إِنَّ الرَّسُولَ لَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُهَنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ
فِيْ عُصْبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُوْلُوا
شُمُّ العَرَانِيْنِ أَبْطَالٌ لَبُوسُهُمُ ... مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سَرَابِيْلُ

[الحاكم (٣/ ٥٧٩ ـ ٥٨٣)، والطبراني في الكبير (١٩/ ١٧٦ ـ ١٧٩)، برقم (٤٠٣)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٠٧ ـ ٢١١)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٣٩٣ ـ ٣٩٤)][5].

ويقال: إنَّه لما أنشد رسول الله قصيدته؛ أعطاه بردته، وهي الَّتي صارت إلى الخلفاء[6]،

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٦٣)، والسِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٥٠٦).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبوية، للنَّدوي، ص ٣٥٨.
(٣) متبول: مغرم، مكبول: مقيد.
(٤) أغنُّ: صفة للغزال الَّذي في صوته غنَّة.
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١).
(٦) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (٢/ ٤٨٧).

قال ابن كثيرٍ: هذا من الأمور المشهورة جدّاً، ولكن لم أرَ ذلك في شيءٍ من هذه الكتب المشهورة بإسنادٍ أرتضيه، فالله أعلم[١].

ويقال: إنَّ الرَّسول ﷺ قال له بعد ذلك: لولا ذكرت الأنصار بخيرٍ، فإن الأنصار لذلك أهلٌ[٢]، فقال:

مَـنْ سَـرَّهُ كَـرَمُ الحَيَـاةِ فَـلاَ يَـزَلْ ... فِـيْ مِقْنَـبٍ مِـنْ صَـالِحِـي الأَنْصَـارِ[٣]

وَرِثُـوا المكَـارِمَ كَـابِـراً عَـنْ كَـابِـرٍ ... إنَّ الخِيَـارَ هُـمُ بَنُـو الأَخْيَـارِ

المُكْـرِهِيْـنَ السَّمْهَـرِيَّ بِـأَذْرُعٍ ... كَسَـوَالِـفِ الهِنْـدِيِّ غَيْـرِ قِصَـارِ[٤]

والنَّـاظِـرِيْـنَ بِـأَعْيُـنٍ مُحْمَـرَةٍ ... كَـالْجَمْـرِ غَيْـرَ كَلِيْلَـةِ الأَبْصَـارِ

والبَـائِعِيْـنَ نُفُـوْسَهُـمْ لِنَبِيِّهِـمْ ... لِلْمَـوْتِ يَـوْمَ تَعَـانُـقٍ وكِـرَارِ

والقَـائِـدِيْـنَ[٥] النَّـاسَ عَـنْ أَدْيَـانِهِـمْ ... بِـالمَشْـرِفِـيِّ وبِـالقَنَـا الخَطَّـارِ[٦]

يَتَطَهَّـرُوْنَ يَـرَوْنَـه نُسُكَـاً لَهُـمْ ... بِـدِمَـاءِ مَـنْ عَلِقُـوا مِـنَ الكُفَّـارِ

إلى أن قال:

لَـوْ يَعْلَـمُ الأَقْـوَامُ عِلْمِـيَ كُلَّـهُ ... فِيْهِـمْ لَصَـدَّقَنِـي الَّـذِيْـنَ أُمَـارِي[٧]

قَـوْمٌ إِذَا خَـوتِ النُّجُـومُ فَـإِنَّهُـمْ ... لِلطَّـارِقِيْـنَ[٨] النَّـازِلِيْـنَ مَقَـارِي[٩]

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول بأنَّ الشُّعراء المعارضين للدَّعوة الإسلاميَّة قد انتهى دورهم، فقد أسلم ضرار بن الخطَّاب، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى، وأبو سفيان بن الحارث، والحارث بن هشام، والعبَّاس بن مرداس، وتحوَّلوا إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ، واستظلوا بلوائه عن قناعةٍ، وإيمانٍ، ولم يكتفِ بعضهم بأن تكون كلمتُه في الدِّفاع عن الإسلام؛ بل كان سيفُه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكَّة[١٠].

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٧٣).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) مِقْنَب: جماعة.
(٤) السَّمْهَرِيُّ: الرمح، سوالف الهندي: حواشي السَّيف.
(٥) القائدين: المانعين النَّاس.
(٦) المشرفيُّ: السَّيف، والقنا: الرِّماح جمع: قناة، والخطَّار: المهتز.
(٧) أماري: أجادل.
(٨) خوت النُّجوم: أي: سقطت، الطَّارقون: الذين يأتون بالليل.
(٩) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٦٧، ١٦٨).
(١٠) انظر: من معين السِّيرة، ص ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٣.

سادساً: من نتائج غزوة حنينٍ، والطائف:

١ ـ انتصار المسلمين على قبيلتي هوازن، وثقيف في هذه الغزوة.

٢ ـ كانت غزوة حنين والطَّائف آخر غزوات النَّبيِّ ﷺ لمشركي العرب.

٣ ـ رجوع كثيرٍ من أهل مكَّة والأعراب بغنائم إلى مواطنهم تأليفاً لهم لدخول الإسلام، وحصول الأنصار على وسامٍ عظيم، وهو شهادةُ رسولِ الله ﷺ لهم بالإيمان، والدُّعاء لهم ولأبنائهم، وأحفادهم، ورجوعهم برسول الله ﷺ إلى المدينة.

٤ ـ انضمام كوكبةٍ مباركةٍ من قيادة أهل مكَّة وهوازن إلى الإسلام، وأصبحوا حرباً ضروساً على الأوثان، والأصنام، والمعابد الجاهليَّة في الجزيرة العربيَّة، كما كان لقبيلة هوازن دورٌ كبيرٌ في مجاهدة أهل الطَّائف، والتَّضييق عليهم حتَّى أسلموا.

٥ ـ توسَّعت الدَّولة الإسلاميَّة وامتدَّ نفوذها، وأصبح لرسول الله ﷺ أمراء بمكَّة، وعلى قبيلة هوازن، وصارت تلك الأماكن جزءاً من الدولة الإسلامية؛ التي عاصمتها المدينة النَّبويَّة، وأصبح بالإمكان أن يرسل رسولُ الله ﷺ بعوثاً دعويَّةً بدون خوفٍ، أو وجلٍ مِنْ أحدٍ، وصارت المدينة بعد الفتح تستقبل وفود المستجيبين، وأخذت حركة السَّرايا تستهدف الأوثان، والأصنام لتهديمها، فقد أصبح استئصال وجودها من الجزيرة سهلاً، ونظَّم رسولُ الله ﷺ فريضة الزَّكاة، فكلَّف مَنْ يقوم على جمعها من القبائل التَّابعة للدَّولة[1].

* * *

(١) انظر: الأساس في السُّنَّة وفقهها في السِّيرة النَّبويَّة (٢/ ٩٦١).

المبحث الرَّابع
أهمُّ الأحداث ما بين حُنَيْنٍ وتبوك

أولاً: ترتيب استيفاء الصَّدقات:

شرع رسول الله ﷺ بعد عودته إلى المدينة ـ في أواخر ذي القعدة ـ في تنظيم الإدارة، والجباية، وكان ﷺ قد استخلف عَتَّابَ بن أَسِيْدٍ على مكَّة حين انتهى من أداء العمرة، وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقِّه النَّاس، ويعلِّمهم القرآن، وكان هدي النَّبيُّ ﷺ عندما تدخل القبائل في الإسلام الحرصَ على تعليمها، وتربيتها، ويُعَيِّن مَنْ يُشرف على ذلك؛ لأنَّ النُّفوس تحتاج إلى العناية، والاهتمام، وغرس العقائد الصَّحيحة، والتَّصوُّرات السَّليمة فيها.

وفي مطلع المحرم من العام التَّاسع وجَّه الرَّسول ﷺ عُمَّالَه إلى المناطق المختلفة، فبعث بُريدة بن الحصيب إلى أسلم، وغِفار، وعبَّاد بن بشر الأشهلي إلى سُليم، ومزينة، ورافع بن مكيث إلى جهينة، وعمرو بن العاص إلى فزارة، والضَّحاكَ بن شعبان الكلابيَّ إلى بني كلاب، وبسر بن سفيان الكعبي إلى بني كعبٍ، وابن اللُّتبيَّة الأزديَّ إلى بني ذبيان، ورجلاً من بني سعد بن هذيم إلى بني هذيم[١]، والمهاجر بن أبي أميَّة إلى صنعاء، وزياد بن لبيد إلى حضرموت، والزبرقان بن بدرٍ، وقيس بن عاصم إلى بني سعدٍ، والعلاءَ بن الحضرميِّ إلى البحرين، وعليَّ بن أبي طالبٍ إلى نجران؛ ليجمع صدقاتهم، ويَقْدَم عليه بجزيتهم[١].

وكان ﷺ يستوفي الحساب على العُمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف، كما فعل مع عامله ابن اللُّـتْبِـيَّة من الأزد، حيث حاسبه عندما قال الرَّجل[٢]: هذا لكم، وهذا أُهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بالُ عاملٍ أبعثُه، فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه، أو بيت أمِّه حتَّى ينظر أيُهدى إليه أم لا؟!، والَّذي نفس محمد بيده! لا ينال أحدٌ منكم شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيراً له

(١) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٨٤).
(٢) انظر: الدولة العربية الإسلامية، لمنصور الحرابي، ص ٤٣.

رُغاء، أو بقرةً لها خوار ، أو شاةً تَيْعَرُ» ثمَّ رفع يديه حتَّى رأينا عُفْرَتَيْ إبطيه ثمَّ قال: «اللَّهُمَّ هل بلغتُ؟ مرَّتين» [البخاري (٦٩٧٩)، ومسلم (١٨٣٢)]. وكان يقول أيضاً: «أيما عاملٍ استعملناه وفرضنا له رزقاً فما أصاب بعد رزقه؛ فهو غلول». [أبو داود (٢٩٤٣)][١].

ثانياً: أهمُّ السَّرايا في هذه المرحلة:

أ ـ سريَّة الطُّفيل بن عمرو إلى ذي الكفلين:

كان النَّبيُّ ﷺ قد بعث الطُّفيل بن عمروٍ من مقرِّه في حُنَيْنٍ، وقبل أن يسير إلى الطَّائف، أمره بأن يهدم (ذا الكفلين) صنم عمرو بن حُمَمَة الدَّوسيِّ، ثمَّ يستمدُّ قومه، ويوافيه مع المدد إلى الطَّائف، وقد نَّفذ الطُّفيل بن عمروٍ أوامر النَّبيِّ ﷺ، فهدم (ذا الكفلين) وحرَّقه، وقاد أربعمئةٍ من قومه، ومعهم دبابةٌ، ومنجنيق مدداً لرسول الله ﷺ، فوصلوا إليه بعد مقدمه الطَّائف بأربعة أيام[٢].

ب ـ سريَّة عبد الله بن حُذافة السَّهميِّ، ويُقال: إنَّها سريَّة الأنصار:

قال عليُّ بن أبي طالبٍ: بعث النَّبيُّ ﷺ سريَّـةً فاستعمل عليها رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يطيعوه، فغضب، فقال: أليس أمركم النَّبيُّ ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى! قال: فاجمعوا لي حطباً، فجمعوا، فقال: أوقدوا ناراً، فأوقدوها، فقال: ادخلوها، فهمُّوا، وجعل بعضهم يمسك بعضاً ويقولون: فررنا إلى النَّبيِّ ﷺ من النَّار، فما زالوا حتَّى خمدت النَّـار، فسكن غضبُه، فبلغ النَّبيَّ ﷺ فقال: «لـو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة؛ الطَّاعة في المعروف». [البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠)].

ج ـ سريَّة عليِّ بن أبي طالب لهدم صنم الفُلْس في بلاد طَيِّئ:

وفي ربيع الآخر خرجت سريَّة عليِّ بن أبي طالب إلى الفُلْس ـ صنم لِطيِّئ ـ ليهدمه، وكان تعدادها خمسين ومئة رجلٍ من الأنصار، على مئة بعير، وخمسين فرساً، ومعه رايةٌ سوداء، ولواءٌ أبيض، فشنُّوا الغارة على محلَّة آل حاتم ـ حاتم الطَّائيِّ الَّذي ضُرب المثل بجوده ـ مع الفجر، فهدموا الفُلْس، وخرَّبوه، وملؤوا أيديهم من السَّبي، والنَّعَم، والشَّاء، وفي السَّبي أخت عديٍّ بن حاتم، وهرب عديٌّ إلى الشَّام[٣].

---

(١) انظر: التراتيب الإدارية، للكتاني (١/ ٢٦٥).
(٢) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٨٥).
(٣) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، المغازي، ص ٦٢٤.

د ـ سرية جرير بن عبد الله البجلي إلى ذي الخَلَصَة:

قال جرير بن عبد الله: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا تُرِيحُني من ذي الخَلَصَة؟»، فقلت: بلى! فانطلقت في خمسين ومئة فارس من أحمَس، وكانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبتُ على الخيل، فذكرت ذلك للنَّبيِّ ﷺ، فضرب يده على صدري، حتَّى رأيت أثر يده في صدري، وقال: «اللَّهم! ثَبِّتْهُ واجعله هادياً مهديّاً» قال: فما وقعت عن فرسٍ بعدُ، قال: وكان ذو الخلصة بيتاً باليمن لخَثْعَمَ، وبجيلة، فيه نُصُبٌ يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرَّقها بالنَّار، وكسرها، قال: ولمَّا قدم جرير اليمن كان بها رجلٌ يستقسم بالأزلام، فقيل له: إنَّ رَسُولَ رَسُولِ الله ﷺ هاهنا، فإن قدر عليك ضرب عنقك! قال: فبينما هو يضرب بها؛ إذ وقف عليه جرير، فقال: لَتَكْسِرَنَّها ولتَشْهَدنَّ أن لا إله إلا الله، أو لأضربن عنقك! قال: فكسرها، وشهد، ثم بعث جرير رجُلاً من أحمَس يُكنى أبا أرطأة إلى النَّبيِّ ﷺ يبشِّره بذلك، فلمَّا أتى النَّبيَّ ﷺ قال: يا رسول الله! والذي بعثك بالحقِّ ما جئت حتَّى تركتُها كأنَّها جملٌ أجرب، قال: فبرَّك النَّبيُّ ﷺ على خيل أحمَس، ورجالها خمس مرَّاتٍ. [البخاري (٤٣٥٧)، ومسلم (٢٤٧٦)، وأحمد (٤/ ٣٦٢)، وأبو داود (٢٧٧٢)، والنسائي في الكبرى (٨٢٤٥)].

ثالثاً: إسلام عديِّ بن حاتم:

عندما وقعت أخت عديِّ بن حاتم في أسر المسلمين؛ عاملها رسول الله ﷺ معاملةً كريمة، وبقيت معزَّزة مكرَّمةً، ثمَّ كساها النَّبيُّ ﷺ، وأعطاها ما تتبلَّغ به في سفرها، وعندما وصلت إلى أخيها في الشَّام شجَّعته على الذَّهاب لرسول الله ﷺ، فتأثَّر بنصيحتها، وقدم على المدينة[1]، ونترك أبا عبيدة بن حذيفة يحدِّثنا عن قصَّة إسلام عديٍّ، قال أبو عبيدة بن حذيفة: كنت أُحَدَّثُ عن عديِّ بن حاتمٍ، فقلت: هذا عديٌّ في ناحية الكوفة، فلو أتيتُه، فكنت أنا الذي أسمع منه، فأتيتُه فقلت: إنِّي كنت أُحدَّث عنك حديثاً، فأردت أن أكون أنا الَّذي أسمعه منك. قال: لمَّا بعث الله ـ عزَّ وجلَّ ـ النَّبيَّ ﷺ فررت منه حتَّى كنت في أقصى أرض المسلمين ممَّا يلي الرُّوم.

قال: فكرهت مكاني الَّذي أنا فيه حتَّى كنت له أشدَّ كراهيةً له منِّي من حيث جئت، قال: قلت: لآتينَّ هذا الرَّجل، فوالله! إن كان صادقاً، فلأسمعنَّ منه، وإن كان كاذباً ما هو بضائري.

قال: فأتيتُه، واستشرفني النَّاس، وقالوا: عديُّ بن حاتمٍ، عديُّ بن حاتمٍ، قال: أظنُّه قال ثلاث مرارٍ، قال: فقال لي: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم». قال: قلت: إنِّي من أهل دينٍ، قال: «يا عديُّ بن حاتمٍ! أسلم؛ تسلم» قال: قلت: إنِّي من أهل دينٍ، قالها ثلاثاً، قال:

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ٨١).

«أنا أعلم بدينك منك» قال: قلت: أنت أعلم بديني منِّي؟! قال: «نعم» قال: «أليس ترأس قومك؟» قال: قلت: بلى! قال: فذكر محمَّدٌ الرَّكوسِيَّة[١] قال: كلمة التمسها يقيمها، فتركها، قال: «فإنَّه لا يحلُّ في دينك المرباع[٢]».

قال: فلمَّا قالها؛ تواضعتُ لها، قال: «وإنِّي قد أرى أنَّ ممَّا يمنعك خصاصةً تراها ممَّن حولي، وأن النَّاس علينا إلباً واحداً، هل تعرف مكان الحِيرة؟» قال: قلت: قد سمعت بها، ولم آتها. قال: «لتوشكنَّ الظَّعينة أن تخرج منها بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة، ولتوشكنَّ كنوز كسرى بن هرمز تُفتح» قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز - ثلاث مرات -، وليوشكنَّ أن يبتغي مَنْ يقبل ماله منه صدقةً فلا يجد» قال: فلقد رأيت اثنتين: قد رأيت الظَّعينة تخرج من الحيرة بغير جوارٍ حتَّى تطوف بالكعبة، وكنت في الخيل الَّتي أغارت على المدائن، وايم الله! لتكونن الثَّالثة إنَّه لحديث رسول الله ﷺ حدَّثنيه. [البخاري (٣٥٩٥)، وأحمد (٤/ ٢٥٧)][٣].

وفي روايةٍ جاء فيه: «. . . فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه، وهو في مسجده، فسلَّمت عليه، فقال: «من الرَّجل؟» فقلت: عديُّ بن حاتمٍ، فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله! إنَّه لعامدٌ بي إليه؛ إذ لقيته امرأةٌ ضعيفةٌ كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تكلِّمه في حاجتها، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بِمَلِكٍ، قال: ثمَّ مضى بي رسول الله ﷺ حتَّى إذا دخل بي بيته تناول وسادةً من أَدَم[٤]، محشوةً ليفاً، فقذفها إليَّ، فقال: «اجلس على هذه» قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: «بل أنت» فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض، قال: قلت في نفسي: والله! ما هذا بأمر مَلِكٍ»[٥].

وفي هذه القصَّة دروس، وعبرٌ كثيرةٌ منها:

١ - كان عديٌّ وهو مقبلٌ على رسول الله ﷺ يحمل في تصوُّره أنَّه أحد رجلين: إمَّا نبيٌّ أو مَلِكٌ، فلمَّا رأى وقوف رسول الله ﷺ مع المرأة الضَّعيفة الكبيرة مدَّةً طويلةً شعر بِخُلُق التَّواضع، وانسلخ مِنْ ذهنه عامل المَلِكِ، واستقرَّ في تصوُّره عامل النُّبوَّة.

٢ - كان النَّبيُّ ﷺ موفقاً حينما انتقد عَدِيّاً في مخالفته للدِّين الَّذي يعتنقُه، حين حصل لعدي

---

(١) قومٌ لهم دين بين النَّصارى والصَّابئة، النهاية (٢/ ٢٥٩).
(٢) المرباع: هو ربع الغنيمة يأخذه سيِّد القوم قبل القسمة.
(٣) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٥٨٠.
(٤) أدم: هو بفتحتين: الجلد.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ٢٣٦)، والبداية والنِّهاية، لابن كثير (قصة عدي بن حاتم الطائي).

اليقين بنبوّة رسول الله ﷺ، الَّذي يعلم من دينه ما لا يعلمه النَّاس مِنْ حوله.

٣ ـ لمَّا ظهر للنَّبيِّ ﷺ أنَّ عديّاً قد أيقن بنبوَّته؛ تحدَّث عن العوائق الَّتي تحول بين بعض الناس واتِّباع الحقِّ حتَّى مع معرفتهم بأنَّه حقٌّ، ومنها: ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، وما هم فيه من الفقر، فأبان له النَّبيُّ ﷺ بأنَّ الأمن سيشمل البلاد حتَّى تخرج المرأة من العراق إلى مكَّة من غير أن تحتاج إلى حماية أحدٍ، وأنَّ دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأنَّ المال سيفيض حتَّى لا يقبله أحدٌ، فلمَّا زالت عن عديٍّ هذه المعوِّقات؛ أسلم.

٤ ـ كان النَّبيُّ ﷺ موفقاً في دعوته، حيث كان خبيراً بأدواء النُّفوس، ودوائها، ومواطن الضَّعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يلائم كلَّ إنسانٍ بما يلائم علمه وفكره، وما ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه، ولذلك أثَّر في زعماء القبائل، ودخل النَّاس في دين الله أفواجاً[1].

٥ ـ وجد عديٌّ سماتِ النُّبوَّة الصَّادقة في مظهر معيشته ﷺ وحياته، ووجد هذه السِّمات أيضاً في لون حديثه، وكلامه، ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزَّمن، والتَّاريخ، فكان ذلك سبباً في إسلامه وزيادة يقينه، وانخلاعه عن زخارف الحياة الدُّنيا ومظاهر الأبَّهة، والتَّرف الَّتي كان قد أسبغها عليه قومُه[2].

رابعاً: أحداث متفرِّقة في سنة ثمانٍ:

قال ابن كثير نقلاً عن الواقدي: «... وفي هذه السَّنة بعث رسولُ الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر، وعمرو ابني الجلندى من الأزد، وأُخِذَتِ الجزية من مجوس بلدها، ومَنْ حولها من الأعراب، وفيها تزوَّج رسول الله ﷺ فاطمة بنت الضَّحاك بن سفيان الكلابي في ذي القعدة، فاستعاذت منه عليه السَّلام، ففارقها، وفي ذي الحجَّة منها ولد إبراهيم ابن رسول الله من مارية القبطيَّة، فاشتدَّت غيرة أمَّهات المؤمنين منها حين رُزِقت ولداً ذكراً»[3].

وفي عام (٨ هـ) توفِّيت السَّيدة زينب بنت رسول الله وزوج أبي العاص بن الرَّبيع، وقد ولدت قبل المبعث بعشر سنين، وكانت أكبر بناته ﷺ، تليها رقيَّة، ثمَّ أمُّ كلثوم، ثمَّ فاطمة رضي الله عنهنَّ، كان رسول الله محبّاً لها، أسلمت قديماً، ثمَّ هاجرت قبل إسلام زوجها بستِّ سنين، وكانت قد أجهضت في هجرتها ثمَّ نزفت، وصار المرض يعاودها حتَّى توفيت، ولمَّا

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ٥٨، ٨٦).
(٢) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ٣٢١.
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٤/ ٣٧٤).

ماتت؛ قال رسول الله ﷺ: «اغْسِلْنها وِتْراً؛ ثلاثاً، أو خمساً، واجعلْن في الآخرة كافوراً».
[البخاري (١٣٥٢)، ومسلم (٩٣٩)][1].

* * *

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (٢/ ٤٩٠) والكافور: نبت طيب الرَّائحة وهو فضلاً عن كونه يطيب الميت يجفف جسمه، ويجعله صلباً متماسكاً، ويمنع إسراع الفساد إليه.

الفصل السَّابع عشر
غزوة تبوك (٩ هـ) وهي غزوة العُسْرَة[١]

المبحث الأوَّل
تاريخ الغزوة، وأسماؤها، وأسبابها

أوَّلاً: تاريخها، وأسماؤها:

خرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التَّاسع الهجريِّ[٢]، بعد العودة من حصار الطَّائف بنحو ستَّة أشهرٍ[٣].

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكانٍ، هو عين تبوك؛ الَّتي انتهى إليها الجيش الإسلاميُّ، وأصل هذه التَّسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روى بسنده إلى معاذ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتَّى يضحى النَّهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى آتي». [أحمد (٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨)، ومسلم (٧٠٦/ ١٠)، وأبو داود (١٢٠٦)، والترمذي (٥٥٣)، والنسائي (١/ ٢٨٥)، وابن ماجه (١٠٧٠)].

وللغزوة اسمٌ آخر، وهو غزوة العُسْرَة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدَّث عن هذه الغزوة في سورة التَّوبة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

وقد روى البخاريُّ بسنده إلى أبي موسى الأشعريِّ: قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُملانَ لهم؛ إذ هم معه في جيش العُسْرَة، وهي غزوة تبوك... ، وعَنْوَنَ البخاريُّ لهذه الغزوة بقوله: «باب غزوة تبوك، وهي غزوة العُسْرة». [البخاري تعليقاً (٨/ ١٣٨)].

---

(١) ينظر الشكل (٢٠) في الصفحة (٦٢٤).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٤/ ٥٤٠ ـ ٥٤٢)، والسِّيرة النَّبوية في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٤.

(٣) انظر: فتح الباري (١٦/ ٢٣٧).

لقد سمِّيت بهذا الاسم لشدَّة ما لاقى المسلمون فيها من الضَّنْكِ ، فقد كان الجوُّ شديدَ الحرارة ، والمسافة بعيدةً ، والسَّفر شاقّاً لقلَّة المؤونة وقلَّة الدَّوابِّ الَّتي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة ، وقلَّة الماء في هذا السَّفر الطَّويل ، والحرِّ الشَّديد ، وكذلك قلَّة المال الذي يُجَهَّز به الجيش ، وينفق عليه[١] ، ففي تفسير عبد الرَّزَّاق عن معمر ، عن ابن عقيل؛ قال: (خرجوا في قلَّةٍ من الظَّهْر ، وفي حرٍّ شديدٍ حتَّى كانوا ينحرون البعير ، فيشربون ما في كِرْشِهِ من الماء ، فكان ذلك عُسْرَةً من الماء)[٢] ، وهذا الفاروق عمر بن الخطَّاب يحدِّثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين ، فيقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظٍ شديدٍ ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطشٌ شديدٌ ، حتَّى ظننَّا أنَّ رقابنا ستنقطع حتَّى إن كان أحدُنا يذهب يلتمس الخلاء ، فلا يرجع حتَّى يظنَّ أنَّ رقبته تنقطع ، وحتى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه؛ فيشربه ، ويضع ما بقي على بَطْنِه. [البزار (١٨٤١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤)].

وللغزوة اسم ثالث هو الفاضحة؛ ذكره الزُّرقانيُّ ـ رحمه الله ـ في كتابه (شرح المواهب اللَّدنية)[٣] ، وسمِّيت بهذا الاسم؛ لأنَّ هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين ، وهتكت أستارهم ، وفضحت أساليبهم العدائيَّة الماكرة ، وأحقادهم الدَّفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحقِّ رسول الله ﷺ ، والمسلمين[٤].

وأمَّا موقع تبوك فيقع شمال الحجاز يبعد عن المدينة ٧٧٨ ميلاً حسب الطَّريق المعبدة في الوقت الحاضر ، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الرُّوم آنذاك[٥].

ثانياً: أسبابها:

ذكر المؤرِّخون أسباب هذه الغزوة ، فقالوا: وصلت الأنباء للنَّبيِّ ﷺ من الأنباط الَّذين يأتون بالزَّيت مِنَ الشَّام إلى المدينة: أنَّ الروم جمعت جموعاً ، وأجلبت معهم لخمُ ، وجُذَامُ ، وغيرُهم من متنصِّرة العرب ، وجاءت في مقدِّمتهم إلى البلقاء[٦] ، فأراد النَّبيُّ ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه[٧].

ويرى ابن كثير: أنَّ سبب الغزوة هو استجابةٌ طبيعيَّةٌ لفريضة الجهاد ، ولذلك عزم رسول الله

---

(١) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، لأبي فارس ، ص ٨٣.
(٢) فتح الباري في شرح حديث رقم (٤٤١٥)، ومحمَّد ﷺ (غزوة تبوك أو العسرة)، لمحمَّد رضا.
(٣) انظر: شرح المواهب اللَّدنية (٣/ ٦٢).
(٤) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٨٤.
(٥) انظر: المجتمع الإسلامي ، للعمري ، ص ٢٢٩.
(٦) البلقاء: هي كورةٌ من أعمال دمشق بين الشَّام ، ووادي القرى ، عاصمتها عمَّان.
(٧) انظر: الطَّبقات الكبرى ، لابن سعدٍ (٢/ ١٦٥).

ﷺ على قتال الرُّوم؛ لأنَّهم أقرب النَّاس إليه ، وأولى النَّاس بالدَّعوة إلى الحقِّ لقربهم إلى الإسلام ، وأهله ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ١٢٣].

والَّذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصَّواب؛ إضافةً إلى أنَّ الأمر الَّذي استقرَّ عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافَّةً بِمَنْ فيهم أهل الكتاب الَّذين وقفوا في طريق الدَّعوة ، وظهر تحرُّشهم بالمسلمين ، كما روى أهل السِّير[(١)].

ولا يمنع ما ذكره المؤرِّخون بأنَّ سبب الخروج هو عزم الرُّوم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزاً للخروج إليهم؛ لأنَّ أصل الخروج كان وارداً.

لقد كان المسلمون على حذرٍ من مجيء غسَّان إليهم من الشَّام ، ويظهر ذلك جليّاً ممَّا وقع لعمر بن الخطَّاب ، فقد كان النَّبيُّ ﷺ آلى من نسائه شهراً ، فهجرهنَّ ، ففي صحيح البخاريِّ: وكنَّا قد تحدَّثنا: أنَّ آل غسَّان تُنْعِلُ النِّعال لغزونا ، فنزل صاحبي الأنصاريُّ يوم نوبته ، فرجع إلينا عِشاءً فضرب بابي ضرباً شديداً ، وقال: أنائمٌ هو؟ ففزعت ، فخرجت إليه ، وقال: حدث أمرٌ عظيم ، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسَّان؟ قال: لا! بل أعظم منه ، وأهول ، طلَّق رسول الله ﷺ نساءه . . . . [البخاري (٥١٩١) ، ومسلم (١٤٧٩)].

ثالثاً: الإنفاقُ في هذه الغزوة وحِرْصُ المؤمنين على الجهاد:

حثَّ رسول الله ﷺ الصَّحابة على الإنفاق في هذه الغزوة؛ لبعدها ، وكثرة المشركين فيها ، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله ، فأنفق كلٌّ حسب مقدرته ، وكان عثمان رضي الله عنه صاحب القِدْح المعلَّى في الإنفاق في هذه الغزوة[(٢)] ، فهذا عبد الرَّحمن بن خُباب يحدِّثنا عن نفقة عثمان ، حيث قال: شهدت النَّبيَّ ﷺ وهو يحثُّ على جيش العُسْرَة ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئة بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ مئتا بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، ثمَّ حضَّ على الجيش ، فقام عثمان بن عفَّان ، فقال: يا رسول الله! عليَّ ثلاثمئة بعيرٍ بأحلاسها ، وأقتابها في سبيل الله ، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر ، وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه! ما على عثمان ما عمل بعد هذه». [أحمد (٤/ ٧٥) ، والترمذي (٣٧٠٠)].

وعن عبد الرَّحمن بن سَمُرَة رضي الله عنهما قال: جاء عثمان بن عفَّان إلى النَّبيِّ ﷺ بألف دينارٍ في ثوبه حين جهَّز النَّبيُّ ﷺ جيش العُسْرَة ، قال: فجعل النَّبيُّ ﷺ يقلِّبها بيده ، ويقول:

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٥/ ٣).
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٥.

«ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم! يردِّدها مراراً». [أحمد (٥/ ٦٣)، والترمذي (٣٧٠١)].

وأمَّا عمر؛ فقد تصدَّق بنصف ماله، وظنَّ أنَّه سيسبق أبا بكرٍ بذلك، وهذا الفاروق يحدِّثنا بنفسه عن ذلك، حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدَّق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر؛ إن سبقته يوماً، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكلِّ ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسولَه، قلت: لا أسابقك إلى شيءٍ أبداً. [أبو داود (١٦٧٨)، والترمذي (٣٦٧٥)].

وروي: أنَّ عبد الرَّحمن بن عوفٍ أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العُسْرَة[(١)].

وكانت لبعض الصَّحابة نفقاتٌ عظيمةٌ، كالعبَّاس بن عبد المطَّلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمَّد بن مَسْلَمة، وعاصم بن عديٍّ رضي الله عنهم[(٢)].

وهكذا يفهم المسلمون: أنَّ المال وسيلةٌ، واستطاع أغنياء الصَّحابة أن يبرهنوا: أنَّ مالهم في خدمة هذا الدِّين، يدفعونه عن طواعيةٍ، ورغبةٍ، وأنَّ تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخٌ مشرِّفٌ؛ لأنَّه تاريخ المال في يد الرِّجال، لا تاريخ الرِّجال تحت سيطرة المال، وكما كان الجهاد بالنَّفس فكذلك هو بالمال، وإنَّ الَّذين رُبُّوا على أن يقدِّموا أنفسهم، تهون عليهم أموالُهم في سبيل الله تعالى[(٣)].

إنَّ في مسارعة الموسرين من الصَّحابة إلى البذل، والإنفاق دليلاً على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين؛ من مسارعةٍ إلى فعل الخير، ومقاومةٍ لأهواء النَّفس وغرائزها، ممَّا تحتاج إليه كلُّ أمَّة لضمان النَّصر على أعدائها، وخير ما يفعله المصلحون، وزعماء النَّهضات هو غرس الدِّين في نفوس النَّاس غرساً كريماً[(٤)].

وقدَّم فقراء المسلمين جهدهم من النَّفقة على استحياءٍ، ولذلك تعرَّضوا لسُخْريَةِ وغمز، ولمز المنافقين، فقد جاء أبو عُقَيْلٍ بنصف صاع تمرٍ، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: إنَّ الله لغنيٌّ عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياءً، فنزلت الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٦.
(٢) انظر: مغازي الواقدي (٣/ ٣٩١).
(٣) انظر: من معين السِّيرة، ص ٤٤٩.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ، وعبرٌ، للسِّباعي، ص ١٦١.

﴿ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩][١].

وقالوا: ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء، فكانوا يتَّهمون الأغنياء بالرِّياء، ويسخرون من صدقة الفقراء[٢].

لقد حزن الفقراء من المؤمنين لأنَّهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد؛ فهذا عُلبَةُ بن زيدٍ أحد البكَّائين صلَّى من اللَّيل، وبكى، وقال: اللَّهمَّ! إنَّك قد أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، وإنِّي أتصدَّق على كلِّ مسلمٍ بكلِّ مظلمةٍ أصابتني في جسدٍ، أو عرْضٍ، فأخبره النَّبيُّ ﷺ: أنَّه قد غُفِر له[٣].

وفي هذه القصَّة وما جرى فيها آياتٌ من الإخلاص، وحبِّ الجهاد لنصرة دين الله، وبثِّ دعوته في الآفاق، وفيها مِنْ لُطف الله بضعفاء المؤمنين الَّذين يعيشون في حياتهم عيشةً عمليَّة[٤].

وهذا واثلة بن الأسقع نتركه يحدِّثنا عن قصَّته: (.... عندما نادى رسول الله في غزوة تبوك، خرجت إلى أهلي، فأقبلت ـ وقد خرج أوَّل صحابة رسول الله ـ فطفقت في المدينة أنادي: ألا مَنْ يحمل رجلاً له سهمه! فإذا شيخٌ من الأنصار، فقال: لنا سهمه على أن نحمله عقبة[٥]، وطعامه معنا. فقلت: نعم، قال: فسر على بركة الله، فخرجت مع خير صاحبٍ حتَّى أفاء الله علينا[٦]، فأصابني قلائصَ[٧]، فَسُقْتُهُنَّ حتَّى أتيتُه، فخرج، فقعد على حقيبة من حقائب إبله، ثمَّ قال: سقهن مدبراتٍ، ثمَّ قال: سقهن مقبلاتٍ، فقال: ما أرى قلائصك إلا كراماً إنَّما هي غنيمتُك الَّتي شرطتُ لك، قال: خذ قلائصك يابن أخي! فغير سهمِك أردنا. [أبو داود (٢٦٧٦)][٨].

وهكذا تنازل واثلة في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخرويَّة، أجراً، وثواباً

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦١٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦١٧.
(٣) وردت من طرقٍ ضعيفةٍ، ولها شاهدٌ صحيحٌ، وهي بالجملة تصلح للشَّاهد التَّاريخيِّ، انظر: المجتمع المدنيّ للعمري، ص ٢٣٥، والإصابة لابن حجر.
(٤) انظر: محمَّد رسول الله، لصادق عرجون (٤/٤٤٣).
(٥) عقبة: أي: بالتعاقب.
(٦) كان واثلة بن الأسقع أحد أفراد سريَّة خالد بن الوليد في دومة الجندل.
(٧) قلائص: إبل.
(٨) انظر: جامع الأصول رقم (٦١٨٨)، ومن معين السيرة، ص ٤٥٣، يكري دابته على النِّصف، أو السهم.

يجده عند الله يوم لقائه ، وتنازل الأنصاريُّ عن قسم كبيرٍ من راحته ، ليتعاقب وواثلة على راحلته ، ويقدِّم له الطَّعام مقابل سهمٍ آخر ، وهو الأجر ، والثَّواب .

إنَّها مفاهيم تنبع من المجتمع الَّذي تربَّى على كتاب الله ، وسنَّة رسوله ﷺ ، لها نفس الخاصِّيَّة في الإضاءة ، وتحمل نَفْسَ البريق ، متمِّمٌ بعضها لبعضها الآخر[١] .

وجاء الأشعريُّون يتقدَّمهم أبو موسى الأشعريُّ يطلبون من النَّبيِّ ﷺ أن يحملهم على إبلٍ ليتمكَّنوا من الخروج للجهاد ، فلم يجد ما يحملهم عليه حتَّى مضى بعضُ الوقت ، فحصل لهم على ثلاثةٍ من الإبل[٢] .

وبلغ الأمر بالضُّعفاء ، والعجزة ممَّن أقعدهم المرض ، أو النَّفقة عن الخروج إلى حد البكاء شوقاً للجهاد ، وتحرُّجاً من القعود حتَّى نزل فيهم قرآن: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢] .

إنَّها صورةٌ مؤثِّرة للرَّغبة الصَّحيحة في الجهاد على عهد رسول الله ﷺ ، وما كان يحسُّه صادقو الإيمان من ألمٍ إذا ما حالت ظروفهم المادِّيَّة بينهم وبين القيام بواجباته ، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممَّن عذر الله لمرضٍ ، أو كبر سنٍّ ، أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين[٣] ، وهم الَّذين عناهم رسول الله ﷺ عندما قال: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم» قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة! قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر». [البخاري (٤٤٢٣) ، وأحمد (٣/١٠٣) ، وأبو داود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) ، وابن حبان (٤٧٣١)] .

رابعاً: موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلن الرَّسول ﷺ النَّفير ، ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة؛ أخذ المنافقون في تثبيط همم النَّاس ، قائلين لهم: لا تنفروا في الحرِّ ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٢] .

---

(١) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٥٣ .
(٢) انظر: المجتمع المدني ، ص ٢٣٦ .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦١٨ .

وقال رسول الله ﷺ ـ وهو في جهازه لتبوك ـ للجدِّ بن قيس: يا جدُّ! هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله! أو تأذن لي، ولا تفتني؟ فوالله! لقد عرف قومي: أنَّه ما من رجل أشدُّ عجباً بالنِّساء منِّي، وإنِّي أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألاَّ أصبر، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك» [الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٨ ـ ١٤٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢١٣ ـ ٢١٤)، والطبراني في الكبير (٢١٥٤ و١٢٦٥٤)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٣٠)]، ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩]، وذهب بعضهم إلى النَّبيِّ ﷺ مبدين أعذاراً كاذبةً، ليأذن لهم بالتخلُّف، فأذن لهم، فعاتبه الله تعالى بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وبلغ رسول الله ﷺ: أنَّ ناساً منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهوديِّ يثبِّطون النَّاس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم مَنْ أحرق عليهم بيت سُوَيْلِم. [ابن هشام (٤/ ١٦٠)][1].

وهذا يدلُّ على مراقبة المسلمين الدَّقيقة، ومعرفتهم بأحوال المنافقين واليهود، فقد كانت عيون المسلمين يقظةً تراقب تحرُّكات اليهود، والمنافقين، واجتماعاتهم، وأوكارهم، بل كانوا يطَّلعون فيها على أدقِّ أسرارهم، واجتماعاتهم، وما يدور فيها مِنْ حبك المؤامرات، وابتكار أساليب التَّثبيط، واختلاق الأسباب الكاذبة لإقناع النَّاس بعدم الخروج للقتال، وقد كان علاج رسول الله لدعاة الفتنة، وأوكارها حازماً حاسماً؛ إذ أمر بحرق البيت على مَنْ فيه من المنافقين، وأرسل مِنْ أصحابه مَنْ يُنَفِّذُه، ونُفِّذَ بحزمٍ، وهذا منهج نبويٌّ كريمٌ يتعلَّم منه كل مسؤول في كلِّ زمانٍ ومكانٍ كيف يقف من دعاة الفتنة، ومراكز الإشاعات المضلِّلة الَّتي تُلحق الضَّرر بالأفراد، والمجتمعات، والدُّول؛ لأنَّ التَّردُّد في مثل هذه الأمور يُعَرِّض الأمن والأمان إلى الخطر، وينذر بزوالها[2].

لقد تحدَّث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل الغزوة، وفي أثنائها وبعدها، وممَّا جاء من حديث القرآن الكريم عن موقف المنافقين قبل غزوة تبوك ما يتضمَّن استئذانهم، وتخلُّفهم عن الخروج، وكان ممَّن تخلف عبد الله بن أبيٍّ بن سلول وقد تحدَّث القرآن عنهم، فقال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢].

فقد بيَّن ـ سبحانه وتعالى ـ موقف المنافقين، وأنَّهم تخلَّفوا بسبب بُعْد المسافة، وشدَّتها،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصلية، ص ٦١٨.

(٢) انظر: الصِّراع مع الصليبيين، ص ١٢١.

وأنَّه لو كان الَّذي دعوتَهم إليه ـ يا محمد! ـ عرضاً من أعراض الدُّنيا ، ونعيمها ، وكان السَّفر سهلاً ، لاتَّبعوك في الخروج ، ولكنَّهم تخلَّفوا ، ولم يخرجوا ، فالآية تشرح ، وتوضِّح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة ، وأسباب هذا الموقف ، ثمَّ حكى ـ سبحانه ـ ما سيقوله هؤلاء المنافقون بعد عودة المؤمنين من هذه الغزوة: ﴿ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ، وكان نزول هذه الآية قبل رجوعه ﷺ من تبوك .

والمعنى: وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله ـ كذباً، وزوراً ـ قائلين: لو استطعنا أيُّها المؤمنون! أن نخرج معكم للجهاد في تبوك؛ لخرجنا، فإنَّنا لم نتخلَّف عن الخروج معكم إلا مضطرِّين، فقد كانت لنا أعذارُنا القاهرة الَّتي حملتنا على التخلُّف[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

قال ابن عاشور: أي: يحلفون مهلكين أنفسهم؛ أي: موقعينها في الهُلْكِ ـ والهُلْكُ: الفناء ، والموت ، ويطلق على الأضرار الجسميَّة ، وهو المناسب هنا ـ أي: يتسبَّبون في ضرِّ أنفسهم بالأيمان الكاذبة ، وهو ضرُّ الدُّنيا ، وعذاب الآخرة ، وفي هذه الآية دلالةٌ على أنَّ تعمُّد اليمين الفاجرة يفضي إلى الهلاك[2] .

ثمَّ عاتب الله تعالى نبيَّنا محمَّداً ﷺ بقوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

قال مجاهد[3]: نزلت هذه الآية في أُناسٍ قالوا: استأذِنوا رسولَ الله ﷺ ، فإن أذن لكم؛ فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم ، فاقعدوا . وهؤلاء هم فريقٌ من المنافقين ، منهم عبد الله بن أبيٍّ بن سلول ، والجدُّ بن قيسٍ ، ورفاعةُ بن التَّابوت ، وكانوا تسعةً وثلاثين ، واعتذروا بأعذارٍ كاذبةٍ[4] .

والآية الكريمة عتابٌ لطيفٌ من اللَّطيف الخبير سبحانه لحبيبه ﷺ على ترك الأَوْلى ، وهو التوقُّف عن الإذن إلى انجلاء الأمر ، وانكشاف الحال[5] ، ثمَّ قال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٤٧).
(٢) انظر: تفسير التَّنوير والتَّحرير (١٠/ ٢٠٩).
(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٠).
(٤) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١٠/ ٢١٠).
(٥) انظر: حديث القرآن الكريم.

يَسْتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٤ ـ ٤٥].

هـذه الآيات أوَّل ما نـزل في التَّفرقـة بين المنافقين والمؤمنين في القتال(١) ، فبيَّن سبحانه: أنَّه ليس من شأن المؤمنين بالله واليوم الآخر الاستئذان ، وترك الجهاد في سبيل الله ، وإنَّما هذا من صفات المنافقين الَّذين يستأذنون من غير عذرٍ ، وصفهم ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ أي: شكَّت في صحَّة ما جئتَهم به ، وقوله: ﴿ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي: يتحيَّرون ، يقدمون رِجْلاً ، ويؤخِّرون أخرى ، وليست لهم قدمٌ ثابتةٌ في شيءٍ(٢) .

لقد كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبةً للتَّمييز بين المؤمنين ، والمنافقين ، وَضَحَتْ فيها الحواجز بين الطَّرفين ، ولم يَعُدْ هناك أيُّ مجالٍ للتَّستُّر على المنافقين ، أو مجاملتهم؛ بل أصبحت مجابهتُهم أمراً ملحّاً بعد أن عملوا كلَّ مافي وسعهم لمجابهة الرَّسول ﷺ ، والدَّعوة ، وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنَّفير ، الَّذي أعلنه الله تعالى ، ورسوله ﷺ ، والَّذي نزل به القرآن الكريم؛ بل وأصبح الكشف عن نفاق المنافقين ، وإيقافُهم عند حدِّهم واجباً شرعيّاً(٣) .

خامساً: إعلان النَّفير ، وتعبئة الجيش:

أُعلِن النَّفير العام للخروج لغزوة تبوك؛ حتَّى بلغ عدد من خرج مع النَّبيِّ ﷺ إلى تبوك ثلاثين ألفاً ، وقد عاتب القرآن الكريم الَّذين تباطؤوا بقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شباناً ، وشيوخاً ، وأغنياء ، وفقراء ، بقوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

لقد استطاع رسول الله ﷺ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتلٍ(٤) من المهاجرين ، والأنصار ، وأهل مكَّة ، والقبائل العربيَّة الأخرى ، ولقد أعلن رسول الله ﷺ ـ على غير عادته في غزواته ـ هدفه ، ووجهتَه في القتال؛ إذ أعلن صراحةً: أنَّه يريد قتال بني الأصفر (الرُّوم) ، علماً بأنَّ هديه

---

(١) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٢٧).
(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦١).
(٣) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٨٩).
(٤) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٩٧.

في معظم غزواته أن يورِّي فيها[١] ، ولا يصرِّح بهدفِهِ ، ووجهتِهِ ، وقصدِهِ حفاظاً على سرية الحركة ، ومباغتة العدوِّ[١] .

وقد استدلَّ بعض العلماء بهذا الفعل على جواز التَّصريح لجهة الغزو إذا لم تقتضِ المصلحة ستره ، وقد صرَّح ﷺ في هذه الغزوة ـ على غير العادة ـ بالجهة التي يريد غزوها ، وجلَّى هذا الأمر للمسلمين ، لأسبابٍ منها :

١ ـ بُعْد المسافـة ، فقد كان رسول الله ﷺ يدرك أنَّ السير إلى بـلاد الرُّوم يُعدُّ أمراً صعباً ؛ لأنَّ التَّحرُّك سيتمُّ في منطقةٍ صحراويَّةٍ ممتدَّة ، قليلة الماء ، والنَّبات ، ولابدَّ حينئذٍ من إكمال المؤونة ، ووسائل النَّقل للمجاهدين قبل بدء الحركة حتَّى لا يؤدِّي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود .

٢ ـ كثرة عدد الرُّوم ، بالإضافة إلى أنَّ مواجهتهم تتطلَّب إعداداً خاصّاً ، فهم عدوٌّ يختلف في طبيعته عن الأعداء الَّذين واجههم النَّبيُّ ﷺ مِنْ قبلُ ، فأسلحتهم كثيرةٌ ، ودرايتهم بالحرب كبيرةٌ ، وقدرتهُم القتاليَّة فائقةٌ[١] .

٣ ـ شدَّة الزَّمان ، وذلك لكي يقفَ كلُّ امرئٍ على ظروفه ، ويُعِدَّ النَّفقة اللازمة له في هذا السَّفر الطَّويل لمن يعول وراءه[٢] .

٤ ـ أنَّه لم يعد مجالٌ للكتمان في هذا الوقت ؛ حيث لم يبقَ في جزيرة العرب قوَّةٌ معاديةٌ لها خطرها ، تستدعي هذا الحشد الضَّخم ، سوى الرُّومان ، ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ، ودومة الجندل والعقبة[٣] .

لقد شرع رسول الله ﷺ لنا الأخذ بمبدأ المرونة عند رسم الخطط الحربيَّة ، ومراعاة المصلحة العامَّة في حالتي الكتمان ، والتصريح ، ويعرف ذلك من مقتضيات الأحوال[٤] .

ولمَّا علم المسلمون بجهة الغزوة ؛ سارعوا إلى الخروج إليها ، وحثَّ الرسول ﷺ على النَّفقة قائلاً : «من جهَّز جيش العسرة فله الجنَّة» . [البخاري تعليقاً (٧/ ٦٥) ، والدارقطني (٤٤٠١) ، والبيهقي في الكبرى (٦/ ١٦٧)] .

واستخلف رسولُ الله ﷺ على المدينة محمَّد بن مسلمة الأنصاري ، وخلَّف عليَّ بن أبي طالبٍ على أهله ، فأرجف به المنافقون ، وقالوا : ما خلَّفه إلا استثقالاً ، وتخفُّفاً منه ، فأخذ

(١) انظر : الرَّسول القائد ﷺ ، ص ٣٩٨ .
(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٤) .
(٣) انظر : غزوة تبوك ، ص ٥٧ ، لمحمد أحمد باشميل .
(٤) انظر : القيادة في عهد الرَّسول ﷺ ، ص ٥١٠ .

عليٌّ رضي الله عنه سلاحه ، ثمَّ خرج حتَّى أتى رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بالجُرْفِ[١] ، فقال: يا نبي الله! زعم المنافقون: أنَّك إنَّما خلَّفتني ؛ لأنَّك استثقلتني ، وتخفَّفت منِّي ، فقال: «كذبوا ، ولكنِّي خلَّفتك لِمَا تركتُ ورائي ، فارجع فاخلفني في أهلي ، وأهلك ، أفلا ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبيَّ بعدي» [البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم (٢٤٠٤/ ٣١ ـ ٣٢)][٢]. فرجع عليٌّ إلى المدينة[٣].

وكان استخلاف عليٍّ رضي الله عنه في أهله باعتبار قرابته ، ومصاهرته ، فكان استخلافه في أمرٍ خاصٍّ ، وهو القيام بشأن أهله ، وكان استخلاف محمَّد بن مسلمة الأنصاريِّ في الغزوة نفسها استخلافاً عامّاً ، فتعلَّق بعض الناس بأن استخلاف عليٍّ يشير إلى خلافته من بعده ، ولا صحَّة لهذا القول ؛ لأنَّ خلافته كانت في أهله خاصَّة[٤].

وعندما تجمَّع المسلمون عند ثَنِيَّة الوداع بقيادة رسول الله ﷺ ، اختار الأمراء ، والقادة ، وعقد الألوية ، والرَّايات لهم ، فأعطى لواءه الأعظم إلى أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، ورايته العظمى إلى الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه ، ودفع راية الأوس إلى أُسَيْدُ بن حُضَيْرٍ ، وراية الخزرج إلى أبي دجانة ، وأمر كلَّ بطنٍ من الأنصار أن يتَّخذ لواءً[٥] ، واستعمل رسول الله ﷺ على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عَبَّادَ بن بِشْرٍ ، فكان رضي الله عنه يطوف في أصحابه على العسكر[٦] ، وكان دليلَ رسول الله ﷺ في هذه الغزوة علقمةُ بن الفَغْوَاء الخزاعيُّ ، فقد كان من أصحاب الخبرة ، والكفاءة في معرفة طريق تبوك[٧].

وقد انفرد الواقديُّ بالمعلومات عن طريق الجيش ، وتوزيع الرَّايات ، وهو متروكٌ ، ولكنَّه غزير المعلومات في السِّيرة ، وأخذ مثل هذه المعلومات منه لا يضرُّ[٨].

ويلاحظ الباحث التَّطوُّر السَّريع لعدد المقاتلين بشكلٍ عامٍّ ، ولسلاح الفرسان بشكل خاصٍّ.

إنَّ الَّذي يدرس تاريخَ الدَّعوة الإسلاميَّة ، ونشوءَ الدَّولة الإسلاميَّة ومؤسَّساتها العامَّة ـ وفي

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٢٩).
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٥٨٩.
(٣) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٣٠).
(٤) انظر: صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٦٦ ، ٤٦٧.
(٥) انظر: المغازي (٣/ ٩٩٦) ، والطَّبقات الكبرى ، لابن سعد (٢/ ١٦٦).
(٦) انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٥/ ٦٥٢) ، والصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٩٩.
(٧) انظر: إمتاع الأسماع (١/ ٤٥١) ، وشرح المواهب اللَّدنيَّة (٣/ ٧٢).
(٨) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٣٢).

مقدَّمة هذه المؤسسات الجيشُ الإسلاميُّ القوَّة الضَّاربة للدَّولة ـ يلاحظ أنَّ هناك تطوُّراً سريعاً جدّاً في مجال القوَّة العسكريَّة؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدرٍ الكبرى ثلاثمئة وثلاثة عشر مقاتلاً ، وفي غزوة أحد بلغ سبعمئة مقاتل ، تقريباً ، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة آلاف مقاتلٍ ، وفي غزوة فتح مكة عشرة آلافٍ ، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثني عشر ألف مقاتلٍ ، وأخيراً بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتلٍ أو يزيد.

وإنَّ الدَّارس يلاحظ هذا التطوُّر السَّريع اللاَّفت للنَّظر في مجال سلاح الفرسان ، ففي غزوة بدرٍ كان عدد الفرسان فارسين ـ في بعض الرِّوايات ـ وفي غزوة أحدٍ لم يتجاوز عدد الفرسان ما كان في بدرٍ ، ويقفز العدد بعد ستِّ سنوات فقط إلى عشرة آلاف فارس ، وهذا يعود إلى انتشار الإسلام في الجزيرة العربيَّة وبخاصَّةٍ في البادية؛ ذلك لأن أهلها يهتمُّون باقتناء الخيول ، وتربيتها أكثر من أبناء المدن[1].

* * *

---

(١) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيين ، ص ١٠٠.

المبحث الثَّاني
أحداث في الطَّريق، والوصول إلى تبوك

وبعد تعبئة الجيش، وتوزيع المهامِّ، والألوية، والرَّايات، توجَّه الجيش الإسلاميُّ بقيادة رسول الله ﷺ إلى تبوك، ولم ينتظر أحداً قد تأخَّر، وقد تأخَّر نفرٌ من المسلمين يظنُّ فيهم خيراً، وكلَّما ذُكِرَ لرسول الله ﷺ اسم رجل تأخَّر قال ﷺ: «دعوه، إن يك فيه خير؛ فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» [الحاكم ٣/ ٥٠][(١)].

أولاً: قصَّة أبي ذرٍّ الغفاريِّ:

قال ابن إسحاق: ثمَّ مضى رسول الله ﷺ سائراً، فجعل يتخلَّف عنه الرَّجل، فيقولون: يا رسول الله! تخلَّف فلانٌ، فيقول: «دعوه، فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله! قد تخلَّف أبو ذرٍّ، وأبطأ به بعيره، فقال: «دعوه فإن يك فيه خيرٌ؛ فسيلحقُه الله بكم، وإن يك غير ذلك؛ فقد أراحكم الله منه» وتلوَّم[(٢)] أبو ذرٍّ على بعيره، فلمَّا أبطأ عليه، أخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثمَّ خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسول الله! إنَّ هذا الرَّجل يمشي على الطَّريق وحدَه، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذرٍّ»[(٣)]، فلمَّا تأمَّله القوم؛ قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو ذرٍّ، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذرٍّ، يمشي وحدَه، ويموت وحدَه، ويُبعث وحدَه»[(٤)].

ومضى الزَّمان، وجاء عصر عثمان، ثمَّ حدثت بعض الأمور وسُيِّرَ أبو ذرٍّ إلى الرَّبذَة فلمَّا

---

(١) انظر: الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء، للكلاعي (٢/٢٧٦)، والبداية والنِّهاية لابن كثير، فصل: تخلف عبد الله بن أُبَيٍّ وأهل الريب عام تبوك.

(٢) تلوَّم على بعيره: تمهل.

(٣) كن أبا ذرٍّ: لفظه لفظ الأمر ومعناه الدُّعاء، أي: أرجو الله أن تكون أبا ذر.

(٤) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (١٧٨/٤)، وكنز العمال، للمتقي الهندي، والبداية والنِّهاية لابن كثيرٍ.

حضره الموت ، أوصى امرأته ، وغلامه: إذا متُّ فاغسلاني ، وكفِّناني ، ثمَّ احملاني ، فضعاني على قارعة الطَّريق ، فأوَّل ركبٍ يمرُّون بكم؛ فقولوا: هذا أبو ذرٍّ! فلمَّا مات؛ فعلوا به كذلك ، فطلع ركبٌ ، فما علموا به؛ حتَّى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعودٍ في رهطٍ من أهل الكوفة ، فقال: ما هذا؟ فقيل: جِنازة أبي ذرٍّ ، فاستهل ابن مسعودٍ يبكي ، فقال: صدق رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذرٍّ! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويُبعث وحدَه» فنزل ، فوليه بنفسه حتَّى دفنه. [الحاكم (٣/ ٥٠ ـ ٥١)، والطبري في تاريخه (٣/ ١٤٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢)][(١)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ؛ منها:

١ ـ ما تعرَّض له أبو ذرٍّ الغفاريُّ رضي الله عنه من الصُّعوبات ، والمخاطر ، الَّتي نجَّاه الله منها ، وقوَّاه بالصَّبر عليها ، لقد بذل أبو ذرٍّ جهداً كبيراً في المشي على قدميه ، وهو يحمل متاعه على ظهره ، حتَّى لحق بالنَّبيِّ ﷺ والمسلمين؛ لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله[(٢)].

٢ ـ وفي قوله ﷺ: «رحم الله أبا ذر! يمشي وحدَه ، ويموت وحدَه ، ويبعث وحدَه» دلالةٌ واضحةٌ وضوح الشَّمس في رائعة النَّهار على صدق نبوَّة الرَّسول ﷺ؛ إذ الإخبار بأمورٍ لم تقع ، ثمَّ تقع بعد الإخبار يدلُّ على معجزةٍ ، وتكريمٍ من الله لهذا الرَّسول ﷺ وهذه الوسيلة من إثبات النُّبوَّة كثيرةٌ في السِّيرة النَّبويَّة الشَّريفةِ[(٣)].

٣ ـ كما أنَّ في القصَّة دلالةٌ على علم ابن مسعودٍ رضي الله عنه ، وقوَّة ذاكرته ، وسرعة استحضاره لما حفِظ؛ حيث تذكَّر بعد سنواتٍ عديدةٍ حديث رسول الله ﷺ عمَّا سيؤول إليه أمر أبي ذرٍّ في آخر حياته رضي الله عنه[(٤)].

ثانياً: قصة أبي خيثمة:

قال ابن إسحاق: . . . ثمَّ إنَّ أبا خَيْثَمَة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أياماً إلى أهلـه في يوم حارٍّ ، فوجد امرأتين لـه في عريشين لهما في حائطـه[(٥)] ، قـد رشَّت كلُّ واحدةٍ منها عريشها ، وبرَّدت له فيه ماءً ، وهيَّأت له فيه طعاماً ، فلمَّا دخل؛ قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه ، وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضِّحِّ[(٦)] ، والرِّيح ، والحرِّ ، وأبو خيثمة في ظلٍّ

---

(١) السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ١٧٨).
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٢٩ ، والتَّاريخ الإسلاميّ ، للحميديِّ (٨/ ١١٤).
(٣) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٢٩.
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٨/ ١١٤).
(٥) حائطه: أي: بستانه.
(٦) الضِّحُّ: أي: في الشمس.

باردٍ ، وطعامٍ مُهيَّأً ، وامرأةٍ حسناء ، في ماله مقيمٌ ، ما هذا بالنَّصَف! ثمَّ قال: والله! لا أدخل عريش واحدةٍ منكما حتَّى ألحق برسول الله ﷺ ، فهيِّئا لي زاداً ، ففعلتا ، ثمَّ قدَّم ناضحه[1] ، فارتحله ، ثمَّ خرج في طلب رسول الله ﷺ حتَّى أدركه حين نزل تبوك.

وقد كان أدرك أبا خيثمة عميرُ بن وهبٍ الجُمحيُّ في الطَّريق ، يطلب رسول الله ﷺ ، فترافقا ، حتَّى إذا دنوا من تبوك ، قال أبو خيثمة لعمير بن وهبٍ: إنَّ لي ذنباً ، فلا عليك أن تَخَلَّف عنِّي ، حتَّى آتيَ رسول الله ﷺ! ففعل حتَّى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازلٌ بتبوك ، قال النَّاس: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ ، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة» ، فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! فلمَّا أناخ ، أقبل فسلَّم على رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة[2]!» ثمَّ أخبر رسولَ الله ﷺ الخبر ، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ، ودعا له بخيرٍ. [الطبراني في الكبير (٥٤١٩) ، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣) ، والمجمع (٦/ ١٩٢ ـ ١٩٣)][3].

قال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعراً ، واسمه: مالكُ بن قيسٍ:

لمَّا رأيتُ النَّاسَ في الدِّيْنِ نافَقُوا ... أَتَيْتُ الَّتي كانَتْ أَعَفَّ وأَكْرَما
وبَايَعْتُ باليُمْنَى يَدِي لِمُحمَّدٍ ... فَلَمْ أَكْتَسِبْ إِثْماً وَلَمْ أَغْشَ مَحْرَما
تَرَكْتُ خَضِيباً[4] في العَرِيْشِ وَصِرْمَةً[5] ... صَفَايَا[6] كِرَاماً بُسْرُهَا قَدْ تَحَمَّما[7]
وَكُنْتُ إِذَا شَكَّ المُنَافِقُ أَسْمَحَتْ[8] ... إِلَى الدِّيْنِ نَفْسِي شَطْرَهُ حَيْثُ يَمَّما[9]

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، منها:

١ ـ المسلم صاحب ضميرٍ حيٍّ:

فقد رأى أبو خيثمة رضي الله عنه ما أعدَّت له زوجتاه من الماء البارد ، والطَّعام مع الظِّلِّ المبرَّد ، والإقامة ، فتذكر رسولَ الله ﷺ وما هو فيه من التَّعرُّض للشَّمس ، والرِّيح ، والحرِّ؛

---

(١) ناضحه: أي: جمله.
(٢) أولى لك: أجدرُ بك.
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٨).
(٤) خضيباً: مخضوبةً وهي المرأة.
(٥) صرمة: جماعة النَّخل.
(٦) صفايا: كثيرة التَّمر.
(٧) تحمماً: أخذ في الإرطاب ، فاسودَّ.
(٨) أسمحت: انقادت.
(٩) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٨).

فأبصر ، وتذكَّر ، وتيقَّظ ضميره ، وحاسب نفسه ، ثمَّ عزم على الخروج ، وخرج وحدَه يقطع الفيافي ، والقفار حتَّى التقى بعمير بن وهب الجمحيِّ ، ولعلَّه كان قادماً من مكة ، فهذه الصُّورة تبيِّن لنا مثلاً من سلوك المتَّقين الَّذين تمرُّ عليهم لحظات ضعفٍ ، يعودون بعدها أقوى إيماناً ممَّا كانوا عليه ، إذا تذكَّروا وراجعوا أنفسهم ، وفي بيان ذلك يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] .

وقد تذكَّر سريعاً ، وخرج لعلَّه يدرك ما فاته ، وظلَّ يشعر بالذَّنب ، حتَّى وصل إلى النَّبيِّ ﷺ في تبوك ، وحصل على رضاه ، وسروره[١] .

٢ ـ معرفة الرَّسول ﷺ بأصحابه ، وبمعادنهم:

إنَّ قول الرَّسول ﷺ حينما قال له أصحابه: هذا راكبٌ على الطَّريق مقبلٌ: «كن أبا خيثمة» فلمَّا اقترب ، وعرفوه ، قالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة! يدلُّ على معرفة رسول الله ﷺ بأصحابه ، وأنَّه أعرفُهم بمعادن رجاله ، يعرف المستجيب من غيره ، ويعرف التَّائب النَّائب إلى ربِّه إذا زل قدمُه بسرعة رجوعه ، ومعرفةُ خصال الرِّجال ومعادِنهم تدلُّ على معرفةٍ واسعةٍ ، وخبرةٍ مستوعبةٍ فاحصةٍ ، نتيجة التَّعامل ، والاحتكاك في ميادين الحياة المختلفة ، فقد كان يخالط الجميع يسمع منهم ، ويُسمعهم ، ويسيرون معه ، ويُجاهدون تحت رايته[٢] .

٣ ـ حزم أبي خيثمة ، وصبره ، ونفاذ عزيمته:

تأمَّل هذا القرار الَّذي اتخذه أبو خيثمة رضي الله عنه أن يلحق برسول الله ﷺ وحدَه ، في هذه الرِّحلة المُضْنِيَة ، في هذه الصَّحراء قليلة الماء ذات الحرِّ اللافح ، لقد اتَّخذ هذا القرار الحازم ، ونفَّذه بدقَّةٍ ، فدلَّ على قوَّة عزيمته ، وعنفوان إرادته ، وعلى جلده ، وصبره[٣] .

٤ ـ عِتَابُ القائد للجنديِّ له أثره:

وصل أبو خيثمة معترفاً بذنبه ، يطرح السَّلام على رسول الله ﷺ ، فعاتبه ﷺ معاتبةً تحمل في طيَّاتها اللَّوم ، والتَّأنيب ، والتَّهديد؛ إذ قال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة!» فهي كلمةٌ فيها معنى التَّهديد ، ومعناها: دنوتَ من الهلكة .

إنَّه ممَّا لاشكَّ فيه: أنَّ هذا الكلام كان له وقعه في نفس الجنديِّ؛ إذ أوقفه على حقيقة ما ارتكب من الذَّنب .

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في تعليم القادة عدم السُّكوت على أخطاء الجنود؛ لأنَّ ذلك

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١١١ ، ١١٢) .
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٣٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

يضرُّهم ، ويُلحِق الضَّرر بغيرهم ، بل عليهم أن يسعوا إلى تصويب الخطأ ، ومحاسبة مرتكبه ، وتقويمه ، وبذلك يكونون معلِّمين ، ومرشدين ، ومربِّين(١) .

ثالثاً: الوصول إلى تبوك:

عندما وصل النَّبيُّ ﷺ لم يجد أثراً للحشود الرُّومانية ، ولا القبائل العربيَّة ، وبالرَّغم من أنَّ الجيش مكث عشرين ليلةً في تبوك ، لم تفكِّر القيادة الرُّومانيَّة مطلقاً في الدُّخول مع المسلمين في قتالٍ ، حتَّى القبائل العربيَّة المتنصِّرة آثرت السُّكون ، أمَّا حكام المدن في أطراف الشَّام ، فقد آثروا الصُّلح ، ودفع الجزية ، فقد أرسل ملك أيلة للنَّبيِّ ﷺ هديةً ، وهي بغلةٌ بيضاء ، وبُرد ، فصالحه على الجزية ، وأرسل خالدَ بن الوليد رضي الله عنه على رأس سريَّةٍ من الفرسان ، بلغ عددها أربعمئةٍ وعشرين فارساً إلى دومة الجندل ، واستطاع خالد بن الوليد أن يأسر أُكَيدِرَ بن عبد الملك الكنديَّ ـ ملكَها ـ وهو في الصَّيْدِ خارجها(٢) ، فصالحه النَّبيُّ ﷺ على الجزية(٣) ، وقد تعجَّب المسلمون من قَباء كان أُكَيْدِرُ يلبَسُه ، فقال الرَّسول ﷺ : «أتعجبون من هذا؟ فوالَّذي نفسي بيده! لمناديل سعد بن معاذ في الجنَّة أحسن مِنْ هذا». [البخاري (٣٨٠٢)، ومسلم (٢٤٦٨/١٢٦)](٤).

وقد ورد أنَّ غنائم خالد من أُكَيْدِرَ كانت ثمانمئةٍ من السَّبي ، وألفَ بعيرٍ ، وأربعمئة درعٍ ، وأربعمئة رمح(٥) ، وقد وصلت إلى تبوك هدية ملك أيلة للنبيِّ ﷺ ، وهي بغلةٌ بيضاء ، وبرد ، فصالحه على الجزية(٦) .

وكتب رسول الله ﷺ معاهداتٍ لكلٍّ من أهل جرباء ، وأذرح(٧) ، ولأهل مقنا(٨) ، يؤدِّي بموجبها هؤلاء النَّاس من نصارى العرب الجزية كلَّ عامٍ ، وتخضع لسلطان المسلمين ، لقد انفرد رسول الله ﷺ بالإمارات الواقعة في شمال الجزيرة ، وعقد معها معاهداتٍ ، وبذلك أمن حدود الدَّولة الإسلاميَّة الشَّمالية(٩) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٣٤ .

(٢) انظر: الإصابة (١/ ٤١٢ ـ ٤١٥) من طريق ابن إسحاق بإسنادٍ حسن .

(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ١٨٠).

(٤) المصدر السابق نفسه (٤/ ١٨٠) بإسنادٍ حسنٍ .

(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ١٧) وفي إسناده ابن لهيعة عن أبي الأسود ، وابن لهيعة ضعيف فضلاً عن إرسال عروة .

(٦) انظر: المجتمع المدنيّ للعمريِّ ، ص ٢٤١ .

(٧) المغازي (٣/ ١٠٣٢).

(٨) انظر: الوثائق السياسية في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، ص ١١٩ ـ ١٢٤ .

(٩) انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢١٧ .

وبهذه المعاهدات قصَّ ﷺ أجنحة الرُّوم ، فقد كانت هذه القبائل تابعةً للرُّوم ، ودخلوا في النَّصرانية ، فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله ، والتزامها بالجزية يعتبر قصَّاً لهذه الأجنحة ، وبتراً لحبال تبعيَّتهم للرُّوم ، وتحريراً لها من هذه التَّبعيَّة؛ الَّتي كانت تذلُّهم ، وتخضعهم لسلطان الرُّوم لينالوا مِنْ تساقط فتاتهم شيئاً يعيشون به ، وخوفاً من ظلمهم لقوَّتهم الباطشة ، وقد وَفَوا بعهد الصُّلح ، والتزموا أداء الجزية ، فأعطوها عن يد وهم صاغرون[١] .

وهذه سياسةٌ نبويَّةٌ حكيمةٌ اختطَّها رسولُ الله ﷺ في بناء الدَّولة ، ودعوة النَّاس لدين الله ، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الرُّوم بإماراتٍ تدين للرَّسول ﷺ بالطَّاعة ، وتخضع لحكم المسلمين ، وأصبحت في زمن الخلفاء الرَّاشدين نقاط ارتكـازٍ ، سهَّلت مهمة الفتح الإسلاميِّ في عهدهم ، فمنها انطلقت قوَّات المسلمين إلى الشَّمال ، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم[٢] .

رابعاً: وصايا رسول الله ﷺ للجيش عند مروره بحِجْر ثمود:

قال أبو كبشة الأنصاريُّ رضي الله عنه: لمَّا كان في غزوة تبوك تسارع النَّاس إلى أهل الحِجْرِ يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فنادى في النَّاس: «الصلاة جامعة». قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسكٌ بعيره ، وهو يقول: «ما تدخلون على قومٍ غضب الله عليهم» فناداه رجل منهم: نعجب منهم يا رسول الله! قال: «أفلا أنذركم بأعجب منْ ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا وسدِّدوا ، فإنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يعبأ بعذابكم شيئاً ، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً» [أحمد (٤/ ٢٣١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤)][٣] .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: إنَّ النَّاس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمودِ الحجر ، واستقوا من بئرها ، واعتجنوا به ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها ، وأن يعلفوا الإبلَ العجينَ ، وأمرهم أن يستقوا من البئر الَّتي كانت تردها النَّاقة ، وقال رسول الله ﷺ : «لا تدخلوا مساكن الَّذين ظلموا أنفسهم ، إلا أن تكونوا باكين؛ حذراً أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم» ثمَّ زجر[٤] ، فأسرع حتَّى خلَّفها . [البخاري (٣٣٨٠) ، ومسلم (٢٩٨٠/ ٣٩)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ في توجيه رسول الله ﷺ صحابته إلى الاعتبار بديار ثمود ، وأن

---

(١) محمَّد رسول الله ، لمحمد الصَّادق عرجون (٤/ ٤٧٩).
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٢١ .
(٣) انظر: الفتح الرَّباني (٢١/ ١٩٥).
(٤) زجر: أي: زجر ناقته ، ومعناه: ساقها سوقاً شديداً ، حتَّى خلَّفها ، أي: جاوز المساكن .

يتذكَّروا بها غضبَ الله على الَّذين كذَّبوا رسوله ، وألا يغفُلوا عن مواطن العظة برسومها الدَّارسة ، وأطلالها القديمة ، ونهاهم عن الانتفاع بشيءٍ ممَّا في ربوعها ، حتَّى الماء؛ لكيلا تفوت بذلك العبرة ، وتخف الموعظة ، بل أمرهم بالبكاء ، والتَّباكي ، تحقيقاً للتأثُّر بعذاب الله ، ولو أنَّهم مرُّو بها كما نمرُّ نحن بآثار السَّابقين؛ لتعرَّضوا لسخط الله ، فإن الغابرين شهدوا المعجزات ، ودلائل النُّبوَّات ، وعاينوا العجائب ، لكن قست قلوبُهم ، فاستهانوا بها ، وحقَّ عليهم العذاب ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون من نقمة الله وغضبه .

إن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ما قصَّ علينا من أنباء الأمم الخالية إلا لكي نأخذ منها العظة والاعتبار ، فإذا شهدنا بأعيننا ديارهم ، الَّتي نزل فيها سخط المولى ـ عزَّ وجلَّ ـ وعذابه الأليم؛ وجب أن تكون الموعظة أشدَّ ، والاعتبار أعمقَ ، والخوف من سخط المولى ـ سبحانه ـ أبلغَ ؛ ولهذا تسجَّى النَّبيُّ ـ صلوات الله وسلامُـه عليه ـ بثوبه لمَّا مر بالدِّيار الملعونة المسخوطة ، واستحث خطا راحلته[1] ، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيـوت الَّذين ظلمـوا أنفسهم إلا وأنتم باكون ؛ خوفـاً أن يصيبكم ما أصابهم» . [سبق تخريجه] .

خامساً: وفاة الصحابي عبد الله (ذو البجادين)[2] رضي الله عنه :

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : قمت من جوف اللَّيل ، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، قال: فرأيت شعلةً من نارٍ في ناحية العسكر ، قال: فاتَّبعتها أنظر إليها ، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر ، وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المُزنيُّ قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ في حضرته ، وأبو بكرٍ ، وعمر يُدَلِّيانه إليه ، وهو يقول: «أدْنِيَا إليَّ أخاكما» ، فدلَّياه إليه ، فلمَّا هيَّأه لِشِقِّه ، قال: «اللَّهمَّ ! إنِّي أمسيت راضياً عنه ، فارض عنه» قال: (الرَّاوي عن ابن مسعود) قال عبدُ الله بن مسعودٍ: يا ليتني كنت صاحب الحفرة . [البزار (٢٧٣٦) ، وأبو نعيم في الدلائل (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٦) ، ومجمع الزوائد (٩/ ٣٦٩)][3] .

قال ابن هشام: وإنما سُمِّي ذا البجَادين؛ لأنَّه كان ينازع إلى الإسلام ، فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيِّقون عليه ، حتَّى تركوه في بِجَادٍ ، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ ، فلمَّا كان قريباً منه ، شقَّ بجاده باثنين ، فاتَّزر بواحدٍ ، واشتمل بالآخر ، ثمَّ أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البِجادَين لذلك[4] .

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٨٠ .

(٢) البجاد: الكساء الغليظ الجافي .

(٣) انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٥٩٨ ، والإصابة لابن حجر ، وقال: رواه البغويُّ بطوله من هذا الوجه ، ورجاله ثقات إلا أنَّ فيه انقطاعاً .

(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ١٨٢) .

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وحكمٌ ، وفوائد؛ منها :

١ ـ تكريم النَّبيِّ ﷺ لجنوده أحياء وأمواتاً :

فهذا الفعل مع ذي البجادين يدل على حرص النَّبي ﷺ على تكريم أصحابه حتى في حالة الوفاة؛ لأنَّهم قدَّموا أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، تاركين وراءهم أعزَّ ما يملكون ، فكانت تلك الرِّعاية مظهراً من مظاهر تكريمهم في الدُّنيا ، حيث لم يترك جثثهم تتناوشها الذِّئاب وغيرها من دوابِّ الأرض ، لكي يكون هذا التَّكريم من الأسباب الَّتي تدفع غيرهم إلى الاستبسال ، والإقدام في ميادين الجهاد .

ومن الجدير بالذِّكر : أنَّ هذا المبدأ لم يجد مَنْ يدعو إلى تطبيقه إلاَّ في العصر الحديث ، وبهذا يمكن أن يقال : إنَّ رعاية القائد المسلم لشؤون جنده تعدُّ سبقاً عسكرياً لم تعرفه النُّظم والدَّساتير الوضعيَّة إلا بعد قرونٍ طويلةٍ مِنْ بزوغ الإسلام[١] .

فهذه صورة من البرِّ ، والتَّكريم فريدةٌ يتيمةٌ ، لن تجد في تاريخ الملوك والحكَّام من يبرُّ ، ويتواضع إلى هذا المستوى ، إلى حيث يوسِّد الحاكم فرداً من رعيته بيده في مثواه الأخير ، ثمَّ يلتمس له المرضاة من ربِّ العالمين ، أمَّا هو فقد أعلن : أنَّه أمسى راضياً عنه[٢] .

٢ ـ جواز الدفن في اللَّيل ، والغبطة مشروعةٌ في الخير :

فقد دفن رسول الله ﷺ ذا البجادين ليـلاً ، والسُّنَّـةُ أن يُعَجَّل في دفن الميت ، كما أنَّ الغبطة مشروعةٌ في الخير ، وهي أن تتمنَّى حصول الخير لك ، كما حصل لغيرك من إخوانك ، وهذا عكس الحسد؛ إذ الحسد؛ تمنِّي زوال النِّعمة عن غيرك ، والحسد كلُّه شرٌّ كما ترى ، أمَّا الغبطة؛ فلا تكون إلا في الخير[٣] ، تأمَّل قول عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه حينما سمع رسول الله ﷺ يقول في حق ذي البجادين : «اللَّهُمَّ إنِّي أمسيت عنه راضياً ، فارضَ عنه» فقال ابن مسعود رضي الله عنه : يا ليتني كنت صاحب اللَّحد . [سبق تخريجه][٤]! إنَّها كلمةُ كلِّ مؤمنٍ آمن بالله ، واليوم الآخر ، ووقف موقفه ذاك؛ فقد عرفوا أين تكون ميادين التَّنافس[٥] .

سادساً : بعض المعجزات الَّتي حدثت في الغزوة :

ظهرت في غزوة تبوك معجزاتٌ؛ منها :

---

(١) انظر : المدخل إلى العقيدة ، والاستراتيجية العسكرية الإسلاميَّة ، ص ٢٩٩ .
(٢) انظر : صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، ص ٤٧٢ .
(٣) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيين ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .
(٤) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٥٩٨ .
(٥) انظر : من معين السِّيرة ، ص ٤٥٢ .

١ ـ اللهُ تعالى يرسل السَّحاب لدعاء نبيِّه بالسُّقيا:

لمَّا جاز النَّبيُّ ﷺ حِجْرَ ثمود، أصبح النَّاس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ ربه، واستسقى لمن معه من المسلمين، فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ سحابةً، فأمطرت حتَّى ارتوى النَّاس، واحتملوا حاجتهم من الماء، فتحدَّث ابن إسحاق عمَّن قال لمحمود بن لبيد: هل كان الناس يعرفون النِّفاق فيهم؟ قال: نعم والله! إن كان الرَّجل ليعرفه من أخيه، ومن أبيه، ومن عمِّه، وفي عشيرته، ثم يَلْبَسُ بعضُهم بعضاً على ذلك. ثم قال محمود: لقد أخبرني رجالٌ من قومي، عن رجلٍ من المنافقين معروف نفاقُه، كان يسير مع رسول الله ﷺ حيث سار، فلمَّا كان من أمر النَّاس بالحِجْرِ ما كان، ودعا رسول الله ﷺ حين دعا، فأرسل الله السَّحابة، فأمطرت حتى ارتوى النَّاس، قالوا: أقبلنا عليه نقول: ويحك! هل بعد هذا شيء! قال: سحابةٌ مارَّةٌ[(١)].

٢ ـ خبر ناقة رسول الله ﷺ:

لما كان رسول الله ﷺ سائراً في طريقه إلى تبوك ضلَّت ناقتُه، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم، وكان عقبيّاً بدريّاً، وهم عمُّ بني عمرو بن حزمٍ، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي، وكان منافقاً.

قال زيد بن اللُّصَيْت؛ وهو في رحل عمارة، وعُمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم: أنَّه نبيٌّ، ويخبركم عن السَّماء، وهو لا يدري أين ناقتُه؟

فقال رسول الله ﷺ وعُمارة عنده: «إنَّ رجلاً قال: هذا محمَّد يخبركم أنَّه نبيٌّ، ويزعم أنَّه يخبركم بأمر السَّماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ وإنِّي والله! ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلَّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا، وكذا، قد حبستها شجرةٌ بزمامها، فانطلقوا حتَّى تأتوني بها»، فذهبوا، فجاؤوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله! لعجبٌ من شيء حَدَّثناه رسولُ الله ﷺ آنفاً، عن مقالة قائلٍ أخبره الله عنه بكذا، وكذا، للَّذي قال زيد بن اللُّصَيْت. فقال رجلٌ ممَّن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيدٌ والله! قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيدٍ، يجأ في عنقه (يطعنه فيه) ويقول: إليَّ عبادَ الله، إنَّ في رحلي لداهيةً؛ وما أشعر، اخرج، أيْ عدوَّ الله مِنْ رحلي، فلا تصحبني. [الطبري في تاريخه (٣/ ١٤٥)، والبلاذري في أنساب الأشراف (١/ ٢٨٥)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٣٢)][(٢)].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/ ١٧٦)، وصور وعبر من الجهاد النَّبويِّ، ص ٤٧٣، والبداية والنِّهاية لابن كثير، فصل: تخلُّف عبد الله بن أبي، وأهل الريب عام تبوك.

(٢) انظر: إعلام النُّبوة، للماوردي، ص ١٠٠، والسِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ١٧٧).

قال ابن إسحاق: فزعم بعض النَّاس أنَّ زيداً تاب بعد ذلك، وقال بعض النَّاس: لم يزل مُتَّهماً بشرٍّ حتَّى هلك(١).

٣ ـ الإخبار بهبوب ريحٍ شديدةٍ، والتَّحذير منها:

أخبر رسولُ الله ﷺ أصحابه في تبوك بأنَّ ريحاً شديدةً ستهبُّ، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم، ودوابِّهم، فلا يخرجوا حتَّى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابَّهم حتَّى لا تؤذى. وتحقَّق ما أخبر به رسول الله ﷺ فهبتِ الرِّيح الشَّديدة، وحملت من قام فيها إلى مكانٍ بعيدٍ(٢)، فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حُمَيْدٍ، قال: وانطلقنا حتَّى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «ستهبُّ عليكم اللَّيلة ريحٌ شديدةٌ، فلا يقم أحدٌ منكم، فمن كان له بعيرٌ فليشدَّ عِقَالَه» فهبَّت ريحٌ شديدةٌ، فقام رجلٌ، فحملته الرِّيح حتَّى ألقته بجبل طيِّئٍ. [البخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢/ ١١ و١٢)].

قال النَّوويُّ في شرحه على صحيح مسلمٍ معقِّباً على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظَّاهرة من إخباره ﷺ بالمغيب، وخوف الضَّرر من القيام وقت الرِّيح(٣).

٤ ـ تكثير ماء عين تبوك والإخبار بما ستكون عليه مِنْ خصبٍ:

قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إنَّكم ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنَّكم لن تأتوها حتَّى يَضْحَى النَّهار، فمن جاءها منكم فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتَّى آتي»، فجئناها وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشِّراك(٤)، تَبِضُّ(٥) بشيءٍ من ماءٍ، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مَسَسْتُما من مائها شيئاً؟» قالا: نعم، فسبَّهما النَّبيُّ ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثمَّ غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتَّى اجتمع في شيءٍ، وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثمَّ أعاده فيها، فجرت العين بماءٍ منهمرٍ أو غزيرٍ حتَّى استقى النَّاس.

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: «يوشك يا معاذ! إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما هاهنا قد مُلِئَ جناناً». [أحمد (٥/ ٢٣٧ ـ ٢٣٨)، ومسلم (٧٠٦/ ١٠)، وأبو داود (١٢٦٠)، والترمذي (٥٥٣)، والنسائي (١/ ٢٨٥)، وابن ماجه (١٠٧٠)].

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/ ١٧٧).
(٢) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّن، ص ١٤١.
(٣) شرح النَّووي على صحيح مسلمٍ (١٥/ ٤٢).
(٤) الشراك: هو سير النَّعل، ومعناه: ماءٌ قليلٌ جداً.
(٥) تَبِضُّ: بفتح التاء وكسر الموحدة وتشديد الضاد، ومعناه: تسيل.

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الَّذي كانت فيه العين منطقةً جرداء لقلَّة الماء ، ولكن الله ـ عزَّ وجل ـ أجرى على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء ، حتَّى أصبح يسيل بغزارةٍ ، ولم يكن هذا آتياً لسدِّ حاجة الجيش ، بل أخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمرُّ ، وستكون هناك جنانٌ ، وبساتين مملوءةٌ بالأشجار المثمرة ، ولقد تحقَّق ما أخبر به الرَّسول ﷺ بعد فترة قليلةٍ من الزَّمن ، ولا زالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها ، وبساتينها ، ونخيلها ، وتمورها ، تنطق بصدق نبـوَّة الرَّسول ﷺ ، وتشهد بأنَّ الرَّسول ﷺ لا يتكلَّم إلا صدقاً، ولا يخبر إلا حقّاً، ولا ينبئ بشيءٍ إلا ويتحقَّق(١) .

٥ ـ تكثير الطَّعام :

قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه : لما كانت غزوة تبوك أصاب الناسَ مجاعةٌ، فقالوا : يا رسول الله! لو أذنت لنا ، فنحرنا نواضِحنا(٢) ، فأكلنا ، وادَّهَنَّا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : «افعلوا» فجاء عمر ، فقال : يا رسول الله! إنَّهم إن فعلوا؛ قلَّ الظَّهر(٣) ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ، ثمَّ ادع لهم بالبركة، لعلَّ الله أن يجعل في ذلك! فدعا رسول الله ﷺ : بنطْع(٤) ، فبسطه ، ثمَّ دعاهم بفضل أزوادهم ، فجعل الرَّجل يجيء بكفِّ الذُّرة ، والآخر بكف التَّمْر ، والآخر بالكِسْرَة ، حتَّى اجتمع على النِّطع في ذلك شيءٌ يسيرٌ ، ثمَّ دعا عليه بالبركة ، ثمَّ قال لهم : «خذوا في أوعيتكم» ، فأخذوا في أوعيتهم حتَّى ما تركوا من المعسكر وعاءً إلا ملؤوه ، وأكلوا حتَّى شبعوا ، وفضَلَتْ منه فَضْلَةٌ ، فقال رسول الله ﷺ : «أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنِّي رسولُ الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ، فتحجب عنه الجنَّة». [أحمد (٣/١١)، ومسلم (٢٧/ ٤٥) ، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) ، وابن حبان (٦٥٣٠) ، وأبو يعلى (١١٩٩)].

هذه بعض المعجزات ، والكرامات الَّتي أظهرها الله على يد رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، تدلُّ على صدق نبوَّته ، ورسالته ، وتدلُّ على رفعة منزلته ، وتكريمه عند ربِّه(٥) .

سابعاً : حديث القرآن الكريم عن مواقف المنافقين في أثناء الغزوة :

أ ـ قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما :

قال رجلٌ في غزوة تبوك في مجلسٍ يوماً: ما أرى قرَّاءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا

---

(١) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤٢ .
(٢) نواضحنا : جمع : ناضح ، وهي الإبل الَّتي يُسقى عليها .
(٣) الظَّهر : ما يحمل عليه من الإبل .
(٤) النِّطع : بساطٌ من الجلد .
(٥) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٤١ .

ألسنةً ، وأجبننا عند اللِّقاء . . فقال رجلٌ في المجلس: كذبت ، ولكنَّك منافقٌ ، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ ! فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ، ونزل القرآن . قال عبد الله : فأنا رأيته متعلِّقاً بحَقَبِ[1] ناقة رسول الله ، والحجارة تنكبُه[2] ، وهو يقول: يا رسول الله! إنَّما كنَّا نخوض ، ونلعب ، والرَّسول ﷺ يقول: «أبالله ، وآياته ، ورسوله كنتم تستهزئون؟». [ابن جرير في تفسيره (١٠/ ١٧٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠)].

وفي رواية قتادة ، قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناسٌ من المنافقين ، فقالوا: يرجو هذا الرَّجل أن تفتح له قصور الشَّام وحصونُها؟ هيهات! هيهات!! فأطلع الله نبيَّه على ذلك ، فقال نبيُّ الله ﷺ : «احبسوا عليَّ هؤلاء الرَّكب». فأتاهم ، فقال: قلتُم كذا ، وكذا ، فحلفوا ما كنَّا إلا نخوض ، ونلعب [ابن جرير في تفسيره (١٠/ ١٧٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣٠)]. فأنزل الله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤ ـ ٦٥].

والاستفهام في قوله: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ ، والمعنى: قل يا محمد! لهؤلاء موبِّخاً ، ومنكراً: ألم تجدوا ما تستهزئون به في مزاحكم ولعبكم ـ كما تزعمون ـ سوى فرائض الله ، وأحكامه ، وآياته ، ورسوله الَّذي جاء لهدايتكم ، وإخراجكم من الظُّلمات إلى النُّور؟! ثمَّ بيَّن سبحانه: أنَّ استهزاءهم هذا أدَّى بهم إلى الكفر ، فقال: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٦].

ومعنى الآية: أي: لا تذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم؛ لأنَّ الإقدام على الكفر لأجل اللَّعب لا ينبغي أن يكون ، فاعتذاركم إقرارٌ بذنبكم ، فهو كما يقال: عذرٌ أقبحُ من ذنبٍ[3].

وقوله: ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أي: إن نعف عن بعضكم؛ لتوبتهم ، وإنابتهم إلى ربِّهم ـ كمُخَشِّن بن حُمَيِّر؛ نعذب بعضاً آخر؛ لإجرامهم ، وإصرارهم عليه[4].

---

(١) الحَقَبُ: حبلٌ يشدُّ به الرَّحل في بطن البعير.

(٢) الحجارة تنكبُه: تصيبه ، وتؤذيه.

(٣) انظر: تفسير المراغي (٤/ ١٥٣).

(٤) المصدر السابق نفسه ، (٤/ ١٥٣).

ب ـ إيذاء الرَّسول ﷺ ، والمؤمنين ، ومحاولة اغتيال رسول الله ﷺ :

وقد نزل في هؤلاء المنافقين قول الله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة : ٧٤] .

وقد قال ابن كثيرٍ : إنَّ الضَّحاك قال : إنَّ نفراً من المنافقين همُّوا بالفتك بالنَّبيِّ ﷺ وهو في غزوة تبوك في بعض اللَّيالي في حال السَّير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً نزلت فيهم هذه الآية[1] وفي رواية الواحديِّ عن الضَّحَّاك : خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك ، فكانوا إذا خلا بعضُهم إلى بعضٍ ؛ سبُّوا رسول الله ﷺ ، وأصحابَه ، وطعنوا في الدين ، فنقل ما قالوا حذيفةُ إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم رسول الله : «يا أهل النِّفاق! ما هذا الذي بلغني عنكم؟!» ، فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك ، فأنزل الله هذه الآية إكذاباً لهم[2] .

والمعنى الإجماليُّ للآية : «يحلفون بالله أنهم ما قالوا تلك الكلمة الَّتي نسبت إليهم ، والله يكذِّبهم ، ويُثبت : أنَّهم قد قالوا كلمة الكفر الَّتي رويت عنهم ، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة ؛ لأنَّه لا ينبغي ذكرها»[3] .

أمَّا همُّهم بما لم ينالوا ؛ فهو اغتيال رسول الله ﷺ حين كان بالعقبة وهو منصرفٌ مِنْ تبوك . قال ابن كثير : عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله ﷺ أقود به ، وعمَّار يقود النَّاقة ، وأنا أسوقُه ، وعمَّار يقوده ، حتَّى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوه فيها ، قال : فأنبهت رسول الله ﷺ بهم ، فصرخ بهم فولَّوا مدبرين ، فقال لنا رسولُ الله ﷺ : « هل عرفتم القوم؟ » قلنا : لا يا رسول الله؟! قد كانوا ملثَّمين ، ولكنَّا قد عرفنا الرِّكابَ . قال : «هؤلاء المنافقون إلي يوم القيامة ، وهل تدرون ما أرادوا؟» ، قلنا : لا . قال : «أرادوا أن يزاحموا رسول الله ﷺ في العقبة ، فيلقوه منها» . [البيهقي في الدلائل (٥/ ٢٦٠ ـ ٢٦١) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤٤)] .

وقوله : ﴿ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ . أي : وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام ، وبعثة الرَّسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضي الكراهة ، والهمَّ بالانتقام ، إلا أن أغناهم الله تعالى ، ورسولُه من فضله بالغنائم الَّتي هي عندهم أحبُّ الأشياء لديهم في هذه الحياة .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٢) .
(٢) انظر : أسباب النُّزول للواحديِّ ، ص ٢٥١ .
(٣) انظر : حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦٥) .

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أي: فإنْ يتوبوا من النِّفاق، وما يصدر عنه من مساوئ الأقوال، والأفعال؛ يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدُّنيا، والآخرة.

وقوله: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

أي: وإن يُعرضوا عمَّا دُعوا إليه من التَّوبة، وأصروا على النِّفاق وما ينشأ منه من المساوئ الخلقيَّة، والنَّفسيَّة، يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدُّنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهَلَع[1].

* * *

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦٦).

المبحث الثَّالث
العودة من تبوك إلى المدينة ، وحديث القرآن الكريم في المخلَّفين عن الغزوة ، وعن مسجد الضِّرار

عاد النَّبيُّ ﷺ إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلةً[1] ، وقد أمر النَّبيُّ ﷺ بهدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون وهو راجعٌ إلى المدينة ، ولمَّا اقترب من المدينة؛ خرج الصِّبيان إلى ثَنِيَّة الوداع يتلقَّونه ، ودخل المدينة ، فصلَّى في مسجده ركعتين ، ثمَّ جلس للنَّاس ، وجاء المخلَّفون لرسول الله ﷺ يقدِّمون له الاعتذار ، وكانوا أربعة أصنافٍ : فمنهم من له أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، ومنهم مَنْ ليس له أعذارٌ شرعيَّة ، وتاب الله عليهم ، ومنهم من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة ، ومنهم من منافقي المدينة .

أولاً : المخلَّفون الَّذين لهم أعذار شرعيَّةٌ ، وعذرهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ :

قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة : ٩١ ـ ٩٢] .

بيَّنت هذه الآيات الكريمة الَّذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك وكان لهم عذرٌ شرعيٌّ ، بأنَّه ليس عليهم حرجٌ ، وليس عليهم إثمٌ في هذا التَّخلُّف؛ ذلك لأن لهم عذراً شرعياً منعهم من الخروج ، وفي المراد بالضُّعفاء: أنَّهم الزَّمنى ، والمشايخ الكبار ، وقيل: الصِّغار ، وقيل: المجانين ، سمُّوا ضعافاً لضعف عقولهم . ذكر القولين الماورديُّ ، والصَّحيح: أنَّهم الَّذين يضعفون

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النبوية ، ص ٦٠٣ .

لزمانةٍ ، أو عمىً ، أو سنٍّ ، أو ضعفٍ في الجسم. والمرضى: الَّذين بهم أعلالٌ مانعةٌ من الخروج للقتال[(١)].

وقوله: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ أي: ليس على الذين لا يجدون نفقةً تبلغهم إلى الغزو حرجٌ؛ أي: إثم ، ﴿ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ أي: إذا عرفوا الحقَّ ، وأحبُّوا أولياءه ، وأبغضوا أعداءه[(٢)].

وقوله: ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ قال الطَّبري: يقول تعالى: ليس على مَنْ أحسن ، فنصح لله ، ورسوله في تخلُّفه عن رسول الله وعن الجهاد معه ، لعذرٍ يُعذر به طريقٌ يتطرَّق عليه ، فيعاقب مِنْ قبله ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يقول تعالى: والله ساترٌ على ذنوب المحسنين ، يتغمَّدها بعفوه لهم عنها ، رحيمٌ بهم أن يعاقبَهم عليها[(٣)].

وقال القرطبيُّ: الآية أصلٌ في سقوط التَّكليف عن العاجز ، ولا فرق بين العجز من جهة القوَّة ، أو العجز من جهة المال[(٤)].

وقوله: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ معطوف على ما قبله ، من عطف الخاصِّ على العامِّ ، اعتناءً بشأنهم ، وجعلهم كأنَّهم لتميزهم جنسٌ آخر ، مع أنَّهم مندرجون مع الَّذين وصفهم الله قبل ذلك ﴿ أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ أي: لا حرج ، ولا إثم على الضُّعفاء ، ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون إذا ما تخلَّفوا عن الجهاد ، وكذلك لا حرج ، ولا إثم ـ أيضاً ـ على فقراء المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ على الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها لكي يخرجوا معك إلى هذا السَّفر الطَّويل ﴿ قُلْتَ ﴾ لهم يا محمد[(٥)]: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، وقوله: ﴿ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ أي: انصرفوا؛ وأعينهم تسيل بالدُّموع من شدَّة الحزن؛ لأنَّهم لا يجدون المال؛ الَّذي ينفقونه في مطالب الجهاد، ولا الرَّواحل؛ الَّتي يركبونها في حال سفرهم إلى تبوك[(٦)].

ثانياً: المخلَّفون الذين ليس لهم أعذارٌ شرعيَّةٌ ، وتاب الله عليهم:

جاءت ثلاث آيات تتحدَّث عن هؤلاء المخلَّفين ، وهي:

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٤٨٥).
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/ ٢٢٦).
(٣) انظر: تفسير الطَّبري (١٠/ ٢١١).
(٤) انظر: تفسير القرطبيِّ (٨/ ٢٢٦).
(٥) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٢).
(٦) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٣).

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

ومعنى الآية الكريمة: أنَّ هؤلاء الجماعة تخلَّفوا عن الغزو لغير عذرٍ مسوِّغٍ للتخلُّف، ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة، كما اعتذر المنافقون، بل تابوا، واعترفوا بالذَّنب، ورجوا أن يتوب الله عليهم، والمراد بالعمل الصَّالح: ما تقدَّم من إسلامهم، وقيامهم بشرائع الإسلام، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السَّيِّئ: هو تخلُّفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السَّيِّئ عملاً صالحاً، وهو الاعتراف به والتَّوبة عنه.

وأصل الاعتراف: الإقرار بالشَّيء، ومجرَّد الإقرار لا يكون توبةً إلا إذا اقترن به النَّدم على الماضي، والعزم على تركه في الحال، والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا. ومعنى الخلط: أنَّهم خلطوا كلَّ واحد منهما بالآخر؛ كقولك: خلطت الماء باللَّبن، واللبنَ بالماء.

وفي قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على أنَّه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التَّوبة، أو مقدِّمة التَّوبة وهي الاعتراف، ويقوم مقام التَّوبة، وحرف التَّرجِّي وهو (عسى) هو في كلام الله سبحانه يفيد تحقُّق الوقوع؛ لأنَّ الإطماع من الله سبحانه إيجابٌ؛ لكونه أكرم الأكرمين، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: يغفر الذُّنوب، ويتفضَّل على عباده[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦].

والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصَّحيحين: هلال بن أميَّة، وكعب بن مالك، ومُرارة بن الرَّبيع، وكانوا قد تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ لأمرٍ ما، مع الهمِّ باللَّحاق به ﷺ فلم يتيسَّر لهم، ولم يكن تخلُّفهم عن نفاقٍ، وحاشاهم، فقد كانوا من المخلصين، فلمَّا قدم النَّبيُّ ﷺ وكان ما كان من المتخلِّفين؛ قالوا: لا عذر لنا إلا الخطيئة، ولم يعتذروا له ﷺ، ولم يفعلوا كما فعل أهل السَّواري[2]، وأمر رسول الله باجتنابهم، وشدَّد الأمر عليهم، كما ستَعْلَمُه إن شاء الله تعالى، وقد وقف أمرهم خمسين ليلةً لا يدرون ما الله تعالى فاعلٌ بهم[3].

٣ ـ قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

(١) انظر: تفسير الشوكاني (٢/ ٣٩٩).
(٢) أي: الَّذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد كأبي لبابة، وأصحابه.
(٣) انظر: تفسير الآلوسي (١١/ ١٧).

﴿أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

والمراد بهؤلاء الثَّلاثة هم: هلالُ بنُ أميَّة، وكعب بن مالك، ومُرَارة بن الرَّبيع، وفيهم نزلت هذه الآية[١]، وسوف نتحدَّث عن هذه القصَّة بإذن الله بنوعٍ من التَّفصيل، لما فيها من الدُّروس، والعبر، والحكم.

ثالثاً: المخلفون من منافقي الأعراب الَّذين يسكنون حول المدينة:

هؤلاء المخلَّفون من منافقي الأعراب نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٠].

ومعنى الآية: أنَّه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاؤوا به من الأعذار بحقٍّ أو باطلٍ على كلا التَّفسيرين؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ بالتَّخلُّف عن الغزوة، وطائفةٌ أخرى لم يعتذروا، بل قعدوا عن الغزوة ولغير عذرٍ، وهم منافقو الأعراب الذين كذَبوا الله ورسوله، ولم يؤمنوا، ولا صدَّقوا، ثمَّ توعَّدهم الله ـ سبحانه ـ فقال: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ أي: من الأعراب، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة، والذين لم يعتذروا، بل كذَّبوا بالله، ورسوله، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: كثيرُ الألم، فيصدُق على عذاب الدُّنيا، والآخرة[٢].

ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ والمعنى: اذكروا أيها المؤمنون! أنَّه يسكن مِنْ حول مدينتكم قومٌ من الأعراب منافقون، فاحترسوا منهم[٣].

رابعاً: المخلَّفون من منافقي المدينة:

قال تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ۝٨١ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨٢ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨١ ـ ٨٣].

وتفسير الآيات السَّابقة كالآتي: المخلَّفون: اسم مفعول مأخوذ من قولهم: خلَّف فلانٌ فلاناً وراءه: إذا تركه خلفه، والمخلَّف: المتروك خلف مَنْ مضى[٤]، ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾: بقعودهم ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن الجوزيِّ: فيها قولان:

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٧٧).
(٢) انظر: تفسير الشَّوكاني (٢/ ٣٩١).
(٣) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٨١).
(٤) انظر: زاد المسير (٣/ ٤٧٨).

أحدهما: أنَّ معناه: بعد رسول الله ﷺ.

والثاني: أنَّ معناه: مخالفة رسولِ الله ﷺ، فالمعنى بأنَّهم قعدوا لمخالفة رسول الله ﷺ[٣].

والمعنى: قال ابن كثير: يقول تعالى ذامّاً للمنافقين المُتخلِّفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ﴾ معه ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ﴾ أي: بعضهم لبعض ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ قال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ ممَّا فررتم منه مِنَ الحرِّ[١]، ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ تذييل قصد به الزِّيادة في توبيخهم، وتحقيرهم[٢].

وقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

والمعنى: أنَّهم فرحوا، وضحكوا طوال أعمارهم في الدُّنيا، فهو قليلٌ بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ، والآخرة باقيةٌ، والمنقطعُ الفاني قليلٌ بالنسبة إلى الدَّائم الباقي.
وقوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ والمراد بقوله: ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ﴾ إلى طائفة من هؤلاء المنافقين الَّذين تخلَّفوا عن الخروج معك إلى تبوك، والمراد بقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حين لم يخرجوا إلى تبوك والمراد بقوله: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾. قال الإمام الرَّازي ما ملخَّصُه: ذُكِرَ في تفسير «الخالف» وجوهٌ:

الأول: الخالفون جمعٌ، واحدهم: خالف، وهو مَنْ يخلُف الرَّجل في قومٍ. ومعناه: فاقعدوا مع الخالفين من الرِّجال الَّذين يخلُفون في البيت، فلا يبرحونه.

الثاني: أنَّ الخالفين فسِّر بالمخالفين، يقال: فلانٌ خالفه أهلُ بيته: إذا كان مخالفاً لهم، وقومٌ خالفون، أي: كثيرو الخلاف لغيرهم.

الثالث: أنَّ الخالف هو الفاسد. قال الأصمعيُّ: يقال: خلف عن كلِّ خيرٍ، يخلف، خلوفاً: إذا فسد، وخلف اللَّبنُ: إذا فسد.

إذا عرفت هذه الوجوه الثَّلاثة؛ فلا شك: أنَّ اللَّفظ يصلح حمله على كلِّ واحدٍ منها؛ لأنَّ أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصِّفات السَّيئة[٣].

هذا وقد لاحظت اختلاف سياسة الرَّسول ﷺ في معاملته للمنافقين ـ عندما اعتذروا له ـ عن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٧٦).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٨٦).
(٣) انظر: تفسير الرازي (١٥/ ١٥١) بتصرف يسير.

المسلمين الصَّادقين؛ حيث إنَّه ﷺ عامل المنافقين باللِّين، والصَّفح، واختار للمسلمين الصَّادقين الشِّدَّة، والعقوبة! ولا شكَّ: أنَّ الشدَّة، والقسوة في هذا المقام مع المسلمين مظهرٌ للإكرام، والتَّشريف، وهو ما لا يستحقُّه المنافقون، وكيف يستحقُّ المنافقون أن تنزل آياتٌ في توبتهم ـ على أيِّ حال ـ إنَّهم كفرةٌ، ولن يَنْشُلَهم شيءٌ ممَّا يتظاهرون به في الدُّنيا من الدَّرك الأسفل في النَّار يوم القيامة، وقد أمر الشَّارع جلَّ جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به، ونُجري الأحكام الدُّنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التَّحقيق عن بواطن أعذارهم، وحقيقة أقوالهم؟ وفيم معاقبتُهم في الدُّنيا على ما قد يصدر عنهم مِنْ كذبٍ؟! ونحن إنَّما نعطيهم الظَّاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يُبدون لنا هم أيضاً الظَّاهر فقط من أحوالهم، وعقائدهم.

قال ابن القيِّم: وهكذا يفعل الربُّ سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم، فيؤدِّب عبده المؤمن الَّذي يحبُّه ـ وهو كريمٌ عنده ـ بأدنى زلَّة وهفوةٍ، فلا يزال مستيقظاً حذراً، وأمَّا مَنْ سقط من عين الله، وهان عليه؛ فإنَّه يُخَلِّي بينه وبين معاصيه، وكلَّما أحدث ذنباً؛ أحدث له نعمةً[١].

خامساً: مسجد ضرار:

في أثناء عودة النَّبي ﷺ إلى المدينة راجعاً من تبوك نزلت عليه الآيات الآتية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧ ـ ١٠٨].

وسبب نزول هذه الآيات الكريمات: أنَّه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج، يقال له: أبو عامر الرَّاهب، وكان قد تنصَّر في الجاهليَّة، وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادةٌ في الجاهلية، وله شرفٌ في الخزرج كبيرٌ، فلمَّا قدِم رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهم الله يوم بدر؛ شرق اللَّعين أبو عامرٍ بريقِه، وبارز بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كفَّار مكَّة من مشركي قريشٍ، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أحدٍ، فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله ـ عزَّ وجل ـ، وكانت العاقبة للمتَّقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصَّفَّين فوقع في إحداهنَّ رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم، فجرح، وكسرت رباعيَّته اليُمنى، والسُّفلى، وشُجَّ رأسه ﷺ.

وتقدَّم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار، فخاطبهم، واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلمَّا عرفوا كلامه؛ قالوا: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق! يا عدوَّ الله! ونالوا منه،

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٧٨).

وسبُّوه ، فرجع وهو يقول: والله! لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ ، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه القرآن ، فأبى أن يسلم ، وتمرَّد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدَّعوة ، وذلك: أنَّه لما فرغ النَّاس من أحدٍ ، ورأى أمر الرَّسول ﷺ في ارتفاع ، وظهورٍ؛ ذهب إلى هرقل ملك الرُّوم يستنصره على النَّبيِّ ﷺ ، فوعده ، ومنَّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعةٍ من قومه من الأنصار من أهل النِّفاق ، والرَّيب يعدهم ، ويمنِّيهم بجيشٍ يقاتل به رسول الله ﷺ ، ويغلبه ، ويردُّه عمَّا هو فيه ، وأمرهم أن يتَّخذوا له معقلاً يَقْدَمُ عليهم فيه مَنْ يَقْدَم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجدٍ مجاورٍ لمسجد قُباء ، فبنوه ، وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك وجاؤوا ، فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتي إليهم ، فيصلِّي في مسجدهم ليحتجُّوا بصلاته فيه على تقريره ، وإثباته ، وذكروا: أنَّهم بنوه للضُّعفاء منهم ، وأهل العلَّة في الليلة الشَّاتية ، فعصمه الله من الصَّلاة فيه ، فقال: «إنَّا على سفرٍ ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» ، فلمَّا قفل عليه السَّلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ولم يبقَ بينه وبينها إلا يومٌ أو بعض يومٍ نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضِّرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر ، والتَّفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم ، ومسجد قُباء؛ الَّذي أسس من أوَّل يومٍ على التَّقوى ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هدمه قبل مَقْدَمِهِ المدينة [ابن جرير في تفسيره (١١/ ٢٣) ، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٦٢ ، ٢٦٣) ، وابن هشام (٤/ ١٧٣ ، ١٧٤) ، وابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٨٨)] ، هذا ما ذكره ابن كثيرٍ في سبب النُّزول.

أمَّا معنى الآيات الكريمات:

أخبر الله سبحانه أنَّ الباعث لهم على بناء هذا المسجد أربعةُ أمور:

١ ـ الضِّرار لغيرهم ، وهو المضارَّة.

٢ ـ الكفر بالله ، والمباهاة لأهل الإسلام؛ لأنَّهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النِّفاق.

٣ ـ التَّفريق بين المؤمنين؛ لأنَّهم أرادوا ألاَّ يحضروا مسجد قُباء ، فتقلَّ جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة ، وبطلان الأُلفة ما لا يخفى.

٤ ـ الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي: الإعداد لأجل مَنْ حارب الله ورسوله[١].

وقد خيَّب الله تعالى مسعاهم ، وأبطل كيدهم ، بأنْ أمر نبيَّه ﷺ بهدمه ، وإزالته.

وقوله: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ذمٌّ لهم على أيمانهم الفاجرة ، وأقوالهم الكاذبة ، لذلك قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

---

(١) انظر: تفسير الشَّوكاني (٢/ ٤٠٣).

ثمَّ نهى الله ـ تعالى ـ رسوله والمؤمنين عن الصَّلاة في هذا المسجد نهياً مؤكَّداً ، فقال سبحانه: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ .

قال ابن عاشور: وقوله (سبحانه): ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ المراد بالقيام الصَّلاة؛ لأنَّ أوَّلها قيامٌ ، ووجه النَّهي عن الصَّلاة فيه: أنَّ صلاة النَّبي ﷺ فيه تُكْسِبه يُمناً ، وبركةً فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزيَّةً عليه ، ولذلك أمر رسول الله ﷺ عمَّار بن ياسر ، ومالك بن الدُّخشم مع بعض أصحابه ، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظَّالم أهلُه؛ فاهدموه ، وحرِّقوه» ففعلوا[١] .

وقوله: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ احتراسٌ ممَّا يستلزمه النَّهي عن الصَّلاة فيه؛ من إضاعة عبادة في الوقت الَّذي رغبوه للصَّلاة فيه ، فأمر الله بأن يصلِّي في ذلك الوقت الذي دعوه فيه للصَّلاة في مسجد الضِّرار أن يصلِّي في مسجده ، أو في مسجد قُباء ، لئلا يكون لامتناعه من الصَّلاة من حظوظ الشَّيطان أن يكون صرفُه عن صلاةٍ في وقت دعي للصَّلاة فيه ، وهذا أدبٌ نفسانيٌّ عظيمٌ[٢] .

وفيه أيضاً: دفعُ مكيدة المنافقين أن يطعنوا في الرَّسول ﷺ ، بأنَّه دعي إلى الصَّلاة في مسجدهم ، فامتنع ، فقوله: ﴿أَحَقُّ﴾ وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة؛ لأنَّ النَّهي عن صلاته في مسجد الضِّرار أزال كونه حقيقاً بصلاته فيه أصلاً .

ولعلَّ نكتة الإتيان باسم التَّفضيل: أنَّه تهكُّمٌ على المنافقين؛ لمجازاتهم ظاهراً في دعوتهم النَّبيَّ ﷺ للصَّلاة فيه ، بأنَّه وإن كان حقيقاً بصلاته بمسجدٍ أُسِّس على التَّقوى أحقّ منه ، فيعرف من وصفه بأنَّه ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾: أنَّ هذا أُسِّس على ضِدِّها[٣] .

وقد رأى ابن عاشور: أنَّ المراد بالمسجد الَّذي أسس على التَّقوى: أنَّه مسجد هذا صفته ، لا مسجداً واحداً معيَّناً ، فيكون هذا الوصف كلِّيّاً انحصر في فردين: المسجد النَّبويُّ ، ومسجد قُباء[٤] .

قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ روى ابن ماجه: أنَّه لمَّا نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الأنصار! إنَّ الله تعالى قد أثنى عليكم في الطُّهور، فما طُهوركم؟»

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/ ١٨٤) .
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم (٢/ ٦٦١) .
(٣) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١١/ ٣١) .
(٤) المصدر السابق نفسه .

قالوا: نتوضأ للصَّلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء. قال: «فهو ذاك، فعليكُمُوه».
[ابن ماجه (٣٥٥)].

وفي قصة مسجد الضِّرار دروسٌ، وعبرٌ، وفوائد؛ منها:

١ ـ الكفر ملةٌ واحدةٌ:

وقد تبيَّن هذا في موقف أبي عامرٍ الرَّاهب من الإسلام، ومن المسلمين؛ إذ غضب غضباً شديداً، وتألَّم لهزيمة المشركين في بدرٍ، فأعلن عداءه للرَّسول ﷺ، وتوجَّه إلى عاصمة الشِّرك آنذاك مكَّة يحثُّ أهلها على قتال المسلمين، وخرج مقاتلاً معهم في أحدٍ، وحاول تفتيت الصَّفِّ الإسلاميِّ[1]، وصدق الله تعالى عندما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ [الأنفال: ٧٣].

٢ ـ محاولة التَّدليس على المسلمين:

حاول المنافقون أن يضفوا الشَّرعية على هذا البناء، وأنَّه مسجدٌ بنوه لأسبابٍ مقنِعةٍ في الظَّاهر، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أصحابها، فقد جاؤوا يطلبون من الرَّسول ﷺ الصلاة في هذا البناء ليكون مسجداً قد باركه رسول الله ﷺ بالصَّلاة فيه، فإذا حدث هذا فقد استقرَّ قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوبٌ ماكرٌ خبيثٌ قد ينطلي على كثيرٍ من النَّاس[2].

٣ ـ فالله خيرٌ حافظاً، وهو أرحم الراحمين:

إنَّ الباحث ليلاحظ مدى العناية الإلٰهيَّة بالنَّبيِّ ﷺ، فقد أطلعه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على أسرار هؤلاء المنافقين، وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، فلولا إعلام الله لرسوله ﷺ؛ لما أدرك رسول الله حقيقة نواياهم، ولصلَّى في البناء، فأضفى عليه الشَّرعيَّة، وأقبل النَّاس يصلُّون فيه؛ لأنَّ رسول الله ﷺ صلَّى فيه، وبذلك يحدث الاختلاط بين المنافقين، وضعاف المسلمين، فينفردون بهم، وقد يؤثِّرون عليهم بالإشاعات[3].

٤ ـ العلاج النَّبويُّ الحاسم:

إنَّ ما قام به الرَّسول ﷺ من الأمر بهدم مسجد الضِّرار هو التَّصرُّف الأمثل، وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ، سنَّه لقادة الأمَّة في القضاء على أيِّ عملٍ يراد منه الإضرار بالمسلمين، وتفريق كلمتهم، فالدَّاء العُضَالُ لا يُعالَج بتسكينه، والتخفيف منه، وإنَّما يعالج بحسمه، وإزالة آثاره؛ حتَّى لا يتجدَّد ظهوره بصورةٍ أخرى، وإنَّ الثِّمار العمليَّة الَّتي لمسها المسلمون على إثر تطبيق الأمر

---

(١) انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين، ص ١٧٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.
(٣) انظر: الصراع مع الصَّليبيِّين، ص ١٧٩.

النَّبويِّ الحازم لتدلُّنا على أنَّ هذه المنهجيَّة؛ التي نهجها رسول الله ﷺ مع هذا المكر الخبيث هي الطَّريقة المثلى لقمع حركة النِّفاق في المجتمع المسلم، فقد أصبح أمرُهم بعد ذلك يتلاشى شيئاً، فشيئاً، حتَّى لم يبقَ منهم بعد لحاق الرَّسول ﷺ بالرَّفيق الأعلى إلا عددٌ قليل، ولم يُعرف عنهم بعد تدمير مسجد الضِّرار أن قاموا بأعمالٍ تخدم الهدف نفسه؛ لعلمهم بنتائج العمل بعد انكشافهم[١].

٥ ـ ما يلحق بحكم مسجد الضِّرار:

ذكر المفسِّرون ما يُلحق بمسجد الضِّرار في الحكم، فهذه بعض أقوالهم:

أ ـ قال الزَّمخشري: «... وقيل: كلُّ مسجد بُني مباهاةً، أو رياءً، وسمعةً، أو لغرضٍ سوى ابتغاء وجه الله، أو بمالٍ غير طيِّبٍ؛ فهو لاحقٌ بمسجد الضِّرار»[٢].

علق الدَّكتور عبد الكريم زيدان على قول الزَّمخشري، فقال: ولكن: هل يلحق بمسجد الضِّرار، فيهدم، كما هدم مسجد الضِّرار الَّذي بناه المنافقون في المدينة، وأمر النَّبيُّ ﷺ بهدمه؟ لا أرى ذلك، وإنَّما يمكن أن يقال: إنَّ المسجد الذي بني لهذه الأغراض يلحق بمسجد الضرار من جهة عدم ابتنائه على التَّقوى، والإخلاص الكامل لله تعالى[٣].

ب ـ قال القرطبيُّ في تفسيره: قال علماؤنا: وكلُّ مسجدٍ بُني على ضرارٍ، أو رياءٍ وسُمعةٍ، فهو في حكم مسجد الضِّرار لا تجوز الصَّلاة فيه[٤].

ج ـ وقال سيِّد قطب في تفسيره: هذا المسجد ـ مسجد الضِّرار ـ الَّذي اتُّخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدةً للإسلام، والمسلمين، هذا المسجد ما يزال يُتَّخذ في صورٍ شتَّى، يُتَّخذ في صورة نشاطٍ ظاهره الإسلام، وباطنه لسحق الإسلام، أو تشويهه، وتُتَّخذ في صورة أوضاعٍ ترفع لافتة الدِّين عليها لِتَتَتَرَّس وراءها، وهي ترمي هذا الدِّين، وتُتَّخذ في صورة تشكيلاتٍ، وتنظيماتٍ، وكتبٍ، وبحوثٍ تتحدَّث عن الإسلام؛ لتُخَدِّر القلقين الَّذين يرون الإسلام يُذبح، ويُمحق، فتخدِّرهم هذه التَّشكيلات، وتلك الكتب بما توحيه لهم من أنَّ الإسلام بخيرٍ، وأنَّه لا داعي للخوف، أو القلق عليه[٥].

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٠).
(٢) انظر: تفسير الزَّمخشري (٢/ ٣١٠).
(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (١/ ٥٠٤).
(٤) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٢٥٤).
(٥) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٧١٠ ـ ١٧١١).

٦ ـ قاعدة لمعرفة ما يلحق بمسجد الضِّرار :

قال الدَّكتور عبد الكريم زيدان: كلُّ ما يُتَّخذ ممَّا هو في ظاهره مشروعٌ ، ويريد متَّخذوه تحقيق غرضٍ غير مشروع ، فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار ؛ لأنَّه يحمل روحَه ، وعناصِرَه[١] ، وإذا أردنا الإيجاز ؛ قلنا في هذه القاعدة: كلُّ ما كان ظاهره مشروعاً ويريد مُتَّخذوه الإضرار بالمؤمنين ؛ فهو مُلْحَقٌ بمسجد الضِّرار[٢] .

وبناء على هذه القاعدة يخرج من نطاق مسجد الضِّرار ، وما يلحق به ما ذكره الإمام ابن القيِّم من مشاهد الشِّرك ، ومن أماكن المعاصي ، والفسوق ، كالحانات ، وبيوت الخمر ، والمنكرات ، ونحو ذلك ؛ لأنَّ هذه المنكرات ظاهرها غير مشروع فلا تلحق به ؛ وإن استحقت الإزالة كمسجد الضِّرار ، باعتبارها منكراتٍ ظاهراً ، وباطناً[٣] .

٧ ـ مساجد الضِّرار في بلاد المسلمين :

لا يزال أعداء الإسلام من المنافقين ، والملحدين ، والمبشرين ، والمستعمرين ، يقيمون أماكن باسم العبادة ، وما هي لها ، وإنَّما المراد بها الطَّعن في الإسلام ، وتشكيك المسلمين في معتقداتهم ، وآدابهم ، وكذلك يقيمون مدارس باسم الدَّرس ، والتَّعليم ؛ ليتوصَّلوا بها إلى بثِّ سمومهم بين أبناء المسلمين ، وصرفهم عن دينهم ، وكذلك يقيمون المنتديات باسم الثَّقافة ، والغرض منها خلخلة العقيدة السَّليمة في القلوب ، والقيم الخلقيَّة في النُّفوس ، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحَّة ، والخدمة الإنسانيَّة ، والغرض منها التأثير على المرضى ، والضعفاء ، وصرفهم عن دينهم ، وقد اتَّخذوا من البيئات الجاهلة ، والفقيرة ، لاسيَّما في بلاد إفريقية ذريعةً للتَّوصُّل إلى أغراضهم الدَّنيئة ، الَّتي لا يقرُّها عقلٌ ، ولا شرعٌ ، ولا قانونٌ[٤] .

إنَّ مسجد الضِّرار ليس حادثةً في المجتمع الإسلاميِّ الأوَّل ، وانقضت ؛ بل هي فكرةٌ باقيةٌ ، يُخَطَّط لها باختيار الأهداف العميقة ، وتُختار الوسائل الدَّقيقة لتنفيذها ، وخططها تصبُّ في التآمر على الإسلام وأهله بالتَّشويه وقلب الحقائق ، والتَّشكيك ، وزرع بذور الفتن لإبعاد النَّاس عن دينهم ، وإشغالهم بما يضرُّهم ويدمِّر مصيرهم الأخروي[٥] .

* * *

---

(١) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٠٧) .
(٣) انظر : المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥٠٦) .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٠٨) .
(٥) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٨٢ .

المبحث الرَّابع
قصَّة الثلاثة الذين خُلِّفوا

وردت قصَّة الثَّلاثة الَّذين خلِّفوا على لسان كعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، في كتب السِّيرة ، والحديث ، والتفسير ، بروايات متقاربةٍ في ألفاظها ، ولقيت عنايةً فائقةً في الشَّرح ، والتَّدريس وكان صحيح البُخاريِّ من أكثر الكتب دقَّةً ، وتفصيلاً لهذه القصَّة[١] .

ونترك كعب بن مالك رضي الله عنه يحدِّثنا بنفسه ، حيث قال: «لم أتخلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها إلا في غزوة تَبُوك ، غير أنِّي كنت تخلَّفت في غزوة بدرٍ ، ولم يعاتبْ أحداً تخلَّفَ عنها ، إنَّما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش؛ حتَّى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعادٍ ، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة[٢] حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبُّ أنَّ لي بها مَشهدَ بدرٍ ، وإن كانت بدرٌ أذكرَ في النَّاس منهـا ، كـان من خَبَري أنِّي لم أكن قـطُّ أقوى ، ولا أيسر حين تخلَّفتُ عنه في تلك الغزاة ، والله! ما اجتمعت عندي قَبله راحلتان قطُّ حتَّى جمعتُهما في تلك الغزوة .

ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوةً إلا ورَّى بغيرها ، حتَّى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً ، وعدوّاً كثيراً ، فجلَّى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهَّبوا أُهبةَ غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الَّذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثيرٌ ، ولا يجمعهم كتاب حافظٍ ـ يريد الدِّيوان ـ قال كعب: فما رجلٌ يريد أن يتغيَّب إلا ظنَّ أن سيخفى له ، ما لم ينزل فيه وحيُ الله .

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثِّمارُ ، والظِّلالُ ، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو؛ لكي أتجهَّزَ معهم ، فأرجعُ ، ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه . فلم يزل يتمادى بي؛ حتَّى اشتد بالنَّاس الجِدُّ ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جَهازي شيئاً ، فقلتُ: أتجهَّز بعده بيومٍ ، أو يومين ، ثمَّ

(١) انظر: الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٨٧ .
(٢) ليلة العقبة: الليلة الَّتي بايع رسول الله ﷺ فيها الأنصار على الإسلام .

ألحقُهم ، فغدوت بعد أن فَصَلوا؛ لأتجهَّزَ ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً ، ثمَّ غدوت ، ثُمَّ رجعتُ ولم أقض شيئاً. فلم يزل بي حتَّى أسرعوا وتفارط الغزو[١] ، وهممت أن أرتحل فأُدرِكَهُم ـ وليتني فعلتُ ! ـ فلم يقدَّر لي ذلك ، فكنتُ إذا خرجتُ في النَّاس ـ بعد خروج رسول الله ﷺ ـ فطفتُ فيهم أحزنني أنِّي لاأرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النِّفاق أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضُّعفاء ، ولم يَذكرْني رسولُ الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: «ما فعل كعبٌ؟» فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله! حبسه بُرداه ، والنَّظر في عطفيه[٢] ، فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت! والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ ، فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مبيِّضاً[٣] يزول به السَّراب[٤] ، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريُّ ، وهو الَّذي تصدَّق بصاع التَّمر حين لمزه[٥] المنافقون.

قال كعب بن مالكٍ: فلمَّا بلغني: أنَّ رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلاً[٦] من تبوك؛ حضرني بثِّي[٧] ، فطفقتُ أتذكَّرُ الكذبَ ، وأقول: بم أخرج مِنْ سخطه غداً؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأيٍ مِنْ أهلي. فلمَّا قيل لي: إنَّ رسولُ الله ﷺ قد أظلَّ قادماً[٨] ، زاح[٩] عنِّي الباطل ، حتَّى عرفت أنِّي لن أنجو منه بشيءٍ أبداً ، فأجمعت صِدْقَه[١٠].

وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد ، فيركع فيه ركعتين ، ثمَّ جلس للنَّاس ، فلمَّا فعل ذلك جاءه المخلَّفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته ، فلمَّا سلمت؛ تبسَّم تبسُّم المُغْضَب ، ثمَّ قال: «تعالَ» ، فجئت أمشي حتَّى جلست بين يديه ، فقال لي: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرَكَ؟» قال: قلت: يا رسول الله! إنِّي والله! لو جلست عند غيرك من أهل الدُّنيا؛ لرأيت أن سأخرج من سَخَطِه

---

(١) تفارط الغزو: تقدَّم الغزاةُ ، وسبقوا ، وفاتوا.
(٢) والنَّظر في عطفيه: أي: جانبيه ، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ، ولباسه.
(٣) مبيِّضاً: لابس البياض.
(٤) يزول به السَّراب: يتحرَّك ، وينهض ، والسَّراب ما يظهر للإنسان.
(٥) لمزه المنافقون: عابوه ، واحتقروه.
(٦) قافلاً: راجعاً.
(٧) بثِّي: حزني.
(٨) أظلَّ قادماً: أقبل ودنا قدومه ، كأنَّه أبقى على ظلِّه.
(٩) زاح: أزال.
(١٠) أجمعت صدقه: عزمت على صدقه.

بعذرٍ ، ولقد أُعطيت جدلاً[١] ، ولكنِّي ، والله! لقد علمت ، لئن حدَّثتُك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عنِّي ؛ ليوشكنَّ[٢] اللهُ أن يُسخِطَك عليَّ ، ولئن حدَّثتك حديث صدقٍ تجد عليَّ فيه[٣] إنِّي لأرجو فيه عُقبى الله[٤] . والله! ما كان لي عذر ، والله! ما كنت قطُّ أقوى ، ولا أَيْسَرَ منِّي حين تخلَّفت عنك ، قال رسول الله ﷺ : «أمَّا هذا؛ فقد صدق ، فقم حتَّى يقضي الله فيك» .

فقمت ، وثار رجالٌ من بني سلمة ، فاتَّبعوني ، فقالوا لي : والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت ألاّ تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون ، فقد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله ﷺ لك ، قال : فوالله! ما زالوا يُؤنِّبونني[٥] حتَّى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأُكذِّبَ نفسي .

قال : ثمَّ قلت لهم : هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا : نعم . لقيه معك رجلان ، قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك . قال : قلت : مَنْ هما؟ قالوا : مُرارةُ بن الرَّبيع العَمْريُّ ، وهلالُ بن أميَّة الواقفيُّ ، قال : فذكروا لي رجلين صالحين قد شَهِدا بدراً ، فيهما أسوةٌ ، قال : فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا نحن الثَّلاثة من بين مَنْ تخلَّف عنه .

قال : فاجتَـنَـبَـنا النَّاس ، وقال : تغيَّروا لنا حتَّى تنكَّرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض الَّتي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلـةً ، فأمَّا صاحبـاي؛ فاستكانا[٦] ، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا ، فكنت أشبَّ القوم ، وأجلَدَهم[٧] ، فكنت أخرج ، فأشهد الصَّلاة ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ .

وآتي رسول الله ﷺ ، فأسلِّم عليه ، وهو في مجلسه بعد الصَّلاة ، فأقول في نفسي : هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام ، أم لا؟ ثمَّ أصلِّي قريباً منه ، وأسارقه النَّظر ، فإذا أقبلت على صلاتي؛ نظر إليَّ ، وإذا التفتُّ نحوه؛ أعرض عنِّي ، حتَّى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتَّى تسوَّرت جدار حائطِ أبي قتادة ، وهو ابن عمِّي ، وأحبُّ النَّاس إليَّ ، فسلَّمت عليه ،

---

(١) أعطيت جدلاً : فصاحةً ، وقوَّةً في الكلام ، وبراعةً .
(٢) ليوشكن : ليسرعنَّ .
(٣) تجد عليَّ فيه : تغضب .
(٤) إني لأرجو عقبى الله : يعقبني خيراً ، ويثيبني عليه .
(٥) يؤنبونني : يلومونني أشدَّ اللوم .
(٦) استكانا : خضعا .
(٧) أشبَّ القوم ، وأجلدهم : أي : أصغرهم سنّاً ، وأقواهم .

فوالله! ما ردَّ عليَّ السَّلام ، فقلت له: يا أبا قتادة! أنشدُك بالله[1]! هل تعلم أنِّي أحبُّ الله ، ورسوله؟ قال: فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فسكت ، فعدت ، فناشدته ، فقال: اللهُ ورسوله أعلم! ففاضت عيناي ، وتولَّيت حتَّى تسوَّرت الجدار .

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة؛ إذا نبطي من نبط أهل الشَّام[2] ، ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة ، يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ قال: فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسَّان ، وكنت كاتباً ، فقرأته فإذا فيه: أمَّا بعد؛ فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك اللهُ بدار هوانٍ ، ولا مَضْيَعة[3] ، فالحقْ بنا؛ نواسِك ، قال: فقلت حين قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء ، فتايممت[4] بها التَّنُّور ، فسجرتُها[5] بها؛ حتَّى إذا مضت أربعون ليلةً من الخمسين واستلبث الوحي[6]؛ إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني ، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك! قال: فقلتُ: أطلِّقها ، أم ماذا أفعل؟ قال: لا ، بل اعْتَزِلْهَا ، فلا تقربنَّها ، قال: فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل هذا .

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك ، فكوني عندهم؛ حتَّى يقضي الله في هذا الأمر ، قال: فجاءت امرأةُ هلال بن أميَّة رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول الله! إنَّ هلال بن أميَّة شيخٌ ضائعٌ ، ليس له خادمٌ ، فهل تكره أن أخدُمَه؟ قال: «لا ، ولكن لا يقربنَّك» فقالت: إنَّه والله! ما به حركةٌ إلى شيءٍ ، والله! ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه. قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسولَ الله ﷺ ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنْتُه فيها ، وأنا رجلٌ شابٌّ ، قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ ، فكمُل لنا خمسون ليلةً على ظهر بيت من بيوتنا .

فبينما أنا جالس على الحال الَّتي ذكر الله ـ عزَّ وجل ـ منَّا ، قد ضاقت عليَّ نفسي ، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت؛ سمعتُ صوت صارخٍ أوفى على سَلَع[7] ، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر! قال: فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرجٌ. قال: فآذن[8]

---

(١) أنشدك بالله: أسألك بالله.
(٢) نبط أهل الشام: فلاحو العجم.
(٣) مضيعة: يعني أنَّك لست بأرضٍ يضيع فيها حقُّك.
(٤) فتايممت: تيمَّمت: قصدت.
(٥) فسجرتُها: أحرقتُها.
(٦) استلبث الوحيِ: أبطأ.
(٧) أوفى على سَلَع: صعده ، وارتفع عليه ، وسَلَع: جبلٌ بالمدينة معروفٌ.
(٨) فآذن النَّاس: أي: أعلمهم.

رسول الله ﷺ توبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر ، فذهب النَّاس يبشِّروننا ، فذهب قِبَل صاحبيَّ مبشِّرون ، ورَكَض رجلٌ إليَّ فرساً ، وسعى ساعٍ مِنْ أسلم قِبَلِي ، وأوفى الجبل ، فكان الصَّوت أسرع من الفرس ، فلمَّا جاءني الَّذي سمعتُ صوته يبشِّرني ، نزعت له ثوبيَّ ، فكسوتُهما إيَّاه ببشارته ، والله! ما أملك غيرهما يومئذٍ .

واستعرتُ ثوبين ، فلبستهما ، فانطلقت أتأمَّم[١] رسول الله ﷺ فيتلقَّاني النَّاس فوجاً ، فوجاً[٢] ، يهنِّئوني بالتَّوبة ، ويقولون: لتهنك توبة الله عليك! حتَّى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد ، وحوله النَّاس ، فقام طلحة بن عُبَيْد الله يُهَرْوِلُ حتَّى صافحني ، وهنَّأني ، والله! ما قام رجلٌ من المهاجرين غيرهُ .

قال: فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة . قال كعب: فلمَّا سلَّمت على رسول الله ﷺ قال: وهو يَبْرُق وجهُه من السُّرور ، ويقول: «أبشرْ بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك!» قال: قلتُ: أمن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟ فقال: «لا ، بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه حتىٰ كأنَّه قطعةُ قمرٍ قال: وكنا نعرف ذلك . قال: فلمَّا جلست بين يديه؛ قلت: يا رسول الله! إن من توبتي أن أنخلع[٣] من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسول الله ﷺ! فقال رسول الله ﷺ: «أمسك بعضَ مالك ، فهو خير لك» . قال: فقلت: فإنِّي أمسك سهمي الذي بخيبر ، قال: وقلت: يا رسول الله! إنَّ الله إنَّما أنجاني بالصِّدق ، وإنَّ من توبتي ألاَّ أُحدِّثَ إلا صدقاً ما بقيت . قال: فوالله! ما علمت أنَّ أحداً من المسلمين أبلاه[٤] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا أحسن ممَّا أبلاني الله به ، وَوَالله! ما تعمَّدت كَذْبَةً منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي .

قال: فأنزل الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ ـ ١١٩] .

قال كعب رضي الله عنه: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قطُّ ، بعد أنْ هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ ألاَّ أكونَ كذبْتُه ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إنَّ الله قال

---

(١) أتأمَّم: أي: أقصد.
(٢) فوجاً ، فوجاً: الفوج: الجماعة.
(٣) أنخلع من مالي: أتصدَّق به.
(٤) أبلاه الله: أنعم عليه.

للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحدٍ ، وقال الله : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥ ـ ٩٦].

قال كعبٌ رضي الله عنه : كنَّا تخلفنا نحن الثَّلاثة عن أمر أولئك الَّذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا حتَّى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨] ، وليس الَّذي ذكر اللهُ ممَّا خُلِّفْنَا ، تخلُّفنا عن الغَزْوَةِ ، وإنَّما هو تَخْلِيفه إيَّانا ، وإرجاؤُه أمرَنا[١] عمَّن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه . [البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧٦٩)].

وفي هذه القصَّة دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائدُ كثيرةٌ ، نذكر منها :

١ ـ الأسلوب الجميل ، والبيان الرَّائع ، والأدب الرَّفيع :

لقد تمَّت صياغة هـذا الحديث بأسلوبٍ جميلٍ ، وبيانٍ رائـعٍ ، وأدبٍ رفيعٍ ، وإنَّه ليُعتبر مع أمثالـه كحديث صلح الحديبيـة ، وحديث الإفـك نماذجَ عاليـةً للأدب العربيِّ الرَّفيع ، وليت القائمين على وضع المناهج الدِّراسيَّة يختارون هذه الأحاديث ، وأمثالها لتنمية مدارك الطُّلَّاب ، وتكوين الملكة الأدبيَّة ، والثروة اللُّغوية العالية ، انظر مثلاً إلى قول كعب في هذا الحديث : فلمَّا قيل : إنَّ رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادماً؛ زاح عنِّي الباطل ، وعرفت أنِّي لن أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذبٌ ، فأجمعت صِدْقَه[٢] .

٢ ـ الصِّدق سفينة النَّجاة :

لقد أدرك كعبٌ ، وهلالُ ، ومُرَارةُ رضي الله عنهم خطورة الكذب ، فعزموا على سلوك طريق الصَّراحة ، والصِّدق ، وإنْ عرَّضهم ذلك للتَّعب ، والمضايقات ، ولكنْ كان أملهم بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبتَهُم ، ثمَّ يعودون إلى الصَّفِّ الإسلاميِّ أقوى ممَّا كانوا عليه[٣] ، وما أجملَ ختمَ ربِّ العالمين توبته على كعبٍ وَمَنْ معه رضي الله عنهم بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

---

(١) إرجاؤه أمرنا : تأخيره أمرنا.
(٢) انظر : التاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٧).
(٣) المصدر السَّابق نفسه.

٣ـ الهَجْر التَّربويُّ ، وأثره في المجتمع :

إنَّ الهجر التَّربويَّ له منافعُه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة ، ومنع أفراده من التَّورُّط في المخالفات الَّتي تكون إمَّا بترك شيءٍ من الواجبات ، أو فعل شيءٍ من المحرَّمات ؛ لأنَّ مَنْ توقَّع أنَّه إذا وقع في شيءٍ من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع ، فإنَّه لا يفكِّر في الإقدام على ذلك .

ولا يغيب عن البال أنَّ تطبيق هذا الحكم يجب أن يتمَّ في الظُّروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النَّبويِّ المدنيِّ ، حيث توجد الدَّولة المهيمنة ، والمجتمع القويُّ ، مع أمن الوقوع في الفتنة لمن طُبِّق عليه هذا الحكم .

وهذا الهجر التَّربويُّ يختلف عن الهجر الَّذي يكون بين المسلمين على أمور الدنيا ، فهذا دنيويٌّ ، وذاك دينيٌّ ، فالهجر الدِّينيُّ مطلبٌ شرعيٌّ يثاب عليه فاعله ، أمَّا الهجر الدُّنيويُّ ؛ فإنَّه مكروهٌ ، إلا إذا زاد عن ثلاثة أيام ؛ فإنَّه يكون محرماً[١] ، لقول رسول الله ﷺ : «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ يلتقيان ، فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسَّلام» [البخاري (٦٢٣٧) ، ومسلم (٢٥٦٠)] ، ولقوله ﷺ : «مَنْ هجر أخاه سنةً فهو كَسَفْكِ دَمِهِ» . [أحمد (٤/ ٢٢٠) ، وأبو داود (٤٩١٥) ، والبيهقي في الآداب (٢٨٠) ، والحاكم (٤/ ١٦٣) ، والبخاري في الأدب المفرد (٤٠٤)] .

٤ ـ تنفيذ المجتمع المسلم كلِّه لأوامر القيادة :

استجاب المجتمع المسلم كلُّه لتنفيذ أمر المقاطعة ، والهجر الَّذي صدر من القائد الأعلى ﷺ ، وامتنعوا جميعاً عن الحديث مع هؤلاء الثلاثة ، ووصف كعبٌ لنا ذلك ، فقال: «. . . فاجتَنَبَنا النَّاس ، وتغيَّروا لنا ، حتَّى تنكَّرتْ في نفسي الأرضُ فما هي التي أعرف ، فأمَّا صاحباي ، فاستكانا ، وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمَّا أنا ؛ فكنت أشَبَّ القوم ، وأجلدَهم ، فكنت أخرج ، فأشهدُ الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلِّمني أحدٌ . . .»[٢] .

وقد أطلق كعب السَّلام على ابن عمِّه أبي قتادة ، فلم يردَّ عليه السَّلام ، وناشده بالله مراراً: هل تعلمني أحبُّ الله ، ورسولَه؟ فسكت ، مع أنَّه من أحبِّ النَّاس إليه ، لقد كان أبو قتادة في هذا الموقف موزَّعَ الفكر بين إجابة رجلٍ حبيب إليه ، عزيزٍ عليه ، وبين تنفيذ أمر النَّبيِّ ﷺ بتطبيق

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٣٩) .
(٢) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٩٥ ، وسبق تخريجه .

الهجر التَّربويِّ ، ولكن ليس هناك تردُّد بين الأمرين ، فالَّذي أوحى به إيمان أبي قتادة هو تنفيذ أمر النبيِّ ﷺ فظهر ذلك على سلوكه[1] .

وقد بلغ الالتزام بالأمر النَّبويِّ في الهجر التَّربويِّ ذروته حين أمر رسولُ الله ﷺ الثلاثة الَّذين خُلِّفوا باعتزال زوجاتهم حتَّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً ، فالتزم الجميع بذلك ، واستأذنت زوج هلال بن أميَّة ـ وكان شيخاً طاعناً في السِّنِّ لا يجد من يخدمه ـ فطلبت من الرَّسول ﷺ أن يأذن لها أن تخدمَـه ، فأذن لها النَّبيُّ ﷺ بذلك شريطة ألا يقربها ، فالتزمتْ رضي الله عنها[2] .

٥ ـ الولاء التَّامُّ لله ورسوله ﷺ :

كان العدوُّ الصَّليبيُّ يراقب ، ويرصد ، ويستغلُّ الفرصة السَّانحة لكي يمزِّق الجبهة الدَّاخلية ، ويشعل نار الفتنة بين المسلمين ، ليوهن البنيان ، ويقوِّض الأركان ، ولذلك استغلَّ ملكُ غسَّان فرصة هجران المسلمين لكعب بن مالكٍ رضي الله عنه ، وعقوبة رسول الله ﷺ له بأن يرسل سفيره لكعب برسالةٍ خاصَّةٍ منه إليه يُغريه فيها . تأمَّل قوله : قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوانٍ ، ولا مَضْيَعَة ، فالْحَقْ بنا ، نواسِك . [سبق تخريجه] ، فكان تعليق كعب على هذه الرِّسالة : وهذا من البلاء أيضاً! قد بلغ منِّي ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجالٌ من أهل الشِّرك! ثمَّ أحرق الرِّسالة[3] .

وهذا الموقف يدلُّ على شدَّة ولاء كعبٍ لله ، ورسوله ﷺ وقوَّة إيمانه ، وعظمة نفسه ، فقد أدرك أنَّها محنةٌ جديدةٌ أقسى من الأولى ، فلا يرضيه أن يجيب ملك غسان بالسَّلب ، أو يرمي بالكتاب ، ويمزِّقه ، ولكنَّه رمى به في التَّنور ، ليصير رماداً ، ويصير كلُّ ما به دخاناً يتبدَّد في الهواء ، وخرج الرَّجل من محنته ، وهو أقوى ما يكون إيماناً ، وأصفى ما يكون روحاً ، وأكرم ما يكون أخلاقاً ، فيا لعظمة هذه النُّفوس المؤمنة الكبيرة![4] لقد مرَّ كعبٌ من فوق هذا الاختبار ، والابتلاء عزيزاً ، قويّاً بإسلامه ، لم يتأثَّر به ، ولا انزلق فيه[5] .

٦ ـ توبة الله على العبد قِيمَةٌ دينيَّةٌ يتطلَّع إليها الصَّادقون :

عندما نزلت الآيات الكريمة الَّتي بيَّنت توبة الله على هؤلاء الثَّلاثة ؛ كان ذلك اليوم من الأيام العظيمة عند المسلمين ، ظهرت فيه الفرحة على وجه رسول الله ﷺ ؛ حتَّى استنار كأنَّه قطعة قمرٍ ، وظهرت الفرحة على وجوه الصَّحابة رضي الله عنهم؛ حتَّى صاروا يتلقَّون كعباً ،

---

(١) انظر : التَّاريخ الإسلاميّ (٨/ ١٤٠).
(٢) انظر : الصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ١٩٦ .
(٣) المغازي (٣/ ١٠٥١ ـ ١٠٥٢).
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥١٧).
(٥) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٠٧ .

وصاحبيه أفواجاً ، يهنِّئونهم بما تفضل الله به عليهم من التَّوبة ، وجاء كعبٌ إلى النَّبيِّ ﷺ ووجهه يَبْرُق من السُّرور ، فقال ﷺ له: «أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك!». وهذا يعني مقام التَّوبة ، وأنَّها أعظم من الدُّخول في الإسلام.

إنَّ التَّوبة تعني عودة العبد إلى الدُّخول تحت رضوان الله تعالى الَّذي هو أعلى هدفٍ ينشده المسلم ، وبالتَّالي فإنَّه يحظى بحفظه جلَّ وعلا في الدُّنيا ، وتكريمه في الآخرة ، لقد كانت توبة كعبٍ عظيمةً ، عبَّر عنها بنزع ثوبيه ـ اللَّذين لا يملك يومئذٍ غيرهما ـ وإهدائهما لِمَنْ بشَّره[١] ، وعدم نسيان كعبٍ لطلحة بن عبيد الله مصافحته ، وتهنئته له[٢] ، وكذلك كانت فرحةُ صاحبيه عظيمةً؛ غير أنَّ كعباً رضي الله عنه لم يذكر في هذا الخبر إلا ما جرى له[٣] ، وقد جاء في رواية الواقديِّ: وكان الَّذي بشَّر هلال بن أميَّة بتوبته سعيدُ بن زيدٍ ، قال: وخرجت إلى بني واقفٍ ، فبشرته ، فسجد ، قال سعيد: فما ظننته يرفع رأسه حتَّى تخرج نَفْسُه[٤].

٧ ـ تشرع أنواعٌ من العبادات شكراً لله عند النِّعمة:

كانت فرحة كعب بن مالكٍ بتوبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عليه لا تحدُّها حدودٌ ، ولا تصوِّرها مثل ، وقد تفنَّن هو رضي الله عنه في التَّعبير عنها بجملةٍ من العبادات ، منها:

أ ـ سجود الشُّكر:

حينما سمع كعبٌ البشارة بتوبة الله عليه؛ خرَّ ساجداً من فوره شكراً لله ـ تبارك وتعالى ـ فقد كان من عادة الصَّحابة رضي الله عنهم أن يسجدوا شكراً لله تعالى كلَّما تجدَّدت لهم نعمةٌ ، أو انصرفت عنهم نِقْمَةٌ ، وقد تعلَّموا ذلك من رسول الله ﷺ[٥].

ب ـ مكافأة الَّذي يحمل البُشرى:

فقد نزع كعب ثوبيه اللَّذين كان يلبَسُهما ، فكساهما الَّذي سمع صوته بالبشرى ، وما كان يملك وقتئذٍ غيرهما ، ثمَّ استعار ثوبين ، فلبسهما ، ولاشكَّ أنَّ هذا ضربٌ من الهبة المشروعة ، فإن كان المبشِّر غنيّاً ، كان له هديةً ، وإن كان فقيراً؛ كان له صدقةً ، وكلاهما إخراج المال شكراً لله تعالى على إنزاله الفرج[٦].

---

(١) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٤١).
(٢) انظر: السيرة النبوية ، لأبي شهبة (٢/٥١٨).
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٤٢).
(٤) المغازي للواقدي (٣/ ١٠٥٤).
(٥) انظر: صور وعبر من الجهاد النَّبوي ، ص ٤٩٣.
(٦) صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٩٣ ، والصِّراع مع الصَّليبيِّين ، ص ٢٠٢.

ج ـ التَّصدُّق بالمال :

فقد جعل كعبٌ رضي الله عنه من توبته أن ينخلع من ماله صدقةً لله تعالى ، لكنَّه ﷺ وجَّهه إلى عدم التَّصدُّق بجميع ماله ، وقال له : «أمسك عليك بعض مالك ، فهو خيرٌ لك» ، وكأنَّه يستشيره بذلك ، فكانت المشورة بإمساك بعض ماله[1] ، وقد ثار الخلاف الفقهيُّ فيمن نذر التَّصدُّق بجميع ماله ، والصَّدقة مستحبَّة ، والنَّذر واجبُ الوفاء ، ولم يذهب كعب إلى النَّذر ، وإنَّما استشار في الصَّدقة بكلِّ المال ، فأشار رسول الله ﷺ عليه بإمساك بعض ماله .

* * *

(١) انظر : صور وعبر من الجهاد النَّبويِّ ، ص ٤٩٣ .

المبحث الخامس
دروسٌ ، وعبرٌ ، وفوائد

أولاً : معالمُ من المنهج القرآنيِّ في الحديث عن غزوة تبوك :

إنَّ الآيات الَّتي أنزلها الله في كتابه المتعلِّقة بغزوة العُسْرَة هي أطول ما نزل في قتالٍ بين المسلمين ، وخصومهم ، وقد بدأت باستنهاض الهمم لردِّ هجوم المسيحيَّة ، وإشعارهم بأنَّ الله لا يقبل ذرَّة تفريطٍ في حماية دينه ، ونصرة نبيِّه ﷺ ، وإنَّ التراجع أمام الصُّعوبات الحائلة دون قتال الرُّوم ـ يعتبر مزلقةً إلى الردَّة والنِّفاق[1] ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة : ٣٨ ـ ٣٩] .

وعند التَّأمُّل في سورة التَّوبة يلاحظ القارئ : أنَّ لها معالمَ في عرضها لغزوة تبوك ، منها :

١ ـ عاتب القرآن الكريم مَنْ تخلَّف عتاباً شديداً ، وتميَّزت غزوة تبوك عن سائر الغزوات بأنَّ الله حثَّ على الخروج فيها ، وعاتب مَنْ تخلَّف عنها ، والآيات الكريمة جاءت بذلك كقوله تعالى : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٤١] .

وقد خُتِمَتِ الغزوات النَّبويَّةُ بهذه الغزوة ، وقد كان تطبيقاً عمليّاً لوضع النَّصِّ القرآني في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ . . . ﴾ موضع التَّنفيذ[2] .

٢ ـ ميَّز القرآن الكريم هذه الغزوة عن غيرها ، فسمَّاها الله تعالى ساعة العسرة ، قال تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ ، فقد كانت غزوة عسرةٍ بكلِّ معنى الكلمة .

---

(١) انظر : فقه السِّيرة ، للغزاليِّ ، ص ٤٠٤ .
(٢) انظر : حديث القرآن الكريم (٢/ ٧٠٢) .

٣ ـ من معالم منهج القرآن في عرضه لهذه الغزوة العظيمة: أنَّ الله ردَّ على المنافقين لَمْزَهُمْ فقراء الصَّحابة عندما جاء أحدُهم بنصف صاع، وتصدَّق به، فقالوا: إن الله لغنيٌّ عن صدقة هذا، وما فعل هذا إلا رياءً، فنزلت الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

٤ ـ بيَّن القرآن الكريم: أنَّ المؤمنين الَّذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ـ وعددُهم يزيد عن الثَّلاثين ألفاً ـ قد كتب الله لهم الأجر العظيم[١]. قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [التوبة: ٨٨]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ وَلَا مَخۡمَصَةٞ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ثانياً: ممارسة الشُّورى في هذه الغزوة:

مارس رسول الله ﷺ في هذه الغزوة الشُّورى، وَقَبِلَ مشورة الصِّدِّيق، والفاروق في بعض النَّوازل الَّتي حدثت في الغزوة، ومن هذه النَّوازل:

أ ـ قبول مشورة أبي بكر الصِّدِّيق في الدُّعاء حين تعرَّض الجيش لعطشٍ شديدٍ:

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: خرجنا إلى تبوك في قَيْظٍ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطشٌ، حتَّى ظننَّا: أنَّ رقابنا ستنقطع؛ حتَّى إنَّ الرَّجل لينحر بعيره، فيعتصر فَرْثَه، فيشربه، ثمَّ يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصِّديق: يا رسول الله! إنَّ الله عوَّدك في الدعاء خيراً، فادعُ الله، قال: «أتحبُّ ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه، فلم يردَّهما حتَّى حالت السَّماء، فأظلَّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر. [البزار (١٨٤١)، وابن حبان (١٣٨٣)، والبيهقي في الدلائل (٥/ ٢٣١)، والحاكم (١/ ١٥٩) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ١٩٤ ـ ١٩٥)].

ب ـ قبول مشورة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في ترك نحر الإبل حين أصابت الجيش مجاعةٌ:

أصابت جيشَ العُسرة مجاعةٌ أثناء سيرهم إلى تبوك، فاستأذنوا النَّبيَّ ﷺ في نحر إبلهم حتَّى يسدُّوا جَوْعَتَهُم، فلمَّا أذن لهم النَّبيُّ ﷺ في ذلك؛ جاءه عمر رضي الله عنه فأبدى مشورته في

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٧٠٣).

هذه المسألة، وهي: أنَّ الجند إن فعلوا ذلك نفدت رواحلُهم، وهم أحوج ما يكونون إليها في هذا الطَّريق الطَّويل، ثمَّ ذكر رضي الله عنه حلاً لهذه المعضلة، وهو: جمع أزواد القوم، ثمَّ الدعاء لهم بالبركة فيها، فعمل ﷺ بهذه المشورة حتَّى صدر القوم عن بقيَّةٍ من هذا الطعام، بعد أن ملؤوا أوعيتهم منه، وأكلوا حتَّى شبعوا. [سبق تخريجه][1].

٣ـ قبول مشورة عمر رضي الله عنه في ترك اجتياز حدود الشَّام، والعودة إلى المدينة:

عندما وصل النَّبيُّ ﷺ إلى منطقة تبوك، وجد أنَّ الرُّوم فرُّوا خوفاً من جيش المسلمين، فاستشار أصحابه في اجتياز حدود الشَّام، فأشار عليه عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة، وعلَّل رأيه بقوله: إنَّ للروم جموعاً كثيرةً، وليس بها أحدٌ من أهل الإسلام. ولقد كانت مشورة مباركةً، فإنَّ القتال داخل بلاد الرُّومان يعدُّ أمراً صعباً؛ إذ إنَّه يتطلَّب تكتيكاً خاصّاً؛ لأنَّ الحرب في الصَّحراء تختلف في طبيعتها عن الحرب في المدن، بالإضافة إلى أنَّ عدد الرُّومان في الشَّام يقرب من مئتين وخمسين ألفاً، ولاشكَّ في أنَّ تجمُّع هذا العدد الكبير في تحصُّنه داخل المدن يعرِّض جيش المسلمين للخطر[1].

إنَّ ممارسة الشُّورى في حياة الأمَّة في جميع شؤونها؛ السِّياسيَّة والعسكريَّة والاجتماعيَّة، منهجٌ تربويٌّ كريمٌ، سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته.

ثالثاً: التَّدريب العمليُّ العنيف:

كان خروج الرَّسول ﷺ إلى تبوك بأصحابه فيه فوائدُ كثيرةٌ، منها: تدريبهم تدريباً عنيفاً، فقطع بهم ﷺ مسافةً طويلةً في ظروفٍ جويَّةٍ صعبةٍ، حيث كانت حرارة الصَّيف اللاهب، بالإضافة إلى الظُّروف المعيشيَّة الَّتي كانوا يعانون منها، فقد كان هناك قلَّةٌ في الماء، حتَّى كادوا يهلكون من شدَّة العطش، وأيضاً كان هناك قلَّةٌ في الزَّاد، والظَّهْر، ولاشكَّ في أنَّ هذه الأمور تعدُّ تدريباً عنيفاً؛ لا يتحمَّله إلا الأقوياء من الرِّجال.

وفي هذا الدَّرس يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «تعمل الجيوش الحديثة على تدريب جنودها تدريباً عنيفاً كاجتياز مواقع، وعراقيل صعبةٍ جدّاً، وقطع مسافاتٍ طويلةٍ في ظروفٍ جوِّيَّةٍ مختلفةٍ، وحرمانٍ من الطَّعام، والماء بعض الوقت، وذلك لإعداد هؤلاء الجنود لتحمُّل أصعب المواقف المحتمل مصادفتها في الحرب، ولقد تحمَّل جيش العُسرَة مشقاتٍ لا تقلُّ صعوبةً عن مشقات هذا التَّدريب العنيف، إن لم تكن أصعب منها بكثيرٍ، لقد تركوا المدينة في موسم نضج ثمارها، وقطعوا مسافاتٍ طويلةً شاقَّةً في صحراء الجزيرة العربيَّة صيفاً، وتحمَّلوا الجوع، والعطش مدَّةً طويلةً.

---

(١) انظر: غزوة تبوك، لباشميل، ص ١٧٦، ١٧٧.

إن غزوة تبوك تدريبٌ عنيفٌ للمسلمين ، كان غرض الرَّسول ﷺ منه إعدادهم لتحمُّل رسالة حماية حرِّية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربيَّة ، فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرَّسول ﷺ ، فلابدَّ من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرَّفيق الأعلى»[1] .

وقد ساعد هذا التَّدريب العمليُّ الصَّحابةَ في عصر الخلفاء ، فقاموا بفتح بلاد الشَّام ، وبلاد الفرس بقوَّة إيمانهم ، وثقتهم بخالقهم ، وساعدهم على ذلك لياقتُهم البدنيَّة العالية ، ومعرفتُهم العمليَّة لاستخدام السُّيوف والرِّماح ، وأنواع الأسلحة في زمانهم .

رابعاً: أهم نتائج الغزوة:

يمكن للباحث أن يلاحظ أهمَّ نتائج هذه الغزوة ، وهي :

١ ـ إسقاط هيبة الرُّوم من نفوس العرب جميعاً: مسلِمِهم ، وكافرِهم على السَّواء؛ لأن قوَّة الرُّوم كانت في حسِّ العرب لا تُقاوَم ، ولا تُغْلَب ، ومن ثمَّ فقد فزعوا من ذكر الرُّوم ، وغزوهم ، ولعلَّ الهزيمة الَّتي لحقت بالمسلمين في غزوة (مؤتة) كانت مؤكِّدةً على ما ترسَّخ في ذهن العربيِّ في جاهليته من أنَّ الرُّوم قوَّةٌ لا تُقهر ، فكان لابدَّ من هذا النَّفير العامِّ لإزاحة هذه الهزيمة النَّفسيَّة من نفوس العرب .

٢ ـ إظهار قوَّة الدَّولة الإسلامية كقوَّةٍ وحيدةٍ في المنطقة ، قادرةٍ على تحدِّي القِوى العظمى عالميّاً ـ حينذاك ـ ليس بدافعٍ عصبيٍّ ، أو عرقيٍّ ، أو تحقيق أطماع زعاماتٍ معاصرةٍ ، وإنَّما بدافعٍ تحريريٍّ ، حيث تدعو الإنسانيَّة إلى تحرير نفسها من عبودية العباد إلى عبوديَّة ربِّ العباد ، ولقد حقَّقت هذه الغزوة الغرض المرجوَّ منها بالرَّغم من عدم الاشتباك الحربيِّ مع الرُّوم ، الَّذين آثروا الفرار شمالاً ، فحقَّقوا انتصاراً للمسلمين دون قتالٍ ، حيث أخلوا مواقعهم للدَّولة الإسلاميَّة ، وترتَّب على ذلك خضوعُ النَّصرانيَّة الَّتي كانت تمتُّ بصلة الولاء لدولة الرُّوم مثل إمارة دومة الجندل ، وإمارة أيْلة «مدينة العقبة حالياً على خليج العقبة» وكتب رسول الله ﷺ بينه وبينهم كتاباً يحدِّد ما لهم ، وما عليهم[2] ، وأصبحت القبائل العربيَّة الشَّاميَّة الأخرى الَّتي لم تخضع للسَّيطرة الإسلاميَّة في تبوك تتعرَّض بشدَّة للتأثير الإسلاميِّ ، وبدأ الكثير من هذه القبائل يراجع موقفه ، ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدَّولة البيزنطيَّة ، أو تحويل هذا الولاء إلى الدَّولة الإسلاميَّة الناشئة ، ويعدُّ ما حدث في تبوك نقطةَ البداية العمليَّة للفتح الإسلاميِّ لبلاد الشَّام[3] ، وإن كانت هناك محاولاتٌ قبلها ، ولكنَّها لم تكن في قوَّة التأثير

---

(١) انظر : الرَّسول القائد ﷺ ، ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) انظر : دراسات في عهد النُّبوة والخلافة الرَّاشدة ، للشُّجاع ، ص ٢٠٩ .

(٣) انظر : المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة ، لعبد الرَّحمن أحمد ، ص ١٢٠ .

كغزوة تبوك ، فقد كانت هذه الغزوة بمثابة المؤشر لبداية عملياتٍ متواصلةٍ لفتح البلدان ، والَّتي واصلها خلفاء رسول الله ﷺ من بعده ، وممَّا يؤكِّد هذا: أنَّ الرَّسول ﷺ قبل موته جهَّز جيشاً بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة ليكون رأس حربةٍ موجَّهةٍ صوب الرُّوم ، وطليعةً لجيش الفتح ، وضمَّ هذا الجيش جُلَّ صحابة رسول الله ﷺ ، ولكنَّه لم يقم بمهمَّته إلا بعد وفاته ﷺ ، ومع هذا فقد حقَّق الهدف المطلوب منه ، كما سيأتي[(١)] بإذن الله عند الحديث عن سيرة الصِّدِّيق رضي الله عنه .

لقد وضع رسول الله ﷺ الأسس الأولى ، والخطوات المثلى لفتح بلاد الشَّام ، والفتوحات الإسلاميَّة .

٣ ـ توحيد الجزيرة العربيَّة تحت حكم الرَّسول ﷺ : تأثَّر موقف القبائل العربيَّة من الرَّسول ﷺ والدَّعوة الإسلاميَّة بمؤثِّراتٍ متداخلةٍ ، كفتح مكَّةَ ، وخيبر ، وغزوة تبوك ، فبادر كلُّ قومٍ بإسلامهم بعدما امتدَّ سلطان المسلمين إلى خطوط التَّماسِّ مع الرُّوم ، ثُمَّ مصالحة نجران في الأطراف الجنوبيَّة على أن يدفعوا الجزية ، فلم يَعُدْ أمام القبائل العربيَّة إلا المبادرة الشَّاملة إلى اعتناق الإسلام ، والالتحاق بركب النُّبوَّة بالسَّمع ، والطَّاعة ، ونظراً لكثرة وفود القبائل العربيَّة الَّتي قدمت إلى المدينة من أنحاء الجزيرة العربيَّة بعد عودة النَّبيِّ ﷺ من غزوة تبوك ؛ لتعلن إسلامها هي ، ومن وراءها ، فقد سُمِّيَ العامُ التَّاسع للهجرة في المصادر الإسلاميَّة بـ (عام الوفود)[(٢)] .

وبهذه الغزوة المباركة ينتهي الحديث عن غزوات النَّبيِّ ﷺ الَّتي قادها بنفسه ، فقد كانت حياته المباركة ﷺ غنيَّةً بالدُّروس ، والعبر ، الَّتي تتربَّى عليها أمَّته في أجيالها المقبلة، ومليئةً بالدُّروس، والعبر في تربية الأمَّة ، وإقامة الدَّولة الَّتي تحكم بشرع الله .

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر : دراسات في عهد النُّبوة ، للشجاع ، ص ٢٠٩ .
(٢) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٥ ، ٣٩٦).

المبحث السَّادس
أهمُّ الأحداث ما بين غزوة تبوك وحجَّة الوداع[(١)]

أولاً : وفد ثقيفٍ وإسلامُهم :

لمَّا انصرف الرَّسول ﷺ عن الطَّائف اتَّبع أثره عروة بن مسعود الثَّقفي حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة ، فأسلم ، ورجع إلى قومه ، فدعاهم إلى الإسلام ، فرموه بالنَّبل ، فأصابه سهم فقتله ، ثمَّ إنَّهم رأوا : أنَّه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب الَّذين أسلموا ، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله ﷺ ، فقدم عليه ستَّةٌ منهم ، في رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تِسْعٍ[(٢)] .

وكان الوفد يتكوَّن من ستَّةٍ من كبار بني مالك ، والأحلاف ، ثلاثةٌ لكلٍّ منهما ، وعلى رأسهم جميعاً عبدُ يَالَيْلَ بن عمرو[(٣)] ، وتكوين هذا الوفد على هذا النَّحو يدلُّ على فكرٍ سياسيٍّ عميق ؛ ذلك لأنَّ ثقيف تأمل في أن يتدخل المهاجرون من بني أميَّة للتوسُّط في إقرار الصُّلح مع الرَّسول ﷺ بسبب علاقة بني أميَّة التَّاريخيَّة بالأحلاف[(٤)] .

كان الصَّحابة يعرفون اهتمام الرَّسول ﷺ بإسلام ثقيفٍ ، ولذلك ما إن ظهر وفد ثقيف قرب المدينة ؛ حتَّى تنافس كلٌّ من أبي بكرٍ ، والمغيرة على أن يكون هو البشير بقدوم الوفد للرَّسول ﷺ ، وتنازل المغيرةُ لأبي بكرٍ[(٥)] .

واستقبل الرَّسول ﷺ الوفد راضياً ، وبنى لهم خياماً لكي يسمعوا القرآن ، ويروا النَّاس إذا صلَّوا ، وكانت ضيافتهم على رسول الله ﷺ ، وكانوا يفدون على رسول الله ﷺ كلَّ يومٍ ، ويخلِّفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم ، فكان عثمان كلما رجعوا ، وقالُوا بالهاجرة ، عمد إلى رسول الله ﷺ فسأله عن الدِّين ، واستقرأه القرآن ، حتى فقه في الدِّين ، وعلم ، وكان

---

(١) ينظر الشكل (٢١) في الصفحة (٦٢٥) .
(٢) انظر : رسالة الأنبياء ، لعمر أحمد عمر ، ص ١٩٩ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٩٣/٤) .
(٤) انظر : رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة ، د . حسين محمد ، ص ٧٦ .
(٥) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (١٩٣/٤) .

إذا وجد رسول الله ﷺ نائماً عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ، وعجب منه، وأحبَّه[١].

ومكث الوفد أياماً يختلفون إلى النَّبيِّ ﷺ، والنَّبيُّ ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، فقال له عبد يَالَيْلَ: هل أنت مقاضينا حتَّى نرجع إلى أهلنا، وقومنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام؛ قاضيتكم، وإلا فلا قضيَّة، ولا صلح بيني وبينكم».

قال عبدُ يَالَيْلَ: أرأيت الزِّنى؟ فإنَّا قوم عُزَّاب بغَرْبٍ[٢] لابدَّ لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العُزْبة، قال: «هو ممَّا حرَّم الله على المسلمين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]».

قال: أرأيت الرِّبا؟ قال: «الرِّبا حرام!» قال: فإنَّ أموالنا كلَّها رباً، قال: «لكم رؤوس أموالكم، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]».

قال: أفرأيت الخمر؟ فإنَّها عصيرُ أعنابنا، لابدَّ لنا منها.

قال: «فإنَّ الله قد حرَّمها!» ثمَّ تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

فارتفع القوم، وخلا بعضهم ببعض، فقال عبدُ يَالَيْلَ: ويحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثَّلاث! والله لا تصبر ثقيفٌ عن الخمر أبداً، ولا عن الزنى أبداً.

قال سفيان بن عبد الله: أيُّها الرَّجل! إنْ يرد الله بها خيراً تصبر عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا، فصبروا، وتركوا ما كانوا عليه، مع أنَّا نخاف هذا الرجل، قد أوطَأ الأرض غلبةً، ونحن في حصنٍ في ناحية من الأرض، والإسلام حولنا فاشٍ، والله! لو قام على حصننا شهراً لمتنا جوعاً، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يوماً مثل يوم مكَّة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتَّى كتبوا الكتاب، وكان خالد هو الَّذي كتبه، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم الطَّعام، فلا يأكلون منه شيئاً حتَّى يأكل منه رسول الله ﷺ؛ حتَّى أسلموا.

قالوا: أرأيت الرَّبَّة، ما ترى فيها؟ قال: «هَدْمَها».

---

(١) انظر: تاريخ الإسلام، للذَّهبي، والمغازي، للواقديِّ، ص ٦٧٠.
(٢) أي: نذهب إلى بلادٍ بعيدةٍ.

قالوا: هيهات! لو تعلم الرَّبَّة أنَّا أوضعنا هدمها[١] قتلت أهلنا. قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل! إنَّ الرَّبَّة حجرٌ لا يدري مَنْ عَبَدَهُ ممَّن لا يعبدُه.

قال عبد ياليل: إنَّا لم نأتك يا عمر! فأسلموا، وكمل الصُّلح، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد، فلمَّا كمُل الصُّلح، وكتبوه؛ كلَّموا النَّبيَّ ﷺ يدع الرَّبَّة ثلاث سنين، لا يهدُمها، فأبى، قالوا: سنتين! فأبى، قالوا: سنة! فأبى، قالوا: شهراً واحداً! فأبى أن يوقِّت لهم وقتاً، وإنَّما يريدون بترك الرَّبة لما يخافون من سفهائهم، والنِّساء، والصِّبيان، وكرهوا أن يُرَوِّعوا قومهم بهدمها، فسألوا النَّبيَّ ﷺ أن يعفيهم من هدمها[٢]، فوافق رسول الله ﷺ على طلبهم ذلك، وسألوا النَّبيَّ ﷺ أن يعفيهم من الصَّلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين لا صلاة فيه» [أحمد (٤/٢١٨)، وأبو داود (٣٠٢٦)، والطيالسي (٩٣٩)، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٩٩ ـ ٣٠١)][٣].

لقد طلب وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله ﷺ من بعض الفرائض، وأن يحلِّل لهم بعض المحرَّمات، إلا أنَّهم فشلوا في طلباتهم، وخضعوا للأمر الواقع[٤].

وقد أكرم رسول الله ﷺ وِفَادَتَهُم، وأحسن ضيافتهم في قدومهم، وإقامتهم وعند سفرهم، وأمَّرَ ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطَّائف، فقد كان أحرصَهم على تعلُّم القرآن، والتَّفقُّه في الدِّين، وكان أصغرهم سنّاً[٥]. ولقد تأثَّر الوفد من معاملة النَّبيِّ ﷺ، ومن اختلاطهم بالمسلمين، حتَّى إنَّهم صاموا ما بقي عليهم من شهر، ومكثوا في المدينة خمسة عشر يوماً، ثمَّ رجعوا إلى الطَّائف[٦]، وبعد رجوعهم جهَّز رسول الله ﷺ سريَّةً بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه، ومشاركة المغيرة بن شعبة[٧] رضي الله عنه، وأبي سفيان بن حرب رضي الله عنه[٤] وبعثهم في أثر الوفد[٨].

وبينما نجحت مساعي الوفد في إقناع ثقيف بالدُّخول في الإسلام، وأخبروهم بمصير اللَّات، وإذا بالسَّريَّة قد وصلت إلى الطَّائف، ودخل المغيرة بن شعبة في بضعة عشر رجلاً

---

(١) أي: أسرعنا السَّير في السَّفر.
(٢) انظر: المغازي، للواقدي (٣/٩٦٨)، والبداية والنهاية، لابن كثير.
(٣) انظر: التَّاريخ الإسلاميِّ، للحميديِّ (٨/٥٠)، والمغازي، للواقديِّ (٣/٩٦٨)، والسِّيرة، لابن هشام، والمبسوط، للسَّرخسي.
(٤) انظر: المجتمع المدني في عهد النُّبوة، ص ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣.
(٥) انظر: السِّيرة النبوية الصحيحة (٢/٥١٩).
(٦) المصدر السابق نفسه (٢/٥١٩، ٥٢٠).
(٧) انظر: السِّيرة النَّبوية، لابن هشام (٤/١٩٥).
(٨) انظر: دلائل النُّبوَّة، للبيهقيِّ (٥/٣٠٣ ـ ٣٠٤).

يهدمون الرَّبَّة[١]، وكان ذلك تحت حراسةٍ مشدَّدةٍ من قومه بني مَعَتِّب الَّذين قاموا دونه؛ خشية أن يُرمى، أو يُصاب كما أصيب عروة بن مسعود[٢]، وخرجت ثقيف عن بكرة أبيها؛ رجالها، ونساؤها، وصبيانها حتَّى الأبكار من خدورهنَّ، وكانوا لقرب عهدهم بالشِّرك لا ترى عامَّة ثقيف أنَّها مهدومة، ويظنُّون أنَّها ممتنعة[٣].

وكان المغيرة رجلاً فيه دعابةٌ، وظرفٌ، فقال لأصحابه: والله لأضحكنَّكُم من ثقيف، فضرب بالفأس، ثمَّ سقط يركض، فارتج أهل الطَّائف بصيحةٍ واحدةٍ، وقالوا: أبعد الله المغيرة، فقد قتلته الرَّبَّة، وفرحوا حين رأوه ساقطاً[٤]، وقالوا مخاطبين أفراد السَّريَّة: مَنْ شاء منكم فليقترب، وليجتهد على هدمها، فوالله! لا تستطاع أبداً، فوثب المغيرة بن شعبة، وقال: قبَّحكم الله يا معشر ثقيف! إنَّما هي لُكاع[٥]؛ حجارةٌ ومَدَرٌ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه[٦].

أكمل المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ومن معه هدم الطَّاغية حتَّى سوَّوها بالأرض، وكان سادنها واقفاً على أحرٍّ من الجمر؛ ينتظر نقمة الرَّبَّة، وغضبها على هؤلاء العُصاة[٧]، فما إن وصلوا إلى أساسها حتَّى صاح قائلاً: سترون إذا انتهى أساسها، يغضب الأساس غضباً يخسف بهم[٨]، فلمَّا سمع المغيرة رضي الله عنه بذلك السُّخف قال لقائد السَّريَّة: دعني أحفر أساسها، فحفره حتَّى أخرجوا ترابها، وانتزعوا حُلِيَّها، وأخذوا ثيابها، فَبهِتَتْ ثقيفٌ[٩]، وأدركت الواقع الذي كانت تحجبه غشاوةٌ على أعينهم[١٠].

وأقبل الوفد حتَّى دخلوا على رسول الله ﷺ بحليِّها، وكسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من

---

(١) المغازي (٣/ ٦٧١).
(٢) انظر: دلائل النُّبوَّة (٥/ ٣٠٤).
(٣) انظر: السَّرايا والبعوث، ص ٣٠٠، والبداية والنِّهاية، لابن كثير، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان من سنة تسع من الهجرة).
(٤) انظر: السَّرايا والبعوث، ص ٣٠٠، والبداية والنهاية لابن كثير، باب (قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان من سنة تسع من الهجرة).
(٥) لكاع عند العرب: العبد، ثم استعمل في الحمق، والذَّم.
(٦) البداية والنِّهاية لابن كثير (قدوم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ في رمضان من سنة تسع من الهجرة)، ودلائل النُّبوة (٥/ ٣٠٣).
(٧) انظر: السَّرايا والبعوث، ص ٣٠٠.
(٨) انظر: المغازي (٣/ ٩٧٢)، والبداية والنِّهاية لابن كثير.
(٩) انظر: دلائل النُّبوة (٥/ ٣٠٣)، والبداية والنِّهاية لابن كثير.
(١٠) انظر: السَّرايا والبعوث، ص ٣٠١، والبداية والنهاية لابن كثير.

يومه ، وحمدوا الله على نصرة نبيِّه ، وإعزاز دينه[١] .

وتمَّ القضاء على ثاني أكبر طواغيت الشِّرك في الجزيرة العربيَّة ، وحلَّ محلَّها بيتٌ من بيوت الله ـ عزَّ وجل ـ يوحَّد فيه الرَّبُّ الَّذي لا إلٰه إلا هو ، وذلك بتوجيهٍ كريمٍ من رسول الله ﷺ إلى عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه[٢] عامله على الطَّائف حيث أمره «بأن يجعل مسجد الطَّائف حيث كان طاغيتهم» [أبو داود (٤٥٠) ، وابن ماجه (٧٤٣)] .

ثانياً : وفاة زعيم المنافقين (عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول) :

مرض عبد الله بن أبيٍّ بن سلول ، رأسُ المنافقين ، في ليالٍ بَقِين من شوَّال ، ومات في ذي القعدة من السَّنة التاسعة[٣] .

قال أسامة بن زيد : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبيٍّ في مرضه نعوده ، فقال له النَّبيُّ ﷺ : قد كنت أنهاك عن حبِّ يهود ، فقال عبد الله : فقد أبغضهُم سعد بن زرارة ، فمات .

ولمَّا توفي عبد الله بن أبيٍّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه ، فأعطاه ، ثمَّ سأله أن يصلِّيَ عليه ، فقام رسول الله ﷺ ليصلِّي عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ! تصلِّي عليه ، وقد نهاك ربُّك أن تُصلي عليه ، فقال رسول الله ﷺ : إنَّما خيَّرني الله فقال : ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة : ٨٠] ، وسأزيده على السَّبعين ، قال : إنَّه منافق ، قال : فصلَّى عليه رسولُ الله ﷺ ، فأنزل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ آية : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة : ٨٤] . [البخاري (٤٦٧٠) ، ومسلم (٢٤٠٠)] .

وإنَّما صلَّى عليه رسولُ الله ﷺ إجراءً له على حكم الظَّاهر ، وهو الإسلام ، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله ـ وكان من خيار الصَّحابة ، وفضلائهم ـ وهو الذي عرض على النَّبيِّ ﷺ أن يقتل أباه لمَّا قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق ، كما بيَّنَّا ، ولما فيه من مصلحةٍ شرعيَّة ، وهو تأليف قلوب قومه ، وتابعيه ، فقد كان يدين له بالولاء فئةٌ كبيرةٌ من المنافقين ، فعسى أن يتأثَّروا ، ويرجعوا عن نفاقهم ، ويعتبروا ، ويخلصوا لله ، ولرسوله ، ولو لم يُجِبْ ابنه ، وترك الصَّلاة عليه قبل ورود النَّهي الصَّريح ، لكان سُبَّةً ، وعاراً على ابنه ، وقومه ، فالرَّسول

---

(١) انظر : تاريخ ابن شيبة (٢/ ٥٠٧) نقلاً عن السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١ .
(٢) انظر : السَّرايا والبعوث ، ص ٣٠١ .
(٣) انظر : تاريخ الإسلام ، للذَّهبي ، والمغازي ، للواقدي ، ص ٦٥٩ .

الكريم ﷺ اتَّبع أحسن الأمرين في السِّياسة ، إلى أن نُهيَ فانتهى[١] .

وأمَّا إعطاؤه ﷺ القميص ؛ فلأنَّ الضَّنَّ به يُخِلُّ بالكرم ، وقد كان مِنْ خُلُق رسول الله ﷺ ألاَّ يرد طالبَ حاجةٍ قطُّ ، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول ﷺ قميصه لما جيء به أسيراً يوم بدر ، وكان من خلق رسول الله ﷺ وآل بيته ردُّ الجميل بخير منه[٢] .

وبموت عبد الله بن سلول تراجعت حركة النِّفاق في المدينة ، حتَّى إنَّنا لم نجد لهم حضوراً بارزاً في العام العاشر للهجرة ، ولم يبقَ إلا العدد غير المعروف إلا لصاحب سر رسول الله ﷺ حُذيفة بن اليمان[٣] ، وكان عمر فيما بعد لا يصلِّي على جنازة مَنْ جَهِل حالَه حتَّى يصلِّي عليه حذيفة بن اليمان ؛ لأنَّه كان يعلم أعيان المنافقين ، وقد أخبره رسول الله ﷺ بهم[٤] .

كان العام التَّاسع حاسماً لحركة النفاق في المجتمع الإسلاميِّ ، فقد وصل النِّظام الإسلاميُّ إلى قوَّته ، ومن ثمَّ لابدَّ من تحديد إطار التَّعامل مع كلِّ القِوى بوضوح[٥] ، ولهذا عبَّر الإمام ابن القيِّم عن خطَّة الإسلام أمام المنافقين: «فإنَّه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم ، والحجَّة ، وأُمِر أن يُعرض عنهم ، ويُغلِظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونُهيَ أن يصلِّي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأُخبر: أنَّه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم»[٦] .

وجاءت هذه الخطَّة وفق النُّصوص القرآنيَّة الَّتي احتوتها سورة التَّوبة «براءة» «الفاضحة» حيث يستغرق الحديث عن المنافقين أكثر من نصف السُّورة ، فيفضح نواياهم ، وأعمالهم ، ووصف أحوالهم النَّفسيَّة والقلبيَّة ، وموقفهم في غزوة تبوك ، وقبلها ، وفي أثنائها ، وما تلاها ، وكشْف حقيقة حيلهم ، ومعاذيرهم في التَّخلُّف عن الجهاد ، وبثِّ الضعف ، والفتنة ، والفرقة في الصُّفوف ، وإيذاء رسول الله ﷺ بالقول ، والعمل[٧] .

ومن أهم الأحكام الَّتي برزت في هذه المرحلة ضدَّ المنافقين :

١ ـ عدم الصَّلاة على مَنْ مات منهم ، ودمغُهم بالكفر :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٣٣ ، ٥٣٤).
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٢١ ، ٦٢٢ ، والسِّيرة لأبي شهبة (٢/ ٥٣٤).
(٣) انظر: دراسات في عهد النُّبوة ، للشُّجاع ، ص ٢٢١ .
(٤) انظر: من معين السِّيرة النبوية ، ص ٤٦٤ .
(٥) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، ص ٢١٩ .
(٦) زاد المعاد (٢/ ٩١).
(٧) انظر: المنافقون ، لمحمد جميل غازي ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٤ ـ ٨٥].

٢ ـ تهديم مسجدهم الَّذي بنوه للإضرار بين المسلمين:

وهو مسجد الضِّرار، وقد تحدَّثت عنه فيما مضى بنوعٍ من التفصيل.

٣ ـ إصدار الأمر بمجاهدة المنافقين كمجاهدة الكافرين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]، وسواءٌ أكان الجهاد بالقتال، أم في المعاملة، والمواجهة، والكشف، والفضح، فإنَّ طريقة التَّعامل مع المنافقين بعد سورة براءة غير المعاملة قبلها.

٤ ـ الكشف عن صفاتهم وأعمالهم بوضوح:

كما جاء في سورة التَّوبة أيضاً، فهم الَّذين قالوا تثبيطاً للمسلمين: ﴿لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: ٨١]، وهم الَّذين يلمزون المطَّوِّعين في الصَّدقات، ويؤذون رسول الله ﷺ في القول، والفعل..... إلخ[١].

هذه معالم المنهج النَّبويِّ في التعامل مع حركة النِّفاق في المجتمع الإسلاميِّ في العام التَّاسع الهجريِّ.

ثالثاً: تخيير النَّبيِّ ﷺ لزوجاته (دروسٌ من بيوتات الرَّسول ﷺ):

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

وقد دلَّت الأحاديث الصَّحيحة على أن نزول هاتين الآيتين كان بعد اعتزال النَّبيِّ ﷺ لنسائه، بعد أن أقسم ألاَّ يدخل عليهنَّ شهراً، فاعتزلهن في مَشْرُبَةٍ له، وهي القصَّة المعروفة بقصَّة إيلائه[٢] من نسائه، وكان تاريخ نزول هذه الآيات في العام التاسع للهجرة[٣].

وأمَّا سبب نزولها، فهو طلب زوجاته ﷺ التَّوسعة عليهنَّ في النَّفقة، فقد أخرج مسلمٌ عن جابرٍ رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحدٍ منهم، قال: فأُذِن لأبي بكرٍ فدخل، ثمَّ أقبل عمر، فاستأذن، فأُذِن له، فوجد

(١) انظر: دراسات في عهد النُّبوة، للشُّجاع، ص ٢٢٠.
(٢) الإيلاء: الحلف، قضايا نساء النَّبي ﷺ والمؤمنات، ص ٥١.
(٣) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ ﷺ والمؤمنات، ص ٦٨.

النَّبيَّ ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً[(١)] ساكتاً ، قال: فقال: لأقولنَّ شيئاً أُضحك النَّبيَّ ﷺ ، فقال: يا رسول الله! لو رأيت بنتَ خارجةَ[(٢)] سألتني النَّفقة فقمتُ إليها ، فوجأت عنقَها[(٣)] ، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هنَّ حولي كما ترى يسألنني النَّفقة». فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها ، فقام عمر إلى حفصة يَجَأُ عنقها ، كلاهما يقول: أتسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده ، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده ، ثمَّ اعتزلهن شهراً ، أو تسعاً وعشرين ، ثمَّ نزلت عليه هذه الآية» [مسلم (١٤٧٨) ، وأحمد (٣/٣٢٨)].

كانت الحياة المعيشية في بيوت رسول الله ﷺ تجري على وتيرةٍ واحدةٍ ، بالرَّغم من إمكانية التَّوسُّع في بعض الأحيان، ونساء الرَّسول ﷺ من البشر ، يرغبن ما يرغب فيه النَّاس ، ويشتهين ما يشتهيه النَّاس[(٤)] ، فقد كانت مساكنهنَّ متواضعةً بسيطةً غاية البساطة ، فقد وصفها الدُّكتور أبو شهبة فقال: إنَّ الرَّسول ﷺ بنى حُجَراً حول مسجده الشَّريف؛ لتكون مساكن له ، ولأهله ، ولم تكن الحُجَرُ كبيوت الملوك ، والأكاسرة ، والقياصرة ، بل كانت بيوت مَنْ ترفَّع عن الدُّنيا، وزخرفها، وابتغى الدَّار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنيةً من اللَّبِن ، والطِّين ، وبعض الحجارة ، وسقوفها من جذوع النَّخل والجريد ، قريبة الفناء ، قصيرة البناء ، ينالها الغلام الفارع بيده.

قال الحسن البصريُّ ـ وكان غلاماً مع أمِّه خيرة مولاة أمِّ سلمة ـ: قد كنت أنالُ أطولَ سقف في حُجَرِ النَّبيِّ ﷺ بيدي ، وكان لكلِّ حُجْرَةٍ بابان: خارجيٌّ ، وداخليٌّ من المسجد؛ ليسهلَ دخولُ النَّبيِّ ﷺ إليه[(٥)].

وأمَّا الإضاءة: فلم يكن هناك مصباحٌ يستضاء به ، يدل على ذلك ما رواه البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها ، قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته ، فإذا سجد؛ غمزني ، فقبضت رجليَّ ، فإذا قام؛ بسطتُهما ، قالت: والبيوت يومئذٍ ليس فيها مصابيح. [البخاري (٣٨٢) ، ومسلم (٥١٢/ ٢٧٢)].

أمَّا الفراش ـ الَّذي يأوي إليه هذا النَّبيُّ عليه أفضل الصَّلاة وأتمُّ التَّسليم ـ فهو عبارة عن رُمالِ حصيرٍ ، ليس بينه وبينه فراشٌ ، قد أثر الرُّمال بجنبه ، متكئ على وسادةٍ مِنْ أَدَمٍ ، حشوها

---

(١) واجماً: هو الَّذي اشتدَّ حزنُه حتى أمسك عن الكلام.
(٢) بنت زيد ، امرأة عمر ، جميلة بنت ثابت ، نسبها عمر إلى أحد أجدادها.
(٣) فوجأت عنقها: بمعنى طعنت عنقها.
(٤) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٦٥.
(٥) البداية والنِّهاية ، لابن كثير ، فصل: (بناء الحجرات لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف) ، وانظر: السِّيرة النَّبوية في ضوء القرآن والسُّنَّة (٢/ ٣٥ ـ ٣٦).

ليفٌ. [البخاري (٦٤٥٦)، ومسلم (٢٠٨٢)]. فقد كانت معيشته ﷺ تدلُّ على الشدَّة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما أعلم النَّبيَّ ﷺ رأى رغيفاً مرقَّقاً[١] حتَّى لحق بالله، ولا رأى شاةً سميطاً[٢] بعينه قطُّ. [البخاري (٦٤٥٧)].

وعن عائشة؛ قالت: إنْ كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلَّةٍ في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نارٌ، فقال لها عروة بن الزُّبير: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التَّمر، والماء. [البخاري (٦٤٥٩)].

هذا؛ وقد فتح الله على المسلمين بعد خيبر، وفتح مكَّة، وغزوة تبوك، وقد قرأت زوجات النَّبي ﷺ آياتٍ في كتاب الله تبيح التَّمتُّع بنعم الله دون إسراف، فرغبن أن ينالهنّ حظٌّ من ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وحضَّ على أكل الطَّيبات من الرِّزق، قال سبحانه: ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

ودعا إلى التوسُّط في الإنفاق، والاعتدال فيه، فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، إلا أنَّ هناك جانباً آخر يتعلَّق به ﷺ، ونمطاً من المعيشة اختاره بتوجيهٍ من ربِّه عزَّ وجلَّ، فلم يلتفت لشيءٍ من هذا، كما أدَّبه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ولذلك جاءت آيات التَّخيير، فوقفت زوجاتُه ﷺ من قضيَّة التَّخيير موقفاً حاسماً لا تردُّد فيه، فإنَّهنَّ اخترن الله ورسولَه، والدَّار الآخرة، فقد كنَّ يطلبن منه ﷺ التَّوسعة في النَّفقة، وكن يدافعن عن ذلك ما استطعن، فلمَّا وصل الأمر إلى وضعهنَّ أمام خيارين: الحياة الدُّنيا، وزينتها، أو الله، ورسوله، والدَّار الآخرة؛ لم يتردَّدن لحظةً واحدةً في سلوك الخيار الثَّاني بل قلن جميعهنَّ بصوتٍ واحد: نريد الله، ورسولَه والدَّار الآخرة[٣].

---

(١) مرققاً: رقيقاً، ضدَّ الغليظ.
(٢) سميط: الذي أزيل شعره بالماء المسخَّن، وشوي.
(٣) انظر: قضايا نساء النَّبيِّ ﷺ والمؤمنات في سورة الأحزاب، ص ٧٧.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمَّا أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه؛ بدأ بي، فقال: «إنِّي ذاكرٌ لكِ أمراً، فلا عليك ألاَّ تعجلي حتَّى تستأمري أبويك»، قالت: وقد علم أنَّ أبويَّ لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثمَّ قال: «إنَّ الله جلَّ ثناؤه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩] قالت: فقلت: ففي أيِّ هذا أستأمر أبويَّ؟ فإنِّي أريد الله ورسولَه والدَّار الآخرة، قالت: ثمَّ فعل أزواجُ رسول الله ﷺ مثلَ ما فعلتُ. [البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٥٧)].

وهكذا تتجلَّى في موقفهنَّ رضي الله عنهنَّ صورةٌ ناصعةٌ لقوَّة الإيمان، واختبارٌ حقيقيٌّ للإخلاص، والصِّدق مع الله تعالى، فإنَّ قوله تعالى في الآية الأولى من آيتي التَّخيير: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ﴾، كالوعد بحصولهن على مبتغاهنَّ في الحياة الدُّنيا وزينتها ـ إن اخترن ذلك ـ ولكنَّهنَّ رفضن هذا، واخترن الله، ورسوله، والدَّار الآخرة. وفي قوله تعالى في الآية الثانية: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما يَنَلْنَه من الأجر سببه كونهنَّ محسناتٍ، ومن ذلك اختيارهنَّ الله، ورسوله، والدَّار الآخرة؛ إذ لا يكفي لحصولهنَّ على هذا الأجر كونهنَّ زوجاتٍ للرَّسول ﷺ[1].

وتنكير الأجر، ثمَّ وَصْفُه بأنه عظيم فيه ترغيبٌ لهنَّ بالكفِّ عن التطلُّع إلى الحياة الدُّنيا وزينتها، فهذا الأجر لا يقدِّر قدره إلا الله، وهو شاملٌ لخيري الدُّنيا والآخرة[2].

ولقد اعتبر الخلفاء الرَّاشدون قصَّة التَّخيير تلك مَعْلَماً من معالم الإسلام، ومنهجاً نبويّاً كريماً ينبغي أن يسلكه بيت القيادة في الأمَّة.

وإنَّ النَّظرة الفاحصة في التاريخ لَتُبَيِّنُ: أنَّ هذا الجانب يعدُّ معياراً دقيقاً به يُعرف القرب من الاستقامة، أو البعدُ عنها، وقد فهم قادة الأمَّة المؤمنون ـ حينما وُجدوا ـ على امتداد تاريخ الإسلام، أهمِّية هذا الجانب، فرعَوْه حقَّ رعايته، وإنَّ الأمثلة العمليَّة من تاريخ الخلافة الرَّاشدة هي من الوفرة، والكثرة بمكانٍ، بحيث لا تُتْعِبُ الباحث في التَّفتيش عنها[3].

إنَّ قيادة الأمَّة تكليفٌ، ومَغْرمٌ، وليست مغنماً، ولابدَّ لِلَّذين يتولَّونها أن يحسبوا أهمية

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٩.
(٢) انظر: تفسير السَّعدي (٤/١٤٨).
(٣) انظر: البداية والنِّهاية (٧/١٣٦).

التَّعالي على حطام الدُّنيا، والشَّوق إلى الله، والدَّار الآخرة[١].

رابعاً: حجُّ أبي بكرٍ رضي الله عنه بالنَّاس:

كانت تربية المجتمع، وبناء الدَّولة في عصر النَّبيِّ ﷺ مستمرَّةً في جميع الأصعدة، والمجالات العقائديَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة، والعسكريَّة، والتَّعبديَّة، وكانت فريضة الحجِّ لم تُمارس في السَّنوات الماضية، فحجَّةُ عام (٨ هـ) بعد الفتح كُلِّف بها عَتَّابُ بن أَسِيْدٍ، ولم تكن قد تميَّزت حجَّة المسلمين عن حجَّة المشركين[٢]، فلمَّا حل موسم الحج أراد ﷺ الحجَّ، ولكنَّه قال: «إنَّه يحضر البيت عُراةٌ مشركون يطوفون بالبيت، فلا أحبُّ أن أحجَّ حتَّى لا يكون ذلك»، فأرسل ﷺ الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسعٍ، فخرج أبو بكر، ومعه عددٌ كبيرٌ من الصَّحابة[٣]، وساقوا معهم الهدي[٤].

فلمَّا خرج الصِّدِّيق بركب الحجيج؛ نزلت سورة براءة، فدعا النَّبيُّ ﷺ عليّاً رضي الله عنه، وأمره أن يلحق بأبي بكرٍ الصِّدِّيق، فخرج على ناقة رسول الله ﷺ العضباء؛ حتَّى أدرك الصِّدِّيق أبا بكرٍ بذي الحليفة، فلمَّا رآه الصِّدِّيق، قال له: أميرٌ أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثمَّ سارا، فأقام أبو بكرٍ للنَّاس الحجَّ على منازلهم؛ الَّتي كانوا عليها في الجاهليَّة، وكان الحجُّ في هذا العام في ذي الحجَّة ـ كما دلَّت على ذلك الرِّوايات الصَّحيحة ـ لا في شهر ذي القعدة كما قيل.

وقد خطب الصِّدِّيق قبل التَّروية، ويوم عرفة، ويوم النَّحر، ويوم النفر الأوَّل، فكان يعرِّف النَّاس مناسكهم: في وقوفهم، وإفاضتهم ونحرهم، ونفرهم، ورميهم للجمرات.... إلخ، وعليٌّ يخلفه في كل موقف من هذه المواقف، فيقرأ على النَّاس صدر سورة براءة، ثم ينادي في النَّاس بهذه الأمور الأربعة: لا يدخل الجنَّة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عُرْيان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهدٌ فعهده إلى مدَّته، ولا يحجُّ بعد العام مشرك.
[أحمد (١/ ٧٩)، والترمذي (٨٧١ و٣٠٩٢)، وأبو يعلى (٤٥٢)][٥].

وقد أمر الصِّدِّيق أبا هريرة في رهطٍ آخر من الصَّحابة لمساعدة عليِّ بن أبي طالب في إنجاز مهمَّته[٦].

---

(١) انظر: من معين السِّيرة، ص ٤٧٥.
(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٥٣٦)، ودراساتٌ في عهد النُّبوة، ص ٢٢٢.
(٣) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٨)، والطبقات الكبرى (٢/ ١٦٨).
(٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٨٢).
(٥) البداية والنِّهاية، لابن كثير، ذكر بعث رسول الله ﷺ أبا بكرٍ الصِّدِّيق أميراً على الحجِّ سنة تسع، ونزول سورة براءة، وانظر: صحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٦٢٥.
(٦) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٥٣٧).

إنَّ نزول صدر سورة براءة يمثِّل مفاصلةً نهائيَّة مع الوثنيَّة ، وأتباعها ، حيث منعت حجَّهم ، وأعلنت الحرب عليهم[١] .

قال الله تعالى : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة : ١ ـ ٣] .

وقد أُمْهِلَ المعاهدون لأجلٍ معلوم منهم إلى انتهاء مدَّتهم فقال تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤] .

كما أمهل مَنْ لا عهد له من المشركين إلى انسلاخ الأشهر الحرم ، حيث يصبحون بعدها في حالة حربٍ مع المسلمين ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥] .

وقد كلَّف النَّبيُّ ﷺ عليّاً بإعلان نقض العهود على مسامع المشركين في موسم الحجِّ ، مراعاةً لما تعارف عليه العرب فيما بينهم في عقد العهود ، ونقضها ألاَّ يتولَّى ذلك سيِّد القبيلة ، أو رجل مِنْ رهطه ، وهذا العرف ليس فيه منافاةٌ للإسلام ، فلذلك تدارك النَّبيُّ ﷺ الأمر ، وأرسل عليّاً بذلك ، فهذا هو السَّبب في تكليف عليٍّ بتبليغ صدر سورة براءة ، لا ما زعمه بعضُهم من أن ذلك للإشارة إلى أنَّ عليّاً أحقُّ بالخلافة من أبي بكرٍ ، وقد علَّق على ذلك الدُّكتور محمد أبو شهبة ، فقال : ولا أدري كيف غفلوا عن قول الصِّدِّيق له : أميرٌ أم مأمور؟[٢] وكيف يكون المأمورُ أحقَّ بالخلافة من الأمير[٣]؟!

وقد كانت هذه الحجَّة بمثابة التَّوطئة للحجَّة الكبرى ، وهي حجَّة الوداع[٤] ؛ لقد أُعْلِن في حجَّة أبي بكر : أنَّ عهد الأصنام قد انقضى ، وأنَّ مرحلةً جديدةً قد بدأت ، وما على الناس إلا أن يستجيبوا لشرع الله تعالى ، فبعد هذا الإعلان الَّذي انتشر بين قبائل العرب في الجزيرة ، أيقنت

---

(١) انظر : نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٩) .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٢٤ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٤٠) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٤٠) .

تلك القبائل أنَّ الأمر جَدٌّ ، وأنَّ عهد الوثنيَّة قد انقضى فعلاً ، فأخذت ترسل وفودها معلنةً إسلامها ، ودخولها في التَّوحيد[١].

خامساً: عام الوفود (٩ هـ)[٢]:

لمَّا افتتح رسول الله ﷺ مكَّة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت ، وضرب رسول الله ﷺ أمد أربعة أشهرٍ لقبائل العرب المشركين ، لكي يقرِّروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتَّخذ الدَّولة الإسلاميَّة منهم موقفاً معيَّناً ، ضربت إليه وفود العرب آباط الإبل من كلِّ وجهٍ معلنةً إيمانها ، وولاءها[٣]، وقد اختلف العلماء في تاريخ مَقْدَمِ الوفود على رسول الله ﷺ وفي عددها، حيث أشارت المصادر الحديثيَّة ، والتَّاريخيَّة إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخٍ مبكرٍ عن السَّنة التَّاسعة ، ولعلَّ ذلك ممَّا أدى إلى الاختلاف في تحديد عدد الوفود بين ما يزيد على ستين وفداً عند البعض ، ويرتفع فيبلغ أكثر من مئة وفدٍ عند آخرين ، ولعلَّ البعض قد اقتصر على ذكر المشهور منهم[٤] ، فقد أورد محمَّد بن إسحاق: أنَّه: لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة المكرَّمة ، وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف ، وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كلِّ وجه[٥].

وقد استقصى ابن سعدٍ في جمع المعلومات عن الوفود ، كما فصَّل كثيراً ، وقدَّم ترجماتٍ وافيةً عن رجال الوفود ، ومن كانت له صحبةٌ منهم ، وما ورد عن طريقهم من آثار ، ولا تخلو أسانيد ابن سعدٍ ـ أحياناً ـ من المطاعن ، كما أنَّ فيها أسانيد من الثِّقات أيضاً[٦] ، ولاشكَّ في أنَّ الأخبار الَّتي أوردها المؤرِّخون ليست ثابتةً بالنَّقل الصَّحيح المعتمد وفق أساليب المحدِّثين ، برغم أنَّ عدداً كبيراً من المرويَّات عن تلك الوفود ثابتةٌ ، وصحيحةٌ[٧]؛ فقد أورد البخاريُّ معلوماتٍ عن وفد قبيلة تميم ، وقدومه إلى النَّبي ﷺ ، ووفود أخرى مثل: عبد القيس ، وبني حنيفة ، ووفد نجران ، ووفد الأشعريين ، وأهل اليمن ، ووفد دَوْسٍ [البخاري (٤٣٦٥ و٤٣٦٨ ، و٤٣٧٢ و٤٣٩٢)] ، وتعزَّزت أخبار هذه الوفود بمعلوماتٍ إضافيَّةٍ ، وردت في مصادر تاريخيَّةٍ إلى جانب ما ورد عنها في كتب السِّيَر والمغازي[٨] ، وقد أورد مسلم أخباراً عن أغلب الوفود

---

(١) انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّـة ، ص ٢٨٣.
(٢) ينظر الشكل (٢٢) في الصفحة (٦٢٦).
(٣) انظر: قراءة سياسيَّة للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٢٨٤.
(٤) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٦).
(٥) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٤٦ ـ ٤٧).
(٦) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٧).
(٧) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٥٤٢).
(٨) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٤٠ ـ ٩٨).

المذكورة آنفاً[١] ، كما أوردت بقيَّة الكتب السِّتَّة معلوماتٍ أوسع ، شملت عدداً كبيراً من الوفود[٢] .

إنَّ قصص الوفود ، وأخبارها ، وكيفيَّة تعامل رسول الله ﷺ معها من الأهميَّة بالمكان الكبير[٣] ، وتبقى مسألة الحاجة الماسَّة إلى نقدٍ تاريخيٍّ لمتون الأخبار المفصَّلة الَّتي وصلتنا عن الوفود[٤] ، فلقد تركت لنا تلك الأخبار ، والقصص منهجاً نبويّاً كريماً في تعامله ﷺ مع الوفود ، يمكننا الاستفادة من هديه ﷺ في تعامله مع النَّفسيَّة البشريَّة ، وتربيته ، ودقَّته ، وتنظيمه ، ففيها ثروةٌ هائلةٌ من الفقه الَّذي يدخل في دوائر التَّعليم والتَّربية ، والتَّثقيف وبُعْد النَّظر وجمع القلوب على الغاية ، وربط أفرادٍ بأعيانهم بالمركز بحيث تبقى في كلِّ الظُّروف ، والأحوال مرتكزاتٌ قويَّةٌ إلى الإسلام ، إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كلِّ الحقول نفسيّاً ، واجتماعيّاً ، واقتصاديّاً ، وإداريّاً وسياسيّاً ، وعسكريّاً ، تعطي لكلِّ عاملٍ في جانب من هذه الجوانب دروساً تكفيه ، وتغنيه[٥] .

هذا وقد تميَّز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة ، وقد استعدَّت الدَّولة الإسلاميَّة لاستقبالهم ، وتهيئة المناخ التَّربويِّ لهم ، وقد تمثَّل هذا الاستقبال بتهيئة مكان إقامة لهم ، وكانت هناك دارٌ للضِّيافة[٦] ، ينزل فيها الوافدون ، وهناك مسجدُ رسول الله ﷺ الَّذي كان ساحةً للاستقبال ، ثمَّ كان هناك تطوُّعٌ ، أو تكليف رسول الله ﷺ لأحد الصَّحابة باستضافة بعض القادمين[٧] .

واهتمَّ ﷺ بتلك الوفود ، وحرَص على تعليمها ، وتربيتها ، وقد كانت تلك الوفود حريصةً على فهم الإسلام ، وتعلُّم شرائعه ، وأحكامه ، وآدابه ، ونظمه في الحياة ، وتطبيق ما عُلِّموه تطبيقاً عمليّاً ، جعلهم نماذج حيّة لفضائله ، وقد كان لكثيرٍ منهم سؤالاتٌ عن أشياء كانت شائعةً بينهم؛ ابتغاء معرفة حلالها ، وحرامها ، وكان النَّبيُّ ﷺ حريصاً أشدَّ الحرص على تفقيههم في الدِّين ، وبيان ما سألوه عنه ، وكان ﷺ يُدني منهم مَنْ يعلم منه زيادة حِرْصٍ على القرآن العظيم ، وحفظ آياته تفقُّهاً فيه ، ويقول لأصحابه: «فقِّهوا إخوانكم»[٨] .

---

(١) انظر: نضرة النَّعيم (١/ ٣٩٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انظر: الأساس في السُّنَّة ، السِّيرة النَّبويَّة (٢/ ١٠١٤).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٤٤).
(٥) انظر: الأساس في السُّنَّة (٢/ ١٠١٤).
(٦) انظر: المدينة النَّبويَّة ، فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي ، لمحمد شُرّاب (٢/ ٤٠٠).
(٧) انظر: دراسات في عهد النُّبوَّة ، للشُّجاع ، ص ٢٢١.
(٨) انظر: محمَّد رسول الله ، صادق عرجون (٤/ ٥٢٠).

وكان ﷺ يسأل عمَّن يُعْرَف مِنْ شرفائهم ، فإذا رغبوا في الرَّحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحقِّ ، وحثَّهم على الاعتصام بالصَّبر ، ثمَّ يجزيهم بالجوائز الحسان ، ويسوِّي بينهم ، فإذا رجعوا إلى أقوامهم؛ رجعوا هُداةً دعاةً ، مشرقةً قلوبهم بنور الإيمان ، يعلِّمونهم ممَّا عُلِّموا ، ويحدِّثونهم بما سمعوا ، ويذكرون لهم مكارم النَّبيِّ ، وبرَّه ، وبِشْرَه ، واستنارة وجهه سروراً بمقدمهم عليه ، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه في تآخيهم ، وتحاببهم ، ومواساة بعضهم بعضاً؛ ليثيروا في أنفسهم الشَّوق إلى لقاء رسول الله ﷺ ، ولقاء أصحابه ، ويحبِّبوا إليهم التأسِّي بهم في سلوكهم ، ومكارم أخلاقهم[١] ، واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيَّتها؛ كوفد نصارى نجران ، ووافقت على دفع الجزية ، ونحاول أن نتحدَّث عن بعض الوفود؛ لما في ذلك من الفقه ، والدُّروس ، والعبر؛ كوفد عبد قيس ، وبني سعد بن بكر ، ووفد نصارى نجران:

أ ـ وفد عبد القيس:

وقد تحدَّث ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن قدومهم ، فقال: إنَّ وفد عبد القيس أتوا رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : «مَن الوفد؟ ـ أو: مَنِ القوم؟» قالوا: ربيعة قال: «مرحباً بالقوم[٢] ـ أو: بالوفد ـ غير خزايا ، ولا نَدَامَى[٣]» . قال: فقالوا: يا رسول الله! إنا نأتيك من شُقَّةٍ بعيدةٍ[٤] ، وإنَّ بيننا وبينك هذا الحيُّ من كفَّار مضر ، وإنَّا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهرٍ حرام ، فمرنا بأمرٍ فصلٍ[٥] نخبر به مَنْ وراءنا ، ندخل به الجنَّة ، وسألوه عن الأشربة. قال: فأمرهم بأربعٍ ، ونهاهم عن أربعٍ ، قال: أمرهم بالإيمان بالله وحده ، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وصوم رمضان ، وأن تؤدُّوا خمساً من المغنم» ، ونهاهم عن الدُّباء[٦] ، والحنتم[٧] ، والمُزَفَّتِ[٨] ، وربما قال: النَّقير[٩] ، أو المُقَيَّر وقال: «احفظوهنَّ ، وأخبروا بهنَّ مَنْ

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٢١).
(٢) مرحباً بالقوم: صادفت رحباً وسعةً.
(٣) غير خزايا ، ولا ندامى: معناه لم يكن منكم تأخُّرٌ عن الإسلام ، ولا عنادٌ.
(٤) شقة بعيدة: السَّفر البعيد ، أو المسافة البعيدة.
(٥) الأمر الفصل: البيِّن الواضح الَّذي ينفصل به المراد.
(٦) الدَّباء: القرع اليابس.
(٧) الحنتم: أصحُّ الأقوال فيها: الجرار الخضر؛ وهي جرار كان يحمل فيها الخمر.
(٨) المزفَّت: الأوعية الَّتي فيها الزِّفت.
(٩) النَّقير: جذع ينقر وسطها ثمَّ ينبذ فيها الرُّطب ، والبُسْرُ.

وراءكم» [البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧)].

وفي رواية: أنَّ الأشجَّ بن عبد قيسٍ تخلَّف في الرِّكاب حتَّى أناخها، وجمع متاع القوم، ثمَّ جاء يمشي حتَّى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبَّلها، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله ورسولُه» فقال: جَبْلٌ جُبِلْتُ عليه، أم تَخَلُّقَاً منِّي؟ قال: «بل جَبْلٌ» [ابن ماجه (٤١٨٧)] قال: الحمد لله الَّذي جَبَلَني على ما يحبُّ اللهُ ورسولُه. [أحمد (٤/٢٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٥٨٤)][1].

وقد انشغل رسول الله ﷺ بمقدَمِهم وأخَّر صلاة السُّنَّة البَعْدِيَّة بعد الظهر وصلاَّها بعد العصر[2].

ب ـ وفد ضِمَام بن ثعلبة عن قومه بني سعد بن بكرٍ:

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: بينما نحن جلوسٌ مع النَّبيِّ ﷺ في المسجد دخل رجلٌ على جملٍ، فأناخه في المسجد ثمَّ عقله، ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ ﷺ متكىءٌ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرَّجل الأبيض المتَّكىء، فقال له الرَّجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النَّبي ﷺ: «قد أجبتك»، فقال الرَّجل للنَّبيِّ ﷺ: إنِّي سَائِلُكَ فمشدِّدٌ عليك في المسألة؛ فلا تَجِدْ[3] عليَّ في نفسك، فقال: سل عمَّا بدا لك، فقال: أسألك بربِّك وربِّ مَنْ قبلك! آلله أرسلك إلى النَّاس كلِّهم؟ فقال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أَنْشُدُكَ بالله! آلله أمرك أن تصلِّيَ الصَّلوات الخمس في اليوم واللَّيلة؟ قال: «اللَّهمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! آلله أمرك أن نصوم هذا الشَّهر من السَّنة؟ قال: «اللَّهُمَّ نعم!».

قال: أنشدك بالله! آلله أمرك أن تأخذ هذه الصَّدقة من أغنيائنا، فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النَّبي ﷺ: «اللَّهم نعم!».

فقال الرَّجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول مَنْ ورائي مِنْ قومي، وأنا ضِمَامُ بن ثَعْلَبَةَ أخو بني سعد بن بكر. [البخاري (٦٣)، وأبو داود (٤٨٦)، وابن ماجه (١٤٠٢)، وأحمد (٣/١٦٨)، والنسائي (٤/١٢٢)].

وفي رواية ابن عبَّاسٍ: ... حتَّى إذا فرغ؛ قال: فإنِّي أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة، ص ٦٣١.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٣٥.
(٣) تجد: تحقد، وتحمل البغضاء.

محمَّداً رسول الله ﷺ ، وسأؤدِّي هذه الفرائض ، وأجتنبُ ما نهيتني عنه ، ثمَّ لا أزيد ، ولا أنقص .

قال : ثمَّ انصرف راجعاً إلى بعيره ، فقال رسول الله ﷺ حين ولَّى : «إنْ يصدق ذو الْعَقِيصَتَيْنِ[1] ؛ يدخل الجنَّة» . قال : فأتى إلى بعيره ، فأطلق عِقَاله ثمَّ خرج حتَّى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه ، فكان أوَّل ما تكلَّم به أن قال : بئست اللاَّتُ ، والعزَّى! قالوا : صه يا ضِمَام! اتَّق البَرَص ، والجُذام! اتَّق الجنون! قال : ويلكم! إنَّهما والله! لا يضرَّان ، ولا ينفعان ، إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به ممَّا كنتم فيه ، وإنِّي أشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ، وإنِّي قد جئتكم من عنده بما أمركم به ، ونهاكم عنه . قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجلٌ ، ولا امرأةٌ إلا مسلماً ، قال : يقول ابن عبَّاس رضي الله عنهما : فما سمعنا بوافد قومٍ كان أفضل مِنْ ضِمَام بن ثعلبة . [أحمد (١/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥) ، وأبو داود (٤٨٧) ، والدارمي (٦٥٦)][2] .

وتدل قصَّة إسلامه على مدى انتشار تعاليم الإسلام في وسط القبائل العربيَّة ، حتَّى جاء ضِمَام لا ليسأل عنها ، ولكن جاء ليستوثق منها ، معدِّداً لها الواحدة تلو الأخرى ، ممَّا يدلُّ على استيعابه لها قبل مجيئه إلى الرَّسول ﷺ[3] .

ج ـ وفد نصارى نجران :

كتب رسول الله ﷺ إلى نجران[4] كتاباً قال فيه : «أمَّا بعد ، فإنِّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد ، فإن أبيتم ؛ فالجزية ، فإن أبيتم ؛ آذنتكم بحربٍ ، والسَّلام[5]» .

فلمَّا أتى الأسقفَ الكتابُ ؛ جمع النَّاس ، وقرأه عليهم ، وسألهم عن الرَّأي فيه ، فقرَّروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوَّن من أربعة عشرَ من أشرافهم ، وقيل : ستِّين راكباً منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم : العاقب ـ وهو أميرهم ، وصاحب مشورتهم ، والَّذي يصدُرون عن رأيه ـ والسَّيد ـ وهو صاحب رحلتهم ـ وأبو الحارث ـ أسقفُهم ، وحبرُهم وصاحب مدراسهم ـ فقدموا على النَّبيِّ ﷺ ، فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحَبِرة ، وأرديةٌ مكفوفةٌ بالحرير ، وفي أيديهم خواتيم الذَّهب ، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق ، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم ، ثمَّ أتوا

---

(١) الضَّفيرتين من الشَّعر .
(٢) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٣٠ .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٥٠ .
(٤) نجران : بلد كبيرٌ على سبع مراحل من مكَّة إلى جهة اليمن .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٤٨) ، وهداية الحيارى في الردِّ على اليهود ، والنَّصارى .

النَّبيَّ ﷺ ، فأعرض عنهم ، ولم يكلِّمهم ، فقال لهم عثمان: من أجل زِيِّكُمْ هذا ، فانصرفوا يومهم هذا ، ثمَّ غدَوا عليه بِـزِيِّ الرُّهبان فسلَّموا عليه ، فردَّ عليهم ، ودعاهم إلى الإسلام ، فأبوا ، وقالوا: كنَّا مسلمين قبلكم ، فقال النَّبيُّ ﷺ : «يمنعكم من الإسلام ثلاثٌ: عبادتكم الصَّليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أنَّ لله ولداً»[١] ، وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم ، والنَّبيُّ ﷺ يتلو عليهم القرآن ، ويقرع باطلهم بالحجَّة ، وكان ممَّا قالوه لرسول الله ﷺ : ما لك تشتم صاحبنا ، وتقول: إنَّه عبد الله ؟! فقال: «أجل ، إنَّه عبد الله ورسولُه ، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فغضبوا ، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أبٍ ، فإن كنت صادقاً ، فأرنا مثله؟ فأنزل الله في الردِّ عليهم قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٩ ـ ٦٠].

فكانت حجَّةً دامغةً ، شُبِّه فيها الغريب بما هو أغرب منه[٢]. فلمَّا لم تُجْدِ معهم المجادلة بالحكمة ، والموعظة الحسنة ، دعاهم إلى المباهلة[٣] ، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١].

وخرج النَّبيُّ ﷺ ومعه عليٌّ ، والحسن ، والحسين ، وفاطمة ، وقال: «وإذا أنا دعوت فأمِّنوا»[٤]. فائتمرُوا فيما بينهم ، فخافوا الهلاك؛ لعلمهم: أنَّه نبيٌّ حقاً ، وأنَّه ما بَاهَلَ قومٌ نبيّاً إلا هلكوا ، فأبوا أن يلاعنوه ، وقالوا: احكم علينا بما أحببت ، فصالحهم على ألفي حُلَّةٍ ، ألف في رجب ، وألف في صفر[٥] ، ولمَّا عزموا على الرُّجوع إلى بلادهم ، قالوا للنَّبيِّ ﷺ : ابعث معنا رجلاً أميناً ليقبض منا مال الصُّلح ، فقال لهم: «لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حقَّ أمين» ، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجرَّاح!» فلمَّا قام؛ قال: «هذا أمين هذه الأمة». [البخاري (٤٣٨٢) ، وأحمد (٣/ ١٨٤) ، والترمذي (٣٧٩١) ، وابن ماجه (١٥٤ و١٥٥)].

سادساً: بعوث رسول الله ﷺ لتعليم مبادئ الإسلام ، وترتيب أمور الإدارة والمال:

كانت الوفود تسعى إلى المدينة لتعلن إسلامها ، وتنضوي تحت سيادة الدَّولة الإسلاميَّة ،

---

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧) ، والدُّرُّ المنثور في التفسير بالمأثور ، للسُّيوطي ، وأبا نعيم في الدَّلائل.
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٦٣٣) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٤٧) ، والبداية والنِّهاية لابن كثير ، فصل (المباهلة).
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٤٧) ، وتحفة الأحوذي للمباركفوري ، قوله: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيح.
(٥) المصدر السابق نفسه.

ويتعلَّموا ما شاء الله أن يتعلَّموه في المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم ، وكان ﷺ يرسل معهم مَنْ يعلِّمهم دينهم ، وشرع ﷺ يبعث دعاته في شتَّى الجهات ، واهتمَّ بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن ؛ لتعليمها مبادئ الإسلام ، وأحكامه ، فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ، ومختلف أطرافها ، وأصبحت الحاجة داعيةً إلى معلِّمين ، ودعاة ، ومرشدين ، يشرحون للنَّاس حقائق الإسلام[1] ؛ لكي تتطهَّر قلوبهم ، وتشفى صدورهم من أمراض الجاهليَّة ، وأدرانها الخبيثة ، وامتنعت قبيلة بني الحارث بن كعب عن الدُّخول في الإسلام ، فأرسل إليهم رسولُ الله ﷺ خالداً في سريَّةٍ دعويَّةٍ جهاديَّةٍ .

أ ـ بَعْثُ خالد إلى بني الحارث بن كعب (١٠ هـ) :

كان بنو الحارث بن كعب يسكنون بنجران ، ولم يقبَل منهم أحدٌ الإسلام ، فبعث رسول الله ﷺ إليهم خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر ، أو جُمادَى سنَة عشْرٍ ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً ، فإن استجابوا ؛ قَبِلَ منهم ، وإن لم يفعلوا ؛ قاتلهم ، فخرج خالد حتَّى قدم عليهم ، فبعث الرُّكبان في كل وجه يدعون إلى الإسلام ، فأسلم النَّاس ، ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلِّمهم الإسلام ، وكتاب الله ، وسنَّة نبيِّه ﷺ كما أمره رسول الله ﷺ ، ثمَّ كتب خالدٌ إلى رسول الله ﷺ يُعْلِمه بإسلامهم ، وأنَّه مقيمٌ فيهم ، حتَّى يكتب إليه رسول الله ﷺ ، فجاءه كتاب رسول الله ﷺ يأمره بأن يُقْبِل إلى المدينة ؛ ومعه وفدٌ منهم ، ففعل ، فلما قدموا أمَّر عليهم قيس بن الحُصَيْن ، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو بن حزم ، ليفقههم في الدِّين ، ويعلِّمهم السُّنَّة ، ومعالم الإسلام[2] .

وفي روايةٍ : أنَّه ﷺ أرسل عليّاً بدلاً من خالدٍ ، وعندما وصل إلى قبائل همدان ؛ قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ ، فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم ، فلمَّا قرأ رسول الله ﷺ الكتاب ؛ خرَّ ساجداً ، ثمَّ رفع رأسه فقال : «السَّلام على همدان ، السَّلام على همدان» [البيهقي في الدلائل : (٥/ ٣٩٦)] .

كان رسول الله ﷺ حريصاً على الجبهة الجنوبيَّة للدَّولة ، وأن تدخل قبائل اليمن في الإسلام ، وظهر هذا الاهتمام في النتائج الباهرة الَّتي حقَّقتها الدَّعوة ، في كثرة عدد الوفود التي كانت تنساب من كلِّ أطراف اليمن متَّجهةً إلى المدينة ، ممَّا يدل على أنَّ نشاط المبعوثين إلى اليمن كان متَّصلاً ، وبعيد المدى ، وكانت سرايا رسول الله ﷺ تساند هذا النَّشاط الدَّعويَّ

---

(١) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٢٢ .
(٢) انظر : السِّيرة لابن هشام (٤/ ٢٥٠) .

السُّلميَّ ، حيث بعث خالد بن الوليد ، ثمَّ علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنهما في هذا السِّياق[(١)].

إنَّ الوثائق الَّتي عقدها النَّبيُّ ﷺ مع قبائل اليمن ، وحضرموت قد بلغت عدداً كبيراً ، ضمَّنها محمَّد حميد الله ـ رحمه الله ـ في كتابه : «مجموعة الوثائق السِّياسيَّة»[(٢)].

إنَّ التَّركيز على مفاصل القوى ، ومراكز التَّأثير في المجتمعات ، وبناء الدُّول ، منهج نبويٌّ كريمٌ ، حرص النَّبيُّ ﷺ على ممارسته في حياته .

ب ـ بَعْثُ معاذ بن جبل ، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن :

١ ـ بعث رسول الله ﷺ **معاذ بن جبل الأنصاريَّ ـ أعلمَ الصَّحابة في علم الحلال والحرام ـ** إلى اليمن؛ قاضياً ، ومفقِّهاً ، وأميراً ، ومصدِّقاً[(٣)] ، وجعله على أحد مِخْلافَيْها[(٤)] ، وهو الأعلى. ولمَّا خرج معاذٌ قاصداً اليمن؛ خرج معه رسول الله ﷺ يودِّعه ، ويوصيه ، ومعاذ راكبٌ ، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته ، فأوصاه بوصايا كثيرةٍ ، ورسم له منهجاً دعويّاً عظيماً ، حيث قال له : «**إنك ستأتي قوماً من أهل كتاب ، فإذا جئتهم؛ فادعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم : أنَّ الله فرض عليهم خمس صلواتٍ كلَّ يومٍ وليلةٍ ، فإن هم أطاعوا لك بذلك؛ فأخبرهم: أنَّ الله فرض عليهم صدقةً ، تؤخذ من أغنيائهم ، فتردُّ على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فإيَّاك وكرائمَ أموالهم ، واتَّقِ دعوة المظلوم ، فإنَّه ليس بينها وبين الله حجاب**». [البخاري (١٤٥٨) ، ومسلم (١٩)].

وفي هذا الحديث إرشادٌ من النَّبيِّ ﷺ للدُّعاة إلى الله بالتَّدرُّج ، والبدء بالأهمِّ ، فالأهمِّ ، فالدَّعوة تكون بترسيخ الإيمان بالله تعالى ، ورسوله إيماناً يثبت في القلوب ، ويهيمن على الأفكار ، والسُّلوك ، ثمَّ تكون الدَّعوة بعد ذلك إلى تطبيق أركان الإسلام العمليَّة الَّتي ترسِّخ هذا الإيمان ، وتنمِّيه ، ثمَّ يأتي بعد ذلك الأمر بالواجبات ، والنَّهي عن المحرَّمات ، فيتقبَّل النَّاسُ تكاليف الإسلام الَّتي قد تكون مخالفةً لهوى النفس؛ لأنَّ قلوبهم قد عمرت بالإيمان ، واليقين قبل ذلك[(٥)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ رسمه ﷺ لمعاذ ولمن يريد أن يسير على هدي الصَّحابة الكرام ،

---

(١) انظر : الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، ص ٢٣١ .
(٢) انظر : الوثائق السِّياسيَّة ، لحميد الله ، رقم ١١١ ، ص ٢٣٠ .
(٣) المصدِّق : آخذ الزَّكاة .
(٤) المخلاف : الإقليم ، والكورة ، والرستاق .
(٥) انظر : التَّاريخ الإسلامي (٨/ ١٨٧).

وما أحوج الذين نذروا أنفسهم للدَّعوة إلى الله إلى الوقوف أمام هذا الهدي النَّبويِّ يترسَّمون خطاه ، ويستوعبونه فهماً ، ووعياً ، وتطبيقاً! وحينئذٍ تكون خطاهم في الطَّريق الصَّحيح(١).

ولمَّا فرغ رسول الله ﷺ من وصاياه لمعاذ قال له : «يا معاذُ! إنَّك عسى ألاَّ تلقاني بعد عامي هذا ، ولعلَّك أن تمرَّ بمسجدي هذا ، وقبري(٢)» ، فبكى معاذ خَشَعاً لفراق الرَّسول ﷺ ، وكذلك وقع الأمر كما أشار الرَّسول ﷺ ، فقد أقام معاذ باليمن ، ولم يقدم إلا بعد وفاة الرَّسول ﷺ(٣) .

٢ ـ وبعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعريَّ اليمنيَّ إلى مخلاف اليمن الآخر ، وهو الأسفل ، قاضياً ، ومفقِّهاً ، وأميراً ، ومصدِّقاً ، وأوصاه ، ومعاذاً ، فقال: «يسِّرا ، ولا تعسِّرا ، وبشِّرا ، ولا تنفِّرا ، وتطاوعا ، ولا تختلفا». [البخاري (٤٣٤٢) ، ومسلم (١٧٣٣)].

وهذا منهجٌ نبويٌّ كريمٌ أرشد إليه رسولُ الله ﷺ معاذاً ، وأبا موسى بأن يأخذوا بالتَّيسير على النَّاس ، ونهاهما عن التَّعسير عليهم ، وأمرهما بالتَّبشير ، ونهاهما عن التَّنفير(٤) .

ج ـ ترتيب أمور الإدارة والمال:

إن النِّظام جزءٌ من هذا الدِّين ، وداخلٌ في كل أموره؛ لأنَّ النِّظام يجمع الأشتات ، وتُحقَّق به الأهداف ، والغايات ، فالنِّظام سمةٌ يتميَّز بها الإسلام منذ اللَّحظة الأولى؛ حيث يدخل في جميع جوانب الإسلام التَّصوريَّة ، والشَّعائريَّة ، والتُعبُّديَّة ، وفي الشَّرائع الحياتيَّة كلِّها ، فكان ﷺ يضع من يدير المدينة في حالة غيبته عنها ، وكلَّما فتح منطقةً ، وضع عليها أميراً ، وكانت الوفود تأتي إلى رسول الله ﷺ فيُعيِّن عليها أميراً مِنْ قِبَلِه ، ثمَّ يترك لهم مَنْ يعلِّمهم دينهم ، ويرسل إليهم مَنْ يجمع صدقاتهم(٥) .

وكان يختار عمَّاله من الصَّالحين ، وأولي العلم ، والدِّين ، ومن المنظور إليهم من العرب ، وذوي الشَّخصيَّات المؤثِّرة في قبائلهم ، فقد كان عامله على مكَّة عتَّاب بن أَسِيْدٍ ، وعلى الطَّائف عثمان بن العاص ، وبعث عليّاً ، وأبا موسى إلى اليمن ، وأقرَّ الرَّسول ﷺ في بعض الحالات الأمراء ، والملوك الَّذين أسلموا ، أو قُبِلت الجزية منهم ، ومنهم: باذان بن ساسان ولد بهرام الَّذي أقرَّه الرَّسول ﷺ على اليمن بعد إسلامه ، ولما بلغه موته قسم عمله على جماعةٍ من الصَّحابة ، فولَّى على صنعاء شمر بن باذان ، وعلى مأرب أبا موسى الأشعريَّ ، وعلى الجند يعلى بن أميَّة ، وعلى همذان عامر بن شمر الهمداني ، وعلى ما بين نجران ،

(١) انظر: من معين السِّيرة ، ص ٤٨٦ .
(٢) انظر: صحيح السِّيرة ، ص ٦٥٤ .
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٥٩).
(٤) انظر: التَّاريخ الإسلامي ، للحميديِّ (٨/ ١٨٦).
(٥) انظر: دراسات في عهد النُّبوة للشُّجاع ، ص ٢٢١ .

وزمع ، وزبيد خالد بن سعيد بن العاص ، وعلى نجران عمرو بن حزام ، وعلى بلاد حضرموت زياد بن لبيد البياضي ، وعلى السَّكاسك والسُّكون عكَّاشة بن ثور[١] .

وكان ﷺ يستوفي الحساب على العمَّال، يحاسبهم على المستخرج، والمصروف، وحدَّد ﷺ لبعض عمَّاله رواتب ، منهم عَتَّاب بن أَسِيْدٍ والي مكَّة ، درهماً كلَّ يوم[٢] ، ولمَّا استعمل ﷺ قيس بن مالكٍ على قومه همدان خصَّص له قطعةً من الأرض يأخذ خراجها ، وكانت رواتب عمَّاله تتغيَّر بتغير أحوال المعيشة ، فهي ليست ثابتةً[٣] ، قال رسول الله ﷺ : «مَنْ ولي لنا ولايةً ، ولم يكن له بيتٌ؛ فليتَّخذ بيتاً ، أو لم تكن له زوجةٌ؛ فليتَّخذ زوجةً ، أو لم تكن له دابَّةٌ ، فليتَّخذ دابةً» [أحمد (٤/ ٢٢٩) ، وأبو داود (٢٩٤٥) ، وابن خزيمة (٢٣٧٠)][٤].

وهذه هي الحاجات الرَّئيسية لوليِّ الأمر في ذلك الوقت؛ منعاً لأخذ الرَّشوة ، وهذه قاعدةٌ قانونيَّة جاء بها الإسلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة في بنودها ، وهي أنَّ الهدية للحاكم رشوةٌ صريحةٌ[٥] .

* * *

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، لابن خلدون (٢/ ٥٩).
(٢) انظر : السِّيرة النَّبوية ، لابن هشام (٤/ ١٥٣).
(٣) انظر : الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور الحرابي ، ص ٤٤ .
(٤) انظر : الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص ٤٤ ، والتراتيب الإدارية ، للكتَّاني (١/ ٢٢٧).
(٥) انظر : الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ص ٤٤ .

المبحث السَّابع
حجَّة الوداع (١٠ هـ)(١)

الحجُّ أحد الأركان الخمسة ، وقد فُرض في العام العاشر ، وهذا ما ذهب إليه ابن القيِّم(٢) ، واستدلَّ بأدلةٍ قويَّةٍ ، وهو اللَّائق بهديه ﷺ في عدم تأخير ما هو فرض، لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧] ، وقد نزلت عام الوفود ، أواخر سنة تِسْعٍ(٣) .

لم يحجَّ النَّبيُّ ﷺ من المدينة غير حجَّته الَّتي كانت في العام العاشر ، وعرفت هذه الحجَّة بحجَّة البلاغ ، وحجَّة الإسلام ، وحجَّة الوداع؛ لأنَّه ﷺ ودَّع النَّاس فيها ولم يحجَّ بعدها ، وحجَّة البلاغ؛ لأنَّه ﷺ بلَّغ النَّاس شرع الله في الحجِّ قولاً ، وعملاً ، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام ، وقواعده شيءٌ إلا وقد بيَّنه ، فلمَّا بيَّن لهم شريعة الحجِّ ، ووضَّحه ، وشرحه ، أنزل الله عليه ، وهو واقفٌ بعرفة: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. [البخاري (٤٤٠٧) ، ومسلم (٣٠١٧)] .

ولمَّا نزلت هذه الآية؛ بكى بعض الصَّحابة ـ ومنهم عمر بن الخَّطاب رضي الله عنه ـ وكأنَّهم فهموا منها الإشارة إلى قرب أجل الرَّسول ﷺ ، ولمَّا قيل لسيِّدنا عمر: ما يبكيك؟ قال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان(٤) ، وكان عدد الَّذين مع رسول الله ﷺ أكثر من مئة ألفٍ(٥) .

أولاً: كيف حجَّ النَّبيُّ ﷺ؟ :

[البخاري (١٥٥٧) ، ومسلم (١٢١٨)]:

عـزم رسول الله ﷺ على الحجِّ ، وأعلم النَّاس: أنَّـه حاجٌّ ، فتجهَّزوا ـ وذلـك في شهر ذي القعدة سنة عشر ـ للخروج معه ، وسمع بذلك مَنْ حول المدينة ، فقدموا يريدون الحجَّ مع الرَّسول ﷺ ، ووافاه في الطَّريق خلائق لا يحصون ، فكانوا مِنْ بين يديه ومن خلفه ، وعن

---

(١) ينظر الشكل (٢٣) في الصفحة (٦٢٧).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٥٩٥).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، ص ٦٨٠ ، وزاد المعاد (٣/ ٥٩٥).
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٧٥).
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٦.

يمينه ، وعن شماله مدَّ البصر ، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظُّهر لخمسٍ بَقِينَ من ذي القعدة يوم السَّبت ، بعد أن صلَّى الظُّهر بها أربعاً[١] .

وخطبهم قبل ذلك خطبةً علَّمهم فيها الإحرامَ ، وواجباتِه ، وسننه ، ثمَّ سار وهو يلبِّي ، ويقول: «لبيك اللَّهُمَّ لبيك ، لبَّيك لا شريك لك لبيك ، إنَّ الحمد ، والنِّعمة لك ، والملك ، لا شريك لك» والنَّاس معه يزيدون ، وينقصون ، وهو يقرُّهم ، ولا ينكر عليهم ، ولزم تلبيته ، ثمَّ مضى حتَّى نزل بـ(العرج) ثمَّ سار حتَّى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سَرِف) ثمَّ نهض إلى أن نزل بـ(ذي طوى) ، فبات بها ليلة الأحد ، لأربع خلون من ذي الحجَّة ، وصلَّى بها الصُّبح ، ثمَّ اغتسل من يومه ، ونهض إلى مكَّة فدخلها نهاراً من أعلاها ، ثمَّ سار ، حتَّى دخل المسجد ، وذلك ضحىً[٢] ، فاستلم الرُّكن ﷺ ، فرمل ثلاثاً[٣] ، ومشى أربعاً ، ثمَّ نفذ إلى مقام إبراهيم[٤] عليه السَّلام . فقرأ: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [البقرة: ١٢٥] .

فجعل المقام بينه وبين البيت ، وكان يقرأ في الرَّكعتين: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثمَّ رجع إلى الرُّكن فاستلمه ، ثمَّ خرج من الباب إلى الصَّفا ، فلمَّا دنا من الصَّفا؛ قرأ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨] .

وبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فرقي عليه ، حتَّى إذا رأى البيت؛ استقبل القبلة ، فوحَّد الله ، وكبَّره ، وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيءٍ قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده» ، ثمَّ دعا بين ذلك ، قال مثل هذه ثلاث مرَّاتٍ ، ثمَّ نزل إلى المروة ، حتَّى إذا انصبَّتْ[٥] قدماه في بطن الوادي؛ سعى ، حتَّى إذا صَعِدَتَا[٦]؛ مشى ، أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصَّفا ، حتَّى إذا كان آخر طوافه على المروة؛ قال: «لو أنِّي استقبلتُ من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ، وجعلتها عُمْرَةً ، فمن كان منكم ليس معه هَدْيٌ؛ فليحلَّ ، وليجعلها عُمْرةً» .

فقام سراقة بن مالك بن جُعْشُمٍ ، فقال: يا رسول الله! أَلِعَامِنَا هذا أم للأبد؟ فشبَّك

---

(١) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦٤ ، والسِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٦ .

(٢) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٧ .

(٣) الرمل: إسراع المشي مع تقارب الخطا .

(٤) نفذ إلى مقام إبراهيم: أي: بلغه ماضياً في زحام .

(٥) انصبت قدماه: انحدرت .

(٦) صعدتا: ارتفعت قدماه عن بطن الوادي .

رسول الله ﷺ أصابعه واحدةً في الأخرى ، وقال: «دخلتِ العمرةُ في الحجِّ» مرَّتين ، «لا بل لأبدِ أبَدٍ»[١] .

وأقام بمكَّة أربعة أيام: يوم الأحد ، والإثنين ، والثَّلاثاء ، والأربعاء ، فلمَّا كان يوم الخميس ضُحىً؛ توجَّه بمن معه من المسلمين إلى منىً ، ونزل بها ، وصلَّى بها الظُّهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر ، ومكث قليلاً حتَّى طلعت الشَّمس ، وأمر بِقُبَّةٍ من شَعَرٍ تُضْرَبُ له بِنَمِرَةَ[٢] ، فسار رسول الله ﷺ ولا تَشُكُّ قريشٌ إلا أنَّه واقفٌ عند المشعر الحرام[٣] ، كما كانت قريش تصنع في الجاهليَّة ، فأجاز[٤] رسول الله ﷺ حتَّى أتى عرفةَ ، فوجد القُبَّةَ قد ضُربت له بنَمِرَة فنزل بها ، حتى إذا زاغت الشَّمسُ؛ أَمَرَ بالقصواء ، فرُحِلَتْ له ، فأتى بطن الوادي[٥] ، فخطب النَّاس ، وقال:

«إنَّ دماءكم ، وأموالكم حرامٌ عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدميَّ موضوعٌ ، ودماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ ، وإنَّ أوَّل دَمٍ أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بن الحارثِ ، كان مُسْتَرْضَعاً في بني سعدٍ ، فقتلته هذيلٌ ، وربا الجاهليَّة موضوعٌ ، وأوَّل رباً أضع ربانا ، ربا العباس بن عبد المطَّلب ، فإنَّه موضوع كلُّه .

فاتَّقوا الله في النِّساء ، فإنَّكم أخذتموهنَّ بأمان الله ، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله ، ولكن عليهنَّ ألاَّ يوطئن فرشَكم أحداً تكرهونه[٦] ، فإن فعلن ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مُبَرِّحٍ[٧] ، ولهنَّ عليكم رزقُهن ، وكسوتُهنَّ بالمعروف؛ وقد تركت فيكم ما لن تضلُّوا بعده إن اعتصمتم به ، كتاب الله ، وأنتم تُسْأَلُونَ عنِّي ، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنَّك بلغت ، وأدَّيت ، ونصحت ، فقال بإصبعه السَّبَّابة ، يرفعها إلى السَّماء ، وينكتها[٨] إلى النَّاس: «اللَّهمَّ اشهد! اللَّهُمَّ اشهد!» ثلاث مرَّات[٩] .

---

(١) صحيح السيرة النبوية ، ص ٦٥٩ .

(٢) نمرة: موضع بجنب عرفات ، وليست من عرفات .

(٣) المشعر الحرام: جبل بمزدلفة كانت قريش تقف عليه ، ولا تقف مع العرب في عرفات ، ولكن رسول الله ﷺ وقف في عرفات .

(٤) فأجاز: جاوز المزدلفة ولم يقف بها ، وإنَّما توجه إلى عرفات .

(٥) بطن الوادي: وادي عُرَنَةَ ، وليست عرنة من أرض عرفات عند العلماء ، إلا مالكاً قال: من عرفات .

(٦) أي: لا يجوز للمرأة أن تُدخل أحداً إلى بيت زوجها من قريبٍ ، أو بعيدٍ ، أو امرأة إلا مَنْ يرضى عنه زوجها .

(٧) الضَّرب المبرح: الشَّديد الشاق .

(٨) ينكتها: يقلبها ، ويرددها إلى النَّاس مشيراً إليهم .

(٩) انظر: صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦١ .

ثمَّ أذَّن ، ثم أقام ، فصلَّى الظُّهر ، ثمَّ أقام ، فصلَّى العصر ، ولم يصلِّ بينهما شيئاً ، ثمَّ ركب رسولُ الله ﷺ ، حتَّى أتى الموقف ، فجعل بطنَ ناقتهِ القصواءِ إلى الصَّخَرَاتِ(١) وجعل حبلَ المشاة بين يديه(٢) ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفاً حتَّى غربت الشمس ، وذهبت الصُّفْرَةُ قليلاً حتى غاب القُرْصُ(٣) .

وذكر أبو الحسن النَّدويُّ : لمَّا فرغ رسول الله ﷺ من صلاته ، والتَّضرُّع ، والابتهال إلى غروب الشَّمس ، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيه : «اللَّهُمَّ! إنَّك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سرِّي ، وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيءٌ من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، والوَجِل المشفِق ، المقر المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذَّليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضَّرير ، مَنْ خضعت لك رقبته ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ جسده ، وَرَغِم أنفهُ لك ، اللَّهُمَّ! لا تجعلني بدعائك ربِّ شقيّاً ، وكن بي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسؤولين! ويا خير المعطين»(٤)!

وهناك أنزلت عليه : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ، فلمَّا غربت الشَّمس؛ أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ وقد شَنَقَ للقصواءِ الزِّمَامَ ، حتَّى إنَّ رأسها ليُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ ، وهو يقول: «أيُّها النَّاس! عليكم السَّكينة(٥)» .

وكان يلبِّي في مسيره ذلك ، لا يقطع التَّلبية حتَّى أتى المزدلفة ، وأمر المؤذِّن بالأذان فأذَّن ، ثمَّ أقام ، فصلَّى المغرب قبل حطِّ الرِّحال ، وتبريك الجمال ، فلمَّا حطُّوا رحالهم؛ أمر ، فأقيمت الصَّلاة ، ثمَّ صلَّى العشاء ، ثمَّ نام ، حتَّى أصبح ، فلمَّا طلع الفجر صلَّاها في أول الوقت ، ثمَّ ركب حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدُّعاء والتَّضرُّع ، والتَّكبير ، والتَّهليل ، والذكر ، حتى أَسْفَرَ جِدّاً(٦) ، وذلك قبل طلوع الشَّمس .

ثمَّ سار من مزدلفة ، مردِفاً للفضل بن عباس ، وهو يلبِّي في مسيره ، وأمر ابن عبَّاسٍ أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصياتٍ ، فلمَّا أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ(٧)؛ حرَّك ناقته ، وأسرع

---

(١) الصَّخرات : صخرات في أسفل جبل الرَّحمة ، وهو الجبل الذي بوسط أرض عرفات .

(٢) حبل المشاة : مجتمعهم ، وقيل : جبل المشاة : ومعناه طريقهم حيث تسلك الرَّجالة .

(٣) حتَّى غاب قرص الشَّمس : حتَّى غابت الشَّمس ، وذهبت الصفرة .

(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩ .

(٥) انظر : صحيح السِّيرة النَّبوية ، ص ٦٦٢ .

(٦) الضمير في (أسفر) يعود على الفجر المذكور ، وقوله : (جدّاً) بكسر الجيم؛ أي : إسفاراً بليغاً .

(٧) سُمِّيَ بذلك لأن قيل : أصحاب الفيل حُسِرَ فيه .

السَّير[١] ، فإنَّ هنالك أصاب أصحابَ الفيل العذابُ ، حتَّى أتى منىً ، فأتى جمرة العقبة ، فرماها راكباً بعد طلوع الشَّمس ، وقطع التلبية[٢] .

ثمَّ رجع إلى مِنىً ، فخطب الناس خطبةً بليغةً ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النَّحر ، وتحريمه ، وفضله عند الله ، وحرمة مكَّة على جميع البلاد ، وأمر بالسَّمع ، والطَّاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر النَّاس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتَّبليغ عنه[٣] .

وقد جاء في هذه الخطبة: «أتدرون أيُّ يومٍ هذا؟» قلنا: اللهُ ورسولُه أعلم ، فَسكَتَ؛ حتَّى ظننَّا أن سيسمِّيه بغير اسمه ، فقال: «أليس ذا الحجة؟» قلنا: بلى! قال: «أي بلدٍ هذا؟» قلنا: الله ورسولُه أعلم ، فَسَكَتَ؛ حتَّى ظننَّا: أنَّه سيسمِّيه بغير اسمه ، قال: «أليست بالبلدة الحرام؟» قلنا: بلى! قال: «فإنَّ دماءكم ، وأموالكم ـ وفي رواية: وأعراضكم ـ عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، إلى يوم تلقون ربكم ، ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم ، قال: «اللَّهُمَّ اشهد! فليبلغ الشَّاهد الغائب ، فَرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامعٍ ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعضٍ»[٤] .

ثمَّ انصرف إلى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنةً بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره ، ثمَّ أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المئة ، فلمَّا أكمل ﷺ نحره استدعى الحلاق ، فحلق رأسه ، وقسم شعره بين مَنْ يليه ، ثمَّ أفاض إلى مكَّة راكباً ، وطاف طواف الإفاضة[٥] ، فصلَّى بمكَّة الظهر ، فأتى بني عبدِ المطلب يَسْقُون على زمزم ، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب ، فلولا أن يغلبكم النَّاس على سِقَايتكم؛ لنزِعتُ معكم» ، فناولوه دلواً ، فشرب منه[٦] .

ثمَّ رجع إلى منىً من يومه ذلك ، فبات بها ، فلمَّا أصبح؛ انتظر زوال الشَّمس ، فلمَّا زالت مشى من رحله إلى الجمار ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثمَّ الوسطى ، ثمَّ الجمرة الثَّالثة ـ وهي جمرة العقبة ـ وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النَّحر ، وخطبة ثانية في ثاني يوم النَّحر[٧] ،

---

(١) انظر صحيح السِّيرة النَّبويّة ، ص ٦٦٢ ، والسِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩ .
(٢) انظر: صحيح السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٨٩ .
(٣) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩٠ .
(٤) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/ ٥٥٠) ، والسِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٧٨) .
(٥) انظر: السِّيرة النَّبوية ، للنَّدوي ، ص ٣٩٠ .
(٦) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٦٣ .
(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٩٠ .

وهو يوم النفر الأول ، وهي تأكيد لبعض ما جاء في خطبتي عرفة ، ويوم النَّحر بمنى .

والواقع أن تكرار الخطب في حَجَّة الوداع كان أمراً لابدَّ منه لحاجة المسلمين ، فهي الحجَّة الوحيدة الَّتي حجَّها الرَّسول ﷺ ، وقد عزَّ فيها الإسلام والمسلمون ، وأصبحت كلمتهم هي النَّافذة في الجزيرة كلِّها ، كما كانت الوداع الأخير ، فما أشدَّ حاجةَ المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التَّذكير ، والنُّصح ، والتَّوصية ، وإلى تكرار القول ، والتَّأكيد عليه حتَّى يعوه ، ويحفظوه ، ولا ينسوه ، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرِّسالة ، وأداء الأمانة![1] .

هذا ، وقد تأخَّر رسول الله ﷺ حتَّى أكمل رمي أيام التَّشريق الثَّلاثة ، ثمَّ نهض إلى مكَّة ، فطاف للوداع ليلاً سحراً ، وأمر النَّاس بالرَّحيل ، وتوجَّه إلى المدينة[2] . وفي طريق العودة من حجَّة الوداع خطب الرَّسول ﷺ النَّاس في غدير خُمٍّ قريباً من الجحفة في اليوم الثَّامن عشر من ذي الحجَّة ، وقد جاء في هذه الخطبة : «أمَّا بعد : ألا أيُّها النَّاس! فإنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسولُ ربِّي فأجيب ، وأنا تاركٌ فيكم ثَقَلَيْنِ ، أوَّلهما كتابُ الله فيه الهدى والنُّور ، فخذوا بكتاب الله ، واستمسكوا به» ، فحثَّ على كتاب الله ، ورغَّب فيه ، ثمَّ قال : «وأهلُ بيتي ، أذكِّركم اللهَ في أهل بيتي ، أذكِّركُم الله في أهل بيتي ، أذكِّركم الله في أهل بيتي» [أحمد (٣/ ١٤ و١٧) ، ومسلم (٢٤٠٨/ ٣٦ و٣٧)] .

وفي روايةٍ : . . . أخذ بيد عليٍّ رضي الله عنه وقال : «من كنتُ وليَّه ، فهذا وليُّه ، اللَّهُمَّ والِ مَنْ والاه ، وعادِ مَنْ عاداه» . [أحمد (١/ ١١٨)][3] ، وفي روايةٍ : «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» [أحمد (٤/ ٣٦٨) ، والترمذي (٣٧١٣)][4] .

وكان عليٌّ قد أقبل من اليمن ، وشهد حجَّة الوداع[5] ، وقد اشتكى بعض الجند عليّاً ، وأنَّه اشتدَّ في معاملتهم ، وكان قد استرجع منهم حللاً وزَّعها عليهم نائبه ، فأوضح لهم النَّبيُّ ﷺ في غدير خُمٍّ مكانةَ عليٍّ ، ونبَّه على فضله لينتهوا عن الشَّكوى[6] ، فقد كان الحقُّ مع عليٍّ في إرجاع ما أعطاهم نائبه في غيبته ؛ لأنَّها أموال صدقاتٍ ، وخمس[7] .

ولما أتى رسولُ الله ﷺ ذا الحليفة ، بات بها ، فلمَّا رأى المدينة ؛ كبَّر ثلاث مرَّاتٍ ، وقال :

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٧٩) ، والمستفاد من قصص القرآن (٢/ ٥١٥) .
(٢) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٣٩٠ .
(٣) صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٦٨٨ .
(٤) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٥٠) .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٢٠٩) .
(٦) انظر : السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة (٢/ ٥٥١) .
(٧) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٨١) .

«لا إلٰه إلا الله وحدَه ، لا شريك له ، له المُلك ، وله الحمد ، وهو على كلِّ شيء قديرٌ ، آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربِّنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحدَه» ، ثمَّ دخلها نهاراً. [البخاري (١٧٩٧) ، ومسلم (١٣٤٤)][١].

ثانياً: الدُّروس ، والعبر ، والفوائد:

١ ـ مرحلة النُّضج الَّتي وصلت إليها الأمَّة:

وصلت الأمَّة الإسلاميَّة في السَّنة العاشرة مرحلةً من النُّضج متقدِّمةً ، وكان ذلك يقتضي لمساتٍ أخيرةً ، فوسَّع ﷺ في العام التَّاسع ، والعاشر من الهجرة دائرة التَّلقِّي المباشر ، من خلال استقباله الوفود ، ومن خلال رحلة الحجِّ ، فأوجد قاعدةً عريضةً تحمل دعوته ، وقد تلقَّت عنه مباشرة ، وكان لذلك أكبر الأثر في أن تبقى رَحَى الإسلام دائرةً ، وإلى الأبد[٢] ، ففي حجَّة الوداع كانت اللَّمسات الأخيرة في تربية الأفراد والمجتمع على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ .

٢ ـ تربية الأفراد على قطع الصِّلة بالجاهليَّة ، والابتعاد عن الذُّنوب:

أ ـ فقد أشار ﷺ إلى أهمِّيَّة قطع المسلم علاقته بالجاهليَّة: أوثانها ، وثاراتها ، وربِاها ، وغير ذلك ، ولم يكن حديثُه ﷺ مجرَّد توصيةٍ ، بل كان قراراً؛ أعلن عنه للملأ كلِّه؛ لأولئك الَّذين كانوا مِنْ حوله ، والأمم الَّتي ستأتي مِنْ بعده ، وهذه هي صيغة القرار: «ألا إنَّ كلَّ شيءٍ من أمر الجاهليَّة تحت قدمي موضوعٌ ، دماءُ الجاهليَّة موضوعةٌ. . . وربا الجاهليَّة موضوعٌ[٣]» لأنَّ الحياة الجديدة الَّتي يحياها المسلم بعد إسلامه حياةٌ لا صلة لها بِرِجْسِ الماضي ، وأدرانه[٤].

ب ـ وقد حذَّر ﷺ من الذُّنوب ، والخطايا ، والآثام ، ما ظهر منها ، وما بطن؛ لأنَّ الذُّنوب ، والخطايا تفعل بالفرد ما لا يفعله العدوُّ بعدوِّه ، فهي سبب مصائبه في الدُّنيا: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠] فتُرْدِيه في نار جهنَّم في الآخرة ، وتفعل في المجتمعات ما لا يفعله السَّيف.

وأعلن رسولُ الله ﷺ : أنَّه لا يقصد بالخطايا العودة إلى عبادة الأصنام؛ لأن العقول الَّتي تفتَّحت على التَّوحيد ترفض أن تعود إلى الشِّرك الظاهر ، ولكنَّ الشَّيطان لا ييئس من أن يجد

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٩١ نقلاً عن زاد المعاد (١/ ٢٤٩).
(٢) انظر: الأساس في السُّنة (٢/ ١٠٥٤).
(٣) انظر: فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص٣٣١.
(٤) قراءةٌ سياسيَّةٌ للسِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد قلعجي ، ص ٣٠٣.

طريقه إليها من ثغرات الخطايا ، والذُّنوب ، حتَّى تُرْدِي صاحبها في المهاوي[١] .

٣ ـ تربية المجتمع على مبادئ أساسيّة :

أ ـ الأخوَّة في الله هي العُروة الوُثقى الَّتي تربط بين جميع المسلمين : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، فقد قال ﷺ : «أيُّها النَّاس ! اسمعوا قولي ، واعقلوه ، تَعَلَّمُنَّ : أنَّ كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلم ، وأنَّ المسلمين إخوةٌ ؛ فلا يحلُّ لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسٍ منه ، فلا تَظْلِمُنَّ أنفسكم» . وقال : «إنَّ دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرامٌ ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا ، حتَّى تلقَوا ربَّكم فيسألَكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدي ضُلَّالاً يضرب بعضُكم رقاب بعض» . [سبق تخريجه] .

ب ـ الوقوف بجانب الضَّعيف ، حتَّى لا يكون هذا الضَّعف ثغرةً في البناء الاجتماعيِّ ، فأوصى ﷺ في خطبته بالمرأة والرَّقيق على أنَّهما نموذجان من الضُّعفاء[٢] ، فقد شدَّد ﷺ في وصيته بالإحسان إلى الضُّعفاء[٣] ، وأوصى خيراً بالنِّساء ، وأكَّد في كلمةٍ مختصرةٍ جامعةٍ القضاءَ على الظُّلم البائد للمرأة في الجاهليَّة ، وتثبيت ضمانات حقوقها ، وكرامتها الإنسانيَّة ، الَّتي تضمَّنتها أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة[٤] .

ج ـ التَّعاون مع الدَّولة الإسلاميَّة على تطبيق أحكام الإسلام، والالتزام بشرع الله ، ولو كان الحاكم عبداً حبشيّاً ؛ فإنَّ في ذلك الصَّلاحَ ، والفلاحَ ، والنَّجاةَ في الدُّنيا ، والآخرة[٥] ، فقد بيَّن ﷺ العلاقة بين الحاكم والمحكوم بأنَّها تعتمد على السَّمع ، والطَّاعة ما دام الرَّئيس يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ، فإذا مال عنهما ؛ فلا سمع ، ولا طاعة ، فالحاكم أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى[٦] .

د ـ المساواة بين البشر : فقد قال ﷺ : «لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ ، ولا لأعجميٍّ على عربيٍّ ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض إلا بالتَّقوى . النَّاس من آدم ، وآدم من تراب» [رواه أحمد (٥/ ٤١١) عن رجل من أصحاب النبيِّ ﷺ ، والبزار (٢٠٤٤) عن أبي سعيد ، والطبراني في الكبير (١٨/ ١٢ ـ ١٣) ، وانظره في مجمع الزوائد (٣/ ٢٧٢)] ؛ حيث حدَّد : أن أساس التَّفاضل لا عبرة فيه لجنسٍ ، ولا لون ، ولا وطن ، ولا قوميَّة ، . . . إلخ ، وإنَّما أساس التَّفاضل قيمةٌ خلقيَّةٌ

---

(١) انظر : قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٠٣ .
(٢) انظر : قراءة سياسية للسِّيرة النَّبويَّة ، ص ٣٠٤ .
(٣) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٥٧٥ .
(٤) انظر : فقه السِّيرة للبوطي ، ص ٣٣٢ .
(٥) انظر : دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين ، ص ٥٧٦ .
(٦) انظر : فقه السِّيرة ، للبوطي ، ص ٣٣٣ .

راقيةٌ ترفع مكانة الإنسان إلى مقاماتٍ رفيعةٍ جدّاً[(١)].

هـ ـ تحديد مصدر التَّلقِّي: وقد حدَّد ﷺ مصدر التَّلقِّي والطَّريقة المثلى لحلِّ مشاكل المسلمين، الَّتي قد تعترض طريقهم، في الرُّجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم بعدَ الاعتصام بهما الأمان من كلِّ شقاءٍ، وضلالٍ، وهما: كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ، وإنَّك لتجده يتقدَّم بهذا التعهُّد، والضَّمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده؛ ليبيِّن للنَّاس أنَّ صلاحية التَّمسُّك بهذين الدَّليلين ليس وقفاً على عصرٍ دون آخر، وأنَّه لا ينبغي أن يكون لأيِّ تطوُّرٍ حضاريٍّ، أو عُرْف زمنيٍّ أيِّ سلطانٍ، أو تغلُّبٍ عليهما[(٢)].

لقد وصف ﷺ الدَّاء، والدَّواء، ووضع العلاج لكلِّ المشكلات بالالتزام التَّامِّ بما جاء من أحكامٍ في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسَّكتُم به؛ لن تضلُّوا بعدي أبداً كتابَ الله، وسنَّتي». [مالك في الموطأ (٢/ ٨٩٩)، ومشكاة المصابيح (١٨٦)، والسلسلة الصحيحة (١٧٦١)].

هذا هو العلاج الدَّائم، وقد كرَّر ﷺ نداءه للبشريَّة عامَّةً عبر الأزمنة، والأمكنة بوجوب الاهتداء بالكتاب، والسُّنَّة في حلِّ جميع المشكلات الَّتي تواجه البشريَّة؛ فإنَّ الاعتصام بهما يجنِّب النَّاس الضَّلال، ويهديهم إلى الَّتي هي أقوم في الحاضر، والمستقبل، لقد اجتازت تعاليم رسول الله ﷺ، وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزَّمن، وأسوار القرون، وظلَّ يتردَّد صداها حتَّى يوم النَّاس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سامعيه، فيقول لهم: (أيُّها المؤمنون! أيُّها المسلمون! أيُّها الحجَّاج)؛ بل كان يقول لهم: (أيُّها النَّاس!)، وقد كرَّر نداءه إلى النَّاس كافَّةً مرَّاتٍ متعدِّدةً دون أن يخصِّصه بجنسٍ، أو بزمانٍ، أو مكانٍ، أو لونٍ، فقد بعثه الله للنَّاس كافَّةً، وأرسله رحمةً للعالمين[(٣)].

٤ ـ الأساليب التعليمية من خطب حجَّة الوداع:

أ ـ التَّعليم بمباشرة ما يراد تعليمه:

علَّم رسولُ الله ﷺ صحابته الكرام مناسك الحجِّ بصورةٍ عمليَّةٍ، بأن قام بها، وباشرها فعلاً، ولم يكتفِ بأن يعلِّمها لهم قولاً، ولذلك قال لهم: «خذوا عنِّي مناسككم» [رواه مسلم (١٢٩٧)، وأبو داود (١٩٧٠)، والنسائي (٥/ ٢٧٠)][(٤)]، وعلى هذا فيُستحسن من الدُّعاة؛ وهم يعلِّمون الناس معاني الإسلام أن يعلِّموهم هذه المعاني، والمطلوبات الشَّرعية، أو بعضَها في

---

(١) انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام، لعرجون (٢/ ٨٧٦).
(٢) انظر: فقه السِّيرة، للبوطي، ص ٣٣٣.
(٣) انظر: الجانب السِّياسي في حياة الرَّسول ﷺ لأحمد محمد باشميل، ص ١٣١.
(٤) انظر: السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٥٤٩).

الأقلِّ بصورةٍ عمليَّةٍ كالوضوء ، والصَّلاة ، وتعليم قراءة القرآن بصورةٍ سليمةٍ[١].

ب ـ تكرار الخُطَب :

لاحظنا : أنَّ النَّبي ﷺ كرر خطبه ، فقد خطب في عرفة ، وفي منىً مرَّتين ، كما كرَّر معاني بعض هذه الخطب ، فعلى الدُّعاة أن يقتدوا برسول الله ﷺ ، فيكرِّروا خطبهم ، ويكرِّروا بعض معانيها الَّتي يرون حاجةً لتكرارها ؛ حتَّى يستوعبها السَّامعون ، ويحفظوها ؛ لأنَّ القصد من خُطب الخطيب إفادة السَّامعين بما يقول ، فإذا كانت الفائدة لا تحصل ، أو لا تتمُّ إلا بتكرار الخُطب من حيث عددها ، أو بتكرارها من حيث تكرار معانيها ، فليكرِّرها الدَّاعية ، ولا يكون حرصه على أن يأتي بجديدٍ في خطبه ، ما دام يرى الحاجة في ترسيخ معانٍ معيَّنةٍ في أذهان السَّامعين .

إنَّ الدَّاعية همُّه أن يفيد السَّامعين ، وليس همُّه أن يُظهر براعته في الخُطَب ، وفي تنوُّع معانيها دون نظرٍ ، ولا اعتبارٍ إلى ما يحتاج إليه السَّامعون ، ودون اعتبارٍ لفهمهم هذه المعاني ، واستيعابهم لها[٢].

ج ـ فَلْيُبَـلِّغ الشَّاهدُ الغائبَ :

وفي هذا توجيهٌ نبويٌّ كريمٌ لكي تعمَّ الفائدة أكبر عددٍ ممكنٍ من النَّاس ، فهذا من باب التعاون على الخير ؛ ولأنَّ الغائب قد يكون أوعى للعلم ، وأكثر فهماً له من الحاضر الَّذي سمع ، وعلى الدُّعاة ، والعلماء عندما يُلْقُون درساً أو محاضرةً لإخوانهم أو لعامَّة النَّاس أن يقولوا للحاضرين : «فليبلِّغ الحاضرُ منكم الغائبَ بما سمعه» . [البخاري (٦٧)] .

د ـ جلب انتباه الحاضر لما يقوله الخطيب :

ويستفاد من سؤال النَّبيِّ ﷺ الحاضرين عن اسم اليوم الَّذي هم فيه ، وكذا عن الشَّهر ، والبلد ـ وهم يعرفونها ـ ما يجلب انتباههم إلى ما قد عسى أن يريده بطرح هذه الأسئلة ، فيصغون إليه إصغاءً تامّاً ، قال القرطبيُّ : سؤال النَّبيِّ ﷺ عن الثلاثة : أي : عن اليوم ، والشَّهر ، والبلد ، وسكوته بعد كلِّ سؤالٍ منها ؛ كان لاستحضار فهومهم ، وليُقبلوا عليه بكليَّتهم وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه . . . فعلى العلماء ، والدُّعاة أن يقدِّموا بين يدي ما يقولونه ما يدعو إلى جلب انتباه السَّامعين ، ويشدُّهم إلى كلامهم[٣].

---

(١) انظر : المستفاد من قَصص القرآن (٢/ ٥١٨) .
(٢) انظر : المستفاد من قَصص القرآن (٢/ ٥١٧ ، ٥١٨) .
(٣) انظر : المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدعاة (٢/ ٥١٨) .

٥ ـ بعض الأحكام الفقهيَّة المستنبطة من حجَّة الوداع :

جاءت حجَّة الوداع حافلةً بالأحكام الشَّرعية ، وخاصَّةً ما يتعلَّق بالحجِّ ، وبالوصايا ، والأحكام الَّتي وردت في خطبة عرفات ، لذلك اهتمَّ العلماء بحجَّة الوداع اهتماماً كبيراً ، واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك ، وغيرها ممَّا تحفِل به كتبُ الفقه ، وكتبُ شروح الحديث ، وخصَّص بعضُهم مؤلفاتٍ مستقلَّةً في حجَّة الوداع[1] .

ونشير إلى بعض هذه الأحكام باختصارٍ شديدٍ ، فمن هذه الأحكام :

أ ـ إفطار الحاجِّ يوم عرفة :

قالت ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها زوج النَّبيِّ ﷺ : إنَّ النَّاس شكُّوا في صيام رسول الله ﷺ يوم عرفة ، فأرسلْتُ إليه بحلابٍ[2] ، وهو واقفٌ في الموقف ، فشرب منه ، والنَّاس ينظرون إليه . [البخاري (١٩٨٩) ، ومسلم (١١٢٣/ ١١٠)] .

ب ـ كيف يفعل بمن تُوفي مُحْرِماً؟

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: بينما رجلٌ واقفٌ مع رسول الله ﷺ بعرفة؛ إذْ وقع عن راحلته ، فَوَقَصَتْهُ ، أو فأَوْقَصَتْهُ[3] ، فذُكر ذلك للنَّبيِّ ﷺ فقال : «اغسلوه بماءٍ وسدْرٍ ، وكفِّنوه في ثوبين ، ولا تحنِّطوه[4] ، ولا تخمِّروا[5] رأسه؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة ملبِّياً»[6] . [أحمد (١/ ٢١٥) ، ومسلم (١٢٠٦) ، والنسائي (٥/ ١٩٥) ، وابن ماجه (٣٠٨٤)] .

ج ـ هل يجوز الحجُّ عن الغير؟

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما : كان الفضل بنُ العبَّاس رديفَ رسول الله ﷺ ، فجاءت امرأةٌ من خثعم ، فجعل الفضلُ ينظر إليها ، وتنظر إليه ، وجعل النَّبيُّ ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشِّقِّ الآخر ، فقالت : يا رسول الله! إنَّ فريضة الله على عباده في الحجِّ أدركت أبي شيخاً كبيراً ، لا يَثْبُتُ على الرَّاحلة ، أفأحجُّ عنه؟ قال: «نعم». وذلك في حَجَّة الوداع . [البخاري (١٥١٣) ، ومسلم (١٣٣٤)] .

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبوية الصَّحيحة (٢/ ٥٤٩) ، وما ألفه الألباني «حجَّة النَّبي ﷺ » .

(٢) الإناء الذي يحلب فيه .

(٣) فوقصته : قتلته في الحال .

(٤) لا تحنِّطوه : لا تضعوا عليه من الطِّيب شيئاً .

(٥) لا تخمِّروا رأسه : لا تغطوا رأسه .

(٦) ملبِّياً : يحشر يوم القيامة على الهيئة التي مات عليها .

د ـ منهج التَّيسير (لا حرج! لا حرج!):

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: وقف رسول الله ﷺ على راحلته، فطفق ناس يسألونه، فيقول القائل: يا رسول الله! إنِّي لم أكن أشعر: أنَّ الرمي قبل النَّحر، فنحرت قبل الرَّمي؟ فقال رسول الله ﷺ: «ارم، ولا حرج!» قال: وطفق آخر يقول: إنِّي لم أشعر أنَّ النَّحر قبل الحلق، فحلقت قبل أن أنحر، فيقول: «انحر، ولا حرج!» قال: فما سمعته يُسأل يومئذٍ عن أمرٍ ممَّا ينسى المرء ويجهل، من تقديم بعض الأمور قبل بعض، وأشباهها، إلا قال رسول الله ﷺ: «افعل، ولا حرج!». [البخاري (٨٣)، ومسلم (١٣٠٦)].

هذه بعض الأحكام المختصرة، ومن أراد المزيد فليراجع ما كتبه الألبانيُّ عن حجَّة الوداع فقد لخص الحَجَّةَ في اثنتين وسبعين مسألة[١]، وكتاب «الوصيَّة النَّبويَّة للأمَّة الإسلاميَّة» للدكتور فاروق حمادة، فقد جمع من المصادر الأدبيَّة، والحديثيَّة، وكتب أهل السِّير ثمانية وثلاثين بنداً، ثمَّ قام بتحليلها، وتخريجها، وتوثيق نصوصها بميزان الجرح والتَّعديل؛ الَّذي اعتمده أئمَّة المسلمين منذ الصَّدر الأول؛ لأنَّ الأمر دينٌ وشرعٌ كما قال، وقد أجاد، وأفاد[٢].

٦ ـ فوائد في تسمية أيام الحجِّ:

كان يقال لليوم السَّابع من ذي الحجة يومُ الزِّينة؛ لأنَّه تُزيَّن فيه البُدن الَّتي تُهدى بالجلال، وغيرها، واليوم الثَّامن يقال له: يوم التَّروية؛ لأنَّهم كانوا يروون فيه إبلهم من الماء، ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف، وما بعده؛ لأنَّ هذه الأماكن لم يكن فيها يومئذٍ آبارٌ، ولا عيونٌ، أمَّا الآن ففيها الماء الكثير والحمد لله! واليوم التَّاسع: يوم عرفة؛ للوقوف فيه بها، واليوم العاشر: يوم النَّحر، ويوم الأضحى، ويوم الحجِّ الأكبر. واليوم الحادي عشر: يوم القرِّ؛ لأنَّهم يقرُّون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس؛ لأنَّهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي، وهو أوَّل أيام التَّشريق، وثاني أيَّام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الأوَّل؛ لجواز الخروج فيه إلى مكَّة لمن يريد التَّعجيل، وثالث أيام التَّشريق يقال له: يوم النَّفر الثَّاني[٣].

قال عزَّ شأنه: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

* * *

(١) انظر: السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة، ص ٦٨٣.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٨١.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبوية، لأبي شهبة (٢/ ٥٧٩).

المبحث الثَّامن
مرض رسول الله ﷺ ووفاتُه

إنَّ الأرواح الشَّفافة الصَّافية القويَّة لتدرك بعض ما يكون مخبوءاً وراء حُجُب الغيب بقدرة الله تعالى ، والقلوب الطَّاهرة المطمئنة لتحدِّث صاحبها بما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزَّمان ، والعقول الذَّكيَّة المستنيرة بنور الإيمان لتدرك ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات ، وتلميحات ، ولنبيِّنا محمَّد ﷺ من هذه الصِّفات الحظ الأوفر ، وهو منها بالمحلِّ الأرفع ؛ الذي لا يُسامَى ، ولا يُطاوَل[(١)].

ولقد جاءت بعض الآيات القرآنيَّة مؤكِّدةً على حقيقة بشرية النَّبيِّ ﷺ ، وأنَّه كغيره من البشر سوف يذوق الموت ، ويعاني سكراته ، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء ، ولقد فهم ﷺ من بعض الآيات اقترابَ أجله ، وقد أشار ﷺ في طائفة من الأحاديث الصَّحيحة إلى اقتراب وفاته ، منها ما هو صريح الدَّلالة على الوفاة ، ومنها ما ليس كذلك ، حيث لم يشعر ذلك منها إلا الآحاد من كبار الصَّحابة الأجلاَّء ؛ كأبي بكرٍ ، والعباس ، ومعاذٍ رضي الله عنهم[(٢)].

أولاً : الآيات والأحاديث الَّتي أشارت إلى وفاته ﷺ :

١ ـ الآيات :

أ ـ قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٤].

قال القرطبيُّ : فأعْلَمَ اللهُ تعالى في هذه الآية : أنَّ الرسل ليست بباقيةٍ في قومها أبداً ، وأنه يجب التَّمسُّك بما أتت به الرُّسل ؛ وإن فُقِدَ الرَّسولُ بموتٍ ، أو قَتْلٍ[(٣)].

ب ـ قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠].

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي شهبة (٢/ ٥٨٧).
(٢) انظر : مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاته ، لخالد أبو صالح ، ص ٣٣.
(٣) انظر : تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢٢٢).

قال ابن كثير: هذه الآية من الآيات الَّتي استشهد بها الصِّدِّيق رضي الله عنه عند موت الرَّسول ﷺ حتَّى تحقَّق النَّاس موته[1].

ج ـ قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ثـمَّ أعقب ذلـك ببيان: أنَّ الموت حتمٌ لازمٌ، وقـدرٌ سـابق، فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فهذه الآيات صريحةٌ، ونصَّت على وفاته ﷺ.

وهناك بعض الآيات أشارت إلى ذلك وإن لم تصرِّح؛ منها:

ـ قال تعالى: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٤ ـ ٥].

ـ قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ـ قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

فهذه الآيات تبيِّن: أنَّ جميع أهل الأرض ستمضي فيهم سنَّة الله في موت خلقه، لن يتخلَّف منهم أحدٌ أبداً.

ـ قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

وقد بكى عمر بن الخطَّاب حين نزلت الآية، فقيل: ما يبكيك؟ فقال: إنَّه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان!! وكأنه استشعر وفاة النَّبيِّ ﷺ[2].

ـ قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

فقد سأل عمر رضي الله عنه ابن عباس رضي الله عنهما عن هذه الآية: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾، فقال: أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعلَمَهُ إيَّاه، فقال: ما أعلم منها إلا ما تعلم [البخاري (٤٤٣٠)].

في روايـة الطَّبراني: قال ابن عبَّاس: نُعِيَتْ إلى رسول الله ﷺ نفسُه حين نزلت، فأخـذ بأشـدِّ ما كان قـطُّ اجتهـاداً في أمر الآخرة. [الطبراني في الكبير (٢٦٧٦)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٦ ـ ٢٧)، وابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٢٩٥ ـ ٣٠١)].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣).
(٢) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ١٨٩).

٣ ـ أمَّا الأحاديث الَّتي أشارت إلى ذلك :

أ ـ قالت عائشة رضي الله عنها : إنَّا كنَّا أزواجَ النَّبيِّ ﷺ عنده جميعاً لم تُغادِر منَّا واحدةٌ ، فأقبلت فاطمة عليها السَّلام ، ولا والله ما تخفَى مشيتُها من مشية رسول الله ﷺ ، فلمَّا رآها ؛ رحَّبَ ؛ قال : «مرحباً بابنتي» . فأقعدها يمينه ـ أو شماله ـ ثمَّ سارَّها فبكت ، ثمَّ سارَّها ، فضحكت ، فقلت لها : خصَّك رسول الله بالسِّرار ، وأنت تبكين؟! فلمَّا أن قامت قلت لها : أخبريني ما سارَّك؟ فقالت : ما كنت لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ ، فلمَّا توفي قلت لها : أسألك لما لي عليك من الحقِّ لما أخبرتيني ، قالت : أمَّا الآن ؛ فنعم ، قالت : سارَّني في الأوَّل ، قال لي : «إنَّ جبريل كان يعارضني في القرآن كلَّ سنةٍ مرَّةً ، وقد عارضني في هذا العام مرَّتين ، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي ، فاتقي الله ، واصبري ، فنعم السَّلف أنا لك!» فبكيت ، ثمَّ سارَّني ، فقال : «أما ترضين أن تكوني سيِّدة نساء المؤمنين ، أو سيِّدة نساء هذه الأمَّة؟» فضحكتُ . [البخاري (٦٢٨٥ و٦٢٨٦) ، ومسلم (٢٤٥٠/ ٩٨ ـ ٩٩)] .

وفي هذا الحديث دليلٌ قاطعٌ ، وإشارةٌ واضحةٌ إلى اقتراب أجل رسول الله ﷺ ، وأنَّ ساعة الفراق قد باتت قريبةً إلا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد اختصَّ ابنته فاطمة رضي الله عنها بعلم ذلك ، ولم يعلم به المسلمون إلا بعد وفاة رسول الله ﷺ[1] .

ب ـ قال جابر رضي الله عنه : رأيت النَّبيَّ ﷺ يرمي على راحلته يوم النَّحر ، ويقول : «لتأخذوا مناسككم ؛ فإنِّي لا أدري لعلِّي لا أحُجُّ بعد حجَّتي هذه!» . [سبق تخريجه] .

قال النَّوويُّ : فيه إشارةٌ إلى توديعهم ، وإعلامهم بقرب وفاته ﷺ ، وحثِّهم على الاعتناء بالأخذ عنه ، وانتهاز الفرصة من ملازمته ، وتعلُّم أمور الدِّين ، وبهذا سمِّيت حجَّة الوداع[2] .

وقال ابن رجب : وما زال ﷺ يُعرِّض باقتراب أجله في آخر عمره ، فإنَّه لما خطب في حجَّة الوداع قال للنَّاس : «خذوا عنِّي مناسككم ، فلعلِّي لا ألقاكم بعد عامي هذا! فطفق يودِّع النَّاس ، فقالوا : هذه حجَّة الوداع[3] .

ج ـ قال أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه : خطب رسول الله ﷺ للنَّاس ، وقال : «إنَّ الله خيَّر عبداً بين الدُّنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله» . قال : فبكى أبو بكرٍ رضي الله عنه ، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خُيِّر ! فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر ، وكان أبو بكرٍ أعلمَنا . [البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢)] .

---

(١) انظر : مرض النَّبيِّ ﷺ ، ووفاته ، ص ٣٥ .
(٢) انظر : شرح النَّووي على صحيح مسلم (٩/ ٤٥) .
(٣) انظر : لطائف المعارف ، ص ١٠٥ .

قال الحافظ ابن حجر: وكأنَّ أبا بكر رضي الله عنه فهم الرَّمز الَّذي أشار به النَّبيُّ ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه: أنَّه أراد نفسه، فلذلك بكى[1].

د ـ قال العبَّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه: رأيت في المنام كأنَّ الأرض تنزع إلى السَّماء[2] بأشطانٍ[3] شدادٍ، فقصصت ذلك على النَّبيِّ ﷺ فقال: «ذاك وفاة ابن أخيك» [البزار (٨٤٤)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٣ ـ ٢٤)].

وفي هذا الحديث إخبار النَّبي ﷺ بقرب وفاته، وفيه صدق رؤيا المؤمن، واستشعار بعض الصَّحابة وفاته ﷺ[4].

هـ ـ وعن معاذٍ: أنَّ النَّبي ﷺ لمَّا بعثه إلى اليمن؛ خرج راكباً؛ والنَّبيُّ ﷺ يمشي تحت راحلته، فقال: «يا معاذ! إنَّك عَسَى ألا تلقاني بعد عامي هذا، فتمرَّ بقبري، ومسجدي» فبكى معاذٌ لفراقه ﷺ، فقال: «لا تبك يا معاذ! فإنَّ البكاء من الشَّيطان» [أحمد (٥/ ٢٣٥)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٢١)، وابن حبان (٦٤٧)، ومجمع الزوائد (٩/ ٢٢)]. وفي الحديث إخبار النَّبيِّ ﷺ معاذ بن جبل باقتراب أجله، وأنَّه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا، وفيه شدَّة محبَّة الصَّحابة للنَّبيِّ ﷺ وبكائهم؛ إذا ذكروا فراقه[5].

ثانياً: مرض الرَّسول ﷺ

بـدء الشَّكوى:

رجع رسول الله ﷺ من حجَّة الوداع في ذي الحجَّة، فأقام بالمدينة بقيَّته، والمحرَّم، وصفراً، من العام العاشر، فبدأ بتجهيز جيش أسامة، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجَّه نحو البلقاء، وفلسطين، فتجهَّز النَّاس، وفيهم المهاجرون، والأنصار، وكان منهم أبو بكر، وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة، وتكلَّم البعض في تأميره[6]، وهو مولىً، وصغيرُ السِّنِّ على كبار المهاجرين، والأنصار، فلم يقبل الرَّسول ﷺ طعنهم في إمارة أسامة[7]، فقال ﷺ: «إن يطعنوا في إمارته؛ فقد طعنوا في إمارة أبيه، وايمُ

---

(١) فتح الباري (٧/ ١٦).
(٢) تنزع إلى السَّماء: أي: تجذب، وأصل النزع: الجذب، والقلع.
(٣) بأشطان شداد: الأشطان جمع شطن، وهو الحبل.
(٤) انظر: مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاته، ص ٣٧.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨.
(٦) ينظر الشكل (٢٤) في الصفحة (٦٢٨).
(٧) انظر: السِّيرة النَّبويَّة الصحيحة (٢/ ٥٥٢).

الله! إن كان لخليقاً للإمارة ، وإن كان لمن أحبِّ النَّاس إليَّ ، وإنَّ ابنه هذا لمن أحبِّ النَّاس إليَّ بعده». [البخاري (٣٧٣٠) ، ومسلم (٢٤٢٦)].

وبينما النَّاس يستعدُّون للجهاد في جيش أسامة؛ ابتدئ رسول الله ﷺ بوجعه الَّذي قبضه الله فيه ، وقد حدثت حوادثُ ما بين مرضه ، ووفاته؛ منها :

أ ـ النَّبيُّ ﷺ في البقيع وزيارته قتلى أحدٍ ، وصلاتُه عليهم :

عن أبي مُوَيْهِبَةَ مولى رسول الله ﷺ ؛ قال : بعثني رسول الله ﷺ في جَوف اللَّيل ، فقال : «يا أبا مُوَيْهِبَة! إنِّي قد أُمِرت أن أستغفر لأهل البقيع ، فانطلق معي». فانطلقت معه ، فلمَّا وقف بين أظهرهم ؛ قال : «السَّلام عليكم يا أهل المقابر! ليَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه ممَّا أصبح النَّاس فيه ، أقبلت الفتن كقطع اللَّيل المظلم ، يتبع آخرُها أوَّلها ، والآخرة شرٌّ من الأولى»[1]. ثمَّ أقبل عليَّ ، فقال : «يا أبا مُوَيْهِبَة! إنِّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدُّنيا ، والخلد فيها ، ثمَّ الجنَّة ، فخيِّرت بين ذلك ، وبين لقاء ربِّي ، والجنَّة». قال : فقلت : بأبي أنت وأمِّي! خذ مفاتيح خزائن الدُّنيا ، والخُلد فيها ، ثمَّ الجنَّة ، قال : «لا والله يا أبا مويهبة! لقد اخترت لقاء ربي والجنَّة». ثمَّ استغفر لأهل البقيع ، ثمَّ انصرف ، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه؛ الَّذي قبضه الله فيه. [أحمد (٣/ ٤٨٩) ، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧) ، والدارمي (٧٩) ، والحاكم (٣/ ٥٦) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤)].

ومن حديث عقبة بن عامر الجهنيِّ رضي الله عنه ، قال : إنَّ رسول الله ﷺ صلَّى على قتلى أحدٍ بعد ثماني سنين كالمودِّع للأحياء ، والأموات ، ثمَّ طلع المنبر ، فقال : «إني بين أيديكم فَرَطٌ ، وأنا عليكم شهيدٌ ، وإنَّ موعدكم الحوض ، وإنِّي لأنظر إليه؛ وأنا في مقامي هذا ، وإنِّي لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدُّنيا أن تنافسوها». فقال عقبة : فكانت آخر نظرةٍ نظرتها إلى رسول الله ﷺ . [البخاري (١٣٤٤) ، ومسلم (٢٢٩٦)].

ب ـ استئذانه ﷺ أن يُمرَّض في بيت عائشة ، وشدَّة المرض الَّذي نزل به :

قالت عائشة رضي الله عنها : لمَّا ثَـقُلَ رسول الله ﷺ واشتدَّ به وجعُه؛ استأذن أزواجه في أن يمرَّض في بيتي ، فأذنَّ له ، فخرج وهو بين رجلين ، تخطُّ رجلاه في الأرض ، بين عبَّاسٍ ورجلٍ آخر[2] ، ولمَّا دخل بيتي؛ اشتدَّ وجعه. قال : «أهريقوا عليَّ من سبع قربٍ لم تُحْلَلْ

---

(١) أي : الفتن الآخرة.

(٢) قال ابن عبَّاس : الرجل الآخر هو عليُّ بن أبي طالب.

أوكيتُهنَّ[١] ، لعلِّي أعهد إلى النَّاس» فأجلسناه في مِخْضَبٍ[٢] لحفصة ، ثمَّ طفقنا نصبُّ عليه من تلك القرب ، حتَّى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتُنَّ ، ثمَّ خرج إلى النَّاس فصلَّى بهم ، وخطبهم [البخاري (١١٩٨)] ، وقالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت رجلاً أشدَّ عليه الوَجَعُ من رسول الله ﷺ . [البخاري (٥٦٤٦) ، ومسلم (٢٥٧١)] .

وقال عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يُوعَكُ فمسسته بيدي ، فقلت: يا رسول الله! إنك لَتُوعَكُ وعْكاً شديداً ، فقال رسول الله ﷺ : «أَجَلْ؛ إنِّي أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم». قال: فقلت: ذلك أنَّ لك أجرين ، فقال رسول الله ﷺ: «أجلْ!» ، ثمَّ قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم يصيبه أذىً من مرضٍ فما سواه إلا حَطَّ الله به سيئاتِه ، كما تَحُطُّ الشَّجرةُ ورقَها». [البخاري (٥٦٤٧) ، ومسلم (٢٥٧٠)] .

ثالثاً: من وصايا رسول الله ﷺ في أيَّامه الأخيرة:

١ ـ وصيته ﷺ بالأنصار:

مرَّ العبَّاس رضي الله عنه بقومٍ من الأنصار يبكون حين اشتدَّ برسول الله ﷺ وجعُه ، فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلسنا من رسول الله ﷺ ، فدخل العبَّاس عليه ﷺ ، فأخبره ، فعُصِّب بعصابةٍ دسماء[٣] ، أو قال: بحاشية بُرد ، وخرج ، وصعِد المنبر ـ ولم يصعد بعد ذلك اليوم ـ ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثمَّ قال: «أوصيكم بالأنصار فإنَّهم كَرِشي[٤] ، وعَيْبَتي[٥] ، وقد قَضوا الَّذي عليهم ، وبقي الَّذي لهم ، فاقبلوا من مُحسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم». [البخاري (٣٧٩٩) ، ومسلم (٢٥١٠)] .

وفي الحديث شدَّة محبَّة الأنصار لرسول الله ﷺ ، وبكاؤهم لمرضه ، وحرمانهم من مجلسه[٦] .

٢ ـ إخراج المشركين من جزيرة العرب وإجازة الوفد:

لقد ازدادت شدَّة المرض على رسول الله ﷺ ، بحيث كان يُغْمَىٰ عليه في اليوم الواحد مرَّاتٍ عديدةً ، ومع ذلك كلِّه أَحَبَّ ﷺ أن يفارق الدُّنيا وهو مطمئنٌّ على أمَّته أن تضلَّ من بعده ، فأراد

---

(١) جمع الوكاء ، وهو ما يشدُّ به رأس القربة.
(٢) مخضب: بكسر الميم ، وهي الإجَّانة الَّتي تغسل فيها الثياب.
(٣) بعصابة دسماء: أي: سوداء.
(٤) كرشي ، وعيبتي: أراد أنَّهم بطانته ، وموضع سرِّه ، وأمانته ، والَّذين يعتمد عليهم في أموره ، واستعار الكرش ، والعيبة لذلك.
(٥) العيبة: ما يحرز فيه الرَّجل نفيس ما عنده.
(٦) انظر: مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاته ، ص ٦٥ .

أن يكتب لهم كتاباً مفصَّلاً؛ ليجتمعوا عليه، ولا يتنازعوا ، فلمَّا اختلفوا عنده ﷺ عدل عن كتابة ذلك الكتاب ، وأوصاهم بأمورٍ ثلاثةٍ ، ذكر الرَّاوي منها اثنين :

ـ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب .

ـ وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم به . [البخاري (٣٠٥٣) ، ومسلم (١٦٣٧)] .

٣ ـ النَّهي عن اتِّخاذ قبره مسجداً :

كان من آخر ما تكلَّم به رسول الله ﷺ قوله : «قاتل الله اليهود والنَّصارى! اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» . [البخاري (٤٣٧) ، ومسلم (٥٣٠)][(١)] .

٤ ـ إحسان الظَّنِّ بالله :

قال جابر رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظَّنَّ بالله ، عزَّ وجلَّ» . [أحمد (٣/ ٢٩٣) ، ومسلم (٢٨٧٧/ ٨١) ، وأبو داود (٣١١٣) ، وابن ماجه (٤١٦٧)] .

٥ ـ الوصية بالصَّلاة ، وما ملكت أيمانكم :

قال أنس رضي الله عنه : كانت وصيَّة رسول الله ﷺ حين حضره الموت : «الصَّلاة وما ملكت أيمانكم!» حتَّى جعل يغرغر بها في صدره ، ولا يفيض بها لسانُه . [أحمد (٣/ ١١٧) ، وابن ماجه (٢٦٩٧) ، وابن حبان (٥/ ٦٦)] .

٦ ـ لم يبقَ مِنْ مبشِّرات النُّبوَّة إلا الرُّؤيا :

قال عبد الله بن عبَّاسٍ رضي الله عنهما : كَشَفَ رسول الله ﷺ السِّتْـرَ ، وهو مَعْصُوبٌ في مرضه؛ الَّذي مات فيه ، فقال : «اللَّهُمَّ! هل بَلَّغْتُ؟ ـ ثلاث مرَّات ـ إنَّه لم يبقَ من مُبَشِّرات النُّبوة إلا الرُّؤيا ، يراها العبد الصَّالح ، أو ترى له . ألا وإنِّي قد نهيت عن القراءة في الرُّكوع ، والسُّجود ، فإذا ركعتم؛ فعظِّموا الله ، وإذا سجدتم؛ فاجتهدوا في الدُّعاء ، فإنَّه قَمِنٌ[(٢)] أن يستجاب لكم» . [أحمد (١/ ٢١٩) ، ومسلم (٤٧٩) ، وأبو داود (٨٧٦) ، والنسائي (٢/ ١٨٩) ، وابن ماجه (٣٨٩٩)] .

رابعاً : أبو بكر يصلِّي بالمسلمين :

ولمَّا اشتدَّ المرض بالنَّبيِّ ﷺ ، وحضرت الصَّلاة ، فأذَّن بلالٌ ، قال النَّبيُّ ﷺ : «مُروا

---

(١) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٧١٢ .

(٢) قمنٌ : أي : جديرٌ ، وحقيقٌ .

أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ» فقيل: إنَّ أبا بكر رجلٌ أَسِيفٌ[١]، إذا قام مقامك؛ لم يستطع أن يُصلِّي بالنَّاس. وأعاد، فأعادوا له، فأعاد الثَّالثة، فقال: «إنكنَّ صواحبُ يوسف[٢]، مُروا أبا بكر فليصلِّ بالنَّاس!» فخرج أبو بكرٍ، فوجد النَّبيُّ ﷺ في نفسه خفَّةً، فخرج يهادى بين رجلين، كأنِّي أنظر إلى رجليه تَخُطَّانِ من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخَّر فأومأ إليه النَّبيُّ ﷺ: أنْ مكانك، ثمَّ أُتي به حتَّى جلس إلى جنبه. قيل للأعمش: فكان النَّبيُّ ﷺ يُصلِّي، وأبو بكر يصلِّي بصلاته، والنَّاس يصلُّون بصلاة أبي بكرٍ؟ فقال برأسه: نعم. [البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٤١٨/ ٩٥)].

خامساً: السَّاعات الأخيرة من حياة المصطفى ﷺ:

١ ـ كان أبو بكرٍ يصلِّي بالمسلمين؛ حتَّى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوفٌ في صلاة الفجر، كشف النَّبيُّ ﷺ سِتْرَ الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوفٌ أمام ربِّهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته، وجهاده، وكيف نشأت أمَّةٌ تحافظ على الصَّلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيِّها وغيبته، وقد قرَّت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النَّجاح الَّذي لم يُقَدَّر لنبيٍّ، أو داعٍ قبله، واطمأنَّ أنَّ صلة هذه الأمَّة بهذا الدِّين، وعبادة الله تعالى صلةٌ دائمةٌ، لا تقطعها وفاة نبيِّها، فملئ من السُّرور ما الله به عليم، واستنار وجهه؛ وهو منيرٌ[٣].

يقول الصَّحابة رضي الله عنهم: كشف النَّبيُّ ﷺ سِتْرَ حجرة عائشة ينظر إلينا؛ وهو قائمٌ، كأنَّ وجهه ورقةُ مصحفٍ، ثمَّ تبسَّم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح، وظنَّنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ خارجٌ إلى الصَّلاة، فأشار إلينا أن أتمُّوا صلاتكم، ودخل الحجرة، وأرخى السِّتْر. [البخاري (٤٤٤٨)]. وانصرف بعض الصَّحابة إلى أعمالهم، ودخل أبو بكرٍ على ابنته عائشة، وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة ـ إحدى زوجتيه، وكانت تسكن بالسُّنح[٤] ـ فركب على فرسه، وذهب إلى منزله[٥].

٢ ـ في الرَّفيق الأعلى:

واشتدَّت سكرات الموت بالنَّبيِّ ﷺ، ودخل عليه أسامة بن زيد؛ وقد صمت فلا يقدر على الكلام، فجعل يرفع يديه إلى السَّماء، ثم يضعها على أسامة، فعرف أنَّه يدعو له، وأخذت السَّيدة عائشة رسول الله، وأوسدته إلى صدرها بين سَحْرها، ونحرها[٦]، فدخل

---

(١) أسيف: من الأسف، وهو شدَّة الحزن، والمراد: أنَّـه رقيق القلب.
(٢) والمراد أنَّهنَّ مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدوي، ص ٤٠١.
(٤) السُّنح: موضع خارج المدينة كان للصدِّيق مال فيه، وبيت.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٥٩٣).
(٦) السَّحْر: الرِّئة، والنَّحْر: الثغرة التي في أسفل العنق.

عبد الرَّحمن بن أبي بكر ، وبيده سواكٌ ، فجعل رسولُ الله ﷺ ينظر إليه ، فقالت عائشة : آخذه لك؟ فأشار برأسه : أنْ نعم ، فأخذته من أخيها ، ثمَّ مضغته ، وليَّنته ، وناولته إيَّاه ، فاستاك به كأحسن ما يكون الاستياك ، وكلُّ ذلك وهو لا ينفكُّ عن قوله : «في الرَّفيق الأعلى» [البخاري (٤٤٣٧) ، ومسلم (٢٤٤٤/ ٨٧)] .

وكان ﷺ يُدخل يده في رَكوة ماءٍ ، أو علبةٍ فيها ماءٌ ، فيمسح بها وجهه ، ويقول : «لا إلٰه إلا الله ، إنَّ للموت سكراتٍ!» ثمَّ نصب يده ، فجعل يقول : «في الرَّفيق الأعلى» حتَّى قُبِضَ ، ومالت يده . [البخاري (٤٤٤٩)] .

وفي لفظ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقول : «اللَّهُمَّ! أعنِّي على سكرات الموت» . [أحمد (٦/ ٦٤) ، والترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٩٣)] .

وفي روايةٍ : أنَّ عائشة رضي الله عنها سمعت النَّبيَّ ﷺ ، وأصغت إليه قبل أن يموت ؛ وهو مُسْنِدٌ إلى ظَهْره يقول : «اللَّهُمَّ! اغفر لي ، وارحمني ، وألحقني بالرفيق الأعلى!» . [البخاري (٤٤٤٠) ، ومسلم (٢٤٤٤/ ٨٥)] .

وقد ورد : أنَّ فاطمة رضي الله عنها قالت : واكرب أباه! فقال لها : «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» فلمَّا مات ؛ قالت : يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه . يا أبتاه! من جنَّة الفردوس مأواه . يا أبتاه! إلى جبريل ننعاه . فلمَّا دُفِن ﷺ قالت لأنسٍ : كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التُّراب؟! [البخاري (٤٤٦٢)] .

٣ ـ كيف فارق رسول الله ﷺ الدُّنيا؟

فارق رسول الله ﷺ الدُّنيا وهو يحكم جزيرة العرب ، ويرهبُه ملوك الدُّنيا ، ويَفْديه أصحابُه بنفوسهم ، وأولادهم ، وأموالهم ، وما ترك عند موته ديناراً ، ولا درهماً ، ولا عبداً ، ولا أمةً ، ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقةً . [البخاري (٤٤٦١)] . وتُوفِّي ﷺ ؛ ودرعُه مرهونةٌ عند يهوديٍّ بثلاثين صاعاً من شعير[١] .

وكان ذلك يوم الإثنين ١٢ ربيع الأوَّل سنة ١١ للهجرة بعد الزَّوال[٢] ، وله ﷺ ثلاثٌ وستون سنَّة [البخاري (٣٩٠٢ و٣٩٠٣) ، ومسلم (٢٣٥١)] ، وكان أشدَّ الأيام سواداً ، ووحشةً ، ومصاباً على المسلمين ، ومحنةً كبرى للبشريَّة ، كما كان يومُ ولادَته أسعدَ يومٍ طلعت فيه الشَّمْس[٣] .

يقول أنسٌ رضي الله عنه : كان اليوم الَّذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلُّ شيءٍ ،

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠٣ .
(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٤/ ٢٢٣) .
(٣) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدوي ، ص ٤٠٤ .

فلمَّا كان اليوم الَّذي مات فيه أظلم منها كلُّ شيءٍ. [أحمد (٣/ ٢٢١)، والترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (١٦٣١)]، وبكت أمُّ أيمن فقيل لها: ما يبكيك على النَّبيِّ ﷺ؟ قالت: إنِّي قد علمت: أنَّ رسول الله ﷺ سيموت، ولكنْ إنَّما أبكي على الوحي الَّذي رُفِع عنَّا. [مسلم (٢٤٥٤)، وابن ماجه (١٦٣٥)].

٤ ـ هول الفاجعة، وموقف أبي بكرٍ منها:

قال ابن رجب: ولمَّا تُوفي رسولُ الله ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهِشَ، فخولط، ومنهم مَنْ أُقْعِد فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتُقل لسانُه، فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موتـه بالكلِّيَّة[1].

قال القرطبيُّ مبيِّناً عظم هذه المصيبة، وما ترتَّب عليها من أمور:

من أعظم المصائب: المصيبةُ في الدِّين. قال رسول الله ﷺ: «إذا أصاب أحدكم مصيبةٌ؛ فليذكر مصابه بي، فإنَّها أعظم المصائب» [الطبراني في الكبير (٦٧١٨)، والبيهقي في شُعَب الإيمان (١٠١٥٢)، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢)].

وصدق رسولُ الله ﷺ؛ لأنَّ المصيبة به أعظمُ من كلِّ مصيبةٍ يصاب بها المسلم بعده إلى يوم القيامة؛ انقطع الوحي، وماتت النُّبوَّة، وكان أوَّل ظهور الشَّرِّ بارتداد العرب، وغير ذلك، وكان أوَّل انقطاع الخير، وأول نقصانه[2].

لقد أذهل نبأُ الوفاة عمرَ رضي الله عنه، فصار يتوعَّـد، ويـنـذر مَنْ يزعُم: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مات، ويقول: ما مات، ولكنَّه ذهب إلى ربِّه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً، ثمَّ رجع إليهم. والله! ليرجعنَّ رسولُ الله كما رجع موسى، فليقطِّعنَّ أيدي رجالٍ، وأرجلهم زعموا: أنه مات[3].

ولمَّا سمع أبو بكرٍ الخبر؛ أقبل على فرسٍ من مسكنه بالسُّنْح؛ حتَّى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلِّم النَّاس، حتَّى دخل على عائشة فتيمَّم رسولَ الله ﷺ وهو مُغشًّى بثوبٍ حَبرةٍ، فكشف عن وجهـه، ثمَّ أكبَّ عليه، فقبَّله، وبكى، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي! والله! لا يجمع الله عليك موتتين، أمَّا الموتة الَّتي عليك فقد متَّها. [البخاري (٤٤٥٢، ٤٤٥٣)]. وخرج أبو بكرٍ؛ وعمر يتكلَّم، فقال: اجلسْ يا عمر! وهو ماضٍ في كلامه، وفي ثورة غضبه، فقام أبو بكر في النَّاس خطيباً بعد أن حمِد الله، وأثنى عليه، قال:

---

(١) انظر: لطائف المعارف، ص ١١٤.
(٢) انظر: تفسير القرطبيِّ (٢/ ١٧٦).
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، لأبي شهبة (٢/ ٥٩٤).

أمَّا بعد: فإنَّ مَنْ كان يعبد محمَّداً؛ فإنَّ محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: فو الله! ما إن سمعت أبا بكر تلاها، فهويت إلى الأرض ما تحملني قدماي، وعلمتُ: أنَّ رسول الله ﷺ قد مات. [البخاري (٤٤٥٤)].

قال القرطبيُّ: هذه الآية أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصِّدِّيق، وجراءته؛ فإنَّ الشَّجاعة، والجرأة حدُّهما: ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النَّبيِّ ﷺ، فظهرت عنده شجاعتُه، وعلمه، قال النَّاس: لم يمت رسول الله ﷺ، منهم عمر، وخرِسَ عثمان، واستخفى عليٌّ، واضطرب الأمر، فكشفه الصِّدِّيق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح[(١)].

فرحم الله الصِّدِّيق الأكبر! كم من مصيبةٍ درأها عن الأمَّة! وكم من فتنةٍ كان المخرج على يديه! وكم من مشكلةٍ، ومعضلةٍ كشفها بشهب الأدلَّة من القرآن، والسُّنَّة، التي خفيت على مثل عمر رضي الله عنه! فاعرفوا للصِّدِّيق حقه، واقدروا له قدره، وأحبُّوا حبيب رسول الله ﷺ، فحبُّه إيمانٌ، وبغضه نفاقٌ[(٢)].

٥ ـ بيعة أبي بكر بالخلافة:

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة، في سقيفة بني ساعدة، حتَّى لا يجد الشَّيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم، وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، وليفارق رسولُ الله ﷺ هذه الدُّنيا؛ وكلمة المسلمين واحدةٌ، وشملُهم منتظمٌ، وعليهم أميرٌ يتولَّى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ، ودفنه[(٣)].

والحديث عن بيعة أبي بكر سنتكلم عنه بالتفصيل عند الدُّخول في عصر الخلفاء الرَّاشدين إن شاء الله تعالى.

٦ ـ غَسْلُ رسول الله ﷺ، وكَفنُه، والصَّلاة عليه:

قالت عائشة رضي الله عنها: لمَّا أرادوا غَسْلَ النَّبيِّ ﷺ قالوا: ما ندري: أنجرِّده من ثيابه كما نجرِّد موتانا، أو نغسله؛ وعليه ثيابه؟! فلمَّا اختلفوا؛ ألقى الله عليهم النَّوم حتَّى ما منهم رجلٌ إلا

---

(١) انظر تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢٢٢).
(٢) انظر: مرض النَّبي ﷺ ووفاته، ص ٢٤.
(٣) انظر: السِّيرة النَّبويَّة، للنَّدويِّ، ص ٤٠٦.

وذقنه في صدره فكلَّمهم مكلِّمٌ من ناحية البيت ، لا يدرون من هو : أن اغسِلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابُه ، فغسَّلوه؛ وعليه قميصُه ، يصبُّون الماء فوق القميص ، ويدلكون بالقميص دون أيديهم . قالت عائشة : لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسَّله إلا نساؤُه . [أبو داود (٣١٤١) ، وابن ماجه (١٤٦٤) ، والحاكم (٣/ ٥٩ ـ ٦٠)] .

وكُفِّنَ ﷺ في ثلاثة أثواب سَحُوليَّةٍ ، من ثياب سَحُول ـ بلدة باليمن ـ ليس فيها قميصٌ ، ولا عمامةٌ . [البخاري (١٢٧١) ومسلم (٩٤١)](١) . وقد صلَّى عليه المسلمون . قال ابن عباس : لمَّا مات رسولُ الله ﷺ أُدخل الرِّجال ، فصلُّوا عليه بغير إمام أرسالاً ، حتَّى فرَغوا ، ثمَّ أُدخل النِّساء فصلَّين عليه ، ثمَّ أُدخل الصِّبيان فصلُّوا عليه ، ثمَّ أدخل العبيد ، فصلُّوا عليه أرسالاً ، لم يؤمَّهم على رسول الله ﷺ أحدٌ . [ابن ماجه (١٦٢٨)] .

قال ابن كثير : وهذا الصَّنيع ، وهو صلاتُهم عليه فرادى لم يؤمَّهم أحدٌ عليه أمرٌ مجمعٌ عليه ، لا خلاف فيه(٢) .

٧ـ موقع دفنِه ، وصفة قبرِه ، ومَنْ باشر دفنَه؟ ومتى دُفن؟

اختلف المسلمون في موقع دفنه ، فقال بعضهم: يدفن عند المنبر ، وقال آخرون: بالبقيع ، وقال قائل: في مصلاَّه. [الموطأ (٥٤٥) ، وابن سعد (٢/ ٢٩٣)] . فجاء أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فحسم مادَّة هذا الخلاف أيضاً بما سمعه من رسول الله ﷺ ، قالت عائشة ، وابن عباسٍ: لمَّا قُبض رسول الله ﷺ ، وغُسِّل؛ اختلفوا في دفنه ، فقال أبو بكر : ما نسيتُ ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «ما قبض الله نبيّاً إلا في الموضع الَّذي يحب أن يدفن فيه» ، ادفنوه في موضع فراشه(٣) .

وهذا الحديث وإن كان هناك خلافٌ في صحَّته إلا أنَّ دفن النَّبيِّ ﷺ في موضعه الَّذي توفِّي فيه أمرٌ مجمعٌ عليه(٤) .

وقال ابن كثيرٍ : قد عُلِمَ بالتَّواتر : أنَّه ﷺ دفن في حجرة عائشة الَّتي كانت تختصُّ بها ، شرقيَّ مسجده في الزَّاوية الغربيَّة القبلية من الحجرة ، ثمَّ دُفن فيها أبو بكرٍ ، ثمَّ عمر رضي الله عنهما(٥) .

---

(١) انظر : مختصر سيرة الرَّسول ﷺ ، ص ٣٧ ، وتهذيب الأسماء للنَّوويِّ ، ص ٢٣ .
(٢) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٢٣٢) .
(٣) انظر : صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، ص ٧٢٧ .
(٤) انظر : مرض النَّبيِّ ﷺ ، ووفاته ، ص ١٦٠ .
(٥) انظر : البداية والنِّهاية (٥/ ٢٣٨) .

وقد لُحِدَ[١] قبر رسول الله ﷺ ، وقد أجمع العلماء على أن اللَّحد ، والشَّق[٢] جائزان ، لكن إذا كانت الأرض صلبةً لا ينهار ترابُها؛ فاللَّحد أفضل ، وإن كانت رِخْوَةً تنهار؛ فالشَّقُّ أفضل[٣] .

وقد قال الألبانيُّ ـ رحمه الله ! ـ: ويجوز في القبر اللَّحد ، والشَّقُّ لجريان العمل عليهما في عهد النَّبيِّ ﷺ ، ولكنَّ الأوَّل أفضل[٤]؛ لأنَّ الله تعالى لا يختار لنبيه إلا الأفضل[٥] . وأمَّا صفة قبره ، فقد كان مُسَنَّماً . [البخاري (١٣٩٠)] ، أي : مرتفعاً .

وذهب جمهور العلماء إلى أنَّ المستحب في بناء القبور هو التَّسنيم ، وأنَّه أفضل من التَّسطيح[٦] وفي المسألة خلافٌ طويلٌ ليس هذا محلُّه ، وقد قرَّب ابن القيِّم رحمه الله بين المذهبين ، فقال : وكانت قبور أصحابه لا مشرفةً ، ولا لاطئةً ، وهكذا كان قبرُه الكريم ، وقبر صاحبيه ، فقبرُه ﷺ مُسَنَّم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء ، لا مبنيٌّ ولا مطيَّنٌ ، وهكذا قبر صاحبيه[٧] ، وقد كان قبره ﷺ مرتفعاً قليلاً عن سطح الأرض[٨] .

وأمَّا الذين باشروا دفنه ﷺ ؛ فقد قال ابن إسحاق : وكان الَّذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ : عليُّ بن أبي طالبٍ ، والفضل بن عباس ، وقُثَم بن عبَّاس ، وشُقْران مولى رسول الله ﷺ[٩] ، وزاد النَّوويُّ[١٠] ، والمقدسيُّ[١١]: العباس. قال النَّوويُّ: ويقال: كان أسامة بن زيد ، وأوس بن خَوْلِيٍّ[١٢] معهم. ودفن في اللَّحد ، وبُني عليه ﷺ في لحده اللَّبِن ، يقال : إنَّها تسع لَبِنَاتٍ ، ثمَّ أهالوا التُّراب[١٣] . وأمَّا وقت دفنه ؛ فقد ذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنَّه دفن ليلة

---

(١) اللَّحد : الشَّقُّ الَّذي يعمل في جانب القبر لموضع الميت .
(٢) والشق : أي : يحفر في وسط الأرض .
(٣) انظر : المجموع ، للنَّوويِّ (٥/ ٢٨٧) .
(٤) انظر : أحكام الجنائز ، ص ١٤٤ .
(٥) انظر : مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاته ، (ص ١٦٠) وقد استفدتُ من هذا الكتاب فائدةً كبرى في مبحث مرض ووفاة الرَّسول ﷺ .
(٦) انظر : مرض النبي ﷺ ووفاته ، ص ١٦٤ .
(٧) انظر : زاد المعاد (١/ ٥٢٤) .
(٨) انظر : تهذيب السُّنن ، لابن القيِّم (٤/ ٣٣٨) .
(٩) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، لابن هشام (٤/ ٣٢١) .
(١٠) انظر : تهذيب الأسماء ، ص ٢٣ .
(١١) انظر : مختصر السِّيرة ، ص ٣٥ .
(١٢) انظر : مرض النَّبي ﷺ ووفاته ، ص ١٧٣ .
(١٣) انظر : تهذيب الأسماء للنَّووي ، ص ٢٣ .

الأربعاء. قال ابن كثير: والمشهور عن الجمهور ما أسلفناه من أنَّه ﷺ توفي يوم الإثنين، ودفن ليلة الأربعاء[1].

لقد كان لوفاة رسول الله ﷺ أثرٌ على الصَّحابة الكرام، فقد قال أنسٌ رضي الله عنه: «وما نفضنا عن النَّبيِّ ﷺ الأيدي ـ وإنَّا لفي دفنه ـ حتَّى أنكرْنَا قلوبنا». [الترمذي (٣٦١٨)، وابن ماجه (١٦٣١)][2].

سادساً: بعض ما قيل من المراثي في وفاة الرَّسول ﷺ:

١ ـ ما قاله حسَّانُ رضي الله عنه في موت رسول الله ﷺ:

لقد نافح حسَّانُ بن ثابتٍ رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حياته، ودافع عن الإسلام والمسلمين بقصائده الرَّائعة؛ الَّتي هزَّت عرب الجزيرة، وفعلت فيهم الأفاعيل، ولقد تأثَّر بموت حبيبنا ﷺ، فرثاه بقصائدَ مبكيةٍ حزينةٍ، حفظها لنا التَّاريخ، ولم تهمِلْها اللَّيالي، ولم تفصِلْها عنَّا حواجزُ الزَّمن، ولا أسوارُ القرون، فَمِمَّا قاله يبكي رسولَ الله ﷺ:

مَا بَالُ عَيْنِكَ لاَ تَنَامُ كَأَنَّهَا ... كُحِلَتْ مآقيها[3] بكُحْلِ الأَرْمَدِ[4]

جَزَعاً عَلَىٰ المَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِياً ... يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الحَصَىٰ لا تَبْعُدِ

وَجْهِيْ يَقِيْكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِيْ ... غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيْعِ الغَرْقَدِ[5]

بَأَبِي وَأُمِّي مَنْ شَهِدْتُ وَفَاتَهُ ... فِي يَوْمِ الاثْنَيْنِ النَّبِيُّ المُهْتَدِي

فَظَلِلْتُ بَعْدَ وَفَاتِهِ مُتَبَلِّداً ... مُتَلَدِّداً[6] يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْلَدِ

أَأُقِيمُ بَعْدَكَ بِالْمَدِيْنَةِ بَيْنَهُمْ ... يَا لَيْتَنِي صُبِّحْتُ[7] سُمَّ الأَسْوَدِ[8]

أَوْ حَلَّ أَمْرُ اللهِ فِيْنَا عَاجِلاً ... فِي رَوْحَةٍ مِنْ يَوْمِنَا أَوْ فِي غَدِ

فَتَقُوْمُ سَاعَتُنَا فَنَلْقَى طَيِّباً ... مَحْضَاً ضَرَائِبُهُ[9] كَرِيْمُ المَحْتِدِ[10]

يَا بِكْرَ آمِنَةَ المُبَارَكُ بِكْرُهَا ... ولَدَتْهُ مُحْصنَةٌ بِسَعْدِ الأَسْعَدِ

---

(١) انظر: البداية والنِّهاية (٥/ ٢٣٧)، وصحيح السِّيرة النَّبوية، ص ٧٢٨.

(٢) انظر: صحيح السِّيرة النبوية، ص ٧٢٩.

(٣) المآقي: جمع مأق، ومؤق، وهي مجاري الدَّمع من العين.

(٤) الأرمد: الَّذي يشتكي وجع العين.

(٥) بقيع الغرقد: المكان الذي يُدْفن فيه أهل المدينة موتاهم.

(٦) متلدِّد: متحيِّر.

(٧) صُبِّحْتُ: سُقيت صبحاً.

(٨) الأسود: ضرب من الحيَّات.

(٩) الضَّرائب: الطَّبائع.

(١٠) المحتد: الأصل.

نُـوراً أَضَـاءَ عَلَـىٰ البَـرِيَّـةِ كُلِّهَـا ... مَـنْ يُهْـدَ للنُّـورِ المُبَـارَكِ يَهْتَـدِي
يَـا رَبُّ فَـاجْمَعْنَـا مَعـاً ونَبِيَّنَـا ... فـي جَنَّـةٍ تَثْنـي[1] عُيُـونَ الحُسَّـدِ
فِـي جَنَّـةِ الفِـرْدَوْسِ فَـاكْتُبْهَـا لَنَـا ... يَـا ذَا الجَـلاَلِ وَذَا العُـلاَ والسُّـؤْدَدِ
وَاللهِ أَسْمَـعُ مَـا بَقِيْـتُ بِهَـالِـكٍ ... إلاَّ بَكَيْـتُ عَلَـىٰ النَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ
يَـا وَيْـحَ أَنْصَـارِ النَّبِـيِّ وَرَهْطِـهِ ... بَعْـدَ المُغَيَّـبِ فـي سَـوَاءِ المَلْحَـدِ[2]
ضَـاقَـتْ بِـالأنْصَـارِ البِـلاَدُ فَـأَصْبَحُـوا ... سُـوداً وجـوهُهُـمُ كَلَـوْنِ الإثْمـدِ[3]
وَلَقَـدْ وَلَـدْنَـاهُ[4] وَفِينَـا قَبْـرُهُ ... وَفضُـولُ نِعْمَتِـه بنـا لَـمْ تُجْحَـدِ
واللهُ أَكْـرَمَنَـا بِـهِ وهَـدَى بِـهِ ... أنصَـارَهُ فـي كُـلِّ سَـاعَـةِ مَشْهَـدِ
صلَّـى الإلَـهُ وَمَـنْ يَحُـفُّ بِعَـرْشِـهِ ... وَالطَّيِّبُـوْنَ عَلَـى المُبَـارَكِ أَحْمَـدِ[5]

وقال أيضاً:

تَـاللهِ مَـا حَمَلَـتْ أُنْثَـىٰ وَلاَ وَضَعَـتْ ... مِثْـلَ الـرَّسُـوْلِ نَبِـيِّ الأُمَّـةِ الهَـادِي
وَلاَ بَـرَىٰ اللهُ خَلْقـاً مِـنْ بَـرِيَّتِـهِ ... أوْفـى بِـذِمَّـةِ جَـارٍ أَوْ بِمِيْعَـادِ
مِـنَ الَّـذِي كَـانَ فِيْنَـا يُسْتَضَـاءُ بِـهِ ... مُبَـارَكُ الأمْـرِ ذَا عَـدْلٍ وَإرْشَـادِ

إلى أنْ قَال:

يَـا أَفْضَـلَ النَّـاسِ إِنِّـي كُنْـتُ فِـي نَهَـرٍ ... أَصْبَحْـتُ مِنْـه كمثْـلِ المُفْـرَدِ الصَّـادِي[6]

٢ ـ وممَّا قاله أبو بكرٍ الصِّدِّيق يبكي النَّبيَّ ﷺ:

لَمَّـا رَأَيْـتُ نَبِيَّنَـا مُتَجَنْـدِلاً ... ضَـاقَـتْ عَلـيَّ بِعَـرْضِهِـنَّ الـدُّورُ
فَـارْتَـاعَ قَلْبِـي عِنْـدَ ذَاكَ لِمَـوْتِـهِ ... وَالعَظْـمُ مِنِّـي مَـا حَيِيْـتُ كَسِيْـرُ
أَعتِيْـقُ! وَيْحَـكَ! إِنَّ خِلَّـكَ قَـدْ ثَـوَىٰ ... وَالصَّبْـرُ عِنْـدَكَ مَـا بَقِيْـتَ يَسِيْـرُ
يَـا لَيْتَنِـي مِـنْ قَبْـلِ مَهْلِـكَ صَـاحِبِـيْ ... غُيِّبْـتُ فِـي لَحْـدٍ عَلَيْـهِ صُخُـورُ
فلَتَحْـدُثَـنَّ بَـدَائِـعٌ مِـنْ بَعْـدِهِ ... تَعْيَـا لَهُـنَّ جَـوَانِـحٌ وَصُـدُوْرُ[7]

---

(١) تثني عيونَ الحسَّد: تصرفها، وتدفعها.
(٢) سواءُ الملحَد: وسطُه.
(٣) الإثمد: كحلٌ أسود.
(٤) أي: بني النَّجار أخوال النَّبيِّ ﷺ من قبل آبائه.
(٥) انظر: السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام (٤/٣٢٨).
(٦) الصَّادي: العَطش، السِّيرة النَّبويَّة، لابن هشام (٤/٣٢٩).
(٧) انظر: المستطرف للأبشيهي، ص ٣٦٦، وديوان أبي بكرٍ الصِّديق، طبع حديثاً حقَّقه، وشرحه راجي الأسمر، ص ٣٢، ٣٣.

٣ ـ وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطَّلب بن هاشم ـ رضي الله عنه ـ يبكي رسولَ الله ﷺ:

أرِقْتُ فَبَاتَ لَيْلِي لاَ يَزُوْلُ ... وَلَيْلُ أَخِي المُصِيْبَةِ فِيْهِ طُوْلُ
وَأَسْعَدَنِي البُكَاءُ وَذَاكَ فِيْمَا ... أُصِيْبَ المُسْلِمُوْنَ بِهِ قَلِيْلُ
لَقَدْ عظُمَتْ مُصِيْبَتُنَا وَجَلَّتْ ... عَشِيَّةَ قِيْلَ: قَدْ قُبِضَ الرَّسُولُ
وَأَضْحَتْ أَرْضُنَا مِمَّا عَرَاهَا ... تَكَادُ بِنَا جَوَانِبُهَا تَمِيْلُ
فَقَدْنَا الْوَحْيَ والتَّنْزِيْلَ فِيْنَا ... يَرُوْحُ بِهِ وَيَغْدُو جِبْرَئِيلُ
وَذَاكَ أَحَقُّ مَا سَالَتْ عَلَيْهِ ... نُفُوْسُ النَّاسِ أَوْ كَادَتْ تَسِيلُ
نبِيٌّ كَانَ يَجْلُو الشَّكَّ عَنَّا ... بِمَا يُوحَىٰ إِلَيْهِ وَمَا يَقُوْلُ
ويَهْدِيْنَا فَلاَ نَخْشَىٰ مَلاَماً ... عَلَيْنَا والرَّسُولُ لَنَا دَلِيْلُ
أَفَاطِمُ! إنْ جَزِعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ ... وَإِنْ لَمْ تَجْزَعِي فَهُوَ السَّبِيْلُ
فَقَبْرُ أَبِيْكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ ... وَفِيْهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ[1]

٤ ـ وقالت صفيَّة بنتُ عبد المطَّلب تبكي رسولَ الله ﷺ:

ألاَ يَا رَسُولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنَا ... وَكُنْتَ بِنَا بَرّاً وَلَمْ تَكُ جَافِيَا
وَكُنْتَ رَحِيْماً هَادِياً وَمُعَلِّماً ... لِيَبْكِ عَلَيْكَ الْيَوْمَ مَنْ كَانَ بَاكِيَا
لَعَمْرُكَ مَا أَبْكِي النَّبِيَّ لِفَقْدِهِ ... وَلَكِنْ لِمَا أَخْشَىٰ مِنَ الْهَرْجِ[2] آتِيَا
كَأَنَّ عَلَىٰ قَلْبِي لِذِكْرِ مُحَمَّدٍ ... وَمَا خَفَتْ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ المَكَاوِيَا
أَفَاطِمُ! صَلَّىٰ اللهُ رَبُّ مُحَمَّدٍ ... عَلَىٰ جَدَثٍ أَمْسَىٰ بِيَثْرِبَ ثَاوِيَا
فِدَىً لِرَسُولِ اللهِ أُمِّي وَخَالَتِي ... وَعَمِّي وَآبَائِي وَنَفْسِي وَمَالِيَا
صَدَقْتَ وَبَلَّغْتَ الرِّسَالَةَ صَادِقاً ... وَمُتَّ صَلِيْبَ العُوْدِ أَبْلَجَ صَافِيَا
فَلَوْ أَنَّ رَبَّ النَّاسِ أَبْقَىٰ نَبِيَّنَا ... سَعِدْنَا وَلَكِنْ أَمْرُهُ كَانَ مَاضِيَا
عَلَيْكَ مِنَ اللهِ السَّلاَمُ تَحِيَّةً ... وَأُدْخِلْتَ جَنَّاتٍ مِنَ العَدْنِ رَاضِيَا[3]

* * *

(١) انظر: الاكتفاء، للكلاعي (٢/ ٤٥٦).
(٢) الهرج: الفتنة والاختلاط.
(٣) انظر: تفسير القرطبيِّ (٤/ ٢١٩، ٢٢٠).

الخاتمة

وبعد: فهذا ما يسَّره الله لي مِنْ جمعٍ ، وترتيبٍ ، وتحليلٍ تضمَّنتها فصول هذا الكتاب ، فيما يتعلَّق (بالسِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ في تربية الأمَّة وبناء الدَّولة) فما كان فيه من صوابٍ فهو محض فضل الله عليَّ ، فله الحمد ، والمنَّة ، وما كان فيه من خطأ؛ فأستغفر الله تعالى ، وأتوب إليه ، واللهُ ورسولُه بريءٌ منه ، وحسبي أنِّي كنت حريصاً ألاَّ أقع في الخطأ ، وعسى ألا أُحرَم مِنَ الأجر .

وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين ، وأن يذكرَني مَنْ يقرؤه في دعائه ؛ فإنَّ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ إن شاء الله تعالى ، وأختمُ هذا الكتاب بقول الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] .

وبقول الشَّاعر :

إلٰهـي أَنْـتَ لـلإحسَـانِ أَهْـلٌ ... وَمِنْـكَ الجُـوْدُ وَالفَضْـلُ الجَـزِيْـلُ
إلٰهـي بَـاتَ قَلْبِـي فِـيْ هُمُـومٍ ... وَحَـالِـي لا يُسَـرُّ بِـهِ خَلِيْـلُ
إلٰهـي تُـبْ وجُـدْ وَارْحَـمْ عُبَيْـداً ... مِـنَ الأوزار مَـدْمَعُـهُ يَسِيْـلُ
إلٰهـي ثَـوْبُ جِسْمِـي دنَّسَتْـهُ ... ذُنُـوبٌ حَمْلُهـا أَبَـداً ثَقِيْـلُ
إلٰهـي جُـدْ بِعَفْـوِكَ لِـي فَـإِنِّـي ... عَلَـىٰ الأَبْـوَابِ مُنْكَسِـرٌ ذَلِيْـلُ
إلٰهـي خَـانَنـي جَلَـدي وَصَبْـري ... وجَـاءَ الشَّيْـبُ وَاقْتَـرَبَ الـرَّحِيْـلُ
إلٰهـي دَاونـي بِـدَوَاءِ عَفْـوٍ ... بِـهِ يُشْفَـىٰ فُـؤَادِي والغَلِيْـلُ
إلٰهـي ذَابَ قَلْبِـي مِـنْ ذُنُـوبِـي ... وَمِـنْ فِعْـلِ القَبِيْـحِ أَنَـا القَتِيْـلُ
إلٰهـي قُلْـتَ اُدْعُـونـي أجبْكُـمْ ... فَهَـاكَ العَبْـدُ يَـدْعُـو يَـا وَكِيْـلُ
إلٰهـي هَـذِهِ الأَوْقَـاتُ تَمْضِـي ... بِـأَعْمَـارٍ لَنَـا وَبِهَـا تَـزُوْلُ

وبقول الشَّاعر :

اطْلُـبِ العِلْـمَ وَلاَ تَكْسَـلْ فَمَـا ... أَبْعَـدَ الْخَيْـرَ عَلَـىٰ أَهْـلِ الكَسَـلْ

احْتَفِـــلْ لِلْفِقْــهِ فـــي الـــدِّيـــنِ وَلاَ ... تَشْتَغِـــلْ عَنْـــهُ بِمَـــالٍ وَخَـــوَلْ
واهْجُـــرِ النَّـــوْمَ وحَصِّلْـــهُ فَمَـــنْ ... يَعْـــرِف المَطْلُـــوبَ يَحْقِـــرْ مَـــا بَـــذَلْ
لاَ تَقُـــلْ قَـــدْ ذَهَبَـــتْ أَرْبَـــابُـــهُ ... كُـــلُّ مَـــنْ سَـــارَ عَلَـــىٰ الـــدَّرْبِ وَصَـــلْ

سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك ، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت ، أستغفرك ، وأتوب إليك .

* * *

المصادر والمراجع

(أ)

١ ـ آثار الحرب في الفقه الإسلاميِّ ، د. وهبة الزُّحيلي ، دراسةٌ مقارنةٌ ، دار الفكر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م.

٢ ـ آثار تطبيق الشَّريعة ، د. محمد عبد الله الزَّاحم ، دار المنار ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م.

٣ ـ آفاتٌ على الطَّريق لمحمد سيد نوح ، دار الوفاء ، المنصورة ـ مصر ، ط: الخامسة ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٩٠ م.

٤ ـ أُسْدُ الغابة في معرفة الصَّحابة لعلي بن أبي الكرم (ابن الأثير).

٥ ـ الأمُّ لمحمَّد بن إدريس الشَّافعي سنة ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م ، طبعة دار الفكر ، بيروت ـ لبنان.

٦ ـ الإتقان في علوم القرآن لعبد الرَّحمن السُّيوطيِّ ، المكتبة الثَّقافية ، بيروت ـ لبنان ، بدون تاريخ.

٧ ـ الإدارة الإسلاميَّة في عصر عمر بن الخطَّاب ، د. فاروق مجدلاوي ، دار مجدلاوي ـ عمَّان ، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.

٨ ـ الإصابة في تمييز الصَّحابة لأحمد بن عليٍّ بن حجر العسقلانيِّ ، تحقيق عليٍّ محمَّد البجاويِّ ، دار النَّهضة ـ مصر.

٩ ـ الاعتصام للإمام الشَّاطبي ، دار الفكر ، الناشر مكتبة الرِّياض الحديثة بالرِّياض.

١٠ ـ الإعلام في صدر الإسلام ، د. عبد اللَّطيف حمزة ، دار الفكر.

١١ ـ إمتاع الأسماع بما للرَّسول من الأبناء ، والأموال ، والحفدة ، والمتاع للشَّيخ أحمد بن عليٍّ المقريزي ، صحَّحه وشرحه محمود محمَّد شاكر ، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة بالقاهرة ، ١٩٤١ م.

١٢ ـ الأحاديث الواردة في فضائل المدينة لصالح الرِّفاعي ، دار الخضيري ـ المدينة ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤١٨ هـ.

١٣ ـ أحكام الجنائز وبدعها للألباني ، المكتب الإسلاميُّ ـ بيروت.

١٤ ـ أحكام السُّوق في الإسلام لأحمد الدَّرويش ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

١٥ ـ أحكام القرآن لأبي بكرٍ محمَّد بن عبد الله المعروف بابن العربي المعافريِّ الأندلسيِّ ، تحقيق : محمَّد عبد القادر عطا ، ط١/ ١٤٠٨ هـ . دار الكتب العلميَّة ـ بيروت .

١٦ ـ الأخلاق الإسلاميَّة وأسُسها لعبد الرَّحمن حبنكة الميداني ، دار القلم ـ دمشق .

١٧ ـ الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنيَّة ، لمحمود محمَّد الجوهريِّ .

١٨ ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل ، محمد ناصر الدين الألباني ، إشراف زهير الشاويش .

١٩ ـ الأساس في السُّنَّة ، وفقهها ـ السِّيرة النَّبويَّة لسعيد حوَّى ، دار السَّلام بمصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

٢٠ ـ الأساس في السُّنَّة ، لسعيد حوَّىٰ ، دار السلام ـ مصر .

٢١ ـ أساليب التَّشويق والتَّعزيز في القرآن الكريم ، د. الحسين جرنو محمود جلو ، مؤسَّسة الرِّسالة ، دار العلوم الإنسانيَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٢٢ ـ أسباب النُّزول ، لأبي الحسن عليِّ بن أحمد الواحديِّ النيسابوريِّ ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .

٢٣ ـ أسباب هلاك الأمم السَّالفة لسعيد محمَّد بابا سيلا ، سلسلة الحكمة البريطانيَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م .

٢٤ ـ الاستخبارات العسكريَّة في الإسلام لعبد الله عليِّ السَّلامة مناصرة ، مؤسسة الرِّسالة ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م .

٢٥ ـ الإسلام في خندق ، لمصطفى محمود ، دار أخبار اليوم ، القاهرة ـ مصر ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٢٦ ـ أصول الفكر السِّياسيِّ في القرآن المكِّي للتجاني عبد القادر حامد ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م ، عمَّان ـ الأردن ، دار البشير .

٢٧ ـ أضواء على الهجرة لتوفيق محمَّد سبع ، مطبعة الهيئة العامَّة لشؤون المطابع الأميرية ، ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م .

٢٨ ـ أعلام النُّبوة ، للماورديِّ ، الكلِّيات الأزهريَّة .

٢٩ ـ إغاثة اللَّهفان عن مصائد الشَّيطان لابن قيِّم الجوزيَّة ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، طبعة أولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .

٣٠ ـ الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي الرَّسول والثَّلاثة الخلفاء ، تأليف أبي الرَّبيع سليمان بن موسى الكلاعيِّ الأندلسيِّ ، عالم الكتب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٣١ـ الأموال ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، مؤسَّسة ناصر الثَّقافية ـ بيروت .
٣٢ ـ الانحرافات العقديَّة والعلميَّة ، عليُّ بن نجيب الزَّهرانيُّ ، دار طيبة ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .
٣٣ـ أنساب الأشراف ، للبلاذُريِّ ، تحقيق : محمَّد حميد الله ، دار المعارف .
٣٤ ـ الأنساب للسَّمعاني ، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة ، حيدر آباد ، الهند ، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م .
٣٥ ـ الأنساب لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد السَّمعاني ، تحقيق عبد الرَّحمن المعلمي اليمانيِّ ، نشر مجلس دائرة المعارف ـ الهند .
٣٦ ـ أهمِّية الجهاد في نشر الدَّعوة ، د. عليُّ العليانيُّ ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

(ب)

٣٧ـ البحر الرَّائق في الزُّهد والرَّقائق ، لأحمد فريد ، دار البخاريِّ ـ القصيم بالسُّعودية ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .
٣٨ ـ بدائع السَّالك في طبائع الممالك ، لأبي عبد الله بن الأزرق ، تحقيق ، وتعليق علي سامي النَّشار ، منشورات وزارة الإعلام ـ الجمهوريَّة العراقيَّة .
٣٩ـ البداية والنِّهاية لأبي الفداء ابن كثيرٍ الدِّمشقيِّ ، الطَّبعة الأولى ـ ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ، دار الرَّيان للتُّراث .
٤٠ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، لمحمود شكري الآلوسي ، تحقيق محمَّد بهجة الأثري ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، الطَّبعة الثَّانية .
٤١ ـ بناء المجتمع الإسلاميِّ في عصر النَّبوَّة ، لمحمَّد توفيق رمضان ، دار ابن كثيرٍ ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .
٤٢ ـ بهجة المحافل ، وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات ، والسِّير ، والشَّمائل ، شرح جمال الدِّين محمَّد الأشخر اليمنيِّ ، دار صادر ـ بيروت .

(ت)

٤٣ ـ تأمُّلات في سورة الكهف للشَّيخ أبي الحسن النَّدويِّ ، دار القلم .
٤٤ ـ تأمُّلات في سيرة الرَّسول ﷺ ، د. محمد السَّيد الوكيل ، دار المجتمع ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م .
٤٥ ـ تاريخ الإسلام للذَّهبي ، المغازي ، تحقيق عمر عبد السَّلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٤٦ ـ التَّاريخ الإسلاميُّ ـ مواقف وعبرٌ ، د. عبد العزيز الحميديُّ ، دار الدَّعوة ـ الإسكندريَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م.
٤٧ ـ التَّاريخ السِّياسيُّ والحضاريُّ ، د. السَّيد عبد العزيز سالم.
٤٨ ـ التَّاريخ السِّياسيُّ والعسكريُّ لدولة المدينة في عهد الرَّسول ﷺ ، استراتيجيَّة الرسول السِّياسيَّة والعسكريَّة ، د. علي معطي ، مؤسَّسة المعارف ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.
٤٩ ـ تاريخ الطَّبري ، لأبي جعفر محمَّد بن جرير ، تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار سويدان ـ بيروت.
٥٠ ـ تاريخ اليهود في بلاد العرب لولفنسون ، طبعة القاهرة ، ١٩٢٧ م.
٥١ ـ تاريخ خليفة بن خيَّاط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، مطبعة الآداب ، النَّجف ـ ١٩٦٧ م.
٥٢ ـ تاريخ دولة الإسلام الأولى ، فايد حمَّاد عاشور ، سليمان أبو عزب ، دار قطريٍّ بن الفجاءة ـ الدَّوحة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م.
٥٣ ـ تاريخ صدر الإسلام ، لعبد الرَّحمن عبد الولي شجاع ، دار الفكر المعاصر ، صنعاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م.
٥٤ ـ التَّحالف السِّياسيُّ في الإسلام لمنير محمَّد الغضبان ، دار السَّلام ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م.
٥٥ ـ التَّحرير والتَّنوير للشَّيخ محمَّد الطَّاهر ابن عاشور ، دار الكتب الشَّرقيَّة ، تونس.
٥٦ ـ تحفة الأحوذي بشرح جامع التِّرمذي لمحمَّد بن عبد الرَّحمن المباركفوري ، مطبعة الاعتماد ، نشر محمَّد عبد المحسن الكتبي ، تصحيح عبد الرَّحمن محمَّد عثمان.
٥٧ ـ تحفة الأشراف لجمال الدِّين أبو الحجَّاج يوسف بن الزكي عبد الرَّحمن المِزِّي ، الدَّار القيِّمة ، سنة الطَّبع : ١٣٨٤ هـ.
٥٨ ـ التَّربية القياديَّة لمنير الغضبان ، دار الوفاء ـ المنصورة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م.
٥٩ ـ تفسير أبي السُّعود ، المسمَّى إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، لقاضي القضاة أبي السُّعود محمَّد العماديِّ الحنفيِّ ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، النَّاشر : مكتبة الرِّياض الحديثة ـ الرِّياض ، مطبعة السَّعادة ، القاهرة.
٦٠ ـ تفسير القرآن العظيم ، لابن كثيرٍ القرشيِّ ، دار الفكر ، ودار القلم ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثانية.
٦١ ـ تفسير الآلوسي ، المسمَّى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني ، للآلوسي (محمود الآلوسي البغدادي) ، إدارة الطِّباعة المصطفائية بالهند ، بدون ذكر سنة الطَّبع.

٦٢ ـ تفسير البغويّ المسمَّى معالم التّنزيل ، للإمام أبي محمَّد الحسين الفرَّاء البغويّ الشَّافعي ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .
٦٣ ـ تفسير البيضاويّ المسمَّى أنوار التنزيل وأسرار التَّأويل ، تأليف الإمام ناصر الدِّين أبو الخير عبد الله الشيرازي البيضاوي ، سنة الطَّبع : ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م ـ دار الفكر للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع .
٦٤ ـ تفسير الرَّازي ، دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة .
٦٥ ـ تفسير الزمخشري المسمَّى بالكشَّاف ، سنة الطبع : ١٩٦٧ م ، دار المعرفة .
٦٦ ـ تفسير السَّعدي المسمَّى تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان لعبد الرَّحمن ناصر السَّعدي ، المؤسَّسة السَّعدية بالرِّياض ، ١٩٧٧ م .
٦٧ ـ تفسير القرطبيّ لأبي عبد الله محمَّد بن أحمد الأنصاريّ القرطبيّ ، دار إحياء التُّراث العربيّ ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٥ م .
٦٨ ـ تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي ، طبع دار الفكر ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة ، ١٣٩٤ هـ .
٦٩ ـ تفسير المنار لمحمَّد رشيد رضا ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .
٧٠ ـ التَّفسير المنير ، د. وهبة الزُّحيلي ، دار الفكر المعاصر ـ بيروت ، دار الفكر ـ دمشق ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م ، الطَّبعة الأولى .
٧١ ـ تفسير النَّسفي المسمَّى بمدارك التنزيل وحقائق التَّأويل ، تأليف الإمام عبد الله أحمد بن محمَّد النَّسفي ، المتوفى سنة ٧١٠هـ ، النَّاشر : دار الكتاب العربيّ ـ بيروت .
٧٢ ـ تفسير ابن عطيَّة المسمَّى المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي محمَّد عبد الحقِّ بن عطيَّة الأندلسيّ ، من مطبوعات رئاسة المحاكم الشَّرعية والشؤون الدِّينيَّة بدولة قطر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .
٧٣ ـ تفسير سورة فصِّلت ، د. محمد صالح علي مصطفى ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .
٧٤ ـ تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي ، مكتبة الآداب ـ القاهرة ، دون ذكر الطَّبعة .
٧٥ ـ التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة في ضوء القرآن الكريم ، لمحمَّد السيد حمد يوسف ، دار السَّلام ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .
٧٦ ـ تنظيمات الرَّسول الإدارية في المدينة ، لصالح أحمد العلي ، مجلَّة المجمَّع العلمي العراقي ، المجلَّد السَّابع عشر ، بغداد ، ١٩٦٩م .
٧٧ ـ تنوير الحوالك شرح موطأ مالك ، لجلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أبي بكرٍ السُّيوطي ، دار إحياء الكتب .

٧٨ ـ تهذيب مدارج السَّالكين ، لابن القيِّم ، هذَّبه عبد المنعم صالح العلي العزِّي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م .

(ج)

٧٩ ـ جامع الأصول لابن الأثير (أبو السَّعادات المبارك بن محمَّد الجزري) المتوفى سنة ٦٠٦هـ ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، طبع مكتبة الحلواني/ سورية ، عام ١٣٩٢هـ .

٨٠ ـ جامع العلوم والحكم للإمام ابن رجب الحنبليِّ ، دار الفكر ، بيروت .

٨١ ـ الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السَّامع للخطيب البغدادي ، مكتبة المعارف بالرِّياض ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٨٢ ـ الجهاد والقتال في السِّياسة الشَّرعية لمحمد خير هيكل ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ، دار البيارق ـ عمَّان ـ بيروت .

٨٣ ـ الجواب الصَّحيح لمن بدل دين المسيح لأبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم ، مطابع المجد .

٨٤ ـ جوامع السِّير لابن حزم عليِّ بن أحمد بن سعيد ، المتوفَّى ٤٥٦هـ ، تحقيق الدُّكتور إحسان عبَّاس ، والدُّكتور ناصر الدِّين الأسد ، طبع دار إحياء السُّنَّة ـ باكستان ، ١٣٦٨هـ .

٨٥ ـ جيل النَّصر المنشود ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة . القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة السَّادسة ، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

(ح)

٨٦ ـ حاشية ابن عابدين ، مطابع مصطفى البابي ، وأولاده .

٨٧ ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لعبد الرَّحمن بن عليِّ بن محمَّد الشَّيبانيِّ بن الرَّبيع ، تحقيق : عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ .

٨٨ ـ حدائق الأنوار ومطالع الأسرار لابن الدَّيبع الشَّيبانيِّ ، تحقيق عبد الله إبراهيم الأنصاريِّ .

٨٩ ـ حديث القرآن عن غزوات الرَّسول ﷺ ، د. محمَّد بكر آل عابد ، دار الغرب الإسلاميِّ ، الطَّبعة الأولى .

٩٠ ـ الحرب النَّفسيَّة ضدَّ الإسلام في عهد الرَّسول ﷺ في مكَّة ، د. عبد الوهاب كحيل ، عالم الكتب ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

٩١ ـ الحركة السَّنوسيَّة في ليبية ، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ـ عمَّان ، طبعة أولى ، ١٩٩٩م .

٩٢ ـ حقوق النَّبيِّ ﷺ على أمَّته ، د. محمَّد بن خليفة التَّميميُّ ، دار أضواء السَّلف ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

٩٣ ـ **الحكم والتَّحاكم في خطاب الوحي** ، لعبد العزيز مصطفى كامل ، دار طيبة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٩٤ ـ **الحكومة الإسلاميّة لأبي الأعلى المودودي** ، ترجمة أحمد إدريس ، المختار الإسلامي للطِّباعة والنَّشر ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٩٥ ـ **حلية الأولياء لأبي نعيم**: أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، مطبعة السَّعادة ـ مصر ، ١٣٥١ ـ ١٣٧٥م.

٩٦ ـ **حوار الرَّسول ﷺ مع اليهود** ، د. محسن النَّاظر ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، دار الوفاء.

(خ)

٩٧ ـ **خاتم النَّبيِّين ﷺ** للشَّيخ محمَّد أبي زهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٧٢م ، دار الفكر ـ بيروت.

٩٨ ـ **الخصائص العامَّة للإسلام** ، د. يوسف القرضاوي ، مكتبة وهبة ـ القاهرة ، مصر ، ط: الرَّابعة ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٩٩ ـ **الخصائص الكُبرى** ، لعبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت.

(د)

١٠٠ ـ **دائرة المعارف الكاثوليكيّة** ، مقال التثليث.

١٠١ ـ **الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور** للإمام السُّيوطي ، النَّاشر محمَّد أمين دمج ، بيروت ـ لبنان.

١٠٢ ـ **دراساتٌ في السِّيرة النَّبويَّة** ، د. عماد الدِّين خليل ، الطَّبعة الحادية عشرة ، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م ، دار النفائس ـ بيروت.

١٠٣ ـ **دراساتٌ في عهد النُّبوَّة** ، د. عبد الرَّحمن الشُّجاع ، دار الفكر المعاصر ـ صنعاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٠٤ ـ **دراساتٌ قرآنيَّة** لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٠٥ ـ **دراسةٌ تحليليَّةٌ لشخصية الرَّسول ﷺ** ، د. محمد قلعجي ، الطَّبعة الأولى ، سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، دار النَّفائس.

١٠٦ ـ **الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير** ليوسف بن عبد البرِّ ، وزارة الأوقاف بمصر ، لجنة إحياء التراث ، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م ، القاهرة.

١٠٧ ـ **دروسٌ في الكتمان** لمحمود شيت خطَّاب ، مكتبة النَّهضة ـ بغداد ، الطَّبعة العاشرة ، ١٩٨٨م.

١٠٨ ـ دستورٌ للأمَّة من القرآن والسُّنَّة ، د. عبد النَّاصر العطَّار ، مؤسَّسة علوم القرآن ، الشَّارقة ـ عجمان ، دار ابن كثير ـ دمشق ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
١٠٩ ـ الدَّعوة الإسلاميَّة ، لعبد الغفار عزيز.
١١٠ ـ دعوة الله بين التكوين والتَّمكين ، د. علي جريشة ، مكتبة وهبة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
١١١ ـ دلائل النُّبوة ومعرفة أحوال صاحب الشَّريعة للحافظ أبي بكر أحمد البيهقيِّ ، تحقيق : عبد المعطي قلعجي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت.
١١٢ ـ دور المرأة في خدمة الحديث لآمال قرداش ، كتاب الأمَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ، الدَّوحة ـ قطر.
١١٣ ـ دولة الرَّسول ﷺ من التَّكوين إلى التَّمكين ، لكامل سلامة الدقس ، دار عمَّار ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
١١٤ ـ الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة لمنصور الحرابي ، الطَّبعة الثانية ، ١٩٨٣م ، منشورات جمعية الدَّعوة الإسلاميَّة بليبيا.
١١٥ ـ ديوان أبي بكرٍ الصِّدِّيق ، حقَّقه وشرحه راجي الأسمر ، دار صادر ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٧م.
١١٦ ـ ديوان شوقي ، الأعمال الشِّعرية الكاملة ، دار العودة ـ بيروت ، طبعة ١٩٨٦م.
١١٧ ـ ديوان عنترة لفاروق الطَّباع ، دار القلم ، بيروت ـ لبنان.

(ر)

١١٨ ـ الرؤى والأحلام في النُّصوص الشَّرعيَّة ، لأسامة عبد القادر.
١١٩ ـ الرُّؤيا ضوابطها وتفسيرها ، لهشام الحمصي ، دار الكلم الطَّيب ، دمشق ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
١٢٠ ـ رجال الإدارة في الدَّولة الإسلاميَّة ، د. حسين محمَّد سليمان ، دار الإصلاح ـ الدَّمام بالسعودية.
١٢١ ـ الرَّحيق المختوم ، لصفيِّ الرَّحمن المباركفوري ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ لبنان.
١٢٢ ـ رسالة الأنبياء لعمر أحمد عمر ، دار الحكمة ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
١٢٣ ـ الرَّسول القائد ﷺ ، محمود شيت خطَّاب ، الطَّبعة الثَّانية ، سنة الطَّبع ١٩٦٠م ، دار مكتبة الحياة ، ومكتبة النَّهضة ـ بغداد.

١٢٤ ـ **الرَّسول ﷺ المبلِّغ** ، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٢٥ ـ **الرَّسول المعلِّم ﷺ وأساليبه في التعليم** للشيخ عبد الفتاح أبي غدَّة ، دار مكتب المطبوعات الإسلاميَّة ـ حلب ، الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٦ ـ **روح المعاني (تفسير الآلوسي)** ، لمحمود الآلوسي البغدادي ، دار الفكر ، طبعة ١٤٠٢هـ.

١٢٧ ـ **الرَّوض الأنف في شرح السِّيرة النَّبويَّة لابن هشام** لأبي القاسم السُّهيلي ، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ، دار الكتب الحديثة ، طبعة ١٣٨٧هـ.

(ز)

١٢٨ ـ **زاد المسير في علم التَّفسير** ، لأبي الفرج جمال الدِّين عبد الرحمن بن عليٍّ الجوزيِّ القرشيِّ البغداديِّ ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

١٢٩ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد** لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الجوزية ، حقَّقه: شعيب الأرناؤوط ، وعبد القادر ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ ، دار الرِّسالة.

١٣٠ ـ **زاد اليقين** للاشين أبو شنب ، دار البشير ، طنطا ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م.

١٣١ ـ **الزُّهد** ، لأحمد بن حنبل ، دار الرَّيان للتُّراث ، القاهرة ـ مصر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣٢ ـ **زيد بن ثابت ، كاتب الوحي ، وجامع القرآن** لصفوان داودي ، دار القلم ، دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

(س)

١٣٣ ـ **سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد** لمحمد بن يوسف الصَّالحي ، تحقيق: مصطفى عبد الواحد ، لجنة إحياء التُّراث الإسلاميِّ ، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٣٤ ـ **السَّرايا والبعوث النَّبويَّة حول المدينة ومكَّة** ، د. بريكك محمَّد بريكك ، دار ابن الجوزي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٣٥ ـ **السَّفارات النَّبويَّة** ، د. محمد العقيلي ، دار إحياء العلوم ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٣٦ ـ **سفراء الرَّسول ﷺ** ، لمحمود شيت خطاب ، مؤسسة الرَّيان ، دار الأندلس الخضراء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٣٧ ـ سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان السِّجستانيِّ ، تحقيق وتعليق عزَّت الدَّعاس ، ١٣٩١هـ ، سورية .

١٣٨ ـ سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله محمَّد بن زيد القزوينيِّ ، دار الفكر .

١٣٩ ـ سنن التِّرمذي للإمام أبي عيسى محمَّد بن عيسى التِّرمذيِّ ، دار الفكر ، ١٣٩٨هـ .

١٤٠ ـ سنن الدارقطني ، علي بن عمر الدار قطني ، وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي ، عالم الكتب ، لبنان .

١٤١ ـ سنن النَّسائي ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النَّسائيِّ ، مطبعة مصطفى الحلبي ـ القاهرة ، ١٩٦٤م .

١٤٢ ـ سير أعلام النُّبلاء ، لشمس الدِّين محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ .

١٤٣ ـ السِّير والمغازي لابن إسحاق ، تحقيق سهيل زكَّار ، دار الفكر ، طبعة أولى ١٩٧٨م .

١٤٤ ـ السِّيرة الحلبيَّة في سيرة الأمين المأمون ، علي بن برهان الدِّين الحلبي ، دار المعرفة .

١٤٥ ـ سيرة الرَّسول ﷺ ، صورٌ مقتبسةٌ من القرآن الكريم ، تأليف الأستاذ محمد عزَّة دروزة ، عني بها الأستاذ عبد الله إبراهيم الأنصاري ، طبعه على نفقته خليفة ابن حمد آل ثاني ـ حاكم قطر ، المؤتمر العالمي للسِّيرة النَّبويَّة، ١٤٠٠هـ ـ الدَّوحة .

١٤٦ ـ السِّيرة النَّبويَّة لأبي الحسن النَّدويِّ ، دار التَّوزيع والنَّشر الإسلاميَّة ـ القاهرة .

١٤٧ ـ السِّيرة النَّبويَّة دراسةٌ وتحليل لمحمَّد أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م ، عمَّان .

١٤٨ ـ السِّيرة النَّبويَّة، للذَّهبي، تحقيق حسام الدِّين القدسي ، مكتبة هلال ـ بيروت .

١٤٩ ـ السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة ، د. أكرم العمري ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م مكتبة المعارف والحِكَم بالمدينة المنوَّرة .

١٥٠ ـ السِّيرة النَّبويَّة تربية أمَّةٍ ، وبناء دولةٍ ، لصالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م

١٥١ ـ السِّيرة النَّبويَّة دروسٌ وعبرٌ ، د. مصطفى السِّباعي ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، لبنان ، الطبعة التَّاسعة ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م .

١٥٢ ـ السِّيرة النَّبويَّة في ضوء القرآن والسُّنَّة لمحمد أبو شهبة ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م .

١٥٣ ـ السِّيرة النَّبويَّة في ضوء المصادر الأصليَّة ، د. مهدي رزق الله أحمد ، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، مركز الملك فيصل للبحوث والدِّراسات الإسلاميَّة ـ الرِّياض .

١٥٤ ـ السِّيرة النَّبويَّة لأبي حاتم البستي ، مؤسَّسة الكتب الثَّقافية ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٥٥ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لأبي محمد بن عبد الملك بن هشام ، دار الفكر ، بدون تاريخ.
١٥٦ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لابن كثير ، للإمام أبي الفداء إسماعيل ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، الطَّبعة الثانية ، ١٣٩٨هـ ، دار الفكر بيروت ـ لبنان.
١٥٧ ـ السِّيرة النَّبويَّة ، لمحمد الصَّوياني ، مؤسَّسة الرَّيان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

(ش)

١٥٨ ـ شذرات الذَّهب لعبد الحيِّ بن العماد الحنبليِّ ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ـ بيروت.
١٥٩ ـ شرح السُّنَّة لأبي محمَّد الحسين بن مسعود البغويِّ ، تحقيق: علي محمد معوض ، وعادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلميَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٦٥م ـ القاهرة.
١٦٠ ـ شرح العقيدة الطَّحاويَّة لابن أبي العزِّ الحنفي ، تحقيق ، وتعليق ، وتخريج أحاديث ، وتقديم د. عبد الله بن عبد المحسن التُّركي ، وشعيب الأرناؤوط ، ط٤ ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت.
١٦١ ـ شرح المعلَّقات للحسين الزُّوزني ، تحقيق يوسف علي بديوي ، دار ابن كثير ـ دمشق ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.
١٦٢ ـ شرح المواهب اللَّدنية ، للقسطلانيِّ ، لمحمَّد بن عبد الباقي الزُّرقاني ، دار المعرفة ، بيروت.
١٦٣ ـ شرح النَّووي على صحيح مسلم للإمام النَّوويِّ ـ أبو زكريا محيي الدِّين يحيى ابن شرف ، المتوفى ٦٧٦هـ ـ طبع المطبعة المصريَّة ومكتبتها ـ القاهرة ، عام ١٣٤٩هـ.
١٦٤ ـ شرح رسالة التَّعاليم لمحمَّد عبد الله الخطيب ، دار الوفاء.
١٦٥ ـ الشِّفا في التَّعريف بحقوق المصطفى ، للإمام القاضي عياض ، إستانبول ، عثمانيَّة.

(ص)

١٦٦ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا لأحمد بن علي القلقشنديِّ ، تحقيق محمَّد حسين شمس الدِّين ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
١٦٧ ـ الصَّحابيُّ الشَّاعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى ، تأليف محمَّد علي كاتبي ، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
١٦٨ ـ صحيح البخاريِّ لمحمَّد بن إسماعيل البُخاريِّ ، دار الفكر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١٦٩ ـ صحيح الجامع الصَّغير وزياداته ، لمحمَّد ناصر الدِّين الألباني ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، المكتب الإسلامي ، بيروت ـ لبنان .
١٧٠ ـ صحيح السِّيرة النَّبويَّة للطَّرهوني ، لمحمَّد رزق ، مكتبة ابن تيميَّة ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ .
١٧١ ـ صحيح السِّيرة النَّبويَّة ، لإبراهيم العلي ، دار النفائس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٨م .
١٧٢ ـ صحيح سنن ابن ماجه لناصر الدِّين الألباني ، مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ـ الرِّياض ، الطَّبعة الثالثة ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .
١٧٣ ـ صحيح مسلم بشرح النَّوويّ ، المطبعة المصريَّة بالأزهر ، الطَّبعة الأولى ، ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م .
١٧٤ ـ صحيح مسلم ، تحقيق محمَّد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التُّراث العربيِّ ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٩٧٢م .
١٧٥ ـ الصِّراع مع الصَّليبيِّين لمحمد عبد القادر أبو فارس ، دار البشير ـ طنطا ، طبعة عام ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م .
١٧٦ ـ الصِّراع مع اليهود لمحمد أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م .
١٧٧ ـ صفة الصفْوة لابن الجوزيِّ ، تحقيق : محمود خوري ، ومحمَّد روَّاس قلعجي ، دار المعرفة ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ .
١٧٨ ـ صفة الغرباء ، سلمان العودة ، دار ابن الجوزيِّ ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .
١٧٩ ـ صفوة التَّفاسير للصَّابوني ، دار القرآن الكريم ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ـ عام ١٤٠١هـ .
١٨٠ ـ صلاح الدِّين الأيوبي لعبد الله علوان .
١٨١ ـ صلح الحديبية لمحمد أحمد باشميل ، دار الفكر ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٩٧٣م ـ ١٣٩٣هـ .
١٨٢ ـ صورٌ من حياة الرَّسول ﷺ لأمين دويدار ، الطَّبعة الرَّابعة ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ .
١٨٣ ـ صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويِّ في المدينة ، تأليف : د . محمَّد فوزي فيض الله ، دار القلم ـ دمشق ، الدَّار الشَّاميَّة ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م .

(ض)

١٨٤ ـ ضوابط المصلحة ، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي ، ط٤ ، سنة ١٤٠٢هـ ، مؤسسة الرِّسالة .

(ط)

١٨٥ ـ **الطَّاعة ، والمعصية ، وأثرهما في المجتمع ، غزوة أحد** ، لمحمَّد بن صالح العثيمين .

١٨٦ ـ **طبقات الشُّعراء الجاهليِّين ، والإسلاميِّين** ، بدون معلومات نشر ، لأبي عبد الله محمَّد بن سلام بن عبد الله الجمحي .

١٨٧ ـ **طبقات ابن سعدٍ الكبرى** ، لمحمَّد بن سعد الزُّهري ، دار صادر ، ودار بيروت للطِّباعة والنشر ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م .

١٨٨ ـ **طريق النُّبوَّة والرِّسالة** ، د. حسين مؤنس ، دار الرَّشاد ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م .

١٨٩ ـ **الطَّريق إلى المدائن** ، لعادل كمال ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ، بيروت ـ لبنان .

١٩٠ ـ **الطَّريق إلى المدينة** لمحمد العبده ، دار الجوهرة ـ عمَّان ، الطَّبعة الثانية ، طبعة ١٩٩٩م .

١٩١ ـ **الطَّريق إلى جماعة المسلمين** لحسين بن محسن بن علي جابر ، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ، دار الوفاء بالمنصورة ـ مصر .

(ظ)

١٩٢ ـ **ظاهرة الإرجاء** لسفر الحوالي ، مكتبة الطَّيب ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٧هـ ، القاهرة ـ مصر .

(ع)

١٩٣ ـ **العبادة في الإسلام** ليوسف القرضاوي ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ، الطَّبعة الثانية عشرة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

١٩٤ ـ **عبد الله بن مسعودٍ** ، لعبد السَّتَّار الشَّيخ ، دار القلم ـ دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

١٩٥ ـ **العبقرية العسكريَّة في غزوات الرَّسول ﷺ** ، لمحمَّد فرج ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٩٧٧م ، دار الفكر العربيِّ ـ القاهرة .

١٩٦ ـ **عقيدة أهل السُّنة في الصَّحابة** ، د. ناصر حسن الشَّيخ ، مكتبة الرُّشد ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

١٩٧ ـ **علاج القرآن الكريم للجريمة** ، د. عبد الله الشَّنقيطي ، مكتبة ابن تيميَّة ـ القاهرة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣هـ .

١٩٨ ـ العلاقات الخارجية للدَّولة الإسلاميَّة ، د. سعيد عبد الله حارب المهيري ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م .
١٩٩ ـ علاقة الآباء بالأبناء في الشَّريعة الإسلامية ، د. سعاد الصَّالح ، الناشر تهامة ـ جدَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠١هـ .
٢٠٠ ـ عمدة القاري ، شرح صحيح البخاريِّ لبدر الدين العيني .
٢٠١ ـ العهد ، والميثاق في القرآن الكريم ، د. ناصر العمري ، دار العاصمة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣هـ .
٢٠٢ ـ عون المعبود ، شرح سنن أبي داود ، تحقيق عبد الرَّحمن محمد عثمان ، دار الفكر ـ بيروت .
٢٠٣ ـ عيون الأثر في فنون المغازي ، والشَّمائل ، والسير ، لابن سيِّد النَّاس ، دار المعرفة ـ بيروت .

(غ)

٢٠٤ ـ الغرباء الأوَّلون ، سلمان العودة ، الطَّبعة الثَّالثة ، عام ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ، دار ابن الجوزي ، الدَّمام السُّعودية .
٢٠٥ ـ غزوة أحدٍ لأحمد عزِّ الدين .
٢٠٦ ـ غزوة أحد دراسةٌ دعويَّةٌ لمحمَّد عيظة بن سعيد من مذحج ، دار إشبيليا ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .
٢٠٧ ـ غزوة أحدٍ ، لمحمد عبد القادر أبو فارس ، ط١ ، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ، دار الفرقان ، عمَّان ـ الأردن .
٢٠٨ ـ غزوة الأحزاب لمحمَّد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .
٢٠٩ ـ غزوة الأحزاب لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفكر ، الطَّبعة الخامسة ، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م .
٢١٠ ـ غزوة بدر الكبرى الحاسمة لمحمود شيت خطَّاب .
٢١١ ـ غزوة بدر الكبرى ، لمحمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م .
٢١٢ ـ غزوة بدر الكبرى لمحمد أحمد باشميل ، طبع دار الفكر ، الطَّبعة السادسة ، سنة ١٣٩٤هـ .
٢١٣ ـ غزوة تبوك لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفكر ـ بيروت .

(ف)

٢١٤ ـ فتح الباري لابن حجر العسقلانّي ، دار المعرفة ، بيروت ـ لبنان .
٢١٥ ـ الفتح الرَّبَّاني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ، دار الشِّهاب ، القاهرة ، بدون تاريخ .
٢١٦ ـ الفتح الرَّبَّاني لأحمد عبد الرحمن السَّاعاتي ، في ترتيب مسند الإمام أحمد : أحمد عبد الرحمن الساعاتي ، مطبعة الفتح الرَّبَّاني بالقاهرة ، الطَّبعة الأولى .
٢١٧ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرِّواية والدِّراية من علم التَّفسير : محمد بن علي الشَّوكاني ، دار الفكر .
٢١٨ ـ الفصل في الملل ، والنِّحل ، والأهواء ، لابن حزم ، مكتبة السَّلام العالميَّة .
٢١٩ ـ فصول في السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد المنعم السَّيِّد .
٢٢٠ ـ فقه الإسلام ، شرح بلوغ المرام لفضيلة الشيخ عبد القادر شيبة الحمد ، مطابع الرَّشيد ـ المدينة المنوَّرة ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٤٠٣ هـ .
٢٢١ ـ فقه الابتلاء لمحمَّد أبو صعيليك ، دار البيارق ، عمَّان ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .
٢٢٢ ـ فقه التَّمكين في القرآن الكريم لعليٍّ محمَّد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ـ عمَّان ، الطَّبعة الأولى ١٩٩٩م .
٢٢٣ ـ فقه الدَّعوة إلى الله لعبد الحليم محمود ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .
٢٢٤ ـ فقه الدَّعوة الفرديَّة ، د. سيد محمَّد نوح ، دار اقرأ ، صنعاء .
٢٢٥ ـ فقه الزَّكاة للقرضاوي ، مكتبة وهبة ، الطَّبعة الحادية والعشرون ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .
٢٢٦ ـ الفقه السِّياسي للوثائق النَّبويَّة ، خالد الفهداوي ، دار عمَّار ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م .
٢٢٧ ـ فقه السِّيرة النَّبويَّة ، لمنير الغضبان ، معهد البحوث العلميَّة ، وإحياء التراث ـ مكَّة المكرَّمة .
٢٢٨ ـ فقه السيرة ، لمحمَّد سعيد رمضان البوطي ، الطَّبعة الحادية عشرة ، ١٩٩١ م ، دار الفكر ، دمشق ـ سورية .
٢٢٩ ـ فقه السِّيرة للغزالي ، الطَّبعة الرابعة ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م ، دار القلم ، دمشق ـ سورية .
٢٣٠ ـ فلسفة التَّربية الإسلاميَّة لماجد عرسان الكيلاني ، مكتبة هادي ، مكَّة المكرَّمة ، طبعة عام ١٤٠٩ هـ .

٢٣١ ـ **الفوائد** لابن القيِّم لمحمَّد بن أبي بكر بن قيِّم الجوزية ، ودار الرَّيان للتُّراث ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٢٣٢ ـ **في السِّيرة النَّبويَّة جوانب الحذر والحماية** ، الدُّكتور إبراهيم علي محمَّد أحمد ، الطَّبعة الأولى رجب ١٤١٧ هـ ، وزارة الأوقاف ـ بدولة قطر .

٢٣٣ ـ **في ظلال السِّيرة النَّبويَّة ، الهجرة النَّبويَّة** ، الدُّكتور محمَّد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، عمَّان ـ الأردن، الطَّبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

٢٣٤ ـ **في ظلال القرآن** لسيِّد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة التَّاسعة ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

(ق)

٢٣٥ ـ **القاموس المحيط** لمجد الدِّين محمد الفيروز آبادي ، مطبعة مصطفى البابي وأولاده ـ بمصر ، الطَّبعة الثانية ١٣٧١ هـ ـ ١٩٥٢ م .

٢٣٦ ـ **قراءة سياسية للسِّيرة النَّبوية** ، لمحمد قلعجي ، دار النفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م ، بيروت ـ لبنان .

٢٣٧ ـ **قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير، وأثرها في التُّراث العربيِّ**، تأليف د. السيد إبراهيم محمَّد، المكتب الإسلامي، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٢٣٨ ـ **قضايا في المنهج** ، سلمان العودة ، دار مكتبة القدس ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٢٣٩ ـ **قضايا نساء النَّبي ﷺ والمؤمنات** ، حفصة بنت عثمان الخليفي ، دار المسلم الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٢٤٠ ـ **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**: لأبي محمَّد عز الدِّين عبد العزيز بن عبد السَّلام السلمي (ت٦٦٠ هـ) ، المكتبة الحسينية المصريَّة ، بجوار الأزهر ، الطبَّعة الأولى ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م .

٢٤١ ـ **القول المبين في سيرة سيِّد المرسلين** ، د. محمَّد الطيب النَّجار ، دار اللِّواء ، الرِّياض ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

٢٤٢ ـ **قيادة الرسول السِّياسيَّة ، والعسكريَّة** لأحمد راتب عرموش ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

٢٤٣ ـ **القيادة العسكريَّة في عهد الرَّسول ﷺ** ، دار القلم ، الطَّبعة الأولى، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م .

(ك)

٢٤٤ ـ **الكامل في التَّاريخ** لابن الأثير ، لأبي الحسن علي بن محمَّد ، دار صادر ـ بيروت .

(ل)

٢٤٥ ـ لسان العرب ، محمَّد بن مكرم بن منظور ، دار صادر ـ بيروت .

٢٤٦ ـ لقاء المؤمنين ، عدنان النَّحوي ، مطابع الفرزدق التِّجارية ، الرِّياض ـ السُّعودية ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

(م)

٢٤٧ ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن علي الحسني النَّدويِّ ، الطَّبعة السابعة ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ، دار المعارف .

٢٤٨ ـ المال في القرآن الكريم ، سليمان الحصين ، دار المعراج الدَّوليَّة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٢٤٩ ـ مباحث في إعجاز القرآن ، مصطفى مسلم ، دار المسلم ، الرِّياض ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٢٥٠ ـ مباحث في التَّفسير الموضوعي ، مصطفى مسلم ، دار القلم ، دمشق ـ سورية .

٢٥١ ـ مباحث في علوم القرآن ، منَّاع القطان ، مكتبة المعارف ـ الرِّياض ، الطَّبعة الثامنة ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .

٢٥٢ ـ مبادئ علم الإدارة لمحمَّد نور الدِّين عبد الرَّزَّاق ، مكتبة الخدمات الحديثة ، جدَّة ـ السُّعودية ، الطَّبعة الأولى بدون تاريخ .

٢٥٣ ـ مبادئ نظام الحكم في الإسلام لعبد الحميد متولِّي ، الطَّبعة الأولى ، دار المعارف .

٢٥٤ ـ المبسوط للسَّرخسيِّ ، شمس الدِّين السَّرخسي ، مطبعة السَّعادة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى .

٢٥٥ ـ المجتمع المدنيُّ في عهد النُّبوَّة ، د. أكرم العمري ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .

٢٥٦ ـ مجلَّة المجتمع الكويتيَّة ، عدد رقم ٢٤٨ ، ١٧ صفر ١٣٩٩ هـ .

٢٥٧ ـ مجمع الزَّوائد ، ومنبع الفوائد ، نور الدِّين عليُّ بن أبي بكرٍ الهيثميُّ ، الطَّبعة الثَّالثة ، سنة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٢٥٨ ـ مجموع فتاوى : شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، جمع عبد الرحمن بن محمَّد قاسم العاصمي النَّجدي ، المكتب التعليميُّ السُّعوديُّ بالمغرب .

٢٥٩ ـ مجموعة الوثائق السِّياسية لمحمد حميد الله ، دار النَّفائس ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .

٢٦٠ ـ محاسن التَّأويل للقاسمي لمحمَّد جمال الدِّين القاسمي ، دار الفكر ، بيروت .

٢٦١ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطيَّة ، أبي محمَّد عبد الحق بن غالب الأندلسي ، تحقيق المجلس العلمي بفاس ، طبعة ١٣٩٥ هـ ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة بالمغرب .

٢٦٢ ـ محمَّد رسول الله ، لمحمَّد الصَّادق عرجون ، دار القلم ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م .

٢٦٣ ـ محمد رسول الله ، لمحمَّد رشيد رضا ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، ١٩٧٥ م .

٢٦٤ ـ محنة المسلمين في العهد المكِّيِّ ، د. سليمان السّويكت ، مكتبة التَّوبة ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

٢٦٥ ـ المختار من كنوز السُّنَّة ، لمحمَّد عبد الله دراز ، دار الأنصار ـ القاهرة ، الطَّبعة الثَّانية ١٩٧٨ م .

٢٦٦ ـ مختصر الصَّواعق المرسلة على الجهمية المعطِّلة لابن قيِّم الجوزيَّة ، اختصره محمد الموصلي ، مكتبة الرِّياض الحديثة .

٢٦٧ ـ مختصر سيرة الرَّسول ﷺ لمحمَّد بن عبد الوهاب ، جامعة الإمام محمَّد بن سعود .

٢٦٨ ـ مختصر صحيح مسلم ، للحافظ زكي عبد العظيم عبد القويِّ بن سلامة المنذري ، تحقيق محمد ناصر الألباني ـ الطَّبعة الثالثة سنة ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م . المكتب الإسلامي ـ دمشق .

٢٦٩ ـ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجيَّة العسكريَّة ، لمحمَّد جمال الدِّين علي محفوظ ، مطابع الهيئة المصريَّة للكتاب بالقاهرة .

٢٧٠ ـ مدخل لفهم السِّيرة ، د. يحيى اليحيى ، أخذها المؤلف من صاحبها قبل أن يطبعها .

٢٧١ ـ المدرسة النَّبويَّة العسكريَّة ، لأبي فارس ، دار الفرقان ، عمَّان .

٢٧٢ ـ المدينة النَّبوية ، فجر الإسلام ، والعصر الرَّاشدي ، لمحمد حسن شراب ، دار القلم ـ دمشق ، الدّار الشَّامية ـ بيروت ، الطَّبعة الأولى ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م .

٢٧٣ ـ المرأة في العهد النَّبويِّ ، د. عصمة الدِّين كركر ، دار الغرب الإسلاميِّ ، الطَّبعة الأولى ، ١٩٩٣ م بيروت .

٢٧٤ ـ مرض النَّبيِّ ﷺ ووفاتُه وأثره على الأمَّة لخالد أبو صالح ، دار الوطن ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ .

٢٧٥ ـ مرويات غزوة أحدٍ ، حسين أحمد الباكري ، رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلاميَّة ، إشراف د. أكرم العمري ، عام ١٤٠٠ هـ ـ ١٣٩٩ م .

٢٧٦ ـ مرويات غزوة الحديبية ، د. حافظ الحكمي ، دار ابن القيِّم ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

٢٧٧ ـ مرويات غزوة بدرٍ لأحمد باوزير ، مكتبة طيبة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .
٢٧٨ ـ مرويات غزوة بني المصطلق ، لإبراهيم القريبي ، طبع المجلس العلمي بالجامعة الإسلاميَّة ـ المدينة المنورة ، الطَّبعة الأولى ، عام ١٤٠٢ هـ .
٢٧٩ ـ مساجد القاهرة ومدارسها ، لأحمد فكري ، طبعة الإسكندريَّة ، ١٩٦١ م .
٢٨٠ ـ المستدرك على الصَّحيحين للإمام أبي عبد الله الحاكم النَّيسابوري ، وبذيله التَّلخيص للذَّهبي ، ط ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ، دار النَّشر مكتب المطبوعات الإسلاميَّة .
٢٨١ ـ المستشفيات الإسلاميَّة ، د. عبد الله عبد الرَّزَّاق مسعود العيد ، دار الضِّياء للنَّشر والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م ، عمَّان ـ الأردن .
٢٨٢ ـ المُسْتَطْرَف في كلِّ فنٍّ مُسْتَظْرَف لشهاب الدِّين الأبشيهي ، مكتبة الحياة ـ بيروت .
٢٨٣ ـ المستفاد من قصص القرآن للدَّعوة والدُّعاة لعبد الكريم زيدان ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٢٨٤ ـ المسلمون والرُّوم في عصر النُّبوَّة لعبد الرَّحمن أحمد سالم ، دار الفكر العربي ، طبعة ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٢٨٥ ـ المسند لأحمد بن حنبل ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
٢٨٦ ـ المشروع الإسلامي لنهضة الأمَّة قراءةٌ في فكر حسن البنَّا ، لمجموعة من الباحثين ، لم تطبع حتَّى كتابة هذا البحث .
٢٨٧ ـ مشكاة المصابيح ، للخطيب التبريزي ، تحقيق : محمَّد ناصر الدِّين الألباني ، المكتب الإسلامي ـ دمشق ، ط١ ، ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م .
٢٨٨ ـ مصعب بن عمير ، الدَّاعية المجاهد ، لمحمَّد حسن بريغش ، دار القلم ـ دمشق ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م
٢٨٩ ـ مصنَّف عبد الرزاق لأبي بكر عبد الرَّزَّاق بن همَّام الصنعاني ، تحقيق : حبيب الرَّحمن الأعظمي ، الطَّبعة الأولى .
٢٩٠ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثَّمانية لأحمد بن علي بن حجر العسقلاَّني ، تحقيق : حبيب الرَّحمن الأعظمي .
٢٩١ ـ معارك خالد بن الوليد ، د. ياسين سويد ، الطَّبعة الرابعة ١٩٨٩ م ، المؤسَّسة العربيَّة للدراسة والنَّشر .
٢٩٢ ـ معالم قرآنيَّة في الصِّراع مع اليهود ، د. مصطفى مسلم محمَّد ، دار المسلم ـ الرِّياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م .
٢٩٣ ـ المعاهدات في الشَّريعة الإسلاميَّة والقانون الدَّولي ، د. محمد الدِّيك ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م ، دار الفرقان للنَّشر والتَّوزيع .

٢٩٤ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر ، ودار بيروت ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .
٢٩٥ ـ معجم الطَّبراني ، لسليمان بن أحمد الطَّبراني ، دار العربيَّة ـ بغداد ، ١٣٩٨ هـ .
٢٩٦ ـ المعجم الكبير ، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطَّبراني ، ٢٦٠ هـ ـ ٣٦٠ هـ ، دار مكتبة العلوم والحكم ، ط ٢ ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م .
٢٩٧ ـ معركة الوجود بين القرآن والتُّلمود ، لعبد السَّتَّار فتح الله السَّعيد ، مكتبة المنار .
٢٩٨ ـ المعوِّقون للدَّعوة الإسلاميَّة في عهد النُّبوَّة ، وموقف الإسلام منهم ، للدَّكتور سميرة محمَّد جمجوم ، دار المجتمع ـ جدَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .
٢٩٩ ـ المغازي النبويَّة ، للزُّهري ، تحقيق سهيل زكَّار ، دار الفكر ـ دمشق ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .
٣٠٠ ـ مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزُّبير ، تحقيق : د. محمد الأعظمي ، نشر مكتب التَّربية العربي لدول الخليج ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م .
٣٠١ ـ المغازي للواقديِّ ، المتوفى ٢٠٧ هـ ، تحقيق د. مارسدن جونس ، عالم الكتب ـ بيروت ، الطَّبعة الثالثة ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م .
٣٠٢ ـ مفاهيم ينبغي أن تصحَّح ، لمحمَّد قطب ، دار الشُّروق ـ القاهرة ، الطَّبعة الثَّامنة ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م .
٣٠٣ ـ المفصَّل في أحكام النِّساء ، لعبد الكريم زيدان ، مؤسَّسة الرِّسالة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م .
٣٠٤ ـ مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة ، د. محمَّد سعد اليوبي ، دار الهجرة ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .
٣٠٥ ـ المقاصد العامَّة للشَّريعة الإسلاميَّة ، يوسف حامد العالم ، الدَّار العلميَّة للكتاب الإسلاميِّ ، ط٢ ، سنة ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٣ م ـ الرِّياض .
٣٠٦ ـ مقدِّمة ابن الصَّلاح وشرحها للحافظ العراقي أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصَّلاح ، طبع دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان .
٣٠٧ ـ مقدِّمة ابن خلدون ، للعلاَّمة عبد الرَّحمن بن محمَّد بن محمَّد بن خلدون ، ط المكتبة التِّجارية الكبرى ـ القاهرة ، بدون تاريخ .
٣٠٨ ـ مقومات الدَّاعية النَّاجح ، د. علي بادحدح ، دار الأندلس الخضراء ـ جدَّة الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .
٣٠٩ ـ مقوِّمات السُّفراء في الإسلام ، لحسن فتح الباب ، المجلس الأعلى للشُّؤون الإسلاميَّة ـ القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٣١٠ ـ مقوِّمات النَّصر ، د. أحمد أبو الشَّباب ، المكتبة العصريَّة ـ لبنان ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٣١١ ـ مكَّة والمدينة في الجاهليَّة وعصر الرَّسول ﷺ ، للأستاذ أحمد الشَّريف .

٣١٢ ـ ملامح الشُّورى في الدَّعوة الإسلاميَّة ، لعدنان النَّحوي ، الطَّبعة الثانية .

٣١٣ ـ مِنْ معين السِّيرة لصالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ، الطَّبعة الثانية ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م .

٣١٤ ـ من هدي سورة الأنفال ، لمحمَّد أمين المصري ، طبع مكتبة دار الأرقم ـ الكويت .

٣١٥ ـ المنافقون ، لمحمَّد جميل غازي ، مكتبة المدني ومطبعتها ، ١٩٧٢ م ، جدَّة ـ السُّعودية .

٣١٦ ـ منامات الرَّسول ﷺ ، لعبد القادر الشَّيخ إبراهيم ، دار القلم العربي بحلب ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٣١٧ ـ مناهج وآداب الصَّحابة في التَّعلُّم والتَّعليم ، د. عبد الرحمن البر ، دار اليقين ـ المنصورة ، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٣١٨ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لأبي الفرج عبد الرَّحمن بن علي بن محمَّد ابن الجوزي ، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلميَّة ، بيروت ـ لبنان .

٣١٩ ـ منهاج السُّنَّة النَّبويَّة ، لأبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيميَّة ، مؤسَّسة قرطبة للطِّباعة ، والنَّشر ، والتَّوزيع ، الطَّبعة الأولى ١٤١٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٣٢٠ ـ المنهاج القرآنيُّ في التَّشريع لعبد السَّتار فتح الله سعيد ، مطابع دار الطِّباعة الإسلاميَّة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م .

٣٢١ ـ منهج الإعلام الإسلاميِّ في صلح الحديبية ، لسليم حجازي ، دار المنارة ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م .

٣٢٢ ـ منهج الإسلام في تزكية النَّفس ، د. أنس أحمد كرزون ، دار نور المكتبات ، دار ابن حزم ، الطَّبعة الثانية ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٣٢٣ ـ المنهج التربويُّ للسِّيرة النَّبويَّة ـ التَّربية الجهاديَّة لمنير محمَّد الغضبان ، مكتبة المنار ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

٣٢٤ ـ منهج التَّربية الإسلاميَّة لمحمد قطب ، دار الشُّروق ، الطَّبعة الخامسة ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

٣٢٥ ـ المنهج الحركيُّ للسِّيرة النَّبويَّة لمنير محمَّد الغضبان ، مكتبة المنار ـ الأردن ، الطَّبعة الثالثة ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م .

٣٢٦ ـ منهج الرَّسول في غرس الرُّوح الجهاديَّة في نفوس أصحابه ، للسَّيِّد محمَّد نوح ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م ، نشرته جامعة الإمارات العربيَّة المتَّحدة.

٣٢٧ ـ الموازنة بين ذوق السَّماع ، وذوق الصَّلاة ، والقرآن للإمام ابن قيِّم الجوزيَّة ، تحقيق مجدي فتحي السَّيِّد.

٣٢٨ ـ الموافقات في أصول الأحكام لأبي إسحاق إبراهيم موسى اللخمي الشهير بالشَّاطبي ، دار الفكر ، ١٣٤١ هـ.

٣٢٩ ـ الموسوعة في سماحة الإسلام لمحمَّد صادق عرجون ، ط الثَّانية ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م ، الدَّار السُّعودية للنَّشر ، والتَّوزيع ـ جدَّة.

(ن)

٣٣٠ ـ نشأة الدَّولة الإسلاميَّة ، د. عون الشَّريف قاسم ، دار الكتاب اللُّبناني ـ بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م.

٣٣١ ـ نصب الرَّاية في أحاديث الهداية ـ بحاشية بغية الألمعي في تخريج الزَّيلعي ، لعبد الله بن يوسف بن محمد الزَّيلعي ، المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٣٩٣ هـ.

٣٣٢ ـ نظام الحكم في الشَّريعة والتَّاريخ الإسلامي ، لظافر القاسمي ، دار النفائس ، الطَّبعة السادسة ١٤١١ هـ ـ ١٩٩٠ م.

٣٣٣ ـ نظام الحكومة النَّبويَّة المسمَّى : التَّراتيب الإداريَّة ، لمحمَّد عبد الحيِّ الكتَّاني ، دار الأرقم ، بيروت ـ لبنان ، الطَّبعة الثَّانية.

٣٣٤ ـ النِّظام السِّياسيُّ في الإسلام ، لمحمَّد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان ، الطَّبعة الثانية ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٦ م.

٣٣٥ ـ نظراتٌ في السِّيرة ، للإمام حسن البنَّا ، مكتبة الاعتصام ، القاهرة ، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ، سجَّلها ، وأعدَّها للنشر أحمد عيسى عاشور.

٣٣٦ ـ نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرَّسول الكريم ، إعداد مجموعة من المختصِّين بإشراف صالح بن حميد ، دار الوسيلة ، الطَّبعة الأولى ١٤١٨ هـ

٣٣٧ ـ نفوسٌ ودروسٌ في إطار التَّصوير القرآنيِّ لتوفيق محمَّد سبع ، مجمع البحوث الإسلاميَّة ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، بدون تاريخ.

٣٣٨ ـ النُّكت والعيون (تفسير الماوردي) لأبي الحسن علي بن حبيب الماورديِّ ، تحقيق خضر محمَّد خضر ـ نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلاميَّة ، والتُّراث الإسلاميِّ ـ بالكويت.

٣٣٩ ـ النِّهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ، تحقيق طاهر أحمد الزَّاوي ، ومحمود محمَّد الطناحي.

٣٤٠ ـ نور اليقين ، لمحمَّد الخضري ، دار القلم ، دمشق ـ سورية.

٣٤١ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيِّد الأخيار ، لمحمَّد بن علي الشَّوكاني ، دار الحديث ـ القاهرة .

(هـ)

٣٤٢ ـ الهجرة الأولى في الإسلام ، د. سليمان العودة ، دار طيبة للنَّشر ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ.

٣٤٣ ـ هجرة الرَّسول ﷺ وصحابتُه في القرآن والسُّنَّة لأحمد عبد الغني النجولي الجمل ، دار الوفاء ، الطَّبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

٣٤٤ ـ الهجرة النَّبويَّة المباركة ، د. عبد الرحمن البر ، دار الكلمة ، المنصورة ـ مصر ، الطَّبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٣٤٥ ـ الهجرة في القرآن الكريم لأحزمي سامعون جزولي ، مكتبة الرُّشد ـ الرِّياض ، الطَّبعة الأولى ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .

٣٤٦ ـ هذا الحبيب محمَّد ﷺ يا محبُّ لأبي بكر الجزائري ، مكتبة لينة .

٣٤٧ ـ هذا الدِّين ، لسيِّد قطب ، دار الشُّروق ، القاهرة ـ مصر ، الطَّبعة الرَّابعة ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م .

(و)

٣٤٨ ـ واقعنا المعاصر لمحمَّد قطب ، مؤسَّسة المدينة للصَّحافة ، والطِّباعة ، والنَّشر ـ جدَّة ، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م .

٣٤٩ ـ الوحي والرِّسالة ، د. يحيى اليحيى ، أخذت من المؤلف صورة قبل الطبع .

٣٥٠ ـ الوسطية في القرآن الكريم ، لعلي محمَّد الصَّلاَّبي ، دار النَّفائس ، دار البيارق ، الطَّبعة الأولى ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٣٥١ ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى لأبي الحسن بن عبد الله السَّمهودي ، دار المصطفى ، طبعة القاهرة ١٣٢٦ هـ.

٣٥٢ ـ الوفود في العهد المكِّيِّ ، وأثره الإعلاميِّ ، لعلي رضوان أحمد الأسطل ، الطَّبعة الأولى ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤ م ، دار المنار ـ الأردن ، عمَّان .

٣٥٣ ـ وقفاتٌ تربويَّة مع السِّيرة النَّبويَّة لأحمد فريد ، دار طيبة ، الرِّياض ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .

٣٥٤ ـ وقفاتٌ تربويَّةٌ من السِّيرة النَّبويَّة ، لعبد الحميد البلالي ، الطَّبعة الثَّالثة ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م ، المنار ، الكويت .

٣٥٥ ـ الولاء ، والبراء في الإسلام ، لمحمَّد سعيد القحطان ، دار طيبة ـ الرِّياض ، الطَّبعة السَّادسة ١٤١٣ هـ.

٣٥٦ ـ ولاية الشُّرطة في الإسلام ، لنمر محمَّد الحميداني ، دار عالم الكتب ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م .

(ى)

٣٥٧ ـ يقظةُ أولي الاعتبار ممَّا ورد في ذكر الجنَّة والنَّار ، لصدِّيق حسن .
٣٥٨ ـ اليهود في السُّنَّة المطهَّرة ، د. عبد الله الشقاري ، دار طيبة ـ الرِّياض ، طبعة أولى ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م .
٣٥٩ ـ اليوم الآخر في الجنَّة والنَّار ، د. عمر الأشقر ، مكتبة الفلاح ـ الكويت ، الطَّبعة الثَّانية ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

* * *

فهرس الموضوعات

الفصل العاشر
أهم الأحداث ما بين أحد والخندق

الفصل الحادي عشر
غزوة الأحزاب (٥هـ)

الفصل الثَّاني عشر
ما بين غزوة الأحزاب، والحديبية مِنْ أحداثٍ مهمَّة

الفصل الثَّالث عشر
الفتح المبين (صلح الحُديبية)

الفصل الرَّابع عشر
أهمُّ الأحداث ما بين الحديبية وفتح مكَّة

الفصل الخامس عشر
غزوة فتح مكة (٨هـ)

الفصل السَّادس عشر
غزوة حنينٍ ، والطَّائف (٨هـ)

الفصل السَّابع عشر
غزوة تبوك (٩هـ) وهي غزوة العُسْرة

* * *

المؤلف في سطور
علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي

* ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .

* حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدَّعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقديرٍ ممتازٍ ، وكان الأول على دفعته عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

* نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلاميَّة كلية أصول الدِّين قسم التَّفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

* نال درجة الدُّكتوراه في الدِّراسات الإسلامية .

* **صدرت له عدَّة كتب :**

١ ـ من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين .

٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم .

سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشَّمال الإفريقي) .

٣ ـ صفحاتٌ من تاريخ ليبيا الإسلاميِّ والشمال الإفريقي .

٤ ـ عصر الدَّولتين الأمويَّة ، والعباسيَّة ، وظهور فكر الخوارج .

٥ ـ الدَّولة العبيديَّة (الفاطمية) الرَّافضية .

٦ ـ فقه التَّمكين عند دولة المرابطين .

٧ ـ دولة الموحِّدين .

٨ ـ الدَّولة العثمانية ، عوامل النُّهوض ، وأسباب السُّقوط .

٩ ـ الحركة السَّنوسية في ليبيا .

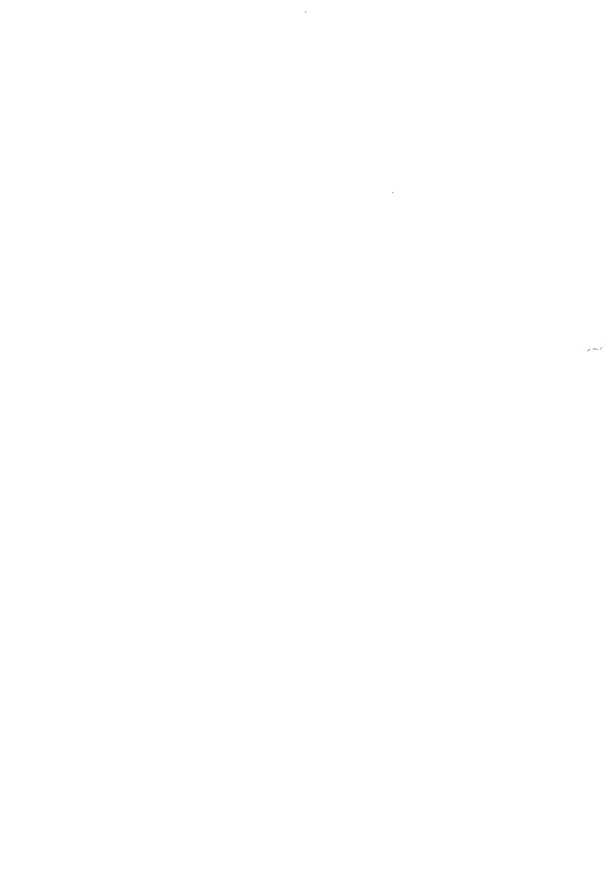
(أ) الإمام محمد بن علي السَّنوسي ، ومنهجه في التَّأسيس .

(ب) محمَّد المهدي السَّنوسي ، وأحمد الشريف .

(ج) إدريس السَّنوسي ، وعمر المختار .

١٠ ـ فقه التَّمكين في القرآن الكريم .

١١ ـ السِّيرة النبوية ، عرض وقائع ، وتحليل أحداث .



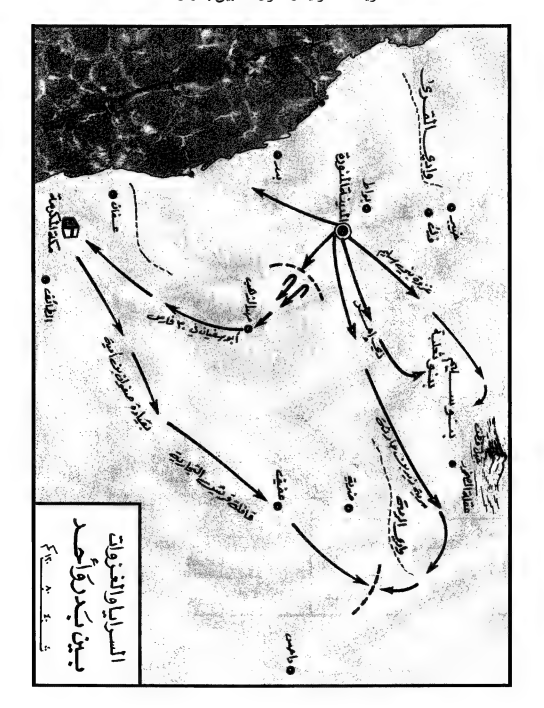






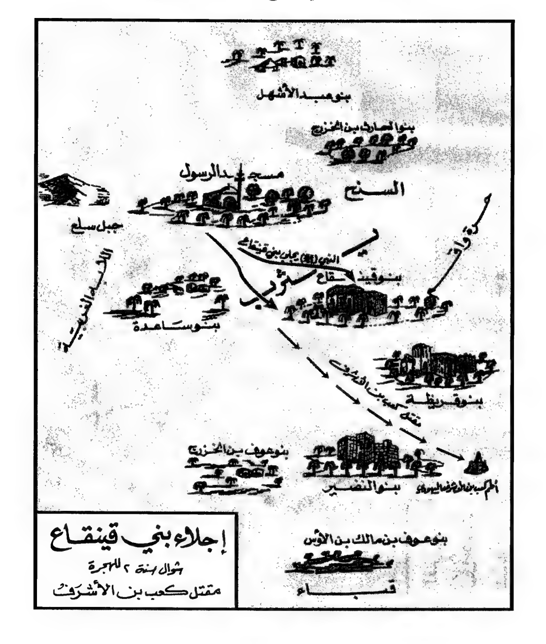
الشكل (١)

خريطة السرايا والغزوات بين بدر وأحد



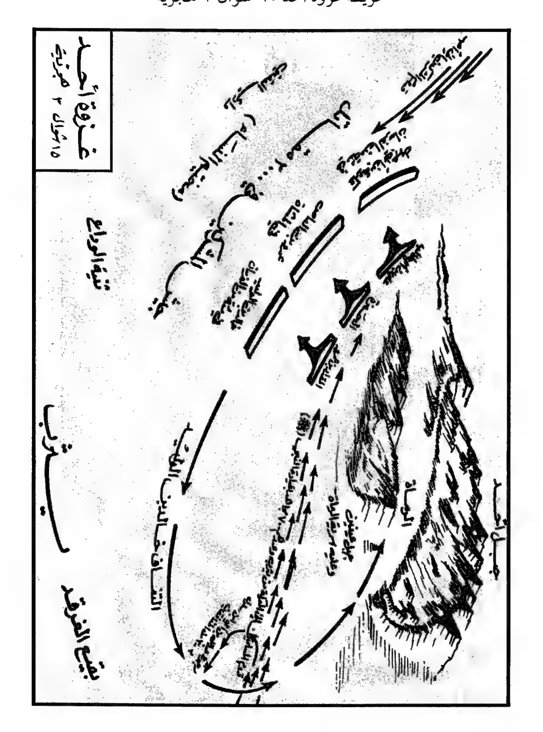
الشكل (٢)

خريطة إجلاء بني قينقاع شوال سنة ٢ للهجرة



الشكل (٣)

خريطة غزوة أحد ١٥ شوال ٣ هجرية



الشكل (٤)

رسم ساحة القتال في غزوة أحد

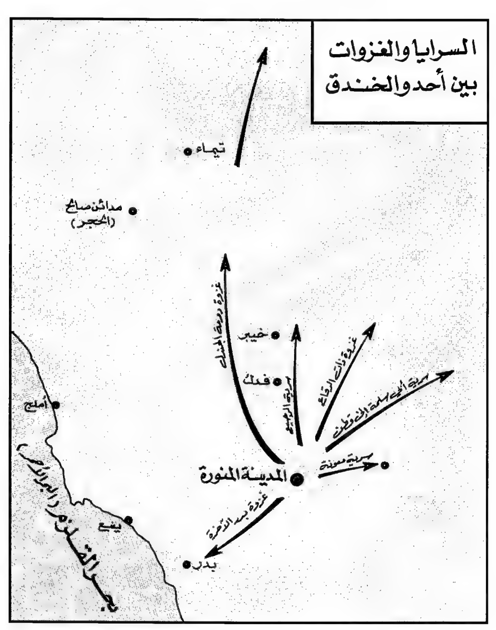


الشكل (٥)

خريطة يوم الرجيع

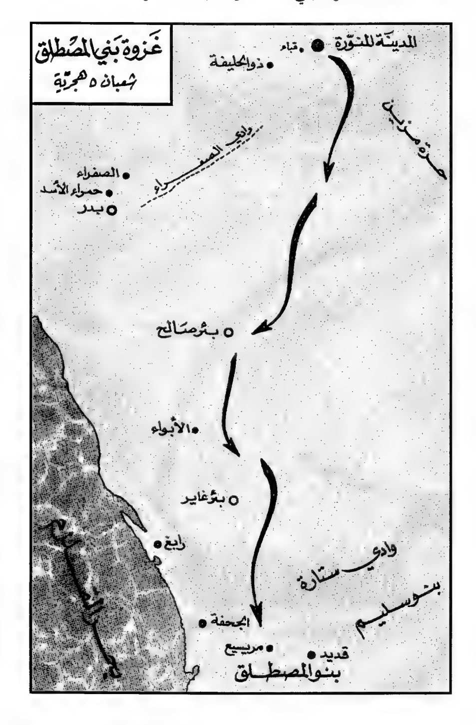
الشكل (٨)

خريطة السرايا والغزوات بين أحد والخندق



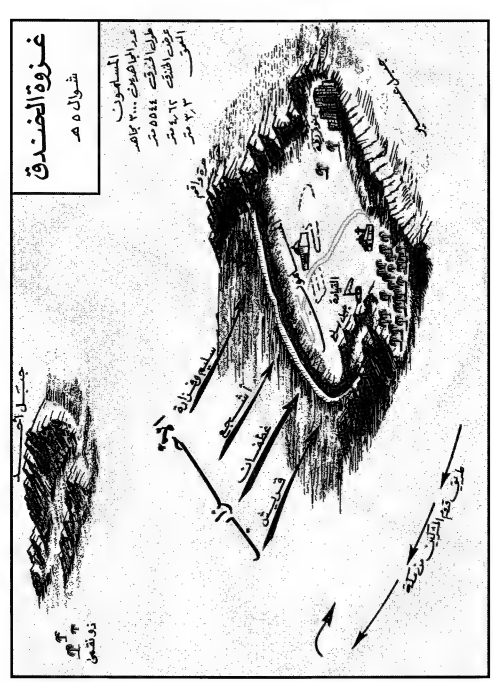
الشكل (٩)

غزوة بني المصطلق شعبان ٥ هجرية



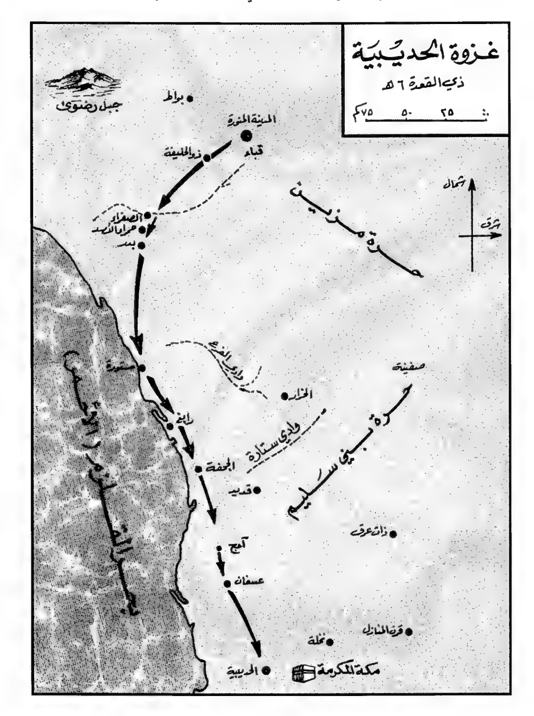
الشكل (١٠)

خريطة غزوة الخندق شوال ٥هـ



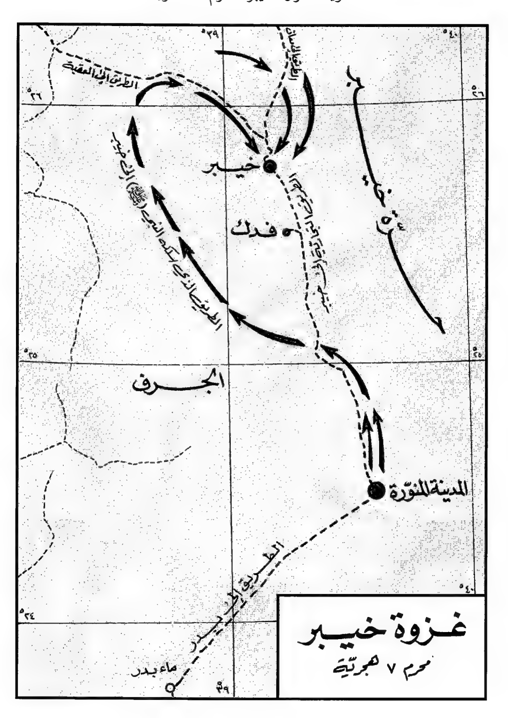
الشكل (١١)

خريطة غزوة الحديبية ذي القعدة ٦ هجرية



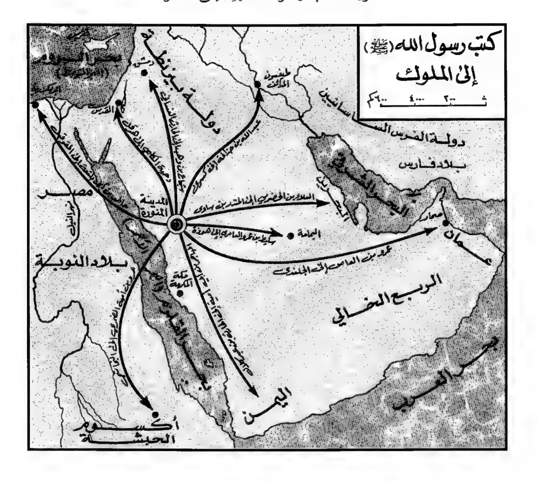
الشكل (١٢)

خريطة غزوة خيبر محرم ٧ هجرية

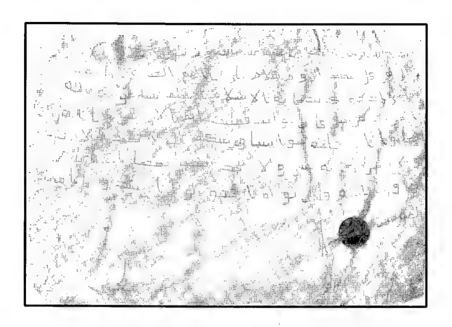


الشكل (١٣)

خريطة كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك



الشكل (١٤)



كتاب النبي ﷺ إلى هرقل

كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوى

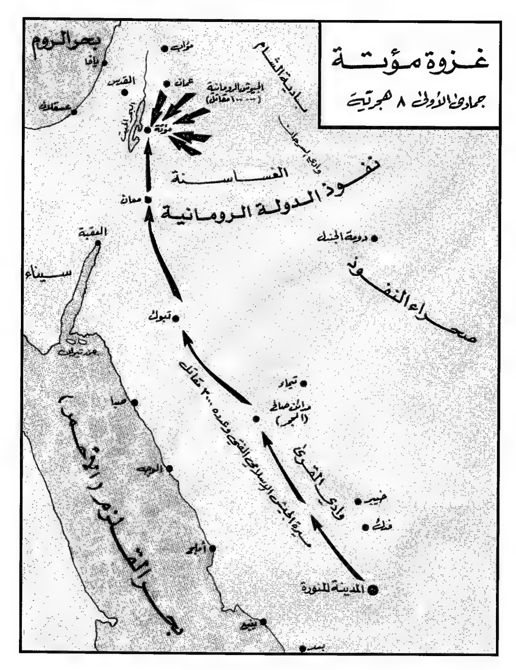
الشكل (١٥)

خريطة عمرة القضاء ٧ هجرية



الشكل (١٦)

خريطة غزوة مؤتة جمادى الأولى ٨ هجرية



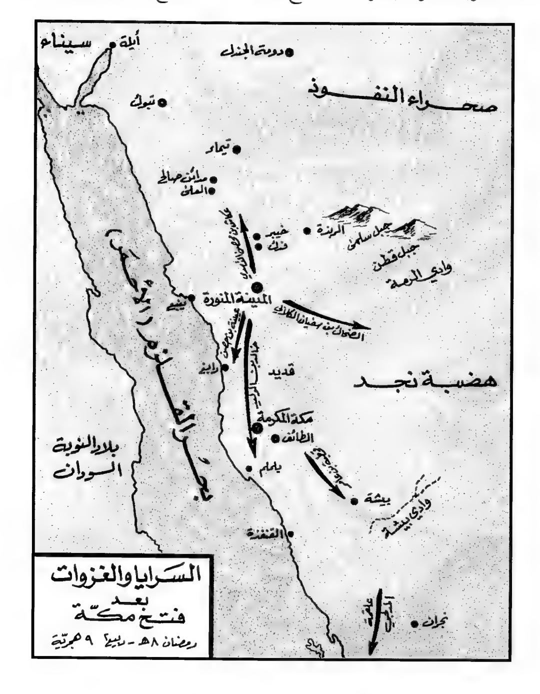
الشكل (١٧)

خريطة فتح مكة المكرمة رمضان ٨ هجرية



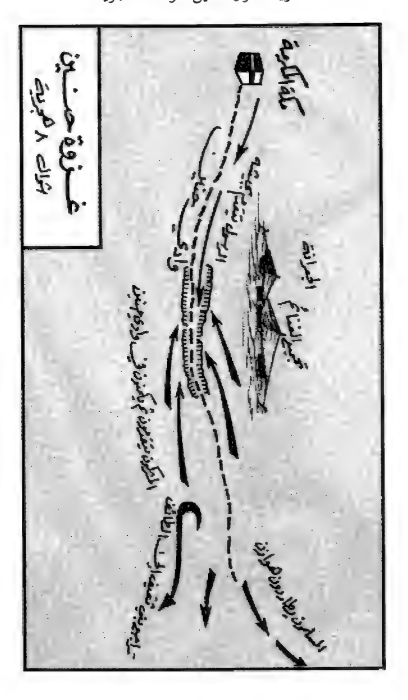
الشكل (١٨)

خريطة السرايا والغزوات بعد فتح مكة رمضان ٨هـ ربيع الآخر ٩هجرية



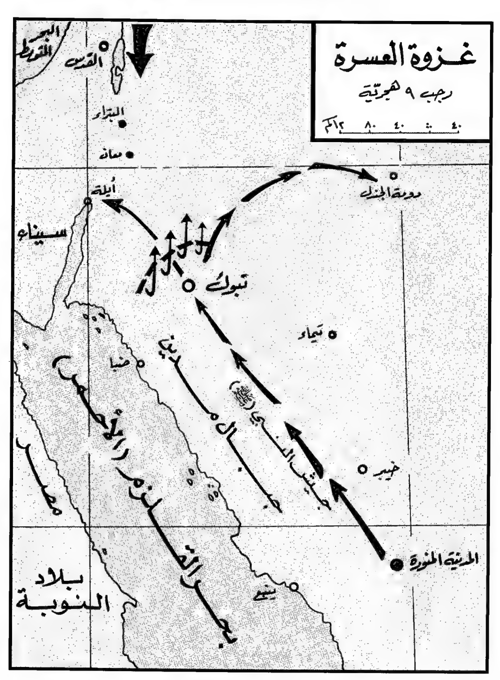
الشكل (١٩)

خريطة غزوة حنين شوال ٨ هجرية



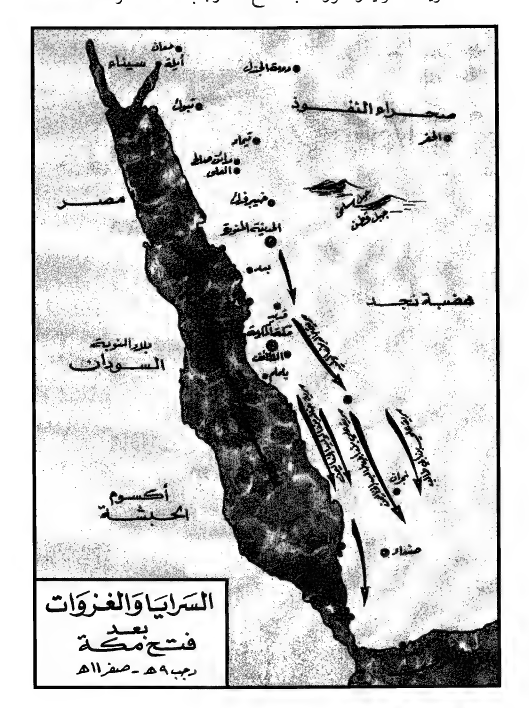
الشكل (٢٠)

خريطة غزوة العسرة رجب ٩ هجرية



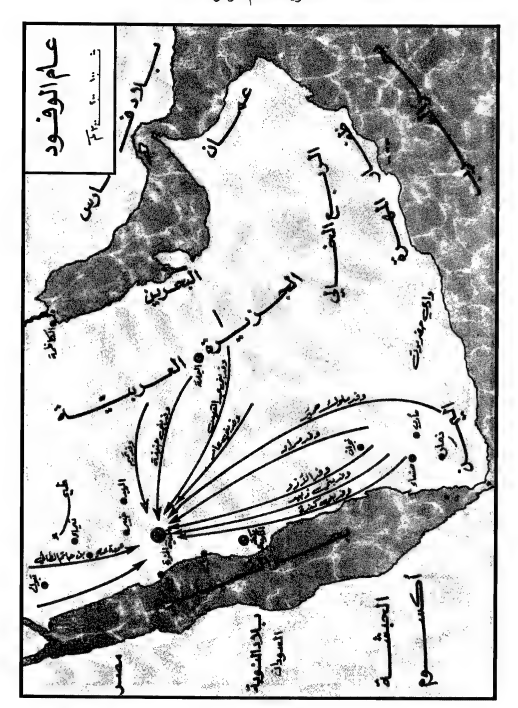
الشكل (٢١)

خريطة السرايا والغزوات بعد فتح مكة رجب ٩هـ ـ صفر ١١هـ



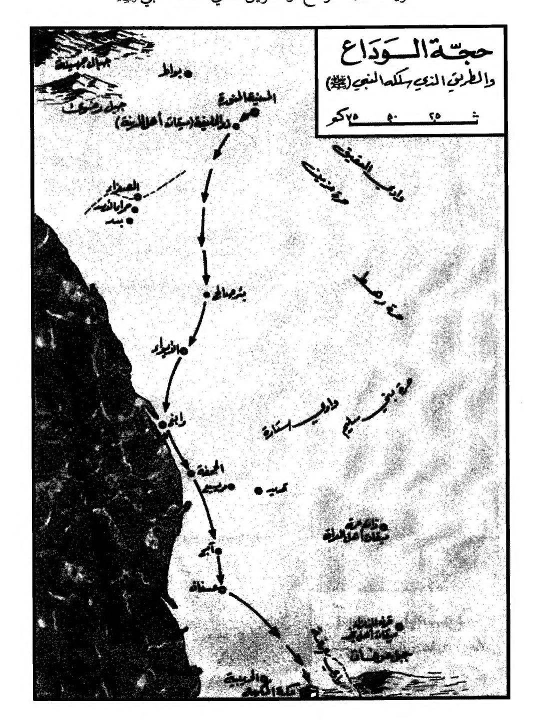
الشكل (٢٢)

خريطة عام الوفود



الشكل (٢٣)

خريطة حجة الوداع والطريق الذي سلكه النبيُّ ﷺ



الشكل (٢٤)

خريطة آخر بعوث النبي ﷺ جيش أسامة بن زيد

